أسد حيدر

الإمام الصادق

والمذاهب الأربعة

مع إضافات وتحقيقات جديدة

المجلّد الرّابع

دار التعارف للمطبوعات

الإمام الصادق
والمذاهب الأربعة

أسد حيدر

الإمام الصادق والمذاهب الأربعة

المجلد الرابع

الجزء السابع _ الجزء الثامن

دار التعارف للمطبوعات

الطبعة الأولى
١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١م

دار التعارف للمطبوعات

لبنان ـ بيروت ـ حارة حريك ـ شارع دكاش ـ بناية الحسنين

ص.ب: ٦٤٣ ـ ١١ ـ ٨٦٠١ ـ ١١

هـاتـف: ٢٧١٩٠٧ ـ ٢٧١٩٠٨ ١ ٠٠٩٦١ ـ فاكس: ٢٧١٩٠٨ ١ ٠٠٩٦١

موبايل: ٨٢٣٦٢٠ ٣ ٠٠٩٦١

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على سيد الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين ومن سار على هديهم إلى قيام يوم الدين.

أما بعد.. فقد وفقنا العلي القدير إلى طباعة الجزئين السابع والثامن من كتاب **الإمام الصادق والمذاهب الأربعة** الذي أبدعه يراع الأستاذ المرحوم العلامة المحقق أسد حيدر، بعد الإقبال الكبير الذي شهدته الأجزاء السابقة، وتهافت القراء عليه طلباً للحقيقة الكاملة، حيث ندر أن تناول كاتب واع هذا الموضوع بسعة وتجرّد، وثراء مادة ومصادر. مع الإصرار الشديد الذي بذله المؤلف رغم تدهور صحته في السنوات الأخيرة من عمره وغربته عن وطنه وضعف بصره ووهن جسده. لكن الإرادة الصلبة والرغبة في اتمام البحث دفعاه إلى تحرير هذا المجلد بجزئيه الحاضرين.

نتمنى للقارىء العزيز كمال الاستفادة منه، والانتهال من معينه، ونسأل المولى عز وجل أن يديم علينا منّه، ويوفقنا للاستمرار في نشر الكلمة السواء، التي فيها رضاه وصلاح الدارين لنا ولجميع المسلمين، إنه سميع مجيب. والحمد لله رب العالمين.

الناشر

الجزء السابع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ۝ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾

[آل عمران: ١٩٣ و١٩٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

تقديم:

كان تأخر صدور هذا الجزء من كتابنا (الإمام الصادق والمذاهب الأربعة) ـ وهو السابع ـ فترة انقطاع بيننا وبين القراء، لم تكن مقصودة وكنا ننوي أن يكون الجزء السابع نهاية البحث وخاتمة المطاف في سفر كلّفنا ثمناً غالياً من الجهد والعناء، وقد خفف عنا ما لقيه من استجابة وإقبال لدى القراء، كم حاولت أن أتخطى عوائق العمل، وأذلل ما أواجه من صعاب لمواصلة وإكمال البحث فيه، ليخرج هذا الجزء إلى أيدي القراء قبل هذا الوقت، إلا أن العوائق تلك والصعاب كانت تزداد اتساعاً وتعقيداً، وها أنا ذا أزاول نشاطي لإكمال السلسلة، فأتناول أهم الأبحاث المخصصة للحديث عن كل واحد من أئمة المذاهب الأربعة بإيجاز استكمالاً لما سبق واستدراكاً لأمور لم نذكرها، إذ لم نتعرض لها من قبل كمعرفة الأولاد والأحفاد، والوقوف على بعض الآثار والآراء وأمور فكرية وفقهية أخرى مما يضيق بها حيز الجزء السابع فأتبعناه بثامن.

نرجو الله أن يكون به كمال الفائدة ونهاية القصد. وقد آثرت تأخير الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام لما يتطلبه ذلك من إفاضة في بعض الأمور كالإشارة إلى أولاده وأحفاده الذين ورثوا مدرسته، وما يتعلق بذلك من استطراد يقتضيه البحث في الحديث عن الطائفة الإسماعيلية التي تنسب إلى إسماعيل ابن الإمام جعفر بن محمد الصادق، وما يحيط حياته من ملابسات، وما وقع في ذلك من اختلاف.

وألتزم هنا نهج البحث في عوامل التعصب الطائفي وأسباب الخلاف المذهبي كمشكلة تاريخية سببت الفرقة بين المسلمين وفككت وحدتهم وباعدت بينهم، وقد خصصت في الأجزاء السابقة من الكتاب حيزاً كبيراً لدراسة نتائج التعصب وعوامل قيامه، وأوضحت ما علق بفعل ذلك في أذهان الناس من أمور تسيىء إلى مفهوم الانتماء إلى المذاهب وغلبة نزعة العداء على جوهر المبادىء، حتى أدى ظاهر الالتزام بها إلى الخروج عن ميزان الشرع، وحدوث انعكاسات سلبية على المجتمع فأحدثت خللاً فيه، إذ خرجت المنازعات عن حدود التوازن الفكري أو الخلاف الواعي، فتعددت حدود الاستقامة والاعتدال - في السلوك والتصرف - إلى الاعتقاد، حتى أصبح النص الوارد في الكتاب (عند بعضهم) لا يعمل به إن خالفه رئيس المذهب الذي أصبحت أقواله سنة، ومخالفته بدعة، وعدم اتباعه كفراً، حتى قالوا أن الكتاب تنسخه مخالفة أقوال علماء المذهب، يقول الكرخي[١]: «الأصل أن كل آية تخالف قول أصحابنا فإنها محمولة على النسخ، أو على الترجيح والأولى على التأويل، من جهة التوفيق. الأصل أن كل خبر يجيىء بخلاف قول أصحابنا فإنه يحمل على النسخ، أو يحمل على أنه معارض بمثله، ثم صار إلى دليل آخر أو ترجيح فيه، بما يحتج به أصحابنا من وجوه الترجيح، أو يحمل على التوفيق»[٢].

ويبين لنا هذا النص مدى الارتباط بالمذهبية والالتزام بأقوال الأئمة حتى وإن خالفت الواقع، ويخضعون الكتاب لموافقة أقوالها، وإذا امتنع النص القرآني فإنهم ينسخون ويعملون بما جاء عن أصحاب المذاهب «فهم مدفوعون وراء المذهبية تعصباً، ويطرحون الدليل ويأولونه تأويلاً بعيداً لا يتفق مع الحقيقة. فهذه هي المذهبية التي يبغضها الله ورسوله»[٣].

ولقد أدت شؤون الحكم ومقتضيات السلطان إلى تبني التمذهب وجعل الرئاسة في الفقه من أعمدة السياسة، فتأثر - تبعاً لمواقف الملوك والحكام، وجود ونشاط

---

(١) عبيد الله بن الحسن أبو الحسن الكرخي. ولد سنة ستين ومائتين، ومات سنة أربعين وثلاثمائة، انتهت إليه رياسة الحنفية، كان من المجتهدين في المسائل على مذهب أبي حنيفة، وله المختصر وشرح الجامع الصغير وشرح الجامع الكبير.

(٢) الدكتور مصطفى سعيد الجن، نقلاً عن أصول الكرخي، ص٨٤ القاهرة ١٩٧٢.

(٣) الدكتور مصطفى سعيد الجن، أثر الأخلاق في القواعد الأصولية، ص٩.

وانتشار المذاهب إذ لم يجرِ الحكام على مذهب بعينه، وإنما يتقرر ذلك بحسب الظروف والملابسات وعوامل النفوذ والغلبة سيما وإن العالم الإسلامي بات مسرحاً للقوة يشهد نتائج الغلبة على شكل دول ووزارات وجيوش. ولا بد أن يكون القضاء ـ وهو من أكثر الوظائف استقراراً لأصوله المعروفة وأهميته في حياة الناس ـ من أوليات شؤون السلطان التي تتسرب إليها موجات التمذهب، وتتطلع إليها الرغبات، فحصرت بعد زمن بالمذاهب الأربعة، وسارت الأمور على الاستعانة بما كان من مقتضيات السلطان في الأساس، وهو تحديد المراتب الفقهية والمراجع في أشخاص بأعيانهم.

يحكى عن أبي زرعة ـ تلميذ البلقيني ـ أنه سأل أستاذه عن المانع للشيخ تقي الدين السبكي عن الاجتهاد وهو جامع للشروط. فسكت البلقيني ولم يجب. فقال أبو زرعة: «فما عندي ان الامتناع عن ذلك ليس إلا للوظائف التي قدرت للفقهاء على المذاهب الأربعة، وإن من خرج عن ذلك واجتهد لم ينل شيئاً من ذلك، وحرم ولاية القضاء، وامتنع الناس عن استفتائه، ونسبت إليه البدعة. فتبسم ووافقني على ذلك».

وامتد تأثير ذلك لينعكس على نهج التعامل مع وقائع التاريخ وروح المبادىء، فراح أغلب المؤرخين ينقادون للنزعة الطائفية المشبعة بالعصبية الأقليمية أو القبلية معتمدين على الخرافات والادعاءات التي تؤجج نار الفرقة وتزيد الانقسام، لتطغي حدة الخلاف على الحقيقة، وتدفع الأمور في مسار لا يخضع لمنطق ولا يأبه بالشواهد إرضاءً لرغبة الحكام، وتزلفاً لذوي السلطة، وبذلك عجّ التاريخ بما نجم عن تلك النزعات، فأصبح البحث عن الحقيقة والتوسل إلى استخلاص الواقع، أو استنباط الجوهر محاطاً بعوائق وصعوبات، بعد أن أدى تقادم الزمن واستمرار القناعة بما صدر عن مصادر التعصب وجهات الانقسام، إلى أن تكتسب شكلاً ثابتاً يقف بوجه موجات الوعي التي تنمو بين شبابنا المسلم المتصف بروح العلم والموضوعية.

لقد كان التحيّز في طرح مواضيع لها أهميتها لتعلّقها بحياة المسلمين وتفاصيل وجودهم هوية الباحثين المرتبطين بالسلطة، وكانت نبرة الفرقة ودعوة الانقسام، بطاقة الدخول إلى عالم القصور والرفاه السلطوي، وبذلك ارتكب هؤلاء جناية على أجيالنا إذ تنصلوا من مهمات الباحث ومسؤولياته، وتخلوا عن أصول الأمانة في نقل الأحداث وتصوير الظروف والعوامل، فساقوا الآراء دون تمحيص أو تقدير لمرحلة أو وضع تاريخي معين. وأنّى لنا الحصول على نهج تاريخي يراعي مصلحة الأمة ويقدّر

ضرورات الدين أو الدّعوة، ما دامت أهواء السلطة والتحكم كامنة وراء ما يصدر عن الباحثين.

ورغم ذلك، لم يتعدّ الخلاف بين المسلمين المسائل الثانوية والفقهية، إذ لم يكن الخلاف يوماً في التوحيد أو الكتاب أو السنة، فهم بحمد الله متفقون على توحيد الله وعلى كتابه، ومجمعون على أن ما بين الدّفتين هو القرآن بدون زيادة أو نقصان، ولم يختلفوا في وجوب الأخذ بسنة النبي ﷺ وإن اختلفوا في الفهم أو التفسير، أو توقفوا في تحقيق الطريق الموصل إلى أخذ الحديث صدر عن الرسول أو لم يصدر.

ولقد هيأ الله لهذه الأمة علماء جنّدوا أقلامهم لمواجهة نتائج دعوات التعصب والانقسام، فكتب الكثير منهم في ذلك حرصاً على سنة النبي ﷺ ومنعاً لأيدي العابثين من الوصول إليها، ودحضاً للكذابين والجهال.

وقد ركزنا في البحث حول الخلافات المذهبية والنزعات الطائفية التي أدت إلى الفتنة والشقاق، فعطلت قوى الأمة وشلّت طاقاتها.

وإذا كان التاريخ الإسلامي قد شهد منذ فجر الدعوة بذور الفرقة والشقاق، فإننا لا نود أن نتعرض في بحثنا إلى مجريات عهد الخلافة وآثار الخلافات على المجتمع الإسلامي، وبروز النزعات الشخصية والمصالح الذاتية. ولا للخصومة في مرتكب الكبيرة وغيرها. وإنما بحثنا في المذاهب واتساع عوامل الفرقة والخلاف التي أدت إلى فتن غذّاها الاختلاف في الأراء، وما رافق ذلك من مهاترات وخصومات تطورت إلى حروب سالت فيها دماء، وأهينت كرامات، وانتهكت حرمات.

وقد رأينا فيما سبق من أجزاء البحث، كيف تضافرت عوامل عديدة على إثارة المشاكل، وكيف وقعت الأمة في امتحان قاسٍ، وقد كانت ظروف الفتنة وشيوع الاضطراب، فرصة للجهلة والغوغاء من الناس للظهور واحتلال مواقع، فيما اضطهد المفكرون وكمّت أفواههم، ونورد هنا قول العلامة المصلح الشيخ محمد عبده الذي يعكس هذا الظرف فيقول: «والسبب في بقاء قوة سلطان الخلاف والنزاع هو تفشي الجهل، وتعصب أهل الجاه من العلماء لمذاهبهم التي ينتسبون إليها، ويجاهها يعيشون ويكرمون، وتأييد الأمراء والسلاطين لهم، استعانة بهم على إخضاع العامة، وقطع طريق الاستقلال العقلي على الأمة. لأن هذا أعون على الاستبداد، وأشدّ

تمكيناً لهم مما يحبون من الفساد والإفساد. فاتفاق كلمة علماء الأمة واجتماعها على أن الحق كذا بدليل كذا ملزم للحاكم باتباعهم فيه، لأن الخواص إذا اتحدوا اتبعهم العوام، وهذه هي الوسيلة الوحيدة لمنع استبداد الحكام، فالدّين يأمر برفع الشقاق والتنازع وبالاعتصام بحبل الوحدة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟﴾ وقول النبي ﷺ: «ولا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم أعناق بعض».

ثم يقول المرحوم الشيخ محمد عبده: وقد خالفنا كل هذه النصوص، فتفرقنا وتنازعنا، وحارب بعضنا بعضاً باسم الدين، لأننا سلكنا مذاهب متفرقة، كل فريق يتعصب لمذهبه، ويعادي سائر إخوانه المسلمين لأجله، زاعماً أنه بهذا ينصر الدين، وليس في ذلك إلا خذلانه بتفريق كلمة المسلمين، هذا سنّي يقاتل شيعياً، وهذا شافعي يغري التتار بحنفي، وهذا حنفي يقيس الشافعية على الذمية»[(١)].

ويقول السيد رشيد رضا: «حتى أن من اتباعهم (أي أئمة المذاهب) من قدّمهم على الأنبياء عند تعارض كلامهم مع الحديث الصحيح، فإنهم يردّون كلام النبي المعصوم ـ مع اعتقاد صحة سنده ـ بقول نقل عن إمامهم، ويتعللون باحتمالات ضعيفة»[(٢)].

ولا أملك أن أستطرد دون أن أشير إلى أن هذا القول هو تعبير عن واقع يأتي مصحوباً بخروج عنه، وميل إلى ما استنكر فيه، إذ أن السيد رشيد رضا شهد فترة نضج جهود المصلحين المحدّثين، وتبلور أفكار الوعي، غير أنه أسهم هنا وهناك فيما يخالف اتجاه التحرر من التعصب ونهج التحقق والبحث اللذين اتسم بهما فكر الفترة الدينية التي يتصدرها المرحومان السيد جمال الدين الأفغاني وتلميذه الشيخ محمد عبده، والذي تلاقح وتمازج مع تيارات الوعي ودعوات الوحدة الإسلامية.

وهناك صور من حالات الانقسام والشقاق ذكرها ابن قدامة: «ففي طرابلس الغرب، ذهب بعضهم إلى المفتي وقال له: اقسم المساجد بيننا وبين الحنفية، لأن فلاناً من فقهائهم يعبر عنا كأهل الذمة، بما أذاع في هذه الأيام من اختلاف الأحناف

---

(١) ما لا يجوز فيه الخلاف بين المسلمين ص٦٥ ـ ٦٦.

(٢) انظر مقدمة المغني لابن قدامة.

في: هل يجوز للحنفي أن يتزوج الشافعية؟ فقال بعض الأحناف: لا يصح لأنها تشك في إيمانها، لأن الشافعية يجيزون أن يقول المسلم: أنا مؤمن إن شاء الله. وهذا يدل على عدم تيقنها في إيمانها في الله، والإيمان لا بد له من اليقين.

وأن بعض الأتباع سمع رجلاً يصلي مأموماً يقرأ الفاتحة، فضربه بيده على صدره ضربة قوية وقع منها على ظهره وكاد يموت. وأن بعضهم كسر سبّابة رجل لأنه رفعها في التشهد، بفتوى أحد علماء الحنفية ـ وهو الكيداني ـ بحرمة رفع السبابة، واعتبروا ذلك نصاً إلٰهياً، وحكماً قطعياً فمن خالفه عوقب على جريمته»[(١)].

ويذكر العلامة العز بن عبد السلام الشافعي في أمور الأخذ بما فيه اختلاف، وأن لا بأس بفعل أو ترك ما لا ينقض الحكم الشرعي: أن الناس لم يزالوا على ذلك يسألون من اتفق من العلماء من غير تقييد بمذهب ولا إنكار على أحد من السائلين، إلى أن ظهرت هذه المذاهب ومتعصبوها من المقلدين، فإن أحدهم يتبع إمامه مع بُعد مذهبه عن الأدلة مقلداً له فيما قال، فكأنه نبي أرسل إليه. وهذا نأي عن الحق، وبُعد عن الصواب لا يرضى به أحد من أولي الألباب.... الخ[(٢)].

ويقول التاج السبكي: ولقد رأيت في طوائف المذاهب من يبالغ في العصبية بحيث يمتنع بعضهم عن الصلاة خلف بعض إلى غير هذا مما يستقبح ذكره، ويا ويح هؤلاء أين هم من الله. ولو كان الشافعي وأبو حنيفة رحمهما الله حيين لشددا النكير على هذه الطائفة[(٣)].

كما يذكر ابن قدامة أن أربعمائة قاضٍ حنفي وشافعي هاجروا فراراً من تحكم الغوغاء. وحدثت بدمشق عدة حوادث بين الشافعية والحنابلة، وبين الشافعية والحنفية، كل ذلك بسبب الطعن في المعتقدات لأمور تافهة. فمثلاً أن ابن القشيري ـ وهو أحد علماء الشافعية ـ يدخل بغداد، ويرقى المنابر للوعظ، فتقوم قائمة الحنابلة، وتقع بينهم وبين الشافعية فتنة، وبسبب ذلك يسجن بعض العلماء لإطفاء نارها.

وفي سنة ٤٢١هـ جرى بين بعض الأتراك وبعض الهاشميين منازعة، فاجتمع

---

(١) المصدر السابق.
(٢) انظر عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد للدهلوي ص١٢.
(٣) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للسخاوي ص١٣٠ و١٣١.

الهاشميون ومن والاهم من الشيعة وغيرهم في مسجد المدينة، ورفعوا المصاحف واستفزوا الناس، فاجتمع لهم العدد الكبير من الكرخ. واجتمع الأتراك وهم جند الدولة وأعيان بغداد في ذلك اليوم واشتد القتال بين الطرفين[1].

ولا يخفى دور السلطة فيما يحدث، وأن الفتن التي تجري ـ وما يتخللها من نيل من مقامات العلم، وتعدٍ على أصحاب المكانات الدينية ـ من صنعها، فينحاز الحكام إلى طرف دون آخر. في حين يعلم أن ذلك من تعاطي السفهاء ـ كما ينص ابن كثير في وصفهم ـ وإلا كيف يضرب خطيب جامع بالآجر ويكسر أنفه ويخلع كتفه؟ ولماذا يقبل آخرون على أناس يحيون ذكرى عاشوراء بالحديد، فيقتتلون اقتتالاً شديداً، ويقتل من الفريقين طوائف كثيرة، وتجري بينهم فتن وشرور مستطيرة.

ويحدثنا ابن الجوزي في حوادث سنة ٤٩٤هـ أن السلطان قتل خلقاً من الباطنية يبلغ عددهم ثلاثمائة ونيفاً، وكتب بذلك كتاباً للخليفة، فتقدم بالقبض على قوم يظن فيهم ذلك المذهب، وزاد تتبع العوام لكل من أرادوا، وصار كل من في نفسه شيء من إنسان يرميه بهذا المذهب، فيقصد وينهب[2].

كما وقع كثير من الفتن بين الناس بسبب اختلاف الآراء بين العلماء من فقهاء ومفسرين، فبدلاً من أن تعقد المجالس لرفع ذلك الالتباس وإزالة الخلافات، أصبحت مثار فتن وسبباً لتدخل الغوغاء وأصحاب الأهواء الفاسدة، المندسّين في صفوف المسلمين.

وقد حدث أن اختلف الحنابلة وغيرهم من السنة في تفسير قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ فقالت الحنابلة أن المقصود من هذه الآية أن يُقعد الله نبيه على عرشه. وقال غيرهم: أن المقصود هو الشفاعة، واحتدم الجدل، واتسع النزاع بسبب ذلك الخلاف، واقتتل الحنابلة مع خصومهم[3] إذ كانت لهم القوة في بغداد لمساندة السلطة لهم والتفاف العامة حولهم وانضمام كثير من الجند إليهم. وقتل منهم قتلى كثيرة، وكان جماعة أبي بكر المروزي أبطال هذه الفتنة[4] واعتمدوا على القوة.

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ج١٢ ص٢٦ و٢٨.

(٢) المنتظم ج٩ ص١٢٠.

(٣) السيوطي، تاريخ الخلفاء ص١٥٤.

(٤) الكامل لابن الأثير ج٨ ص١٣٢.

واستمر مدة من الزمن يرهبون قلوب الناس، ويتعرضون بالشرّ لغيرهم من الطوائف، وإغراء بعضهم بعضاً. مما حمل الخليفة الراضي على إصدار منشور في ردعهم بالقتل إن لم يرجعوا عن غيّهم(١).

ومن الملاحظ أن هذا المنشور قد أوقف نشاطهم. عن إثارة الفتن والوقيعة بغيرهم، وخفف عن الناس بعض تلك الشرور التي لحقتهم بفعل التعصب لعقائد في التجسيم وأراء واهية مشبهة تجعل الله كالمخلوقات والمحدثات، ومن نيل لمقامات الأولياء ومظاهر الاحتفال بسيرهم. وكان الراضي صريحاً في إعلانه وشديداً في بيانه وقد توعّدهم في ختامه بالعقوبات الصارمة. ومما جاء في منشوره: «ثم استدعاؤكم المسلمين إلى الدين بالبدع الظاهرة والمذاهب الفاجرة التي لا يشهد بها القرآن، وإنكاركم زيارة قبور الأئمة وتشنيعكم على زوّارها بالابتداع، وأنتم مع ذلك تجتمعون على زيارة قبر رجل من العوام... الخ» ومضمون البيان يعبّر عن عودة إلى أصول الحق وقواعد التفكير السليم.

وفي أحضان الحكام والمتنفّذين، نشأ التعصب عنيفاً، وغدا من أسلحتهم الفتاكة، فاستغل الحنابلة وجود من يتعصب لمذهبهم في فترة ردود الفعل وانعطاف الخلفاء الحكام لاستمالتهم في مواجهة آثار التطرف والتجاوز التي ارتكبت من المعتزلة عندما ركنوا إلى السلطان وتناءوا عن مصادر الفكر. فكان الوزير يحيى بن محمد بن هبيرة حنبلياً متعصباً لمذهبه، فنعموا في ظل سلطته، وتصرفوا في أمور لا يسوغ لهم الدخول بها. ولم تعدم المذاهب الأخرى من مناصرين لها باستعمال سلاح التعصب والطائفية، فكان من يعهد إليه بوظيفة يوجه جهوده لنصرة مذهبه، والتحامل على غيره. فكان مرجان الخادم شافعي المذهب، تعصب على الحنابلة، وكان بينه وبين الوزير بن هبيرة عداء لأنه حنبلي ويتعصب لهم، كما نصب العداء لابن الجوزي، ـ وهو عالم الحنابلة والمبرز في عصره ـ وكان في عصرهما الأمير محمد بن موسى التركي أمير دمشق ـ وهو حنفي المذهب ـ ويتعصب للحنفية تعصباً مفرطاً، ويعادي بقية المذاهب، وبالأخص الشافعية، وكان يعلن بأنهم ليسوا من المسلمين، ويقول: لو كانت لي الولاية لأخذت من الشافعية الجزية(٢) وعندما برز الوزير نظام الملك في

---

(١) ابن مسكويه، تجارب الأمم ج١ ص٣٢٢.

(٢) ابن كثير ج١٢ ص١٧٥.

محافل الملوك لم يقدر على تحقيق السيادة للشافعية، والحدّ من تعصّبات الجماعات التي عكفت على حسّ المعاداة، فكان يختار من العلماء من يستشعر فيه القدرة والمنزلة، ويبعثه إلى بغداد. ولكن الحنابلة كانوا لا يترددون عن استخدام الشتم والسب، ودفع الأمور إلى الاضطراب والهياج. وقد تكلمنا غير مرة عن الأسباب التي أدت بالمسلمين إلى هذه الحالة التي أصبحوا عليها من تباعد وتباغض وتراشق بالكفر والزندقة.

ولنمضي قليلاً مع ألوان الأحداث وصور المجتمع وهو يقاسي الفرقة، وما أحدثه التعصب من تباعد وعداء وتباغض تسيىء إلى رابطة العقيدة، وتبعد عن روح الإسلام ونظمه التي تجعل لكل حقه، وقد كان أبطال التعصب ودعاة الفرقة وجنود الشغب يتعاهدون عوامل معينة بالرعاية، ويعملون على إذكائها ويحاربون كل ما من شأنه العودة إلى روح الدين وفضح البواعث وكشف الدوافع التي تقف وراء تلك الأحداث.

فهي إذا ما قامت من مستوى السلاطين، تلونت بحسب الرغبات ومصالح الحكم التي تمحورت حول أغراض ضيقة وغايات خاصة، وهي إذا ما بدرت من أصحاب المواقع على اختلافها وهيئاتها، كانت ستاراً للإبقاء على واقع التمتّع والنفوذ، فيما نرى الناس تكتوي بنار الفرقة، ويتمزّق كيان المجتمع الإسلامي، وتسود روح من العداء التي تنكرها أبسط روابط الإنسانية، فكيف إذا كان الأمر بين أقوام وطوائف تجمعهم كلمة التوحيد، ويفترض أن تشدّ قلوبهم وتجمعها شريعة النبي المصطفى محمد ﷺ.

وسنعرض فيما يلي بإجمال بعض العوامل الكثيرة الأخرى:

١ ـ الجمود الفكري

فقد ضمن الإسلام بمبادئه وقيمه وضعاً فكرياً يؤدي إلى تطور حالات الإنسان وتقدمه الحضاري، ويدفع بمن امتلك قدرة الفكر وموهبة العلم إلى اغتراف مناهل المعرفة والأخذ بمضامينها، فكان التفاعل الفكري والعطاء العلمي سمة المجتمع في صدر الإسلام، وصفة الدعوة المحمدية التي بدّلت أوضاع الإنسانية، وأحدثت الثورة في حياة الشعوب التي آمنت بها وانشدّت إليها.

وكان التطور الفكري مقياساً أساسياً في التعامل الحياتي والوجود الإنساني للمجتمع المسلم، حتى إذا حدثت الفرقة بعد استحكام النزعة الطائفية، واستفحال التعصب المذهبي، برزت عناصر كثيرة تقف بوجه ذلك التطور والتقدم الفكري، إذ لا يمكن للآراء المنحرفة والدعاوى الفارغة أن تجد لها موقع قدم أمام ما بلغه المسلمون من مستوى فكري. فكان الجمود العقائدي أو الفكري أقرب إلى الجهلة وذوي الأغراض والأفكار المنحرفة، وأنفع لهم، فلقي المفكرون ضروباً من المقاومة الشديدة والجفاء الظاهر، لكي يعطل وعيهم، ويبعد أثرهم، وتتاح لأولئك الذين يعملون على نشر الفرقة الفرصة ليغطوا جهلهم، ويحققوا لأنفسهم مكانة على حساب وحدة المسلمين ومصلحتهم.

ونحن عندما نستعرض جوانب وصوراً من هذا الواقع ـ بعد قرون طويلة ومراحل متعددة ـ نرمي إلى كشف عوامل ذلك وعواقبه في مرحلة يتصاعد فيها وعي نشئنا المسلم وأجيالنا الواعية، حتى يتبينوا واقع الدعوات والتيارات التي تحاول تجديد تلك الفرقة، وإعادة ذلك الخلاف بعقليات متحجّرة ودعوات متخلّفة، لا تختلف في دوافعها وحقيقتها عن عوامل وأسباب قيام الفرقة في المراحل الأولى من التاريخ الإسلامي.

والدعوة الصادقة تبقى محتفظة بتأثيرها ونقائها، ودعوات الفرقة مفضوحة مهما تلبّست ستار العلم أو برقع الثقافة، وإسهاماً في تحمل مسؤولية نشر الألفة والمحبة، نبعد عن التحامل على أحد، ولا نتجاهل واقعاً نقف عليه، أو برهاناً يفرض نفسه. فالتزام النظرة الصائبة والدعوة الصادقة يجعل ترسّبات الماضي موضعاً للانتقاء والاختيار، فيهمل ما كان منه مشوباً بهذه الصفحات، ويعتمد ما كان منها مدعاة للوحدة والائتلاف.

لقد عصفت بالمجتمع الإسلامي عواصف الخلاف، وظهر التصدّع في الصفوف بعد أن مني الإسلام بداء عصبية عمياء، ومذهبية ما أنزل الله بها من سلطان، وكثرت عوامل الخلاف، وقويت شوكة الجهلة عندما حورب العلماء، ورمي الفلاسفة بوجه عام بالزندقة، وتشعّبت فروع ذلك، وأصبح المجال واسعاً لزرع بذور الفرقة، وكثر الصراع في مسائل افترق المجتمع حولها، فتفرّقت الكلمة، فمنها الجمود الفكري. والجمود الفكري ـ كما تقدم ـ كظاهرة قوية في هذا الواقع المؤلم، بعد أن جعل الإسلام حرية الفكر نبراساً للعقول والأفهام، وطريقاً للاهتداء إلى عالم الحق، وأصبح المفكرون في نظر ذوي الجمود وفي نظر من آثر التسرّع في الحكم على الأشياء قبل معرفتها، لعجزه عن المجاراة والمساهمة في حركة الفكر أهواء أو زندقة، فذهبت الدعوة الصادقة ضحية الحجر على حرية العقل، أو نتيجة الجمود الفكري الذي أقرّته سلطات جائرة وأوضاع منحرفة وتدخلات مختلفة، فكان ذلك حائلاً دون تمتع الناس بحقوقهم.

وكان الذين يلتزمون نهج التحرّر الفكري والاحتكام إلى العقل كالشيعة والمعتزلة وغيرهم من رجال الفكر قد لاقوا في سبيل حرية الفكر بلاءً، وواجهوا محناً، لأنهم لم يحجبوا نور العقل بظلمة التبعية العمياء، فربطوا بينهم وبين من شذّ في علم الكلام عن النهج القويم، وذلك عندما أقبل المسلمون على دراسة الكتب المنقولة من كتب الأوائل من: منطق ورياضيات وطبيعيات والعلوم الإلهية والطب والحكمة العملية وغيرها من علوم الأوائل التي نقل شطر منها في عهد الأمويين، ثم أكمل في عهد العباسيين. فقد ترجموا مئات الكتب اليونانية والرومية والهندية والفارسية والسريانية إلى العربية، وأقبل الناس يتدارسون مختلف العلوم، ولم يلبثوا كثيراً حتى استقلوا بالنظر، وصنّفوا فيها كتباً ورسائل، وكان ذلك يغيض علماء

الوقت، ولا سيما ما كانوا يشاهدونه من تظاهر الملاحدة والدهريين، والطبيعية والمانرية الخ[1].

ومن المظاهر المؤلمة ما تعرّض له أبو جعفر بن جرير الطبري ـ صاحب التاريخ والتفسير المشهورين ـ سواء في حياته أو في مماته، فنحن نعلم أن للأموات حرمة، ولأن كانت غريزة الكره والحقد تجد مجالها بين الأحياء، فإن ارتحال الطرف الآخر كافٍ للكفّ عن استمرار الغرائز الملتوية. يقول ابن كثير: «ودفن في داره لأن بعض عوام الحنابلة ورعاعهم منعوا من دفنه نهاراً، ونسبوه إلى الرفض. ومن الجهلة من رماه بالإلحاد، وحاشاه من ذلك كله. بل كان أحد أئمة الإسلام علماً وعملاً بكتاب الله وسنة رسوله، وإنما تقلدوا ذلك عن أبي بكر محمد بن داود الفقيه الظاهري، حيث كان يتكلم فيه ويرميه بالعظائم وبالرفض. ولما توفي اجتمع الناس من سائر أقطار بغداد، وصلوا عليه بداره، ودفن بها، ومكث الناس يترددون إلى قبره شهوراً يصلون عليه. وقد رأيت له كتاباً جمع فيه أحاديث غدير خم في مجلدين ضخمين، وكتاباً جمع فيه طريق حديث الطير. ونسب إليه، أنه كان يقول بجواز مسح القدمين في الوضوء، وإنه لا يوجب غسلهما» وبمرور الوقت عجز خصومه عن طمس شواهد علمه، فأخذوا بالقول بأن هناك طبريين أحدهما شيعي يستحق هذا العداء. وإن كل ما جاء من الحق على لسان الطبري، وكل ما ذكره هذا المؤرخ والمفسر الكبير من الحقائق هو من الطبري الآخر، يقصدون محمد بن جرير بن رستم المحدث الإمامي الثقة، وقد اشتهر بكتابه (المسترشد في الإمامة) وعرف بالمناظرة والكلام، وليس هناك ما يساعد على الخلط بين الاثنين، فآثار كلّ منهما مستقلة ومعروفة، والقول بمثل هذا ينمّ عن القصد السيىء.

وكان للمسلمين مكانة في علم الكلام وغيره، وامتازوا عن سواهم بأمور كثيرة. وكانت مقاومة المفكرين بأساليب مختلفة وعبارات لا تعبّر إلا عن سوء الفهم. فقد رُمي المتكلّمون بالكفر والزندقة والخروج عن الدين حسب ما ترتضيه السياسة، وما تراه في خدمة مصالحها، فوسعت شقّة الخلاف بين المتكلّمين وبين الفقهاء، وشجعت الحملة على المتكلمين ورميهم بالكفر. فكانت تلك الحركة ضد علم الكلام سبباً في تضييق آفاق الفكر، وسد أبعاده، وتقييد روح الإبداع، حتى هدّد العلماء من المتكلمين.

(١) الطباطبائي، الميزان ج٥ ص١٧٩.

وقد ساعد على ذلك آراء بعض أئمة المذاهب وأتباعهم، إذ كان بعضهم يرى لزوم تعزير أهل الكلام وضربهم وإهانتهم، وأن يطاف بهم في العشائر. واشتهر عن الشافعي أنه قال: إياكم والكلام. وقال: لأن يبتلي الله المرء بكل ما نهي عنه ما عدا الشرك به خير من أن ينظر في علم الكلام.

ووجد زعماء الفتن وعناصر الشغب فيما أوثر عن الإمام الشافعي وغيره سلاحاً مجرداً يستخدمونه لتحقيق أغراضهم، وتغيير الواقع إلى جمود وتخلف. رغم أن هذه الآراء في حقيقتها وظروفها تعبّر عن حرية الرأي وقدرة الاجتهاد، ومع هذا نجد أن الإمام الشافعي ينص على دوافع مثل هذا التوجه، ويلتفت إلى تلك الأجواء، إذ قال للربيع: إياك وعلم الكلام. وعليك بالاشتغال بالفقه والحديث. ولئن يقال لك أخطأت خير من أن يقال لك كفرت[1].

وقد نضج علم الكلام في عصر الشافعي، واتسع نشاط المتكلمين، وأثيرت هناك مسائل كثيرة دار حولها النقاش والجدل. ولا بد لكل عالم أن يلتمس الدلائل والبراهين من طريق المعقول لتقوية جانبه، والرّد على مخالفيه، ولكن من باب درء الخطر من الانهزام أمام المفكرين، أغلق الباب بحرمة تعلم علم الكلام، بل حرمة الاستماع إليه، وحكموا بكفر من يتعلمه.

وكان للفلسفة في أول زمن الدولة العباسية سوقاً رائجاً، فقد كانت بغداد في أواسط القرن الثاني إلى أواخر القرن الخامس ميدان الأفكار الجديدة، كما كانت البصرة كذلك منذ القرن الأول، يقصدها العلماء من البلدان القاصية، ويتذاكرون صنوف العلم، ويتقارضون بأنواع الحكمة. وكانت بغداد مدة ثلاثة قرون مبعث الحركات الفكرية، والعلماء فيها يوحدون صفوفهم.

وكانت الحكومة لا تعارض مجالس النظر والحجاج ما لم يضر بمصالحها، أما إذا كان البحث في الإمامة وما يتعلق بها من إعطاء الفكر مجالاً في أمور يتطلب البحث فيها إيضاحاً لما أبهم منها؛ فإن ذلك محظور لا تسمح الدولة في خوضه.

واشتدت الحكومات في القرن السادس بمطاردة علوم الحكمة. وحرّم ابن الصلاح المنطق والفلسفة، ولم يتمكن أحد في دمشق من قراءة كتبها، وكان المنادي

---

(١) الجواهر واليواقيت ج١ ص١٧.

ينادي: من ذكر غير التفسير والحديث والفقه، وتعرّض لكلام الفلاسفة ينفي. وأفتى الذهبي بتحريق كتب علوم الفسلفة، وإعدام علمائها والقائمين عليها، إذ يقول: وما دواء هذه العلوم، وعلمائها القائمين بها علماً وعملاً إلا التحريق والإعدام من الوجود[1]. حتى عُدّ الاضطهاد في سبيل المذاهب والأفكار سمة السياسة لأنه «منذ ظهر الإسلام كان من يخالف الجمهور في المعتقدات والآراء يُحمل إلى الولاة، فإما أن يستتيبوه أو يعاقبوه، وما فتيء المهيمنون على الشريعة يثيرونها حرباً شعواء على كل من جاهر بفكرة دعا إليها أو لم يَدْعُ، ويكفي في بلائه خروجه عن المألوف والعرف»[2].

* * *

وانتهز العوام والمتفقهة فرصة غضب الملوك على الفلاسفة، فراحوا يروّجون التهم حول كثير من علماء الأمة إذا وجدوا ميلاً من السلطان نحوهم، وكان شهاب الدين السهروردي من الحكماء الذين قربه الملك الظاهر غازي ولد السلطان صلاح الدين، فحسده علماء عصره، وناظروه فانتصر عليهم. فالتجأوا إلى الدسّ والكذب، ورموه بالكفر والإلحاد، وطلبوا استئصال الشرّ بقتله حتى لا ينفذ إلحاده، فتمّ لهم ما أرادوا، وأمر السلطان ولده بقتله بلا مراجعة، فقتله سنة ٥٨٦هـ عن ٣٦ سنة، وعرف في التاريخ بالشاب المقتول.

وقد أورد ابن أبي أصيبعة أن الظاهر غازي بن صلاح الدين، دعا الفقهاء إلى مساجلة السهروردي، فانتصر عليهم وأفحمهم، فزاد حقدهم عليه، فدبروا له تهمة المروق عن الدين، وعملوا محاضرة بكفره، وسيّروها إلى الملك الناصر صلاح الدين وقالوا: إن بقي هذا فإنه يفسد اعتقاد الملك الظاهر، وكذلك إن أطلق فإنه يفسد أي ناحية يكون بها من البلاد. وزادوا عليه أشياء كثيرة من ذلك، فبعث صلاح الدين إلى ولده الملك الظاهر بحلب كتاباً في حقّه بخط القاضي الفاضل وهو يقول فيه: إنّ هذا الشاب السهروردي لا بد من قتله[3].

ومكانته في الفلسفة لا ينكرها حتى أعداؤه، فهي من أبرز صفاته عندهم، كما

---

(١) كرد علي، الحضارة الإسلامية ٢/ ٤٣.
(٢) المصدر نفسه ج٢ ص٦٩.
(٣) ابن أبي أصيبعة، الطبقات ص٦٤٢.

أن من أبرز معالم سيرته هو قتله دون بينة. حتى أن السلطان الذي غلب عليه الذين ساءهم انتصار السهروردي عليهم ندم ونقم على الذين أفتوا في دمه، وقبض على جماعة منهم وأهانهم وأخذ منهم أموالاً عظيمة[١] كذلك فإنّ الذين يرمونه بالزندقة من المؤرخين لا يملكون إنكار براعته في علم الكلام، وكونه مناظراً محجاجاً زاهداً من أذكياء بني آدم ورأساً في معرفة علوم الأوائل[٢].

وذكر العماد الأصفهاني ـ المعاصر له ـ أن الفقهاء دعوا السهروردي للمناقشة في المسائل الفقهية، وفي مسائل الأصول، فظهر عليهم، فحقدوا عليه، وبيّتوا أمرهم إلى الثأر منه، فدعوه إلى مناقشة علنية أخرى في مسجد حلب، وسألوه: هل يقدر الله على أن يخلق نبياً آخر بعد محمد؟ فأجابهم الشيخ: بأن لا حدّ لقدرته. ففهموا من إجابته أنه يجيز خلق نبي بعد محمد ﷺ وهو خاتم النبيين، ومن ثمة أعلنوا مروقه من الدين، وكتبوا محضراً بكفره، سيروه إلى السلطان، فأمر بإعدامه وإحراق كتبه[٣].

واستمر أعداء حرية الفكر ودعاة الخضوع لسلطان الجهل والتقليد الأعمى بالحرب لعلماء الأمر، فثارت الأحقاد، وظهرت العداوات والانتقام. فهذا الفيلسوف ابن رشد ـ وكان مالكي المذهب ومن فقهائهم ـ تولى القضاء بأشبيلية مدة تزيد على عشر سنوات، وقد قربه الملك أبو يوسف الملقب بالمنصور، مما أثار حسد الفقهاء والمتزمتين، فرموه بالكفر والزندقة، وتمكنوا من تغيير الخليفة، فنقم عليه واستجوبه فقهاء قرطبة، وقرروا أن تعاليمه كفرٌ، ولعنوا من يقرأها، وحكموا عليه بالكفر والنفي من بلده. وأمر الخليفة بحرق كتبه وكتب الفلسفة في جميع البلاد، ولعن ابن رشد، ونفي إلى جزيرة في قرطبة. وإنما لم يحكم على ابن رشد بالقتل أسوة بغيره ممن اتهم بسوء الاعتقاد لأن الذي يرأس المحكمة ويصدر الأحكام كان من علماء المالكية، فكانت المحكمة التي تعقد لمحاكمة المتهمين بالبدعة أو الضلالة أو الزندقة إنما يسند أمرها إلى القضاة المالكية لأنهم يخالفون سائر المذاهب في هذه التهم التي تلصق بمن تحاول الدولة قتله باسم الدين.

---

(١) المصدر نفسه ص٦٤٤.

(٢) شذرات الذهب ج٢ ص٢٩٠.

(٣) انظر مقدمة كتاب هياكل النور.

فعند المالكية يقتل المتهم بالضلال أو الزندقة أو البدعة أو ما شئت فقل من مقررات الحكم الجائر. فيصدر الحكم في حقه وإن تاب، بخلاف بقية المذاهب. لأن رأي مالك أن المبتدع أو الزنديق ينفذ فيه حكم الإعدام وإن تاب.

لقد أدى شيوع ذلك إلى حالات من الجهل والجمود وتحكم الفوضى. فنشط العامة بما يرضي أطماعهم ويجلب عليهم نعم السلطة والمتحكمين، فأصبحت الطبقات الحاكمة هي التي تقرّ العقائد التي تراها أكثر نفعاً لها وأقرب إلى الاستجابة عليها، فتلتقي إرادة المتحكمين مع رغبة المتنفّذين والمستفيدين من تيارات التعصب هذه. ففي سنة ٤٣٣هـ تصدر الدولة أمراً باتّباع ما تراه من العقائد، فكان منشورها يتضمن أهم المسائل العقائدية التي هي محور الخلاف في ذلك العصر، فهو يتضمن بعد التوحيد والأقرار لمحمد ﷺ بالرسالة: عقائد مذاهب أهل السنة. وجاء فيه: أن من قال أن القرآن مخلوق فهو كافر حلال الدم. وأن يلتزم الناس بحب الصحابة كلهم. وأنهم خير الخلق بعد رسول الله ﷺ وأن خيرهم كلهم وأفضلهم بعد رسول الله أبو بكر الصديق، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، وأن يشهدوا للعشرة المبشّرة بالجنة، وأن يترحّموا على أزواج النبي ﷺ ومن سبّ عائشة فلا حظّ له في الإسلام، ولا يقول في معاوية إلاّ خيراً، ولا يدخل في شيء شجر بينهم[1].

ووقع المنشور في أغلب ما تضمنه موافقاً لرغبة العامة، حيث يؤدي بمحتواه إلى شلّ الحركة العلمية التي تخالف آرائهم. فاتباع ذلك النظام لازم، ومخالفه يُعدّ كافراً، وقد كتب الفقهاء خطوطهم، وحكموا بفسق وكفر المخالف. كما أصبحت السلطة القضائية تخضع لهذا المرسوم، وتعاقب بموجبه، فمن اتهم بالمخالفة حكم بكفره، وحلّية دمه، فأصبح العلماء بين خوف العامة وغضب السلطة، وليس وراءه إلاّ سيف النقمة، فلا يستطيع أحد أن يبدي رأياً فيما توصّل إليه من وراء تفكيره والنظر العقلي، ولا يستطيع المؤرخ أن يسجّل حادثة فيها مخالفة لرأي السلطة، وليس لباحث أن يثبت شيئاً بعد تحقيقه وصحته، كما ليس للمحدّث أن يناقش حديثاً أو يثبت ما لا يتفق وآراء العامة. فكم ضاع من وراء هذا التحجير من الأفكار الحرّة والحقائق التاريخية التي أهملها العلماء مخافة أن يُعرفوا بها فيهلكوا، وبذلك حقنوا دماءهم،

---

(١) المنتظم ج٨ ص١١٠ ـ ١١١.

واتقوا تقاة أنجتهم من تسلط العتاة. فضاعت أخبار كثيرة، وخمدت القرائح، وشاع الجمود الفكري، وفشى الجهل. والسلطة من وراء الجهّال تشدّ أزرهم، وتفتك بمن يحاول الخروج عن الطاعة «وإنه لطبيعي كذلك في أن يكون الملك عدواً لدوداً لكل بحث ولو كان علمياً يتخيل أنه قد يمس قواعد ملكه وتقويض كرسيّه ولهذا ضغطوا على حرّية العلم، واستبدّوا بمعاهد التعليم، وربطوها بعجلة الدولة»[1].

وبرغم ركام الأهواء تجد الحقيقة لها ألسنة وأقلاماً تعبّر عن جوهر الدافع في الإبقاء على الجمود وبواعث سياسة الحكام الذين أحكموا إغلاق منافذ الفكر ليهيمنوا على الأمة، وأغلقوا باب الاجتهاد الذي تشبّث الشيعة لفتحه حماية للفكر وإغناءً للفقه، فلما رأى بنو العباس أن وسائلهم في القهر لا تجديهم، أرادوا أن يأتوا الناس من باب التعليم، فيتولوا أمره بأنفسهم، ليربوا العلماء على الخضوع لهم، ويملكوهم بالمال من أول أمرهم، وكانت الأمة هي التي تتولى أمر التعليم بعيداً عن الحكومة، كما تتولاه الآن الأمم الراقية. . فيقوم في المساجد حراً لا يخضع لحكم ملك أو أمير، ويتربى العلماء بين جدرانها أحراراً لا يرقبون إلا الله في علمهم، ولا يتأثرون بهوى حاكم، ولا تلين قناتهم لطاغية أو ظالم. فأراد بنو العباس أن يقضوا على هذا التقليد الكريم، ويتولوا بأنفسهم أمر التعليم بين المسلمين، فأخذوا ينشؤون له المدارس بدل المساجد، ويحبسون عليها من الأوقاف الكثيرة ما يرغب العلماء فيها، ويجعل لهم سلطاناً عليهم، وأخذت الممالك التابعة لهم تعمل في هذا بسنّتهم، حتى صار التعليم خاضعاً للحكومات بعد أن كان أمره بيد الرعية، وكان لهذا أثره في نفوس العلماء فنزلوا على إرادة الملوك، ولم تقو نفوسهم على مخالفتهم في رأيهم أو توجيه شيء من النصح إليهم[2]. فلما انتشرت المدارس الحكومية قام بنو العباس بالخطوة المكمّلة، فَطُلب من المنفّذين لسياستهم المشتغلين بالعلم ألا يذكروا شيئاً من تصانيفهم، وألا يلزموا الفقهاء بحفظ شيء منها؛ بل يذكروا كلام الشيوخ السابقين تأدّباً معهم، وتبرّكاً بهم. فأجاب جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي الحنبلي بالسمع والطاعة.

---

(١) كرد علي: الحضارة الإسلامية.

(٢) انظر: عبد المتعال، الصعيدي، في ميدان الاجتهاد ص٧.

فيما كان نهج الشيعة منذ صدر الإسلام حتى يومنا هذا يقوم على إثبات مذهبهم بالأدلة المنطقية، والكتابة العلمية، وكان مدار الإمامة ومصطلحاتها الفنية من أكبر ما اهتموا به لأنها من أركان الدين، وهي أصل إقامة المجتمع ومصدر بناء هيئاته، وهم الذين قسّموا علمها، وبوّبوا أبوابه، وعيّنوا مجاله، ورسموا حدوده[1].

وكان للشيعة بتلك العصور ألمع الشخصيات الإسلامية كهشام بن الحكم، وكان يرأس مدرسة فكرية إسلامية أخذ تعاليمها من أستاذه الإمام الصادق عليه السلام ويقول فيه ابن النديم: أنه هو الذي فتق الكلام في الإمامة، وهذّب المذهب، وسهّل طريق الحجاج. وكان حاذقاً بصناعة الكلام، حاضر الجواب[2]. ومن جرّاء شهرته في الكلام مع علوّ رتبته بالفقه وسائر العلوم، فقد تحاملوا عليه، ونسبوه إلى سوء الاعتقاد، كما طاردته السلطة أيام هارون الرشيد، فهرب ومات متخفياً. وهكذا غيره من فلاسفة الشيعة وعلمائها الذين امتحنوا في سبيل عقيدتهم أمثال: مؤمن الطاق محمد بن النعمان، وأبو يوسف الكندي، وبني نوبخت، والرازي، والهمداني وغيرهم من متكلمي الشيعة وفلاسفتهم. وكان اشتهارهم بعلم الكلام مهّد لأعدائهم أن يتّهموهم بسوء الاعتقاد، والبدعة والكفر، وهذه البدعة هي بدعة سياسية، لإن مخالفتهم لنظام الحكم السائد جعلتهم مبتدعة في نظر أعوان السلطة. ونتيجة لذلك التعصّب الأعمى شاعت الافتراءات، وموّهت في إطار فقهي أو مذهبي. لأن الشيعة التزموا نهج أهل البيت كأئمة هداة وصفوة معصومة تمثّل الرسالة في أصولها والمبادىء في نقائها. والذين كان نصيبهم الاضطهاد والظلم، والابتعاد عن السلطة التي أنجرّت إلى القيم الدنيوية والمادية. فوضعت السلطة مخططاً لمواجهة التيار الذي يمثل الالتزام بخط أهل البيت، والتخلص من رجالات الشيعة وأفكارهم بكل السبل، سواء كانت بالقتل والاعتداء، أو التحريف وقلب الحقائق، والعمل على نبذ كل ما يمتّ لهم بصلة. فوصل الأمر بالمتفقّهين إلى الدعوة إلى ترك أحكام الشرع إذا كانت تشبه أحكام الشيعة. فعلى سبيل المثال لا الحصر:

١ ـ قالوا: ومن المصلحة أن يمنع المصلي عن اختصاص جبهته بما يسجد عليه

---

(١) النظريات السياسية الإسلامية ص٨١ ـ ٨٢.

(٢) الفهرست ص٢٤٩ ـ ٢٥٠.

من أرض وغيرها لأن ذلك الاختصاص من شعار الشيعة[1].

٢ ـ حكم بعضهم بأفضلية المسح على الخفّين بدون دليل، وإنما كان ذلك الحكم، لأن الشيعة طعنوا في المسح على الخفّين، وإحياء ما طعن فيه المخالفون من السنن أفضل من تركه[2].

٣ ـ يقول ابن تيمية في منهاجه ـ عند بيان حرمة التشبه بالشيعة ـ: ومن هنا ذهب من ذهب من الفقهاء إلى ترك بعض المستحبّات. إذ صارت شعاراً لهم (الشيعة) فإنه وإن لم يكن الترك واجباً لذلك، لكن في إظهار ذلك مشابهة لهم، فلا يتميّز السنّي من الرافضي، ومصلحة التمييز عنهم لأجل هجرانهم ومخالفتهم أعظم من مصلحة المستحب. وإن هذا لمن الإفراط في الانحراف والغفلة عن أكبر خطأ يرتكب في ترك أوامر الله سبحانه.

ولا زالت الحالة هذه تشق طريقها حتى في العصور المتأخرة، كما يحدثنا الشيخ القاسمي عنهم بقوله:

«يدرّس كثير من العلماء للطلبة في المساجد، وهؤلاء المدرّسون ندر من يكون منهم غير متعصب أو لا يوجد، ولذلك لا تخلو المساجد العامة التي يكثر مدرّسوها من ثورات تتناقلها الأفواه، وما منشؤها إلا التعصب، وهاك بيان ذلك: نرى مدرّس الفقه غير الحكيم يقرأ الفروع قراءة مشوبة بهضم المخالف لمذهبه وعدم رؤياه بشيء، وعدم الاعتداد بمذهبه كلياً إلا ظاهراً، فلا ينصرف تلامذته من دراسة إلا وهم مملوءون قوة بها، يدفعون من خالفهم في تلك الفروع، وقد يرون بطلان ما عليه غيرهم. كما يعلّمونه كراهة الاقتداء بالمخالف، مما يتبرّء منه هدي السلف والأئمة المتبوعين عليهم الرحمة والرضوان. وكما يحاولون دليلاً ضعيفاً في مقابلة قوي كمرسل في مقابل مسند، وإيثار ما رواه غير الشيخين على ما روياه مما يتبرّء منه الإنصاف»[3].

وعلى أي حال فإنّ التعصب المذهبي قد أحدث مظاهر شاذة في المجتمع الإسلامي، وولّد مراحل سوداء، سادتها ظروف سيئة ومتباينة، وقد رأينا ما أحدث

---

(١) انظر غاية المنتهى في الجمع بين الاقناع والمنتهى ج١ ص١٣٥.
(٢) نيل الأوطار ج١ ص١٧٦.
(٣) إصلاح المساجد ص١٦٤.

التعصب من فرقة وانقسام بين صفوف أمة واحدة ذات كتاب واحد ونبي واحد، ولكنه ـ والحمد لله ـ لم يبلغ الخلاف إلى مستوى العقائد الأساسية التي هي دعامة الإسلام وركيزة وحدة الأمة. ورغم أن روح التعصّب ونزعات التحكّم قد أدّت إلى اختلال القيم وتشويه المبادىء من خلال إخضاعها للأهواء والتعصب والتحزب؛ فإن روح الحرص والإيمان بقيت تواجه حملات التضليل وتيارات الانقسام، فراح الكثيرون من علماء هذه الأمة ورجالاتها ينبذون الخصومة، ويرفضون التحزّب وإثارة روح الحقد، ويتمسّكون بروح الإخاء إطاعة لأمر الله وعملاً بمبادئه، ويبثّون روح التفاهم، لتنمو من جديد. وعملوا جاهدين لحفظ تراث الإسلام، وإزالة كل ما يحول دون التقاء أبنائه على صعيد الأخوة الإسلامية.

ولو حاول مثيرو الفتنة الاحتكام إلى مبادىء الإسلام وإلى روح الرسالة فيما يدّعون من أمور ومسائل، لباءت حملاتهم وتحرّكاتهم بالفشل والخسران. لكنّهم توسّلوا بأمور اختلقوها، ونصوص أوّلوها لترضي مراميهم وأغراضهم؛ فضاعت في غمرة الفهم والتقوّلات أسس وأصول الحياة التي أرسىٰ دعائمها الإسلام، فكان من البديهي أن يكون الجمود الفكري غطاءً لموجات التعصّب والتحزّب التي أحالت الألفة إلى تناحر، والأخوّة إلى عداء.

ومن تلك المشاكل مسألة خلق القرآن. وقد أشرنا لها سابقاً، وزيادة في البحث نذكر هنا بعض ما تدعو الحاجة لذكره:

٢ ـ خلق القرآن

تأثر المأمون بحركة العلوم التي كانت سائدة في عصره، وكانت حالة الأمة الفكرية قد اتسمت بخصائص وظواهر مهمة، أثرت في السياسة من خلال شخصية الحاكم الذي نشأ وميله إلى العلوم ينمو معه، حتى تفرّد بمواقف تكشف عن وعي وتصوّر خضوعاً للمنطق، وأذعاناً للحق، خاصة في الأمور والأحداث التي اكتنفت مسيرة الخلافة منذ قيام نظام الخلافة.

وكان من أبرز جوانب الحياة الفكرية، ظهور تيارات واتجاهات كلامية وعقلية اهتمّت بعقائد وأديان الأمم الأخرى، التي راحت بقاياها تكيد للإسلام. فتعرّف المسلمون على مضامين ومناهج النشاطات المعادية، وتمثّلوها، وصاغوها. فماجت مواطن الفكر الإسلامي بدراسات وأصناف من العلوم، عبّرت عن قدرات العلماء والمتكلمين الإسلاميين، فأسهموا مساهمة كبرى في ردّ كيد الأعداء إلى نحورهم، ومناجزتهم بنفس السلاح الذي أشهروه بوجه الإسلام.

ولمّا تسلّم المأمون سدّة الحكم ـ بعد الأحداث الدامية المعروفة ـ مال بالنظام إلى الجهة التي تنسجم مع ميوله، وتناسب ما نطلق عليه «الحركة الفكرية» حيث غلبت صفة البحث والطابع العلمي، فكان المعتزلة في هذه الفترة من أبرز المناظرين وأنشط المتكلمين، فكانوا أصحاب جدل وأنصار رأي. غير أنهم في الفقه والأصول لم يتفقوا على قواعد ثابتة، لذلك لم يخرجوا من تيار الجدل والنظريات، وقد حُسبوا كثيراً على الشيعة، بل أن البعض نظر إلى الأمر معكوساً وتناسى أصول الشيعة ووجودها التأريخي الذي يسبق ظهور المعتزلة. وظل الالتباس قائماً حتى اليوم من جرّاء اشتراك المعتزلة مع الشيعة في بعض الخصائص الفكرية: من اهتمامهم بالعقل، ورعايتهم

الفكر. وقد أسهم المأمون نفسه في إثارة القضايا التي تخصّ عقيدة الشيعة، منها: مسألة الخلافة، والأحقّية والأفضلية؟ ولكن العمل السياسي كان يتمثّل في الموقف من العلويين، وإرساء قواعد الحكم على أساس رضا الناس وقبولهم النظام العباسي عن قناعة، بعد أن فضحت سياسة السابقين من آبائه خدعة الدعوة إلى الرضا من آل محمد، وكيف كشّر العباسيون عن أنياب حقد أشدّ وأدهى على العلويين من حقد الأمويين. فكان أن حمل المأمون العلويين من المدينة وفيهم الإمام الرضا علي بن موسى، وجاء بهم إلى خراسان. وكان غرضه شخص الإمام الرضا عليه السلام فأنزل العلويين داراً، وأنزل الإمام الرضا داراً وأكرمه وعظم أمره.

واختار المأمون أن يعلم الإمام الرضا بقصده من وراء ذلك عن طريق الوسطاء، وادّعى أنه يريد أن يخلع نفسه من الخلافة ويقلّدها إلى الرضا عليه السلام وكل الدلائل تشير إلى كذب هذا الادعاء. فالمأمون حاكم لم يتورّع عن قتل أخيه في سبيل كرسي الخلافة، ولا يمكن بأي حال أن يخرج عن أهم قواعد الحكم الجائر، ويتخلّص من كره آل علي، وإن ادعى ذلك وجاهر بأنه وجد أن العباسيين قد ظلموا وغصبوا آل علي حقهم. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن الإمام الرضا في سيرته ووجوده، هو امتداد حي واستمرار متوقّد لسيرة ابن الشهيد الإمام موسى بن جعفر، لم يحفل بالدنيا، ولم تبعده نوائب الدهر عن أمور دينه ورعاية أهل الإسلام بالدعوة إلى التمسّك بالعقيدة والاتجاه إلى الإخلاص في الدين.

وإن قدّر المأمون بعض نظرة الإمام الرضا إلى السلطة السياسة من حيث تصنيفات الواقع، فليس من السهولة بمكان تناسي حقائق التاريخ الأسود للعباسيين وفظائعه.

ويروي الشيخ المفيد ـ قدس سره ـ في الإرشاد، أن الأمام الرضا أنكر هذا الأمر وقال: «أعيذك بالله يا أمير المؤمنين من هذا الكلام، وأن يسمع به أحد» فردّ عليه الرسالة: فإذا أبيت ما عرضت عليك، فلا بد من ولاية العهد من بعدي. فأبى عليه الرضا أباءً شديداً. فاستدعاه، وخلا به ومعه الفضل بن سهل ذو الرياستين، ليس في المجلس غيرهم وقال: إني قد رأيت أن أقلّدك أمر المسلمين، وأفسخ ما في رقبتي وأضعه في رقبتك. فقال له الرضا عليه السلام: «الله الله يا أمير المؤمنين، إنه لا طاقة لي بذلك، ولا قوة لي عليه..» قال له: فإني مولّيك العهد من بعدي. فقال له: «اعفني

من ذلك يا أمير المؤمنين». فقال له المأمون كلاماً فيه تهديد له على الامتناع عليه، وقال في كلامه: إن عمر بن الخطاب جعل الشورى في ستة أحدهم جدّك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وشرط فيمن خالف منهم، أن يضرب عنقه، ولا بد من قبولك ما أريده منك، فإنني لا أجد محيصاً عنه.

فكان جواب الإمام الرضا أبلغ تعبير عن فهم البواعث التي وراء مثل هذا الأمر، وخير ردّ يعرّي الخطة التي ترمي إلى ترميم كيان الظلم بالإساءة إلى نهج آل البيت، ومحاولة ثنيهم عن الابتعاد عن الركون إلى الظلمة، وجهادهم للإبقاء على سلطان الدين في روحانية النفوس وعلاقات المجتمع. ولما لم يجد الإمام الرضا أمامه إلا سيف الحكام قال للمأمون: «فإني أجيبك إلى ما تريد من ولاية العهد على أنني لا آمر ولا أنهى، ولا أفضي، ولا أولي ولا أعزل، ولا أغيّر شيئاً مما هو قائم». فأجابه المأمون إلى ذلك كله، لكي يحقق الغرض السياسي الذي أراده، وزيّن له وهمه ذلك، فظن أن خدعة ولاية العهد تنطلي على الناس فيما جعلها فارغة ليست بشروطه التي عوّل عليها، بل بشروط الإمام الرضا.

وعلى هذا المنوال، عالج الجانب الفكري والحياة العقلية النشطة، فأقحمها في دوائر السياسة والحكم، وجعل رجال الفكر وأصحاب الاتجاهات العقلية ـ التي يفترض فيها ممارسة الدفاع عن الرأي ـ أعمدة للتحكم، فأوقع الحركة الفكرية في تناقض. وهكذا استطاع المأمون أن يستفيد من ميوله واهتماماته، ويؤثر في أولئك الذين ارتضوا أن يكونوا جزءاً من السلطة على ما هم عليه من صفات وسمات فكرية، تجعلهم من أهل العدل.

في سنة ٢١٢ هـ أظهر المأمون القول بخلق القرآن، وتفضيل الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وقال: هو أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله[(١)].

وفي سنة ٢١٨ هـ أعلن وجوب الاعتقاد بخلق القرآن، وأنه حادث غير قديم، وذلك لنفي التشبيه عن ذات الله، ونفي الصفات عن الذات العلية، لئلا تتصف الذات بما يعددها. ونفى المعتزلة ومن وافقهم من المسلمين الاعتقاد بقدم الصفات كقدم

---

(١) الطبري ج١٠ ص٢٧٩.

الذات، لأن الذات هي وحدها متّصفة بالقدم، ومن أجله كانت الصفات محدثة ظاهرة في الغير، والكلام محدث، والقرآن محدث لأنه من الكلام.

ولجأ المأمون إلى استخدام القوة لفرض هذا الرأي، وأعدّ لسياسته في هذا المجال العدة زمناً طويلاً، ونصب ديواناً للمحنة، وحمل الناس على هذا الاعتقاد، ومحاربة من يقول بأن القرآن قديم. لأنه من صفات الله، والذين لم يروا بدّاً من إثبات الصفات للذات وإنها قديمة قِدَمها الخ. . . .

فحصل الانقسام، وعقد مجلس للامتحان، واختارت الدولة له أشد الناس جدلاً من المعتزلة وغيرهم، كما اختار جماعة من الجلاّدين الأشداء الجفاة الذين مرنوا على الضرب بالسياط، والحراس الغلاظ، وجعل في الديوان عقاباً لكل ممتنع عن الأقرار (وتبتدىء العقوبة بالحرمان من الحق ـ الذي نسميه في حياتنا ـ بالحق المدني في الحياة، وتنتهي بخشبة الصلب، فإذا لم يكن للرجل رزق ووظيفة عوقب عقوبة بدنية بقدر ما يمتنع عن الإجابة أو يحتال في الإنكار، أو يصطنع الخلاص)[١].

وهنا لا بد من الإشارة إلى التقاء المعتزلة مع الشيعة في القول في كون كلامه تعالى لا يكون إلا بكلام محدث، لأن حقيقة المتكلم من وقع منه الكلام الذي هو هذا المعقول بحسب دواعيه وأحواله، والكلام المعقول ما انتظم من حرفين فصاعداً من هذه الحروف المعقولة التي هي ثمانية وعشرون حرفاً، إذا وقع ممن يصح منه أو من قبيل الإفادة. والدليل على ذلك أنه إذا وجدت هذه الحروف على هذا الوجه سمّي كلاماً، وإذا اختلّ واحد من الشروط لا يسمى بذلك. فعلمنا أنه حقيقة الكلام، ومتى ما وقع ما سميناه كلاماً بحسب دواعيه وأحواله سمي متكلماً، فعرفنا بذلك حقيقة المتكلم[٢].

ولكن الشيعة لا يطلقون صفة «مخلوق» على القرآن، فكانوا أكثر حرصاً على التنزيه وقالوا: ينبغي أن يوصف كلام الله بما سمّاه الله تعالى به من كونه محدثاً، قال الله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ﴾. وقال عز وجل: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾.

---

(١) عبد العزيز سيد الأهل، شيخ الأمة أحمد بن حنبل ص٢١٨.
(٢) الشيخ الطوسي، الاقتصاد ص٦٥ ـ ٦٧.

والذكر هو القرآن بدلالة قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾. وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «القرآن محدث غير مخلوق وغير أزلي مع الله سبحانه». كما ورد عن غيره من أئمة الهدى النهي عن جعل اسم آخر للقرآن غير ما ورد عن الله.

لقد وصف الشيعة القرآن بما وصفه الله تعالى، فقالوا عربي لقوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ والعربية محدثة. ومنعوا وصفه بأنه مخلوق، لأنه يوهم بأنه مكذوب أو مضاف إلى غير قائله، لأنه كالمعتاد من هذه اللفظة، قال الله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ و: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾. وقال تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ فنرى أن وصف الكلام بالخلق يأتي إذا أريد به الكذب أو الانتحال، كما يقولون هذه قصيدة مخلوقة ومختلقة، إذا كانت متحلة مضافة إلى غير قائلها[1].

أما الأشعرية فيقولون إن الصفات التي أنيطت بها الأقوال وابتنيت عليها المسألة هي صفات معنوية، وهي صفات زائدة على ذاته، وبيان وجوب المشكلة يقتضي التفصيل، ونحن نقصد هنا الإشارة وذكر إحدى القضايا التي نجم عنها أضرار وفرقة استمرت قروناً عديدة بآثارها، وتوارثها حتى اليوم خلق عن أسلاف أورثوهم التعصب، وراحوا يستهزؤون بما منَّ الله عليهم من عقل وإدراك، ويؤثرون الجمود والتوقف عن النمو.

والقصد فإن المأمون أظهر من ألوان الاعتماد على المعتزلة وتقريبهم، ما جعلهم أعلى الناس مكانة وأوفرهم حظاً، وخضعت مجالس المناظرات والنقاش لأهواء الحاكم، فكان مدارها المواضيع التي يرغب بها المأمون. ولا جدال في تبني المأمون لفكر المعتزلة، لكن نزعات الحاكم أو السلطان قد تغلبت على شخصية التلميذ أو ميول المتعلم، بل جعلها مادة للسياسة.

والمؤسف المؤلم أن توضع عناصر الغنى الفكري ومناهج البحث في خدمة أغراض السلطان، وتصبح من أسباب التدهور، ومن وسائل الحاكمين والمتنفذين، فتؤدي إلى نتائج وعواقب لا تليق بالفكر الحر والعقل النير. ومع ما اتصف به المأمون من إلمام ودراية، فإن كتابه السلطاني الذي أصدره سنة ٢١٨هـ كان في حقيقة أمره

---

(١) أيضاً نفس المصدر.

تصرفاً إدارياً لا يختلف بشيء عن بقية إرادات الحكام، ولكنه تضمّن أفكار المعتزلة وآراءها، مما أساء إلى أهدافهم الأخرى التي تتصل بالعقل وحرية الفكر.

أما تنزيه الله سبحانه وتعالى عن الصفات التي يتصف بها المخلوقون، فالقرآن عندهم مخلوق وليس بقديم، فالله وحده قديم، وما ورد في القرآن هو كلام الله، ولكن عندهم أن الكلام لا يمكن أن يكون صفة لله تعالى هي ذاته كالعلم والقدرة، وأنكروا أن تكون الصفات أشياءاً وذواتاً قديمة قائمة وراء الذات، لأن هذا يؤدي إلى تعدد القدماء، لذا فإن الذات والصفات شيء واحد. ويرد الفلاسفة أن ذلك بعيد من المعارف، بل يظن أنه مضادّ لها، وذلك أن العلم يجب أن يكون غير العالم، وإنه ليس يجوز أن يكون العلم هو العالم إلا إذا جاز أن يكون أحد المتضايفين قرينة مثل أن يكون الأب والابن معنى واحداً بعينه[1] بالنسبة لعقيدة الثالوث.

وأدت السياسة إلى أن يكون ذلك مثار فتنة شملت أيام المأمون والمعتصم والواثق، وحصلت من ورائها فرقة وتباعد، ووصل الأمر إلى أن من يذهب إلى قدم القرآن يكفّر من يقول بأنه مخلوق، وذلك في عهد المتوكل، حيث ارتد عن تلك السياسة إلى منحى آخر، بعد أن كان بعض القضاة يسأل الشاهد عن هذه القضية، فإن أقر بأنه مخلوق قبلت شهادته وإلا ردّها[2].

ثم أفتى - بعضهم وبتأثير السلطة - بوجوب قتل من يقول بخلق القرآن، وبديهي أن هذا المفتي لم يستند بفتواه إلى دليل عقلي أو نقلي، بل كان مستنداً إلى أمر تافه، وذلك أنه عندما سئل عن دليل هذه الفتوى أجاب: أن رجلاً رأى من منامه إبليس قد اجتاز بباب المدينة ولم يدخلها، فقيل لِمَ لم تدخلها؟ قال إبليس: أغناني عن دخولها رجل يقول بخلق القرآن[3].

ونظير هذا ما حدثنا به التاريخ عن المهدي العباسي عندما دخل عليه شريك بن عبد الله القاضي، فلما رآه المهدي، قال: عليّ بالسيف والنطع. قال شريك: ولِمَ يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيت في منامي كأنك تطأ بساطي، وأنت معرض عني، وقصصت رؤياي على من عبّرها فقال: إنه يظهر لك طاعة، ويضمر لك معصية ما.

---

(١) ابن رشد، الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة ص٨٤ - ٨٥.
(٢) الكندي، كتاب القضاة ص٤٤٧.
(٣) الاعتصام للشاطبي ج١ ص٢٦٢.

فقال له شريك: والله ما رؤياك برؤيا إبراهيم الخليل، ولا كأن معبّرك بيوسف الصديق، فبالأحلام الكاذبة تضرب أعناق المؤمنين؟ فاستحى المهدي وقال: أخرج عني. ثم صرفه عن القضاء وأبعده[١].

* * *

ومرّت مشكلة خلق القرآن عبر التاريخ تتوارثها الأجيال، واستغل الحنابلة ميول بعض الأمراء إليهم فراحوا يوقعون المكروه بمن يخالفهم، وقد استمالوا الملك الأشرف فأصبح يعتقد بأن من يخالف عقيدة الحنابلة فهو كافر حلال الدم، وأصبح هذا الاعتقاد هو الاعتقاد الرسمي[٢].

وكان العز بن عبد السلام المتوفى سنة ٦٦٠هـ من العلماء المبرزين، ومن الدعاة إلى التحرر من نير التقليد الأعمى، وكان أشعري العقيدة، فتقدم الحنابلة إلى الملك الأشرف بأن الشيخ العز زائغ العقيدة، منحرف عمّا صحّ من العقائد الدينية الصحيحة، وأن الدين الذي هم عليه هو اعتقاد السلف والإمام أحمد وفضلاء أصحابه، وعلى هذا الاعتقاد الذي فرضه السلطان يقول الرستمي:

الأشعرية ضلاّل زنادقة ... إخوان من عَبَدَ العزّى مع اللات
بربّهم كفروا جهراً وقولهم ... إذا تدبّرته أسوأ مقالات
ينفون ما أثبتوا عوداً لبدئهم ... عقائد القوم من أوهى المحالات[٣]

وقد امتحن العز بن عبد السلام وغيره ممن يخالف الحنابلة في شيء من الاعتقاد، وكانت السلطة هي العامل الوحيد في بعث نشاطهم وامتداد حركاتهم، وبها ينتصرون على خصومهم الذين نبذوا الجمود وآثروا التدبّر والاحتكام إلى القرآن والسنّة، فالشيخ عز الدين بن عبد السلام إنما كان غرضاً لهم لما عرف عنه من أقوال ومواقف ثابتة تغاير ما يدعون إليه ـ وقد ذكرنا بعض أقواله ـ والتي نذكر منها قوله: (ومن العجب العجيب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف مأخذ إمامه بحيث لا يجد لضعفه مدفعاً، وهو مع ذلك يقلده فيه، ويترك من شهد الكتاب والسنّة

---

(١) المصدر السابق.

(٢) هامش ذيل تذكرة الحفاظ ص٢٦٣.

(٣) المصدر السابق.

والأقيسة الصحيحة لمذهبهم جموداً على تقليد إمامه، بل يتحيل لدفع الكتاب والسنة ويتأولها بالتأويلات البعيدة الباطلة نضالاً عن مقلّده).

وفي بغداد جلس أحد الحنفية المقربين عند السلطان بجامع القصر وجامع المنصور، وأخذ يلعن الأشعري على المنبر ويقول: كن شافعياً ولا تكن أشعرياً، وكن حنفياً ولا تك معتزلياً، وكن حنبلياً ولا تكن مشبّهاً، وأخذ يذم الأشعري ويمدح المذاهب الأربعة[1].

وشاعت الاتهامات بالباطل، ومضى الحنابلة في نشاطهم، فارتكبوا أعمال الفتك بمن لم يكن على عقيدتهم لأنه عندهم كافر حلال الدم استناداً إلى فتوى أحمد بن حنبل، فقد جاء عنه أنه يذهب إلى كفر من يقول بخلق القرآن، وسئل يوماً عن رجل وجب عليه تحرير رقبة مؤمنة وكان عنده مملوك يقول بخلق القرآن؟ فقال: لا يجزي، لأن الله تبارك وتعالى أمر بتحرير رقبة مؤمنة وليس هذا بمؤمن هذا كافر[2].

وقال أبو الوليد: من قال: القرآن مخلوق فهو كافر، ومن لم يعقد عليه قلبه على أن القرآن ليس بمخلوق فهو خارج عن الأسلام[3].

وقال علي بن عبد الله: القرآن كلام الله، من قال أنه مخلوق فهو كافر لا يصلّى خلفه.

وقال أبو عبد الله الذهلي المتوفى سنة ٢٥٥هـ: من زعم أن القرآن مخلوق فقد كفر، وبانت منه امرأته، فإن تاب وإلاّ ضربت عنقه، ولا يدفن في مقابر المسلمين، ومن وقف وقال: لا أقول مخلوق: وقد ضاهى الكفر، ومن زعم أن لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع، ولا يدفن في مقابر المسلمين.

وسئل أحمد بن حنبل عمن قال: لفظي بالقرآن مخلوق. فقال: هذا لا يكلّم ولا يصلّى خلفه، وإن صلّى أعاد. وان لا يسمح لأصحابه بالسلام على من يخالفه في رأيه.

* * *

(١) المنتظم ج٩ ص١٠٧.
(٢) ذيل طبقات الحنابلة ج١ ص١٣٣.
(٣) ابن العماد، شذرات الذهب ج٢ ص٣٢٢.

وعلى أي حال، فإن مشكلة القول بخلق القرآن ـ كما مرت الإشارة إليها ـ بلغت حداً يستغرب فيه الإنسان وقوع تلك الأحداث المؤلمة في زمن اشتدت الصراعات فأصبحت فيه مقياساً يقاس به إيمان المرء وكفره، وبهذا انعطفت موجة الصراع المذهبي نحو مرحلة جديدة من الخلاف، خلّفت وراءها مادة أخرى، ومحوراً جديداً تدور عليه مشاكل الأمة في خلافاتها المتواصلة.

وفي عهد المتوكل العباسي، عندما أفل نجم المعتزلة، وأفلت منهم زمام الحكم، وانحازت السلطة لجانب أهل الحديث وهو الجانب المعارض الذي يمثله جماعة أحمد بن حنبل، فانصبّ الغضب على المعتزلة بعد أفول نجمهم، واستغل دعاة الفرقة فرصة انتصار جانب المعارضة، وطلوع نجم أحمد بن حنبل باعتباره من الشخصيات المعارضة للدولة في فرض القول بخلق القرآن.

فكثر أتباع هذا الجانب، وظهرت الضغائن، ونبشت الدفائن، وسارت جموع مختلفة الاتجاهات، متباينة القوميات في ركاب اتباع أحمد بن حنبل إذ كان لهم دور السلطة في الدولة، وقد تجاوزوا أقصى حدّ في العقوبة والانتقام ممن خالفهم وبالأخص من المعتزلة والشيعة لعناً وقتلاً وتكفيراً، وتمادوا في مهاجمة المعتزلة حتى قالوا: أن المعتزلي لا تجوز الصلاة عليه، وأن دماءهم حلال للمسلمين، وفي أموالهم الخمس، وليس على قاتل الواحد منهم قَوَدٌ ولا ديّة ولا كفارة، بل لقاتله عند الله القربة والزلفى[1].

وقد ابتعدوا عن كل مبادىء العدالة، وخالفوا قواعد العلم مع المنطق، ففي سنة ٣٢٣هـ أحرق الحنابلة في الكرخ طرف البزازين، فذهبت فيه أموال كثيرة للتجار، وأطلق لهم الراضي ثلاثة آلاف دينار، وكان العقار لقوم من الهاشميين، فأعطاهم عشرة آلاف دينار، واحترق ثمانية وأربعون صنفاً من أسواق الكرخ طرح فيه النار قوم من الحنابلة، حيث قبض بدر الخرشي على رجل من أصحاب البربهاري يعرف بالدلأل، واحترق خلق من الرجال والنساء[2].

وخلفت الانفعالات وحالات التعصب والجهل جنوداً وأبطالاً ماهرين في الأذى

---

(١) انظر الفرق بين الفرق ص١٥١.

(٢) تكملة تاريخ الطبري ص٩٣.

وشجعاناً في الأضرار. وفي هذا الخضم استبيحت الدماء والأموال ففي سنة ٤٩٥هـ قدم بغداد عيسى بن عبد الله الغزنوي، فوعظ الناس ـ وكان شافعياً أشعرياً ـ فوقعت فتنة بين الأشعرية والحنابلة[١] إذ لا يروق لهم أن يكون أشعري أو شافعي بوظيفة الوعظ في تلك الأيام. فهاجوا لذلك، ووقعت الفتنة، ووقع فيها حريق ببغداد.

وفي سنة ٥١٣هـ دخل أبو نصر القشيري بغداد، فوعظ بها، فثارت الحنابلة ووقعت فتنة بينهم وبين الشافعية، وأُخرج القشيري من بغداد[٢]. وفي خوارزم أحرق الحنابلة جامعاً عظيماً في مرو بناه نظام الدين مسعود بن علي المتوفى سنة ٥٩٦، بناه للشافعية، فحسدتهم الحنابلة وأحرقوا الجامع.

يقول أبو حامد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥هـ: وقد سلمت المدارس لأقوام قل من الله خوفهم، وضعفت في الدين بصيرتهم، وقويت في الدنيا رغبتهم، واشتدّ على الاستتباع حرصهم، ولم يتمكنوا من الاستتباع وإقامة الجاه إلا بالتعصب، فحبسوا ذلك في صدورهم، ولم يتبهوهم على مكايد الشيطان فيه، بل نابوا عن الشيطان في تنفيذ مكيدته، فاستمرّ الناس عليه، ونسُوا أمهات دينهم. فقد هلكوا وأهلكوا، فالله تعالى يتوب علينا وعليهم.

وقال ابن كثير وهو في واقعه وحقيقته من كبار علماء الحنابلة رغم صبغة الشافعية بعد ذكره لهذا الحادث في تاريخه: (وهذا إنما يحمل عليه قلة الدين والعقل).

* * *

والواقع أن قضية خلق القرآن، هيأت للحنابلة عهداً بعث لهم النشاط في أعمالهم التي لا تدخل تحت نطاق الدين، ولا تخضع لحكم العقل، لأنهم قاموا بدور الغوغاء من الهمجية في كثير من القضايا، فقد كمّوا أفواه العلماء بغوغائهم من الردّ عليهم. خذ مثلاً قضية الشريف عبد الخالق بن عيسى شيخ الحنابلة عندما توفي وأراد العوام أن ينبشوا قبر أحمد بن حنبل ويدفنوه معه، ولم يستطع أحد من العلماء أن يردّ عليهم ويمنعهم عن نبش القبر، فقال أبو محمد التميمي من بين الجماعة: كيف

(١) راجع الطبري. ١٠/٢٨٦ وابن طيفور ١٨١ و١٨٢.

(٢) راجع ابن كثير ج١٢ ص١٦٢.

تدفنونه في قبر أحمد وابنة أحمد مدفونة معه؟ فإن جاز دفنه مع الإمام، لا يجوز دفنه مع ابنته. فقال بعض العوام: أسكت فقد زوّجنا بنت أحمد من الشريف، فسكت التميمي ودفنوه مع أحمد في قبره[1].

ونشط العوام في شذوذهم، فقابلوا حملة الفكر، وعلماء الأمة بالعنف، وعاملوهم بالغلظة، وحجبوهم عن الاتصال بالمجتمع.

فهذا محمد بن أحمد المعتزلي الفيلسوف المتكلم، لزم داره مدة من السنين، لم يستطع الخروج لأنهم غضبوا عليه.

والحافظ أبو نعيم صاحب الحلية المتوفى سنة ٤٣٠هـ تعصّب الحنابلة عليه، فهجره الناس خوفاً منهم.

قال محمد بن عبد الجبار: حضرت مجلس أبي بكر بن علي المعدّل، وكان بين الأشعرية والحنابلة تعصّب زائد، فقام إلى ذلك الرجل أصحاب الحديث بسكاكين الأقلام، وكاد أن يقتل[2].

كما أنهم رجموا أبا الفرج الإسفرايثيني الواعظ في الأسواق مرات عديدة، وأظهروا لعنه وسبّه لأنه لم يكن منهم. كما تعصبوا على الفقيه جعفر بن محمد الشافعي الموصلي وكان مقدماً عند السلطان، فحسدوه، وكتبوا محضراً نسبوه لكل قبيح، فنفي من الموصل سنة ٣٢٣هـ.

ولقي ابن عساكر شيخ الشافعية المتوفى سنة ٦٢٠هـ من الحنابلة أذى كثيراً، تعصباً عليه وتحدّياً لمقامه، وكان يتجنّب المرور بهم خشية إيقاع المكروه به منهم. وكان ابن قدامة عالم الحنابلة بدمشق يذهب إلى عدم إسلام ابن عساكر، لأنه يقول بالكلام النفسي، فلا يرد السلام عليه[3].

وكذلك الخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣هـ تحامل عليه الحنابلة واتهموه بالميل إلى المبتدعة، ويقصدون المبتدعة المتكلمين والأشاعرة، وقد حملهم التعصب

---

(١) شذرات الذهب ص٣٣٧.
(٢) تذكرة الحفاظ ج٣ ص٢٧٧.
(٣) طبقات الشافعية ج٥ ص٦٩.

فقالوا: إن الكتب التي تنسب إليه ليست له، وإنها للصولي، فسرقها ونسبها لنفسه[1].
واتسع نشاطهم فعمّت الفوضى في البلاد، وذلك في عهد الراضي، فأصدر منشوراً يردّ عليهم ويعدّد مساوئهم، ويهدّدهم بالعقاب، والنكال. وجاء في المنشور الذي وجهه إليهم قوله:

وقد تأمل أمير المؤمنين أمر جماعتكم، وكشفت له الخبرة عن مذهب صاحبكم.... [2] زيّن لحزبه المحظور، ويدلي لهم حبل الغرور، فمن ذلك تشاغلكم بالكلام في ربّ العزّة تباركت أسماؤه، وفي نبيّه والعرش والكرسي، وطعنكم على خيار الأمة، ونسبتكم شيعة أهل بيت رسول الله إلى الكفر والضلال، وإرصادهم في الطرقات والمحال، ثم استدعاؤكم المسلمين إلى التدين بالبدع الظاهرة والمذاهب الفاجرة التي لا يشهد بها القرآن. إلى آخر ما يتضمنه المنشور من تعداد مساوىء تلك الخصال، والتهديد لهم بالعقوبة وعظيم النكال.

إذن، تمكّن التعصب من نفوس العامة، واشتدّ أمر الحنابلة، وكان منهجهم يتّسم بالعنف، والتعدي على كل من خالفهم الرأي. وهكذا تلونت الأحداث بتعدد الحكام وتغيّر الأغراض، فإذا ارتأى المأمون أن تكون قضايا الفكر والعمل شعاراً لدولته فقد كان ينزع إلى خدمة الحكم وتوطيد أركان السلطان، حتى استطاع أن يجعل المتعلقين بالحكم والمستفيدين من الخلافة تبعاً له في رأيه.

ويقتضي البحث أن نشير دون تفصيل إلى أوامره في هذه المشكلة، وهي إن أدرجت في عرض للمقارنة نراها تضمّ أفكار المعتزلة، وهذه الأوامر تذكر دوماً في المراجع والكتب التي تؤرخ لهذه القضية، وتجدها مبسوطة فيها، ونحن نختار ما صدر من المأمون عندما كان في الرّقة، ونقتصر منه على الجزء الذي يتناول مسألة خلق القرآن، وكان ذلك سنة ٢١٨هـ - كما ذكرنا - فقد قرر المأمون أن يتولى إلزام الناس بالقول في خلق القرآن، واختار أن يبدأ بأنفار عيّن أسماءهم، منهم: محمد بن سعد كاتب الواقدي، وأبو مسلم مستملي يزيد بن هارون، ويحيى بن معين، وزهير بن حرب أبو خيثمة، وإسماعيل بن داود، وإسماعيل بن أبي مسعود،

---

(١) ابن مسكويه، تجارب الأمم ج١ ص٣٢٢.
(٢) بياض في الأصل.

وأحمد بن الدورقي. فأشخصوا إليه، فامتحنهم وسألهم عن خلق القرآن، فأجابوا جميعاً أن القرآن مخلوق. وتبنّت سلطته في بغداد أمر إشاعة ذلك عنهم وتقرير قولهم بحضور الفقهاء ورجال أهل الحديث[(1)].

واتخذت أفكار المعتزلة ومعتقداتهم صفة الأمر السلطاني كما جاءت على لسان المأمون في أمره إلى إسحاق بن إبراهيم (. . . والله عز وجل يقول: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ وتأويل ذلك: إنا خلقناه. كما قال جل جلاله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ وقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۞ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ فسوّى عز وجل بين القرآن وبين هذه الخلائق التي ذكرها في مشيئة الصنعة، وأخبر أنه جاعله وحده فقال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۞ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ فقال ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن، ولا يحاط إلا بمخلوق. وقال لنبيه ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ وقال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ وقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ وأخبر عن قوم ذمهم بكذبهم أنهم قالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ ثم أكذبهم على لسان رسوله فقال لرسوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ فسمى الله تعالى القرآن قرآناً وذكراً وإيماناً ونوراً وهدى ومباركاً وعربياً وقصصاً فقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ وقال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ وقال: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ وقال: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ فجعل له أولاً وآخراً، ودلّ عليه أنه محدود مخلوق. وقد عظم هؤلاء بقولهم في القرآن المتكلم في دينهم والحرج في أمانتهم، وسهلوا السبيل لعدو الإسلام، واعترفوا بالتبديل والإلحاد على قلوبهم، حتى عرفوا ووصفوا خلق الله وفعله بالصفة التي هي لله وحده، وشبّهوه والأشباه أولى بخلقه، وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حظاً في الدين، ولا نصيباً من الإيمان واليقين، ولا يرى أن يُحل أحداً منهم محل الثقة في أمانة ولا عدالة ولا شهادة ولا صدق في قول ولا حكاية، ولا توليه لشيء من أمر الرعية. . .) إلى آخر كتابه.

ومع هذه الحالة الفكرية والصياغة الدينية، وما اتصف به حكم المأمون من

---

(1) راجع الطبري ١٠/٢٨٦ وابن طيفور ١٨١ و١٨٢.

ظاهر الميل إلى العلويين، فإن أغراض الحكام الشخصية تكاد في دوافعها تكون واحدة على مرّ الأجيال في التاريخ الإسلامي، فعندنا أن القالب جديد، غير أن الجوهر واحد، وهو استخدام الدين للمصالح والمنافع، وتأكيد السيطرة والهيمنة. فها نحن أولاء أمام الحكام وهم يعرّضون الأمة للبلاء مرة أخرى، ويعدّون لأخصامهم النقمة والمحن. وعندما يبدأ معاوية بإسقاط من يرى فضل علي أو يروي حديثه من الديوان، ويأمر بهدم دار من يوالي علياً، حتى كانت النقمة على الزنادقة أهون من أفعال السلطة بمن يودّ أهل البيت. فقد كان رجال أهل البيت والأئمة منهم قد تعاهدوا أمر أصحابهم بالسياسة الملائمة، أو بالثورة والسيف منذ عهد الإمام الحسن حتى نهاية عهد الإمام الصادق عليه السلام ثم جاءت الفترة العباسية، فكانت القيادة للإمام موسى بن جعفر بتقواه وزهده، ثم للإمام الرضا بعلمه وحكمته. فلم تحدث النتائج التي سنراها فيما بعد هذه الفترة، وقد استعرضنا في الأجزاء السابقة من كتابنا آثار مواقف الأئمة وعلى الأخص موقف الإمام الصادق وكيف اتّجه إلى تربية النفوس وشدّ القلوب بروابط الإيمان والعلم، وكان سلطانه على أتباعه ومحبيه سلطان دين وعقيدة، فكانت طرقه في الدعوة إلى الدين ومنهجه في الأحكام والفقه منهلاً أغنى الأمة، واغترفت منه فطاحل الرجال.

وفي مشكلة خلق القرآن، اتبع المأمون السياسة ذاتها، لأن الظاهر قد يتغير، أما الجوهر وحقيقة الدوافع فليس لها على صعيد الحكم غير القوة والتعدّي والعنف وإراقة الدماء، فكأننا إذا ما قرأنا أوامر المأمون نقرأ تعليمات الأمويين وأوامرهم، فتراه يتّهم بالكفر من يخالفه، ويأمر بضرب الأعناق. ليتسلّى برؤية الرؤوس. ولا نريد أن نذكر أوامره لطولها وتفاصيلها، إنما نذكر شيئاً يسيراً (. . . ومن لم يرجع عن شركه ممن سمّيت لأمير المؤمنين في كتابك وذكره أمير المؤمنين لك أو أمسك عن ذكره في كتابه هذا ولم يقل أن القرآن مخلوق بعد بشر بن الوليد وإبراهيم بن المهدي، فاحملهم أجمعين موثقين إلى عسكر أمير المؤمنين، مع من يقوم بحفظهم وحراستهم في طريقهم، حتى يؤديهم إلى عسكر أمير المؤمنين، ويسلمهم إلى من يؤمن بتسليمهم إليه، لينصحهم أمير المؤمنين، فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعاً على السيف).

ولقد فتح المأمون على الأمة باباً من البلاء لم يغلق، فقد بلغت سياسته حدّ الولع بما تواضع عليه الناس واستلموه وتوارثوه ناجزاً، عملت على تكوين عوامل

السلطة وأصحاب الأغراض المختلفة، فعمد إلى سلطة الحكم لأحداث هزّة في طريقة بقاء الناس على استسلامهم واستمرارهم على موروثهم، وفكّر في المجاهرة بأمور ينتهي إليها النظر الجريء والحرّ، لكن حركة الرأي ونشاط العقل مهما شهدت من ألوان وضروب متطورة، لم تشمل المجتمع بأسره، ولم تسع الناس جميعاً، ولا بد أن يبرز للموروث موقف، كما أنها ليست هي الدين كله. وقد أساء بذلك.

لقد تهيأت الظروف لأن يبرز أحمد بن حنبل. وكان وراءه شيوخ آخرون دفعوه إلى الثبات بوجه المأمون وعدم الأذعان، كأبي جعفر الأنباري الذي لحق بابن حنبل لمّا حمل إلى المأمون وقال له: يا هذا، أنت اليوم رأس والناس يقتدون بك، فوالله لأن أجبت إلى خلق القرآن ليجيبني بإجابتك خلق من خلق الله، وإن أنت لم تجب ليمتنعنّ خلق من الناس كثير، ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك فأنت تموت، ولا بد من الموت، فاتقِ الله ولا تجبهم إلى شيء. فجعل أحمد يبكي ويقول: ما شاء الله، ما شاء الله. ثم قال أحمد: يا أبا جعفر، أعد عليّ ما قلت. فأعاد عليه، فجعل يقول: ما شاء الله، ما شاء الله[١].

وقد انتهى الأمر إلى أن يبقى أحمد بن حنبل وحده في امتحان السلطة له، حيث تخلّى كل نفر عن الثبات، ولم يبق معه إلا محمد بن نوح الذي كان معه في الاقتياد إلى المأمون، وقام محمد بن نوح بما يقوم به الآخرون وهم خارج الاعتقال، والذين أخذوا يرون في أحمد رمزاً لبقاء مناهجهم وطرقهم في القول والحكم. وقد كان محمد بن نوح حدثاً وهو يمثل حالة أو مرحلة عمرية تشد إليها من كانوا في عمره، فكيف إذا كانت نهايته الموت وهو في ظل الاعتقال والتعذيب، فقد مات وهما في الطريق إلى المأمون. ولكن محمد بن نوح كان يقول لأحمد بن حنبل: يا أبا عبد اللّه الله الله، إنك لست مثلي، أنت رجل يُقتدى بك، وقد مدّ الخلق أعناقهم إليك بما يكون منك. فاتقِ الله واثبت لأمر الله[٢].

وتوفي المأمون في السنة نفسها، وخلفه المعتصم، وكان المأمون قد وضع لأخيه السياسة التي يلتزمها، وقد كان استمراره على القول بخلق القرآن لا عن وعي

---

(١) ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد بن حنبل ص٣١٤.

(٢) أيضاً ص٣١٥.

والمام، وإنما سياسة وتقليداً، فهو لا يرقى إلى درجة أخيه في الاطلاع، فقد عرف عنه قلة علمه، ويروى أن أباه كان عُني بتأديبه في أول أمره، فمرّت به جنازة لبعض الخدم فقال: ليتني كنت هذه الجنازة، لأتخلص من همّ المكتب. فأخبر الرشيد بذلك، فقال: والله لأعذّبنه بشيء يختار الموت من أجله. وأقسم ألا يقرأ طول حياته، ويبدو أنه كان قريباً من الأمية كما وصف نفسه في بعض الروايات، ولهذا فإن بقاء القول بخلق القرآن يفقد في عهده الجوانب الفكرية، ويبقى الدافع السياسي الذي شمل المتنفذين من المعتزلة أيضاً ممن أغرتهم السلطة كأحمد بن أبي دؤاد الذي كان يمثل عامل بقاء سياسة المأمون، وفي الوقت الذي نجد فيه إشارات إلى خروج المعتصم عن نهج العنف، نجد ابن أبي دؤاد يذكّر المعتصم أنه لو سلّم ولان، فسيقال حتماً عن المعتصم أنه ناهض مذهب المأمون، وأن الناس سيرون أن أحمد قد أحرز نصراً على خليفتين، وهي نتيجة قد تحفّز أحمد بن حنبل على أن يعدّ نفسه زعيماً، مما يفضي بدولة الخلفاء إلى أوخم العواقب، وهو ما نص عليه المقريزي في المقفى الذي نقل عنه المستشرق الأمريكي ولتر ملفيل والذي نحن في سياق قوله الآن[1] ذكر المقريزي: قال أبو عبد الله وجعلت بين العقابين. فقلت: يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرىء مسلم يشهد ألا إله إلا الله وإني رسول الله إلا بإحدى ثلاث. . .» الحديث[2] وقال رسول الله ﷺ «أمرت بأن أقاتل الناس. .» الحديث[3] فبم تستحل دمي، ولم آت شيئاً من هذا؟ يا أمير المؤمنين أذكر وقوفك بين يدي الله عز وجل كوقوفي بين يديك، يا أمير المؤمنين راقب الله. فلما رأى المعتصم ثبوت أبي عبد الله وتصميمه، لان لأبي عبد الله، فخشي ابن أبي دؤاد من رأفته عليه فقال: يا أمير المؤمنين، إن تركته، قيل أنك تركت مذهب المأمون وسخطت قوله، وأنه غلب خليفتين. فهاجه ذلك وطلب كرسياً، جلس عليه وقام ابن أبي دؤاد وأصحابه على رأسه. انتهى.

ومن الصورة التي نطلع عليها، وفي وسطها أحمد بن حنبل، نرى أن ابن حنبل

---

(١) ولتر ملفيل پاتون، أحمد بن حنبل والمحنة، ترجمة عبد العزيز عبد الحق ص١٥٠.

(٢) تكملة الحديث: «كفر بعد إيمان، وزنا بعد إحصان، وقتل النفس بدون نفس» وفي بعضها غيره.

(٣) تكملة الحديث: «حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإن قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم» وفي بعضها غير هذا النص.

في السلوك والتصرّف يلتزم بتعاليم السنة، ويحتج بأحاديث النبي محمد ﷺ ويحاول بهما أن يحمي نفسه ويصون كرامته، ويلوذ بالعلم، ويتوسّل بالفقه ليردّ عنه كيد السلطة، حتى لتطالعنا من بين ملامح تلك الصورة أن أحمد بن حنبل ساير قوة السلطان، وأظهر ما يريد الحكام تحت وقع السياط، ليكفّ الأذى ويدفع العذاب، فهذا مؤرخنا اليعقوبي يقول: وامتحن المعتصم أحمد بن حنبل في خلق القرآن، فقال: أنا رجل علمت علماً، ولم أعلم فيه بهذا. فأحضر له الفقهاء، وناظر عبد الرحمن بن إسحاق وغيره، فامتنع أن يقول أن القرآن مخلوق، فضرب عدة سياط. فقال إسحاق بن إبراهيم: ولّني يا أمير المؤمنين مناظرته. فقال: شأنك به. فقال إسحاق: هذا العلم الذي علّمته نزل به ملك، أو علمته من الرجال؟ فقال: بل علّمته من الرجال. فقال: شيئاً بعد شيء أو جملة؟ فقال: علمته شيئاً بعد شيء. قال: فبقي عليك شيء لم تعلمه؟ قال: بقي عليّ. قال: فهذا مما لم تعلمه، وقد علمك أمير المؤمين. قال: فإني أقول بقول أمير المؤمنين. قال: في خلق القرآن؟ قال: في خلق القرآن. قال: فأشهد عليه، فخلع عليه وأطلقه. انتهى. وهنا نلاحظ أن أحمد بن حنبل بعد خروجه من السجن وامتحان القوة له، قد وجد العامة التي تضرّرت بمواقف وسياسة المأمون وخلفه تنتظر خروجه وتتشوق للقياه، فيبالغ في الرد، ويسمح لنفسه بالحكم على مخالفيه بما لم يرد به نص، وبما يخالف ما احتج به أمام قوة السلطان وهو يمتحن أمام خلفاء بني العباس ويتقي اعتداءهم. كما نلاحظ في عموم سيرته غموضاً، وأحياناً خفاءً في رأيه في الإمام علي عليه السلام أو يزيد بن معاوية، إذ تضطرب كما في الروايات، ومهما يكن من أمر، فإن العامة قد وجدت نفسها مستهدفة من قبل سياسة بني العباس في عهد المأمون وخَلَفيه حيث ظهرت السلطة بمظهر العلم وصفة المتكلّمين. وقد كان المأمون شديداً عليهم وهو يستعير منطق المعتزلة وأفكارهم، ويصدر أوامره السلطانية من مرو ليلبس حكمه لبوس المرحلة، فيقول في أول كتاب له: وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة فمن لا نظر له، ولا رؤية ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته، ولا استضاء بنور العلم وبرهانه في جميع الأقطار والآفاق، أهل جهالة بالله وعمى عنه، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والإيمان به، ونكوب عن واضحات إعلامه وواجب سبيله، وقصور عن أن يقدروا الله حق قدره، ويعرفوه كنه معرفته، ويفرقوا بينه وبين

خلقه بضعف آرائهم ونقص عقولهم، وخفائهم عن التفكير والتذكر[1]. هذا والسلطة تتحول إلى الخضرة وتغيّر شعارها الأسود تقرباً إلى الشيعة، وقضية إسناد ولاية العهد إلى الإمام الرضا ما زالت في الأذهان، ولا بد أن قضية سمّه وقتله لا تهمّ الآخرين أكثر مما تهمّهم المظاهر، وبين فترة وأخرى يهمّ المأمون في القول بمسألة على رأي الشيعة، بينما قضية امتحان السلطة للعلماء لها طابع معتزلي، والعامة أخذت تنظر إلى أهل الرأي والفكر نظرة واحدة، لأن الفترة حديثة عهد، والحركة ما زالت في بواكيرها، ومناهج الكلام وأساليب القول قامت كالموجة التي تهدد ركود الغدران بالتحول أو الفناء.

لقد أعلنت السلطة طابعها أو انحيازها إلى أهل الفكر وتيارات الكلام، وجاء بيانها شديداً استفزّ العامة الذين كانوا قاعدة الحكام منذ عهد معاوية، وتهيأ على مر المراحل ممن لبس لبوس الدين، وتجلبب بجلباب العلم، أن يبذل أقصى ما يستطيع ليرضي السلطان، ويجعل الجمهور ينظر إلى حال الحاكم من خلال ما يصوّرونه لهم، فاحتل الحكام في أنظارهم موقع القداسة، وأحنوا الرؤوس برغم ما يُسفك من دماء، وتنتهك من حرمات، ويستباح من أعراض، فألِفُوا أموراً في كل شأن من شؤون الاعتقاد والحياة، وورثوها على نمط الحكام وصياغة المنتفعين.

وللأسف، فإن تحوّل السياسة وانعطاف المأمون إلى أوجه جديدة فكرية متكلّفة، وما أحدث ذلك من هزّة عنيفة، لم تعالج بما يساعد على كبح جماح الانفعالات ولجم الجهل، فإضافة إلى توافر أسباب الهياج وشيوع مضمون سياسة السطة، وما يوفره ذلك من مادة غنية لشدّ الجمهور والتلاعب بعواطفه، ودفع مشاعره إلى أشد حالات النقمة، أصبحت كلمة الجهل أو الأوصاف التي يطلقها رجال المناظرات وأساتيذ الكلام على خصومهم الذين يسترون جهلهم بالعناد والتعصب، أدلة أخرى ألّبت الناس على أهل الفكر قبل أن تألبهم على العباسيين وأغراضهم السياسية، فضاعت في وسط ذلك الأسباب الحقيقية لقيام مثل هذه المرحلة، وكان تقصير الجهات فيها متماثلاً، إذ لم يبذل المعتزلة ما يكفي من جهد بعيداً عن السلطة، بل انتقلت حصيلة اعتقاداتهم إلى الحكام وألحقتهم السلطة بها.

---

(١) ابن طيفور، ص١٨١.

كما كان الطرف الآخر يعتمد على الاستثارة والاستفزاز، ليستفيد من نتائجهما في الإبقاء على ممسك الجمهور ومحافظتهم على الأوضاع التي ألفوها وعاشوها، ولمّا اجتاز أحمد بن حنبل الأزمة صبّ جام غضبه على أصل القضية، فأباح لنفسه الفتوى والقول بكفر من يقول بخلق القرآن. وقد مرّ بنا ذلك وأشرنا إلى ما جاء عنه في كفر من يقول بخلق القرآن، إذ سئل عن رجل وجب عليه تحرير رقبة مؤمنة وكان عنده مملوك يقول بخلق القرآن؟ فقال: لا يجزي، لأن الله تبارك وتعالى أمر بتحرير رقبة مؤمنة.

ولم يكن أحمد بن حنبل أو الجمهور في حال يجاهرون بها بالخروج على رأي الحاكم أيام المعتصم، إذ يروى أن أحمد أمسك في عهد المعتصم حتى عن رواية الحديث الذي هو عماد مكانته ومقوم شخصيته، فهو الحافظ الذي ينبسط في الرواية ويتقيد بها حتى قيل: إنه أقرب إلى الحديث منه إلى الفقه. ولا ننسى أن هذه الفترة شهدت غياب الإمام الرضا، وكون ابنه الإمام محمد الجواد ما زال في مقتبل العمر، وتتضافر الروايات على ما بلغه في العلم والحكمة والأدب وكمال العقل، حتى أن المأمون أراد أن يوجد للصبغة التي أرادها لحكمه دلالة جديدة، فزوّجه ابنته أم الفضل، واتجه إلى المدينة، وابتعاده عن العراق أمر له مغزى كبير، اختياراً منه وعملاً بنهج أبيه، وكيف حمل ولاية العهد اسماً، ولم تنجح وسائل المأمون مع الإمام الرضا في زجّه في شؤون السلطان، وإذا كان أهل البيت قد عملوا على تهذيب النفوس بتعاليم الإسلام وترسيخ الأحكام في المجتمع بتربية النشأ وإرشاد الناس، فقد كان الرضا عليه السلام يقول: «إنما يؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر مؤمن فيتعظ، فأما صاحب سيف وسوط فلا». وكان قوله المشهور للمأمون: «ما التقت فئتان قط إلا نصر الله أعظمهما عفواً». فعاد الإمام الجواد إلى مهبط الوحي ومهد النبوة، وسعى عليه السلام إلى توجيه الناس وبث العلم ونشر الأحكام، وكانت الوفود تأتيه من الأقطار النائية لأنه وارث علم أهل البيت عن أبيه الرضا عليه السلام غير أن المعتصم أعاده إلى بغداد وانتهى شهيداً مسموماً على يد بني العباس.

فكأن الناظر إلى أعمال بني العباس في هذه الفترة يجد تقرباً ورعاية إلى آل علي، في حين أن حقيقة ما يعيشونه مكابدة رهيبة تنتهي بهم إلى الموت. كما أن العلويين استمروا في مناهضتهم للسلطة، ولم تنطل عليهم خدع الحكام وتكريم

المأمون للطالبيين أو العلويين، وعدم منعهم من الدخول عليه؛ حتى ثار عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب ببلاد اليمن ودعا إلى الرضا من آل محمد. فأرسل إليه المأمون جيشاً كثيفاً تحت قيادة دينار بن عبد الله، وكتب معه أماناً لعبد الرحمن، فقبله وسار إلى المأمون، فمنع المأمون عند ذلك الطالبيين من الدخول عليه، وأمرهم بلبس السواد[1] وامتنع أكثرهم عن لبس السواد، فكان عقابهم السجن. فهذا عبد الله بن الحسين بن عبد الله بن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب امتنع عن لبس السواد وحرّمه لما طولب به، فحبس بسر من رأى في أيام المعتصم حتى مات في الحبس[2] كما استمر على رفض سلطة العباسيين جماعة من العلويين ولجأوا إلى الثورة. ويمكننا القول أن محاولات بني العباس بلونها هذا قد استطاعت أن تجعل الرقابة والقيود التي اعتاد عليها أئمة أهل البيت والمفروضة عليهم من قبل الحكام مناسبة لأصول اتجاهات الرأي ومدارس الكلام، لكنها في حقيقتها واحدة. فعلم أهل البيت وتعليمات الأئمة كانت منهلاً وينبوعاً لهذه الاتجاهات، وكان المعتزلة على الأخص من أقرب الناس رأياً إلى فقه أهل البيت، وإن ضمّت صفوفهم رجالاً أبعد ما يكونون عن الولاء، حيث تأثر معتزلة البصرة بما يحيط بهم، وتأثر معتزلة بغداد بغير ذلك، وبناءً عليه فكيف يدّعي المأمون العلم والانتصار للفكر، ويتبع سياسة السجن واعتقال رجال أهل البيت الذين لا ينكر المعتزلة تأثرهم واقتدائهم بهم؟ فأخذ بالتظاهر الذي يصعب معه الاطمئنان إلى زوال نوازع الكره والعداء لأهل البيت.

وكان المعتصم مقلداً ومنفذاً لسياسة المأمون بجوانبها المختلفة في الموقف من رجال الفكر ومعاملة أهل البيت، ثم جاءت مرحلة الواثق التي تمثل المرحلة الوسطى التي تسبق عودة السياسة العباسية إلى عهدها على يد المتوكل. ومع أن رجل المعتزلة السلطاني أحمد بن أبي دؤاد قد تمكّن من إبقاء قضية خلق القرآن على واجهة الحكم، إلا أن الواثق لم يتعرّض إلى أحمد بسوء، وأرسل إليه وقال له: لا تساكني بأرض، فاختفى أحمد بقية حياة الواثق.

---

(١) ابن الأثير ٤/١٥٦.

(٢) المقاتل ٣٨٥.

ونحن نجد في أحداث هذه المشكلة من مظاهر الظلم والعنف ما تأباه النفوس، لكنها تصبح غير ملفتة إذا ما قورنت بأهوال السجون ومصائب التعذيب التي يلقاها آخرون، فدع عنك كيف استشهد الإمامان الرضا والجواد على يد حكام يتظاهرون بالودّ، وخذ مثلاً من عرف من العباسيين بعدائه لأهل البيت. ومع ذلك فلا يقرّ ما يجري في ظل الحكام من اعتداء على حرمة الرأي أو العلماء، بل نذكره للإدانة ونسطّره لتعرف الأجيال ما ارتكب الحكام. ومن أحداث هذه الفترة التي تتصل بالقول بخلق القرآن أن شيخاً من الشام جيء به إلى الواثق، فلما دار النقاش اتفق الواثق مع رأي الشيخ في جواز الإمساك عن هذه المقالة ما اتسع لهم كما اتسع لرسول الله وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وأمر الواثق بقطع قيد الشيخ، فلما قطعوا القيد ضرب الشيخ بيده إلى القيد حتى يأخذه، فجاز به الحداد، وأخذه من الحداد قائلاً: لأني نويت أن أتقدم إلى من أوصي إليه أن يجعله بيني وبين كفني حتى أخاصم به هذا الظالم عند الله يوم القيامة وأقول: يا ربِّ، سل عبدك هذا لم قيدني وروّع أهلي وولدي وإخواني بلا حق أوجب ذلك عليّ؟

ثم جاءت فترة عهد المتوكل الذي استلم الحكم في سنة ٢٣٢هـ فعاد النُصْب بأوضح صوره[١] وتجدّد العداء لآل البيت بأقبح أشكاله، وليس ذلك بردّ فعل لما سبق، وإنما ردود الفعل تمثلت في موقعه في مسلسل الحكام من بني العباس. يقول ابن كثير: وكان المتوكل محبباً إلى رعيته؟ قائماً في نصرة أهل السنة، وقد شبهه بعضهم بالصدّيق في قتله أهل الردّة لأنه نصر الحق وردّه عليهم حتى رجعوا إلى الدين، وبعمر بن عبد العزيز حين ردّ مظالم بني أمية، وقد أظهر السنّة بعد البدعة، وأخمد أهل البدع وبدعتهم بعد انتشارها واشتهارها.

وأكرم المتوكل أحمد بن حنبل، وكتب إلى نائبه ببغداد أن يبعثه إليه، وكان حتى وفاة أحمد يتفقده ويوفد إليه في أمور يشاوره فيها ويستشيره في أشياء تقع له[٢]. وبدأ الحنابلة مع السلطة منذ هذا التاريخ يسهمون في تعميق روح الخلاف، ونحن ـ وإن قلنا برد الفعل ـ إلا أن الأمر تجاوز ذلك لاستسهال أمر الاتهام بالكفر والخروج

---

(١) انظر الجزء الأول من الإمام الصادق والمذاهب الأربعة.

(٢) ابن كثير ١٠/ ٣٤٠.

على الدين. فاهتزّ كيان الأمة، واختلّ بناء المجتمع، وقد أطلعنا فيما مضى على جانب من الأحداث التي تقوم بتأثير العصبية والجهل. واستمر الحنابلة يعنون بالهيمنة على الحكم، حتى أن المطيع بالله كان يتقرّب إليهم بالتظاهر بسماعه وترديده أقوالاً لأحمد بن حنبل، وقد كان يحدّق به خلق كثير من الحنابلة قدروا بثلاثين ألفاً، فأراد أن يتقرب إليهم، في حين كان الناس يأكلون الأطفال والجيف لشدة الجوع، وإذا رأت الدواب اجتمع جماعة من الضعفاء على الروث، فالتقطوا ما فيه من حبّ الشعير فأكلوه، وكانت الموتى مطرحين فربما أكلت الكلاب لحومهم[1].

وامتدت مشكلة خلق القرآن لعهود طويلة، وبتأثير الحنابلة شملت الاتهامات أغلب الطوائف، ففي سنة ٤٠٨هـ استتاب القادر بالله فقهاء المعتزلة الحنفية، فأظهروا الرجوع وتبرّؤا من الاعتزال، ثم نهاهم عن الكلام والتدريس والمناظرة في الاعتزال والرفض والمقالات المخالفة للإسلام، وأخذ خطوطهم بذلك، وإنهم متى خالفوه حلّ بهم من النكال والعقوبة ما يتّعظ به أمثالهم، وامتثل يمين الدولة وأمين الملة أبو القاسم محمود أمر أمير المؤمنين واستنّ بسنّته في أعماله التي استخلفه عليها من خراسان وغيرها في قتل المعتزلة والرافضة والإسماعيلية والقرامطة والجهمية والمشبّهة، وصلبهم وحبسهم ونفاهم، وأمر بلعنهم على منابر المسلمين، وإبعاد كل طائفة من أهل البدع، وطردهم من ديارهم، وصار ذلك سنّة في الإسلام[2].

ثم تبادل النّاس فيما بينهم الاتهامات، وغدت سنّة الحكام شاملة، وشاع التعصب مع سعي حثيث إلى إدخال الحكام في صميم الأمر، والاستعانة بقوة السلطان، ونحن سنعرض إلى جوانب من ذلك بحسب مواقعها من الكتاب.

---

(١) المنتظم ٦/ ٣٤٤.

(٢) المنتظم ٧/ ٢٨٧.

٣ ـ البدع والضلالات

وهكذا أدّت تدخلات الحكام إلى نتائج أساءت كثيراً إلى حركة الفكر والكلام، وشجعت قيام ظروف ملائمة للاتهامات والعداء. وإذا نظرنا إلى تاريخ الحكام في الإسلام وموقفهم من أعدائهم، رأينا أن سلاح التكفير والخروج عن الدين كان من أهم ما يشهره الحكام لاجتناب العامة واستغلال مشاعرهم المختلفة، والبروز بمظهر ديني غير حقيقي، ولما حدثت هذه الأحداث وتحكّمت النزعات وهيمن التعصب على النفوس، تبادلت الطوائف الاتهامات، وأصبح الاتهام بالبدعة والضلالة أمراً مألوفاً، كما أصبح استحلال الدم وما يتبع ذلك من فظائع الأمور التي تشلّ حركة الفكر وتمزّق المجتمع شرّ ممزّق، إذ لم يكن استخدام لفظي البدعة والضلالة قائماً على أساس صحيح مجرد من العواطف والنزعات الخاصة. فقد تدخلت الأغراض المختلفة: أغراض الملوك، وأغراض المتنفذين والمتزعمين في شتى الميادين. وقوبل استسهال الحكم بالكفر أو الضلال بأعمال وفتاوى مقابلة، ومرّت الأعوام ولفظ الضلالة والبدعة يستخدمان وفق الأغراض، وكل جهة يصدر منها الاتهام يصدر من أختها في الدين ما يقابل ذلك.

وأصبحت حركة المذاهب تتبادلها بسهولة، وهي في كل الأحوال تحدث في حالة تتغلب فيها العواطف على حكم الدين، فعقيدة الإسلام واضحة جلية وإن استجد ما يخرج على القواعد والأصول وروح الإيمان، فالتصدي لهذا الخروج وإطفاء باطله واجب على كل مسلم، فإذا كانت مبادىء الإسلام واضحة وعقائده جلية، فما لا يجري على منواله ويقتدي بروح القرآن بيّن معروف يكون من السهولة الإجماع عليه، أما إذا كان تحكماً وخضوعاً للأهواء فهو المصيبة التي نحن بصدد بيان بعض أجزائها وجوانبها.

فالمذاهب أصبحت تدّعي أن كلاً منها على حق، وغيرها على الضلالة.

والبدعة لغوياً كل شيء أحدث على غير مثال سابق، سواء كان محموداً أو مذموماً. والبديع: محدث عجيب غير معروف، وهي تفيد معنى الأحداث والاختراع. أما البدعة اصطلاحاً فهي مدار اختلاف الفقهاء شرعاً، ويميل أغلب العلماء إلى أنها إحداث في الشرع، وعند بعضهم قد يكون مذموماً أو محموداً. ولكن روح العداء أخضعت اللفظين لأغراضها، فاتهمت كل طائفة الأخرى بالبدعة والضلالة دون تمييز وهو انحراف عن واقع الحال، وبُعد عن الحقيقة، ومن هذا ما ذهب إليه ابن المقري الشافعي في تمثيله للمبتدع بالحنفي، وصاحب البزازية الحنفي يمثل المبتدع بالشافعي، وأمثال هؤلاء كثيرون بين المذاهب الأربعة[١].

كما وقد وضعت كتب تتضمن بيان الفرق الإسلامية وشرح عقائدها وتصف الكثير منها بالبدعة أو الضلالة أو الكفر أخيراً.

وتمرّ السنون، وتكثر الكتب من دون جدوى في تحديد هذين الاصطلاحين لنعرف ما هي البدعة التي يستوجب صاحبها النار، بسبب الضلال عن الهدى؟ كما ورد في الحديث: «كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار». فكيف نتعرف على البدعة ونجتنبها؟ وما هي الضلالة التي توجب دخول النار؟ هل لها حدّ شرعي أو تعريف لغوي؟ وقد اختلفت المصاديق وتعدّدت الأقوال. وحديث الفرق أن النبي قال: «ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، اثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة» وبلفظ آخر «كل على الضلالة إلا السواد الأعظم» فلهذا الحديث شأن وقد تعرّضنا له سابقاً وشكّكنا في صحة نسبته إلى النبي ﷺ على إجماله بدون بيان، وهذا ما يوجب إغراء الأمة بعضها ببعض، وتحامل الناس بعضهم على بعض، وسنعود للحديث عنه إن شاء الله.

ويقي تعريف البدعة هو ما اخترع على غير مثال سابق، فهي لغوياً كما في لسان العرب: بَدَعَه أنشأه كابتدعه. وبدع الله الخلق أحدثهم لا على مثال سابق. وبدع سمن، وبدع بداعة وبدوعاً صار بديعاً، وأبدع أبدأ والشاعر أتى بالبديع فهو مبدع، ومنه البديع الخالق المخترع، وفي المذهب أنها إيراد أقوال لم يستند فاعلها أو قائلها

---

(١) سر انحلال الأمة ص١٨٩.

فيها لصاحب الشريعة لأن أصل مادة بدع الاختراع على غير مثال سابق، كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ ولكن مجريات الأحداث وتطورات الأمور جعلت التعريف في اختلاف ومذاهب، فمنهم من جعلها في العبادات خاصة، ومنهم من جعلها في العبادات والعادات.

فتعدّدت وجهات النظر في إطلاق البدعة أو الضلالة، واستهل الناس قذف الآخرين بها مما عمّق الخلاف بين المذاهب أو الطوائف، فطائفة تتهم الأخرى بالبدعة والضلالة وتتوهم أنها تحتكر، الهدى وتسيطر على الحق دون غيرها، وهذا يحدث ردّ فعل عند الطائفة الأخرى، فيردّ الاتهام على الطائفة بنفس الأسلوب، وبأنها مبتدعة خارجة عن الدين، وهي على الهدى. وبهذا فقد أشتدّ الهياج، وكثرت الفتن، وانتشرت الفوضى، وهنا نرى لزوم الحديث عن الفوارق التي حلت بين المسلمين، وكيف أصبحت كلمة بدعة أو مبتدعة سلاحاً يوجه للناس وهم في حالات أقرب بها إلى الله ومبادىء الإسلام من أولئك الذين يستخدمونها لتغطية ضعفهم وانهزامهم. وكيف وُجّهت إلى الجماعات التي تهدّد مناهج الجمود والانغلاق ظلماً، كما وجّهت توجيهاً سليماً إلى الجماعات التي لا غبار على بعدها عن السنة وخروجها على ما جاء به صاحب الشريعة ﷺ.

من هو المبتدع؟

لقد حدثت أمور بسبب الاختلاف في تمييز البدعة ومن هو المبتدع فخلطوا بين السقيم والصحيح وسارت الأمور على غير المنهج العلمي، فكانت هناك أشياء هي مدعاة للأسف لأنها تعكس سلوك رجال لم يسلكوا مع خصومهم الطريق التجرّدي المعقول، بل التجأوا إلى استخدام القوة وكل ما يتعارض مع حرية الفكر التي ضمنها الإسلام، وجعلها إحدى مقومات المجتمع الأسلامي، ولنقف على بعض الأقوال في لزوم تجنب صاحب البدعة، ولنأخذ صورة عن تلك العصور المظلمة، والوقوف على تلك المفارقات التي حدثت بالمجتمع.

يقول بعضهم: من جالس صاحب بدعة، نزعت منه العصمة ووكل إلى نفسه.

وعن يحيى بن كثير أنه قال: إذا لقيت صاحب بدعة في طريق، فخذ طريقاً آخر.

وعن الفضيل أنه قال: من جلس مع صاحب بدعة لم يعط الحكمة، والماشي إليه معين على هدم الإسلام.

وقال هشام بن حسان: لا يقبل الله من صاحب بدعة صلاة ولا صياماً، ولا زكاة ولا حجاً، ولا جهاداً، ولا عمرة، ولا صرفاً، ولا عدلاً[1].

وقد أوردوا عن صاحب الرسالة ﷺ أحاديث تدعم هذه الآراء، فعن هشام بن عرفة مرفوعاً «من وقّر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام».

وعنه ﷺ: «من أتى صاحب بدعة ليوقّره فقد أعان على هدم الإسلام، ومن أعرض عن صاحب بدعة بغضاً له في الله ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً، ومن انتهر صاحب بدعة آمنه الله يوم الفزع الأكبر، ومن أهان صاحب بدعة رفعه الله مائة درجة، ومن سلّم على صاحب بدعة أو استقبله بالبُشر، أو استقبله بما يُسرّه، فقد استخفّ بما نزل على محمد ﷺ».

وجاء عن عائشة، أنها سألت النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾؟ فقال ﷺ: «هم أصحاب الأهواء وأصحاب البدع وأصحاب الضلالة من هذه الأمة، يا عائشة: إن لكل ذنب توبة، ما خلا أصحاب الأهواء والبدع ليس لهم توبة، وأنا بريء منهم، وهم براء مني».

وغير ذلك من الآثار التي أسندت إلى رسول الله ﷺ. ولسنا في معرض نقدها من حيث الصحة أو الدلالة، وبيان علتها، ولكن الأمر المهم أن ننظر إلى الواقع العملي وكيف استعملت كلمة البدعة في معان مختلفة، واتّهم بها رجال هم مثال التمسك بالسُنّة. ونود هنا استكشاف الواقع حول انطباق هذه التسمية لنخرج بنتيجة وهي: من هو الذي تنطبق عليه هذه السمة في الإسلام؟ ومن هو صاحب السنّة المتمسك بها؟

١ ـ فهذا أحمد بن حنبل في معرض كلامه عن الفرق المبتدعة يقول: ذِكْرُ محاسن أصحاب رسول الله ﷺ كلهم أجمعين، والكف عن مساوئهم، والخلاف الذي يشجر بينهم، فمن سبّ أصحاب رسول الله، أو واحداً منهم، أو تنقّصهم أو طعن عليهم أو عرض بعيبهم، أو عاب أحداً منهم فهو مبتدع رافضي خبيث مخالف، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً، بل حبهم سنّة، والدعاء لهم قربة، والاقتداء بهم وسيلة، والأخذ بآثارهم فضيلة.

---

(١) الشاطبي ج١ ص٦٠ و١٠٧.

٢ ـ وقال: من زعم أنه لا يرى التقليد، ولا يقلد دينه أحداً فهو قول فاسق عند الله ورسوله، إنما يريد بذلك إبطال الأثر، والتفرّد بالرأي والكلام والبدعة.

٣ ـ وأصحاب الرأي وهم مبتدعة ضلال، أعداء للسنة والأثر، ويبطلون الحديث، ويردّون على الرسول ﷺ ويتّخذون أبا حنفية ومن قال بقوله إماماً ويدينون بدينه، وأي ضلالة أبين ممن قال بهذا وترك قول رسول الله ﷺ وأصحابه.

٤ ـ والولاية بدعة، والبراءة بدعة، وهم الذين يقولون: نتولى فلاناً ونتبرأ من فلان، وهذا القول بدعة فاجتنبوه.

فمن قال بشيء من هذه الأقاويل أو رآها، أو صوّبها، أو رضيها، أو أحبها فقد خالف، وخرج من الجماعة وترك الأثر، وقال بالخلاف، ودخل في البدعة وزلّ عن الطريق، وما توفيقي إلا بالله.

وبهذا ختم الإمام أحمد هذا الفصل من رسالته أو اعتقاده الذي رواه عنه أحمد بن جعفر الأصطخري والتي يقول في أولها: هذه مذاهب أهل العلم وأصحاب الأثر. (إلى أن يقول) فمن خالف شيئاً من هذه المذاهب أو طعن فيها، أو عاب قائلها فهو مبتدع خارج عن الجماعة. ثم يعدّد العقائد أولاً مما ينطبق على ما تذهب إليه الحنابلة فقط. ويذكر الأقوال ثم يعدد الفرق المبتدعة ومنهم المرجئة والخوارج والمعتزلة إلى آخر ما ورد في الرسالة من أمور هامة.

وإذا وقفنا وقفة المتأمل في عبارات هذه الرسالة، أو المرسوم الذي اتخذه الحنابلة منهجاً ودستوراً يسيرون عليه في معاملة المسلمين وبيان منزلتهم الدينية، يبدو لنا جلياً أنه لم يَسْلَم أحد من جميع الأمة الإسلامية من الضلالة، وارتكاب البدعة. أو بعبارة أوضح، لم تَسْلَم فرقة من فرق المسلمين من ذلك، إلا الحنابلة أنفسهم فهم المسلمون، ولهم الإسلام وحدهم دون سواهم كما يدّعون ويصرّحون بذلك. فهذا الشيخ عبد الغني المقدسي من أشهر علماء الحنابلة، ذكر شيئاً من العقائد أنكرها عليه بقية المذاهب، فعقدوا له مجلساً، وأصرّ على رأيه، فقال له الأمير برغش: كل هؤلاء ضلاّل وأنت وحدك على الحق؟ قال: نعم. فغضب الأمير، وأمر بنفيه من البلد، وكسر منبر الحنابلة.

قال ابن كثير: وجرت خبطة شديدة نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن[1] ويؤيد ذلك تصريح شيوخهم بأن غير الحنابلة مبتدعة. يقول قتيبة بن سعيد: أحمد بن حنبل إمام، ومن لا يرضى بإمامته فهو مبتدع. وادعوا على الشافعي أنه قال: من أبغض أحمد بن حنبل فهو كافر. فقيل له: تطلق اسم الكفر عليه؟ فقال: نعم، من أبغض أحمد بن حنبل عاند السُنة، ومن عاند السُنّة قصد الصحابة، ومن قصد الصحابة أبغض النبي، ومن أبغض النبي كفر بالله العظيم[2].

وقال أحمد الدورقي: من سمعتموه يذكر أحمد بن حنبل بسوء، فاتهموه على الإسلام.

وقال بعض الحنابلة: إذا رأيت البغدادي يحبّ أبا الحسن بن بشار، وأبا محمد البربهاري ـ وهما من شيوخ الحنابلة ـ فاعلم أنه صاحب سُنّة.

* * *

ومن الصعب الإحاطة بما خلّفته تلك الظروف من ادعاءات وتقوّلات، وقد أعرضنا عن كثير مما وصلنا من ادعاءات الحنابلة في علمائهم عامة وابن حنبل خاصة، وسواء صحّت تلك الأقوال أم لم تصح، فالعامة يأخذون بها ويجعلونها شعاراً في مسيرتهم نحو أهدافهم، وقد أوردوا عن أحمد بن حنبل وغيره أموراً لا يمكننا أن نصدّقها، فهي بعيدة كل البعد عمّا اتصف به أحمد من العلم، والاتزان. ولكن الحنابلة جعلوا ذلك دستور حياتهم، بدون تثبّت، وقد دعمت تلك الأقوال حركاتهم في مقابلاتهم لجميع الفرق، واشتدوا بصورة خاصة على الشيعة.

أما المعتزلة ـ وهم خصوم الحنابلة السياسيين ـ فقد نالوا من الأذى ما لا يوصف، وكذلك الأشعرية الذين اختلفوا معهم في العقائد، وقد صرّحوا بالطعن على الأشعري ونسبوا له أقوالاً مخالفة لروح الإسلام، وذهب بعضهم إلى كفر أصحابه، وخروجهم عن حظيرة الإسلام نظراً لما يعتقدونه مما يخالف عقائد الحنابلة، وبهذا وصفوا الأشعري نفسه بأنه مبتدع، ففي سنة ٤٤٥هـ أعلن بنيسابور لعن الأشعري رسمياً، وكان قد رفع إلى السلطان طغرليك من مقالات الأشعري، فأمر بلعنه.

---

(١) البداية والنهاية ج١٣ ص٢.

(٢) طبقات الحنابلة ج١ ص١٣٦.

ووقعت فتنة عظيمة بين الحنابلة والأشعرية حتى تأخر الأشاعرة عن حضور الجمعات خوفاً من الحنابلة.

وخلاصة القول، أن الحنابلة يرون من خالفهم من المسلمين كفاراً. ويقابلهم الأشعرية كلهم أو بعضهم بتكفير شامل لمن لا يعرف وجود الباري بالطرق التي وضعوها، وقد خالفهم الحنابلة في جميع ذلك.

وذهبوا إلى أن العدول عن مذهب الأشعري ولو قيد شبر فهو كفر، ولو كان العدول في شيء نزر فهو ضلال وخسر. وهكذا فالأشعرية والحنابلة يكفّر بعضهم بعضاً، وقد لقي الأشعري من الحنابلة في حياته، عنتاً وتحاملاً عليه وعلى أتباعه ومؤيدي أفكاره وآرائه، ولشدّة تعصّبهم عليه أخفى أصحابه قبره بعد وفاته سنة ٣٣٣هـ حذراً من أن تنبشه الحنابلة، لأنهم حكموا بكفره وإباحة دمه. ولقد وقعت بين الحنابلة والأشاعرة حوادث كثيرة وحروب وقتال في شوارع بغداد، أهمها يوم دخلها القشيري، ووعظ بها. فاضطر إلى الخروج من بغداد، وكانت اللعنات تنهال على الأشعري، ونسبوا إليه بعض الآراء الشاذة ليوجهوا الرأي العام ضد الأشعرية، وقد اتخذ الحنابلة يوم الجنائز إعلاناً لمبدئهم، وتكفيراً لمن خالفهم، وقد كانوا يردّدون في تشييع الجنائز هتافات معادية للأشعرية وغيرهم من خصومهم، وبهذه الأمور المحزنة يستمر الوضع السيىء بين جماعات المسلمين، وتنتشر الفرقة بين صفوفهم، والأمر يشتد كلّما مرّ الزمن. وقد قطع الحنابلة في مسيرتهم أشواطاً بعيدة في الدعوة لآرائهم بعنف وقوة، كما صبّوا جام غضبهم على من خالف بعض تلك الآراء.

وقد أفتى بعض علمائهم ـ وهو الشيخ عبد الله الأنصاري الملقب بشيخ السُنّة في خراسان ـ بعدم حلّية ذبائح الأشعرية، لأنهم كفار في نظره تبعاً لرأي العامة من الحنابلة.

وقد امتحن كثير من العلماء، وراحوا ضحية الجهل والفوضى، وإتهم كثير منهم بسوء الاعتقاد، كما رمي الكثير منهم بالكفر والزندقة.

وكان ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣٤٠هـ من أولئك الرجال الذي نالهم غضب الحنابلة ـ كما أشرنا سابقاً ـ مع عظيم منزلته ومكانته العلمية، وهو صاحب التفسير الشهير والمؤلفات القيّمة، فرموه بالإلحاد والزندقة لأنه خالفهم في مسألة

اليدين، فقال في قوله تعالى: ﴿يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ أي نعمتاه. وهم يرون أن اليد هي اليد الجارحة، كما زادوا في اتهامه أنه رافضي، لأنه كان يرى جواز المسح بالوضوء على القدمين، كما ألّف كتاباً جمع فيه أحاديث غدير خم، وآخر جمع فيه طرق حديث الطائر المشوي(١).

ومن هذا وذاك، فقد امتحن وغضبوا عليه، ورموا داره بالحجارة حتى علت على الباب، ومنع من التحديث، ولما مات منعوا دفنه نهاراً، ودفن ليلاً خوفاً منهم. وكان أبو الحسن الآمدي حنبلياً، ثم انتقل لمذهب الشافعي، وحدث بمدرسة الشافعية بالقرافة الصغرى، واشتهر فضله وانتشرت فضائله، فتعصّبوا عليه وكتبوا محضراً بخطوطهم، واتهموه بمذاهب التعطيل والانحلال، وخرج إلى دمشق وانعزل ولزم بيته إلى أن مات. وألقي القبض على ظهير الدين الأردبيلي الشهير بقاضي زاده، وهو حنفي المذهب، وقطعت رقبته وعلقت على باب زويلة بالقاهرة، لأنه ذهب إلى عدم وجوب ذكر الصحابة في الخطبة، فاتهموه بالبدعة، أو أنه يتشيّع، فعوقب لذلك. وحكم على الحسن بن أبي بكر السكاكيني بالزندقة وأنه يسبّ الصحابة، وأقيمت عليه الشهادة عند القاضي شرف الدين المالكي، فحكم عليه بالقتل، فضربت عنقه بسوق الخيل.

واتّهم لسان الدين بن الخطيب ـ عالم الأندلس ـ بالزندقة، فحكم عليه بالقتل. وذلك أنهم أحصوا عليه كلمات في مؤلفاته ورفعوها إلى القاضي، فسجّل عليه الحكم بالزندقة، وأفتى بعض الفقهاء بقتله، فطرقوا عليه السجن فخنقوه وأخرجوا شلوه وأحرقوه.

وقد أشرنا سابقاً إلى أن المحكمة التي تعقد لمحاكمة المتّهمين بالبدعة أو الضلالة عن الدين هي تحت رئاسة قاضٍ مالكي، والزنديق أو المبتدع عن المالكية ينفّذ فيه الحكم وإن تاب، بخلاف بقية المذاهب، وهو رأي مالك، وقد خالف ابن مخلد وابن الموازي ذلك.

قال الشوكاني: أبتلي أهل تلك الديار بقضاة من المالكية يتجرأون على سفك

---

(١) وقد رواه عدة من الصحابة عن أنس بن مالك: أن النبي أهدي إليه طائر مشوي، فقال: «اللهم ائتني بأحبّ خلقك إليك يأكل معي من هذا الطائر» فجاء علي عليه السلام فأكل معه. رواه الترمذي وقال الحاكم في المستدرك رواه عن أنس أكثر من ثلاثين.

الدماء بما لا يحلّ به أدنى تعزير، فأراقوا دماء جماعة من أهل العلم بجهالة وضلالة وجرأة على الله، ومخالفة لشريعة رسول الله، وتلاعباً بدينه بمجرد نصوص فقهية واستنباطات فرعية ليس عليها آثار من علم، «إنّا لله وإنّا إليه راجعون».

وربما كان حكم المالكي عن غضب وتأثر، فإن الباجريقي الشافعي الذي اتهم بانحلال العقيدة، حكم الحنبلي بعصمة دمه، فغضب قاضي المالكية وحكم بقتله.

وقدم رجل متّهم بالبدعة، ولما أحضر أنكر ذلك. فحكم بقتله، فقال: كيف تقتلونني وأنا أقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله؟

قال ابن أبي عقيل: أنا أقتلك.

قال: بأي حجة؟

قال: يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾.

ومن الفظائع المؤلمة، إنهم حكموا على إبراهيم الضبّي بالسجن، فضمّ إليه في السجن رجل يُعرف بابن الهذيل، ثم صدر حكم بأن يضرب ابن الهذيل خمسمائة سوطاً، وأن تخبط رقبة إبراهيم ليلاً، فاشتبه العامل وضرب إبراهيم خمسمائة سوطاً وأعاده إلى السجن، وأخرج ابن الهذيل فضربت عنقه، ثم انتبه الوالي للغلطة، فأخرج إبراهيم وضربت عنقه، ثم ربطت أرجلهما بالحبال وجرّا مكشوفين غير مستورين من دار الإمارة، ثم صلبا ثلاثة أيام.

واستمر الحال على هذه الفوضى والتحكّم بأرواح الناس باسم حماية الدين ومقاومة المبتدعة والمفسدين، وكانوا يرون مؤاخذة هؤلاء بالشدّة، ومعاملتهم بالعنف انتصاراً لمبادئهم، وإنجاحاً لمخططاتهم، فلا يسمعون قول أحد في الدفاع عن نفسه، وربما لم يسمحوا له بالدفاع عن نفسه، ولا يُلتفت إلى ما يكتبه بالردّ على ما اتهم به خوفاً من وضوح الحجة وعجزهم عن نقضها، وعمدوا إلى الاستعانة بالسلطة ليرغّبوها في إبادة المفكرين حماية لأنفسهم، فأخذوا بفتوى مالك ومن رافقه من أصحاب الشافعي إلى قتل الداعية إلى البدع، فلا توبة له، وأعرضوا عن نصوص الدين في قبول توبة المؤمن.

٤ ـ القصص والقصاصون

أدى تحول النظام الإسلامي إلى الملك، وتحكّم الأفراد، إلى ظهور وسيلة جديدة من وسائل أصحاب السلطان في توطيد دعائم حكمهم وتثبيت نفوذ عوائلهم، فاستحدث القصص مرادفاً لدور الخطباء أو الشعراء الذين أنزلقوا مع الحكام في سياساتهم التي استخدموا بها الدين لأغراضهم ومصالحهم. ولا نعرف أثراً متفقاً عليه يشير إلى وجود القصص أو ظهور القصاصين كظهور الشعراء قبل الإسلام أو بعده، أو أن العرب عرفوا هذا النوع بما يقرب من الألوان التي عرفتها الشُعوب الأخرى، فليس في الجزيرة من أمثال تلك الأساطير أو الحكايات، وما كان فيها محدود التفاصيل والأثر، أما في الإسلام فقد تميّز عن الأديان السابقة بوحدة العلاقة والواسطة، وعدم وجود وساطات أخرى تفسح المجال للاستعانة بالخيال. وما طرأ في العقائد كان من مخلفات بني إسرائيل التي منع الرسول محمد ﷺ من سلوك طريقها حيث يذكر أنه قال ﷺ: «إن بني إسرائيل هلكوا لما قصّوا».

ونودّ هنا أن نشير بعجالة إلى مبدأ هذا الأسلوب الذي وضع لخدمة أغراض الحكام، والذي لعب دوراً كبيراً في إثارة الفوضى وإشاعة الفرقة وتأجيج نار العداء، وتطور إلى صنعة يتكسب منها من لم يفلح في المجالات الأخرى، أو من لم ينجح في أمور الحياة، أو تدفعه نيات خبيثة وأحقاد على الإسلام. إضافة إلى كونها وظيفة من وظائف الدولة يتصل من خلالها القاصّ بأصحاب السلطة والخلفاء من خلال ما يقوم بإشاعتها، وبقدر ما يحرّك فيهم الإعجاب، وهو يعبر عن أغراضهم وما يعملون على إشاعته ونشره.

وكان هذا النوع من النشاط من أشد الأساليب فتكاً في جسد الأمة وتأثيراً سلبياً

في واقع الناس، وقد كانت لحمته مختلطة ومتنوعة تجافي المنطق والعقل، ولعبت في عقول الناس وميولهم، ثم جرأت السلطة القصاصين على أن يتناولوا كل ما من شأنه خدمة دولهم وحكم أسرهم.

والقصاصون استعملوا قصصاً تحمل الناس على ارتكاب المعاصي، أو تدفعهم إلى القتال والنزاع. ففي سنة ٢٨٤هـ أثار القصّاصون الفتن بين أتباع المذاهب الدينية، مما حمل الخليفة المعتضد على منعهم[1].

وقد وصفوهم بالكذابين، وأنهم يروون الأعاجيب[2] ومنع عضد الدولة ظهورهم في المساجد سنة ٣٦٧هـ وغيرها، واعتبرهم آفة المجتمع لأن أحاديثهم كانت سبباً في إثارة الناس[3].

* * *

ولم يعهد في صدر الإسلام وجود قصاصين، ولكن الأمر محدث في العهد الأموي، أحدثه معاوية حين كانت الفتنة، فكان للقصّاصين نشاط سياسي يقومون به لتقويم دعائم الملك، إذ هم يحرّضون الناس على تأييد الدولة، ويوغرون قلوب الناس بما يخترعونه من القصص، ويلهبون شعورهم بما يضعونه من الأحاديث، فيزداد نشاط الناس بالغيظ وحب الانتقام.

* * *

وكان الحكم الأموي منذ لحظاته الأولى يخطط لكسب الأكثرية من الناس، وإيهام الرعية بشرعية سلطانهم، فلجأوا إلى أساليب كثيرة أهمها الدعايات الملفقة، ومن صور الدعاية التي ابتكروها كان تجنيد القُصّاص لترسيخ دعائم حكمهم على حساب مكانة الرسول وأصحابه الأخيار، ولكي يضمن الأمويون الإفادة من جهود القصاص ألزموا الناس بلزوم الاستماع إليهم.

ولقد قام أولئك القصّاصون بكل جهدهم بصياغة القصص وتلفيق الأحاديث.

قال حبيب بن الحرث الشمالي: بعث إليّ عبد الملك بن مروان فقال: يا أبا

---

(١) الطبري ص١٨٢. والمنتظم ج٧ ص٨٨.

(٢) مروج الذهب ج٥ ص٨٦ ط أوروبا. والمقدسي في البدء والتاريخ ج١ ص١٩٩.

(٣) العبر ص٦٥ ـ ٦٦.

أسماء، إنّا قد جمعنا الناس على أمرين. فقلت: وما هما؟ قال: رفع الأيدي على المنابر يوم الجمعة، والقصص بعد الصبح والعصر(١).

كما اتخذت السلطات في العهد الأموي استخدام القصاص وسيلة لتشويه مبادىء الإسلام وتعضيد حكمهم واختلاق النصوص والقصص بما ينسجم مع سياستهم في العنف والتحكم وإخماد حرية الرأي؛ فكان القصّاصون ركيزة الدولة الأساسية في مواجهة القوى التي أخذت تكتشف حقيقة تركيب النظام الأموي وسياسته الظالمة، فبذل القصّاص غاية جهدهم في تشويه الحقائق، والسماح لهم باختلاق الروايات ووضع الأحاديث، والأغضاء عن الافتعالات المفضوحة التي انضم بها القصاص إلى ركب المدّاحين وأهل الخطب الذين شوّهوا دور المنابر، وأساءوا إلى مهمة رجال العلم بصمتهم المطبق، وهم يرون سفك الدماء وانتهاك الحرمات، والتعدّي على تعاليم صاحب الرسالة ومبلّغ الشريعة وأهل بيته الأطياب، ويجلجلة ألسنتهم وهم يركبون الكذب، ويجمعون الموضوعات، ويسوقون الخرافات والمنامات والأساطير تزلفاً وتكسّباً، فباعوا دينهم بأبخس الأثمان، وعند الله الجزاء.

ثم انتشرت خرافات القصص الإسرائيلية المعروفة بالإسرائيليات، وقد قام بذلك جماعة من اليهود، وفي طليعتهم كعب الأحبار، تلك الشخصية اليهودية التي دخلت الإسلام وهو يحمل على كتفيه مهمة نشر الإسرائيليات وبثّها في ثنايا علوم الإسلام وفنون القرآن، فكان أكبر وأخطر مصدر لهذا الفن. وقد سقنا الحديث المروي عن النبي ﷺ الذي يشير فيه إلى أن اليهود في قصصهم قد هلكوا، وقصدنا إظهار ما فيه من تحذير، وقد جاء كعب ليكون من دعائم بنيان فن القصص الذي عملوا على توسيعه، فالتقت الأغراض.

فاليهود هم أكبر عامل لإثارة الحزازات والنعرات والنزعات العصبية بين القوميات التي تعيش في المجتمع الإسلامي، وطريقتهم في تآمرهم على الإسلام هي: التظاهر باعتناقهم إياه، ثم يبدأون ببثّ سمومهم بما يلقونه من قصص وأخبار وهي ليست بذات قيمة؛ لكنهم يجيدون استغلال الظروف والتحرك المناسب.

وقد حذّر النبي ﷺ من خطرهم، وأمر بأجلائهم، وكانت آخر وصية له ﷺ أن

---

(١) الباعث على أنكار البدع والحوادث لشهاب الدين أبو شامة ٦٦.

قال: «الله في أهل بيتي، أوصيكم في أهل بيتي خيراً، وأخرجوا اليهود من جزيرة العرب» ولكن المسلمين لم يأخذوا هذه الوصايا بعين الاعتبار، فكان ما كان من عواقب وخيمة.

وقد أجلىٰ عمر بن الخطاب جماعة من اليهود، فسكنوا الكوفة، فكانوا قطب رحى الخلافات، وقد شوّهوا سمعة هذا البلد العربي المسلم. حتى عرف بالمكر والخيانة، والغدر، والخديعة. ولعب هؤلاء اليهود دوراً مهماً في نشر الخلافات في جيش الإمام الحسن عليه السلام وتمزيق وحدة الصف، وإثارة النعرات.

ولا يتّسع المجال لشرح مواقفهم من قضية الحسين عليه السلام بدفع عجلة الحوادث، وتطوير الوقائع، للإسراع في القضاء على الحسين عليه السلام لأنهم يعدّون ذلك نصراً لهم، وفتحاً جديداً في موقفهم العدائي للإسلام، واستمرّت أعمالهم في العهد الأموي يوسّعون دائرة الخلافات، ويقيمون العراقيل في طريق التفاهم بين الفئات المتناحرة.

* * *

وعلى كل حال، فقد استمر القصّاص بمساندة السلطة وتأييدهم الحاكم الذي يصبح وضعه ينذر بالخطر لسوء السيرة وقبح المعاملة، فيلجأ إلى استعمال سلاح الحماية باسم الدين بشتى الوسائل، فيوعز إلى القصّاص بالنزول إلى غمار العامة يقصّون عليهم ما يحرّك شعورهم ضد الفئة المعارضة للدولة، أو يشغلونهم بحدوث فتنة. وقد استطاعوا أن يجلبوا أذهان السذّج، ويؤثروا على تلك العقول في وضع الأحاديث واختراع القصص، فكانوا أداة فرقة، وأكبر عامل لإثارة الفتن.

قال ابن الجوزي: وكان القصّاص في أواخر القرن الرابع أكبر مثيري الفتن بين السنة والشيعة.

ويقول أيضاً في موضوعاته: إن معظم البلاء في وضع الحديث إنما يجري من القصّاص، لأنهم يروون أحاديث ترفق والصحاح تقل في هذا. واختلف أهل البصرة في القصص، فأتوا أنس بن مالك فسألوه: أكان النبي ﷺ يقص؟ قال: لا.

وأخرج الزبير بن بكار في أخبار المدينة عن نافع وغيره ـ من أهل العلم ـ أنهم قالوا: لم يقصّ في زمان النبي ﷺ ولا زمان أبي بكر ولا زمان عمر؛ وإنما القصص محدثة، أحدثها معاوية حين كانت الفتنة.

ولا شك أن معاوية استعمل تلك الفئة المرتزقة كما قدّمنا ليستعين بها في وضع الأحاديث لدعم ملكه، وحمايته بوجه موجة الاستنكار، وقد استطاع أن ينشر بين الناس مناقب عثمان الموضوعة، ومناقب البلدان، ومناقب بعض الرجال والعشائر كما يشاء.

كما أنه استطاع أن يختلق لخصومه مثالب أبرزها في قالب الابتكار والخيال الواسع، وتمكّن بهذه القوة، أن يزوي ما لعلي عليه السلام من مناقب وما ورد فيه من أحاديث صحاح، فكان بحكم تلك الدعايات التي هي كأوامر رسمية أن أصبح الخطباء يعلنون سبّ علي عليه السلام وشيعته، وكان الوعّاظ يختمون مجالسهم بشتمه عليه السلام وكان يلزم الناس بإعلان سبّه والبراءة منه، وفرض عليهم تعليمه لأبنائهم، وأصبح معاوية بمقتضى تلك الأساليب وبتلك الأكاذيب هو: أمين الأمة، وكاتبُ الوحي، وخال المؤمنين، إلى آخر ما هنالك من أساطير.

ومهما حاول معاوية إخفاء فضل علي عليه السلام فقد انهار ما بنى، وبقي ذكر علي وأهل بيته عليهم السلام تردّده الأجيال بفخر واعتزاز على مرّ العصور والأيام.

إذا ما بناءٌ شاده الدين والتقى ... تهدّمت الدنيا ولم يتهدّم

ولسنا هنا بمعرض البحث عن تلك الأزمنة، فقد أشرنا إلى بعضها في الأجزاء السابقة، وجلّ اهتمامنا في جميع ما ذكرناه هنا وهناك، هو إعطاء صورة عن الأمور المحزنة التي تحزّ بالنفس، والتي حدثت في أزمنة متأخرة من الزمن. الذي كان ظرف تلك الحوادث وهي امتداد لما حدث فيها من خلافات.

***

وعلى أي حال، إن الأثر الذي أحدثه القصّاصون في ذلك المجتمع من إثارة فتن، وإيقاد نار البغضاء بين طوائف المسلمين، وإشعال حروب طاحنة؛ هو من أعظم الأمور التي ابتلي بها المسلمون في تلك الفترة المظلمة.

لقد كان أولئك النفر يحرّضون الناس على القتال والنهب، ويحرّكون القلوب، ويثيرون الشعور بما يفتعلونه من أقوال ويضعون من أحاديث، يغذّون بها أدمغة العامة، كما قاموا في المساجد والجوامع والطرقات والأندية يبثّون سمومهم. فاتخذتهم السياسة سلاحاً فاتكاً ـ كما قدمنا ـ وهم ينتشرون في ساحات الحرب

يشجعون الجند على القتال. ولقد خضعت العامة لتصديقهم وقبول مفترياتهم، حتى أصبح من العسير الإنكار على واحد منهم. ومن تجرأ فأنكر، يكون عرضة لسخط العامة. وحيث عظم خطرهم وفشا كذبهم وظهر تلاعبهم بتفسير الكتاب العزيز، فأراد بعض العلماء أن يقوم بتوجيه الناس بحملة إنكار على هؤلاء الذين فتكوا بجسم الأمة بأكاذيبهم، ولكن أقعد أولئك العلماء خوفُ العامة، فتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تقية وخشية من السلطان، لأنهم تحت رعاية الدولة. وربما خرج القاصّ محاطاً بالجند ومزوّداً بالسلاح.

ففي سنة ٤٧٥هـ عبر قاصٌّ من الأشعرية ـ يقال له البكري ـ إلى جامع المنصور ومعه الشحنة والأتراك بالسلاح، وكان البكري في حدة وطيش، وكان النظام أنفذ ابن القشيري، فتلقاه الحنابلة بالسبّ، فأرسل إليهم النظام هذا القاصّ، فأخذ يسبّ الحنابلة، ويستخفّ بهم، وقد أحيط بالسلاح من الأتراك، وصعد المنبر وقال: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾ ما كفر أحمد بن حنبل، ولكن أصحابه كفروا. وحكى على الحنابلة في صفات الله عز وجل ما لا يليق، فأغرى بهم الناس، وأعلن شتمهم[(١)].

وأراد جماعة من العلماء الإنكار على محمد السمرقندي لأنه كان يقصّ ويحدّث بأحاديث منكرة، فلما حضروا عنده، اجتمع العامة، فخاف العلماء من شرّه.

ونزل قاصّ في دار الحذائين وروى أحاديث منكرة، فأراد يحيى بن معين أن ينكر عليه، ولكنه ترك ذلك تقية خشية أن يقتله الحذائون بشفارهم.

وحكى السيوطي قصته مع القصاص الذي حدّث الناس بحديث لا أصل له، وكذّبه السيوطي، وأفتى بأن هذا الحديث لا أصل له وهو باطل لا تحلّ روايته ولا ذكره وخصوصاً بين العوام، والسوقه، والنساء، وأنه يجب على هذا الرجل أن يصحح الأحاديث التي يرويها في مجلسه على مشايخ الحديث.

فنقل كلام السيوطي إلى ذلك القاص، فاستشاط غيظاً وقام وقعد، وقال: مثلي من يصحح الحديث عن المشايخ؟! مثلي يقال له في حديث رواه أنه باطل؟! أنا أصحح على الناس، أنا أعلم أهل الأرض بالحديث. ثم أغرى الناس بالسيوطي

---

(١) تحذير الخواص للسيوطي ص٥٠.

فهاجت العامة، وقامت الغوغاء، وتناولوه بألسنتهم، وتوعّدوه بالقتل والرجم[١].

وأنكر علي بن نبال على قاص بما حدّث، فعظم ذلك على العامة وهمت بإيقاع المكروه فيه، فاختفى عنهم وتوارى في بيته. وسمع الأعمش أحد القصاص يقول: حدثنا الأعمش. فقام وتوسط الحلقة، وجعل ينتف شعر إبطه. فقال القاص:

يا شيخ، ألا تستحي نحن في حلقة علم، وأنت تفعل مثل هذا؟!!

فقال الأعمش: الذي نحن فيه خير من الذي أنت فيه.

قال: كيف؟

قال: إني في سنّة، وأنت في كذب. أنا الأعمش، ما حدّثتك مما تقول شيئاً[٢].

وتجنّب العلماء معارضة القصّاصين، والردّ عليهم تقية وخوفاً على أنفسهم، لأن العامة ارتبطوا بالقصاص، وأقبلوا عليهم وتقبلوا كل ما يلقونه من الموضوعات، والقصص الخرافية. وقد قام أحد القصّاصين فحدّث عن النبي ﷺ أنه قال: من بلغ لسانه أرنبة أنفه لم يدخل النار. فلم يبق أحد منهم إلا وقد أخرج لسانه يومىء بها إلى أرنبة أنفه. ومن هذا الباب تسرّبت أكثر الأحاديث المرغّبة في كثير من الأعمال.

ودخلت أذهان العامة تلك الخرافات والأباطيل، وأصبحت وكأنها حقائق لا تقبل الشك ولا تخضع للجدل، كما أدخلوا كثيراً من العقائد المفتعلة ضمن أحاديث مكذوبة أحدثوها، وربما خلقوا لها أسانيد من أنفسهم. ومن أغرب ما ورد عنهم أن أحدهم قام فحدّث عن أبي خلفة أنه قال: حدثنا الوليد بن سعيد، عن قتادة، عن أنس، عن النبي. فقام إليه أبو حاتم البستي وقال له: رأيت أبا خلفة؟ قال: لا. فقال له كيف تروي عنه ولم تره؟

فقال القاص: إن المناقشة معنا من قلة المروة، أنا أحفظ هذا الإسناد الواحد، وكلما أسمع حديثاً ضممته إلى هذا الإسناد.

ومن ذلك أن قاصّاً حدّث بحديث وأسنده عن أحمد بن حنبل ويحيى بن معين

(١) المصدر السابق في المقدمة.

(٢) الأسرار المرفوعة لعلي القاري ٥٥. والأحياء للغزالي ١/٥٨.

وكانا حاضرين بالمجلس. وبعد أن فرغ أوحى إليه ابن معين بيده، فأقبل متوهّماً لنواله، لأن القصاص كانوا ينالون الأموال من المستمعين، فلما جلس قال ابن معين: من حدثك بهذا الحديث؟ قال: حدثني يحيى بن معين وأحمد بن حنبل.

فقال ابن معين: هذا أحمد بن حنبل وأنا ابن معين، ما سمعنا بهذا قط في حديث رسول الله ﷺ فإن كان ولا بد من الكذب فعلى غيرنا. فقال له: أنت يحيى؟

قال: نعم.

قال القاص: لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق، ما حققت إلا الساعة.

فقال له يحيى: كيف علمت أني أحمق؟

فقال: كأنّ ليس في الدنيا أحمد بن حنبل وابن معين غيركما؟ قد كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، فوضع أحمد بن حنبل كمّه على وجهه.

وقال: دعه يقول.

ولم يستطع أحدهما والحالة هذه أن يشتد في الإنكار عليه مع عظيم منزلتهما واشتهارهما بين الناس خوفاً من الغوغاء[1].

وحدّث بعضهم عن الأعمش بلا سند قال: خرجت في ليلة مقمرة أريد المسجد فإذا أنا بشيء عارضني، فاقشعرّ منه جسدي، فقلت: أمؤمن أنت أم كافر؟ فقال: بل مؤمن. فقلت: أمن الأنس أنت أم من الجن؟

قال: بل من الجن.

فقلت: فيكم من هذه الأهواء والبدع شيء؟

قال: نعم.

ثم قال: وقع بيني وبين عفريت من الجن اختلاف في أبي بكر وعمر فاحتكمنا لإبليس.

قال العفريت: إنهما ظلما علياً واعتديا عليه. فحكينا ذلك لإبليس فضحك وقال: هؤلاء ـ أي الذين يقولون بهذه المقالة ـ من شيعتي وأنصاري وأهل مودتي. ثم قال: ألا أحدّثكم بحديث؟ قلنا: بلى. قال إبليس: إني عبدت الله في سماء الدنيا ألف عام، ثم رفعت إلى الرابعة، ورأيت فيها سبعين ألف صفٍ من الملائكة يستغفرون

---

(١) الأسرار المرفوعة ٥٣ ـ ٥٥.

لمحبي أبي بكر وعمر، ثم رفعت إلى الخامسة فرأيت سبعين ألف ملك يلعنون مبغضي أبي بكر وعمر.

بهذا يتقدم قاصّ يمهد إليه توجيه المجتمع حسب رغبات الدولة، وأي خدمة أعظم من هذه، وهي إبراز خصوم الدولة وهم الشيعة - أو المبتدعة في منطق السياسة - بمظهر يشمئز منه كل واحد، وقد وسموهم بأنهم يلعنون الشيخين ويبغضونهما، وشاع ذلك في المجتمع بدون وقوف على واقع الحال.

كما اتخذوا من القصص وسائل تدخل في أذهان العوام عندما يسندون ذلك إلى عالم الغيب أو الخضر عليه السلام وهو يتردّد على ألسنة القصّاص في أكثر المناسبات لتوجيه الشعور إلى ما يمكن قبوله.

لقد حدّثوا عن بلال الخوّاص أنه قال: كنت في تيه بني إسرائيل، فإذا رجل يماشي، فتعجبت منه، ثم إني ألهمت أنه الخضر عليه السلام فقلت له: بحق الحق من أنت؟

فقال: أخوك الخضر.

فقلت له: أريد أن أسألك.

فقال: سل.

فقلت: ما تقول في مالك بن أنس؟

قال: هو إمام الأمة.

فقلت: ما تقول في أحمد بن حنبل؟

فقال: رجل صدق.

قلت: فما تقول في بشر الحافي؟

فقال: لم يخلق بعده مثله(١).

وهكذا تدور هذه المحاورة الخيالية، وتبرز للوجود بهذا الشكل، لتلعب دوراً في مجال الدعاية المذهبية، وتأخذ طريقها إلى عقول تتقبل الخرافات والأباطيل.

---

(١) أحمد بن زين، شرح العينية ٥١١.

ولقد ابتلي الخضر عليه السلام بأولئك القصاصين، فهم يزجّون بشخصه، ويدخلون اسمه في كثير من قصص الدعاية المذهبية، كما جعله بعض الأحناف تلميذاً لأبي حنيفة في حياته وبعد مماته كما تقدم.

كما استعمل الصوفية من شخصيته وسيلة إعلام لبعض شخصيّاتهم أو شاهداً على صحة طريقتهم[1].

* * *

لقد دخل نشاط القصّاصين في أغلب زوايا المجتمع، واستخدمه الناس في أغراضهم المختلفة، ولجأ إليه أصحاب المذاهب. وكانت القصص تتبدل شخصياتها بحسب تغيّر المتنفّذين والصنعة التي يحملونها: مذهبية أو عرقية أو إقليمية. ولكن الأمر الذي لا يتغير هو العداء للشيعة والهجوم عليهم تحت ستار سبّ الصحابة أو بغض الشيخين، لأن الحكام منذ عهد معاوية اعتمدوا هذه التهم، وراحوا يستميلون الأمة، ويجعلون اتجاه وجودها واستمرارها عدائياً تجاه الشيعة، وتأكيد سلطة الحكام وصفتهم الدينية من خلال أصحاب الصنعة في الخطابة والحديث والقصص.

كان مجلس القصّاصين يضمّ الرجل والمرأة والطفل، وكلهم على مستوى واحد من حيث قبول تلك القصص، ولا تتعدى أنظارهم ومدركاتهم حدود المنابرالتي يرقاها مرّة الوعاظ المرتزقة، ومرّة العلماء المأجورون، ومرّة القصّاص الكذبة وهو يسبّحون بحمدالظلمة ويأتمرون بأمر البغات منذ أن قامت الفتنة على يد الطلقاء من الأمويين، ومنذ أن اشرأبت الجاهلية من على دست حكمهم في الشام، فراحت هذه الزمر ومؤسساتها تؤثر في أذهان الناس، وتبني عقائدهم كما تشاء. بحيث يصحّ الحاكم الظالم والفاسق الفاجر إماماً بنصٍ مكذوب وأثرٍ موضوع، فيتقبل الناس ما يلقونه إليهم من سموم.

وفتح من جراء ذلك شدة البغض لهؤلاء الذين يوصفون أو يتهمون ببغض الشيخين أو لعنهما، وبالأخص تضاعف التهم على الشيعة حتى أصبحت من الأمور الارتكازية. لهذا ثبت في أذهان السذّج أن بغض الشيعة من السُنة، وأنه خير عمل يقدمه الإنسان لربه.

---

(١) انظر المصدر السابق ٥٣٤.

وجاء في النجوم الزاهرة في ترجمة الخفّاف أنه كان شديداً من السّنة، ولما مات ابن المعلم فقيه الشيعة ـ وهو الشيخ المفيد رحمه الله ـ جلس للتهنئة وقال: ما أبالي أي وقت مُتُ بعد أن شاهدت موته.

قال مؤلف النجوم الزاهرة: ومما يدل على دينه وحسن اعتقاده بغضه للشيعة، ولو لم يكن من حسناته إلا ذلك لكفاه عند الله[1]. فلا غرابة أن يصبح بغض الشيعة سنّةً معمولاً بها، وهي عندهم خير ما يلقى الإنسان بها ربه. وقد أصبح الكثير من هذه البدع من المسلّمات عن العوام لا تقبل الجدل والنقاش، وأن الكثير من الخرافات قد ارتكزت في الأذهان كحقيقة واقعية لا لبس فيها ولا غموض.

وقد خفيت تلك الخرافات على أكثر الناس، وأصبح لها مكانة. وهي عنصر فعّال في توجيه الشعور ضد الخصوم، لاسيما أنهم أشركوا الشياطين والجنّ في المعاونة معهم بالعمل ضدّ كل من يخالف المتسلطين ودعاة التحجر والجمود.

حدّث أحمد بن نصر قال: رأيت مصاباً بالصَرَع، فقرأت في أذنه، فكلّمتني الجنية من جوفه فقالت: يا أبا عبد الله، دعني أخنقه، فإنه يقول بخلق القرآن[2]. وأحمد بن نصر هو من كبار العلماء، وممن يقول بقدم القرآن، وقد امتنع عن القول بخلقه، فأحضره الواثق فقال له: ما تقول في القرآن؟

فقال: كلام الله.

قال الواثق: افترى ربك يوم القيامة؟

قال: كذا جاءت الرواية.

فقام الواثق إليه بنفسه، فقتله صبراً[3].

ويروي الخطيب البغدادي في التاريخ أن الواثق قال له: ويحك يرى كما يرى المحدود المتجسّم؟ يحويه مكان ويحصره الناظر. أنا أكفر برب هذه صفته[4] وقد كان أحمد بن نصر من ضحايا السلطان، نصب رأسه ببغداد على رأس الجسر، واستخدم القصّاص من الحنابلة طريقة موته، وادخلوا المنامات، وكم للمنامات والرؤى من أهمية عندما يعزّ الأثر وتنعدم المادة، وهي من أسهل الأساليب. وقد عجّت بها

---

(١) النجوم الزاهرة ج٤ ص١٦١.

(٢) و(٣) طبقات الحنابلة ج١ ص٨١.

(٤) انظر: الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، محنة خلق القرآن/ الجزء الأول.

المصنّفات المختلفة، فأحاط القصّاص موت أحمد بن نصر بما يخدم عقيدة التجسيم، إذ يروي الخطيب البغدادي عن الحنابلة: رأى بعض أصحابنا أحمد بن نصر في النوم بعدما قتل، فقال: ما فعل بك ربك؟ فقال: ما كانت إلا غفوة حتى لقيت الله، فضحك إلي. أخبرنا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن طاهر الدقاق، أخبرنا أبو بكر النجاد، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا أبو الحسن بن العطار محمد بن محمد قال: سمعت محمد بن عبيد ـ وكان من خيار الناس ـ يقول: رأيت أحمد بن نصر في منامي فقلت: يا أبا عبد الله، ما صنع بك ربك؟ فقال: غضبت له، فأباحني النظر إلى وجهه (انتهى). ثم ينشرها المختصّون ويذيعونها. وقد ذكرنا فيما سبق أن الواثق كان يمثّل المرحلة الوسطى التي تجمع بين المأمون في شدّته وبين المتوكل في إدنائه الحنابلة والعامة، أو أن هناك ما يشير إلى ميل لتبرئة آل العباس من دماء الأبرياء وإبقاء صلة القرابة بالرسول ﷺ معتمداً لمكانتهم المقدسة، فوضعوا على لسانه أن أحدهم سأله وهو عليه السندس والاستبرق وعلى رأسه تاج: ما فعل الله بك يا أخي؟ قال: غفر لي وأدخلني الجنة، إلا أني كنت مغموماً ثلاثة أيام. قلت: ولم؟ قال رأيت رسول الله ﷺ مرّ بي، فلما بلغ خشبتي حوّل وجهه عنّي، فقلت له بعد ذلك: يا رسول الله، قتلت على الحق أو على الباطل؟ فقال: أنت على الحق، ولكن قَتَلَكَ رجلاً من أهل بيتي، فإذا بلغت أستحيي منك.

ويعقد ابن الجوزي بابين مستقلّين في المناقب يذكر فيهما المنامات التي رؤي فيها أحمد بن حنبل، وباباً آخر يذكر فيه تأثير موت أحمد عند الجن، نذكر منها على لسان رجل بطرسوس: أنا من اليمن وكانت لي بنت مصابة، فجئت بالعزّامين، فعزموا عليها. ففارقها الجنّي على أن لا يعاود، فعاود بعد سنة. فقلت: أليس قد فارقت على أن لا تعاود؟ قال: بلى. ولكن مات اليوم رجل بالعراق يقال له أحمد بن حنبل، فذهبت الجن كلها تصلّي عليه إلا المردة وأنا منهم، ولست أعود بعد يومي. فما عاد.

ومن المضحك، بل المخزي في آن واحد ما وقع في سنة ٤٥٦هـ أن قوماً من الأكراد خرجوا متصيّدين، فرأوا بالبرية خيماً سوداً سمعوا فيها لطماً شديداً وعويلاً كثيراً وقائلاً يقول: مات سيدوك ملك الجن، وأي بلد لم يلطم عليه ولم يقم له فيه مأتم قلع أصله وهلك أهله. فخرجت النساء من حريم بغداد إلى المقابر يلطمن ثلاثة

أيام ويخرّقن ثيابهنّ وينشرن شعورهنّ، وخرج الرجال يفعلون مثل ذلك، وفعل هذا في واسط وغيرها من البلدان[١].

بمثل هذه العقلية الضحلة، أصبح الناس يعيشون تحت ظلال علماء وقادة يدفعون بهم إلى مهاوي الجهل والتعصب، ويقبعون في ظلمات الفرقة، وقد نشرت تحت ستار الوعظ خرافات وأوهام وأباطيل، وطغت موجة الغلو والتحدي لتعاليم الإسلام، وانتشرت عقائد بعيدة عن روح الإسلام ونظمه، ومصدر ذلك تلك الحلقات التي اتخذت لأغراض خاصة وأبواق المأجورين.

ولقد أخذت تلك الخرافات مكانتها في أدمغة السذّج، وهي السمّ القاتل، والسلاح الفاتك، ثم تحولت إلى مادة يشطح فيها الخيال، ويحاط بها الأشخاص. وتظهر على الساحة جماعات بمسوح دينية وشعائر مبالغ فيها، تجعل لها قادة من الرجال الأحياء أو الأموات، فتنسب إليها الأعمال أو تصوّر سيرهم بأوضاع لا تجد لها مستنداً من عقل أو حقيقة، وما هي إلا أوهام تنجم عن حالات خاصة يمارسها الأشخاص، فتخلق أجواء يبرز بها مختصّون في الأداء والتوجيه، تجتذب أفعالهم السذّج والبسطاء، فتصبح عندهم عقيدة وطريقة. وقد جاءوا بمناقب لمن وسموهم بالأولياء أو الشيوخ ذوي الكرامات.

فهذا يدّعي له بأن الشمس وقفت له إكراماً حتى يصل إلى وطنه عندما ضايقه الليل كالشيخ محمد الحضرمي حتى قالوا في ذلك:

ومن جاهه أومأ إلى الشمس أن قفي ... فلم تمشِ حتى أنزلوه بمقعد[٢]

وقالوا: أنّ الكعبة توهّدت وهي تطوف بسريره.

وأوردوا عن النبي ﷺ: أن من قبّل يد الشيخ الحضرمي دخل الجنة. إلى غير ذلك من خرافات وأوهام[٣].

وكذلك أدعي للسيد أحمد الرفاعي أن الشمس وقفت في قرصها إلى أن دخل قرية أم عبيد[٤] وأكثروا عن المشايخ نقل كرامات تدل على مبلغ ما وصل إليه

---

(١) طبقات الحنابلة ج١ ص٨١.

(٢) اليافعي، مرآة الجنان ٤/ ١٨٨.

(٣) ابن العماد، شذرات الذهب ٥/ ٢٦٢.

(٤) الشيخ أحمد الوتري، روضة الناظرين ٩٩.

الانحطاط الفكري، وقد جعلوا الاعتراف بها والخضوع لها من عقائد الإسلام، فمن مارى فيها شكّوا في دينه[1].

فكانوا يلزمون الناس بالاعتقاد بأن شيبان العجمي سخرت السماء لخدمته، عندما يريد أن يغتسل، فهناك تأتي سحابة تمطره فيغتسل، ونسبوا لآخر منهم أنه يخرج في القافلة من البصرة يوم التروية، فيدرك الحج أول النهار.

وقالوا: أن إبراهيم الخراساني كان يمشي على البحر بين الأمواج، وأحمد بن خضير البلخي كان يفرش بساطه على البحر[2].

وغير ذلك من ادّعاءات كاذبة ومناقب مفتعلة، وليت الأمر اقتصر على تخَيّل الكرامات وادعاء المعجزات التي يسهل أمرها عند تحكيم العقل وتدقيق النظر، فإن قائمة الموضوعات امتدت إلى الأحكام الشرعية وابتغائها على نتاج هذه الأمراض التي تكبّل طاقات البشر وتشلّ قدراتهم، فيعلم العيد من امتناع الوليد عن الرضاع وهو في حضن أمه. أو ما أوردوا للسيد البدوي من أنه بعد أن مات قام فغسّل نفسه، وبعد انتهائه من الغسل مات ثانية.

وقد ابتني على هذا نزاع فقهي كما أورده الشيخ الباجوري وغيره في تغسيل الجنائز فقالوا: إن الميت لو غسّل نفسه لا يحتاج إلى من يغسله ثانية كما وقع للسيد أحمد البدوي.

ويروون أن جماعة من الفقهاء والفقراء اجتمعوا عنده في المدرسة النظامية، فتكلم في القضاء والقدر، بينما هو يتكلم إذ سقطت عليه حية من السقف، ففرّ منها كل من كان حاضراً عنده ولم يبق إلا هو، فدخلت الحية تحت ثيابه، ومرت على جسده، وخرجت من طوقه، والتوت على عنقه، وهو لا يقطع كلامه ولا غيّر جلسته، ثم نزلت على الأرض وقامت على ذنبها بين يديه، فصوتت، ثم كلّمها بكلام ما فهمه أحد من الحاضرين، ثم ذهبت. فرجع الناس وسألوه عما قالت؟ فقال: قالت لي لقد اختبرت كثيراً من الأولياء فلم أر مثل ثيابك. فقلت لها: وهل أنت إلا دويدة يحرّكك القضاء والقدر الذي أتكلم فيه[3].

---

(١) محمد الغزالي، الإسلام والطاقات المعطلة ١٢٤.

(٢) المناوي، الكواكب الدرية ١/ ١٩٢ ـ ١٩٨.

(٣) انظر: طبقات الشعراني، ترجمة الجيلي، الجزء الأول.

ومن الغريب أنهم يربطون بين خرافاتهم وبين واقع الإسلام، كما أنهم اخترعوا أسطورة لرقصتهم في مجالس الذكر، وأنهم يفعلون ذلك اقتداء بأبي بكر، وقالوا: حدّث الأشناني عن ابن عباس عن النبي ﷺ: هبط عليّ الأمين جبريل وعليه طنفسة وهو متخلل بها. فقلت: يا جبريل، ما نزلت إلي بزيٍّ مثل هذا الزيّ؟

قال: إن الله أمر الملائكة بأن تتخلل بالعباءة إكراماً لأبي بكر. ورواها العلاء بسند عن ابن عمر. بينما الناس عند النبي وعنده أبو بكر وعليه عباءة، قد خللها على صدره بخلال، إذ نزل جبرئيل وقال: مالي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خللها؟ فقال النبي: يا جبرئيل قد أنفق ماله عليّ. قال جبرئيل: فأقرأه من الله السلام وقل له: يقول ربك: أراضٍ أنت أم ساخط؟ قال ابن حجر في بقية الحديث: فبكى أبو بكر وقال: أعلى ربي أغضب؟

وقد أورد هذه المنقبة صاحب الذهب الأبريز في شرح الوجيز ص٣٩٢، وهي أن أبا بكر أنفق ماله في سبيل الله، وأعتق عبيده حتى تخلل بالعباءة، ونزل جبرئيل وقال يا محمد: إن ملائكة السمٰوات تخللت بالعباءة إكراماً لأبي بكر من الله، وقل له: إن ربك عليك راضٍ فهل أنت عنه راضٍ؟

فقال أبو بكر: إني عن ربي راضٍ. وصار يفتل (يفتر) كالدولاب. وعنه أخذت الصوفية الدوران والرقص.

ونسبوا إلى أبي بكر أنه ألبس أحدهم الخرقة في المنام وهو ابن هواد البطائحي وكان شاطراً يقطع الطريق، فكان أول من ألبسه أبو بكر ـ كما يروي الشعراني ـ ثوباً وطقية في النوم، فاستيقظ فوجدهما عليه؛ ويرقى بهم الحال، فيدّعون للشيخ عبد القادر منزلة النبوة ودرجة المناجاة مباشرة من دون واسطة، فيقول: يا رب. فيقول الله: لبيك. وقد جمعت هذه المناجاة والوحي الألٰهي في رسالة أسموها: الرسالة الغوثية. نقتطف منها ما يلي:

قال الشيخ عبد القادر الكيلاني:

الحمد لله كاشف الغمّة، باسط النعمة، والصلاة والسلام على نبيه خير البرية.

قال الغوث الأعظم المستوحش بغير الله والمستأنس بالله.

قال الله تعالى: يا غوث الأعظم.

قلت: نبيك يا رب، الغوث.

قال: كل طَوْر بين الناسوت والملكوت فهو شريعة، وكل طور بين الجبروت والملكوت فهو طريقة، وكل طَوْر بين الجبروت واللاهوت فهو حقيقة.

وقال لي: يا غوث الأعظم، ما ظهرت في شيء كظهوري في الإنسان.

ثم سألت فقلت: يا رب هل لك مكان؟

فقال لي: يا غوث الأعظم، إنا مكان المكان، وليس لي مكان. وأنا سرّ الإنسان.

ثم سألت فقلت: يا رب هل لك شرب وأكل؟

قال: أكلي أكل الفقير، وشربه شربي.

ثم سألت وقلت: يا ربّ من أي شيء خلقت الملائكة؟

إلى آخر ما جاء في هذا الباب من المناجاة التي تضمنتها «الرسالة الغوثية» وقد طبعت باللغة التركية، وترجمت إلى العربية، ويأتي ذكرها في تعداد مؤلفات الشيخ عبد القادر[1] وفيها تلك المناجاة، أو المقابلة بين الشيخ وربه.

وقالوا عنه: أنه كان في حفرة أيام رضاعه دليلاً على هلال شهر رمضان، لأنه

---

(١) هو الشيخ عبد القادر بن موسى بن عبد الله. أمه أم الخير فاطمة بنت السيد عبد الله الصومعي الزاهد. ولد في بنيق قصبة من بلاد جيلان وراء طبرستان سنة ٤٧٠هـ ١٠٧٧ ميلادية، ودخل بغداد في سنة ٤٨٨هـ ١٠٩٥ ميلادية، فقرأ الفقه والأصول، وسمع الحديث، واشتغل بالوعظ، ولازم الانقطاع والخلوة، وأسند له الولاية. وعرف بالشيخ عبد القادر الكيلاني، وله مؤلفات كثيرة، كما ذكروا له كرامات ومعاجز خصص لها كتب تنوف على أكثر من ٣٠ كتاباً. توفي في بغداد سنة ٥٦١هـ وقبره ظاهر يزار، ومحلة تعرف بمحلة باب الشيخ نسبة له.

جاء في النظرات ج٢ ص٩١ الطبعة ٦ ـ مطبعة الرحمانية في مصر سنة ١٩٣٠م. تحت عنوان: دمعة إلى الإسلام، يقول فيه:

إنه ورده كتاب من الهند يصف كاتبه مؤلفاً موضوعه تاريخ حياة عبد القادر الجيلاني وذكر مناقبه وكراماته وما وصفه بصفات وألقاب هي بمقام الألوهية أليق منها بمقام النبوة فضلاً عن مقام الولاية. كقوله: سيد السماوات والأرض، النفاخ الضرّار المتصرّف في الأكوان والمطلع على أسرار الخليفة محيي الموتى ومبرىء الأعمى والأبرص والأكمه، وأمره من أمر الله... إلى آخر تلك الألفاظ.

وهلم معي فاقرأ بقية الكتاب ص٩٣ يصف الكاتب أمة من الناس يسجدون لقبر ينسب لأولاد عبد الله سجود رق من دون الله، وإن في كل بلاد صورة مزار لقبر عبد القادر، فيكون القبلة التي يتوجه إليها المسلمون في تلك البلاد الخ. أصحيح هذا؟ نحن قرأنا كما قرأت والسلام.

كان يمسك عن الرضاع في شهر رمضان نهاراً، ولأنه صائم ورضاعه في آخر الشهر دلالة على هلال شوال!!

وصادف أن غُمّ الهلال على الناس في آخر الشهر، فسألوا أمه: هل رضع اليوم؟

قالت: نعم. فعلموا أنه العيد!!!

ويعض المصادر الصوفية تروي ذلك على لسان والدته التي يصفونها بأنها: لها قدم في الطريق. وأنها قالت: لما وضعت ولدي عبد القادر كان لا يرضع ثديي في نهار رمضان، فأتوني وسألوني عنه؟ فقلت لهم: إنه لم يلتقم له ثدياً، ثم اتضح ذلك اليوم كان من رمضان[1].

لقد أدى إقبال العامة على القصّاص، ووضوح أهداف مجالس القصّ في تمجيد الحكّام والدفاع عن أصحاب القوة والنفوذ إلى ظاهرة أخرى، هي التي نحن بصددها حيث نجمعها في التأثير السلبي مع القصاص.

ومع تباين الأغراض والنزعات فإننا إذا أخذنا بمقاييس البدعة ومعايير الأحداث، فإن ما يجمع بين هذه الأعمال هو تجاوز الحد والمبالغة في السلوك، سواء في الدفاع عن الظلمة والكذب على الرسول محمد ﷺ أو في تعظيم الأشخاص ونسبة الأمور العظيمة إليهم والتقيّد بشعائر تخرج الإنسان المسلم من حال الاتّزان والقبول.

ولا تحول صفة الزهد والتقشف أو أغراض الوعظ دون نظرنا إلى النتيجة.

يقول الإمام الحافظ أحمد بن محمد بن الصديق في كتابه (فتح الملك العلي بصحة حديث باب مدينة العلم علي): وقد نص السلف على أن القصص بدعة، وأن التزهّد والتقشّف الخارج عن السنّة بدعة أيضاً، فكان مقتضى هذا أن تردّ رواية كل زاهد ومذكر، ويعلق ذلك بزهده وتذكيره، لأنه وجد الكذب شائعاً، ووصفوا بالبدعة كما هو حال الآخرين.

(فإن قيل): لم يصدر الكذب إلا من جهلة الزهاد ومن لا تقوى عنده من القصّاص والوعاظ.

---

(١) طبقات الشعراني ج١ ص٩١.

(قلنا): وكذلك المبتدعة، فإنّا لم نجد الكذب شائعاً إلا في فسقتهم، ومن لا يخشى الله منهم. أما أهل الدين والتقوى فوجدناهم في نهاية الصدق وغاية التحرّز من الكذب. انتهى. وبما أن المصنف من أصحاب التصوّف، فهو لم يتطرّق إلى الكرامات، وتناول الجانب الذي يهمّ بحثه فقط، وقد كان متّصفاً في محاولته تطبيق الأحكام التي تصدر بفعل العوامل التي ذكرناها والظروف التي بيناها من تسلط الحكام وتأثيرهم على أصحاب الفتوى والحديث، واستخدام البدعة في الاتجاه الذي ترغب به السلطة. فهو يذكر ما ورد في ترجمة أحمد بن عطاء الهجيمي الزاهد. قال ابن المديني: أتيته يوماً فجلست إليه، فرأيت معه درجاً يحدّث به، فلما تفرقوا عنه، قلت له: هذا سمعته؟ قال: لا ولكن اشتريته وفيه أحاديث حسان أحدّث بها هؤلاء ليعملوا بها وأرغّبهم وأقرّبهم إلى الله، ليس فيه حكم ولا تبديل سنّة. قلت له: أما تخاف الله، تقرّب العباد إلى الله بالكذب على رسول الله ﷺ؟.

كما يذكر ما ورد في ترجمة زكريا بن يحيى الوقار: كان يتهم بوضع الأحاديث لأنه يروي عن قوم ثقات أحاديث موضوعة قال: والصالحون قد وسموا بهذا أن يرووا أحاديث في فضائل الأعمال موضوعة، ويتهم جماعة منهم بوضعها[(١)].

ولقد ظلت الصوفية تحتفظ بعناصرها العلمية وفلسفتها، وهي كطريقة في الحياة أو في العبادة لا نتناولها، فلا يعنينا ذلك، فهي قد تكون من أصول قديمة أبعد من الإسلام، ثم تجددت بعد فجر الإسلام، فوجدت في المنهج الحياتي للإمام علي عليه السلام خير تعبير عن اتجاهها، فجعلته القدوة. أو قد تكون إسلامية بحتة لها صفة العلم، وحمل ما جاء به رسول الله ﷺ وإن الله أعد لقبول ما جاء به الرسول أصفى القلوب وأزكى النفوس، فظهر تفاوت الصفاء، واختلاف التزكية في تفاوت الفائدة والنفع. وسوقهم حديث أبي حمزة الثمالي: حدثني عبد الله بن الحسن قال: حين نزلت هذه الآية: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ قال رسول الله ﷺ لعلي: سألت الله سبحانه وتعالى أن يجعلها أذنك يا علي. قال علي: فما نسيت شيئاً بعد، وما كان لي أن أنسى. قال أبو بكر الواسطي: آذان وعت عن الله تعالى أسراره[(٢)].

---

(١) فتح الملك العلمي ص٦٠.

(٢) السهروردي، عوارف المعارف ص١٢ و١٣.

وحرصهم على الاتصال بالإمام علي عليه السلام شديد، حتى شملهم نصب ابن تيمية فتناولهم بلسانه ودبجت يراعه في النيل، فهم جزءاً من تراثه الحنبلي السلفي.

وأياً كان، فإن الكرامات والأحوال وتناقل خوارق الأعمال، يؤدي إلى بقاء المتعلقين بهم في حالة من ضعف الإدراك ووهن العزيمة، وطريقة أداء الأذكار قد شجعت على الحلول، وأدت إلى اعتقادات بعيدة عن الإسلام. وفي موضوع التصوف نتلمّس آثار القصّاص بمحاولات إبعاد طرق المتصوّفة أو حالات الزهد الكامل والتقشف المقبول عن أي صبغة شيعية. والشيعة ليس لهم رغبة أو يد في ذلك، لكن الكثير من طوائف المتصوفة مقيمون على ولائهم للإمام علي ولآل البيت صلوات الله عليهم أجمعين، وعبر المراحل الزمنية واختلاط المحدثين والقصاص بأهل الذكر، وتطور أحوال المتصوفة نبع بينهم من أصناف إلى «الهوس» أصلاً «سيئاً» حرصاً منه، ثم انتهت المجالس إلى غاية بذاتها تفوق أو تعلو على أية غاية. لتكون مسرحاً لرواية الخوارق، وإقامة الحركات، والدقّ التي يعجز أي عاقل عن اختلاق أصل إسلامي لها.

وعلى أي حال، فلقد اشتد نشاط القصّاص، وأخذوا مكانتهم من السلطتين الزمنية والتشريعية، فهم ينشرون بين الناس أحكاماً ما أنزل الله بها من سلطان، كما أنهم يتمتعون باحترام العامة وتقديرهم، لأنهم يمثّلون الجانب الروحي. وإلى جانب ذلك، لهم نفوذ إرادة، إذ الدولة تمنحهم رعايتها، وتعتني بشؤونهم، وقد استعملوا نفوذهم هذا ضد كثير من الطوائف وجماعات من الناس. وبدأت روح الاستياء تسري في جسم الأمة، ونمت خلال ذلك فكرة إيجاد مجالس لذكر الله وللوعظ، ليشغل الناس عن مجالس القصّاص، فاتجه الأفراد إلى هذا اللون الجديد. وصفها أبو طالب المكي بقوله: إن مجالس أهل العلم بالله وأهل التوحيد والمعرفة، هي مجالس الذكر(١).

وتطوّرت هذه المجالس، وتسرّبت إليها يد القصّاصين، فتدخلوا فيها، وقد وضعت فيها أحاديث، وأحيطت بهالة من التعظيم والتقديس تشجيعاً للناس والالتفاف حولها، حتى أصبح لها بين العامة شأن من الشأن، وتعلقوا بها وجعلوا الحضور فيها

---

(١) أبو طالب المكي، قوت القلوب ج١ ص١٥٢.

من أعظم الطاعات وأفضل القربات، وتزاحم الناس على تلك المجالس، ولا ندري هل استغل المتصوفة هذه الفرصة، ومن هنا انتشر ذكرهم؟ وهل كان ظهور التصوف قبل انتشار هذه المجالس، أم أنه انطلق منها فكانت نقطة بداية؟ ومن المستحسن هنا الإشارة إلى نشأة التصوف وتطوره، وكيف أصبح وسيلة لنشر الخرافات وبعث الحزازات.

والذي يظهر أن بداية التصوف كان سنة ٢٠٠هـ في الاسكندرية عندما ظهرت طائفة يسمّون الصوفية، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فيما زعموا، ويعارضون السلطان في أمره، وترأس عليهم رجل منهم يسمى أبو عبد الرحمن الصوفي[(١)].

ويقول القشيري: انفرد خواصّ أهل السُّنة المراعون أنفاسهم مع الله تعالى، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف، واشتهر هذا الاسم بهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة[(٢)].

وأول من سلك طريق الملامة: أبو صالح حمدون بن عمارة القصّار المتوفى سنة ٢٧١هـ وكان يفضل أن يكون مظهره مظهر المذنبين على أنه يخشى أن يصرفه تعظيم الناس له عن الله.

وقيل: إن فكرة الملاقية قديمة، فقد وصفها أفلاطون في أول الكتاب الثاني من الجمهورية، العادل: الحق الذي يظن الناس أنه ليس عادلاً.

وكان التصوّف قد شغل ناحية هامة من نواحي الحركة العقلية الإسلامية، بل العالمية من جهة، وكان لأعلام مفكري الإسلام كالفارابي وإخوان الصفا وابن سينا والغزالي والحلاّج وابن العربي في التصوف آراء نظرية وخطط عملية.

ولسنا بهذا العرض نريد ـ كما قلنا ـ أن نتعمّق في البحث عن التصوّف، ونشأته وتطويره في مجال الفكر، وقد تناولت ذلك أقلام الكتّاب والمؤرخين. والذي يغنينا هنا، هو أن نعرف كيف تطوّر التصوّف، ومتى حصلت فيه تلك الآراء الخاطئة، وتحول إلى ادعاءات فارغة ووقوع أعمال منكرة، وقد أصبح ضرره على المجتمع لا يقل عن أضرار القصّاصين؛ بل ربما اختلط المنهجان، وانطلقا سوية في طريق البعد عن كثير من المدّعين الصلة به، إذ أصبح فيه من الدخلاء ودعاة السوء ما تشوّه

---

(١) الكندي، الولاة والقضاة ص١٦٢.

(٢) الرسالة ص١٧.

حقيقته، وفتح على المجتمع حكايات خرافية وأساطير ادّعوا أنها دينية، ووضعوا أحاديث الرقائق، ويرون في ذلك طاعة الله ونصرة الدين، وأصبحت فكرة الاتحاد أو الحلول خارجة عما كان يسلكه القدماء من طريق النور والبصيرة الذي لا يتيسر إلا بطريقة العبادة، فكثرت ادّعاءاتهم في قربهم لله، ووضع الكرامات الخارقة للعادة في حق أصحابهم الذين لهم مراتب وأسماء ومنازل وألقاب تجعل منهم نظاماً متكاملاً في الأفضلية والتأثير والمقامات والدرجات، طالما تدخلت الأهواء الخاصة والرغبات الشخصية في إبرازها في زمننا لتحقيق المصالح والتظاهر بالعظمة الروحية والخصائص الذاتية التي تجعل له مقدرة على الأعمال في أمور الدعاء أو الشفاء، والله أعلم بسرّ تلك الحالات التي اشتهرت بين الناس وأصبحت عندهم بمستوى اليقين.

وإضافة إلى ما أدى إليه التصوف وما قام على حالاته من اعتقادات وأفكار، فإن من دواعي الإشارة إليه في كتابنا وفي هذا الموضع، تلك الأفكار التي وجدت مع البدايات، ولقد لمّحنا إلى الاختلاف في أصل أو مصدر التصوّف، وكان هذا الاختلاف موضع نقاش واسع وكبير اختص به كتّاب كثيرون، وقد كان المتحاملون منهم يتّبعون الأسس التي وضعها المستشرقون للطعن في الإسلام والدخول إلى أفكار الطبقة المثقفة منهم بطابع جديد، وعلى الأخص أولئك الذين تلقّوا دراساتهم في أروقة الغرب، وتلمذوا على أساتذة الجامعات الإنكليزية والألمانية والفرنسية والأمريكية، وكان مذهب أهل البيت غرضهم الأول الذي وجهوا إليه سهام الاتهام، فاختلقوا الأفكار الساذجة التي لا تستقيم ولا تثبت أمام الحقائق المعروفة، فادّعوا أن موقع القيادة التي أحل بها الشيعة أئمتهم، ونظرة الاحترام والإجلال التي أحاطوا بها زعماءهم من أهل بيت النبي ﷺ لها مصادرها الأجنبية. وفي ذلك خروج على المنطق، وتجاوز وتعدّ على أبسط قوانين البحث والنظر، احتاج دحضه والردّ عليه إلى جهود كبيرة، وذلك لاتساع الجهات التي تولّت القول، ونصبت نفسها بالنيابة عن أعداء الأمة لترويج هذه الأقوال، وقد جئنا على بعضها في الأجزاء السابقة من الكتاب، لكن الملاحظة الهامة أن أتباع الغرب من أبناء اليوم أو غيرهم من حشوية السلف وعاشقي الجمود لا يصرّحون بالتجريح، ويتردّدون في الشتم والاتهام في عرضهم لحالات الهوس، والأفكار التي جعلتنا نضمّ نتائج التصوف إلى العوامل التي أدت إلى تخلف وفرقة شديدين. ولا بد أن نذكر أن «الشيخ» ابن تيمية يكشف في ردّه

على ابن عربي ومحتويات كتابه «فصوص الحكم» عن غرضه الحقيقي، وهو تناول الشيعة والإساءة إليهم، إذ ينسب كبارهم كالتلمساني وابن سبعين إلى الفرق الغالية التي اقتضت الأغراض السياسية أن تحسب على الشيعة وتقرن بالإمامية، وكان يكفي «لشيخهم» ابن تيمية ذرّة من إنصاف أو اطلاع وتحقيق ليعلم الفرق، ولو تخلى لحظة عن مرض الحقد الأعمى، وأنصت إلى ما يقوله الشيعة عن مذهبهم، لبعد عن الزلل والخطأ الذي هو فيه ولو بقيد شعرة.

وعندنا أن حالات الحلول والمعتقدات الأخرى التي اتّسم بها التصوف، تعود إلى الوضع النفسي الذي يتخلل أوقات القيام بطقوس الصوفية، وهي لا شك متفرعة عن تصرفات أشياخهم الأوائل الذين في نظرهم أمسكوا بأصول المعرفة ومفاهيم المحبة الإلٰهية، وراحوا يبيحون لأنفسهم تصرفات وأفعالاً غزت عقول مريديهم، وحجبت الأصول الحقيقية والمفاهيم الجلية التي سنطّلع عليها في مظانّها الصافية ومصادرها النقية عند رجالات أهل البيت النبوي، وموقع الإمام الصادق عليه السلام في هذه السلسلة.

ونقف قليلاً لنوضّح بموجز من البيان منشأ كلمة الصوفي في الإسلام، ومبدأ اشتقاقها، فإنا نجد هناك زخماً من الأقوال فلا حاجة للبسط في ذلك، ولعل أهمها أنها نسبة إلى الصفّة الأولى التي كان المتنسّكون يجتمعون عليها في عهد النبي ﷺ وأكثرهم من الفقراء، حتى نسب إليها جماعة فيقال فلان من أهل الصفة، والصفة مكان في مسجد النبي ﷺ عند يمين الداخل من باب جبرئيل، وهناك قوم يقولون أنها نسبة إلى الصفاء ـ كما قلنا سابقاً ـ أو انها نسبة من صافا ربّه فصوفي، وقيل أنها الصف الأول في الصلاة، وقيل نسبة إلى بني صوفة، وفريق يقولون إنها مشتقة من لفظة يونانية الأصل هي صوفينا ومعناها الحكمة، فيكون الصوفية قد لقبوا به نسبة إلى الحكمة لأنهم كانوا يبحثون فيما يقولونه بحثاً فلسفياً، وآخرون يقولون نسبة إلى الصوف الذي اشتهر المتنسكون به، وقد اختار هذا الاسم جماعة منهم.

ونجد التنسّك في الإسلام حيث تنسّك جماعة من الصحابة في عهد النبي وعرفوا به كأبي ذر وحذيفة وأويس القرني وغيرهم. وكان المتصوّفون في أول نشأتهم يتنسّكون ويتعبّدون من دون إطلاق لتسمية المتصوّفة عليهم، لأن تنسّكهم وزهدهم من وجوه إيمانهم بأحكام القرآن وعقائد الإسلام، وهو ما كان سبب مأساة أبي ذر

الذي قصد إلى تطبيق نظام الإسلام وضمان حق الفقراء. وتمسك بمبدأ الآخرة وزوال الدنيا، فكان شعاره قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فامتدت إليه يد الأغنياء. ورمته في أحضان حكم معاوية، فكان لا يخفي إنكاره لما فيه معاوية من بذخ وترف يتعارض مع الإسلام، وزاد على ترديده قول الله، قوله لمعاوية جهاراً: إن كان ما أنفقت من مال الله فهو خيانة، وإن كان من مالك فإسراف.

ولقد أدت أوضاع الدعوة في زمن الرسالة وضرورات نشر الدين إلى معاناة كبيرة وتضحية بالغة شملت الأهل والمال والمسكن، فقد كان أهل الصّفة (غرباء فقراء مهاجرين أخرجوا من ديارهم وأموالهم) ووصفهم أبو هريرة وفضالة بن عبيد فقالا: يخرّون من الجوع حتى تحسبهم الأعراب مجانين، وكان لباسهم الصوف حتى أن كان بعضهم يعرق فيه فيوجد منه ريح الضأن إذا أصابه المطر. هذا وصف بعضهم لهم حتى قال عيينة بن حصن للنبي ﷺ: أنه ليؤذيني ريح هؤلاء، أما يؤذيك ريحهم؟

والمتصوفة يتمسّكون بنسبتهم إلى حال أهل الصّفة، وأن التسمية منها، غير أن ذلك لا يتفق مع اللغة، وتأباه قواعد الصرف. أما النسبة إلى الصوف فقد تكون من حيث اتفاقها مع قواعد اللغة والتاريخ هي الأصح. ولا نعني بالقطع واختيار أحدها على وجه اليقين، فليس لذلك أهمية في نظرنا، وقد يخرج عن صلب البحث. كما أن الصوفية يريدون أن يجمعوا بين كل التسميات، وربطها بالصّفة والصوف اللذين يتوحّدان في نظرهم، ومن نسبهم إليهما فإنه عبّر عن ظاهر أحوالهم، وذلك أنهم قد تركوا الدنيا فخرجوا عن الأوطان، وهجروا الأخدان، وساحوا في البلاد، وأجاعوا الأكباد، وأعروا الأجساد، لم يأخذوا من الدنيا إلا ما لا يجوز تركه من ستر عورة وسدّ جوعة[١].

ونختصر القول في نصّين كليهما لأحمد أمين، لأني في دار الغربة والابتعاد عن الوطن حيث داري ومكتبتي، أعاني معاناة لا يعرفها إلا الله من توفير ما احتاج إليه من ضرورات البحث وأمهات المصادر التي كانت متيسرة في داري في النجف الأشرف، وأنفقت بين رياض الأفكار الشطر الأوفى من عمري، كان حصيلته الأجزاء الستة

---

(١) انظر: أبو بكر محمد الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف ص٢٩، ٣٠، ٣١.

الماضية من كتاب الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ومخطوطاتي الأخرى. ناهيك عن وهن البدن وضعف البصر حتى الكلل. لك الحمد اللهم أولاً وآخراً.

يقول أحمد أمين: ومن ناحية أخرى تغالي الصوفية في الأعمال النفسية الروحية، ولم يضغطوا ضغطاً كافياً على الأعمال الظاهرة، فكان هناك فقهاء وصوفية، وعداء بين الفقه والتصوف. الصوفية يرمون الفقهاء بأنهم لا يعبأون إلا بالقشور من مظاهر الأمور، والفقهاء يرمون الصوفية بأنهم غلوا في أحوال الروح أكثر مما كان يعرفه الإسلام وسمّوهم أهل الباطن[1].

ويقول الدكتور أحمد أمين: وكان التصوّف يغلو في الباطن، وكان مرتعاً خصباً للخرافات والأوهام والتحرّر من الشعائر، وارتكاب الموبقات، واخترعوا بجانب التصوف الموسيقي والذكر والشطح والرقص وغير ذلك، وكان لهم أثر كبير في النظام الاجتماعي المتهافت، وكان من نتائج الصراع الشديد بين الفقهاء والمتصوّفة أن آل الأمر إلى سجن بعضهم[2].

وهذا ما يكشف لنا جانباً من جوانب الصراع الحاد، مما يحدث رد فعل في نفوس أكثر الناس، فالمتصوفة سلكوا الجانب الروحي إدعاءً، ودعوا الناس إلى الاعتقاد بما لا يقبله العقل ولا ينطبق مع نظم الإسلام، وأصبح جانب التصوّف يدعم تلك الخرافات التي انثالت على المجتمع بسمّ قاتل، وكانت تلك الرباطات مصدراً لأمور لا رابطة لها بالإسلام. ووجهوا الناس إلى تعظيم قبور من يسمونهم بأولياء على طرقهم المعروفة وأساليبهم الخاصة، يكمل هذا وذاك إدعاءات الأحداث والأفعال للأموات والأحياء الذين يتّصلون بهم، فتسود حالة من الإيمان بقدرات المخلوقين والاعتقاد بكرامات أوليائهمظ، وتتحجّر الأذهان والأفهام على ألوان من الإيحاء التي يستفيد منها الذين يحتلّون الصدارة.

وفي وسط فوضى القيام بأعمالهم وأشكال طرقهم، كان الناس يساقون إلى مستويات عقلية واهية، ويرفعون إلى مهاوي الجهل كما علمنا سابقاً ومرّ بنا في ثنايا البحث.

---

(١) ظهر الإسلام ٢/ ٥٧.

(٢) أحمد أمين، يوم الإسلام ١٠١.

خلاصة البحث

إن روح العداء التي سقط بها المجتمع في مخالفة صريحة لأحكام الشريعة وتعاليم السنة النبوية، تظافر على ظهورها عوامل عديدة وأسباب شتى، كانت يد المصالح الخاصة وأغراض السلطان هي الأقوى والأغلب.

ومن عوامل نجاح الدعوة إلى القضاء على محاولات استمرار العداء والانقسام، قيامها على التحقيق والتثبّت والابتعاد عن حمى الفرقة وداء التعصب الذي ما زال ينخر في نفوس بعض الناس في عصرنا الحاضر.

وقد بحثنا الجمود الفكري، واطلعنا على آثار الجهل ونتائج مقاومة روح العقل وحرية الأفكار، وكيف التقت مصالح الحكام وأصحاب السلطان مع ذوي النفوذ والمكانات، واجتمعت الجهود والطاقات للوقوف بوجه انفتاح آفاق الفكر، وأسهم كلٌ من موقعه ومسؤولياته في محاربة أصحاب الأفكار والعقائد، واحتل التعصب المنزلة العالية لدى الذين يخشون آراء الناس وإطلاق حريتهم، وتكوّنت لدى السلطان والحكام فكرة تحدّد الخطر في جهة النظر والاعتماد على الفكر، وتماسكت في العهد العباسي الأجزاء التي أوجدها الحكام المتسلّطون منذ أن انحرفوا بالنظام الإسلامي واستبدّوا بالحكم بعد الإمام علي عليه السلام وأصبحت مساهمتها في إرساء الظلم أعظم من السابق، فإننا نلاحظ أن معاوية كان يملي إرادته دوماً على فقهائه وخطبائه والمنضمّين إلى سلطانه، أما في حكم بني العباس فقد بات الاتجاه إلى تأسيس المذاهب أولاً، وكانت العلاقات متبادلة ومتوازنة في كثير من الأحيان بين تدخل الخليفة ورأي رجال الفقه، ثم برز على السطح من استهان بروابط العقيدة وروح الأخوة في الدين وأغرته السلطة بمنافعها وملاذها.

كذلك بحثنا مسألة خلق القرآن، وهي من أعظم المشاكل وأشدّها تعقيداً، ومن وجوه تعقيدها أن تحسب من عوامل الانحطاط في المجتمع، ومن أسباب دفعه إلى التفرقة، فهي قد تكون مشكلة تتجه إليها الأفكار وتعقد حولها المناظرات لتكون مادة تسلك بها مسالك الاستدلال وطرق الاستنتاج، وتقابل الحجة بالحجة، ويلاقى الرأي بالرأي على منهج التيارات الفكرية التي ظهرت في تلك المرحلة، وتمثلت في أفكار واعتقادات كان حافزها الدفاع عن الأسلام ودحض افتراءات أهل الكتاب. لكن أغراض أهل الحكم والسلطان جعلتها كبقية الأفكار والتيارات، وسلبتها ميزتها وأهم خصائصها، فباتت واحدة من أسلحة الخلفاء التي تنتهك بسببها الحرمات والأموال والدماء، وأحدثت نتائج بالغة الضرر ترتّبت على أساليب السلطة الملتوية والسيئة في تبنّيها لأفكار المعتزلة، وقد أشرنا إلى مسؤولية رجال العقل من المعتزلة في ذلك وكأنهم التذّوا بالسلطة كما التذّ بها من سبقهم.

وكانت مرحلة المأمون وخَلَفَيه، قد أدت إلى زيادة وترسيخ علاقة العامة بالسلطة، واستسلامها للنظرة التقليدية التي عمل على رسمها بصفتها الدينية وصلاحياتها الواسعة رجال متعددون، ارتبطوا بالخلفاء، وأذعنوا لرغبات الحكام فكانوا من أسباب الفرقة وحماية الظلم.

ثم اخترنا قضية البدع والضلالات، والتي أصبحت تطلق بلا روية، وتخضع للأهواء حتى شملت الطوائف جميعها.

كما اخترنا من عوامل تخلف المجتمع وانقسامه مسألة القصّاص ودورهم في استماله العامة وخدمة الحكام وجبروت الملوك، ثم ألحقنا بهذا العامل ـ من حيث التأثير ـ قضية التصوّف وما أدت إليه من مستوى عقلي يتقبّل الخرافات ويُقبل على الأوهام.

ومن يبحث يرَ أموراً أخرى عملت في جسم المجتمع تمزيقاً، ودفعت به إلى مهاوي التخلف. غير أنّا اخترنا هذه العوامل من غير أن ننكر دور العوامل الأخرى، وهي في عمومها ما زالت آثارها باقية حتى الآن نسعى ـ والله من وراء القصد ـ إلى إظهار ظروف قيامها وتحكيم العقل والنظرة الواعية التي تسمو عن التعصب والجهل لنعود إلى أصول العقيدة، والبحث المنصف يسهم بتحقيق هذا الهدف، لأن الكشف

عن ملابسات وجود هذه العوامل، والتأكيد على حقائق قيامها، من أهم أسباب النجاح في إدانة الطائفية والتخلي عن التعصب والعناد.

وقد بحثنا مشكلة خلق القرآن، وطرفاً من أثر القصّاصين والوضّاع في عقول العامة في الجزء الأول من كتابنا، وزدنا هنا ما اقتضته ضرورة البحث ومتطلبات اكتمال كل جزء من الأجزاء الأخيرة السابع والثامن بمواد البحث المطلوبة التي تتيح الفائدة. وفي هذا الجزء مهّدنا من خلال التطرّق للبدع التي طرأت على الصوفية إلى التفسير الصوفي لسيرة الأئمة الأطهار.

الإمام الصادق والتفسير الصوفي

من الأمور التي ثبتت واستقرت على أسسها، واحتفظت بملامحها الأصلية، وقاومت موجات العداء، هي سيرة الأئمة الطاهرين من أهل البيت عليهم أفضل الصلاة والسلام، فظلت شخصياتهم الفذّة مصادر إلهام تستمدّ منها الأمة العبر والدروس، وتتأسى بمواقفها وتجربتها. وبقي الشيعة يتلقون أمور دينهم من هؤلاء الرجال الذين تعرضوا لمختلف أنواع المحن وضروب التجارب القاسية، فرسم الأئمة عليهم السلام لمحبيهم وأتباعهم في كل مرحلة طريق العمل، ووضعوا لهم سبل النجاة من خلال نماذج سلوكية ومواقف جهادية وفكرية تنير الطريق أمام شيعتهم، وهم يعانون الويلات على أيدي الحكام والملوك وأصحاب السلطان والجبروت.

ولا تحتكر الشيعة طرق الاتصال بتاريخ الأئمة الطاهرين، ولا تدّعي اختصاص الأخذ عن تراث وأحكام أهل البيت بأحد، بل يرون أنهم رجال الإسلام وأعلام الهدى الذين تتجه رسالتهم إلى كل الطوائف من المسلمين، وتسع تعاليمهم جميع المسلمين.

وقد واجه الشيعة حملات ظالمة، وموجات عنيفة تزعّمها رجال مختلفون على مرّ العصور، وإن لم تكن على هيئة حملات الحكام وموجات ظلمهم المتكررة ضد أهل البيت وأتباعهم، وما يعني ذلك من ألسن ترقى منابر يفترض أن تقوم بمهمات المنبر المحمدي، وقصاصات ومراسيم، وجنود ودماء وأسلحة تلاحق أهل البيت وشيعتهم. إلا أن الحملات التي يقوم بها نفر بين فترة زمنية وأخرى، وبين مرحلة ومرحلة، تجد لها آذاناً صاغية لما تتستّر به من مراكز احتلتها بفعل ظروف سياسية واجتماعية غلب عليها الطابع الديني، وقد مهروا في دفع العامة إلى الإيمان بأقوالهم

والاعتراف بوجهات نظرهم التي هي في حقيقتها غير سليمة لقيامها على الاجتراء والتحكم. وقد تطرّقنا إلى ما انتهى إليه التصوّف من طقوس أسهمت في تخلف العامة، وتشجيع ظهور حالات يؤدون بها حركات تخرجهم عن الاتزان والسلامة، أو ادّعاء الكرامات التي يرافقها بيان وشرح تجعلها بمستوى المعجزات.

فكانت هذه النهايات في المتصوفة، إضافة إلى الأفكار والمعتقدات التي تأولوها عن شواهد وأحداث لآل بيت الرسول محمد ﷺ مادة تعميق الانقسام في المجتمع الإسلامي، وتأكيد الفرقة بين السنة والشيعة وذلك لضياع التحقيق وفقدان التدقيق.

ولئن أدت حركة العلم والنشاط الفكري إلى اختلاط وتداخل بين دوائر الشيعة الفكرية وبين المعتزلة، فقد حسمتها دلائل كثيرة مادية ومعنوية في الفكر والتصرف، وبات واضحاً لكل ذي بصر ينظر بتجرد، أن تشابه المناهج وتقارب المنحى الفكري بين الشيعة والمعتزلة، لا يعني اتحادهما المطلق أو تشابهما التام، ومع هذا بقيت إلى يومنا هذا، كمثل قضية تشيّع إبن أبي الحديد شارح كتاب نهج البلاغة، وعدم الالتفات إلى اعتزاله، وما ينطوي ذلك على أمور لا تقرّها الشيعة، وما ذلك إلا من نتائج إغفال التحقيق وإهمال أمانة البحث. وإلا فإن أصول التشيّع تقترن بأصول الدعوة الإسلامية وجوداً ومضموناً، وكان أهل البيت من أئمة الشيعة قد امتازوا عبر كل عهود الحكام ـ وقبل ظهور تيارات الجدل والكلام ـ برعاية الفكر وتحفيز الرأي في حدود الشريعة والأحكام، وضرورة العقل. وكانت مدرسة الإمام الصادق عليه السلام من أعظم صروح الفكر الإسلامي، لما اضطلعت به من نشاطات ومهمات تعنى بالفكر والدين، وقد تقدمت الإشارة في الأجزاء السابقة من الكتاب ـ وسنأتي على ذكرها في موضعها في الجزء الثامن إن شاء الله ـ إلى اتصال رجال المعتزلة بالإمام الصادق عليه السلام ولقد أصبحت مسألة تأثر الشيعة بالمعتزلة وأخذهم عنها من جملة المحاولات التي ترمي إلى الإساءة إلى مذهب الشيعة، والتقليل من شأنه، فالنظرة العجلى تظهر الحقائق، فما ظنك بالتحقيق ورعاية الأمانة؟

فما المعتزلة إلا تيار لا يختلف عن بقية التيارات التي تهب بعوامل مختلفة لفترة معينة، وقد نمت في ظل المماحكات والمناظرات، وقامت على أسس المناظرة والجدل، فهي في إطار الكلام وفي مناحي العقيدة، تمثل مجموعة من الأفكار والنشاطات التي تتصل بالعقيدة، والقصد منها الردّ على جهات داخل صفوف الأمة

الإسلامية أو خارجها، وتبنّي اعتقادات جديدة واجتهادات في الجزئيات والفروع وأقوال في الصفات، إلى غيرها من أبواب نشاط المعتزلة، ولا ندري كيف يسمح لنفسه منصف أن يجعل الشيعة بفكرهم وبفقههم وبرجال مذهبهم من أئمة الهدى وسادة أهل البيت تابعاً ومتأثراً بالمعتزلة، الذين كان أفضل رجالهم تبعاً لأفكار الشيعة. وهو ما تميّزت به مدرسة بغداد الاعتزالية. ولقد كان من أخص الخصائص في وجود الشيعة تاريخياً ودينياً، استقلالهم بالفقه والرواية، وقيام أسسها على مدرسة أهل البيت الطاهرين عليهم أفضل الصلاة والسلام. وما انتظم فكر المعتزلة من قضايا رئيسية انطوى فكر الشيعة على أصولها وأمهاتها قبل أن تستجد عوامل انبعاث تيار المعتزلة وظهور أصولهم التي نادوا بها.

وفي الحقيقة، فإن قضية العلاقة بين الشيعة والمعتزلة، تبقى قضية من قضايا الفكر، تبرز في مستويات للبحث تستلزم الأمانة وتتطلب الموضوعية، وأي تناول يزلّ عن غرض العلم، ويلجأ إلى أساليب التهجّم والاتهام، يفضح دوافعه ويعري أغراضه، ولهذا وجدنا الكثير من الباحثين المعاصرين، يتناولون القضية بطابعها الفكري وفي حدود ظروف قيامها، وانتهاء تيار المعتزلة وبقاء طائفة الشيعة.

أما القضية ذات الخطر الجسيم، فهي قضية التصوف التي قصد في كثير من استخداماتها إلى الطعن بالشيعة، وإبقاء الخلط بين الفِرق التي تحسب على الشيعة، وبين طائفة الشيعة الإمامية.

يقول إبن تيمية في ردّه على ابن عربي:

(ما تضمّنه كتاب «فصوص الحكم» وما شاكله من الكلام فإنه كفر باطناً وظاهراً، وباطنه أقبح من ظاهره. وهذا يسمى مذهب أهل الوحدة وأهل الحلول، وأهل الاتحاد، وهم يسمون بالمحققين... فأقوال هؤلاء ونحوها باطنها أعظم كفراً وإلحاداً من ظاهرها، فإنه قد يظن أن ظاهرها من جنس كلام الشيوخ العارفين أهل التحقيق والتوحيد.

وأما باطنها فإنه أعظم كفراً وكذباً وجهلاً من كلام اليهود والنصارى وعبّاد الأصنام.

ولهذا فإن كل من كان منهم أعرف هؤلاء بهذا المذهب وحقيقته، كان أعظم كفراً وفسقاً.

كالتلمساني، فإنه كان من أعرف هؤلاء بهذا المذهب، وأخبرهم بحقيقته. فأخرجه ذلك إلى الفعل، فكان يعظّم اليهود والنصارىٰ والمشركين، ويستحل المحرمات، ويصنف للنصيرية كتباً على مذهبهم، يقرّهم فيها على عقيدتهم الشركية.

وكذلك ابن سبعين كان من أئمة هؤلاء، وكان له من الكفر والسحر الذي يسمى «السيميا» والموافقة للنصارى والقرامطة والرافضة ما يناسب أصوله)[1].

ولا نحتاج إلى بيان القصد عندما أوضح ابن تيمية وجاء على أسماء الفرق ليجعل من إدراجه «الرافضة» بهذا الشكل دلالة على لون من ألوان نيله من الشيعة، وكم له من نصوص لا يتردد فيها في ذلك دون روية أو معتمد أو مسوّغ.

أما ابن خلدون، فهو أيضاً من أبطال الدعوة ورجال الحملة الظالمة على الشيعة، وكغيره من الذين استسلموا لأسلافهم، ولعبت بعقولهم الأهواء، يجد في الصوفية مادة للطعن على الشيعة ويساهم في إثارة الغبار الذي يحجب الفوارق والحدود بين الشيعة ومن ينسب إليهم، ولو طبقت المناهج المحدثة التي استمدّت من ابن خلدون أفكارها الاجتماعية على هذا الجانب، لأصبحت قضية ما يحمل على الشيعة وما يتّهمون به من الأفكار الغالية والحلولية من أسس مناهج البحث التأريخي المعاصر، ولأدى تطبيقها إلى زوال ما ألصق بالشيعة ظلماً، غير أن ابن خلدون اتُّخذ حجة وعَلَماً في فن ـ كما يرون ـ وأسهم في أمر لا يقوم على فن أو شيء من الصحة، فمتى كان التعصب علماً، ومتى كان الهوى منهجاً؟ فما التعصب إلا من صور الجهل، وما الميل إلى الهوى إلا من قلة الإدراك، ولكنها إرادة الحكام وسياساتهم في التأثير على أفكار العامة، وحملهم على الاعتقاد بأن كلما يصدر عن السلطان هو الحق، وما يقوم به حاكم الزمان هو العدل، فكان ابن خلدون وغيره من خدمة حضرات الملوك والمتزلّفين لكراسي السلاطين من الدعاة إلى ذلك. فانظر مقدمة مقدمته وما خلع من ألقاب على الذين جعلهم كعبة تطلعه ومهوى أحلامه، ولقد كان أبعد الناس عن منهج التاريخ الذي أورده في فصل علم التاريخ، لأنه راعى الملوك في دولهم والحكام في سياستهم على مدى الأقطار، فأخلاقه تجعله يمدّ لكل حاكم يداً لأجل أن يستقرّ يوماً في أحد الدواوين أو يضمّه أحد القصور، وما التزم بما قال من أن فن التاريخ (محتاج

---

(١) ابن تيمية، الصوفية والفقراء ص٤٤ و٥٥.

إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط).

يقول ابن خلدون:

(ثم إن هؤلاء المتأخرين من المتصوّفة، المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحسّ توغّلوا في ذلك، فذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة كما أشرنا إليه، وملأوا الصحف منه، مثل الهروي في كتاب المقامات له، وغيره، وتبعهم ابن العربي وابن سبعين وتلميذهما ابن العفيف، وابن الفارض، والنجم الإسرائيلي في قصائدهم، وكان سلفهم مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة، الدائنين أيضاً بالحلول وألوهية الأئمة مذهباً لم يعرف لأولهم، فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر، واختلط كلامهم، وتشابهت عقائدهم، وظهر في كلام المتصوّفة القول بالقطب ومعناه رأس العارفين)[1].

لقد حاولنا الاقتصار على بعض أهم الأمور التي لا بد منها في تناولنا للتصوف، وعلى أبرز الجوانب التي جعلوها في طرقهم، وقلنا في السابق أنهم أوجدوا لهم نظاماً متكاملاً على رأيهم حسب المراتب والدرجات والمقامات والأحوال، كالمريد والغوث والقطب والأبدال. وهي منازل وضعوا رجالهم بها، اصطلحوا على خصائصها، واتفقوا على ماهيتها بحسب تكوين عقائدهم، وظروف نشأتهم ومع وضوح اختصاص المراتب بالتدرج الذي يدخل في أساليب الدعوات السرية والتعاليم الباطنية، فإن ابن خلدون يرى أن ذلك هو ما تقوله الشيعة في النقباء.

يقول ابن خلدون:

(وهذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية ولا دليل شرعي، وإنما هو من أنواع الخطابة، وهو بعينه ما تقوله الرافضة، ودانوا به، ثم قالوا بترتيب وجود الإبدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة في النقباء، حتى أنهم لمّا أسندوا لباس خرقة التصوّف ليجعلوه أصلاً لطريقتهم وتخليهم، رفعوه إلى علي رضي الله عنه، وهو من هذا المعنى أيضاً، وإلا فعلي رضي الله عنه لم يختص من بين الصحابة بتخلية ولا طريقة في لباس ولا حال؛ بل كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما أزهد الناس بعد

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص٣٩٦.

رسول الله ﷺ وأكثرهم عبادة، ولم يختص أحد منهم في الدين بشيء يؤثر عنه في الخصوص، بل كان الصحابة كلهم أسوة في الدين والزهد والمجاهدة، يشهد لذلك من كلام هؤلاء المتصوفة في أمر الفاطمي وما شحنوا كتبهم في ذلك مما ليس لسلف المتصوفة فيه كلام بنفي أو إثبات، وإنما هو مأخوذ من كلام الشيعة والرافضة ومذاهبهم في كتبهم والله يهدي إلى الحق)[1].

ويضطرنا تحامل ابن خلدون في الأمور الاعتقادية والتاريخية التي تخص الشيعة، إلى مناقشته بنصوصه، والجدير بالذكر، أن تحامل ابن خلدون كان من أسباب أقدامنا على تأليف الكتاب، فهو يقول عن مذاهب الشيعة في حكم الإمامة (إن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوّض إلى نظر الأمة، ويتعين القائم بها بتعيينهم، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لنبي إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة)[2].

ولنوضح أن لا حجة ولا دليل لابن خلدون في الربط بين عقائد الشيعة وأقوال المتصوفة عن رجالاتهم والنظام الذي وصفوهم فيه:

١ ـ إن أمر الرسالة يحتاج إلى دوام في الدعوة، وبقاء في التوجيه يقوم على ميزات وصفات تتصل بصاحب الرسالة والقائم بالدعوة، وتنتمي إليه في التوجه والمضمون، لذلك فهي من أركان الدين. وحديثه ﷺ: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية» ويروى: «من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية» صريح في الدلالة على وجوب معرفة الإمام لأغراض الدين واستيضاح الأحكام.

لذلك نرى الإمام أمير المؤمنين يقول: «وإنما الأئمة قوام الله على خلقه، وعرفاؤه على عباده، ولا يدخل الجنة إلا من عرفهم وعرفوه، ولا يدخل النار إلا من أنكرهم وأنكروه».

وقد كان الإمام علي عندما آلت إليه الخلافة، قد أرسى حكمه على نظام الإمامة لأنها أقرب إلى جوهر الإسلام، وتمثل سلطانه الروحي. قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[3] وقال الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ

(١) أيضاً ص٣٩٧.
(٢) المقدمة أيضاً ص١٦٤.
(٣) سورة الأنبياء، آية: ٧٣.

عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١) وقد أوضح الإمام علي عليه السلام الحالات التي تخرج صاحبها عن حدود رعاية الدين عندما بيّن أصناف الناس في حديثه لكميل بن زياد، وبيّن أصل الإمامة الديني حيث قال: «اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة إما ظاهراً مشهوراً وإما خائفاً مغموراً، لئلا تبطل حجج الله وبيناته، وكم ذا وأين أولئك، أولئك والله الأقلّون عدداً، الأعظمون عند الله قدراً، بهم يحفظ الله حججه وبيناته حتى يودعها إلى نظرائهم، يزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، وباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى، أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه»(٢).

كما أوضح الإمام أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة والسلام أن الضلال في عدم التعرّف على الإمام، فلما سئل عليه السلام: ما أدنى ما يكون به الرجل ضالاً؟ قال عليه السلام: «أن لايعرف من أمر الله بطاعته، وفرض ولايته، وجعله حجته في أرضه، وشاهده على خلقه».

فإذن، اتصال الإمامة بشؤون الدين وأصوله يجعلها من أركان الدين، فهي لحفظ الشريعة وتدبير أمر الناس واستمرار الدعوة إلى الهدى والإيمان والنيابة عن صاحب الأمر وإبقاء مقام النبوة من حيث بيان الأحكام وإيضاح علوم الشريعة وحفظ السنن، والفرائض والدعوة إلى الحق والعمل بالصدق.

فالأئمة عليهم السلام هم الأوصياء وورثة الأنبياء الذين خصّهم الله بالكمالات والعصمة، فقال الإمام الصادق عليه السلام: «أمر الله كل واحد من الأئمة أن يسلّم الأمر إلى من بعده».

يقول الفضل بن شاذان في الجواب عن علة نصب الأئمة والأمر بطاعتهم: أن الخلق لما وقفوا على حدّ محدود، وأمروا أن لا يتعدّوا تلك الحدود لما فيه من فسادهم، لم يكن يثبت ذلك ولا يقوم إلا بأن يجعل عليهم فيها أميناً يأخذهم بالوقف عندما أبيح لهم، ويمنعهم من التعدّي على ما خطر عليهم، لأنه لو لم يكن ذلك، لكان أحد لا يترك لذته ومنفعته لفساد غيره، فجعل عليهم قيماً يمنعهم من الفساد

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٢٤.

(٢) شرح نهج البلاغة ٤/ ٣١١. وحلية الأولياء ١/ ٨٠.

ويقيم فيهم الحدود والأحكام. وفيها: أنا لا نجد فرقة من الفرق ولا قلة من الملل بقوا وعاشوا إلا بقيّم ورئيس لما لا بد لهم منه في أمر الدين والدنيا، فلم يجزي في حكمة الحكيم أن يترك الخلق مما يعلم أنه لا بد لهم منه، ولأقوام لهم إلا به، فيقاتلون به عدوّهم، ويقسّمون به فيئهم، ويقيمون به جمعتهم وجماعتهم، ويمنع ظالمهم من مظلومهم. ومنها إنه لو لم يجعل لهم إماماً أميناً حافظاً مستودعاً لدرست الملة، وذهب الدين، وغيّرت السنن والأحكام، ولزاد فيه المبتدعون، ونقص من الملحدون، وشبّهوا ذلك على المسلمين، إذ قد وجدنا أن الخلق منقوصون محتاجون غير كاملين مع اختلافهم واختلاف أهوائهم، وتشتت حالاتهم، فلو لم يجعل فيها قيماً حافظاً لما جاء به الرسول الأول، لفسدوا على نحو ما بيناه، وغيّرت الشرائع والسنن والأحكام والإيمان، وكان في ذلك فساد الخلق أجميعن.. الخ[1].

٢ ـ إن أمراً بمثل هذه الأهمية وعلى مثل هذه الصفة الدينية، لا يمكن أن يهمله النبي المصطفى ﷺ وفحوى الاختلاف هي التي تعيّن الصفة الدينية أو الصفة الزمانية، لأن الأخذ بالوصية وفق منظور الأئمة، والهداية الدينية يجنّب الأمة ما انتهت إليه الأحوال في عهد بني أمية أو بني العباس. ولا يدع مجالاً لغلبة الأهواء أو تحكّم المصالح، وعندنا أن الناس عند التحاق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى وانقطاع الوحي بموته، لم يكونوا جمعيهم على درجة واحدة من الإيمان، بل كانت المدينة المنورة والجزيرة العربية تضمّ أناساً من الذين أسلموا فحسب، وآخرين من المنافقين وذلك بنص القرآن وشهادة النبي ﷺ قال الله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2] وقال سبحانه: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾[3].

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وقال: ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۖ وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي

(١) علل الشرائع.
(٢) سورة الأنفال، آية: ٤٩.
(٣) سورة المائدة، آية: ٥٢.

﴿ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾[2] صدق الله العلي العظيم.

ثمّ هل تخفى على ذي عقل دلالة ما نزل به جبرائيل أن يكون إشهار البراءة وإعلان انتهاء العهد مع المشركين على يد الإمام علي بن أبي طالب، لأن ذلك يقتضي أن يكون على يد صاحب الشريعة أو واحد من أهل بيته يمثله[3] لإعلام المشركين ما ستكون عليه علاقتهم بأهل الإسلام بعد أن تمكنت الدعوة وأصبح لها من القوة ما تستطيع به أن تهاجم المشركين، وتتحول إلى محاربة وجودهم وعقائدهم؟ ولكن الأهواء والتعصب تجعل من كل حقيقة مثاراً للجدل.

فأخذ الأمر بالصفة الدينية التي تتظافر عليها الأدلة القاطعة والنصوص الصريحة، يجعل مهمات الدعوة قائمة، ولا بد أن يكون لهذا الدين من أئمة يقومون بالأمر، وينشرون أحكام الدين ويُبيِّنون أصوله. فمن أولى من عترة النبي محمد ﷺ؟ وما قيل فيهم من قبل الشيعة ليس من أنواع الخطابة ـ كما يقول ابن خلدون ـ التي هي بضاعة خطباء الحكام أو نكايا المتصوفة، بل هي نصوص معتبرة تصف حال القائمين بالأحكام والداعين إلى الإسلام وانتهاجهم منهجاً يحيي سنة الرسول الأعظم.

قال الأمام علي بن موسى الرضا عليه السلام:

«إن الإمامة منزلة الأنبياء وإرث الأوصياء، إن الإمامة خلافة الله وخلافة رسوله ﷺ ومقام أمير المؤمنين عليه السلام وخلافة الحسن والحسين عليهما السلام.

إن الإمام زمام الدين ونظام المسلمين وصلاح الدنيا وعزّ المؤمنين. الإمام أس الإسلام النامي وفرعه السامي. بالإمام تمام الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وتوفير الفيء والصدقات وإمضاء الحدود ومنع الثغور والأطراف.

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢٠.

(٢) سورة البراءة، آية: ١٠١.

(٣) في ذخائر العقبى للمحب الطبري بإسناده عن أبي هريرة، وفي رواية من حديث أحمد عن علي أن النبي ﷺ لما راجعه أبو بكر قال له: «جبريل جاءني فقال لن يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك». وفي صحيح البخاري: «ألا أنا أو رجل مني».

الإمام يحلل حلال الله ويحرم حرامه، ويقيم حدود الله، ويذبّ عن دين الله، ويدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والحجة البالغة».

فيكون السلوك والنسب من جنس الدعوة وصاحب الدعوة. فإذا كان أصحاب الطرق ومريدو بعض الأشخاص قد أرادوا أن يتقربوا من آل البيت، أو يتظاهروا بذلك على مختلف الأغراض والدوافع، فليس إلى تساويهم مع الأئمة الأطهار من سبيل يقرّه المنطق، إلا إذا غلب التعصب والهوى. فكل غوث أو بدل أو أي مرتبة عندهم لا تسمو إلى أي فرد من أهل بيت النبوة الأئمة الأطهار عليهم السلام حتى وإن ساقوا أحاديث صحّحوها وحسّنوها ورواها أحمد كحديث: الإبدال في هذه الأمة ثلاثون رجلاً قلوبهم على قلب إبراهيم خليل الرحمن، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً. وحديث: الأبدال في أمتي ثلاثون بهم تقوم الأرض وبهم تمطرون وبهم تنصرون. أو الذي رواه الطبراني عن عوف بن مالك ووصفه السيوطي بالحسن: الأبدال في أهل الشام، وبهم تنصرون، وبهم ترزقون. فإذا قيل أن المقصود بهم يشمل أئمة أهل البيت فإن خصائص الأئمة الأصلية التي بيّناها هي الأحق.

ولو أعدنا النظر في قول ابن خلدون لنتناول نقطة أخرى من بين النقاط التي تستدعي التوقف والمناقشة، فابن خلدون هكذا شأنه في كل أمر يتعلق بآل البيت الأطهار، فهذا النص على قِصَره يضمّ عدة نقاط نترك مناقشتها للقارىء الكريم، ولضيق ما نخصصه لابن خلدون هنا، وهي في أغلبها بادية النصب والعداء، ولنعد إلى قوله: ثم قالوا بترتيب الإبدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة في النقباء حتى أنهم لما أسندوا لباس خرقة التصوف ليجعلوه أصلاً لطريقتهم وتخليهم رفعوه إلى علي رضي الله عنه، وهو من هذا المعنى أيضاً، وإلا فعلي رضي الله عنه لم يختص من بين الصحابة بتخلية ولا طريقة في لباس ولا حال، بل كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما أزهد الناس بعد رسول الله ﷺ وأكثرهم عبادة... إلى آخر كلامه.

وابن خلدون على الانحراف والتحوّل عن أهل بيت النبي ﷺ اللذين دفعا من سبقه ومن اتبعه إلى أن يبعدوا أصول التصوف التي اتفق عليها المتصوفة وأدعوها عن مجالات أهل البيت ومواقع القرب منهم، ومدىٰ صحة ذلك وقربه أو بعده عن الحقيقة من شؤون المتصوفة وطوائفهم لا من شأن الشيعة، لأن الشيعة هم أتباع الأصل وأنصار الجوهر. وكما حفلت صفحات المناقب التي يقصد بها المضاهاة أو التأثير

على مناقب أهل البيت وعظيم منزلتهم، حفل تيار الانحراف في اهتمامه بما يتعلق بالتصوف وأصوله التي أقيم عليها بما ينجم عن هذا القصد منها: أن أبا بكر لما أنفق ماله في سبيل الله وأعتق عبيده حتى تخلل بالعباءة، نزل جبرائيل وقال: يا محمد: إن ملائكة السمٰوات تخللت بالعباءة إكراماً لأبي بكر من الله، وقل له: إن ربك عليك راضٍ فهل أنت عليه راضٍ؟ فقال أبو بكر: إني عن ربي راضي[1].

وسرى ذلك إلى صفوف المتصوّفة، وسمح لكثير من أشياخهم باحتلال المراتب التي يسعون إليها، مع أن القسم الأعظم ـ وعلى الأخص في مصر ـ بقي محتفظاً بصورة الأصول التي أقاموا عليها طرقهم، وجعلوا من سيرة أهل البيت الأطهار مصدراً ثابتاً، وأقاموا على الولاء الذي خالطته حالات الطرق التي أشرنا إليها، وبعض من آثار التيارات الأخرى التي ظهرت على ساحة الإسلام.

كما أن الصوفية يأخذون بالإمامة لتكون على معنى الدرجات التي تكوّن نظامهم غير أنهم يختلفون في شرط النسب.

وإذا نظرنا إلى نظرياتهم وقواعد سلوكهم، لوجدناهم يستخلصون أغلبها من أحداث تاريخ أهل البيت، إذ لديهم في الولاية نظرية ولاية العلم وولاية الحكم أو خلافة الحكم، وأن الإمام علي اختص بالأولى.

وفي مجال الإمامة يقولون بإمامة الأشباح والأرواح، وهي ما تقصده في الحديث عن السلطان الروحي لأهل البيت وأئمتهم الأطهار، وكيف أقاموا منزلهم في نفوس شيعتهم ومحبيهم على أساس النصح والإرشاد والوعظ والتبليغ، وعزفوا عن سلطان الحكم، ووجهوا أتباعهم إلى عوالم دينية وروحية تجعل من الأحكام والفرائض ديناً ومجتمعاً قائماً. يروي الشيخ الصدوق رحمه الله عن جابر عن أبي جعفر عن أبيه عليه السلام أنه قال: «إذا كان أول يوم من شهر شوال نادى منادٍ أيها المؤمنون أغدوا إلى جوائزكم» ثم قال أبو جعفر عليه السلام: «يا جابر جوائز الله عز وجل ليست كجوائز هؤلاء الملوك». ثم قال: «هو يوم الجوائز».

كما يروى عن الإمام الباقر عليه السلام أيضاً: «ما من عيد للمسلمين أضحى ولا فطر إلا وهو يجدّد لآل محمد فيه حزن، لأنهم يرون حقهم في يد غيرهم».

---

(١) الذهب الأبريز في شرح الوجيز.

يقول أبو المعالي محمد سراج الدين الرفاعي عن الإمامة عند الصوفية: وجعلها إطار الدرجات والمنازل التي لديهم، واشتراط النسب الشريف: وهي الإمامة التي عناها حجاجة الصوفية، ووسموها بالقطبيّة الكبرى، والغوثية العظمى، والإمامة الجامعة، وقالوا لصاحب مرتبتها: الغوث، وقطب، والإمام الجامع، والإنسان الكامل، وأطبق جماهير الصوفية سلفاً وخلفاً أن الغوث هذا المعني بهذه الإمامة لا يكون من غير أهل البيت النبوي أبداً، وقالوا: إن أهل البيت النبوي لمّا فاتتهم إمامة الأشباح التي هي الخلافة الظاهرة، عوّضهم الله سبحانه وتعالى ما هو خير منها، وذلك إمامة الأرواح، فإمامهم هذا أعني القطب الغوث يتصرّف في ذرّات الأكوان، وصاحب خلافة الظاهر ذرة منها...

ثم يورد قول السيد إبراهيم أبو إسحاق الأعزب الرفاعي: كلمتان مردودتان عند أهل البساط: كلمة شريف يطلب نيل الإمامة الظاهرة بعد أن انعقدت على الإمامة الجامعة الروحية بيعة الأرواح لأهل البيت، وأمضى الله تعالى ورسوله ﷺ لهم ذلك، وها هي تنقلب بحمد الله تعالى فيهم، ولا تنزع منهم حتى تختم بسيدنا الإمام ولي الله المهدي عليه السلام. والكلمة الثانية كلمة رجل قال أن قطبية الأقطاب يعني الغوثية والإمامة الكبرى الروحية، تكون في غير أهل البيت، فإن هذه الكلمة من عثرات ألسن بعض أهل الري لا يلتفت إليها ولا يعول عليها. نعم إن المحاذاة للغوث ثابتة عند المتمكنين، فقد يحاذي الولي الذي ليس بشريف ـ بمحض فضل الله وتوفيقه ـ مرتبة الغوث الجامع، ولكن لا ينزل تلك المنزلة بعينها أبداً[1] بسبب منزلة أهل البيت في قلوب الناس، وميل النفوس إليهم لم يكن من السهل إغفال هذا الشرط، ولكن من السهل إدّعاء النسب والالتصاق بالشجرة الطاهرة المباركة النقية. وظل الصوفية يرون آل البيت بمنظار طرقهم وعقائدهم. اقرأ هذا النص الصوفي:

(وذكر بعضهم أنها تروى ـ الطرق ـ من جهة الحسن عن النبي ﷺ ومن جهة عن علي، لأن الحسن كان أول فتحه ومدده من يد النبي ﷺ ثم صحب واقتدى بوالده عليه السلام كما وقع لكثير من أهل الله تعالى حصل لهم الفتح من يده ﷺ مباشرة، برؤيا منامية أو اجتماع روحاني، ثم صحبوا بعد ذلك الشيوخ للسلوك والتهذيب، أو انتسبوا إليهم للأدب مع الشريعة والركون إلى الواسطة.

---

(١) صحاح الأخبار في نسب السادة الفاطمية الأخيار ص٥٠ و٥١.

وذكر بعضهم أن الحسن ورث القطبية من والدته سيدة نساء أهل الجنة صلى الله عليها وسلم، وهي أول الأقطاب على الإطلاق، وكل هذا صحيح، فإنهم بيت النبوة، ومنبع المعارف والكمالات والأسرار، وقد ألبسهم النبي ﷺ جميعاً بكسائه الشريف، وسقاهم بمدده العظيم، وشملهم بنوره الفخيم، فحازوا منه ﷺ أعلى مراتب الولاية. وأقصى ما يصله البشر من درجات العرفان) انتهى.

ثم يطلّ المتصوّفة على مأساة كربلاء وفاجعة الطف، حيث مسرح ثورة أبي الأحرار الحسين بن علي عليه السلام وموضع نهضة سيد الشهداء، وصفحات البطولة، ومواقف الجهاد، فيروون بطرقهم أن الإمام الحسين لما انكشف له في سرّه تدلي الخلافة الروحية التي هي الغوثية والإمامة الجامعة فيه وفي بنيه على الغالب، استبشر بذلك، وباع في الله نفسه لنيل هذه النعمة المقدسة، فمنّ الله عليه بأن جعل في بيته كبكبة الإمامة، وختم ببنيه هذا الشأن، على أن الحجة المنتظر الإمام المهدي عليه السلام من ذريته الطاهرة وعصابته الزاهرة[1].

فإذا كان النظر في جوانب عظمة الإمام علي عليه السلام كان التأثر على أشده، وراحوا يقتبسون من سيرته، ويؤسسون على فضائله، ويصفونه بحسب أوصافهم التي قد يلتقون عبرها مع شيعة أهل البيت أو ينفردون بها، كما أنهم لا يطبقون على رأي وليسوا كالشيعة في الوصية والإمامة، فمنهم من يجعل الأمام في الطبقة الأولى من طبقات المتصوفة، ويمضي في ذلك حسب ترتيب الخلفاء، ومنهم من يقول أن الأفضيلة التي يراها السنّة في الخلفاء لا تستلزم الأعلمية، ويسوقون أدلة على ذلك كقصة الخضر مع موسى عليه السلام فإن القرآن أثبت أعلمية الخضر بالحقائق على موسى، مع أن موسى أفضل منه بلا خلاف بين أحد يعرفونه. ويقولون: ويكفي أن الخضر نبي وموسى عليه السلام رسول، بل من أفضل الرسل، ولا يوجد من يقول بأن هناك نبي أفضل من بعض أولي العزم من الرسل عليهم السلام.

وفي الإمام علي يقولون:

بأنه مدينة العلوم والمواهب، ولي المتقين وإمام العادلين، أقدمهم إجابة وإيماناً، وأقومهم قضية وإيقاناً، المنبيء عن حقائق التوحيد، المشير إلى لوامع بوارق

(١) المصدر نفسه، ص٥٠.

علم التفريد، ذو القلب العَقول واللسان السَؤول. والآذان الواعية والعهود الوافية. ختم الله به الخلافة كما ختم بمحمد ﷺ النبوّة، الأخيشن في دين الله، الممسوس في ذات الله. وقد قيل: التصوف مرافقة المودود ومصارمة المعهود. قال حذيفة: قالوا يا رسول الله: ألا تستخلف علينا؟ قال: «إن تولوا علياً وما أراكم فاعلين تجدوه هادياً مهدياً». وسئل المصطفى ﷺ عنه فقال: «قسّمت الحكمة عشرة أجزاء، فأعطي تسعة والناس واحداً» وقدم عليه يوماً فقال: «مرحباً بسيد المسلمين وإمام المتقين. إن الله أمرني أن أدنيك وأعلمك لتعي» وقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللّهم والِ من والاه وعاد من عاداه» وقال: «علي مني وأنا منه» وقال: «أنا مدينة العلم وعلي بابها» وقال: «لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق». وقال: «من آذى علياً فقد أذاني، ومن سبّه فقد سبّني، ومن أبغضه فقد أبغضني، ومن أحبّه فقد أحبّني» وقال: «علي مع القرآن والقرآن مع علي» وقال ابن عباس رضي الله عنه: ما نزل في أحد من كتاب الله ما نزل في علي رضي الله عنه، وكان إذا غضب المصطفى ﷺ لم يجسر أحد أن يكلّمه إلا علي. وقال: لعلي ثماني عشرة منقبة ما كانت لأحد من هذه الأمة. وقال يوم خيبر: «لأعطينّ الراية رجلاً يحبّ الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله». وجعل حبه علامة الإيمان وبغضه إمارة النفاق. وقال الإمام أحمد: ما ورد لأحد من الصحابة من الفضائل ما ورد لعلي رضي الله عنه. رواه الحاكم وغيره، وكان رضي الله عنه الانقياد والاستسلام شأنه، والتبرّي من الحول والقوة مكانه. وقد قيل: التصوف إسلام الغيوب إلى مقلب القلوب، وإذا أردت أن تعرف منزلته من المصطفى ﷺ فتأمل صنيعه في المؤاخاة بين الصحابة، جعل يضم الشكل إلى الشكل، والمثل إلى المثل، فيؤلف بينهما إلى أن آخا بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وادّخر علياً كرم الله وجهه لنفسه، واختصه بأخوّته، وناهيك بها من فضيلة، وأعظم بها من شرف[1].

ثم يستمدّون من سيرته ما يؤيد المقالات الصوفية، ومن أقوال أئمة المسلمين فيقول المناوي: وقد شهد له بكمال الزهد الإمام الشافعي رضي الله عنه. قيل له: ما نفّر الناس عن علي رضي الله عنه إلا أنه كان لا يبالي بأحد. فقال الشافعي رضي الله عنه: كان عظيماً في الزهد، والزاهد لا يبالي بأحد، وكان بذات الله عليماً، وعرفان

---

(١) الكواكب الدرية ص٣٨ و٣٩ الجزء الأول.

الله في صدره عظيماً. وقد قيل: التصوف البروز من الاحتجاب إلى رفع الحجاب.

وأعيان رجالهم وكبارهم المشهور عندهم أن طريقتهم تتصل بالإمام أمير المؤمنين عليه السلام يقول الوتري: نعم، إن خرقة الصوفية رضي الله عنهم تتصل بالخليفة الرابع أسد الملاحم والمعامع، شيخ أئمة الآل، فحل الرجال، صهر رسول الثقلين، والد الريحانتين، إمام المشارق والمغارب، أمير المؤمنين أسد الله سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي الله تعالى عنه، وقد ندر اتصال خرقة بغيره، وكلهم على هدى يتصلون بسيد المخلوقين حبيب رب العالمين ﷺ ولا يلتفت لما تقوّله البعض في شأن خرقة الصوفية، فإن ذلك قد نشأ عن هفوات لا تعتبر، ولا ينبْى عليها الشك بعد اليقين بصحة الخبر[1].

ثم يحسبون الأئمة من آل البيت صلوات الله عليهم أجمعين أعياناً لخرقتهم، فيقول الوتري: وإن أعيان أهل الخرقة ساداتنا أهل بيت النبي ﷺ وأعيانهم أئمة الآل الأعلام عليهم الرضوان والسلام، وهم: السبط الجليل القدر، الوفير المنن أمير المؤمنين الإمام أبو محمد الحسن، والسبط العظيم المقام، قرة عين سيد الكونين أمير المؤمنين الإمام أبو عبد الله الحسين، وسيدنا الإمام علي زين العابدين، وسيدنا الإمام محمد الباقر، وسيدنا الإمام جعفر الصادق، وسيدنا الإمام علي الهادي، وسيدنا الإمام الحسن العسكري، وسيدنا الإمام الخلف الصالح قرة عين الأئمة الهادين الإمام محمد المهدي سلام الله عليه وعليهم أجميعن، فهؤلاء السادات الأعيان، أحوالهم مذكورة، وأعلامهم منشورة، وتراجمهم أشهر من أن ينبّه عليها، وفضائلهم أفعمت بها الدفاتر، وجفّت لها المحابر، وهم سادات السادات، وأعيان الأولياء، الذين خرق الله لهم العادات.

ماذا يقول المادحون بوصفهم	وهم السراة خلائف المختار
ضربت قباب فخارهم وسُمُوّهم	بين البتول الطهر والكرّار
لله جفر طاب من أنسابهم	عقدت عليه سلاسل الأقمار[2]

* * *

---

(١) أحمد بن محمد الوتري، روضة الناظرين وخلاصة مناقب الصالحين.

(٢) المصدر نفسه.

ولا نطيل في تفاصيل مقالات الصوفيين أو تعريفاتهم، ونقتصر على أمرين نراهما المدخل الذي جاء منه الصوفية إلى رياض أهل البيت في سيرهم، وراحوا يعقدون أكاليل معتقداتهم منها.

الأول: الحب:

وجعل مدار الحب إلهياً، يصبغ علاقة المسلم بربه، وهي في أشكالها تقوم على فكرة الإمام علي عليه السلام وتحديده ماهية العبادة أن تكون عبادة أحرار، لا طمعاً في ثواب أو خوفاً من عقاب، وعليها أسسوا ذلك، ولا تبعد بأي حال عن ثواب أو خوفاً من عقاب، وعليها أسوسا ذلك، ولا تبعد بأي حال عن أصلها الحقيقي مهما تعدّدت الأقوال.

يقول القشيري: من عرف الله عن طريق المحبة دون خوف هلك بالبسط والأدلال، ومن عرفه من طريق الخوف من غير محبّة انقطع عنه بالبعد، ومن عرف الله من طريق المحبة والخوف أحبه الله فقرّبه وعلّمه ومكّنه.

أما أبو طالب المكي فيقول: وكل محب لله خائف، ليس كل خائف محباً. وربما كانت المحبة ثواباً للخوف ومزيداً له، وهذا في مقام رب العالمين. وربما كان الخوف مزيداً للمحبة وثوابها، وهذا في مقام العالمين. فمن كانت المحبة مزيدة بعد الخوف فهو من المقربين. ومن كان الخوف مزيد محبته، فهذا من الأبرار المحبين وهم أصحاب اليمين(١).

وأرى من المستحسن هنا أن نذكر شيئاً من نصوص التراث الشيعي القائم على أفكار أئمتهم صلوات الله عليهم ومواعظهم، بعد الإشارة إلى تعلق هذا المدخل بالجانب الإشراقي الذي أغناه الرئيس ابن سينا في الإشارات:

يقول الشيخ الجليل محمد مهدي الزاقي في «جامع السعادات» وتحت فصل المنكرين لحب الله: (قد ظهر مما ذكر ثبوت حقيقة المحبة ولوازمها من: الشوق والأنس لله تعالى، وأنه المستحقّ للحب دون غيره. وبذلك ظهر فساد زعم من أنكر إمكان حصول محبة العبد لله تعالى وقال: لا معنى لها إلا المواظبة على طاعة الله،

---

(١) قوت القلوب، الجزء الثاني ص٥٨ و٥٩.

وأما حقيقة المحبة فمحال إلا مع الجنس والمثل. ولما أنكروا المحبة أنكروا الأنس والشوق ولذة المناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه، ويدل على فساد هذا القول، مضافاً إلى ما ذكر، إجماع الأمة على كون الحب لله ولرسوله فرضاً، وما ورد في الآيات والأخبار والآثار من الأمر به والمدح عليه واتصاف الأنبياء والأولياء به). انتهى.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «حب الله، إذا أضاء على سرّ عبد أخلاه عن كل شاغل وكل ذكر سوى الله، والمحب أخلص الناس سرّاً لله، وأصدقهم قولاً، وأوفاهم عهداً، وأزكاهم عملاً، وأصفاهم ذكراً، وأعبدهم نفساً، تتباهى الملائكة عند مناجاته، وتفتخر برؤيته، وبه يعمر الله بلاده، وبكرامته يكرم الله عباده، ويعطيهم إذا سألوه بحقه، ويدفع عنهم البلايا برحمته، ولو علم الخلق ما محله عند الله ومنزلته لديه، ما تقربوا إلى الله إلا بتراب قدميه».

وقوله عليه السلام يعطينا صورة واضحة عن منهجه في الدعوة إلى التمسك بالدين، والانصراف لمرضاة الله، في وسط تلك المعتركات والمحن التي تشهدها الأمة على أيدي المتسلطين، الذين يتخذون من دين الله ستاراً لأغراضهم وأطماعهم، فاختط لنفسه ولمريديه طريق الإخلاص لله، والتقرّب منه، الذي يبعث في النفوس الطمأنينة. ويحيي الأمل بعد تلك النكبات والفواجع التي ألمّت بأهل البيت الكرام صلوات الله عليهم، وامتدت إلى المؤمنين من أتباعهم.

ويوضّح الإمام الصادق عليه السلام أصول اتجاهه الروحي، ويجعل شيعته ومريديه على معرفة وبيّنة من خصائص السلوك الذي يدعوهم إليه، ودقائق المنهج الذي يحملهم عليه، فيقول عليه السلام: «نجوى العارفين تدور على ثلاثة أصول: الخوف والرجاء والحب. فالخوف فرع العلم، والرجاء فرع اليقين، والحب فرع المعرفة. فدليل الخوف الهرب، ودليل الرجاء الطلب، ودليل الحب إيثار المحبوب على ما سواه. فإذا تحقق العلم في الصدر خاف، وإذا صح الخوف هرب، وإذا هرب نجا، وإذا أشرق نور اليقين في القلب شاهد الفضل، وإذا تمكن من رؤية الفضل رجا، وإذا وجد حلاوة الرجا طلب، وإذا وفّق للطلب وجد، وإذا تجلى ضياء المعرفة في الفؤاد هاج ريح المحبة، وإذا هاج ريح المحبة استأنس في ظلال المحبوب على ما سواه، وباشر أوامره واجتنب نواهيه، واختارهما على كل شيء غيرهما، فإذا استقام على

بساط الأنس بالمحبوب مع أداء أوامره واجتناب نواهيه وصل إلى روح المناجات والقرب. ومثال هذه الأصول الثلاثة كالحرم والمسجد والكعبة، فمن دخل الحرم أمن من الخلق، ومن دخل المسجد أمنت جوارحه أن يستعملها في المعصية، ومن دخل الكعبة أمن قلبه من أن يشغل بغير ذكر الله»(١).

كان الصادق عليه السلام في مركزه الديني ومكانته العلمية، يتصدى لمهمات القيادة الروحية، ويضع لأصحابه الإمارات التي يميزون بها في خضم ذلك المعترك. من أقبل على نهجه بإخلاص، ويطلب من أصحاب البحث عن الصفات بطريق العمل والالتزام بين صفوف شيعته فيقول عليه السلام:

«امتحنوا شيعتنا عند ثلاث: عند مواقيت الصلوات كيف محافظتهم عليها، وعند أسرارهم كيف حفظهم لها من عدوّنا، وإلى أموالهم كيف مواساتهم لإخوانهم بها».

الأمر الثاني:

الذي راح الصوفية ينهلون منه ما يشاؤون، ويضعونه في أوعية خاصة بهم من شأنها أن تحوّل طعم المحتوى، وتغيّر لونه هو: الزهد.

وللعلماء في حقيقة الزهد اختلاف كبير، فكيف إذا كان الأمر يتعلق بالخرقة والطريقة، فلا بد أن يؤخذ الظاهر الذي يعضد الأقوال أو يدعّم الأسس. ونحن هنا نعرض القليل القليل مما يتحاشاه الذين يسوؤهم ذكر الحقيقة على حالها.

فالإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام في حياته الشريفة وسيرته الطاهرة، قد أخذ منذ آلت إليه الخلافة وانتهى إليه الحكم بجعل فترة إمامته فترة تتولى معالجة آثار التطورات الماضية، وتتجه إلى المستقبل لأحكام الصلة بين عهد الرسالة وحياة النبي محمد ﷺ بإشراقهما ونورهما، وبين أسس سياسته، حتى تهدأ النفوس وتستقر على الهدى، ولولا فترة حكمه وتطبيقات إمامته لكانت عودة الجاهلية وأحقاد المشركين بأعنف مما كانت عليه، ولما راعت أحداً من أهل الإسلام، ولذلك فإن الإمام علياً في سلوكه لم يدعُ إلى ابتعاد عن الحياة، ولا إلى انغلاق. وإنما هو المكلف بحفظ السنّة على أصولها، وإبقاء الشريعة على مقاصدها.

---

(١) الاثني عشرية في المواعظ العددية للعيناتي ص٧٢.

عن أنس قال: جاء ثلاثة رهط إلى أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا بها كأنهم تقالوها، فقالوا: أين نحن من النبي ﷺ وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ فقال أحدهم: أمّا أنا فأصلي الليل أبداً. وقال الآخر: أنا أصوم النهار ولا أفطر. وقال الآخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء النبي ﷺ فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكنّي أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوّج النساء. فمن رغب عن سنّتي فليس مني».

وما يبنى عليه من مظاهر سيرة الإمام علي عليه السلام لدى الصوفية، وخاصة في القرن الثاني الهجري، وبدايات اتساع طرقها وشيوع تعاليمها، يغفل المقاصد الحقيقية التي تكمن في كل ناحية من حياة الإمام علي عليه السلام وتتعلق بما ينسجم مع نزعتها. فإذا قيل: إن الإمام علياً كان يلبس إزاراً خلقاً مرقوعاً، فذلك نصف الحقيقة، لأن تصرف الإمام وجوانب سيرته، تظهر فَلْسفتها في أقواله. فعندما قيل له في ذلك الإزار، قال عليه السلام: «يخشع له القلب، وتذلّ به النفس، ويقتدي به المؤمنون».

وقوله عليه السلام: «. . . إن الله تعالى فرض على أئمة الحقّ أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلاً يتبيغ بالفقير فقره» أي يجب على الإمام العادل أن يشبّه نفسه في لباسه وطعامه بضعفة الناس، لكيلا يهلك الفقراء من الناس، فإنهم إذا رأوا إمامهم بتلك الهيئة وبذلك المطعم، كان ادعى لهم إلى سلوان لذّات الدنيا، والصبر عن شهوات النفوس.

ومن أحكام القرآن يتخذ الإمام عليه السلام سياسته الاجتماعية والاقتصادية ويقول: «إن الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء، فما جاع فقير، إلا بما متّع به غني، والله تعالى سائلهم عن ذلك».

وفي ثنايا أقواله المأثورة، نجد تناوله للفقر من نواحي عديدة، أولها: الناحية الدينية، ثم وجوده الاجتماعي، ويجعل عليه السلام من الفقر إلى الله أصلاً، ثم يعرض جوانب الفقر الأخرى، وفي نهجه ما يغني وما لا يحاط به بمثل هذا العرض الموجز. ولكن من المهم القول، أن حياة الإمام علي من زاوية التصوف، ينظر إليها بأكثر من زاوية، أهمها جميعاً ما يأخذ بالظاهر ويتشبث بإبقاء الصفات والصلة إلى الحد الذي يضع على لسانه تعريفاً للتصوف، ليس فيه أي صفة أو علامة من صفات أو علامات

منهج الإمام في بلاغته وأفكاره، وإنما هي من صفات المقالات الصوفية. فيروى على لسانه عليه السلام: التصوف ثلاثة أحرف: الصاد صبر وصدق وصفاء، والواو ودّ وودّ وودّ، والفاء فرد وفقر وفناء.

والزاوية الثانية التي ينظر منها، هي زاوية المتخصصين وأصحاب التجربة المقرونة بالنظر، كما هو الحال عند الرئيس أبي علي بن سينا في كتاب الإشارات الذي ينقل عنه ابن أبي الحديد. قال أبو علي في مقامات العارفين: العارفون قد يختلفون في الهمم بحسب ما يختلف فيهم من الخواطر، على حسب ما يختلف عندهم من دواعي العبر، فربما استوى عند العارف القشف والترف، بل ربما آثر القشف، وكذلك ربما استوى عنده التفل والعطر، بل ربما آثر التفل، وذلك عندما يكون الهاجس بباله استحقار ما عدا الحق، وربما صغا إلى الزينة، وأحب من كل شيء عقيلته، وكره الخداج والسقط، وذلك عندما يعتبر عادته من صحبته الأحوال الظاهرة، فهو يرتاد إليها في كل شيء، لأنه مزية حظوة من العناية الأولى، وأقرب إلى أن يكون من قبيل ما عكف عليه بهواه، وقد يختلف هذا في عارفين، وقد يختلف في عارف بحسب وقتين. انتهى.

وينقل الصوفية المتأخرون قول العارف بالله المعروف بالباقي بالله شيخ السادة النقشبندية في كتابه (المثوى) عن جعله تكنية النبي ﷺ للإمام علي عليه السلام بأبي تراب ـ وقصتها معروفة ـ أصلاً يتفق مع خواطرهم ومقاصدهم ومعناه: أن التراب إشارة إلى وجود أهل التوحيد والفناء، فيكون حاصل معنى أبي تراب: أنه عليه السلام هو الأصل المقتدى به في هذا المعنى، والمرجع لطائفة الفقراء أرباب الفناء الكمّل.

ومن جهة أخرى يحملون معاني الأحاديث والأخبار النبوية في الإمام علي عليه السلام على مقاصدهم وطبيعة نهجهم، وهي أحاديث رواها وصحّحها كبار المحدثين من أهل السنّة، وجاءت في مصنفات علمائهم كمسند الإمام أحمد ومنها: «يا علي أن الله قد زيّنك بزينة لم يزيّن العباد بزينة أحب إليه منها، هي زينة الأبرار عند الله تعالى في الدنيا، جعلك لا ترزأ من الدنيا شيئاً، ولا ترزأ الدنيا منك شيئاً. ووهب لك حب المساكين، فجعلك ترضى بهم أتباعاً ويرضون بك إماماً، فطوبى لمن أحبّك وصدّق فيك، وويل لمن أبغضك وكذّب فيك».

وهي نبوءة كشفت عمّا سيقع من أمر، وكيف سيكون الحال بين جنده ومحبيه

وهم يستميتون من أجل صون الرسالة وحفظ مبادىء العدل في مواجهة البغي والأثرة والجاهلية الجديدة التي تتخذ من الإسلام ستاراً وهي تشيد حكمها وملكها على الأثرة والاستغلال، والنهب والقتل.

* * *

وإذا عدنا إلى سيرة الإمام الصادق عليه السلام وجدنا ـ أن منهجها الفكري والديني الذي شدّ إليه الناس، وجذب نحوه رجالات الأقطار وعلماءها، فتتلمذوا على يديه، وتخرّجوا من مدرسته، يتّسم ببناء دقيق، لأنه يتجه إلى بناء المسلم من الداخل، فيتكلم عليه السلام بألفاظ ومفردات توضّح القصد، كما تسهّل التّأثير والفعل. وفي مجال الإيضاح والتفسير، يتحدث أبو عبد الله الصادق عليه السلام بصور وبيان يجسّد المطلوب ويجلو ما يخفى على الآخرين. فهو عليه السلام في خضم المعترك السياسي والمآسي الكبرى، يتجه إلى داخل النفوس وما نجم عن معاناة الرعية بأشكالها المختلفة، ويهتم عليه السلام بطهارة الأرواح واستقامة السلوك.

قال الإمام الصادق:

«المرضى ثلاثة، عن النفس، وعن القلب، وعن الروح. فمرض المنافق عن النفس، ومرض المؤمن عن القلب، ومرض العارف عن الروح. فدواء المنافق دار جهنم، ودواء المؤمن معرفته وحبّه، ودواء العارف لقاؤه وقربه»[١].

وقوله عليه السلام:

«من خاف الله أخاف الله منه كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء»[٢] يقصد به أن يعلّم الناس أن قوة الحكام الظلمة لا تطال المؤمنين، وأن اللجوء إلى الله هو الحصانة والمنجىٰ من كل متسلّط جبّار. وقد اخترنا هذين القولين، لنخلص إلى أن الإمام الصادق عليه السلام في حياته قد صبّ جهوده على أمرين، الأول: النضح والأرشاد ووعظ الناس والدعوة لدين الإسلام. والثاني: التأكيد على السلطان الروحي والعبودية لله تعالى التي تجعل من أشكال اضطهاد الرعية وألوان عنف المتجبّرين وقوتهم امتحاناً زائلاً ومأزقاً طارئاً، وأن المواجهة الدامية بعد التجارب التي

---

(١) الاثني عشرية في المواعظ العددية.

(٢) أصول الكافي.

مرّت بها الأمة وروّع بها الناس، لا تؤدي في مثل تلك الظروف التي يعيشها إلاّ إلى الهلاك على يد الحكام، لذلك سلك مع العباسيين مسلكاً يجنّب أهل بيته وشيعته مخاطر سلطانهم.

فلمّا اتخذ رأيه في عدم لبس السواد ذريعة من قبل الأعداء، أتقاهم بما يزيل التهمة ويحفظ حياته، فأخذ يلبس جبة سوداء. وروي أنه كان يلبس خفاً أسوداً مبطناً بسواد وفتق مرة ناحية منه وقال: «أما إن قطنه أسود» وأخرج منه قطن أسود، ثم قال عليه السلام: «بيّض قلبك والبس ما شئت»[1].

أما إذا أضفنا الأقوال الأخرى للإمام الصادق، فإن الصوفية لا يكتفون بالتأسيس عليها أحوالاً لهم ومقامات، بل إن ما نراه من أحداث طبيعية تحفل بها سيرة الأئمة الطاهرين من أهل البيت. يرون فيها كرامات لتعزيز أقوالهم بأصحابهم، وادّعاء الأعمال الجليلة لهم.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «من أدخل قلبه صافي حب الله شغله عمّا سواه»[2].

وهو قول من مصادر الصوفية لا يخرج عن مضامين مدرسة الإمام الصادق أو أقواله، إلا أن ما يجعلونه أساساً للمقامات والأحوال عندهم، وما يصرفون إليه كلام الإمام عليه السلام يسيىء كثيراً إلى الموقف الديني والفكري الذي اقتضته مصلحة الأمة، والذي اختطّه الإمام الصادق، وأطلقنا عليه «الدعوة الصامتة» ويظهر أن الصوفية تنسج على نزعتها وتحيك على هواها المقاصد والمعاني، لأن واقع الإمام الصادق وحركته الدائبة ونشاطه المعطاء، يفنّد الغرض الذي يختفي وراء القول بالتخلي أو الخمول. إذ لا يهدأ بحال في أذهان الشيعة قول الإمام الصادق: «كونوا لنا دعاة صامتين» واقتران الدعوة بالصمت يشير إلى منهج الصادق في الابتعاد عن مواجهة الحكام بما يحمي دماء الناس وأعراضهم ووجودهم، فيما أوّلوا بعض أقواله عليه السلام تأويلات اعتبروها أساساً لأوضاع قادتهم وهو: «عزّت السلامة حتى لقد خفي مطلبها، فإن تك في شيء فيوشك أن تكون في الخمول، فإن لم توجد فيه ففي التخلي، وليس كالخمول، فإن

(١) علل الشرائع للشيخ الصدوق.

(٢) الكواكب الدرية.

لم تكن فيه ففي الصمت، فإن لم تكن فيه ففي كلام السلف الصالح، والسعيد من وجد في نفسه خلوة[1].

وهذا من النصوص التي لعب الخيال في إيجادها، وكانت نتيجة الغرض الذي انطوت عليه نفوس قائليها، فجعلوا من أصل الفكرة في توخّي السلامة وسط مجمع مائج بالأهوال والمحن والابتلاءات، ومقتضيات الإمام ومسؤولياته تجاه ربه ودينه منوالاً لأفكارهم، وتنادي ألفاظ القول على بعدها عن البناء اللغوي والتوجه الوعظي الذي تمتاز به أقوال الإمام الصادق عليه السلام. والمقارنة بالأصل تظهر الفارق، فقد قال عليه السلام في السلامة: «أطلب السلامة أينما كنت، وفي أي حال كنت لدينك ولقلبك وعواقب أمورك في الله، فليس من طلبها وجدها. . . والسلامة قد عزّت في الخلق وفي كل عصر، خاصة هذا الزمان وسبيل وجودها في احتمال جفاة الخلق وأذيتهم، والصبر عن الرزايا وحقيقة الموت، والفرار من أشياء تلزمك رعايتها، والقناعة بالأقل من الميسور، فإن لم يكن؛ فالعزيمة، فإن لم تقدر فالصمت، وليس كالعزيمة، فإن لم تستطع فالكلام ينفعك ولا يضرّك، وليس كالصمت، فإن لم تجد السبيل إليه فالانقلاب والسفر من بلد إلى بلد، وطرح النفس في بواري التلف بسرّ صادق وقلب خاشع وبدن صابر، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾.

وانتهز مقسم عباد الله الصالحين، ولا تتنافس الأشكال، ولا تدّع في شيء وإن أحاط به علمك وتحققت به معرفتك، ولا تكشف به سرّك إلاّ على أشرف منك في الدين، وأنى تجد المشرف، فإذا فعلت ذلك أصبت السلامة».

ومن أقواله عليه السلام:

«ثلاثة أشياء لا ينبغي للعاقل أن ينساهنّ على كل حال: فناء الدنيا، وتصرّف الأحوال، والآفات التي لا أمان لها»[2].

فهل كانت مثل هذه الأقوال دافعاً لأصحابه على اعتزال الدنيا وترك مهمات الحياة، أم أن الرجل منهم كان يدعو أهل زمانه ويتصدّى لنشر تعاليم دينه وهو محمّل

---

(١) الكواكب الدرية ١/ ٩٥ وصفة الصفوت.

(٢) تحف العقول.

بمهمات الأرشاد والهداية، مقبل على الدنيا لأنها تربة يزرع بها الإنسان الخير بتمسكه بدينه، ونصرة عقيدة الإسلام، وتولي أهل بيت الرسالة الذين خصّهم الله بالإمامة، فجعلهم ينابيع هدى وتقوى، يغذوهم بالعلم، ويمدّهم بالسداد والتوفيق.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ الله تبارك وتعالى أعطى محمداً ﷺ شرائع نوح وإبراهيم وموسى وعيسى: التوحيد والأخلاص وخلع الأنداد، والفطرة الحنيفية السمحة لا رهبانية ولا سياحة، أحلّ فيها الطيبات، وحرّم فهيا الخبائث، ووضع عنهم أصرهم والأغلال التي كانت عليهم، ثم افترض عليه فيها الصلاة والزكاة والصيام والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحلال والحرام والمواريث والحدود والفرائض والجهاد في سبيل الله وزاده الوضوء»[١].

وما تراه الشيعة من خصائص أهل البيت لمنزلتهم الدينية ومكانتهم الروحية التي يعزّهم الله من أجلها، ويكلأهم لحماية دينه، يدرجه المتصوّفة في باب الكرامات الصوفية، فمثلاً: موقف المنصور العباسي منه، ومسلك الإمام الصادق عليه السلام في اتقاء شره، وننقله هنا حسب مصنفات رجالهم: عندما حجّ المنصور سنة سبع ومائة، قدم المدينة، فقال للربيع: إبعث إلى جعفر بن محمد من يأتينا به متعباً، قتلني الله إن لم أقتله. فتغافل الربيع عنه وتناساه، فأعاد عليه في اليوم الثاني وأغلظ في القول، فأرسل إليه الربيع. فلما حضر، قال له الربيع: يا أبا عبد اللّه، أذكر الله تعالى فإنه قد أرسل لك من لا يدفع شرّه إلا الله، وإني أتخوّف عليك. فقال الإمام: «لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم». ولمّا دخل على المنصور، أغلظ له في القول وقال: يا عدو الله، اتخذك أهل العراق إماماً يجبون إليك زكاة أموالهم، وتلحد في سلطاني، وتتبع لي الغوائل، قتلني الله إن لم أقتلك. وأحضر الرجل الذي سعى به إلى المنصور، فقال له المنصور: أحقاً ما حكيت لي عن جعفر؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين. فقال الإمام الصادق: «استحلفه» فبادر الرجل وقال: والله العظيم الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة الواحد الأحد، وأخذ يعدّد في صفات الله تعالى. فقال الإمام: «يحلف بما أستحلفه» فقال: حلّفه بما تختار، فقال الإمام: «قل: برئت من حول الله وقوّته، والتجأت إلى حولي وقوتي لقد فعل جعفر كذا وكذا». فامتنع الرجل، فنظر إليه

---

(١) الفصول المهمة للحر العاملي، باب إباحة الطيبات.

المنصور نظرة منكرة. فحلف بها. فما كان بأسرع من أن ضرب برجله الأرض وخرّ ميتاً. فلما خرج الإمام لحقه الربيع وقال له: يا أبا عبد اللّه رأيتك تحرّك شفتيك، وكلما حركتها سكن غضب المنصور، بأي شيء كنت تحركها؟ قال: «بدعاء جدّي الحسين: يا عدّتي عند شدّتي، ويا غوثي عند كربتي، أحرسني بعينك التي لا تنام، وأكنفني بركنك الذي لا يرام، وارحمني بقدرتك عليّ، فلا أهلك وأنت رجائي، اللهم إنك أكبر وأجلّ وأقدر مما أخاف وأحذر، اللهم بك أدرأ في نحره، وأستعيذ من شرّه، إنك على كل شيء قدير»(1). ويضيف المناوي إلى هذه الحادثة وهو يقول: وله كرامات كثيرة ومكاشفات شهيرة، منها ما أخرجه الطبري من طريق ابن وهب قال: سمعت الليث بن سعد يقول: حججت سنة ثلاث عشرة ومائة، فلما صليت العصر، رقيت أبا قبيس، فإذا رجل جالس يدعو فقال: «يا رب يا رب» حتى انقطع نفسه، ثم قال: «يا حي يا حي» حتى انقطع نفسه، ثم قال «إلٰهي إني أشتهي العنب فأطعمنيه، وإن بُرْدي قد خَلُق فاكسُني» قال الليث رضي الله عنه: فما تم كلامه حتى نظرت إلى سلّة مملوءة عنباً وليس على الأرض يومئذ عنب، وإذا ببردين لم أر مثلهما، فأراد الأكل، فقلت: أنا شريكك لأنك دعوت وأنا أؤمن. قال «كل ولا تخبيء ولا تدّخر» ثم دفع إليّ أحد البردين، فقلت: لي عنه غنى، فأتزر بأحدهما وارتدىٰ بالآخر، ثم أخذ الخلقين ونزل، فلقيه رجل فقال: أكسني يا ابن رسول الله ﷺ فدفعهما إليه. فقلت: من هذا؟ فقال: جعفر الصادق(2). وهي لا شك من وحي الخيال الذي يرجون به أضفاء الواقعية على ما ينسبونه إلى أوليائهم ورجالهم، لأن الحال الذي تصوّر الرواية فيه الإمام الصادق بعيد عن شواهد حاله المعروفة، أو رغباته التي تدور في طاعة الله ومناجاته ربه فيما يهمّ المسلمين وصالح الأمة. فإذا ما قارنّا بين الأحداث وهي تروىٰ بطرقنا، وصورتها وهي تفرّغ في قوالب خاصة بهم، نجد أن الأمر فيما يتعلق بالإمام الصادق أو غيره من أئمتنا، يمثل لجوء الأئمة إلى الله فيما يهمّهم، ولواذهم بقوته وعظمته. فلما قتل داود بن علي والي المدينة المعلى بن خنيس مولى الإمام الصادق الأثير عنده، هلك داود تلك الليلة، وأن الإمام الصادق قال في دعائه: «اللهم إني أسألك بنورك

---

(1) الشيخ الشبلخي، نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار، بتصرف بسيط. وانظر الكواكب الدرية.

(2) الكواكب الدرية.

الذي لا يُطفى، وبعزائمك التي لا تخفى، وبعزّك الذي لا ينقضي، وبنعمك التي لا تحصى، وبسلطانك الذي كففت به فرعون عن موسى» ودعا على داود حتى سمعوه يقول: «الساعة الساعة» فما استتم دعاءه حتى سمعت الصيحة في دار داود[1].

وقد قلنا في الجزء الثاني أن المنصور اقتضت سياسته عند اشتداد ملكه بأن يقضي على الإمام الصادق، واتخذ شتى الوسائل في ذلك، فكم مرة يحضره للفتك به، وكانت سلامته في تلك المواقف أعجوبة، لأن المنصور لا يتورّع عن إراقة الدماء، ولكن عناية الله وعينه التي كانت ترعى الإمام دفعت عنه كيده في كل مرة كان المنصور ينوي بها الفتك بالإمام الصادق.

يحدثنا علي بن مسيرة، قال: لما قدم أبو عبد اللّه على أبي جعفر، أقام أبو جعفر مولى له على رأسه، وقال له: إذا دخل جعفر بن محمد فأضرب عنقه. فلما دخل أبو عبد اللّه نظر إلى أبي جعفر وأسرّ شيئاً في نفسه ثم أظهره: «يا من يكفي خلقه كلهم ولا يكفيه أحد، إكفني شرّ عبد اللّه بن علي» فسلّمه الله من شرّه واستجاب دعاءه[2].

وخلاصة القول، أن الإمام الصادق لم يكن يرى التصوّف أو يقصد تأييد ما ظهر من أفكاره في عصره، بل ما رأته الصوفية وأوّلته وصبّته في قوالب أفكارها، هي معالم سيرة طاهرة عرف بها أهل البيت في كل عصر كقادة للأمة وهداة وأئمة. فلذلك لما جاء قوم ـ ممن يظهرون التزهّد، ويدعون إلى التقشّف ـ إلى الأمام الصادق، كما رواها الحسن بن علي بن شعبة الحرّاني الحلبي في تحف العقول كان مما خاطبهم به الإمام الصادق عليه السلام «هاتوا حججكم» فقالوا: إن حجّتنا من كتاب الله. قال لهم عليه السلام: «فأدلوا بها فإنها أحق ما اتبع وعمل به» قالوا: يقول الله تبارك وتعالى يخبر عن قوم من أصحاب النبي ﷺ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ فمدح فعلهم. وقال في موضع آخر: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ فنحن نكتفي. فقال الأمام عليه السلام: «أخبروني أيها النفر ألكم علم بناسخ القرآن من منسوخه، ومحكمه من متشابهه الذي في مثله ضلّ من ضلّ وهلك

(١) الكافي ج٢ ص٥٥٧ ط٢.

(٢) الكافي ج٢ ص٥٦١.

من هلك من هذه الأمة؟» فقالوا: بعضه، فأما كلّه فلا. فقال لهم عَلَيْهِ السَّلَامُ: «من ها هنا أُتيتم، وكذلك أحاديث رسول الله ﷺ أما ما ذكرتم من إخبار الله إيانا في كتابه عن القوم الذين أخبر عنهم بحسن فعالهم، فقد كان مباحاً جائزاً ولم يكونوا نهوا عنه، وثوابهم منه على الله، وذلك أن الله جلّ وتقدّس أمر بخلاف ما عملوا به، فصار أمره ناسخاً لفعلهم، وكان نهي الله تبارك وتعالى رحمة للمؤمنين لكي لا يضرّوا بأنفسهم وعيالاتهم، فهم الضعفة الصغار والولدان، والشيخ الفان، والعجوز الكبيرة الذين لا يصبرون على الجوع، فإن تصدّقت برغيفي ولا رغيف لي غيره ضاعوا وهلكوا جوعاً، فمن ثم قال رسول الله ﷺ: خمس تمرات أو خمس قرص أو دنانير أو دراهم يملكها الإنسان وهو يريد أن يمضيها، فأفضلها ما أنفقه الإنسان على والديه، ثم الثانية على نفسه وعياله، ثم الثالثة على القرابة وإخوانه المؤمنين، ثم الرابعة على جيرانه الفقراء، ثم الخامسة في سبيل الله». ثم ساق عَلَيْهِ السَّلَامُ جملة من أحاديث جدّه النبي الأعظم ﷺ وقال بعد أن رواها: «فهذه أحاديث رسول الله ﷺ يصدّقها الكتاب، والكتاب يصدّقه أهله من المؤمنين، ثم من قد علمتم في فضله وزهده سلمان وأبو ذر، فأما سلمان فكان إذا أخذ عطاءه، رفع منه قوته لسنته حتى يحضره عطاؤه من قابل، فقيل له: يا أبا عبد اللّه، أنت في زهدك تصنع هذا وإنك لا تدري لعلك تموت اليوم أو غداً؟ فكان جوابه أن قال: ما لكم لا ترجون لي البقاء كما خفتم علي الفناء، أو ما علمتم يا جهلة أن النفس قد تلتاث على صاحبها إذا لم يكن لها من العيش ما تعتمد عليه، فإذا هي أحرزت معيشتها اطمأنت. وأما أبو ذر فكانت له نويقات وشويهات يحلبها ويذبح منها إذا اشتهى أهله اللحم، أو نزل به ضيف، أو رأى بأهل الماء الذين هم معه خصاصة نحر لهم الجزور أو من الشاه على قدر ما يذهب عنهم قرم اللحم (الشهوة إلى اللحم) فيقسّمه بينهم، ويأخذ كنصيب أحدهم لا يفضل عليهم، ومن أزهد من هؤلاء وقد قال فيهم رسول الله ﷺ ما قال، ولم يبلغ من أثرهما أن صارا لا يملكان شيئاً البتة، كما تأمرون الناس بإلقاء أمتعتهم وشيئهم، ويؤثرون به على أنفسهم وعيالاتهم...

أخبروني لو كان الناس كلهم كما تريدون زهّاداً لا حاجة لهم في متاع غيرهم، فعلى من كان يتصدّق بكفارات الأيمان والنذور والصدقات من فرض الزكاة، إذا كان الأمر على ما تقولون لا ينبغي لأحد أن يحبس شيئاً من عرض الدنيا إلا قدّمه وإن كان به خصاصة، فبئس ما ذهبتم إليه، وحملتم الناس عليه من الجهل بكتاب الله وسنة

نبيه، وأحاديثه التي يصدّقها الكتاب المنزل، أو ردّكم إياها بجهالتكم، وترككم النظر في غرائب القرآن من التفسير بالناسخ من المنسوخ والمحكم والمتشابه والأمر والنهي. . .»

إلى أن يقول لهم عليه السلام:

«فتأدبوا أيها النفر بآداب الله للمؤمنين، واقتصروا على أمر الله ونهيه، ودعوا عنكم ما اشتبه عليكم مما لا علم لكم به، وردّوا العلم إلى أهله تؤجَروا وتُعذَروا عند الله، وكونوا في طلب الناسخ من القرآن من منسوخه، ومحكمه من متشابهه، وما أحلّ الله فيه ما حرّم، فإنه أقرب لكم من الله، وأبعد لكم من الجهل، ودعوا الجهالة لأهلها فإن أهل الجهل كثير وأهل العلم قليل، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾».

وإذا كان المتصوّفة لا يتزحزحون عن الخرقة في انتسابهم إلى الإمام علي عليه أفضل الصلاة والسلام، فلا بد أن تكون سيرة زهده ومعالم ورعه من الأمور التي يتوهم بها المتصوفة أنهم يحتجّون بها غيرهم حتى وإن كان ولده إمام الأمة وعلم الهدى جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فتكثر الروايات التي تدل على ذلك، وقد أشرنا إلى أن ما رواه الصوفية في باب الكرامات يبعد عن صفته في اللباس وأحواله في المعاش، ومن هذه الروايات: أن رجلاً قال للإمام الصادق عليه السلام: أصلحك الله، ذكرت أن علي بن أبي طالب كان يلبس الخشن، يلبس القميص بأربعة دراهم وما أشبه ذلك، ونرى عليك اللباس الجيد؟ فقال له الإمام عليه السلام: «إن علي بن أبي طالب صلوات الله عليه كان يلبس ذلك في زمان لا ينكر، ولو لبس مثل ذلك اليوم لشهّر به فخير لباس كل زمان لباس أهله».

* * *

وعلى أي حال، فإن الإمام الصادق قد تزعّم الحركة الدينية والفكرية في زمنه، وقاد أنصار العلويين عبر عهدين، واستطاع أن يواجه مشكلة الحكام بما يخفّف عن العلويين أعباء التضحيات وسفك الدماء.

وكانت شخصية المصلح التي تمثلت به عليه السلام قد اجتمعت فيها مؤهلات كبرى وصفات عالية، جعلته يحتلّ تلك المكانة السامية والمنزلة المرموقة في

المجتمع، واحتل موقع القيادة والأعلمية؛ فاتجهت إليه الأنظار، وقصدته الوفود من كل الأمصار.

وقد شهد في حياته فترة من العصر الإسلامي اشتدت فيها التحولات السياسية ونمت فيها بذور التطورات الفكرية، واستطاع الإمام الصادق عليه السلام أن يقف في زحمة الأحداث ووسط تلك المعتركات على اختلاف صورها، ويترك آثاره في كل جانب من حياة المجتمع، ويؤثر في كل ناحية فكرية، فلا غرو أن تكون سيرته مصدر إلهام ومعين علم. أما إذا تحكّم الهوى وغلبت الرغبات، فلا عجب أن تخرج شواهد سيرته وأحداث حياته عن إطارها الحقيقي، وتصرف أقواله عن مقاصدها الأصلية، وأن تبرز عبر فترات متفاوتة ومتوالية آراء تبغي الإساءة، وتنفضح مقاصدها وأغراضها.

ولا ننسى أن نذكر من يضاف إلى هؤلاء من المستشرقين[1] الذين بثوا سموم دعاواهم ونظرياتهم بين أبناء أمتنا، حتى أن البعض منهم عندما يرى الجوانب العظيمة في شخصية الإمام الصادق، يحاول أن يرجعها إلى أصول يونانية. وهو قول نراه من السخف بحيث لا يستحق أي عناء في الرد.

لقد كان لأبي عبد الله الإمام جعفر بن محمد الصادق من البيان والحكمة ما جعله متميزاً في الفقه، ومنهج الوعظ، وخطة الإصلاح.

سئل أبو حنيفة: من أفقه من رأيت؟ قال: ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد الصادق، لما أقدمه المنصور بعث إليّ فقال: يا أبا حنيفة إن الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد، فهيىء له من المسائل الشداد. فهيأت له أربعين مسألة، ثم بعث إلي أبو جعفر ـ وهو بالحيرة ـ فأتيته، فدخلت عليه وجعفر بن محمد جالس عن يمينه، فلما بصرت به دخلتني من الهيبة لجعفر بن محمد الصادق ما لم يدخلني لأبي جعفر، فسلّمت عليه وأومأ إليّ فجلست، ثم التفت إليّ فقال: يا أبا حنيفة. ألقِ على أبي عبد الله من

(١) لم نخض في افتراءات المستشرقين على شخصية جابر بن حيان أبي الكيمياء وتلميذ الإمام الصادق عليه السلام وسلوكهم مختلف الوسائل للإساءة إلى أستاذ جابر وإمامه من تشكيك ونسبة إلى الصوفية أو الإسماعيلية أو إنكار وجوده وغيرها، وجميعها لم تؤثر على مكانة الإمام الصادق، واتصال جابر بمدرسته عليه السلام والتخرّج على يديه. ومن الجليّ أنهم استعظموا أن يكون في الإسلام رجل كجابر الذي أنكروا وجوده، فكيف لا يهولهم أن يكون في تاريخنا من هو أعظم من جابر وصاحب فكر تخرّج عليه العلماء. راجع الجزء الثاني من هذا الكتاب.

مسائلك. فجعلت ألقي عليه، فيجيبني فيقول: «أنتم تقولون كذا، وأهل المدينة يقولون كذا، ونحن نقول كذا» فربما تابعنا وربما تابعهم، وربما خالفنا جميعاً، حتى أتيت على الأربعين مسألة ما أخلّ منها بمسألة. ثم قال أبو حنيفة رحمه الله: ألسنا روينا أن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس[١].

وللإمام الصادق عليه السلام بناء بلاغي في المواعظ يقوم على عوامل من الفقه والتصوير والبيان، ليجعل منها وسيلة للنفوس والأفهام، كقوله عليه السلام: «التقوى على ثلاثة أوجه: تقوى بالله في الله، وهو ترك الحلال فضلاً عن الشبهة، وهو تقوى خاص الخالص. وتقوى من الله، وهو ترك الشبهات فضلاً عن الحرام، وهو تقوى الخاص. وتقوى من خوف النار والعقاب وهو ترك الحرام، وهو تقوى العام. ومثل التقوى كماء يجري في نهر، ومثل هذه الطبقات الثلاث في معنى التقوى كأشجار مغروسة على حافة ذلك النهر من كل لون وجنس، وكل شجرة منها تستمص الماء من ذلك على قدر جوهره وطعمه ولطافته وكثافته، ثم منافع الخلق من تلك الأشجار والثمار على قدرها وقيمتها».

فكان هذا البناء البلاغي مادة للادعاء بتفسيرات صوفية للقرآن تنسب إلى الإمام الصادق عليه السلام تولّى إشاعتها والإقدام على وضعها الصوفي أبو عبد الرحمن السلمي[٢] في طبقاته، وفي حقائق التفسير.

ومن رجال الصوفية الكبار ممن صنّفهم السلمي في الطبقة الأولى كأبي يزيد البسطامي، من راح يتعلق بمناسبة وبدون مناسبة بالاتصال بالإمام الصادق، ويزيد في ذلك ويبالغ، كما راح أبو يزيد يأخذ أقوال الأئمة ليصوغها بألفاظه، وعلى الأخص أقوال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام منها: «عرفت الله بالله، وعرفت ما دون الله بنور الله».

وسئل: ما علامة العارف؟ فقال: أن لا يفتر عن ذكره، ولا يملّ من حقه، ولا يستأنس بغيره.

وهم أرادوا أن يقحموا الإمام الصادق في حالاتهم، ويدّعون عليه زوراً ما

---

(١) مناقب الإمام أبي حنيفة للموفق المكي ط١ ص١٧٣ ج١.

(٢) محمد بن الحسين بن موسى الأزدي النيسابوري المتوفى سنة ٤١٢.

درجوا عليه من الحلول أو التجسيم التي كان يغالي بها البسطامي، ومن أخفّها قوله: إنه ضرب الخيمة محاذاة العرش. وأنه يرى الله في المنام، وأنه مرة جلس في محرابه فمدّ رجله، فهتف به هاتف: من جالس الملوك ينبغي أن يجالسهم بحسن الأدب. وحكي عنه أنه كان يقول: سبحاني سبحاني.

فيقولون أنه نقل عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه خرّ مغشياً عليه وهو في الصلاة، فسئل عن ذلك، فقال: «ما زلت أردد الآية حتى سمعتها من المتكلم بها»[1].

وإذا استعصى عليهم القول، ساقوه عن الأمام الصادق بنصه، ثم ألحقوا به إشارة أو بياناً يفيد ما يقصدون، كذكرهم قول الإمام الصادق: «لقد تجلّى الله تعالى لعباده في كلامه، ولكن لا يبصرون». فيبيّنون بعد النصّ قصدهم بالقول: فيكون لكل آية مطلع من هذا الوجه، فالحدّ: حد الكلام، والمطلع: الترقي عن الكلام إلى شهود المتكلم! مما يوهم بالاعتقاد بالرؤية، والقول في الله بمشابهته عز وجل للمخلوقات من حيث النظر إليه سبحانه كما ينظر الإنسان إلى جسم محدود، تعالى الله عن ذلك، وحاشا أئمة أهل البيت وأعمدة الهدى ونواب صاحب الرسالة من قول ذلك.

والسلمي من أكثرهم نقلاً للأقوال التي تنسب للإمام الصادق عليه السلام وهي تتراوح بين الإيغال في الغوامض والإشارات على طريقتهم المعهودة، وبين محاكاة الرموز، كذكره لقول الإمام عليه السلام الحمد لله: من حمده بصفاته كما وصف نفسه فقد حمد، لأن الحمد حاء وميم ودال. فالحاء من الوحدانية والميم من الملك والدال من الديمومة.

ولقد حسم الإمام الصادق عليه السلام هذه المسألة بقول يغلق أبواب التأويل ويفضح التقوّل والادّعاء، إذ قال عليه السلام: «والله لقد تجلّى الله عز وجل لخلقه في كلامه، ولكنهم لا يبصرون». ونجد أن التعقيب على النص والإشارات القائمة عليه غريبة وأجنبية لا تؤثر في عقيدة التنزيه وردّ التجسيم والتشبيه.

كذلك فإنهم في النصوص ينتزعون ما يوافق هواهم ومقاصدهم ولا يذكرون النص بكامله، ولا يوردون القول بتفاصيله، فقوله عليه السلام الذي مرّ بنا وهو يردّد الآية جاء مبتوراً، إذ حقيقة قوله: «ما زلت أردّد الآية على قلبي، حتى سمعتها من المتكلم

---

(١) السهروردي، عوارف المعارف. والإحياء للغزالي ج٣ ص٥٢٠.

بها، فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته» أي أنه عليه السلام كان يتدبّر في وجوه القدرة وجوانب العظمة ودلالة الوجود.

وعن أبي بصير عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قلت له: أخبرني عن الله عز وجل هل يراه المؤمنون يوم القيامة؟ قال «نعم، وقد رأوه قبل يوم القيامة» فقلت: متى؟ قال عليه السلام: «حين قال عز وجل لهم: ألست بربكم قالوا: بلى» ثم سكت ساعة، ثم قال عليه السلام: «وإن المؤمنين ليرونه في الدنيا قبل يوم القيامة، ألست تراه في وقتك هذا؟» قال أبو بصير: فقلت له جعلت فداك، فأحدّث بهذا عنك؟ فقال عليه السلام: «لا، فإنك إذا حدّثت به فأنكره منكر جاهل بمعنى ما تقوله، ثم قدّر أن ذلك تشبيه كَفَر، وليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين، تعالى الله عما يصفه المشبّهون والملحدون».

كما أن الإمام الصادق كان يأمر أصحابه بمنع الزكاة عمن قال بالجسم.

إن التدقيق في أقوال الإمام جعفر بن محمد الصادق، والإمعان في معرفة منهجه في الوعظ والإرشاد، يؤدي إلى معرفة ما يرمي إليه الإمام عليه السلام من إصلاح الأمة وتوجيه الرعية بسبل واضحة وألفاظ جلية، تستمد من القرآن والسنة معانيها ومضامينها، فليس للخيال الذي يفلت من النص أثر في جوامع كلمه عليه السلام كما أنه عليه السلام يتقيد بالنص ومناسبته أو علته، لكي لا يدع للآخرين مجالاً يتذرعون به، فيتركون العنان لشطحاتهم ونزعاتهم تنال من أسباب التشريع أو تنحرف عن أغراض التنزيل ينتحلون ما يشاؤون.

ومن حق الصوفية أن يثنوا على نظرية الإمام في المعرفة، وأقواله في التوبة ومحاسبة النفس، لكن ليس من حقهم أن يجعلوا تراثه الفكري مادة لبناء مصطلحاتهم ومباحثهم، فالإمام تناول كل ما يتعلق بسلوك المؤمن وعلاقة المسلم بربه، وأوضح بمزيد من البيان كل ما يتعلق بوجود المؤمن في مجتمعه، وعلاقة المسلم بإخوانه، فليس هناك من أحاديث الصادق عليه السلام المأثورة ما يشبه في صياغته وبنائه بيان الصوفية وصورهم وأخيلتهم، فمنها ما لدينا عن الشيخ الصدوق في معاني الأخبار، أن الإمام الصادق قال في قوله عز وجل: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ قال عليه السلام: «يقول: أرشدنا إلى الصراط المستقيم، أرشدنا للزوم الطريق المؤدي إلى محبتك والمبلّغ إلى دينك، والمانع من أن نتبع أهواءنا فنعطب، أو نأخذ بآرائنا فنهلك».

ولأن هذا القول مشهور لدينا وصحيح بسنده لا يكاد يذكر أو يأتي محرّفاً، مما يدل على أن أصل أقوالهم هو من نسج الخيال والتأثر بشخصية الإمام الصادق وعظيم منزلته في عصره. وكذلك غيره من تفاسير الإمام الصادق، والتي إما أن تكون بياناً لدلالة المعنى وشرحاً للمفردات القرآنية التي تتعلق بالقصد والإرادة. أو شرحاً لمناسبتها وحادثتها، كقوله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ كانت المراضع، مما تدفع إحداهنّ الرجل إذا أراد الجماع تقول: لا أدعك، إني أخاف أن أحبل، فأقتل ولدي هذا الذي أرضعه. وكان الرجل تدعوه المرأة فيقول: إن أجامعك فيُقتل ولدي. فيدعها ولا يجامعها، فنهى الله عز وجل عن ذلك، أن يضارّ الرجل المرأة، والمرأة الرجل».

وروي عنه عليه السلام تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ قال عليه السلام: «يعني بقوله: وأقوم قيلاً، قيام الرجل عن فراشه بين يدي الله عز وجل لا يريد به غيره».

وقال في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ «كانوا يستغفرون الله في آخر الوتر، في آخر الليل سبعين مرة».

أما غيرها كما في مورد تفسير قوله تعالى حكاية عن سليمان: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ يورد المفسّرون رواية الإمام الصادق عن جدّه الإمام زين العابدين عليهما أفضل الصلاة والسلام قال: «إذا صاح النسر قال: يا ابن آدم، عُش ما عشت آخره الموت. وإذا صاح العقاب قال: البعد من الناس أنس. وإذا صاح القنبر قال: إلٰهي إلعن مبغض محمد وآل محمد. وإذا صاح الخطّاف قال: الحمد لله رب العالمين، ويمد العالمين كما يمد القارىء[1]» وقد أوردوا عن ابن عباس أيضاً أن القنبر يقول: اللهم إلعن مبغض محمد وآل محمد[2].

ولا نعلّق على ذلك بشيء، لأننا في مقام إظهار منزلة أهل البيت، وأنهم ينبوع الأحكام ومناط الإيمان. فلا غرابة أن ينهل الناس منهم فيحلو المشرب ويصفو إذا كان في وعاء الولاية والولاء، وفي صحف الدراية والمعرفة فيقر منها ما كان موافقاً

---

(١) انظر تفسير الخازن وتفسير البغوي/سورة النمل.

(٢) المصدر نفسه ج٥ ص١١١.

للأصول ومتفقاً مع بداهة العقول، ويغفل أو يهمل ما خالف الأحكام وناقض العقول، ويشمل ذلك كل ما نسب إلى أهل البيت بغضّ النظر عن الصبغة والمذهب.

ولا نلتفت إلى من ينسب إليه حفظ التفسير ونسخته، وإنما يهمّنا الادّعاء بوجود تفسير صوفي للآيات لدى الإمام الصادق عليه السلام على طريقة أقوال الصوفية، ومنهجهم في تأويل النصوص والمغالاة في الباطنية، وإلا فليخبرنا من يدّعي علماً، متى أضاف الإمام الصادق كلمة آمين في نهاية الفاتحة حتى تصبح من جملة ألفاظ ومفردات سورة الفاتحة التي يذكرها التفسير فيقول: قال جعفر: [«آمين» أي قاصدين نحوك، وأنت أكرم من أن تخيّب قاصداً]. لأن الشيعة في صلاتهم لا يجوّزون قول آمين في آخر الحمد وذلك اتباعاً لإمامهم جعفر الصادق وأهل بيت النبوّة.

فمن المسائل الفقهية في المذهب الجعفري، أن لا يصل الإمام ولا غيره قراءته «ولا الضالين» بآمين، لأن ذلك يجري مجرى الزيادة في القرآن مما ليس منه، وأن الإمام الصادق نهى عنها لأن اليهود والنصارى يقولون في طقوس صلاتهم «آمين». وقد تواترت عند غيرهم من المذاهب الإسلامية حتى أصبحت وكأنها من التنزيل، وهو ما كان يخشاه أئمة الشيعة، ونبّهوا إلى عدم جواز ذكرها بعد قراءة الفاتحة لكي لا يسمعها الجاهل فيراها من التنزيل وهي ليست من التنزيل، فإن قال: «آمين» تأميناً على ما تلاه الإمام، صرف القراءة إلى الدعاء الذي يؤمّن عليه سامعه، قال الإمام الصادق: «إذا كنت خلف إمام فقرأ الحمد وفرغ من قراءتها، فقل أنت: الحمد لله رب العالمين ولا تقل آمين».

وكل ما وصلنا من تفسير عن الإمام الصادق في مصادرنا المعتبرة، لا يتطرق إليه التكلّف الواضح لتحصيل صرف المعاني إلى ما يميل إليه الصوفية، ونرى أن الانتحال واضح وصريح، سواء من جهة النصوص نفسها وما تدل عليه المقارنة، أو من جهة المصادر التي هي أدنى من الصوفية إلى الإمام الصادق وأوثق في النقل عنه. ومن الملاحظة البسيطة للنصوص التي جاءت بطرقها الحسنة وإسنادها المعتبر يظهر الفرق بين النوعين.

ذكر الشيخ الطبرسي في الاحتجاج: عن حفص بن غياث[١] قال: شهدت

---

(١) النخعي توفي سنة ١٩٤هـ خرّج حديثه أصحاب الصحاح. انظر ترجمته في الجزء الأول من هذا الكتاب.

المسجد الحرام وابن أبي العوجاء يسأل أبا عبد الله عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ ما ذنب الغير؟ قال: «ويحك هي هي، وهي غيرها».

قال: فمثّل لي ذلك من أمر الدنيا.

قال: «نعم، أرأيت لو أن رجلاً أخذ لبنة فكسرها، ثم ردّها في ملبنها، فهي هي وهي غيرها».

وهذا في مورد الاحتجاج على الزنادقة. وردّ أقوالهم ومحاولاتهم في الطعن والتشكيك، وهي تجمع الوضوح وعمق الدلالة.

أما الأقوال الأخرى للإمام في التفسير، فهي تظهر أموراً لا يلتفت إليها غير من تمتّع بعلم خاص، والغرض هنا إيضاح المنهج في التفسير، وبيان بنائه في القول، لأن الأمر الأول يحتاج إلى بحث آخر. فقد سئل الإمام الصادق عن قول الله عز وجل في قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ قال: «ما فعله كبيرهم، وما كذب إبراهيم؟» قيل: وكيف ذلك؟ فقال: «إنما قال إبراهيم: فاسألوهم إن كانوا ينطقون، فإن نطقوا فكبيرهم فعل، وإن لم ينطقوا فكبيرهم لم يفعل شيئاً، فما نطقوا، وما كذب إبراهيم عليه السلام».

وسئل عن قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾؟ قال: «إنهم سرقوا يوسف من أبيه».

فسئل عن قول إبراهيم: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾.

قال: «ما كان إبراهيم سقيماً، وما كذب، إنما عنى سقيماً في دينه أي مرتاداً».

وفي قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ قال عليه السلام: «يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا يُنسى، ويُشكَر فلا يُكفر». إلى غيرها من الأقوال التي تفسّر الآيات، وجميعها ليس فيها تعيين لحالات وأوضاع على حسب الخيال، أو تشبيه وتقريب إلى حدّ التجسيم والتحديد بالجهة، تعالى الله سبحانه، وحاشا أئمتنا الأطهار.

ولنلاحظ ادّعاء التفسير الصوفي في آية: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ وأن الإمام الصادق عليه السلام قال: هل ينظرون إلا إقبال الله عليهم بالعصمة والتوفيق، فيكشف عنهم أستار الغفلة، فيشهدون برّه ولطفه، بل يشهدون البار اللطيف.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾ أنه عليه السلام قال: طهّر نفسك عن

مخالطة المخالفين، والاختلاط بغير الحق، والقائمين مع فؤاد العارفين، المقيمين معه على بساط الأنس والخدمة. ﴿والرُّكَّع السجود﴾: الأئمة السادة الذين رجعوا إلى البداية عن تناهي النهاية.

فجميعها من صُوَر الأحوال لديهم، وصياغتها لا تختلف في شيء عن مقالات رجالهم، بل ما أبعدها عن أقوال الأئمة ومشاهد مناجاتهم لله، أو تضرّعهم بين يديه بما لا يشعر إلا بالعبودية وتنزيه الله تعالى عن كل مشابهة بالمخلوقات، والتبرؤ عن أدنى ميل إلى الحلول أو الاتحاد أو التجسيم.

ولقد أوضحنا سابقاً أن الإمام الصادق احتج على الصوفية في أمهات أفكارهم وأسس طريقتهم، ورأينا كيف ميّز موقفه، فقد يكون من بين الذين يدخلون عليه جماعة يرون في الذي عليه الصوفية متفقاً مع عبادته ونسكه وأجواء الانقطاع لله التي يحسّونها في كل حركة وإشارة. والإمام الصادق يدعو إلى أن يكون الإيمان والعمل شعار حياة المسلم، فلا تحول عبادة وأداء فريضة عن مسؤوليات الحياة العملية، وينزوي الناس عن حياة مجتمعهم وهي الصعيد الحقيقي للدعوة والبناء.

ونحن شيعة أهل البيت عليهم السلام وأصحاب المذهب الجعفري نعلم أن هناك من بين كتبنا ما فيه بعض الأقوال التي تدرج في التفسير أو تنسب إليه، وهي في حقيقتها أقوال تنطلق من واقع ولاء يأخذ الصورة التي تطلّ من وراء نص أو حديث، ويرفعها بوجه تيارات العداء والنصب التي لعبت في عقول خدم الحكام وعبيد الخلفاء، وعلى قلة هذه الأقوال أو ندرتها، فما أعتبر منها لا يخرج عن باعث الولاء لأهل البيت والتعبّد ببعض الصور المأثورة، كما قيل في: ﴿مَرَجَ البحرين يلتقيان﴾(١). وليس هنا موضع بحث ذلك، فهو يحتاج إلى سعة في القول يوفي بالغرض ويوضّح الفرق بين قول لا يقصد به إلا الصورة وليس الحال وأسباب النزول، وبين النِحَل أو الادعاء للاستفادة من موقع الإمام الصادق ومنزلته العظيمة في النفوس، وإن كنّا لا ننفي وجود الحب والولاء لدى أهل الصوفية وميلهم إلى الإمام الصادق عليه السلام كما لا تفوتنا

---

(١) وهي مشهورة بسندها عن ابن عباس، ولم يختص بإيرادها الشيعة وحدهم، بل علماء السنة أيضاً كالخوارزمي. وهي تشبيهات يساعد عليها اللفظ، وقد أدت سياسات النصب وحملات العداء لآل البيت إلى الاستشهاد بها وذكرها محرّفة.

الإشارة إلى وجود محاولات لإدخال التعابير الصوفية في العقائد الشيعية وفي مجال التفسير، وهي قائمة على أساس واضح من فهم عقائد أهل البيت وأحكامهم، لذلك فهي لا تتعدى استعارة الألفاظ الصوفية وا ستعمالها في الكتابة بسبب من الاتجاه والسلوك في الحياة، والرغبة في الزهد الظاهر والتقشّف الغالب، وهي محاولات تفسيرية متأخرة رأت في اتجاهها وسلوكها ما يجمعها مع مفاهيم التصوّف وصيغه التعبيرية، ولكنها تعتمد عقائد الإمامية ركناً وأساساً يضبط استعمالها في الكتابة مما ينسجم مع بيئات الزهد في خراسان والمشرق، والتي قامت على أساس جهاد النفس وقمع هواها تزكية، لها لتكون أهلاً لمعرفة الله وحمل رسالة الإسلام وأحكام المصطفى الهادي ﷺ وهو الأساس الذي يمكن أن يعزى إليه، ويوافق القبول روح الزهد في الدنيا والعزوف عن ملذّاتها وزخرفها، والإقبال على الآخرة بالطاعات والعمل الصالح من دون انقطاع عن وتيرة الحياة ومسلك العيش والبقاء في صميم المجتمع.

ونورد بعض أقوال تفسير الإمام الصادق المعروفة بطرقها من مختلف المذاهب الإسلامية، كقوله عليه السلام: «نحن حبل الله الذي قال الله فيه: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾». لأن الإمام الصادق عليه السلام تبوء موقع الإمامة في ذلك المنعطف الحاسم الذي يشهد غليان الأطماع وتكالب الناس على الدنيا، واتجاههم إلى الحكام، فكان عليه أن يواجه ذلك بنهجه في توحيد صفوف الأمة وجمعها حول ما يمثّل روح القرآن ورسالة محمد ﷺ ويصون كيانها من سيوف الظلمة، وحرمات المؤمنين من تعدّيات الحكام وعقائد الأمة من انحرافات القصور.

لقد كان عليه السلام يوجّه الناس في ضوء الأحداث، ويوصي أصحابه بما عليهم أن يقوموا به، وقد يصل به الأمر إلى أن يطلب من أصحابه أن يعتزلوا لأمر يخشى منه إما من جور أو فساد كما في وصيته لحفص بن غياث: «إن قدرت أن لا تخرج من بيتك فافعل، فإن عليك في خروجك أن لا تغتاب ولا تكذب ولا تحسد ولا ترائي ولا تتصنّع».

ويجعل الناس على ثقة من زوال البلوى السياسية، ويتّخذ من سلاح الدين وقاية، إذ يقول لسفيان الثوري[1]: «إذا أحزنك أمر من سلطان أو غيره فأكثر من: لا

(١) الكوفي. ثقة وحافظ وفقيه وحجة. توفي سنة ١٦١هـ مرّت ترجمته في الجزء الأول.

حول ولا قوة إلا بالله. فإنها مفتاح الفرج»[1].

إن الإمام الصادق يقيم سلطته الروحية على نصوص من القرآن، يسوق تفسيرها ويجهر بها، وقد كانت من أعظم الأخطار التي هددت الأمويين والعباسيين. ولكنه عليه السلام يعلن مقاصد الشريعة، ويحرص على إظهار تفاسير النصوص التي تلاعب بها موالي الحكام وأذناب الولاة في كل عهد ومرحلة. دخل عليه الحسن بن صالح بن حيّ فقال له: يا ابن رسول الله، ما تقول في قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ مَن أولوا الأمر الذين أمر الله بطاعتهم؟ قال «العلماء» فلما خرجوا قال الحسن: ما صنعنا شيئاً، ألا سألناه من هؤلاء العلماء؟ فرجعوا إليه فسألوه، فقال: «الأئمة منّا أهل البيت».

ونستظهر من تفسير الإمام الصادق أن معتمده في إمامته، ومنزلته الروحية نص صريح يفصح عنه الإمام الصادق بكل ثقة وقدرة، وهو في سلطانه الروحي هذا غير منازع، فقد أعجز السلطة حصر تأثيره أو حجزه عن الناس، وقد كان من متطلبات خطته في الإصلاح وقيادته العمل ضد الجائرين. أن يكون منهجه واضحاً وقوياً وسهلاً، حتى أصبح من الممكن التفريق بين ما صدر عنه وما أسند إليه من غير صحة تحت تأثير مختلف العوامل. وأقوال التفسير المروية عن الإمام الصادق كثيرة جداً، ولا نجد في ما نقل منها ـ خلا ما تقول الصوفية ـ بعداً عن دلالات المعنى والأغراض القرآنية كقوله عليه السلام في تفسير قول الله عز وجل: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾: «إن الله سبحانه يقول للعبد يوم القيامة: عبدي أكنت عالماً؟ فإن قال نعم، قال له سبحانه: أفلا عملت بما علمت؟ وإن قال: كنت جاهلاً، قال له سبحانه: أفلا تعلّمت حتى تعمل».

وأيضاً ما في الكافي: قال عليه السلام: «إذا أراد الله بعبدٍ شرّاً، فأذنب ذنباً اتبعه بنعمة، لينسيه الاستغفار. ويتمادى بها وهو قوله: ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ بالنعم عند المعاصي» ثم قال عليه السلام في الاستدراج: «هو العبد يذنب الذنب، فيملي له، ويجدّد له النعم، فيلهيه عن الاستغفار عن الذنوب، فهو مستدرج من حيث لا يعلم».

وخلاصة القول، أن منحى التفسير الصوفي يوافق رغبات أصحابه في ظروفها كما يوافق اليوم أصحاب النظريات التي تبحث عن أصول العقائد الحلولية ومصادرها

---

(١) حلية الأولياء ج٣ ص١٩٣.

اليهودية والمسيحية، فتأتي نسبة التفسير الصوفي زوراً ليتلقّفها الذين في قلوبهم زيغ وأمراض، ويستمدّوا منها أقوالهم في الطعن بعقائدنا وأئمتنا. ولو تحلّى البعض بيسير من قيم الأمانة، لما نازعوا الأمر أهله، ولأخذوا ببينة دامغة وشواهد ناصعة، إن لم يناد بها الشيعة فإن كتبهم تصرخ في نفيها ودحضها، وإذا قبلنا من المتصوفة حب آل البيت، فلا يقبل أحد ـ يحرص على الإسلام وملته ـ أن يمدّ الأعداء بما يشفي غليلهم وضغينتهم، ويجعلوا من آل بيت النبي وعترته ـ وهم عدل الكتاب ـ غرضاً لأعداء الدين والمستشرقين.

ويجمع هؤلاء ما انتحله المتصوّفة إلى أفانين الغلاة وأقوالهم، ليقيموا وهمهم وآراءهم على أحاسيس وتخيّلات تبعد عن واقع الأئمة، فإن النظرة المتزنة والاطلاع على تاريخ الشيعة وعقائدهم، يكشفان عن الفروق والاختلافات، وإن التعميم بتأثير عدم التمييز ما هو إلا افتراء محض وخيانة للأمانة التاريخية التي يجب أن يتحلّى بها المختص إن كان من غير أهل الإسلام، وخيانة للأخوّة الدينية إن كان من أهل الشهادة.

فيجمعون نصوص المتصوّفة في الحلول والاتحاد إلى نصوص الفرق الأخرى التي يتجاهلون اختلافها في العقائد عن الشيعة، وينمّقون التّهم، وهي على هذا النمط الذي قدمناه كثيرة. وغيرها من الكتب الأخرى لغير المتصوفة من الفرق الأخرى، كالنصوص التي تجدها موضوعة على لسان الإمام الصادق عليه السلام برواية المفضل الجعفي، نذكر منها هذه النبذة القصيرة:

قال المفضل:

أخبرني يا مولاي عن قصة الحسين كيف اشتبه على الناس قتله وذبحه كما اشتبه على من كان قبلهم في قتل المسيح؟ قال الصادق: يا مفضل، هذا سرٌ من أسرار الله، **أشكله الله** على الناس، فعرفه خاصة أوليائه وعباده المؤمنون المختصّون من خلقه... إن الإمام يدخل في الأبدان طوعاً وكرهاً، ويخرج منها إذا شاء طوعاً وكرهاً، كما ينزع أحدكم جبته وقميصه بلا تكلف ولا ريب...[1].

إلى آخر ما في الكتاب من أقوال باطنية نسجتها الخيالات، وأدّت إليها ظروف

(١) انظر: الهفت الشريف، تقديم وتحقيق مصطفى غالب ط بيروت ١٩٦٤.

وأوضاع الحركة الباطنية التي سمحت لنفسها بالتغذي من الأوهام، والابتعاد عن جوهر أفكار الإمام الصادق وتعاليم أهل البيت، فاستقبلها أعداء الإسلام ليحكموا على حركة التشيّع وما قدّمه الشيعة عبر التاريخ من خلال نصوص الآخرين المختلفة، ولم يحكّموا العقل، بل غلبهم الحقد والهوى. غير أن من نواميس الحياة وسنن الكون بأن يعمل العقل ويطلق، فإن عطل في فترات، وفرضت مصالح الحكام أن يقمع الشيعة وتكبّل اتجاهات النظر والتدبر، فليس للشذوذ عن النواميس والسنن بقاء. ولذلك فمن حق كل نص ناقض العقل أن يردّ أو يهمل، أما التي تخالف الأصول فشأنها أخطر وأعظم.

ومما قدمناه من تفاسير مأثورة، وبطرقها المعتبرة توضح لنا نهج أهل البيت، وطريقة الإمام الصادق عليه السلام في بيان وجوه النص وتفسير القرآن، وإذا ما ورد استشهاد بآي من القرآن في موارد تعين أحوال الأئمة من أهل البيت، فإن المعروف منها بأنها نزلت في حق أهل البيت، ولم يشك فيها إلا من أفسد قلبه المرض، وشوّه عقله الزيغ، فراح لا يأبه بأقوال الحق وبالإذعان للصدق، حتى وإن كانت من غير الشيعة، بل غلبه التعصّب وصرعه النّصب، فأدّى به جهله إلى الإنكار، وعناده إلى الافتعال، وما نراه إلا من سلالة الذين ارتوى سيف الإمام علي من دمائهم، واختص بقطع أعناقهم، أو من الذين أعمى الله بصيرتهم؛ فضلّوا وحبطت أعمالهم.

أما تلك الجوانب من أحوال أهل البيت عليهم السلام التي تروى عن الإمام الصادق، فإنها تقوم على التشبيه والتمثيل الذي لا يمنع منه مانع، سيما وأن وجوه الشبه ظاهرة، وإمارات التقارب واضحة، فإن من لم يقرّ بولاية علي بن أبي طالب أو ينصب له العداء، ليس أصدق من وصف حاله بأنه: بطل عمله مثل الرماد الذي تجيء الريح فتحمله. وهو أخذ من الآية الكريمة: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ لتصوير الاحباط.

وصفوة القول أن دعاوى الاتجاه الصوفي أو صدور التفسير الذي يتعلق بهذا الاتجاه ما هي إلا تأولات بعيدة بنيت على ظاهر اختص به أهل بيت النبي الأطهار وهو في حدود واقعهم وحياتهم اليومية يقوم على أساس من القرآن والإيمان، ولكن أصحاب الاتجاه الصوفي أخذوا ظواهر التقشف والزهد في سير أهل البيت والتي تعني التهيؤ لأعباء المهمات الدينية، والاستعداد لتحمّل الرسالة، ومواجهة الحياة على

أساس خصائص الوصاية وخصال الإمامة، لا الانقطاع والاعتكاف الذي تميّز به التيار الصوفي. ولا نذهب بعيداً فنورد ما جاء في بعض الروايات التي تنص على تبرؤ الأمام الصادق من دعاوى هذه الجماعة، إلا أنه عليه السلام يشير إلى أنه «سيكون منهم أقوام يدّعون حبّنا، ويميلون إلينا، ويتشبّهون بنا» ويحذّر من ذلك. وكذلك وردت بعض الروايات عن أبنائه الطيبين الأئمة الميامين والأوصياء من بعده، إذ كان اتجاه التصوّف يتّسع وهو يتخذ أوصاف العزلة، ويجعل له مظاهر مفتعلة، فيما كان الأئمة من أهل البيت في مراحل حياتهم يواجهون أوضاع الأمة، ويضطلعون بأعباء الإمامة والحفاظ على بقاء نهج الحق والصدق بطرق من الاتجاه إلى الله والاعتماد على تسديده والانقطاع إليه، تجعلهم موضع خطر يتهدد عروش الطغاة.

أئمة المذاهب

نعود مرة أخرى إلى الحديث عن أئمة المذاهب لاستكمال جوانب البحث عن حياتهم، وقبل البدء في الحديث عن شخصيات أئمة المذاهب، لا بد من القول أن لكل شخصية من شخصياتهم مقوّماتها وميزاتها الخاصة، ولكل منهم سيرة يهتزّ فيها الواقع وتنغمر فيها الحقائق أمام الغلوّ أو التطرّف في العداء، شأنهم شأن كل ما يرتبط بفترات الانقسام والاختلاف. لذا أصبح البحث عن حياتهم يتّصف بالصعوبة والتعقيد، ولكنا حاولنا أن نستخرج شخصياتهم في إطارها العلمي وظرفها التاريخي دون التأثر بموجات الغلو أو العداء. فهم في مواقعهم ومراكزهم الحقيقية والواقعية لم يكونوا بحاجة إلى مثل هذه التيارات لو أن عناصر الفتنة والعداء تعاملت مع سلوكهم وسيرهم ومآثرهم تعاملاً نزيهاً ينبع من الحرص على الإسلام، والالتزام بمبادىء الإخاء في الدين، والمحافظة على وحدة الأمة. ولكنا رأينا فيما مرّ كيف عملت المصالح على دفع الأمة إلى أوضاع سيئة، فتفرّق الشمل، وتمزّق الجمع، واختلطت الأغراض، والحكام وراء ذلك يتابعهم أقوام غلب عليهم التعصّب وتحكّمت فيهم الأهواء.

وحقاً إنها لأحداث مؤسفة ينزف لها القلب دماً، وقد حكم الدين والتاريخ أن الجهل آفة، ومن الجهل أن يتحكّم العداء في نفوس أهل الإسلام ودين الأخاء والوحدة، وكلنا أمل أن تكون الاستجابة إلى داعي الحق ونبذ التعصّب ومظاهر الجهل الأخرى خاتمة لعهود الانقسام، ونهاية لأغراض الحكام.

وقبل البدء في البحث عن أئمة المذاهب، لا بد من الإشارة إلى أمر مهم ما زلنا نعاني من نتائجه وآثاره، وقد رأينا في موضوع البدع والضلالات كيف أطلقت

وتبودلت من غير دليل واضح، ودون وجود سبب معلوم خروجه على السنة، أو ما علم من الدين بالضرورة، ومن التفاصيل التي أوردناها علمنا أن المذاهب قد شملتها حرب الاتهامات، وكان الشيعة دون هذه المذاهب في أتون الفرقة والانقسام، يتألب الحكام ضدهم، ويوجّهون إليهم سيوفهم، وقد مرّت السنون وتعاقبت القرون، فإذا الحكام ما زالوا يرون في الشيعة خطراً، ويؤلّبون عليهم المذاهب الأخرى، فيبذلون الأموال الطائلة، ويستأجرون الأقلام الرخصية. ولولا مصالح المتحكّمين لرأينا أن الروح الإسلامية التي تجمعنا إلى إخواننا في الدين ونعيشها في حياتنا اليومية وفي المحافل واللقاءات، وما تقود إليه نظرة الحق والإنصاف من علاقات تستهين ببعد الديار، وتنائي الأقطار هي الغالبة. وقد عشت علاقات من الودّ والأخاء تجمعني مع إخوان علماء ومختصين في الأقطار الإسلامية، كان سبب تعارفنا هو تبادل الرأي والمناظرة الحرّة، وكم واجهت حروباً من الجهلة المتعصبين الذين تحجّروا وأغلقوا على أنفسهم منافذ الرأي وطريق التدبّر.

ولا نريد هنا أن نهمل ذكر الدوافع الأساسية على نهجنا في العرض لأئمة المذاهب، فنحن نعترف بالمكانة العلمية والمنزلة التاريخية لكل منهم، ونجهد في إبراز جوانب حياتهم، والتي تكشف لنا أن أئمة المذاهب بعلمهم ودينهم لم يباشروا بأنفسهم العداء للشيعة، ولم يسهموا في إقامة العداء بين المذاهب، فإن حدث اختلاف في الرأي فهو في مجالس العلماء وأصحاب الشأن، يتم بتقاليد المناظرة وطرق الاحتجاج ويبقى الحكم للحق. كما أن أئمة المذاهب لم يعرف عنهم بعدٌ يؤدي إلى العداء، بل كانوا ما بين متلقٍ مباشرة عن الإمام الصادق، أو متعلم من مدرسة أهل البيت وفقههم، وممن لا يتجاهلون مكانة الصادق وأهل بيته. وقد كان للحكام أثرهم في اتجاهات الناس ومشاعرهم، فيما كان الإمام الصادق يتمتع بذلك السلطان الروحي، ويقوم بأعباء الرئاسة الدينية في إمامته.

ورأينا بعد هذه الفترة من الانقطاع بين صدور آخر جزء من الكتاب وصدور الجزء السابع والثامن، أن نجعل كل جزء يتضمّن بحثاً عن حياة إمامين من أئمة المذاهب.

ونبدأ بالبحث عن حياة الإمام أبي حنيفة:

أبو حنيفة:

ذكرنا في الجزء الأول من كتابنا بعضاً من جوانب شخصية الإمام أبي حنيفة وعوامل شهرته، ويواجه الباحث في ذلك أكثر أنواع الإعجاب وأشدّ أشكال العداء. فقد أطلق عليه أنصاره كل ما يخطر ببال من مفردات الإطراء والإعجاب، فرفعوه إلى مستوى الأنبياء، وفوق درجة الأولياء. بينما هبط خصومه بشخصيته إلى مستوى الدون، فجرّدوه من كل فضيلة، وسلبوه كل ما يؤهله لمنزلة علمية أو مكانة دينية.

ونحن في خضمّ هذه التناقضات، نستخلص شخصية النعمان كرئيس مذهب وصاحب مدرسة، لنكشف بعض العوامل التاريخية التي بقيت مهملة عن قصد، أو لم تتضح للكثيرين ممن تصدّوا للبحث، ولم يتمثلوا عناصر التاريخ أو يستوعبوا طبيعة الظرف.

والإمام أبو حنيفة من أقرب الناس إلى أهل البيت، وأكثر أئمة المذاهب اتصالاً بالإمام الصادق عليه السلام ولقد انعكس ذلك بآثاره الواضحة في أفكاره ومواقفه.

وما كان الإمام أبو حنيفة ليظهر في نظر البعض بعيداً عن أهل البيت لولا نظرة المنصور السياسية. ومحاولته التأثير في مواقف أبي حنيفة وتصرّفاته، والاستفادة من علمه في التأثير على مكانة الإمام الصادق عليه السلام ودفعه إلى خط العداء لآل البيت.

ولقد مرّ أبو حنيفة بظرف يقرب من المحنة، استطاع أن يجتازها، وأن يحمي نفسه من عذاب الحكام ولذعات عنفهم.

تمتع أبو حنيفة بشهرة تظافرت على قيامها عوامل كثيرة، أهمها قدرته في القياس، واستطاع أن تكون له مدرسة متميزة هي التي خدمت شخصيته، وعملت على شهرته ورفع مكانته، فقد كان أبو حنيفة محور دائرة الخلافات بين أهل الرأي وأهل الحديث، إذ عرف بالرأي وكثرة القياس، مع قلة العمل بالحديث، وقد اشتهرت مدرسته بذلك، ولقيت معارضة شديدة من حملة العلم وأهل الحديث لاقترانها بالرأي والقياس.

وسار أصحاب أبي حنيفة على رأيه، وطبقوه فيما عرض لهم من مسائل. وقام

تلامذته بنصرة مذهبه، وفي طليعتهم القاضي أبو يوسف، وبواسطته نالت المدرسة شهرة واسعة. إذ كانت بيده تولية القضاة، وهو بمنزلة وزير العدل في العصر الحاضر فهو لا يولّي إلاّ من كان على مذهبه. كما قام جماعة بنصرة المذهب ونشره، منهم: زفر بن الهذيل، ومحمد بن الحسن الشيباني، والحسن بن زياد اللؤلؤي. وغير هؤلاء من أهل العراق الذين عرفوا بأهل الرأي كابن سماعة، وعافية القاضي، ومطيع البلخي وبشر المريسي... ومنشأ تسميتهم بأصحاب الرأي، هو أن عنايتهم بتحصيل وجه القياس والمعنى المستنبط من الأحكام وبناء الحوادث عليها، وربما يقدّمون القياس الجلي على أخبار الآحاد كما اشتهر عن أبي حنيفة أنه قال:

علمنا هذا رأي، وهو أحسن ما رأينا، فمن قدر على غير ذلك فله ما رأى ولنا ما رأينا[1].

وجاء عن أبي يوسف أنه قال قبيل وفاته: كلما أفتيت به؛ فقد رجعت عنه[2].

وجاء عن أبي حنيفة أنه قال لأبي يوسف: ويحك يا يعقوب لا تكتب كلما تسمع مني، فإني قد أرى الرأي اليوم وأتركه غداً، وأرى الرأي غداً وأتركه بعد غد[3].

وقد اشتهر عن أبي حنيفة قوله: لا يحلّ لمن يفتي من كتبي أن يفتي حتى يعلم من أين قلت[4]. وفي رواية: حرام على من لا يعرف دليلي أن يفتي بكلامي. وقد زيد في رواية قوله: فإننا بشرنقول القول اليوم ونرجع عنه غداً.

ولقد تشدد أبو حنيفة في الحديث، وكان لذلك أسبابه، إذ إن تلك الفترة قد شهدت موجات الوضع في الحديث، ولكي يضمن أصحاب المسائل القبول، كانت فتاواهم تساق إلى الناس بصيغ الحديث بالنص أو بالمعنى أو بغيرها من الطرق التي شاعت، فأصبح الكذب على الرسول الأعظم سهلاً وَتُكُسِّب به لإرضاء الحكام، ووضع الأحاديث وفق أهوائهم حتى بلغ الأمر حداً يثير سخرية الحكام، كما يثير

---

(١) فريد وجدي، دائرة المعارف ج٤ ص١٥٦.

(٢) شيخ الأمة لسيد الأهل ص١٣٨.

(٣) الاجتهاد والمجتهدون ص١٠٢.

(٤) الانتقاء لابن عبد البر ص١٤٥.

الأذى في نفوس المؤمنين[1]. وكان أبو حنيفة لا يرى أن يروى الحديث إلا ما حفظه عن الذي سمعه منه، وهي رواية أبو يوسف. أما رواية أبو حمزة فبعضها: سمعت أبا حنيفة يقول: إذا جاء الحديث الصحيح الإسناد عن النبي ﷺ أخذنا به، وإذا جاء عن الصحابة تخيرنا، وإن جاء عن التابعين زاحمناهم ولم نخرج عن قولهم. وفي أخرى: وما جاءنا عن أصحابه رحمهم الله اخترنا منه ولم نخرج عن قولهم، وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال[2]. والأخيرة أقرب إلى حقيقة موقف أبي حنيفة وأخذه بالرأي.

وقد توافر لمدرسة أبي حنيفة أنصار عملوا بالرأي وأخذوا بالقياس، وأعلنوا اختلافهم عن أهل الحديث. فاشتهرت مدرسة الرأي، وارتبطت باسمه وتزعّم تيارها. ولأن تلامذة أبي حنيفة وأنصاره كانوا من النشاط والفعالية بالدرجة الملحوظة؛ فقد استقرت مدرسة الرأي وانتشرت في العراق.

وهناك خلاف حول الشخص الذي أرسى دعائم مدرسة الرأي وأعلى بنيانها؟

هل هو إبراهيم، أمْ حمّاد؟ ويذهب بعضهم إلى القول بأن مؤسسها هو الخليفة عمر بن الخطاب. فيقول أحمد أمين: وكان حامل لواء هذه المدرسة عمر بن الخطاب، وأشهر من سار على طريقته عبد اللّه بن مسعود في العراق، فكان يتعشّق عمر ويتعجب بآرائه. وجاء في أعلام الموقعين: أن ابن مسعود كان لا يكاد يخالف عمراً في شيء من مذاهبه.

وقد انطوى عهد عمر إلى أبي موسى عبد اللّه بن قيس الأشعري على إشارات تحضّ على القياس عندما قال: الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنّة، ثم أعرف الأشباه والأمثال، وقس الأمور عند ذلك، وأعمد إلى أشبهها بالحق.

---

(١) نضرب مثلاً بأبي البختري وغيره ممن جاء بعده في مسألة إقبال خلفاء بني العباس على تطيير الحمام. دخل أبو البختري على هارون وهو يطير الحمام، فقال له: تحفظ في هذا شيئاً؟ فقال: حدثني هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة: أن النبي ﷺ كان يطير الحمام. ويأتي غيره فيضع بلا حياء حديثاً على لسان النبي الأعظم بإضافة «جناح» إلى حديثه ﷺ: لا سبق إلا في خف أو حافر. ليرضي خليفة آخر من بني العباس.

(٢) الانتقاء لابن عبد البر.

ومع أن صحة هذا العهد موضع نظر، إلا أنه من أكبر دعائم القول بقدم الرأي عند القائلين به، رغم أن الطرف الآخر ينسب إلى عمر قولاً يعارضه.

وقال الشعبي: كان عبد اللّه لا يقنت، ولو قنت عمر لقنت عبد اللّه[١] ويظهر من هذا أن عمر كان يعمل بالرأي، وهو مؤسس هذه المدرسة، وسار عبد اللّه بن مسعود على منهجه، فكانت فتواه هي فتوى عمر بن الخطاب، فالرأي متحد.

أخذ أبو حنيفة العلم عن حمّاد بن سليمان، وأخذ حمّاد عن إبراهيم النخعي، وأخذ إبراهيم عن علقمة بن قيس، وعلقمة هو تلميذ ابن مسعود، فكان إبراهيم لا يعدل بقول عمر وابن مسعود، وإذا اجتمعا كان قول عبد اللّه أعجب لأنه كان ألطف.

ومن هذا اشتهرت مدرسة الرأي في العراق لأن عبد اللّه بن مسعود كان قد أقام في الكوفة مدة من الزمن، وكان يفتي الناس ويحدّثهم.

قال أبو عمر الشيباني: كنت أجلس إلى ابن مسعود حولاً لا يقول: قال رسول الله ﷺ فإذا قالها استقلّته الرعدة[٢].

فإذا كان إبراهيم ألزم لأقوال ابن مسعود، فأبو حنيفة كان يلازم أقوال إبراهيم وأقرانه، ولا يجاوز إلا ما شاء الله، وكان عظيم الشأن في التخريج على مذهبه، دقيق النظر في وجوه التخريجات. وإذا أردت أن تعلم حقيقة ذلك، فلخّص أقوال إبراهيم من كتاب الآثار لمحمد، وجامع عبد الرزاق، ومصنّف أبي بكر بن أبي شيبة، ثم قايسه بمذهبه؛ تجده لا يفارق تلك المحجة إلا في مواضع يسيرة، وهو في تلك الموارد اليسيرة لا يخرج عمّا ذهب إليه فقهاء الكوفة[٣].

* * *

ولقد أعلنت المدينة غضبها على أهل الرأي وبالأخص الكوفة والعراق بصورة عامة، ومن شدّة الصراع وتفاقم الخلافات، تحامل حملة الآثار على أهل العراق. فقالوا بعدم علمهم بالحديث، الأمر الذي ألجأهم إلى التمسّك بالرأي والعمل بالقياس.

---

(١) فجر الإسلام ص٢٤٠ ط٧.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) ولي الله دهلوي، رسالة الإنصاف. ودائرة المعارف، فريد وجدي ج٣ ص٢٠٦.

وقد صدرت عن مالك بن أنس ألفاظ تعبّر عن عمق التأثر، فقد قيل عنه أنه قال: أنزلوهم ـ أي العراقيين ـ منزلة أهل الكتاب، لا تصدّقوهم ولا تكذّبوهم، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد[1].

ودخل عليه محمد بن الحسن الشيباني فسمعه يقول هذه المقالة، ثم رفع رأسه فقال للشيباني: يا أبا عبد الله، أكره أن تكون غيبة، كذلك أدركت أصحابنا يقولون. وكان مالك إذا نظر إلى أصحاب الرأي من العراقيين يقرأ: ﴿تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر﴾[2].

وكان يسمي الكوفة: دار الضرب. يعني أنها تضع الأحاديث وتخرجها كما تخرج دار الضرب الدراهم والدنانير.

وقال عطاء لأبي حنيفة: من أين أنت؟

قال: من أهل الكوفة.

قال: أنت من أهل القرية الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً؟ وإن صدور أمثال هذه الأقوال من رجل كمالك بن أنس ـ الشخصية الدينية والسياسية في آن واحد ـ لها أثرها، وإن شيوع أشياء كهذه لها نتائجها الخطيرة التي تستلزم حشد الجهود وتعبئة القوى لرد خطر ما ينجم من ورائها من تفاعلات. فكانت مقابلات حادة ومواجهات تتصف بالعنف والخروج عن قواعد المساجلات العلمية.

وقد كانت شهرة أصحاب الرأي سريعة، استطاعت أن تكون بإزاء مدرسة الحديث بتاريخها ومواقعها، ولما كان أبو حنيفة ينتقي أصحابه ويختارهم فيتعاهدهم بالرعاية والعناية كاختياره لأبي يوسف ورعايته للآخرين، لذا فقد تأثروا به غاية التأثر، وأصبحوا متفرغين لتطبيق منحى الرأي والدفاع عنه.

كما كان أبو حنيفة يشجّع الجدل بين تلامذته، ويتركهم يتبادلون الأقوال والحجج، وقد يستغرق ذلك وقتاً طويلاً في جلسة واحدة وبإشراف أبي حنيفة. حتى نبغ تلامذته، وكانوا من أعمدة القياس، وأصبحت صورة حلقة أبي حنيفة في أذهان الناس تتكون من أجزاء بعضها يكمل بعضاً، حتى قال وكيع لرجل قال أخطأ أبو

---

(١) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله ج٢ ص١٥٧.

(٢) ضحى الإسلام ج٢ ص١٥٢.

حنيفة: كيف يقدر أبو حنيفة أن يخطىء ومعه مثل أبي يوسف وزفر في قياسهما؟[1].

ولكن الأمر في المدينة غيره في العراق، فقد كانت الصورة تظهر أبا حنيفة وهو يقود حركة القياس. فيروى عن الشافعي رحمه الله أنه قال: قيل لمالك بن أنس: هل رأيت أبا حنيفة؟ قال: نعم، رأيت رجلاً لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته.

لقد بلغ أبو حنيفة من حضور الذهن وتوقّد الذّكاء مستوى جعله يتغلب على منافسيه بطرقه وقياسه، كابن أبي ليلى، الذي كان اختلافه معه في المسائل مادة كاملة ضمها مصنف كامل. ومنها عندما اجتمع أبو حنيفة وابن أبي ليلى عند أبي جعفر المنصور فسأل ابن أبي ليلى أبا حنيفة عمن باع ثوباً وتبرأ من العيب؟ فقال: إذا برأه فقد برىء. وقال ابن أبي ليلى: لا يبرأ حتى يضع يده على العيب. فلم يزل يدخل عليه أبو حنيفة حتى قال: لو أن امرأة [وذكر ما يعني أنها من العباسيين] باعت عبداً وعلى رأس ذكره برص، أيجب عليها أن تضع يدها على رأس ذكره؟ فقال ابن أبي ليلى: يجب عليها ذلك. فغضب المنصور عند ذلك وأهانه، فظفر به أبو حنيفة.

لقد كان أبو حنيفة محور دائرة الخلافات، والهدف الذي يوجه إليه الطعن. وقد حمل العلماء على أهل الرأي حملة شعواء، وأورد أهل الحديث روايات عن رسول الله ﷺ في ذم الرأي، منها:

«إن الله لا ينزع العلم من الناس بعد إذ أعطاهموه انتزاعاً، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم، فيبقى أناس جهّال يستفتون برأيهم فيَضِلّون ويُضِلّون»[2].

وحدثوا عنه ﷺ: «تفترق أمتي على بضع وسبعين فرقة، أعظمها فتنة قوم يقيسون الدين برأيهم، يحرّمون به ما أحلّ الله، ويحلّون به ما حرّم الله»[3] وأوردوا عن عمر بن الخطاب قوله: إياكم وأصحاب الرأي، فإنهم أعداء السنن، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها؛ فقالوا بالرأي، فأخلّوا وأضَلّوا.

* * *

---

(١) تاريخ بغداد ج١٤ ص٢٤٧.

(٢) أخرجه الحافظ ابن عبد البر بطريق عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٣) أخرجه الحافظ ابن عبد البر بطريق عن ابن مالك الأشجعي.

إلى كثير من الأحاديث التي أوردوها، والأقوال التي نقلوها عن الصحابة والتابعين وأتباعهم. واشتد النزاع وتحوّل إلى تعصّب قبلي وتحزّب إقليمي، وأصبح من المحتّم على أصحاب الرأي وعلى العراقيين والكوفة بالأخص أن تردّ على تلك الهجمات، وأن تنتصر لوطنها وآرائها.

وعلى هذا النحو استمر الوضع من تربّص كل فريق بالآخر، فتنابزوا وتقابلوا بانتقاص البعض للبعض، وعيّروا أهل الكوفة بالنبيذ، وأهل المدينة بسماع الغناء. واشتدّت عصبية كل قوم لبلدهم، وكان للأدب قسط وافر في هذا الصراع في عصر أبي حنيفة وبعده.

قال عمار الكلبي يذم أهل الحديث:

إن الرواة على جهلٍ بما حملوا ... مثل الجِمال عليها يحمل الودع
لا الودع ينفعه حمل الجِمال له ... ولا الجِمال بحمل الودع تنتفع

ويقول بعضهم:

يحمل أسفاراً له وما درى ... إن كان ما فيها صواباً أو خطأ
إن سئلوا قالوا كذا روينا ... ما ان كذبناه ولا اعتدينا

وقال بكر بن حماد قصيدة منها:

وكل شياطين العباد ضعيفة ... وشيطان أصحاب الحديث مريد

وأثارت هذه القصيدة حميّة كثير من الشعراء المنتصرين لأهل الحديث، فعارضوها بعدة قصائد كابن غياث عبد السلام بن يزيد إذ يقول:

تعرّضت يا بكر بن حمّاد حطة ... بأمثالها في الناس شاب وليد
فذمّك هذا في المقال مذمّم ... وذمّك هذا في الفعال حميد

وهي قصيدة طويلة[1].

ومنها قول أحمد بن عصفور يعارض ابن حمّاد:

(١) جامع بيان العلم وفضله ج٢ ص١٢٦.

أيا قادحاً في العلم زند عمائه رويداً بما تبدي به وتعيد
جعلتَ شياطين الحديث مريدة ألا إن شيطان الخلال مريد
وجرّحت بالتكذيب من كان صادقاً فقولك مردود وأنت عنيد

ومهما كان الشعر في معركة الرأي والحديث فإنه لا يبلغ في تأثيره وفعله ما يصدره أصحاب الحديث أنفسهم والذين يتصدّون للردّ على أهل العراق وإعلان سخطهم على أبي حنيفة لأنه يتزعم حركة القياس بإزائهم.

وقد أجحف خصومه في نقده والتحامل عليه والطعن في معتقده حتى قالوا عنه: إنه استتيب من الكفر مرتين[(١)]. وإنه إذا جاء الحديث عن النبي ﷺ فيخالفه إلى غيره[(٢)] وقد خالف مائتي حديث عن رسول الله ﷺ[(٣)].

وقد حددوا كفره بالقرآن بآيتين، كما ورد عن شريك أنه قال: كفر أبو حنيفة بآيتين من كتاب الله...[(٤)].

وقد جعلوا وجوده ضرراً على الإسلام، وبقاءه هدماً للدين وفتكاً بالمسلمين، لأنه يهدم الإسلام عروة عروة، وأنه شر مولود ولد في الإسلام[(٥)].

وقد أورد الخطيب في تاريخه، وابن عبد البرّ في انتقائه أقوالاً كثيرة أطلقها خصومه، وشاعت في أندية المجتمع، حتى بلغت إلى المنامات والأطياف، إذ كان لها سوق رائج في عصور التطاحن المذهبي، ولا أرى داعياً لاستعراض تلك الأقوال مناقشاً لها أو مؤيداً. وسنعاود بحث أمرها في الجزء الثامن.

وعلى أي حال، فقد دلنا التتبع على أن شخصية أبي حنيفة لمعت بعد أن رسخت قدم تلامذته في الدولة، وأصبح لهم النفوذ التام عندما ارتبطوا ارتباطاً وثيقاً بسياستها، وكان فيهم القضاة وذوو النفوذ، فانتشر المذهب المنسوب إليه، واتسعت مدرسته بقوة تلامذته، وقد أدت عوامل التضارب وشدة الخلافات إلى إيجاد جو

---

(١) الانتقاء لابن عبد البر ص١٥٠.
(٢) مختلف تأويل، الحديث ص٦٣.
(٣) ابن عبد البر، الانتقاء ص١٥٠.
(٤) الخطيب، تاريخ بغداد ج١٣ ص٣٧٢.
(٥) الانتقاء ص١٥٠.

مضطرب حمل بعض الاتباع على أن يضعوا الأخبار، ويختلفوا الحكايات. بل وضعوا كتباً مطولة لإعلاء شأنه. مما أدى بالباحث عنه أن يجد الصعوبة في بحثه عن الحقيقة الكامنة وراء أكداس من الدعايات. فإذا أردنا الوقوف على حقيقة ما يُدّعىٰ له من سعة العلم، وأن الناس عيال عليه، وإنه وضع سبعين ألف مسألة في الفقه، فإنّا نجد أقرانه ومعاصريه لم يعرفوا عنه ذلك، كما أن تلامذته والمنتسبين لمدرسته قد خالفوه في كثير من الآراء، وردّوا الكثير من أقواله. وأقوالهم في جميع الأبواب الفقهية إلى جنب أقواله. فمرة يتّفقون معه، ومرة يخالفونه. وقد بيّنا منزلته في الحديث، وما قالوه عنه: بأنه لم يكن صاحب حديث بل قيّاساً. وأنه لم يعرف إلا سبعة أحاديث. وقد وجدنا أكثر الرواة والمحدّثين لم يرووا عنه، وضعّفه البخاري[1] وترك حديثه، وكذلك بقية أصحاب الصحاح الستة. وقال يحيى بن معين: لم يكن أبو حنيفة صاحب حديث. وقد مرّت الأقوال في ذلك. ونحن لا نذهب لتأييدها، لأنها كانت مصوغة بقالب التحامل عليه.

لقد كان أبو حنيفة حريصاً على طلب العلم، عرف بقدرته على المناظرة وذكائه ونباهته، وكان محمد يختلف إلى الإمام الصادق عليه السلام ويسأله عن كثير من المسائل مع أدب واحترام، ولا يخاطبه إلا بقوله: جعلت فداك يا ابن رسول الله. وقد روى أبو حنيفة عن الإمام الصادق. وكان الإمام الصادق ينهاه عن القياس، ويشدّد الإنكار عليه ويقول: «بلغني أنك تقيس الدين برأيك، لا تفعل فإن أول من قاس إبليس».

وقد علم الإمام الصادق صفات أبي حنيفة وقدراته، فكان عليه السلام يوجّه إليه المسائل التي تتفق مع ما عرف عن أبي حنيفة من الذكاء. قال له الإمام عليه السلام: «يا أبا حنيفة ما تقول في مُحرم كسر رباعية ظبي؟ قال: يا ابن رسول الله ما أعلم فيه. فقال: أنت تتداهى ولا تعلم أن الظبي لا يكون له رباعية، وهو ثني أبداً»[2].

* * *

(١) كان طعن البخاري في أبي حنيفة في كتابه الضعفاء لا يقل نقمة وسخطاً عن منهج الخطيب البغدادي على قلة العبارة وموجز القول. وقدكان النسائي في كتابه الموسوم بالضعفاء والمتروكين أقل سخطاً.

(٢) المصايد والمطارد لكشاجم ص٢٠٢. ووفيات الأعيان ج١ ص٢١٢. ومرآة الجنان ج١ ص٣٠٥.

ويظهر لنا تاريخ حياة أبي حنيفة، أنه كان من الشخصيات المرموقة في عصره، وكانت له حلقة درس يرتادها جماعة وفي طليعتهم تلميذه الأول أبو يوسف. وأصبحوا من بعده علماء ولهم أراؤهم الخاصة وأقوالهم المنفردة عن قوله، ولأن أبا حنيفة قد عُرِف بالقياس؛ فقد نقم عليه علماء عصره، وشدّدوا عليه النكير. فلم يخضع لواحد منهم إلاّ للإمام الصادق عليه السلام كما يستدل من قوله المشهور: لولا السنتان لهلك النعمان. والمراد بالسنتين هما اللتان قضاهما في المدينة مع الإمام الصادق عليه السلام في آخر أيامه، وأخذ عنه العلم، وقد نهاه عن استعمال القياس وقال له: «إنه أول من قاس إبليس» في قصة طويلة. ومما يدلّ من بعض آثاره أنه ترك القياس، إلاّ أن مدرسته ظلّت تأخذ به، وكما اشتهرت مدرسة أبي حنيفة بالقياس، فقد اشتهرت باستعمال الحيل الشرعية، وقد نسبوا له كتاب الحيل الشرعية. ومن المستحسن الإشارة لذلك بموجز من البيان لتظهر لنا حقيقة لها أهميتها في تاريخ حياة الإمام أبي حنيفة. فهل كان أبو حنيفة يستعمل الحيل، وأنه وضع في ذلك كتاباً تداوله الناس، أم أنها نسبة لا أصل لها؟.

الحيلة الشرعية:

الحيلة مأخوذة من الاحتيال، وهي الحذق وجودة النظر، والقدرة على التصرّف. وأكثر استعمالها فيما في تعاطيه خُبْثٌ، وقد تستعمل بما فيه حكمة، ولقد غلب في العرف اللغوي إطلاقها على ما يكون من الطرق الخفية التي يتوصل بها إلى حصول الغرض، بحيث لا يتفطّن له إلا بنوع من الذكاء والفطنة، وتنصرف أيضاً إلى الطرق الخفية التي يتوصل بها إلى الغرض الممنوع منه شرعاً أو عقلاً، أو عادة. ويقصد بها الحيل التي تُسْتَحَلُّ بها المحارم، وأطلقها الفقهاء على المخارج من المضايق بوجه شرعي لمن ابتلي بحادثة دينية. والحيلة ترتبط بالرأي، وحيث كانت مدرسة أبي حنيفة معروفة بالرأي، فقد عرفت هذه المدرسة بالحيل الشرعية. وقد اشتهر عن أحمد بن حنبل أنه قال: هذه الحيل التي وضعها أبو حنيفة وأصحابه، عمدوا إلى السنن فاحتالوا في نقضها، أتوا إلى الذي قيل إنه حرام احتالوا فيه حتى أحلّوه.

ويظهر من كلمة الإمام أحمد هذه أنهم ـ أي أصحاب أبي حنيفة ـ استعملوا الحيل غير الجائزة والممنوعة شرعاً، وقد اهتم المذهب الحنفي من بين المذاهب

بالحيل، فقد ألفوا كتباً في الحيلة، وقد نُسب لأبي يوسف كتاب في الحيل[1] ولكنه مفقود الآن، وكذلك لمحمد بن الحسن الشيباني كتابا في الحيل رواه عنه معاصره أحمد بن حفص البخاري. ورواه أيضاً موسى بن سليمان الجوزجاني المتوفى سنة ٢٤٤هـ كما ألّف أحمد بن عمر الشيباني الخصّاف ـ أحد قضاة الدولة المتوفى سنة ٢٦١هـ ـ كتاباً في الحيل، وكثير من الكتب في هذا الموضوع نُسبت إلى الحنفية.

* * *

أما أبو حنيفة، فلا يُعلم بالضبط أن له كتاباً في الحيل كان أبو حنيفة يستعمله، وقد نسب لابن المبارك أنه قال: من استعمل كتاب الحيل لأبي حنيفة أو أفتى بما فيه؛ فقد بطل حجّه، وبانت منه امرأته.

ولا نعلم مقدار صحة هذا القول من ابن المبارك، فهو من أصحاب أبي حنيفة ومناصريه، ولا ندري هل أن أبا حنيفة استعمل الحيل الجائزة أم المحرمة. فإن كان الأول، فليس لنا أن نحصر الأمر به، فإن حدّة الذهن والتخلّص من المشاكل لم يكن من امتياز أبي حنيفة وحده، إذ الأمور المشروعة في الحيل قد سبق العمل بها في العصر الذي سبق عصر أبي حنيفة. أما إذا كان استعماله للحيل غير الجائزة وهي الاحتيال على حلّية ما هو حرام، أو على إسقاط ما هو واجب أو غير ذلك، فهل يمكننا أن نحمّل أبا حنيفة مسؤولية فتح هذا الباب، ولم يصل إلينا كتاب يدل على استعماله للحيل غير الجائزة؟ فهو لم يؤلف في ذلك كتاباً لا في الحيل ولا غيرها، أما كتاب العالم والمتعلم فهو كتاب صغير لا يدل على مكانته العلمية ومنزلته التي وصفوه بها، ولم يتفق على صحّة نسبته إلى أبي حنيفة.

وليس ببعيد أن يكون أصحابه قد استعملوا الحيل غير الجائزة ونسبوها لرأيه، كما هو شأنهم في كل مسائل المذهب، فإنهم يستخرجون المسألة الشرعية حسب نظرهم ورأيهم، ويقولون هذا رأي أبي حنيفة، مستندين إلى قاعدة: أنه يعمل بما صح عنده من الحديث. فهم يصحّحون الأحاديث لتقويم فتاواهم، ويسندون الكل لأبي حنيفة. وقد عقد ابن قيم الجوزية فصلاً طويلاً في كتابه (أعلام الموقعين) ذكر فيه

---

(١) الحيوان للجاحظ ج٣ ص١١.

الحيل المحلّلة والحيل المحرّمة، وذكر الأخبار في ذلك، وأفاض في البيان فأكثر وقال فيما قال:

والمقصود أن هذه الحيل لا تجوز أن تنسب إلى إمام، فإن ذلك قدح في إمامته، وذلك القدح يتضمّن القدح في الأمة، حيث ائتمّت بمن لا يصلح للإمامة، وهذا غير جائز. ولو فرض أنه حكي عن واحد من الأئمة بعض هذه الحيل المجمع على تحريمها، فإما أن تكون الحكاية باطلة، أو يكون الحاكم لم يضبط لفظه، فاشتبه مع بُعْد ما بينهما. ولو فرض وقوعها منه في وقت ما فلا بد أن يكون قد رجع عن ذلك.

وليس الأمر هنا للافتراض واللّاأبدية، وإنما المدار على الواقع. فإن الأكثر ينسبون لأبي حنيفة فتاوي بالحيل الممنوعة، كما نسبوا إليه كتاباً في ذلك، والأمر يحتاج إلى تدقيق وتمحيص، لا للافتراض واللّاأبدية.

وقال ابن قيّم: فهذه الحيل وأمثالها لا يحلّ لمسلم أن يأتي بها في دين الله، ومن استحلّ الفتوى بهذه، فهو الذي كفّره الإمام أحمد وغيره من الأئمة حتى قالوا: (إن من أفتى بهذه الحيل؛ فقد قلب الإسلام ظهراً لبطن، ونقض عرى الإسلام عروة عروة).

وإلى هذا الحد لم تتعين الفرقة التي اتسعت دائرة الحيل باستعمالها، هل هم الحنفية فقط؟ أم يشاركهم غيرهم في ذلك؟ وقد نقل عن بعضهم أنهم قالوا: ما نقموا علينا من أنّا عمدنا إلى أشياء كانت حراماً عليهم، فاحتلنا فيها حتى صارت حلالاً؟ وقال آخرون منهم: إنّا نحتال للناس منذ كذا وكذا سنة في تحليل ما حرّم الله عليهم. ولا ندري من هو القائل، وإلى أي فرقة ينتسب، وإلى أي مذهب يرجع.

قال أحمد بن زهير: كانت إمرأة ها هنا بمرو، أرادت أن تختلع من زوجها، فأبى زوجها عليها. فقيل لها: لو ارتددت عن الإسلام لبنت منه. ففعلت، فذكر ذلك لعبد الله بن المبارك فقال: من وضع هذا الكتاب فهو كافر، ومن سمع به فهو كافر، ومن حمله من كورة إلى كورة فهو كافر، ومن كان عنده فرضي به فهو كافر. قيل له: يا أبا عبد الرحمن: إن هذا الكتاب وضعه إبليس؟ قال: إبليس من الأبالسة. وقال النضر بن شميل في كتاب الحيل ثلاثمائة وعشرون أو ثلاثون مسألة كلها كفر. وذكر كتاب الحيل لشريك بن عبد الله القاضي فقال: من يخادع الله يخدعه. وقال إسماعيل بن حمّاد: قال القاسم بن معن قاضي الكوفة: كتابكم هذا الذي كتبتموه في الحيل

كتاب الفجور. وإسماعيل بن حمّاد هو حفيد النعمان بن ثابت أبي حنيفة. ومن هنا يظهر أن الكتاب الذي يتضمن الحيل المحرمة هو من وضع الحنفية، لا من وضع أبي حنيفة نفسه.

قال يزيد بن هارون: لقد افتى أصحاب الحيل بما لو أفتى به النصراني أو اليهودي كان قبيحاً[1]. ونقل عن أحمد بن حنبل عن محمد بن مقاتل قال: شهدت هشاماً وهو يقرأ كتاباً، فانتهى بيده إلى مسألة فجازها، فقيل له في ذلك فقال: دعوه. وكره مكاني، فتطلعت في الكتاب فإذا فيه: لو أن رجلاً لفّ على ذكره حريرة في شهر رمضان، ثم جامع امرأته نهاراً فلا قضاء عليه ولا كفارة[2].

فالحيلة في فسخ المرأة النكاح: أن ترتدّ، ثم تسلم.

والحيلة في سقوط القصاص عمن قتل أم امرأته: أن يقتل امرأته إذا كان لها ولد منه.

والحيلة في سقوط الكفارة عمن أراد الوطي في رمضان: أن يتغدّى، ثم يطأ بعد الغداء.

والحيلة لمن أراد أن يفسخ نكاح امرأته ويحرمّها على نفسه على التأبيد: أن يطأ حماته أو يقبّلها.

والحيلة لن أراد سقوط حدّ الزنا: أن يسكر، ثم يزني.

والحيلة لمن أراد سقوط الحج عنه مع قدرته: أن يملّك ماله لأبنه عند خروج الركب، فإذا أبعد استردّ ماله.

والحيلة لمن أراد أن يملك مال غيره بغير رضاه: أن يفسد عليه، أو يغيّر صورته فيملكه، فيذبح شاته، ويشقّ قميصه، ويطحن حبه.

والحيلة لمن أراد قتل غيره ولا يُقتل به: أن يضربه بدبوس أو مرزبة حديد، ينثر دماغه فلا يجب عليه القصاص.

---

(١) أعلام الموقعين ج٣ ص١٤٨.

(٢) أعلام الموقعين ج٣ ص١٥٠.

والحيلة لمن أراد أن يسقط عنه حدّ السرقة: أن يدّعي أن المال له، وأن له فيه شركة، فيسقط عنه الحد بمجرد دعواه.

والحيلة لمن أراد سقوط حدّ الزنا عنه بعد أن يشهد عليه أربعة عدول غير متّهمين، أو أن يصدّقهم فيسقط عنه الحدّ بمجرد تصديقهم.

والحيلة لمن أراد الصيد في الأحرام: أن ينصب الشباك قبل أن يُحرم، ثم يأخذ ما وقع فيها حال إحرامه بعد أن يُحلّ.

هذا بعض ما ذكروه من استعمال الحيل. وقد نقل عن أبي حنيفة أنه يفتي ببعضها كاستئجار الجارية لكنس البيت. وحوادث أخرى مشهورة ذكرتها المصادر. منها: ما ذكره ابن عبد البر في الانتقاء عن شريك أنه قال: كنا في جنازة غلام من بني هاشم، وقد تبعها وجوه الناس وأشرافهم، فأنا إلى جنب ابن شبرمة أماشيه إذ قامت الجنازة، فقيل: ما للجنازة لا يمشى بها؟ قيل: خرجت أمه والهة عليه سافرة وجهها في قميص. فحلف أبوه بالطلاق لترجعنّ، وحلفت هي بصدقة ما تملك لا رجعت حتى تصلي عليه، وكان يومئذ مع الجنازة ابن شبرمة ونظراؤه، فاجتمعوا لذلك، وسئلوا عن المسألة، فلم يكن عندهم جواب حاضر. قال: فذهبوا، فدعوا بأبي حنيفة - وهو في عرض الناس - فجاء مغطّياً رأسه والمرأة والزوج والناس وقوف، فقال للمرأة: علام حلفت؟ قالت: عليّ كذا كذا. وقال للزوج بم حلفت؟ قال: بكذا. قال ضعوا السرير فوضع، وقال للرجل تقدّم فصَلِّ على ابنك. فلما صلّى قال: ارجعي، فقد خرجتما عن يمينكما، احملوا ميّتكم. فاستحسنها الناس.

وكان المنصور يعرف عنه هذه القدرة في إيجاد المخارج. يروي حمزة بن عبد الله الخزاعي أن أبا حنيفة هرّب من بيعة المنصور جماعة من الفقهاء، ثم قال أبو حنيفة: لي فهم أسوة. فخرج مع أولئك الفقهاء، فلما دخلوا على المنصور أقبل على أبي حنيفة وحده من بينهم فقال له: أنت صاحب حيل، فالله شاهد عليك أنك بايعتني صادقاً من قلبك؟ قال: الله يشهد عليّ حتى تقوم الساعة. فقال: حسبك. فلما خرج أبو حنيفة قال له أصحابه: حكمت على نفسك ببيعته حتى تقوم الساعة؟ قال: إنما عنيت حتى تقوم الساعة من مجلسك إلى بول أو غائط أو حاجة، حتى يقوم من

مجلسه ذلك[١]. وعلى كل حال فقد اشتهر المذهب الحنفي بالعمل بالحيل الشرعية.

* * *

يقول الدكتور علي عبد القادر: بقي أبو حنيفة في نظر أتباعه صاحب الفضل في الحيل المتعلقة بالحلف، ومن هنا أخذ الأحناف يذكرون عن إمامهم ماله من حدة ذكاء في مسائل الحلف، وقد كانت كتب الحنفية في الحيل قد انتشرت بين الناس، فكان من أثر هذا أن أخذ الشافعية كذلك ينافسونهم في هذا الميدان، ويؤلفون في الحيل.

هذا في رأينا هو الباعث على وجود كتب الحيل في مذهب الشافعي بعد إن كان إمامهم يحكم عليها بالحرمة أو الكراهة، بالرغم من الاعتراف بصحتها من حيث الظاهر، وقد استمر على مخاصمة الحيل في المذهب كل من: الغزالي وعبد الرحمن بن زياد. ولكن ابن حجر نازعهم في هذا في فتاويه، وبقي رأيه هو الذي عليه العمل في المذاهب[٢].

ومن مسائل الحيل التي كثر الاختلاف بها هي الحيلة على إسقاط حق الشفعة، وقد أقرّت الشريعة الإسلامية حق الشفعة للشريك. وقام الدكتور عبد السلام ذهني بتناولها في كتابه (الحيل المحظور منها والمشروع).

وذهب بعض العلماء الأول إلى أن القياس يأبى ثبوت حق الشفعة، لأنه يتملك على المشتري ملكاً صحيحاً له بغير رضاه، وذلك لا يجوز، فإنه من نوع الأكل بالباطل، وتأييد هذا بقول النبي ﷺ: «لا يحلّ مال امرىء مسلم إلا بطيب نفس منه» ولأنه بالأخذ يدفع الضرر على نفسه على وجه يلحق الضرر بالمشتري في إبطال ملكه عليه، ونقل هذا الوجه عن أبي بكر الأصمّ[٣] وقيل في الشفعة بأن فيها رفعاً لضرر موهوم عند الشفيع، في مقابل ضرر محقق لدى المشتري[٤]. ولذا تجب العناية بالضرر الواقع، وصرف النظر عن الضرر الموهوم. وقيل فيها بأن حكمة الشارع منها اقتضت رفع الضرر عن المكلفين ما أمكن[٥].

---

(١) الانتقاء، ص١٥٩ و١٦١.
(٢) نظرة عامة ص٢٤١.
(٣) انظر: نيل الأوطار.
(٤) ابن عابدين ج٥ ص١٤٣.
(٥) أعلام الموقعين ج٣ ص٢٤٧.

وقد اختلفوا بجواز التحايل فيها، وصوّروا لذلك صوراً منها: إذا ترك البائع قطعة أرض على ملكه بين العقار المبيع والشفيع حتى لا يستطيع هذا الأخير الادعاء بالجوار. أو أن يهبه تلك القطعة الفاصلة لتحول دون الشفعة بسبب الهبة.

وقال أبو حنيفة والشافعي بجواز الاحتيال في الشفعة لإسقاطها، لأنها من الحقوق غير المستحبّة. وقال بذلك مالك، وأحمد، وحجتهم أن الحيلة أمر مستنبط من الكتاب والسُنّة؟!

ويقول فريق آخر: بعدم جواز الحيلة في سبيل إسقاط الشفعة، لأن الحيلة إنما هي رخصة لِضعفاء المؤمنين، ولأن التحيّل لإبطال الشفعة شرّعت لدفع الضرر. فلو شرّع التحيّل لإبطالها، لكان عوداً على مقصود الشريعة بالإبطال، ويلحق الضرر الذي قصد إبطاله[1].

واتفق علماء المسلمين على ثبوت الشفعة للشريك، أما الشفعة بالجوار فقد اختلفوا على ثلاثة أقوال: فأهل الكوفة يثبتون شفعة الجوار ولو مع تمييز الطريق والحقوق. وأهل المدينة يسقطونها ولو مع الاشتراك. وأهل البصرة يثبتونها إذا وقع الاشتراك في حق من حقوق الأملاك.

* * *

وعلى أي حال، فإن هذه المسألة هي من المسائل الهامة التي اشتهرت بها مدرسة أبي حنيفة، وقد ضاعف ذلك تفاقم النقمة عليها وتوجيه الانتقاد إليها، وقد نسبوا إلى أبي حنيفة أنه وضع كتاباً في الحيل فهم يستمدّون منه ويأخذون عنه، ولا بد من التحقق من ذلك وثبوته، وربما أنهم أخذوا من فتاوى أبي حنيفة وقواعده وزادوا، فسوّغوا استعمال الحيل بشتى أنواعها، كما هو الشأن في جميع أبواب الفقه المنسوب لأبي حنيفة، فإسناد الفتوى له إنما هو استنتاج يكشف عن رأيه، بمعنى أنه لو عاش أبو حنيفة لكان هو رأيه، أو على قاعدة الترخص منه بقوله: إذا صحّ الحديث فهو مذهبي.

---

(١) أعلام الموقعين ج٣ ص٢٢٩. والميزان للشعراني ج٢ ص٨٧.

صلته مع العلويين:

نشأ أبو حنيفة في الكوفة، وكانت منبعاً للحركات الثورية، فكم من ثورة عارمة قامت ضد سلطة فأخمدتها القوة، وأخرى استطاعت أن تخمد قوة السلطة وتقيم دولة مستقلة زمناً طويلاً، والحركة التي أطاحت بالدولة الأموية كان منشؤها الكوفة، البلدة التي ولد فيها أبو حنيفة ونشأ فيها، وكان يشارك الثوار في حركاتهم سراً أو علانية، وقد نكل به ابن أبي هبيرة عامل بني أمية، وضربه بالسياط.

وعاش أبو حنيفة وسط أحداث سياسية، كان لها الأثر في نبوغه ومعرفة اتجاهه ومنحاه السياسي الذي ينتهجه.

وقد تجلَّت موهبته، وظهر نشاطه وميله للعلويين عندما ظهر زيد بن علي بالكوفة سنة ١٢٤هـ فكان يرى إمامة زيد، وأنه على الحق، فأرسل إليه زيد رسالة مع الفضل ابن الزبير يدعوه إلى بيعته، فلما بلَّغه الفضل رسالة زيد، ذَكَرَهُ أبو حنيفة بكل جميل، وألزم الخروج معه، وقال: لو علمت أن الناس لا يخذلونه كما خذلوا أباه لجاهدت معه لأنه إمام الحق، ولكن أعينه بمالي. ثم بعث إليه بالمال وهو ثلاثون ألف درهماً، وقيل ثلاثون ألف ديناراً، وقال للرسول: أبسط عذري عنده..

وسُئِلَ أبو حنيفة عن خروج زيد فقال: ضاهى خروج رسول الله ﷺ يوم بدر. فقيل له: لم تخلَّفتَ عنه؟ قال: حبستني عنه ودائع الناس، عرضتها على إبن أبي ليلى فلم يقبل، فخفت أن أموت محمّلاً. وكان كلما ذكر خروج زيد بكى.

كما إنه انتصر لمحمد بن عبد الله بن الحسن وأخيه إبراهيم، وكان يحثّ الناس على الخروج للحرب مع إبراهيم وكان يقول: غزوة مع إبراهيم أفضل من خمسين حجة بعد حجة الإسلام[(١)]. وكان الإمام أبو حنيفة عند ذكر مصاب محمد النفس الزكية، يفعل كما يفعل عند ذكر استشهاد زيد، فتدمع عيناه..

وجاءت إليه إمرأة فقالت: إن ابني يريد هذا الرجل ـ أي إبراهيم ـ وأنا أمنعه؟ فقال: لا تمنعيه[(٢)].

وقال أبو إسحاق الفزاري: جئت إلى أبي حنيفة فقلت له: أما أتقيت الله! أفتيت

---

(١) المكي ج٢ ص٨٤.

(٢) المصدر السابق.

أخي بالخروج مع إبراهيم بن عبد الله بن الحسن حتى قتل؟ فقال: قُتِلَ أخوك حيث قتل، يعدل قتله لو قتل يوم بدر، وشهادته مع إبراهيم خير له من الحياة[1]. فكان إسحاق يبغض أبا حنيفة.

ومن هذا نستظهر أن أبا حنيفة معروف بميله للعلويين، ولذا وجه إليه زيد الدعوة للخروج معه، وجاء في اعتذار أبي حنيفة في بعض الروايات أنه كان مريضاً. أو أن لديه ودائع للناس ملزم بحفظها أو ردّها، كما أن استفتاء الناس له بالخروج مع إبراهيم، يدلّ على مكانته الاجتماعية في ذلك المجتمع. وبجانب ذلك، فقد كانت له مكانة سياسية ويد في الثورة، وقد أرسل رسالة إلى إبراهيم، يشير عليه أن يقصد الكوفة ليعينه الزيدية، وقال: ائتها سراً، فإن من فيها من شيعتكم يبيّتون أبا جعفر فيقتلونه أو يأخذون برقبته فيأتونك به.

ولما توجه إبراهيم لمقابلة عيسى بن موسى ـ القائد العباسي ـ وقامت الحرب بينهما، كان أبو حنيفة يدعو الناس للخروج معه. قال أبو نعيم: سمعت زفر بن الهذيل يقول: كان أبو حنيفة يجهر في أمر إبراهيم جهراً شديداً، ويفتي الناس بالخروج معه. فقلت له: والله ما أنت بمنّته عن هذا، حتى توافى فتوضع في أعناقنا الحبال[2].

وحدّث محمد بن الحسن وغيره من أصحابه: أن أبا حنيفة كتب إلى إبراهيم بن عبد الله لمّا توجّه إلى عيسى بن موسى: إذا أظفرك الله بعيسى وأصحابه فلا تسر فيهم سيرة أبيك في أهل الجمل، فإنه لم يقتل المنهزم ولم يأخذ الأموال، ولم يتّبع مدبراً، ولم يذفّف على جريح، لأن القوم لم يكن لهم فئة. ولكن سر فيهم بسيرته يوم صفين، فإنه سبى الذرية، وذفّف على الجريح لأن أهل الشام كانت لهم فئة، وكانوا في بلادهم[3].

فظفر أبو جعفر بكتابه، فكان الهدف الرئيسي من عرض القضاء على أبي حنيفة ـ بعد مدة ـ هو اتخاذ وسيلة للقضاء عليه بحجة امتناعه عن معاونة الدولة، وكان أبو

---

(١) المقاتل ص٢٤٦.

(٢) المقاتل وتاريخ بغداد ج١٣ ص٣٢٩ و٣٣٠.

(٣) المصدر السابق ص٢٤٧.

حنيفة يرى حرمة التعاون معهم لأنهم أئمة جور. وقد كان لأبي حنيفة اتصال بالإمام الباقر عليه السلام وولده الإمام الصادق عليه السلام ويُعَد من تلامذتهما، كما أنه اتصل بعبد الله بن الحسن وكان يُعدّ من شيوخ أبي حنيفة.

ويقول الأستاذ محمد أبو زهرة:

لقد كان أبو حنيفة يميل إلى أولاد علي، ويرى أنهم أحقّ بالخلافة من بني العباس، وكانت لرابطة العلم تأثير في ولائه واتجاهه السياسي، إذ كان تلميذاً لعبد الله بن الحسن، كما أنه على علاقة وثيقة بزيد وجعفر الصادق، ولذلك لمّا خرج إبراهيم بن عبد الله بن الحسن على المنصور، كان هوى أبي حنيفة معه، ولم يكتفِ بذلك، بل ثبّط أحد قوّاد المنصور ـ وهو الحسن بن قحطبة ـ عن الخروج لحرب إبراهيم.

ويبدو تأثير الإمام الصادق على أبي حنيفة من خلال مقاطعته الدولة العباسية، فقد صرّح الإمام الصادق ـ كما رأينا ـ بعدم معاونة الظالمين، وقطع الصلة بين الرعية وبين السلطة الحاكمة، وهو ما يسمىٰ بـ (العصيان المدني)[1]. فعندما أراد المنصور أن يختبر طاعته وولائه عرض عليه القضاء، فامتنع أبو حنيفة. ثم أراد إخراجه، فطلب منه الاشتراك بالعمل في بناء مدينة بغداد ـ وهي ما زالت تبنى ـ فأبى أبو حنيفة. وأقسم المنصور أن يفعل، وأبو حنيفة يأبى. ثم قبل منه أن يعدّ اللبن في بناء بغداد، وأبرّ بذلك قَسَمَ المنصور[2] ولكنه لم يثبت هذا القول، ولم يرد فيما ورد عن أبي حنيفة في أقواله وآرائه.

* * *

وعلى أي حال، فإن أبا حنيفة كان ذا صلة بآل البيت، إذ أخذ عن الإمام محمد الباقر وولده الإمام الصادق، وعن زيد بن علي، وعبد الله بن الحسن. وكان يحتجّ بقول الإمام علي، وربما كان يروي عنه بقوله: عن أبي زينب. خشية من الأمويين. كما أنه لم يسالم الأمويين، واشترك في حركة الشيعة للإطاحة بحكمهم، فقدّم لثورة زيد دعماً مالياً، كما أن المعروف عنه أنه لم يسالم العباسيين، ولذا فإن فتواه التي كان

(١) انظر الجزء الثاني من الإمام الصادق المذاهب الأربعة.

(٢) تاريخ ابن خلدون ج٣ ص٤١٨.

يفتي بها، ونقده الشديد للأحكام التي كان يصدرها الحكّام كانت تثير السخط عليه. فمن ذلك أن المنصور استفتاه في الذين انتفضوا عليه من أهل الموصل، هل تحلّ له دماؤهم؟ فأجابه أبو حنيفة:

إنهم شرطوا لك ما لا يملكونه، وشرطت عليهم ما ليس لك، لأن دم المؤمن لا يحلّ إلا بثلاث. فقال له المنصور: يا شيخ، القول ما قلت، ولكن لا تفتِ الناس بما هو شَيْنٌ على إمامك.

والحقيقة أن المنصور من خلال إصراره على تولي أبي حنيفة القضاء يكشف عن نيته في الإيقاع به، وليس الأمر إلا العامل السياسي الذي كان يستفزّ المنصور ويجعله يقدم على قتل الناس وسفك الدماء. لذا فإن امتناع أبي حنيفة عن تولي القضاء لا يجعل المنصور يقتله هذه القتلة الشنيعة، وإنما أرسل المنصور ليحضر أبا حنيفة من الكوفة ليقتله ويرتاح منه لأن أبا حنيفة كان يتعاون مع العلويين، ويساعد الثوار منهم، ويقوّي إبراهيم أحمر العينين. وكان مقام أبي حنيفة في الكوفة يؤدي إلى إثارة الرأي العام، لأنه مقبول القول عند الناس، ذو حال واسعة من التجارة. فكان المنصور يخشى من اتساع دعوة أبي حنيفة لإبراهيم وأخيه محمد، وطلبه من الكوفة إلى بغداد، ولم يجسر على قتله علناً(١).

وعلى الجملة فإن ميل أبي حنيفة لأهل البيت كان أمراً يبعث السلطة على العداء له وترصّد الدوائر به. وسنأتي على مزيد من القول فيه.

يقول الأستاذ محمد أبو زهرة:

(وننتهي من الكلام أن أبا حنيفة شيعي في ميوله وآرائه في حكام عصره، أي أنه يرى الخلافة في أولاد علي من فاطمة، وأن الخلفاء الذين عاصروه قد اغتصبوا الأمر وكانوا لهم ظالمين)(٢).

وأن الشيء المهم الذي يلزم أن نقف إمامه وقفة تأمل هو: شهرة أبي حنيفة العلمية التي اكتسبت طابع الانتشار بعد موته، حتى أصبح مرجعاً لملايين المسلمين،

---

(١) انظر: السيد عفيفي المحامي، حياة الإمام أبي حنيفة.

(٢) أبو حنيفة ص١٦٥.

فما هي العوامل التي ساعدته، وأدّت إلى هذا الاشتهار؟ فإنّا إذا لحظنا أبا حنيفة ذاته وجدنا أنه لم يكن له امتياز على كثير من العلماء المبرزين من أقرانه في عصره، نعم كان مشهوراً بالقياس، وهذا ما أوجب نقمة كثير من العلماء عليه.

أما تفوقه العلمي وشهرته، وبقاء مذهبه وانتشاره في الأقطار الإسلامية، فيرجع إلى شهرة أبي يوسف، فهو تلميذ أبي حنيفة وقد نال أبو يوسف مودّة الرشيد، فكان يحبّه حبّاً شديداً ويقول: لو جاز أن أدخلك في نسبي لفعلت. فكان لأبي يوسف المنزلة والكلمة النافذة في الدولة.

ولولا أبو يوسف لما ذكر أبو حنيفة، ولكن منزلة أبي يوسف في الدولة، وتوليته رئاسة القضاء جعلت ذكر أبي حنيفة ينتشر، وقد التفّ حوله جميع المنتمين لمدرسة أبي حنيفة وتلامذتهم، فكان نشاطهم محسوساً، ونالت أقوالهم الصبغة الرسمية. ثم عمدوا لنشر مذهب أبي حنيفة، فكانوا لا يقرّبون إلاّ من كان على طريقتهم في الاجتهاد والفتيا، وهم على طريقة أبي حنيفة في الاستنباط.

ويمكننا أن نعتبر تمكّن أبي يوسف وسلطته التشريعية نقطة بداية وضع أسس المذهب، فتطورت في المستقبل، إذ وجدت الظروف والإمكانيات اللازمة.

وعلى هذا فقط نشط أصحاب أبي حنيفة بتوليتهم القضاء، ونشر أقوال أبي حنيفة وآرائه، وكانوا يسيرون على قواعد مذهبية في الحديث، ومنهم المجتهدون، وأكثرهم ينفرد بقول، ويذهب إلى رأي غير رأي أبي حنيفة.

وقد اعتبروا استنباطهم للمسائل التي لم يكن لأبي حنيفة قول فيها هو رأيه وقوله، كما هو واضح لمن تتبع موارد الاستنباط عندهم، فيرون عن أبي حنيفة أنه قال لأبي يوسف: ويحكم، كم تكذبون عليّ في هذه الكتب ما لم أقل. وكيفما كان فقد تكوّن المذهب بجهود أصحابه الذين ينتمون لمدرسته، ويعرفون بالانتساب إليه، وكان عددهم ستة وثلاثين رجلاً، وفي طليعتهم أبو يوسف، فهو الذي تزعّم هذه المجموعة، وساعدته الظروف بأن يتولى منصب رئاسة قضاة الدولة في إبان قوتها، فقرّب أصحابه وتقرّب الناس إليهم حبّاً لما في أيديهم من الدنيا، فوسّعوا دائرة المذهب، ونشروا الأحكام باسم أبي حنيفة، وتوارث تلامذتهم نصرة المبدء ونشر المذهب حتى جاء عصر التطاحن والتكالب على الدنيا، فكان هناك تعصب أعمى،

وطائفية حمقي، وتحامل بدون مبرر، ومدح بدون لياقة، وشتم بدون ذنب. فاتسعت دائرة الدعوة إلى المذاهب، حتى جاء دور التحجير والإلزام بالأخذ عن هذه المذاهب دون غيرها، وكان للمذهب الحنفي شأن واسع وذكر منتشر.

أبو يوسف:

وليس من المبالغة أن يقول عمار بن أبي مالك: لولا أبو يوسف ما ذكر أبو حنيفة. لأن ارتباطه بالحكم هيأ له نفوذاً شخصياً وسياسياً كبيراً ساعد على أن يكون رأيه في الفقه ومذهبه هو المذهب الرسمي. فأبو يوسف هو أول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة، وأملى المسائل ونشرها، وبث علم أبي حنيفة في أقطار الأرض(١).

لقد كان أبو يوسف أول من دعي بقاضي القضاة، ولاّه موسى الهادي وهارون الرشيد. وكان يفهم من ذكر (قاضي القضاة) أن المراد به أبو يوسف. ولم يكتف أبو يوسف بنفسه، بل أستخلف ابنه يوسف على الجانب الغربي، فأقره الرشيد على عمله، وقد غلب عليه الاهتمام بشؤون الحكام، ولم يكن من الفقه بتلك المنزلة التي تشير الناس إليه، وتضمن له موقعاً علمياً. فيروي الخطيب البغدادي بسنده قول هلال بن يحيى: كان أبو يوسف يحفظ التفسير والمغازي وأيام العرب، وكان أقل علومه الفقه(٢).

ولهذا كان ما اشتهر من كتبه هو من شؤون الحكم أكثر منه أن يكون من قضايا الفقه، فالخراج كان من تنظيمات السلطة، وتخطيط اقتصاد الحكام، وكذلك (الرد على سِيَر الأوزاعي) فليس هو من فقهه، وإنما صنّفه أبو يوسف للرد على الأوزاعي الذي صنف كتاباً ردّ فيه على سِيَر أبي حنيفة، وليس فيه إلا المسائل التي كان أبو يوسف قد تلقّاها على أبي حنيفة. وكذلك الأمالي وهي الطريقة نفسها التي اتبعها في نشر أصول الفقه من خلال موقعه واتصاله بالحكام. فكان نفوذ المذهب يستمدّ من نفوذ السلطة. ولأبي يوسف كتب كثيرة دوّن فيها أراءه وآراء شيخه، ذكرها ابن النديم

---

(١) الخطيب البغدادي ١٤/٢٤٦.

(٢) الخطيب وشذرات الذهب ج١ ص٢٩٩. ووفيات الأعيان ج٥ ص٤٢٥.

منها: كتاب الصلاة، كتاب الزكاة، كتاب الصيام، كتاب الفرائض، كتاب البيوع، كتاب الخراج، كتاب الوكالة، كتاب الوصايا، كتاب اختلاف الأنصار، كتاب الرد على مالك وغيرها. وله إملاء رواه بشر بن الوليد القاضي يحتوي على ستة وثلاثين كتاباً.

قال رجل لأبي يوسف: رجل صلى مع الأمام في مسجد عرفة، ثم وقف حتى دفع بدفع الإمام؟ قال: ماله؟ قال: لا بأس به. فقال: سبحان الله، قد قال ابن عباس: من أفاض من عرفة فلا حجّ له، مسجد عرفة في بطن عرفة؟ فقال: أنتم أعلم بالأحكام، ونحن أعلم بالفقه. قال: إذا لم تعرف الأصل فكيف تكون فقيهاً؟[١].

إن أبا حنيفة قد رعى أبا يوسف رعاية خاصة. وكان يتفقّده ويتعاهده ويمدّه بالمال حتى استغنى وتموّل بعد أن كان في ضيق وفقر، وكان أبوه ينهاه عن طلب العلم على أبي حنيفة لئلا يؤثر ذلك على رزقهم وتحصيل قوتهم. ويروي أبو يوسف ذلك: (توفي إبراهيم بن حبيب، وخلّفني صغيراً في حجر أمي، فأسلمتني إلى قصّار أخدمه، فكنت أدع القصّار وأمرّ إلى حلقة أبي حنيفة، فأجلس أستمع. فكانت أمي تجيء خلفي إلى الحلقة، فتأخذ بيدي وتذهب بي إلى القصّار. وكان أبو حنيفة يعنى بي لما يرى من حضوري وحرصي على التعلم. فلما كثر ذلك على أمي، وطال عليها هربي، قالت لأبي حنيفة: ما لهذا الصبي فساد غيرك، هذا صبي يتيم لا شيء له، وإنما أطعمه من مغزلي، وآمل أن يكسب دانقاً يعود به على نفسه. فقال لها أبو حنيفة: مري يا رعناء هذا هوذا يتعلم أكل الفالوذج بدهن الفستق) ثم يقول: إنه ضحك عندما كان يجالس الرشيد ويأكل معه فالوذجة بدهن الفستق.

وقد أشرنا إلى طريقة أبي حنيفة في الدرس، وكان يقرّب كلاً من أبي يوسف وزفر أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره، ويدعهما يتجادلان. وتختتم الروايات عن أستاذية أبي حنيفة بعبارة واحدة لها معناها، إنه كان يضرب بيده على فخذ زفر قائلاً: لا يُطمع في رياسة فيها أبو يوسف. وهي برواية عمر بن حمّاد بن أبي حنيفة[٢].

ويروي ابن إبراهيم بن عمر عن فراسة أبي حنيفة التي ينظر بها فيرى ما سيصير

---

(١) الخطيب البغدادي ج١٤ ص٢٥٦.

(٢) الخطيب وابن العماد في الشذرات وابن خلكان.

إليه أبو يوسف: كان أبو حنيفة حسن الفراسة، فقال لداود الطائي: أنت رجل تتخلى للعبادة. وقال لأبي يوسف: تميل إلى الدنيا.

ومحمد بن صبيح بن السماك ـ الذي كان يعظ الرشيد ـ ينظر إلى موقع أبي يوسف في السلطان ومكانته فيقول: لا أقول إن أبا يوسف مجنون، ولو قلت ذاك لم يُقبل مني، ولكنه رجل صارع الدنيا فصرعته.

ولكنّ شخصية أبي يوسف أثرت في النظر إلى المذهب الحنفي أو إلى فقه أبي حنيفة نفسه من ناحية، كما أن روح اتباع الحكام وسيرة الخضوع للسلطة وخلفائها المتجبّرين، عزلت أبا يوسف عن أبي حنيفة وأصحابه الآخرين، لكي يكون متميزاً عن مواقف إمامه التي ذكرناها في الابتعاد عن الحكّام والتعامل معهم بحذر. أو أنها ظلت شيئاً من سيرة أبي حنيفة لا تلزم أصحابه، فيما ظل المذهب في أصوله من اختصاصه وهو في السلطان، وأصبح جزءاً من الحكم حتى قيل: وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين عاماً وهو لا يعدّ فقيهاً، ولا يجعل قاضياً، فما هو إلا أن ينظر في كتب أبي حنيفة وأشباه أبي حنيفة، ويحفظ الشروط في مقدار سنة أو سنتين، حتى تمر ببابه فتظنّ أنه من بعض العمال، وبالحري ألاّ يمر عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكماً على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان[1].

والاتجاه الأول يمثله عبد الله بن المبارك الذي كان من علمه ما أثر كثيراً على منزلة أبي حنيفة، وراح يطعن فيه. غير أن أصحاب المذهب عمدوا إلى وضع أقوال مخالفة تماماً لما اشتهر عن ابن المبارك، حتى تجدها في ترجمة أبي حنيفة في تاريخ بغداد، أو الانتقاء متناقضة متباينة.

فعن عبد الرزاق بن عمر قال: كنت عند عبد الله بن المبارك، فجاءه رجل فسأله عن مسألة، فأفتاه فيها. فقال له: قد سألت أبا يوسف فخالفك. فقال له: إن كنت صليت خلف أبي يوسف صلوات تحفظها فأعدها.

كما يروى عن ابن المبارك أنه سُئل: إيّما أصدق أبو يوسف أو محمد؟ قال: لا تقل أيهما أصدق، قل أيهما أكذب؟!

---

(١) الحيوان للجاحظ ج١ ص٨٧.

وسئل يزيد بن هارون: ما تقول في أبي يوسف؟ قال: لا تحلّ الرواية عنه، إنه كان يعطي أموال اليتامى مضاربة، ويجعل الربح لنفسه.

أما الذين أسلموا دينهم ودنياهم إلى أهواء الحكام، فيهبّون للدفاع عن أبي يوسف، وإبعاد صلته عن أبي حنيفة، ويختارون لذلك تهمة الجهمية، اتباع الجهم بن صفوان الذي قال من جملة ما قال: بأن لا فعل ولا عمل لأحد غير الله تعالى، وإنما تنسب الأعمال إلى المخلوقين مجازاً، وأنه لا يصف الله بوصف يجوز إطلاقه على غيره.

قالوا: كان أبو حنيفة جهمياً، وكان محمد بن الحسن جهمياً، وكان أبو يوسف سليماً من الجهم. وهو لأبي الزرعة الرازي.

وعمر الناقد قال: ما أحب أن أروي عن أحد من أصحاب الرأي إلا عن أبي يوسف، فإنه كان صاحب سنّة.

والدارقطني كان يقول: هو (أبو يوسف) أقوى من محمد بن الحسن. كما يروى عنه أنه قال: أعور بين عميان.

ولسنا هنا في معرض ذكر أصحاب أبي حنيفة، وإنما ذكرنا أبا يوسف لغرض بيان علاقته بالسلطان، وانضمامه إلى الحكم على نحو يخالف فيه رأي أبي حنيفة وسيرته. ولذلك نسوق بعضاً من أوجه خضوعه لخلفاء بني العباس، والعمل على إرضائهم، فيما كان يمدّ في رقعة اتساع مذهبه، ويوسّع من نطاق انتشاره من خلال سلطته ونفوذه، وعلى طريقة استنباطه وصوغ أفكاره التي وضعت أصول المذهب الحنفي ورسّخت كيانه. وقد ذكر الخطيب البغدادي أن البخاري قال: حكي لنا عن النعمان أنه قال: (ألا تعجبون من يعقوب؟ يقول عليّ ما لم أقل). مما يظهر أن أبا يوسف كان يسمح لنفسه في حياة شيخه أن يستنبط ما يشاء، ويدخل في المذهب ما يراه. ففي كتاب الخراج يذكر رأي أبي حنيفة، ثم يصرّح برأيه على خلافه، كما أنه لم يكن لأبي حنيفة كتاب مستقل في الفقه، نعم نسب إليه كتاب (العالم والمتعلّم) وقد بيّنا الاختلاف حوله، وأنه ليس له.

يقول الشيخ محمد الخضري: وقد حاول بعض الحنفية أن يجعل أقوالهم المختلفة أقوالاً للإمام رجع عنها.

والحاصل، إن مذهب أبي حنيفة لم يكن هو مجموع أقواله وآرائه، قد رأينا أصحابه ينفردون بأقوالهم. ولكن حاول الحنفية جعل جميع الأقوال منسوبة إليه لأنها على قواعده وأصوله.

يقول ابن عابدين: (إن ما خالف فيه الأصحاب إمامهم الأعظم لا يخرج عن مذهبه، إذا رجّحه المشايخ المعتبرون. وكذا ما بناه المشايخ على العرف الحادث لتغيير الزمان، أو للضرورة، أو نحو ذلك، لا يخرج عن مذهبه أيضاً، لأن ما رجّحوه لترجيح دليله عندهم مأذون فيه من جهة الإمام. وكذا ما بنوه عليه من تغيير الزمان والضرورة، باعتبار أنه لو كان حياً لقال بما قالوه، لأن ما قالوه إنما هو مبني على قواعده أيضاً، فهو مقتضى مذهبه. . . .) الخ[١].

لقد ابتليت الأمة بحكّام أسرفوا في البذخ والتمتع من الدنيا، كما أسرفوا في الظلم والتعدّي على الرعية. وقد قام كل من أهل البيت بما يجب عليه في نصْرة العدل ومحاربة الظلم، وبذلوا أنفسهم لتحقيق ما دعا إليه الإسلام بما يكفل للأمة السعادة، لذلك كانوا طعمة لسيوف الظالمين، لأنهم كانوا حرباً على الطغاة والجبارين، ولم يركنوا إلى الظلمة، ولم يتعاونوا معهم امتثالاً لأمره تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ وإذ رأينا اتصال أبي حنيفة بأهل البيت وميله السياسي إلى حركة زيد الشهيد، واعترافه بأن الإمام الصادق أفقه الناس، وإقباله على الأخذ عنه، فإن رفض أبي حنيفة العمل للحكام قد يكون من نتائج تمسّكه بنهج أهل البيت في التباين مع الظالمين وعدم الدخول فيما هم فيه.

ولئن نشأ أبو حنيفة في أجواء مغرية وظروف مواتية، فإن ما عاناه كان شاقاً وعسيراً، إذ كان عليه أن يوفق بين وجوده وسط تلك الأجواء، وبين اعتقاداته وقناعاته. واكتشف أن السياسة لها نهجها الثابت في معاداة أهل البيت بالرغم من تغيّر الرجال وما تبعثه القربى من احتمالات بعد أن جاء بنو العباس إلى الحكم تحت ستار الرضى من آل محمد، وهم أقرب نسباً وأولى بالبر، فرأى كيف تزهق الأرواح وتداس الكرامات وترتكب المجازر بحق آل البيت. ثم وقع عليه اختيار السلطة في أن يكون

---

(١) ابن عابدين، رسم المفتي ص٢٥.

أداتها في الإساءة إلى علم الإمام جعفر بن محمد الصادق عندما كلفه المنصور بأن يحضّر من المسائل ما يتوهّمه صعباً على الإمام الصادق. وكان حقد المنصور على الإمام قد سوّغ له أن يتوسل بأمر ليس للإمام الصادق منازع فيه أو صِنو. ونعلم أن لقاء أبي حنيفة هذا الذي تم بإشراف المنصور، قد فتح لأبي حنيفة مرحلة جديدة في علمه وسير حياته. فكان لا يدع فرصة تقرّبه من الإمام إلا استغلها خاصة في الموسم، وليس بخافٍ أن الإمام الصادق كان لا يقرّب أحداً إلا أن يكون ذا نفع، حتى أنه أبعد عنه المتقربين إلى الحكام وحرّم الولاية لهم، لأنه عليه السلام كان يرى: «أن ولاية الجائر دروس الحق كله، وإحياء الباطل كله، وإظهار الظلم والجور». ومما ورد عنه أيضاً: «العامل بالظلم والمعين له والراضي به شركاء». ودخل عليه عذافر فقال عليه السلام: «بلغني أنك تعامل أبا أيوب والربيع، فما حالك إذا نودي بك في أعوان الظلمة؟» ونهى يونس بن يعقوب عن معاونتهم، حتى على بناء المساجد[1].

وإذا نظرنا إلى الفترة التي برز فيها أبو يوسف، لم نجد من أسباب للبعد عن مواقف أبي حنيفة والتحوّل عن نهجه تحت ظروف الخوف أو الإكراه، وهي فترة خطيرة الأثر في حياة المسلمين، إذ على يديه أرسيت قاعدة المذهب الرسمي للدولة، وبفعل منصبه كقاضي للقضاة اقترنت بشكل جذري حركة المذاهب بأغراض السياسة ومشيئة الحكام.

وليس هناك فارق زمني كبير يبرّر ما حدث من تفاوت بين سيرة وسلوك رئيس المذهب الذي تعرّض للتعذيب والقتل على يد الحكام، وبين أبرز تلامذته الذي انضمّ إلى الحكّام، فكان واحداً منهم.

وإذا تغيّر الحاكم العباسي بعد المنصور، فيأتي الهادي، ثم الرشيد، فإن أسس السياسة وأغراضها واحدة، وبإزائها نرى مسيرة الأئمة من أهل البيت ثابتة وراسخة، فبعد وفاة الإمام الصادق عليه السلام قام مقامه في الإمامة ابنه العبد الصالح[2] الإمام موسى بن جعفر الكاظم، الذي عانى من أهوال بني العباس وظلمهم الأمرّين حتى استشهد.

---

(١) للمزيد راجع الجزء الثاني من الكتاب.

(٢) كان الإمام موسى يعرف بالعبد الصالح لكثرة عبادته.

عن صفوان الجمّال قال: دخلت على الإمام موسى بن جعفر عليه السلام فقال لي: «يا صفوان، كل شيء منك حسن جميل خلا شيئاً واحداً».

قلت: جُعلت فداك، أي شيء؟

قال: «كراك جمالك من هذا الرجل» - يعني هارون -

قلت: والله ما أكريته أشراً ولا بطراً، ولا للصيد ولا للّهو، ولكن أكريته لهذا الطريق - يعني طريق مكة - ولا أتولاّه بنفسي، ولكن أبعث معه غلماني.

قال: «يا صفوان، أيقع كراك عليهم؟»

قلت: نعم جعلت فداك.

قال: «أتحب بقاءهم حتى خرج كراك؟»

قلت: نعم.

قال: «فمن أحب بقاءهم فهو منهم، ومن كان منهم فهو كمن ورد النار».

قال صفوان: فذهبت وبعت جمالي.

وقد حاول الرشيد أن يسيىء إلى الإمام موسى الكاظم، وعلى طريقة أسلافه، فاستدعى رجلاً ليجمعه بالإمام موسى الكاظم لغرض الإساءة إلى الإمام في المجلس، ولعلّه يقطعه أو يحرجه، فكانت الغلبة الباهرة للإمام موسى الكاظم.

ولقد عانى الإمام موسى الكاظم منذ زمن خليفة بني العباس (المهدي) وتعرّض إلى صنوف من التعذيب والأذى، لأنه كان يمثل لبني العباس هاجساً وخطراً يتهدد كراسي حكمهم كل حين، لما في منزلته التي يحتلها في قلوب الناس من منافسة، وما يسببه سلطان الإمامة الروحي من عوائق تؤثر على سياستهم وتسلطهم على الرعية. وقد استدعاه المهدي إلى بغداد فحبسه، فلما كان في بعض الليالي رأى المهدي الإمام علي بن أبي طالب وهو يقول له: «يا محمد ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ فاستيقظ مذعوراً، وأمر به، فأخرج من السجن ليلاً، فأجلسه معه وعانقه وأقبل عليه، وأخذعليه العهد أن لا يخرج عليه ولا على أحد من أولاده. فقال: «والله ما هذا من شأني، ولا حدّثت فيه نفسي» فقال: صدقت[1].

---

(١) البداية والنهاية ج١٠ ص١٨٣.

وأسهم الرشيد بدوره في اضطهاد أولاد النبي وعترته الطاهرة، إذ حمله خوفه على سلطان بني أبيه، وحقده على الإمام موسى بن جعفر على أن يذيقه ألواناً من العذاب والتنكيل وأن يدسّ له السم.

وفي معاملة الرشيد للإمام موسى بن جعفر، يتضافر عداء الحكام لمن يرونهم خطراً، والحقد الشخصي المحض.

ذكر ابن عمار وغيره ممن كانوا على اطلاع: أنه لما خرج الرشيد إلى الحج وقرب من المدينة، استقبله الوجوه من أهلها، وتقدمهم موسى بن جعفر عليه السلام على بغلة، فقال له الربيع: ما هذه الدابة التي تلقيت عليها أمير المؤمنين؟ وأنت إن طَلبت عليها لم تدرك، وإن طُلبت لم تفت؟ فقال عليه السلام: «إنها تطأطأت عن خيلاء الخيل، وارتفعت عن ذلة العير، وخير الأمور أوساطها» قال: ولما دخل هارون الرشيد المدينة، توجه لزيارة النبي ﷺ ومعه الناس، فتقدم إلى قبر رسول الله ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا ابن عم - مفتخراً بذلك عليه - فتقدم الإمام فقال: «السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبة. فتغيّر الرشيد، وتبين الغيظ فيه.

وفي إضافة تبين لنا مبلغ ما كان يحسّه الرشيد من خيبة، وما سببه له ذكر الحقيقة التي عجز عن طمس إشعاعها وفعلها في النفوس عشرات الحكام. يذكر ابن كثير أن الرشيد قال: هذا هو الفخر يا أبا الحسين. ثم لم يزل ذلك في نفسه حتى استدعاه في سنة تسع وستين وسجنه[1].

هذا الحاكم الذي هو على هذه الدرجة من الكراهية لأهل البيت كان أبو يوسف يعمل جهده على إرضائه، ويبذل ما في وسعه للتقرّب من عائلته وأهله، لينعم بما يدرّه عليه ذلك. فلا عجب أن يكون من الرشيد بذلك الموقع، ويحبه ذاك الحب الذي تمنّى معه أن يشركه في نسبه فقال: لو جاز أن أدخلك في نسبي لفعلت. ولا عجب أن ينحو أبو يوسف بأول مذهب رسمي للدولة ذلك المنحى في اتّباع الحكّام من الأمويين والعباسيين في معاداة اتباع أهل البيت، وتعاطي اتهامات الحكام المعهودة

---

(١) البداية والنهاية ج١٠ ص١٨٣. والأصح يا أبا الحسن.

للشيعة بأمورٍ هُمْ منها براء. فشبّ في ظل مذهب أبي يوسف أناس تابعوه على الارتباط بمثل هؤلاء الخلفاء وإرضائهم.

ومع كل ما هم فيه من نفوذ وجاه، فإنهم لم يأمنوا غدر الخلفاء، ويبقون كبقية الرعية معرّضين لنزول الأذى بهم، فحتى أبو يوسف نفسه يصبّ الماء ويتحنّط توقعاً لكل مكروه عندما دعاه الرشيد في إحدى الليالي[1]. ولننظر ماذا كان يريد الرشيد من أبي يوسف عندما جاءه هرثمة بن أعين وعلى لسان أبي يوسف: (فقلت: تأذن لي أصبّ عليّ ماءً وأتحنّط، فإن كان أمر من الأمور كنت قد أحكمت شأني، وإن رزق الله العافية فلن يضرّ. فأذن لي، فدخلت فلبست ثياباً جدداً، وتطيّبت بما أمكن من الطيب، ثم خرجنا فمضينا حتى أتينا دار أمير المؤمنين الرشيد، فإذا مسرور واقف، فقال له هرثمة: قد جئت به؟ فقلت لمسرور: يا أبا هاشم خدمتي وحرمتي وميلي، وهذا وقت ضيق، فتدري لم يطلبني أمير المؤمنين؟ قال: لا. قلت: فمن عنده؟ قال عيسى بن جعفر. قلت: ومن؟ قال: ما عنده ثالث. قال: مرّ، وإذا صرت إلى الصحن فإنه في الرواق وهو ذاك جالس، فحرّك رجلك بالأرض، فإنه سيسألك، فقل: أنا. فجئت ففعلت، فقال من هذا؟ قلت: يعقوب. قال: أدخل. فدخلت، فإذا هو جالس وعن يمينه عيسى بن جعفر، فسلّمت فردّ عليّ السلام، وقال: أظننا روّعناك. قلت: إي والله وكذلك من خلفي. قال: أجلس. فجلست حتى سكن روعي، ثم التفت إليّ فقال: يا يعقوب، تدري لم دعوتك؟ قلت: لا. قال: دعوتك لأشهدك على هذا، إن عنده جارية، سألته أن يهبها لي فامتنع، وسألته أن يبيعها فأبى، والله لئن لم يفعل لأقتلنه. قال: فالتفتّ إلى عيسى، وقلت: وما بلغ الله بجارية تمنعها أمير المؤمنين، وتنزل نفسك هذه المنزلة؟ قال فقال لي: عجلت عليّ في القول قبل أن تعرف ما عندي؟ قلت: وما في هذا من الجواب؟ قال: إن عليّ يميناً بالطلاق والعتاق وصدقة ما أملك أن لا أبيع هذه الجارية ولا أهلها. فالتفت إليّ الرشيد فقال: هل له من ذلك مخرج؟ قلت: نعم! قال: وما هو؟ قلت يهب لك نصفها، ويبيعك نصفها، فتكون لم تُبع ولم تهب. قال عيسى: ويجوز ذلك؟ قلت: نعم! قال فأشهد أني قد وهبت له نصفها وبعته النصف الباقي بمائة ألف دينار. فقال: الجارية. فأتي بالجارية وبالمال،

---

(١) تاريخ الخطيب ج١٤ ص٢٥٠. ووفيات الأعيان ج٥ص٢٤٧.

فقال: خذها يا أمير المؤمنين بارك الله لك فيها. قال: يا يعقوب بقيت واحدة. قلت: وما هي؟ قال هي مملوكة ولا بد أن تستبرأ، ووالله إن لم أبق معها ليلتي إني أظن أن نفسي ستخرج. قلت: يا أمير المؤمنين تعتقها وتتزوجها، فإن الحرة لا تستبرأ. قال: فإني قد أعتقتها، فمن يزوجنيها؟ قلت: أنا. فدعا بمسرور وحسين، فخطبت وحمدت الله، ثم زوجته على عشرين ألف دينار. ودعا بالمال فدفعه إليها ثم قال لي: يا يعقوب انصرف. ورفع رأسه إلى مسرور فقال: يا مسرور. قال: لبيك يا أمير المؤمنين. قال: أحمل إلى يعقوب مائتي ألف درهم وعشرين تختاً ثياباً فحمل معي).

وكان الرشيد يقول لأبي يوسف في الأحوال التي تتطلب مخرجاً: إذهب فاحتَلْ[1].

ويقول الغزالي في وصف هذا المنحى بأنه من فتنة الدنيا، في مساق قوله أن الفقيه في الزكاة ينظر إلى ما يقطع به مطالبة السلطان، حتى إذا امتنع عن أدائها، فأخذها السلطان قهراً؛ حكم بأنه برئت ذمته. وحكي أن أبا يوسف القاضي كان يهب ماله لزوجته آخر الحول، ويستوهب ما لها إسقاطاً للزكاة. فحكي ذلك لأبي حنيفة رحمه الله فقال: ذلك من فقهه. ويعقّب الغزالي: صدق، فإن ذلك من فقه الدنيا، ولكن مضرّته في الآخرة أعظم من كل جناية. ومثل هذا هو العلم الضار[2].

ولا نظن أن حكم الغزالي متعلّق بهذه الحادثة فحسب، لأنها حادثة تهون أمام بقية الأحداث، وإذا كان الغزالي على غير علم ببقية الحوادث وقال هذا القول، فما الظن به عندئذ؟

وبين حريم القصور العباسية كان أبو يوسف يتمتع بمكانة ما هي إلا امتداد لموقعه عند الرشيد، يذكر الخطيب أن أم جعفر كتبت إلى أبي يوسف: ما ترى في كذا، وأحب الأشياء إليّ أن يكون فيه كذا؟ فأفتاها بما أحبّت. فبعثت إليه بِحُقّ فضة فيه حقاق فضة مطبقات في كل واحدة لون من الطيب، وفي جام دراهم وسطها جام فيه دنانير. فقال له جليس له: قال رسول الله ﷺ: «من أهديت له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها» فقال أبو يوسف: ذاك حين كانت هدايا الناس التمر واللبن.

---

(١) تاريخ الخطيب ج١٤ ص٢٥٤.

(٢) إحياء علوم الدين ج١ ص٣٢.

ورويت هذه الحادثة بإضافات أخرى وتفاصيل تولّد في النفس أحاسيس نكفّ عن التعليق عليها، وندع الأمر على ما يوحيه، ونتركه على ما تصوّره الأحداث. ولكن لا بد من الإشارة إلى أن عصور الانحطاط والتردّي التي وقعت بها الأمة على أيدي الحكام والجبابرة، كانت نتيجة معلومة سلفاً لمقدمات لا تقتصر على مبادىء حكم العباسيين، بل تتعدّاها لتستغرق عودة الجاهلية الأولى في حكم معاوية بن أبي سفيان.

ولهذا قلنا إن أباحنيفة كان يستغفر الله من تركه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتلك من أهم أوجه الاختلاف بين أبي حنيفة وتلامذته المقرّبين. ومن أظهر الصفات التي اكتسبها من هدي آل رسول الله ﷺ على أن ذلك لم يمنع من أن تشمله النظرة التي ينظر بها إلى أصحابه، فعدّ أبو حنيفة إلى جانب أصحابه ممن اتصلوا بخدمة هارون الرشيد، وقوّوا مذهبهم، وحصل لهم العلم والسلطنة[١].

* * *

ولا بد هنا من التعرّض إلى موقف الأنصار والخصوم، واستعراض الأقوال فيه وآراء الناس حوله، لنقف على ركام من الأخبار المختلفة والآراء المتناقضة، فهناك تعصّب وغلوّ في شخصيته، وإعجاب مفرط في مواهبه. وهناك نقدٌ مُرٌّ لأعماله، وتحامل شديد عليه، ووصف بما لا يليق بشخصية رئيس مذهب وإمام طائفة.

فطائفة محبّيه ومريديه قد رفعوه إلى منازل النبيين، وزعموا أن التوراة بشّرت باسمه، فذكر اسمه إلى اسم اليهوديين: وهب بن منبّه وكعب الأحبار. وأنه وجد في بعض الكتب المنزلة صفة ثلاثة رجال من أمة محمد ﷺ يفوقون أهل زمانهم فقهاً وعلماً[٢].

وأن النبي ﷺ أخبر به قبل ولادته، فروى مشايخهم بسندهم عن أبي هريرة أن رسول الله قال: يكون في أمتي رجل يقال له أبو حنيفة هو سراج أمتي يوم القيامة[٣]. وعن أبي هريرة أيضاً: يكون في أمتي رجل اسمه النعمان، وكنيته أبو حنيفة هو سراج

(١) مناقب الشافعي للرازي ص١٣٩.
(٢) مناقب الموفق.
(٣) جامع مسانيد الإمام الأعظم ج١ ص١٤١.

أمتي، هو سراج أمتي، هو سراج أمتي[1]. ويسندهم عن ابن عمر: يظهر من بعدي رجل يعرف بأبي حنيفة يحيي الله سنتي على يديه.

ويجعل لأمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة والسلام نصيب في ذلك، فبسندهم عن عبد الله بن مغفل قال: سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: ألا أنبئكم برجل من كوفان، من بلدتكم هذه، أو من كوفتكم هذه، يكنّى بأبي حنيفة قد مليء قلبه علماً وحكماً، وسيهلك به قوم آخر الزمان، الغالب عليهم التّنابز، يقال لهم البنانية كما هلكت الرافضة بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما[2].

وكذلك لابن عباس بسندهم عن الضحاك عن ابن عباس قال: يطلع بعد النبي ﷺ بدر على جميع خراسان يكنّى بأبي حنيفة.

وإذا توصّل أنصاره إلى إشاعة ذلك، غلب الهوى كل ميل للحق، وتحكّم التعصب في القول، وأغلقوا كلّ منفذ. قال خلف بن أيوب: صار العلم من الله تعالى إلى محمد ﷺ ثم صار إلى أصحابه، ثم صار إلى التابعين، ثم صار إلى أبي حنيفة وأصحابه. فمن شاء فليرضَ، ومن شاء فليسخط[3].

ويرفعونه فوق منزلة الأنبياء، لأن عيسى إذا رجع يقلّده ويحكم بمذهبه، وأن الخضر تعلّم أحكام الشريعة منه.

يقول قاضي زاده: اعلم أن المذهب لا يقلّده من الصحابة والتابعين إلا أبو حنيفة، فإن عيسى لمّا ينزل يحكم بمذهبه[4].

ولم يأبه المغالون بشيء، فوصفوا إمامهم بصفات لا يمكن تصديقها في حدود إمكانات البشر، كقراءة القرآن سبعين ألف مرة في محل واحد، وصلاته في كل ليلة ركعتين يختم القرآن في كل ركعة، وصلاته الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة. وقد سوّى الغلوّ والتعصّب بين أبي حنيفة وبين آخرين اندفع أصحابهم في ادعاء العبادات لرجا لهم على هذا النمط.

---

(١) نفس المصدر. وتاريخ بغداد. ومناقب الموفق.

(٢) جامع المسانيد.

(٣) الخطيب البغدادي.

(٤) جامع الرموز ج١ ص٢.

ومهما بذل الباحث من جهد في تحليل الاعتماد على ما يمجّه الذوق وينبو عن العقل فلا يتجاوز الهياج العاطفي وغليان الهوى، إذ تتصارع الانفعالات ويعمد إلى الإسفاف والابتعاد عن الحقيقة، ومهما جهد المرء في مواجهة اضطراب المنفعل، فلا يَلْقَ إلا انفعالاً وزيادة في الاضطراب تدفعه إلى الإغراق أكثر والإسفاف إلى أبعد مما في ذهنه، وفي نهاية الأمر تصبح الإساءة عن طريق الهوى والغلو هي الحصيلة الدائمة.

قالوا: إن الله خَصّ أبا حنيفة بالشريعة والكرامة. ومن كرامته أن الخضر عليه السلام كان يجيء إليه كل يوم وقت الصبح ويتعلم منه أحكام الشريعة إلى خمس سنين. فلما مات أبو حنيفة ناجى الخضر ربه وقال: إلٰهي، إن كان لي عندك منزلة فأذن لأبي حنيفة حتى يعلّمني من القبر على حسب عادته حتى أتعلّم شرع محمد ﷺ على الكمال. فأحياه الله، وتعلّم منه العلم إلى خمس وعشرين سنة. وبعد أن أكمل الخضر دراسته، أمره الله أن يذهب إلى القشيري ويعلّمه ما تعلّم من أبي حنيفة. وصنّف القشيري ألف كتاب، وهي لا تزال وديعة في نهر جيحون، إلى رجوع المسيح، فيحكم بتلك الكتب. لأنه يأتي في زمان ليس فيه من كتب شرع محمد ﷺ فيتسلم المسيح أمانة نهر جيحون، وهي كتب القشيري[1].

وفي وفاة أبي حنيفة يذكرون بكاء الجنّ له، ولهم أسانيدهم أن الجن بكت أبا حنيفة ليلة مات، وكانوا يسمعون الصوت ولا يرون الشخص.

ذهب الفقه فلا فقه لكم فاتقوا الله وكونوا خلفا
مات نعمان فمن هذا الذي يحيي الليل إذا ما سدفا[2]

أما الطائفة الثانية من معاصريه وغيرهم فقد رموه بالزندقة، والخروج عن الجادّة، ووصفوه بفساد العقيدة، والخروج على نظام الدين، أو مخالفة الكتاب والسنة. وطعنوا في دينه وجرّدوه من الإيمان[3].

وقالوا: اجتمع سفيان الثوري، وشريك، وحسن بن صالح، وابن أبي ليلى

(١) الإشاعة في أشراط الساعة ص١٢٠. والياقوتة لابن الجوزي ص٤٥.

(٢) آكام المرجان للقاضي الشبلي ص١٤٩.

(٣) انظر أبو حنيفة، محمد أبو زهرة ص٥.

فبعثوا إلى أبي حنيفة فقالوا: ما تقول في رجل قتل أباه، ونكح أمه، وشرب الخمر في رأس أبيه؟ فقال: مؤمن. فقال إبن أبي ليلى: لا قبلت لك شهادة أبداً. وقال له سفيان الثوري: لا كلمتك أبداً[1].

وحكي عن أبي يوسف، قيل له: أكان أبو حنيفة مرجئاً؟ قال: نعم. قيل: أين أنت منه؟ قال: إنما كان أبو حنيفة مدرّساً، فما كان من قوله حسناً قبلناه، وما كان قبيحاً تركناه عليه[2].

وحدّث إبراهيم بن بشار، عن سفيان بن عيينة أنه قال: ما رأيت أحداً أجرأ على الله من أبي حنيفة. وعنه أيضاً: كان أبو حنيفة يضرب لحديث رسول الله الأمثال فيبرره بعلمه[3].

وعن الوليد بن مسلم قال: قال لي مالك بن أنس: أيُذكر أبو حنيفة في بلادكم؟ قلت: نعم. قال: لا ينبغي لبلادكم أن تُسكن[4].

وعن الأوزاعي يقول: إننا لا ننقم على أبي حنيفة أنه رأى، كلنا يرى، ولكننا ننقم عليه أنه يجيئه الحديث عن النبي ﷺ فيخالفه إلى غيره[5].

قال ابن عبد البر في الانتقاء: وممن طعن عليه وجرحه: محمد بن إسماعيل البخاري، فقال في كتابه (الضعفاء والمتروكين): أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي، قال نعيم بن حماد: حدثنا يحيى بن سعيد ومعاذ بن معاذ، قالا: سمعنا سفيان الثوري يقول: استتيب أبو حنيفة من الكفر مرتين. وقال نعيم الفزاري: كنت عند سفيان بن عيينة، فجاء نعي أبي حنيفة، فقال: .... كان يهدم الإسلام عروة عروة، وما ولد في الإسلام مولود أشرّ منه. وقال ابن الجارود في كتابه (الضعفاء والمتروكين): النعمان بن ثابت جلّ حديثه وهم.

---

(١) الخطيب ج١٣ ص٣٧٤.

(٢) نفس المصدر.

(٣) الانتقاء لابن عبد البر ص١٤٨.

(٤) ميزان الشعراني ج١ ص٥٩.

(٥) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص٦٣.

وقد روي عن مالك رحمه الله أنه قال في أبي حنيفة نحو ما ذكره سفيان: إنه شرّ مولود ولد في الإسلام، وأنه لو خرج على هذه الأمة بالسيف كان أهون. وروي عنه أنه سئل عن قول عمر بن الخطاب: بالعراق الداء العضال؟ فقال مالك: أبو حنيفة. وروى ذلك كله أهل الحديث.

وعن وكيع بن الجرّاح أنه قال: وجدت أبا حنيفة خالف مائتي حديث عن رسول الله ﷺ. وقيل لابن المبارك: كان الناس يقولون إنك تذهب إلى قول أبي حنيفة؟ قال: ليس كل ما يقول الناس يصيبون فيه، كنّا نأتيه زماناً ونحن لا نعرفه، فلما عرفناه تركناه[١].

ولقد جمع ابن عبد البر بعضاً من أقوال المادحين والطاعنين أخذنا منها ما تقدم وسواها كثير بإمكان القارىء الرجوع إليها في الانتقاء، في مظانّها الأخرى كالخطيب البغدادي الذي طعن علماء الحنفية فيما أورده، ونسبوه إلى التعصب الأعمى، وأجابوا عما ذكره، وألفوا في (تأنيب الخطيب على ما ساقه في ترجمة أبي حنيفة من الأكاذيب). على أن أعظم الأقوال تأثيراً ما ضمّته مصنّفات أصحاب الصحاح والسنن والتي تتخذ مستمسكاً وأصلاً يعملان في النفوس والأذهان، فكان ما ذكره النسائي عن أبي حنيفة من أكبر ما يرفع في الحملة ضد أبي حنيفة حيث قال: وقال لنا أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب: وأبو حنيفة ليس بالقوي في الحديث، وهو كثير الغلط والخطأ على قلة روايته. ثم يصنّفُ أصحابه إلى ضعفاء وثقات[٢] فتضم هذه الأقوال إلى بعضها، وتكون مادة للطاعنين.

وصفوة القول، أن دراسة حياة أئمة المذاهب تقتضي التوقف كثيراً عن ركامات ما أنتجته العاطفة وما أفرزه التعصب، وكما أسلفنا فليس من سبل الحق وطرق الأمانة الاعتماد على ذلك، إذ لا يجني أحد إلا أموراً لا تمتّ إلى الحقيقة، ولا صلة لها بالواقع. وهي تسيىء أكثر مما تنفع، وتضعّف أكثر مما تعضد، والطرفان في غنى عن ذلك لو أخلصوا في المأخذ، واتخذوا من خصائص الرجال ومكانات أئمة المذاهب مادة لا يتعدّوها إلى نزغات التعصب أو التحامل الفظّ. فمن محبٍ مغالٍ يفتح أبواب

---

(١) الانتقاء لابن عبد البر ص١٥١. والخيرات الحسان ص٧٦.

(٢) كتاب الضعفاء والمتروكين ص١٢٤.

الخيال ويتخلّى عن الواقع فيسمح لنفسه بإشراك الجن أو المخلوقات الأخرى التي تتخذ وسيلة إلٰهية في سياق رسالة نبي أو إظهار معجزة لولي بدونها قد يلحق بالشريعة أذى وقد يصيب دين الله الضرر، ومن متحامل ناقم يتخلى عن روابط العقيدة ويتناسى وشائج الدين، فيخرج هدفه من حظيرة الإسلام. أما المنامات فأمرها عجب، حيث لا يلتفت أحد من مستخدميها ـ مادح أو قادح ـ إلى سخف تعبيرها أو تدني تأليفها، فظلّت مادة متيسرة لا تكلف ثمناً، يتناولها ذوو الأغراض بيسر وسهولة، ويتلقاها الواقعون تحت تأثير مروّجيها وباعثيها بثقة واستسلام، وتصبح سلاحاً بيد العامة، فتهيج على سطح المجتمع لغة المنامات ومايلحق بها من ادعاءات وكرامات.

أما المصنّفات التي تشتمل على المناقب، فهي جمع لكل ما أشرنا إليه، وأخذ بكل ما راج وكثر، وهي كثيرة، ومع كثرتها فهي لا تهدي السبيل ولا تنير الطريق، إذ أنها ـ كما يقول الشيخ أبو زهرة ـ طوائف من الأخبار يسودها المبالغة، ولا يكاد يخلو خبر منها من الإغراق، فتمييز صحيحها من سقيمها يحتاج إلى مقاييس النقد المستقيمة، فأخبارها لا ترفض جملة ولا تؤخذجملة، إذ هي بلا شك فيها الحق والباطل، وأخذ الحق من بينها يحتاج إلى نظر فاحص[1].

لقد وجد بعض أتباع أبي حنيفة في حقيقة كونه فارسياً أمراً غير مرضٍ فحاولوا وضع نسب عربي فقالوا: إن ثابت هو ابن طاووس بن هرمز ملك بني شيبان.

وقالوا أيضاً: إنه من الأنصار، فهو النعمان بن ثابت بن زوطيا بن يحيىٰ بن رشاد الأنصاري.

أو أنه تيمي كوفي من رهط حمزة الزيات.

والمشهور من نسب أبي حنيفة أنه: النعمان بن ثابت بن زوطي بن ماه. ولد سنة ٨٠ هـ وتوفي سنة ١٥٠هـ.

والذين توقفوا عن التلاعب بحقيقة النسب قالوا: بأنه من نسل أفريدون ـ من ملوك العجم ـ ووضعوا لذلك حديث: لو كان العلم في الثريا لتناوله أبناء فارس، أو قوم من أبناء فارس، فخصّصوا عمومه في أبي حنيفة.

---

(١) أبو حنيفة ص٧.

وفي نهجنا هنا تجريد البحث عن حياة أبي حنيفة من زوائد فرضتها الميول والأغراض المتعددة، فقد غلبت على أكثر كتّاب حياة أبي حنيفة من أتباعه عاطفة قوية، وسيطر عليهم الاندفاع، حتى أنهم لم يترددوا في استخدام الأساطير والخرافات، فهو إمام الأئمة، وأعلم الأمة، وما من عالم من علماء الدنيا إلا وهو تحت ختمه، وما من فقيه إلا وهو عيال عليه، وأنه نودي من زاوية البيت الحرام: عرفت فأحسنت المعرفة، وخدمت فأخلصت الخدمة، غفرنا لك ولمن اتبعك ولمن كان على مذهبك إلى يوم القيامة(١).

وقد كنا هناك مضطرين إلى ذكر ما أوردوه من أحاديث عن النبي ﷺ ومناقشتها، وعندما وضعناها في ميزان الاعتبار، لم تحرّك كفة عن مستواها فضلاً عن ترجيحها، لأن الدوافع واضحة والأغراض جليّة، وهي ناجمة عن أوضاع سادت فيها الفرقة وتعرّضت شخصية أبي حنيفة إلى الانتقاد، فنالوا منه، ووصفوه بكل مكروه. وقدقطعت خطة تأسيس المذاهب شوطاً كبيراً على الساحة، وأخذت ترسي دعائمها، فتقتطع من أجزاء المجتمع وتسري في أحشائه، وينشأ جيل وآخر على مثل هذه العلاقات. وعبر كل المراحل تختبىء أغراض الحكام وراء كل جانب من جوانب العداء والفرقة، كما كانت أغراضهم وراء تصنيف الناس وتقسيم دينهم.

ولقد كانت الخصائص التي تجاهلها الكثيرون ولم يذكروها بحقائق أسمائها ودلالة وجودها في شخصية أبي حنيفة ومواقفه تمثّل مشكلة للمنصور الدوانيقي(٢) الذي عرف بعدائه للعلويين، وميل أبي حنيفة واتصاله بهم معروف، فتعارضت أغراض المنصور وأهدافه في إدناء أبي حنيفة، وتوجيه الأنظار إليه، ليقف بإزاء شخصية الإمام جعفر الصادق، إذ قال له المنصور: يا أبا حنيفة إن الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد، فهيىء له من المسائل الشداد(٣). تعارضت هذه الأغراض مع خصائص أبي حنيفة وسلوكه، حتى أنه عجز عن تحويله وإبعاده عن توجيه النقد اللاذع الذي كان شيئاً من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي لا يطبقه المنصور

---

(١) مفتاح السعادة ٢/ ٨٢. ومقدمة المناقب للخوارزمي.
(٢) الدوانيقي أو أبو الدوانيق من الألقاب والكنى التي أطلقت على المنصور لشحّه وبخله.
(٣) المناقب للموفق.

على أصوله، ولا يقوى على مواجهة أهله، الذين قلّ عددهم، وانزوت جموعهم تحت ضغط أفعال الحكّام وسياسة بني العباس. وهكذا ضاق المنصور بأبي حنيفة، وقرر الخلاص منه، وكان لا بدّ له من سبب ظاهري يأخذه به أمام الناس، فعرض عليه قضاء بغداد ثانية، ورفضه أبو حنيفة. ووصله بهدية أرسلها إليه، فردّها عليه، فحبسه وضيّق عليه، وجعل يضربه كل يوم عشرة أسواط، حتى ضرب عشرة ومائة سوطاً(١).

إن الأفكار وليدة التجارب، وللبيئة أثرها في توجيه سلوك الأفراد، وقد كانت لأبي حنيفة تجارب كثيرة، فقد ولد ونشأ في الكوفة، وهي البلدة العربية التي عرفت بنزعتها الثورية واتجاهها السياسي ضد الحكم الأموي وميلها للعلويين، وقد شبَّ أبو حنيفة في عهد الحجاج بن يوسف. فرأى قسوته واستبداده وسيرته السيئة وحكمه القاسي، ومعاملته للناس بما لا يطيقونه من الأذى والعسف، ومات الحجاج وعمر أبي حنيفة حينها خمسة عشر عاماً، وشاهد ولاة الأمويين يسيرون بالأمة بالجور، ويخالفون نظم الإسلام اتباعاً لملوكهم وطبقاً لرغباتهم.

وأصبحت الكوفة قاعدة الثورة ضد الظلم الأموي، ومركزاً تتجمع فيه القوات الموالية للعلويين والعباسيين معاً. أضف إلى ما احتفظت به الكوفة من نشاط فكري وصراع عقائدي أورثها مشاكل كثيرة، وأصبح مجتمعها مسرحاً للخلافات.

وفي عصر أبي حنيفة، نشطت الدعوة العلوية لوجود كتلة شيعية قوية أثّرت تأثيراً غالباً في الحركات الفكرية والسياسية، ومع أن الدعوة للثورة كانت مشتركة بين العلويين والعباسيين، فإن الدعاية العباسية كانت محدودة الأثر بالرغم من استغلال العباسيين لشعار الدعوة إلى آل محمد ﷺ وإقامة تنظيماتهم على هامش المناداة بالرضا من آل محمد، فتعاطف الناس معهم ودخلوا في صفوفهم وهم يظنّون بهم خيراً، وأنهم لا يختلفون عن الشيعة الذين كانوا يسعون بأخلاص إلى الانتصاف لآل بيت نبيهم الأطهار الذين ينطبق عليهم لفظ آل محمد، وأن الخلافة من أمور الدين، وهم أحق الناس بالقيام بأمر رسالة جدّهم المصطفى ﷺ.

وعندما نزلت بالأمة كارثة استشهاد سيد الشهداء الإمام أبي عبد الله

---

(١) انظر: مقدمة «العالم والمتعلم» للقلعجي وعبد الوهاب الندوي.

الحسين عليه السلام على أيدي يزيد، كابد الشيعة من نتائجها السياسية والنفسية أهوالاً وآلاماً دفعتهم إلى مواصلة الجهاد ضد الظلمة وتفجير الثورات، وكانت السلطة بتجبّرها وطغيانها لا تتورع عن سفك الدماء وإزهاق الأرواح وانتهاك الحرمات، والشيعة لا يكفّون عن التفاني وتقديم التضحيات. ولما قامت ثورة زيد بن علي، شاع بين الناس من جديد تيار ثورة الإمام الحسين، وانتشر بين صفوفهم نداء نهضة السبط الشهيد مرة أخرى. فكان أبو حنيفة من المتحمّسين لثورة زيد الشهيد، وقد مرّ بنا جانب من وجوه انحيازه إلى جانبه، وقد حثّ على الالتحاق بجيش إبراهيم، كما أفتى بالخروج مع الثوار من أهل البيت بعد أن بايعه[١].

وجاءت إليه امرأة فقالت له: إنك أفتيت ابني بالخروج مع إبراهيم فخرج فقتل. فقال لها: ليتني كنت مكان ابنك[٢].

وقال أبو إسحاق الفزاري: جئت إلى أبي حنفية فقلت له: ما أتقيت الله، أفتيت أخي بالخروج مع إبراهيم بن عبد الله حتى قتل؟!

فقال: قتل أخيك حيث قتل يعدل قتله يوم بدر، وشهادته مع إبراهيم خير له من الحياة[٣].

وغير ذلك من الإجابات والأقوال ـ كما ألمحنا إليه سابقاً ـ والتي تكشف انحيازه للثورة، وتعلّقه بقادتها إلى حدّ تتضح فيه ظروف إقامة أبي حنيفة في ظل المنصور الذي أقضت مضجعه تلك الثورة، وبقي كأنه يتقلب على ألسنة النيران أو يبيت على حسك السعدان، حتى اتّسخت ثيابه، وزرى مظهره، وهو يتلظّى يطلب رؤوس أهل البيت. وأبو حنيفة يكتب إلى إبراهيم يشير عليه أن يقصد الكوفة ويقول: إئتها سراً، فإن من ها هنا من شيعتكم يبيتون أبا جعفر فيقتلونه أو يأخذون برقبته فيأتونك به[٤]. ويجهّزه بأربعة آلاف درهم لم يكن عنده غيرها[٥] ويقول له: فإذا لقيت القوم وظفرت بهم فأفعل كما فعل أبوك في أهل صفين، أقتل مدبرهم،

---

(١) عمدة الطالب ص١٠٩.

(٢) مراقد المعارف ١/٩٧. وعمدة الطالب.

(٣) المقاتل ج٢ ص٧١٢.

(٤) المقاتل.

(٥) عمدة الطالب.

وأجهز على جريحهم. ولا تفعل كما فعل أبوك في أهل الجمل، فإن القوم لهم فئة[1] فلا يفرق بين دولة معاوية وبين دولة المنصور، مما يجعل تقدير خفاء وضعه على المنصور بعيداً. وهو الملك الذي عدّ من دهاة عصره، وقد أخّر تنفيذ حكمه إلى حين الانتهاء من الأوضاع المعقدة والظروف الشائكة التي يسببها له أهل البيت عليهم السلام سواء بمكاناتهم الدينية أو سلطانهم الروحي أو حركاتهم الثورية وتصدّيهم لظلمه بحد السيف. ومهما يكن الاختلاف وكثرة الأقوال عن الإسباب التي دعت المنصور إلى الحقد عليه، فمما لا شك فيه أن السبب الأساس الذي يعني السلطة هو صلة أبي حنيفة بالعلويين وميله إليهم. وقد مرّ بنا المزيد من ذلك بما لا زيادة عليه في رأينا[2].

ويبدو أن مدرسة أبي حنيفة ـ برغم وجوده حياً ـ كانت تتأثر بالسلطة، يتتلمذ الأصحاب على إمامهم في العلم والفقه، وينفتحون على الحكام والساسة في المواقف والسلوك. وقد رأينا مدى التحوّل في خط أبي يوسف. أما زفر بن الهذيل فيقول: كان أبو حنيفة يجهر في أمر إبراهيم جهراً شديداً، ويفتي الناس بالخروج معه. فقلت له: والله ما أنت بمنة عن هذا حتى نؤتى، فتوضع في أعناقنا الحبال[3].

وفي الجملة، فإن موقف امتناعه عن تقلّد القضاء من أهم شواهد السلوك الذي تميز بها أبو حنيفة، وهو يشتمل على دلالات لم تغب عن بال المنصور. لأن الرفض يفسد خطة المنصور السياسية التي وضعها لمواجهة نفوذ أهل البيت عليهم السلام ولذلك فإن فكرة المذاهب الرسمية أو السلطوية لم تلصق بأبي حنيفة، إذ أعاقها رفضه وامتناعه، وإنما ترتبط بأعمدة مدرسته. كذلك فإن امتناع أبي حنيفة عن تولي القضاء يعني منع التعاون معهم وحجب التأييد عنهم، وما يحمل ذلك على أنه يرى عدم صحة إمامة المنصور فلا يجوز تولي القضاء لهم. وكيف لا يعتقد ذلك منه، وقد تأثر بأساتذته من سادة أهل البيت، حيث حضر عند الإمام الباقر عليه السلام المتوفى ١١٤هـ زيد الشهيد عليه السلام المتوفى سنة ١٢٢هـ والإمام الصادق عليه السلام المتوفى سنة ١٤٨هـ.

---

(١) مراقد المعارف. والمقاتل. والعمدة.

(٢) انظر ج١ من الكتاب.

(٣) المقاتل.

وحقيقة الأمر أن جلّ ما تشير إليه أخباره في هذا المقام يبين منه أنه كان قلبه مع العلويين في خروجهم أولاً على الأمويين، ثم في خروجهم ثانياً على العباسيين، وكان لا يرى لبني أمية على أي حال حقاً ولا سلطاناً من الشرع أو الدين، ولكنه لا يحمل السيف، ولا يثور، لاعتبارات لها مقامها[1].

ويبدو أن ذلك كان مشهوراً منه منذ عهد الأمويين، فتوحّدت وسيلة الإيقاع به من قبل النظامين، واتّخذ القضاء محكاً لأنه منصب ديني وسلطة تشريعية تسند إلى من يتميّز بالعلم والمكانة الدينية، فضلاً عن أن توليها يعني التحاق صاحبها بالملوك والحكام، وقد ألمحنا إلى محنته مع ابن هبيرة والي الأمويين حتى لتكاد تتساوى العقوبة كأنها تصدر عن والٍ واحد، وليس ذلك بغريب لأن التهمة واحدة. يروي الحسن بن زياد ـ صاحب أبي حنيفة ـ عن أبي حنيفة قال: كان بنو أمية يطلبون الفقهاء للإفتاء، فدعاني واحد منهم وكان أول ما دعيت، وعن يمينه وشماله ابن أبي ليلى وابن شبرمة، فقال لأحدهما: ما تقول في امرأة زوّجت نفسها في عدّتها؟ قال: تفرق وتضرب ضرب النكال، والمهر في بيت المال. وقال الآخر مثل ذلك. فقال: يا نعمان، ما تقول أنت؟ فاسترجعت وقلت: هذا أول ما دعيت، كيف لا أقول ما أدين به، وقولي فيها قول علي رضي الله عنه، وبنو أمية لا يذكر عندهم علي ولا يفتون برأيه، فقلت: أصلحك الله، اختلف فيها بدريّان من أصحابه ﷺ فقال عمر رضي الله عنه بما قالا، وقال الآخر تفرق، وتتم عدة الأول وعليها عدة مستأنفة من الثاني إذ دخل بها، وعليه المهر بما استحل من فرجها، ولا يجعل في بيت المال. قال: من قال هذا؟ قلت: علي بن أبي طالب رضي الله عنه. قالوا: أبو تراب؟ قلت نعم. فنكس رأسه وقال لأشبه القولين بالحديث... اهـ. وفي أخرى زيادة قال (ابن هبيرة) بأي القولين تأخذ أنت؟ قال: قلت: عمر عندي أفضل من علي، لكن برأي علي آخذ.

وجلي أن أبا حنيفة إضافة إلى ما صرح به من خشيته جانب الحاكم الأموي. وتدرّجه في الإجابة الحذِرَة، فإنما بادر إلى تقديم ذكر الأفضلية لتهدئة نفس الحاكم، ومن ثم التحوّل إلى الرأي. حكى أن الكردري يعقبه بالقول: وإنما ذكر حديث

(١) أبو حنيفة لأبي زهرة ص٣١.

الأفضلية ـ وإن لم يكن له دخل في المقصود ـ لئلا يتهم بالرفض أو الاعتزال، وكان بنو أمية لا يذكر عندهم عليّ، وكل من ذكره عندهم عاقبوه. وكانت العلامة فيه أن يقولوا: قال الشيخ كذا، وكان الحسن البصري إذا ذكره قال: قال أبو زينب كذا[١].

ومن المعروف عن رأي أبي حنيفة أنه: ما قاتل أحد علياً، إلا وعليّ أولى بالحق منه. عن الحسين بن زياد قال: سمعت أبا حنيفة يقول: لا شك أن أمير المؤمنين علياً إنما قاتل طلحة والزبير بعد أن بايعاه وخالفاه. وفي رواية أنه قال: وهو (الإمام علي) علّم المسلمين السنّة في قتال أهل البغي[٢].

كما أنه كان يروي عن أسانيده، ويبدو لعلّة لا تعدو الحكام والإشفاق منهم، وكأنه يهرب من بلائهم، فيروي عن حمّاد قال: قال إبراهيم: عليٌّ أحبُّ إلينا من عثمان[٣] ومعلوم علاقة حمّاد وإبراهيم ودورهما في تكوين مكانة أبي حنيفة والصلة التي تجمعهم.

وقد حضر أبو حنيفة عند علماء الشيعة، وأخذ عنهم العلم، وروى أحاديثهم، نذكر منهم على سبيل الإشارة لا الاستقصاء:

جابر بن يزيد بن الحارث الجعفي المتوفى سنة ١٢٨هـ.

حبيب ابن أبي ثابت أبو يحيى بن قيس الكوفي المتوفى سنة ١١٩هـ.

فحول بن راشد، أبو راشد النهدي المتوفى ١٤١هـ

عطية بن سعد العوفي المتوفى سنة ١١١هـ

أجلح الكندي، وقيل اسمه يحيى بن عبد الله، ولقبه الأجلح المتوفى سنة ١٤٥هـ. إسماعيل بن أبي عبد الرحمن بن أبي كريمة المتوفى سنة ١٢٧هـ.

المنهال بن عمر الكوفي التابعي.

عدي بن ثابت الأنصاري الكوفي المتوفى سنة ١١٩هـ.

زبيد بن الحارث الأيامي المتوفى سنة ١٢٢هـ

---

(١) المناقب ١/١٧٣.

(٢) المناقب للموفق ٢/ ٨٤.

(٣) المصدر السابق.

وغيرهم من رجال الحديث، وقد خرّج أحاديثهم كبار المحدّثين، وضمّت كتب الرجال تراجمهم وأسماء من حضر عندهم من العلماء[١].

وفــاتــه:

توفي أبو حنيفة سنة ١٥٠هـ ببغداد، ودفن بالجانب الشرقي بمقبرة الخيزران، وفيها قبر محمد بن إسحاق صاحب السيرة (وكانت قبلاً مقبرة للمجوس تسمى أيضاً الحضرية)[٢].

وفي سبب وفاته ثلاث روايات:

الأولى: أن أبا حنيفة بقي في السجن مضيّقاً عليه إلى أن وافته المنية.

والثانية: أن المنصور أخرجه من السجن، وفرض عليه الإقامة الجبرية في المدينة، ومنعه من الاتصال بالناس إلى أن توفي.

والثالثة: أن المنصور دسَّ له السم.

وجميعها تدين الحكام بموته، لإن ذنبه في نظر المنصور لا يغتفر.

أولاده وأحفاده:

لم يكن لأبي حنيفة عقب مشهور أو ذرية واسعة. أما الشهرة بكنيته (أبي حنيفة) فليست قائمة على اسم لبنت له، فليس له بنت تسمى حنيفة، وإنما كنّي بأبي حنيفة لملازمته لدواة على هيئة خاصة وتعرف بحنيفة، فهو دائماً يستصحب تلك الدواة ذات الشكل المستطيل الذي يجلب انتباه الناظر إليه.

ولم نعثر على ولد له غير حمّاد.

وكان حمّاد قد تفقه على يد أبيه، وولّي قضاء الكوفة بعد القاسم بن معين تلميذ أبي حنيفة.

---

(١) انظر الخلاصة للخزرجي. وميزان الاعتدال للذهبي. ولسان الميزان لابن حجر. وهداية الباري لشرح صحيح البخاري وغيرها.

(٢) تاريخ جامع الإمام الأعظم للشيخ هاشم الأعظمي ص٢١.

قال الذهبي: حمّاد بن أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي ضعّفه ابن عدي وغيره من قبل حفظه، وتوفي سنة ست وسبعين ومائة.

وكان لحمّاد بن أبي حنيفة ولد يسمى إسماعيل، روى عن أبيه عن جده أبي حنيفة.

قال ابن عدي: ثلاثتهم ضعفاء.

وقد ولّي قضاء الرصافة وقضاء البصرة، وكان عارفاً بالقضاء، ومات سنة ٢١٢ وهو شاب وقد تفقه على يد أبي يوسف. ولم نعثر على شيء له يعتبر.

قبره:

أما قبره فكان أول رواق بني عليه سنة ٣٧٩هـ ويروى أنه في سنة ست وثلاثين وأربعمائة وضع أساس مسجد بالكلس والنورة في موضع ضريحه، وكان المنفق عليه تركي قدم حاجاً.

ويذكر ابن خلكان أن شرف الدين الملك أبو سعد محمد بن منصور الخوارزمي مستوفي مملكة السلطان ملك شاه السلجوقي بنى على قبر أبي حنيفة مشهداً أو قبة نيابة عن الملوك السلاجقة، وبنى عنده مدرسة كبيرة للحنفية، ولما فرغ من عمارة ذلك، ركب إليها في جماعة من الأعيان ليشاهدوها[(١)]. ويقول ابن الجوزي: وان حنفياً متعصباً. وكان ذلك سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة، فهدم جميع الأبنية التي في المسجد وما يحيط بالقبر وبنى القبة، وقد جاء بالقطّاعين والمهندسين، وقدّر لها ألوف، وابتاع دوراً من جوار القبر، وحفر أساس القبة، وكانوا يطلبون الأرض الصلبة، فلم يبلغوا إليها إلا بعد حفر سبعة عشر ذراعاً، في ستة عشر ذراعاً فخرج من الحفر عظام الأموات الذين كانوا يطلبون جوار النعمان[(٢)].

وقد تكوّنت حوله محلة عرفت بمحلة أبي حنيفة، واسم الأعظمية حادث. وعني الأتراك عناية فائقة بالقبر وصاحبه، وبذلوا جهداً كبيراً في إعلاء شأن

---

(١) وفيات الأعيان ج٥ ص٤٦.

(٢) انظر: المنتظم ج٨ ص٢٤٥ و٢٤٦.

المذهب. فلما احتل السلطان سليمان القانوني بغداد سنة إحدى وأربعون وتسعمائة هجرية أقام مسجد الإمام الأعظم ومشهده، وباشر بإصلاح ما تهدّم من قبره أيام الفرس، وبنى عليه قبة ومدرسة، وعمّر في أطرافها قلعة واتخذها جامعاً ودار ضيافة وحماماً وخاناً، وعيّن للقلعة محافظاً وجنّد لحراستها مائة وخمسين، ووضع فيها معدات كافية. كما بنى مسناة في الأعظمية لحفظها من الفيضان.

وإضافة إلى قيام الأتراك بتشييد مرقد أبي حنيفة واهتمامهم بأمره، فقد أعلنوا اتخاذ مذهبه مذهباً رسمياً، وأصبحوا يُرجعون الناس إليه، ويُلزمون الأمة باتباعه، حتى وازى وجود المذهب ومناطق انتشاره حدود ونفوذ العثمانيين ومناطق احتلالهم، وسبب ذلك أنهم وجدوا في عدم اشتراط القرشية في الخلافة عند أبي حنيفة مقوّماً لاستيلائهم وتحكمهم برقاب المسلمين، فاحتل أبو حنيفة المكانة السامية في نفوس العثمانيين، وتعلقت به أفئدة العائلة الحاكمة. فنجد أم السلطان عبد العزيز السيدة الصالحة تنذر في مرضها إن شفاها الله عز وجل لتشيدنّ مسجد الإمام الأعظم مجدداً[1].

كما كان الحنفية أنصاراً للأتراك واتباعاً للباب العالي، ففي مصر وجد منهم نصيراً قوياً أطلق يده في حكم وادي النيل وفي تقرير مصيره، وكان من نتيجة تفضيل السلطات الرسمية لأتباع المذهب الحنفي أن تحوّل إليه كثير من أتباع المذاهب الأخرى[2].

أحمد بن حنبل ١٦٤ ـ ٢٤١ هـ

ونعاود الحديث عن أحمد بن حنبل، وقد رأينا بحث بعض جوانب شخصيته في هذا الجزء لتقدم الإشارة إليه في بدء الجزء السابع، ونرجو أن لا يعدّ ذلك خروجاً على قواعد الأفضلية أو الرتبة الزمنية، فأنا لا نراها كانت في يوم مناط إجماع أو إلزام في غيره أو في شخصه. كما إن تقديمه لا يعني خلاف ذلك؟

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم.
(٢) دائرة المعارف الإسلامية/ مادة الأزهر.

ونتبع منهجنا التحليلي في نهاية البحث لنكمل ما سلف من إشارة عنه وعن الحنابلة، ونبدأ ببعض المعلومات والصور عنه.

وقد مرّ بنا شيء من هياج الحنابلة الذين تجاوزوا القصد وألحقوا بالمسلمين الآخرين البلاء، ونرغب عن الخوض في عوامل اتخاذ العامة للحنبلية شعاراً يوحي بالعناد والتزمّت والأذى. ونعمل على سوق الأحداث والاتجاه إلى دراسة شخصية الإمام أحمد في عناصرها الأساسية، ولا نفيض في البحث بأكثر مما يقتضيه الغرض.

وأحمد بن حنبل في مكانته وشهرته، هو نتاج مشكلة (خلق القرآن) وهي المشكلة التي اتخذها المأمون وسيلة لإقامة سلطانه حسب ميوله الفكرية وتكوينه المتأثر بروح العصر، ليواجه ما توارثته العقول واستقر في الأذهان على أنماط الحكّام وطرق الموجهين ولكن بأساليب قمعية كان ضحيتها الفكر وروح التحرر قبل أن يضحّى بسببها بأي شيء آخر. ولأن الإمام أحمد كان رجل المحنة، وتعرّض إلى الأذى الجسدي والنفسي، وتجرّع آلام السجن؛ اتصلت به عواطف الناس وتعلقت به مشاعرهم، بعد أن وجدوا أنفسهم معرّضين إلى السخط، وقد اضطرب كيانهم، واهتزت شبكة معتقداتهم التي وجدوا عليها آباءهم وألفُوها عبر عشرات السنين متعارف عليها بين أوساط الحكّام والخطباء والمتنفذين.

وبدءاً نقول: إن نتائج المحنة تركت آثاراً قوية لفّت كل جوانب حياة أحمد بن حنبل، وأدت في كثير من الأحيان إلى الغموض أو التعارض ليتحاشى ما يشبه الهاجس في الداخل.

ولنرافق أحمد بن حنبل في ترجمته فهو:

أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني المروزي، كان جده حنبلاً والياً من قِبل الأمويين على سرخس، ويقال: إنه دخل بعد ذلك في سلك الدعوة العباسية، فكان من دعاتها المبرّزين، وبذلك فإن الإمام أحمد ينسب إلى جده حنبل، وقد يكون ذلك لوفاة أبيه ونشوئه في ظل جده أو عمه.

وقد وقع الاختلاف في موت محمد والد أحمد، هل مات في مرو، أو أنه نزح

إلى بغداد مع زوجته والدة أحمد وهي: صفية بنت عبد الملك بن سوادة بن هند الشيباني، ونقل عن أحمد ما يؤيد القول الأول، وأنه قال: قدم أبي من خراسان وأنا حمل، وولدت هٰهنا ـ ببغداد ـ ولم أرَ جدّي ولا أبي، ولا تزوجت إلا بعد الأربعين(١).

نشأ أحمد في بغداد، واتجه لطلب العلم، وحضر عند علمائها. وله رحلات متعددة، واتصل بالشافعي محمد بن إدريس، وحضر عنده كما حضر عند أبي يوسف، فكتب فقه أهل الرأي(٢).

وروي عنه أنه قال: أول ما طلبت الحديث ذهبت إلى أبي يوسف القاضي، ثم طلبنا بعده فكتبنا عن الناس. ثم قال: أول من كتبت عنه الحديث أبو يوسف، وأنا لا أحدّث عنه(٣).

وذلك أنه رأى أبا حنيفة وأتباعه يقدّمون الرأي(٤) وأقبل أحمد على الحديث حتى عُدّ من المحدّثين لا الفقهاء، وهذا ما آثار غضب الحنابلة على الطبري وغيره من الذين قالوا بهذا الرأي.

وقد مرّ الحديث عن حياة الإمام أحمد منذ نشأته، ورافقناه في محنته، تلك المحنة التي هبّت عواصفها السياسية والعقائدية، فأحدثت انقساماً في صفوف المسلمين، وذلك عندما أعلن المأمون سنة ٢١٨هـ وجوب الاعتقاد بخلق القرآن، وأنه حادث غير قديم كما يراه المعتزلة وغيرهم، وقد فرض المأمون القول بخلق القرآن بالقوة، وعقد مجلساً للامتحان كما اختار جماعة من الجلاّدين الجفاة الذين مرنوا على الضرب بالسياط.

وقد امتحن جماعة من العلماء، فامتنع بعض وأقرّ آخرون.

وقد أوجدت هذه المحنة مشكلة كلامية تحتاج إلى دراسة واسعة في علم

---

(١) طبقات الحنابلة ١: ٦٣.

(٢) المدخل إلى فقه الإمام أحمد ص٣٨.

(٣) أحمد بن حنبل لسيد الأهل ص٣٦.

(٤) نفس المصدر.

الكلام، وبيان المراد من الكلام النفساني وتعلقه بالذات، وقد تناولتها الأقلام قديماً وحديثاً، وربما وقع وهم من بعض من تعرّض لهذه المسألة تاريخياً فسار وراء ظواهر الأقوال، وعبّر عن الخلق بالمعنى اللغوي وهو الكذب، فيقال إنه مخلوق أي مكذوب.

وكان الخليل بن أحمد يمنع أن يوصف الكلام بالمخلوق، ويقول: إن الكلام متى أطلق عليه الخلق فالقصد الكذب، ولهذا يقال: كلام خلقه فلان أي تقوّلهُ. وكان ذلك من رأي الشيعة كما تقدم في أول الكتاب.

وقد ورد في كثير من أقوال العرب: اختلق كذا أي كَذَبَ فيه. وسئل بعض الفقهاء في المحنة فقال: أصفه بأنه محدث، ولا أقول إنه مخلوق لقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ فمعنى أنه مخلوق وهو غير منزل. وبهذا أخذ العوام في إثارة البغضاء وإيقاد نار الفتنة ونشر الدعاية ضد المعتزلة بأنهم يذهبون إلى خلق القرآن أي إلى عدم كونه منزلاً من الله تعالى، واتسعت شقة الخلاف، وحدث في صفوف الأمة الانقسام. وكان الإمام أحمد قد امتحن وثبت، فاجتاز المحنة عندما اعتلى الحكم المتوكل العباسي، فكان انتصاراً لأحمد ولمن اتصل به، وبخروجه باتت المحنة تشمل العامة، فاحتفلت بالانتصار بعواطف هيّاجة ونقمة عارمة طافت على سطحها وركبت موجها وجوه تضررت مصالحها وتضاءلت مكانتها، فاندفعت بكل ما أوتيت من قدرات إلى تمجيد المتوكل وتعظيمه، واتبعهم على ذلك بإخلاص أخلافهم.

قال ابن الجوزي: أطفأ المتوكل نيران البدعة، وأوقد مصابيح السنة، وقد قال من سبقوه: الخلفاء ثلاثة أبو بكر الصديق قاتل أهل الردّة حتى استجابوا له، وعمر بن العزيز ردّ مظالم بني أمية، والمتوكل محا البدع وأظهر السُنّة. كما خلقوا له مناقب وأطيافاً، ورفعوا شعار العدالة باسمه وهو أظلم خليفة من بني العباس، فأسدلوا على ظلمه ستار المدح الزائف، وجعلوا سيئاته حسنات، وأخذ القصّاصون بنشر الأطياف بحقه حياً وميتاً.

أما الإمام أحمد، فإنه أصبح إمام السنّة وبطل الإسلام، وأنه ما قام أحد بأمر الإسلام كما قام به أحمد.

وقالوا: أحمد بن حنبل إمام، ومن لا يرضى بإمامته فهو مبتدع ضال.

وقالوا: أحمد بن حنبل إمام المسلمين وسيد المؤمنين، وبه نحيا ونموت، وبه نبعث. فمن قال غير هذا فهو من الجاهلين[1].

وجعلوا بغضه كفر، وحبّه من السنّة.

وقالوا: إذا رأيت الرجل يحب أحمد بن حنبل، فأعلم أنه صاحب سنّة وجماعة[2].

وأسندوا إلى الشافعي أنه قال: من أبغض أحمد بن حنبل فهو كافر. فقيل له: تطلق عليه اسم الكفر بالله العظيم؟ فقال: نعم، من أبغض أحمد بن حنبل قَصَد الصحابة، ومن قَصَدَ الصحابة أبغض النبي، ومن أبغض النبي كفر بالله العظيم[3]. فيكون الناتج من هذه القضية، أن من أبغض أحمد بن حنبل كفر بالله العظيم. وهذا غريب من الشافعي، إذ يعتمد على نتيجة مقدمة كاذبة.

* * *

وقد رأينا فيما تقدم من بيان الإغراق في المدح من قبل أتباع أئمة المذاهب ما خرجوا به عن طريق المعقول وتجاوزوا فيه حدود المنطق. على أن جولة الحنابلة في عصر التطاحن المذهبي، خلقت كثيراً من الأمور المناقضة للحقيقة والمخالفة لما يقتضيه واقع الإمام أحمد وسيرته، فقد اندفعوا بصورة واسعة إلى خلق مشاكل في المجتمع، وأرهبوا الناس، واضطرب حبل الأمن من جرّاء نشاطاتهم حول نشر مذهبهم مما لا ربط له بإمامهم.

وفي عصر المتوكل كان نشاطهم سياسياً أكثر من أن يكون عقائدياً، وقد شدّ المتوكل أزرهم، وأخبر المتوكل بعد موت أحمد أن الحنابلة يكون بينهم وبين أهل البدع (وهم غيرهم من الطوائف) الشر، فقال لصاحب الخبر: لا ترفع إليّ من أخبارهم، وشدّ على أيديهم فإنهم وصاحبهم من سادة أمة محمد.

واستغل الحنابلة هذه الفرصة، فراحوا في ذلك الودّ يتنفّسون حرية الكلام

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ج١ ص١٣٦.

(٢) الجرح والتعديل ج١ ص٣٠٨.

(٣) طبقات الحنابلة ج١ ص١٣.

وحرية الانتقام من خصومهم أيام المحنة، فلم يسلكوا طريقة أحمد في حياته في الصفح والتجاوز، لأنهم خضعوا لأناس آخرين كان نفعهم في الأذى ومصلحتهم في الأضرار، ومنه من رأى في التحول على يد المتوكل والعودة إلى ما كان عليه الأمر قبل المأمون فرصة تسمح لهم بأن يفعلوا بالآخرين ما فعله المأمون، وهكذا تنتهي محنة لتبدأ أخرى.

وقد أخذ المتوكل بإضفاء الطابع الحنبلي على حكمه من خلال قوله وإذاعته المسائل التي يتميز بها أحمد، فقسّم الجوائز على فقهاء ومحدّثين، وأجرى عليهم الأرزاق، وأشخصهم، وكان فيهم مصعب الزبيري، وإسحاق بن أبي إسرائيل، وإبراهيم بن عبد الله الهروي، وعبد الله وعثمان ابنا أبي شيبة. وأمرهم المتوكل أن يجلسوا للناس، وأن يحدّثوا بالأحاديث التي فيها الرد على المعتزلة والجهمية، وأن يحدّثوا في الرؤية[1]. وهي الأمور التي اشتغل بها أحمد، وأثرت عنه رسالة اشتملت على أرائه ومعتقداته في البدعة والسنّة والرؤية وإجابات ضمّنها أقواله، أشرنا إليها فيما مضى.

ويبدو أن المتوكل أراد أن يستكمل خطته في تبنّي المذهب الحنبلي، فعزم على استقدام أحمد بن حنبل إلى مقرّ ملكه في سامراء. وهي وإن لم تكن على طريقة أسلافه، لأن عمله وميله إلى أحمد بن حنبل تتداخل فيه عوامل كثيرة، هي مزيج من مشاعر وأهواء وأغراض. إلا أن أحمد نفسه كان غير مستعد لمثل هذا العمل، فهو يتردد أو يحذر من مخالفة الحكام لسبب لا يتفق مع الأسباب التي يدعو إليها أصحاب مبدأ مقاطعة سلطان الظلمة، إذ هو يدعو إلى إطاعة «الإمام» البر والفاجر مما يجعله بعيداً عن أصحاب الدعوة إلى الثورة على الظلمة، ويحصر القضية في أمور هي من أكبر عوامل الظلم والجور، ولكنه لا يُقرّ بها أسباباً للثورة أو الخروج على حكم المتسلطين.

كان إسحاق بن إبراهيم من كبار رجال الدعوة العباسية، فأمره المتوكل بإشخاص أحمد بن حنبل من بغداد إلى سامراء بعد انتهاء المحنة، فأخبره إسحاق

---

(١) مناقب أحمد لابن الجوزي ص٣٥٧.

بذلك، ثم قال لأحمد: أسألك عن القرآن مسألة مسترشد لا مسألة امتحان، وليكن ذلك عندك مستوراً، ما تقول في القرآن؟ قال أحمد: القرآن كلام الله غير مخلوق.

قال إسحاق: من أين قلت: غير مخلوق؟

فأجاب أحمد: إن الله عز وجل يقول: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ ففرّق بين الخلق والأمر.

فقال: الأمر مخلوق؟

فقال أحمد: يا سبحان الله، أمخلوق يخلق مخلوقاً؟!

قال إسحاق: وعمن تحكي أنه غير مخلوق؟

قال أحمد: جعفر بن محمد الصادق قال: ليس بخالق ولا مخلوق. فسكت إسحاق[1].

وهذا يدلنا على شدة التكتّم في المسألة، وعدم الخوض في شيء من ذلك، لأنه يؤدي إلى مخالفة رأي السلطة. وهذا الرجل أي إسحاق هو من رجال الدولة يسأل مسترشداً أو يطلب ستر ذلك، لأن إظهاره يجرّه إلى نكال المؤاخذة.

ومهما يكن من أمر، فقد سكت إسحاق مقتنعاً بظاهر القول ودلالة اللفظ. والغرض أن المسألة هي من المسائل العلميّة الهامة، وهي على جانب كبير من الخطر، فلم يكن هناك مجال لعرض الآراء واستماع الحجج وإقامة البرهان من كلا الطرفين، وبهذا أصبح الأمر فوضى، فقد استساغ المعتزلة حمل خصومهم على الاعتقاد بالقوة، ولهذا باءت سياستهم بالخيبة والخذلان، وانتصرت عليهم قوى العامة التي آثرت التمسك بالسنن والآثار، وترك الخوض في علم الكلام، وتحكيم العقل. وقامت هناك عاطفة دينية تدعوا إلى صيانة كتاب الله عن الطعن فيه، أو عدم نزوله. كما حرّفوا مدلول المسألة.

وفي مواجهة المشكلة، كان أحمد يرى أن الخوض في قضية خلق القرآن لم تكن مطروقة وليست من السنة، حتى أنه كان يطالب مناظريه بشيء من السنة فيما

---

(١) ابن الجوزي، مناقب أحمد ص٣٥٩.

يدعونه إليه. ولا ننكر أن دافع الحرص على قدسية النص كان وراء موقف أحمد وإجاباته، غير أن الإمام أحمد بالغ في انتهاج النصيّة والاعتماد على السلف إلى حدّ ألغى فيه فرص التحاور وإمكانية المناظرة، وأدى به أصراره إلى تحاشي الرأي كلياً، حتى لكأنه حاول أن يجعل نفسه بعيداً عن الأحداث ولا يقرّ بتحولات الظروف وتطورات الوقائع التي وضع الاجتهاد لمعالجتها وهدي الأمة بالاستنباط من الأصول، وإرشادها باستخراج الأحكام من النصوص، حتى يجد المسلمون في كتاب الله وسنّة نبيّه مصدراً يسع كل ما يجدّ من أحداث، وينطوي على كل ما يقع من الوقائع.

لقد غلب على الإمام أحمد التقيّد بالنص والاتباع والتقليد، ولم يَدَعْ مجالاً للرأي، وكان يتحرّى المسائل على ما سمعه وروي له، ويحذر من إجالة الرأي أو التقدير، ولا يجيب إلا في مسألة وقعت. فإن كان احتمالاً أو توقّعاً امتنع، ولا يحفل إن كان ذلك على أشباه الوقائع القريبة، أو بعيداً عنها.

وعلى يديه وضعت مبادىء ما عرف عن ابن تيمية وابن قيّم الجوزية من تعنّت وتزمّت. ويثير قولنا هذا ـ السلفية والوهابية ـ ولا شك، لأنهم أخذوا ما رآه الإمام أحمد وقاية وتحصناً. وجعلوه أساساً لمنطقهم القائم على الإفهام بالابتداع، واستسهال إطلاق الكفر على غيرهم، فيما تركوا الكثير من أقوال الإمام أحمد التي تأتي مرادفة للنصوص التي احتوت أصول أفكارهم، منها: أن الرجل لا يخرجه من الإسلام إلا الشرك العظيم، أو ردّ فريضة جاحداً لها فيما أخذوا معتمداً لهم وأصلاً قوله: (فمن قال مخلوق فهو كافر بالله العظيم، ومن لم يكفرّه فهو كافر) فاستسهلوا تكفير غيرهم. ومنهجه في غلق أبواب النقاش توقّياً وحذراً بقوله: (ولا يقال لِمَ ولا كيف) لأن الأمور التي تبحث العقول عن حقيقتها في ظل ظروف المحنة يراها ليست من السنن، والكلام فيها مكروه، بل منهي عنه: (لا يكون صاحبه ـ وإن أصاب بكلامه السنّة ـ من أهل السنة حتى يدع الجدال ويسلّم ويؤمن بالآثار) فجعلوا ذلك مسوّغاً لجمودهم وانغلاقهم.

وخلاصة القول: إنه تمسّك بالأثر دون تمحيص، واعتمد على السلف، وحكم بأن من يخالف شيئاً من هذه المذاهب أو طعن فيها أو عاب قائلها؛ فهو مبتدع خارج

عن الجماعة، زائل عن منهج السنة. واتجه هذا الاتجاه في حياته، وأخذ به، فتمسّك بحرفية النص وظاهره، ولا يسمح لنفسه تخريج أو تفسير أو جدل ينمّ عن تصدٍ للاجتهاد، أو تصدّر للإفتاء، ولا يتعدّى الأخذ بالأثر والجمود على النصوص والعمل بظاهرها. وقد نسب إليه ذلك في شعر وهو قوله:

يا طالب العلم صارم كل بطّال   وكلّ غادٍ إلى الأهواء ميّال
وأعمل بعلمك سرّاً أو علانية   ينفعك يوماً على حال من الحال
ولا تميلنّ يا هذا إلى بدعٍ   تضلّ أصحابها بالقيل والقال
خذ ما أتاك به ما جاء من أثرٍ   شبهاً بشبه وأمثالاً بأمثال
إلا فكن أثرياً خالصاً فَهِماً   تعش حميداً، ودع آراء ضلاّل

وقد اتجه إلى الحديث، فروي أنه كان يحفظ ألف ألف حديث، ويأخذ بالضعيف منها ويعلم به إذا لم يكن ما يعارضه، وأصبحت له خبرة بالحديث، وسعة اطلاع جعلت له منزلة بين المحدثين. وإذا صحّ ما كان يحفظه، فإنّا نميل إلى أن تكوينه النفسي قد طغت عليه ملكة الحفظ، وآنس في نفسه قوتها دون غيرها؟ وساعدت على ذلك اعتبارات الفترة ونتائج المحنة، ولذلك لم يكن له في حياته مدرسة فقهية، حتى أن ابن عبد البر لم يجعله مع مالك والشافعي وأبي حنيفة في كتابه (الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء) وأن عنوان الكتاب ينطوي على هذا القصد، ولا بد أن المالكية على هذا الرأي جميعهم، فإن القاضي عيّاض قال عنه: إنه دون الإمامة في الفقه، وجودة النظر في مأخذه.

وقد مرّ بنا ماذا فعل الحنابلة بابن جرير الطبري، فهو لم يعدّ مذهبه في الخلاف بين الفقهاء وقال: إنما هو رجل حديث. وعلى هذا الرأي غيره من الشافعية.

ومِنْ تَتَبُّع سيرة الإمام أحمد، يترجّح لدينا أنه لم يقصد إلى تأسيس مذهب خاص به، ولم يستجب إلى إغراءات السلطان. ولكن تلامذته قد أفرغوا تعاليمه وأقواله بعد موته في قوالب محدودة هي قواعد ومبادىء لفقه ينسب إلى الإمام أحمد، فتألفت جماعة فقهية كان رجالها أصحابه من ذوي الإحاطة، فكان نشوء المذهب الحنبلي. كما أن المسند كان من جمع ابنه وأصحابه. ويعتقد أحمد أن منحاه في التقيّد بالحرفية والظاهر هو المنهج الأقوم والطريقة المثلى، ويردّ بها على اتجاهات

الرأي وتيارات الجدل. ووضع بذلك المنحى مسوّغاً للاحتماء بالتقليد، ومبرراً للاتهام بالمروق. ولو قابل الاتجاهات والمدارس الفكرية التي نجمت عنها المسائل التي كره الخوض فيها وأنكر شيوعها، وأدت به إلى المحنة بطرق مماثلة تقابل الحجة بالحجة، وتعتمد الاستدلال والمنطق؛ لما استغلت أقواله ذلك الاستغلال الذي أطلق العامة من عقالها، فراحت تعرّض أمن الناس للخطر، وتنزل بهم الويلات، وتصف الناس بالكفر.

يقول الإمام أحمد: (الدين إنما هو كتاب الله عز وجل، وآثار وسنن وروايات صحاح عن الثقات بالأخبار الصحيحة المعروفة، يصدّق بعضها بعضاً حتى ينتهي ذلك إلى رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين وتابعي التابعين، ومن بعدهم الأئمة المعروفين المقتدى بهم، المتمسّكين بالسنة والمتعلقين بالآثار، لا يعرفون بدعة، ولا يطعن فيهم بكذب، ولا يرمون بخلاف، وليسوا بأصحاب قياس ولا رأي، لأن القياس في الدين باطل، والرأي مثله وأبطل منه، وأصحاب الرأي والقياس مبتدعة ضلاّل، إلا أن يكون في ذلك أثر عمّن سلف من الأئمة)(١).

وهو يرى نفسه دائماً متّبعاً، فلا يتحدث إلا بما أُخبر وحُدّث، ويدعو إلى الاتباع: (هذه مذاهب أهل العلم وأصحاب الأثر وأهل السنة والمتمسكين بعروقها المعروفين بها، المقتدى بهم فيها من لدن أصحاب النبي ﷺ إلى يومنا هذا، وأدركت من أدركت منْ علماء أهل الحجاز والشام وغيرهم عليها، فمن خالف شيئاً من هذه المذاهب أو طعن فيها أو أعاب قائلها، فهو مبتدع خارج من الجماعة، زائل عن منهج السنة وسبيل الحق)(٢).

أولاده:

ولد لأحمد بن حنبل عدة أولاد وهم صالح وعبد اللّه من أم، وحسن ومحمد وسعيد من جارية تسمى حُسْن، وولدت له بنتاً سمّاها زينب، وقبل ولدت له ولداً رابعاً سمّاه حسناً أيضاً:

---

(١) طبقات الحنابلة ج١ ص٣١.

(٢) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل لابن بدران ص٢٦.

صالح بن أحمد بن حنبل:

ولد سنة ٢٠٣هـ وتوفي سنة ٢٦٥هـ وهو أكبر أولاد أحمد، كان راوية لأبيه. وحدّث كثيراً عن سيرته وأحواله وتاريخ حياته، ويبدو على صالح رفضه لمسلك التقشّف الذي أخذ أبوه به، وعدم القناعة بموقف الانصراف عن الحكام في أمر المنح والعطايا التي توالت على أحمد في عهد المتوكل، حتى إنه كان يتصرّف في الأموال التي يتحرّج في أخذها بدون موافقة أبيه عندما يراه يمتنع أن يقدم منها إلى أحفاده[1].

وكذلك عندما صارحه أبوه في أن يدع الرزق الذي يأتي من المتوكل فلا يأخذه ولا يوكل فيه أحداً، فرفض ذلك. فقد كان معيلاً. وكان الإمام أحمد يدعو له. وكان الناس يكتبون إليه من خراسان ـ حيث موطنهم الأول ـ يسأل لهم أباه عن المسائل.

ولّي القضاء بأصبهان، كما ولّي القضاء بطرسوس. نقل إليها من أصفهان. قال صالح: كان أبي يبعث خلفي إذا جاءه رجل زاهد متقشّف لأنظر إليه، يحبّ أن أكون مثلهم، أو يراني مثلهم. ولكن الله يعلم ما دخلت في هذا الأمر إلا لدَيْن غلبني، وكثرة عيال[2].

حدّث عنه ابنه زهير، وروى عنه ابن أخيه محمد بن أحمد بن صالح، وأحمد بن سليمان النجار. وتوفي زهير سنة ٣٣٠هـ.

وأما أحمد بن صالح فقد روى عن جده أحمد حديث عائشة: كنت أغتسل أنا ورسول الله من إناء واحد.

ولأحمد بن صالح ولد اسمه محمد كان يروي عن عمه زهير، وروى عن أبيه قول عائشة كما ذكره، ورواه عنه الدارقطني وتوفي سنة ٣٣٠.

عبد الله بن أحمد بن حنبل:

ولد سنة ٢١٣هـ وتوفي سنة ٢٩٠هـ وكان أعلم أولاد أحمد وأكثرهم رواية عنه، وهو الذي جمع مسند أبيه، وزاد فيه كثيراً من الأحاديث التي لم يأخذها عن أبيه، ورواه عنه أبو بكر القطيعي وزاد فيه أيضاً، فالمسند يرويه عبد الله عن أبيه سماعاً،

---

(١) انظر البداية والنهاية ١٠ / ٣٣٨.

(٢) طبقات الحنابلة ١/ ١٧٤. وتهذيب تاريخ ابن عساكر ج٦ ص٣٦٤.

وقسم رواه عن غير أبيه وهو المسمى عند المحدثين بزوائد عبد الله، وقسم لم يسمعه من أبيه بل وجده بخطّه، وقسم رواه القطيعي عن غير عبد الله وأبيه.

وأول من سمعه منه: حنبل بن إسحاق بن حنبل ـ وهو ابن عم أحمد ـ وعبد الله بن أحمد، وصالح بن أحمد. قال ابن السماك: حدثنا حنبل بن إسحاق قال: جمعنا أحمد بن حنبل أنا وصالح وعبد الله، وقرأ علينا المسند، وما سمعه منه غيرنا(١).

وذكر الشيخ محمد أبو زهو في كتابه (الحديث والمحدّثون) أنه سمع المسند من الإمام أحمد أولاده الثلاثة: صالح وعبد الله وحنبل. ثم ذكر رواية ابن السماك (أو السبّاك) وهذا خطأ فإن حنبلاً لم يكن ولداً لأحمد، بل هو ولد عمه إسحاق كما ذكره ابن الجوزي وغيره، وجاء في ترجمته في طبقات الحنابلة، قال حنبل بن إسحاق: جمعنا عمي لي ولصالح ولعبد الله، وقرأ علينا المسند وما سمعه منه غيرنا(٢).

ونقل ابن الجوزي عن ابن السمّاك قال: حدثنا حنبل بن إسحاق قال: جمعنا أحمد بن حنبل، أنا وصالح وعبد الله، وقرأ علينا المسند وما سمعه منه غيرنا(٣).

فقول الشيخ أبو زهو أن حنبل من أولاد أحمد خطأ، وما هو بأول خطأ يرتكبه، وقد أشرنا لكتابه وأخطائه فيما سبق.

ومهما يكن من شيء، فإن عبد الله كان أشهر أولاد أحمد بن حنبل، وأكثر رواية عنه، وقد ولّي القضاء في خلافة المكتفي، وتوفي في جمادي الآخرة سنة ٢٩٠هـ. ولما مرض قيل له: أين تحب أن تدفن؟ فقال: صحّ عندي أن بالقطيعة نبياً مدفوناً، ولأن أكون بجوار نبيّ أحب إليّ من جوار أبي.

سعيد بن أحمد:

ولد سعيد قبل موت والده بنحو من خمسين يوماً، وتوفي سنة ٣٠٣هـ وقيل: بل توفي قبل هذا التاريخ بمدة طويلة في حياة أخيه عبد الله. وقد ولّي سعيد قضاء الكوفة، وأما بقية أولاد أحمد، فلا يعرف من أخبارهم شيء.

(١) مناقب أحمد ص١٩١.
(٢) الطبقات ج١ ص١٤٣.
(٣) المناقب ص١٩١.

وفاته:

توفي أحمد بن حنبل في ربيع الأول سنة ٢٤١هـ وقيل ١٢ منه، وصلى عليه الأمير محمد بن طاهر. ودفن بمقبرة باب حرب[١]. وقد وصفوا تشييعه بأنه ما كان في الجاهلية ولا في الإسلام جمع أكثر منه، وقد اشترك فيه النساء والرجال يتبادلون النوح والصراخ، وأعلن الحنابلة اللعنة على من خالفهم، وعلت الهتافات بلعن بُشر المريسي والكرابيسي. فسأل المتوكل عن الكرابيسي[٢] من هو؟ قالوا هو رجل أحدث قولاً لم يتقدمه أحد. فأصدر المتوكل أمره إليه بلزوم بيته، فلزمه إلى أن مات.

وينقل الحنابلة عن يوم الجنازة ما لا يقبله العقل ويقرّه المنطق كقول الوركاني: أسلم يوم مات أحمد بن حنبل عشرون ألفاً من اليهود والنصارى والمجوس. ووقع المأتم والنوح في أربعة أصناف من الناس: المسلمين واليهود والنصارى والمجوس[٣].

ومنذ ووري ابن حنبل، لزم بعض الناس القبر وباتوا عنده، وجعل النساء يأتين، فأرسل السلطان أصحاب المسالح، فلزموا ذلك الموضع حتى منعوهم مخافة الفتنة[٤]. ويبدو أن الجنازة تحولت إلى مناسبة أظهر فيها الحنابلة أنفسهم والدعوة إلى منهجهم والطعن على غيرهم، حتى قال ابن الجوزي: (فسرّ الله المسلمين بذلك على ما عندهم من المصيبة لما رأوا من العزّ وعلوّ الإسلام، وكبت الله أهل البدع والزيغ والضلالة).

ويذكر المسعودي أن اجتماع الجنازة كان للعامة فيه كلام كثير جرى بينهم بالعكس والضدّ في الأمور منها: أن رجلاً منهم كان ينادي: إلعنوا الواقف عند الشبهات. وهذا بالضدّ عمّا جاء عن صاحب الشريعة ﷺ. وكان عظيم من عظمائهم ومقدّم فيهم يقف موقفاً بعد موقف إمام الجنازة، وينادي بأعلى صوته:

---

(١) باب حرب تنسب إلى حرب بن عبد الله ـ أحد أصحاب المنصور ـ أو حرب بن عبد الملك، وإليه تنسب محلة الحربية، وفيها أيضاً قبر بُشر الحافي.

(٢) المناقب لابن الجوزي ٤١٧.

(٣) طبقات الحنابلة ١/١٦.

(٤) المناقب ٤١٨.

وأظلمت الدنيا لفقد محمدٍ   وأظلمت الدنيا لفقد ابن حنبل

يريد بذلك أن الدنيا أظلمت عند وفاة محمد ﷺ وأنها أظلمت عند موت ابن حنبل كظلمتها عند موت الرسول ﷺ[1].

وازدحم الناس على قبر أحمد يتبرّكون به، ويقصدونه للزيارة، وهنا تجدّدت نشاطات الدعايات المذهبية، وطغت موجة المناقبية، وقام القصّاصون والوعّاظ ـ الذين هم من قبل الدولة ـ بنشر خرافات لو كان أحمد حياً لخجل منها وتبرّأ من قائلها. وإليك نموذجاً منها:

١ ـ ادّعى أحدهم أنه زار قبر أحمد، فرأى القبر قد التصق بالأرض، وسمع صوتاً من القبر يقول: هذا من هيبة الحق، لأنه عز وجل زارني فسألته عن سرّ زيارته إيّاي في كل عام. فقال: لأنك نصرت كلامي...

٢ ـ أن من يدفن في مقبرة أحمد يكسى حلّتين من حُلل الجنة، ويوضع على قبور مجاوريه قناديل، ومن يعذّب يرحم لأجله[2] وكان فيهم رجل مخنث فشمله العفو[3].

٣ ـ حدّث علي بن إسماعيل السجستاني: كأن القيامة قد قامت وكان الناس يزدحمون عن قنطره، لا يترك أحد يجوز حتى يجيء بخاتم، ورجل ناحيه يختم للناس ويعطيهم، فسألت عنه فقالوا: هذا أحمد بن حنبل[4].

٤ ـ أن أبواب السماء تفتّح لزوّار قبر أحمد بن حنبل، والملائكة تنزل عليهم بثياب خضر تطير بهم في الهواء. وكان قبره يقصد للزيارة من ستمائة فرسخ[5] ولا يتسع المجال لعرض ما ادّعي من منامات وأحلام في قبر أحمد وزيارته، وعظيم الأثر الذي خلفته الدعاية في قلوب الناس من تعظيم قبره والتبرك به وتقبيله. وقد سأله رجل في الرؤيا: لم يقبّل قبر إلا قبرك؟ فأجاب: هذا ليس كرامة لي، ولكن كرامة

---

(١) مروج الذهب ٤/ ١٠٢ و١٠٣.
(٢) تاريخ بغداد ج١ ص٢٢.
(٣) ابن الجوزي، المناقب ص٤٦٣.
(٤) ابن الجوزي، المناقب ص٤٤٦.
(٥) ابن الجوزي، المناقب ص٤٨٢.

لرسول الله، لأن معي شعرات من شعره، ألا ومن يحبني لم لا يزورني في شهر رمضان.

وقد بقي قبر أحمد بن حنبل مقصداً لمحبيه، ويتبركون بزيارته، وادُّعي أن الماء حار حول قبره عند طغيان دجلة سنة ٧٢٥هـ فغمر جميع الأمكنة إلاّ قبر أحمد، فلم تبلّ الحصر كما يدّعون. ولكن دجلة أعاد الكرة، فاكتسح القبر وابتلعه، وذهب به وبآثاره إلى اليوم.

وقد دفن في مقبرته خلق كثير، ونقل إليه من الأماكن النائية جثث كثيرة لأموات أمثال: عبد المغيث بن زهير الحربي الحنبلي محدّث بغداد. ومن الغريب بل من الشذوذ الفكري أن يوصف هذا الرجل بأنه صالح متدين أمين مجتهد في السُّنة، حافظ زاهد يشبه أحمد بن حنبل، مع اعترافهم بأنه وضع جزءً في فضائل يزيد بن معاوية أتى فيه بالموضوعات كما يقول الذهبي(١).

ومن أعيانهم: عبد الرحمن بن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ وصاحب المؤلفات الكثيرة، دفن عند أبيه بباب حرب عند قبر أحمد، وكان يوم تشييعه يوماً مشهوداً وذلك في شهر رمضان، وقد أفطر جماعة من الناس من كثرة الزحام وشدّة الحرّ(٢).

ولعل المسوّغ لإفطارهم اعتقادهم بأن تشييع ابن الجوزي أعظم ثواباً من صيام شهر رمضان، لأنه كان ناصراً للسنّة محارباً للبدعة. وقد وصف بأنه كحاطب ليل، وهو لا يفرّق بين الضارّ والنافع، والحق والبطّال، وكانت مؤلفاته تناقض بعضها بعضاً، وهو يورد الشُّبَه، وليس له قدرة على ردّها، وقد نقم عليه العلماء، ولكن لا ينفع ذلك مع تجمع العوام عليه.

وكثير من علماء الحنابلة دفنوا عند قبر أحمد تبركاً بجواره، ومنهم من نقل إلى مقبرة أحمد بعد مدة من دفنه كسعد الله الحنبلي المتوفى سنة ٥٦٤هـ دفن بمقبرة الرباط، ثم نقل بعد خمسة أيام ودفن في مقبرة أحمد. وكمال الدين بن وضّاح الحنبلي المتوفى سنة ٦٢٧هـ دفن عند رجلي أحمد. ومنهم: محمد بن محمد بن

---

(١) الشذرات ج٤ ص٢٧٥.

(٢) البداية والنهاية ج١٣ ص٣٣١.

الحسين الحنبلي المتوفى سنة ٥٢٧ ونقل إلى مقبرة أحمد بن حنبل سنة ٥٣٤ أي بعد مضي سبع سنوات على موته. وغير هؤلاء خلق كثير أحصينا عددهم بما يقارب الخمسين شخصاً. وبطبيعة الحال فإن قبورهم ذهبت في طغيان دجلة كما سبق وذكرنا.

ولا بد من التعرّض لما جاء في لغة العرب المجلد الخامس من السنة الثامنة ما ذكره الدكتور مصطفى جواد: أن عبد الحميد عيادة نشر في لغة العرب أن في جامع حاج أفندي ـ ويسمى مسجد اللالات بمحلة كوك نفر ببغداد أن رخامة في الجوار الذي يلي الباب، مكتوب عليها ما صورته: (هذا قبر المرحوم المغفور له الدارج في رحمة الله الشيخ المجتهد السيد أحمد من الأربعة المجتهدين وذلك في ١٣ ربيع الأول سنة ٥٦٢هـ) ثم قال: توارد إلى خاطري أنه قبر الإمام المشار إليه، أي أحمد بن حنبل إذ لا يبعد أنه نقل إلى محله الحالي لسبب غرق بغداد الخ.

وهذا بعيد كل البعد، لأن التاريخ إما أن يكون تاريخ الوفاة أو تاريخ النقل، فتاريخ الوفاة سابق عليه، لأن وفاة أحمد سنة ٢٤١هـ وأما تاريخ النقل عند الغرق، فهو متأخر عن هذا التاريخ.

وقد نقل لقبر أحمد رجال من الحنابلة بعد هذا التاريخ منهم: كمال الدين علي بن وضّاح المتوفى سنة ٦٧٢هـ وفي سنة ٧٦٥هـ دفن القاضي جمال الدين بن خليل الخضري الحنبلي محدّث بغداد، وفي سنة ٧٦٦هـ دفن الشيخ نور الدين الحنبلي، وفي سنة ٧٨٤هـ دفن أبو طالب عبد الرحمن بن عمر الحنبلي نزيل بغداد.

والحاصل أن مقبرة أحمد بن حنبل بقيت مدة من السنين مهوى أفئدة الحنابلة، ومقصد الزوار، وتدفن حوله الأموات تديناً وتقرباً لنيل ما أعدّ من الجزاء لمن يدفن حوله. فقد أشاع الحنابلة أن من يدفن حول قبر أحمد يكسىٰ حلتين من حلل الجنة، ويوضع على قبر مجاوريه قناديل، ومن يعذب يرحم لأجله[1]. إلا أن ذلك القبر قد غمره الفيضان فانهار، ولم يبق له أثر، إذ امتلأت مقبرة أحمد كلها، ولم يسلم منها إلا موضع قبر بُشر الحافي لأنه على نشز من الأرض، وكان من يرى مقبرة أحمد بعد أيام

---

(١) ابن الجوزي، المناقب ص٤٦٣.

من مضي الفيضان ليدهش عندما يرى القبور قد قُلّبت، وجمعت العظام كالتل، جمعها السيل ـ سيل الماء ـ وكذلك ألواح القبور(١).

وقال اليافعي: إن دجلة زادت زيادة مفرطة حتى أخربت مقبرة أحمد بن حنبل، ودخل الماء في دهليز البيت، وذلك في سنة ٧٢٥هـ. وقال ابن العماد نقلاً عن الذهبي: إن مقبرة أحمد بن حنبل غرقت سوى البيت الذي فيه ضريحه، فإن الماء دخل الدهليز علو ذراع، ووقف بإذن الله تعالى، وبقيت البواري عليها الغبار حول القبر.

ولقد علق المرحوم السماوي على هذا القول بقوله:

ألا من عذيري يا بني العلم والحجى	من اليافعي الحنبلي المجلل
يكذّبني إن قلت قبر ابن فالهم	عليه استدار الماء للمتوكل
ويزعم حارَ الماءُ ثمّ تجل غبرة	على حُصُرٍ كانت بقبر ابن حنبل

هذه لمحة موجزة عن السيرة المستمرة في نقل الأموات ونبشهم بعد دفنهم، وهي باقية حتى يومنا هذا عند إخواننا السنة، فإنهم ينقلون الموتى من الأماكن. فمن مات خارج العراق نقل إليه، ومن مات في العراق فإما أن ينقل إلى بلده ومسقط رأسه، أو يدفن في مقبرة وليّ كأبي حنيفة والإمام الأعظم والشيخ معروف ببغداد، والبعض ينقل من بغداد إلى مقبرة الخاتونة في السماوة إن كان من أهلها، وأغلب أهل الجنوب من إخواننا السنّة ينقلون موتاهم إلى بلد الزبير، ودفنهم هناك تبركاً بالقبر المنسوب للزبير بن العوّام.

وقد ذكرنا سابقاً أن هذه النسبة غير صحيحة، وأن هذا القبر بني على الظنة والتخمين، كما نص على ذلك بعض المؤرخين(٢).

ومن الجدير بالذكر، أن النقل بعد الموت عند المسلمين شائع معمول به منذ الصدر الأول عند جميع الفرق والمذاهب.

ونذكر ما يحضرنا ذكره الآن فمنهم:

---

(١) فيضانات بغداد، الدكتور سوسه ص٢٢٠.

(٢) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب.

١ ـ جعفر بن الفضل بن موسى بن الفرات أبو الفضل المتوفى سنة ٣٩١هـ وزير الديار المصرية، توفي بمصر، فنقل إلى المدينة. يقول ابن عساكر: وخرجت الأشراف إلى لقائه وفاءً بما أحسن إليهم، ثم يقول: فحجوا به وطافوا ووقفوا في عرفات، ثم ردّوه للمدينة، ودفنوه في دار اشتراها من الأشراف بالمدينة(١). ولا ندري هل كان ورود جنازته أيام الحج فحجوا به، أم أنهم خلقوا له حجاً ووقفوا بعرفات في غير وقت الموسم؟!

٢ ـ القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٤هـ دفن في داره بنهر طابق، ثم نقل إلى جوار قبر أحمد بن حنبل في مقبرة باب حرب، ويؤم الناس قبره، ويتبركون به. يروى أن أحد شيوخ الحنابلة (أبو الفضل التميمي) حضر يوم وفاته حافياً مع أصحابه، وقعد معهم للعزاء ثلاثة أيام، وكان يزور قبره كل يوم جمعة.

٣ ـ أبو البقاء محمد بن المبارك المعروف بابن الخل الشافعي المتوفى ببغداد سنة ٥٥٢هـ ونقل إلى الكوفة ودفن فيها.

٤ ـ صدر الدين أبو بكر الشافعي خرج من بغداد، فنزل بقرية بين همدان والكرج، فأصبح ميتاً، فحمل إلى أصفهان ودفن بسيلان.

٥ ـ وكذلك ولده عبد المطلب مات بهمدان سنة ٥٨٠هـ بعد عودته من الحجاز، وحمل إلى أصفهان، ودفن فيها.

٦ ـ أحمد الحريزي المتوفى سنة ٥٥٠هـ وكان عاملاً للمقتضى على نهر الملك وكان من أظلم العالم، ومع هذا يظهر التدين، وكان يجلس على السجادة وبيده سبحة يسبّح فيها ويقرأ القرآن، والناس يُعذّبون بين يديه. وكان يعلّق الرجال بأرجلهم، والنساء بأثدائهن، ويضربون بين يديه وهو يومي إلى الجلاد: الرأس، الوجه. وقد سئم الناس حياته، فدخل عليه ثلاثة رجال، فضربوه بالسيوف فمات، وحمل إلى بغداد، ودفن فيها، فأصبح وقد خسف بقبره(٢).

٧ ـ الملك المظفر علي كوجك التركماني المتوفى سنة ٦٢٠هـ ملك أربل،

---

(١) شذرات الذهب ج٣ ص١٣٥.

(٢) شذرات الذهب.

مات فيها في رمضان، وأوصى أن يحمل إلى مكة فيدفن في حرم الله تعالى، وقال: استجير به. فحمل في تابوت إلى الكوفة، ولم يتفق خروج الحاج في تلك السنة، فدفن عند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

٨ ـ كمال الدين محمد بن علي الشافعي يعرف بابن الزلمكان المتوفى سنة ٧٢٧هـ بدبيس، وحمل إلى القاهرة، ودفن إلى جوار الشافعي.

٩ ـ إمام الحرمين أبو المعالي الجويني عبد الملك بن عبد الله الفقيه الشافعي المتوفى سنة ٤٧٨هـ ودفن بداره في نيسابور، ثم نقل منها بعد سنتين.

وكان لموته يوماً مشهوداً، فلقد أغلقت أبواب البلد، وكشف الناس رؤوسهم حتى ما اجترأ أحد أن يغطي رأسه، وصلّى عليه ولده أبو القاسم بعد جهد عظيم من الزحام، وكسر منبره في الجامع، وقعد الناس للعزاء أياماً، وكان طلبته أربعمائة يطوفون في البلد نائحين عليه[١] وقد وصف السبكي يوم موته، وأن الطلبة تجوب موكبهم البلد نائحين عليه مكسّرين المحابر والأقلام، مبالغين في الصياح والضجر[٢]. وقال الذهبي: استمرت الحالة سنة.

١٠ ـ أبو الحسين بن سمعون الواعظ المتوفى سنة ٣٨٧هـ ودفن في داره بشارع العباس، ثم نقل يوم الخميس ١١ رجب سنة ٤٢٦هـ ودفن بباب حرب، وكان الباقلاني يقبّل يده لعظيم منزلته. وحكى الخطيب أن ابن سمعون خرج من المدينة الشريفة إلى بيت الله، فاشتهى الرطب، فلما كان وقت الإفطار صار الثمر رطباً فلم يأكله، فعاد إليه من الغد فإذا هو تمر.

١١ ـ ابن طولون خمارويه بن أحمد حمو المعتضد. فتك به غلمان بدمشق سنة ٢١٢هـ وحمل تابوته إلى مصر، ودفن عند أبيه بسفح المقطم.

١٢ ـ محمود بن السلطان ملك شاه. مات بأصفهان سنة ٤٨٧هـ وحمل إلى بغداد، ودفن بالنظامية.

١٣ ـ أحمد بن محمد غلام خليل. المتوفى سنة ٢٧٥هـ ببغداد، وحمل في

---

(١) الشذرات ج٣ ص٣٦٠.

(٢) الطبقات ج٣ ص٢٥٧.

تابوت إلى البصرة. قال الخطيب: غلقت له أسواق مدينة بغداد، وخرج الرجال والنساء لحضور جنازته والصلاة عليه، فأدرك ذلك بعض الناس وفات بعضهم لسرعة السير به، ودفن بالبصرة، وبنيت عليه قبة.

يذكر الخطيب في ترجمته عن عبد الله النهاوندي: قلت لغلام الخليل: ما هذه الأحاديث الرقائق التي تحدّث بها؟ قال: وضعناها لنرقق بها قلوب العامة. وعن ابن عدي: سمعت عبدان الأهوازي يقول: قلت لعبد الرحمن بن خراش: هذا الحديث الذي يحدّث به غلام الخليل لسليمان بن بلال من أين له؟ قال: سرقه من عبد الله بن شيب، وسرقه عبد الله بن شبيب من النضر بن سلمة، ووضعه شاذان[1]. وكان أكثر ما يتحدّث به بالموضوعات في مناقب الصحابة وغيرهم من الرجالات، ويتخذها وسيلة لمعاشه، ومن وضعه حديث: (اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر)[2]. وهو من المحدّثين والوعّاظ القصّاصين.

ولا يتّسع المجال لأكثر مما ذكرنا في هذا الاستطراد الذي لا تخفى دواعيه وأسبابه إذا ما استحضرنا ما شذ به أقوام جعلوا من أحمد بن حنبل إماماً وقدوة، وراحوا يطلقون التهم والتخرّصات في قضايا الأموات والقبور، وقضية النقل بعد الموت، وما يتعلق بالدفن أمر معروف منذ صدر الإسلام إلى يومنا هذا، وقد سار عليه السلف والخلف، فمن ينقل إلى المدينة، ومن ينقل إلى دمشق، ومن ينقل إلى بغداد، ومن ينقل إلى القاهرة، ومن ينقل من رمسه القديم إلى مكان آخر كما رأينا من نقل إلى مقبرة أحمد. .

ومقبرة أحمد بن حنبل في محلة الحربية التي تقع وراء مقابر قريش، وفيها الباب الذي كان بنو شيبان قد اتخذوها مقبرة لمن يموت منهم، ثم لمن يموت من أهل الحديث. فدفن أحمد بن حنبل في هذا الباب، لأنه إمام الحديث ـ كما قالوا ـ ولأنه من بني شيبان.

أما الحربية أو باب حرب، فقد نسب إلى حرب بن عبد الله أو حرب بن عبد

---

(١) تاريخ بغداد ٥/ ٧٩.

(٢) لسان الميزان ١/ ٢٧٢.

الملك أحد قواد المنصور، ثم غلب عليها اسم أحمد فصارت تسمى مقبرة أحمد.

وأصبحت مزاراً تهفو إليه قلوب الحنابلة وتعجّ بالدعاء، وبقعة مقدسة توضع في زوارها المنامات، حتى جرفتها السيول ـ كما علمنا ـ وغرق قبر أحمد على اختلاف في تعيين سنة الغرق في القرن السادس أو السابع؟

ولما غرق القبر، تحوّل الناس إلى زيارة قبر ولده عبد الله في القطيعة، يؤدّون الزيارات، ويدعون لقضاء الحوائج.

وأحمد بن حنبل هو آخر رؤوساء المذاهب وفاة. توفي أبو حنيفة سنة ١٥٠هـ ومالك سنة ١٧٩هـ والشافعي سنة ٢٠٤هـ ثم أحمد سنة ٢٤١هـ ومذهبه قليل الانتشار، محدود الاتباع. فهو ليس كمذهب أبي حنيفة عدداً في البلاد الإسلامية، ولا كمذهب الشافعي في مصر.

الحنابلة في ظل المتوكل

سبق أن أشرنا إلى مشاعر المتوكل تجاه أحمد، وكونها واحدة من عوامل الميل إلى أحمد بن حنبل، إضافة إلى الأغراض السياسية، وقد قلنا إن أحمد لم يستجب تماماً لرغبة المتوكل في (تنصيبه) رئيساً مذهبياً، ولولا التهمة التي غيّرت مجرى السعي السلطاني إلى ضمّ أحمد في تلك المرحلة، لاكتملت مقتضيات السياسة في تبني أحمد تماماً وهو في حياته، وقد كانت التهمة خطيرة تهتزّ لها أبدان بني العباس غيظاً، وهي التعاون مع العلويين، فداهموا منزله ومنزل ابنه، ودلوا شمعة في البئر، ووجهوا النسوة ففتشن الحرم، مما أخر في إعلان المذهب رسمياً.

وبعد ثبوت براءته، لم يعد أمام المتوكل من مانع يمنعه من الاهتمام بأحمد اهتماماً بالغاً، فكان يأمر بالمال، ويتوجّع لما يصيبه، واقتنع قناعة تامة بأحمد بن حنبل. ويبدو أن الموت عاجله، فاستأنف ما أراد منه في غيابه.

ولو بحثنا في اتجاه أحمد بن حنبل وآرائه في الحكام، لوجدنا أن ابن حنبل يرى أن من صفة المؤمن من أهل السنة والجماعة: صلاة العيدين والخسُوف والجمعة والجماعات مع كل أمير برّ أو فاجر، والدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح، وعدم الخروج

عليهم بالسيف[١]. وعندما داهموا بيته بتهمة، إيوائه علوياً كان يقول: ما أعرف من هذا شيئاً، وإن لأرى طاعته في العسر واليسر والمنشط والمكره والأثرة. وإني أتأسف على تخلّفي عن الصلاة في جماعة، وعن حضور الجمعة ودعوة المسلمين[٢].

ولما جاء المتوكل، أظهر ما يتّفق مع آراء أحمد ومعتقداته ومنهجه، فأمر بترك النظر والمباحثة في الجدال، وأمر الناس بالتسليم والتقليد، والترك لما كان عليه الناس في أيام المعتصم والواثق والمأمون. وأمر شيوخ المحدّثين بالتحديث وإظهار السنة والجماعة[٣]. وأشخص الفقهاء والمحدّثين، وكان فيهم: مصعب الزبيري، وإسحاق بن أبي إسرائيل، وإبراهيم بن عبد الله الهروي، وعبد الله وعثمان ـ إبنا أبي شيبة ـ فقسّمت بينهم الجوائز، وأجريت عليهم الأرزاق، وأمرهم المتوكل أن يجلسوا للناس ويحدّثوا بالأحاديث التي فيها الرد على المعتزلة والجهمية، وأن يحدّثوا بالأحاديث في الرؤية. فجلس عثمان بن أبي شيبة في مدينة المنصور، ووضع له منبر، واجتمع عليه نحو من ثلاثين ألفاً من الناس. وجلس أبو بكر بن أبي شيبة في مسجد الرصافة، واجتمع عليه نحو من ثلاثين ألفاً.

وقد كان من نتائج تقيّد أحمد بالمأثور عنده وتقليده أن يرى الحاكم قد ولاه الله. ولذلك نجده يدعو إلى: السمع والطاعة للأئمة، وأمير المؤمنين البرّ والفاجر، ومن ولّي الخلافة، ومن اجتمع الناس عليه ورضوه، ومن غلبهم بالسيف حتى صار خليفة ويسمى أمير المؤمنين اهـ.

ولا بد أن تكون للمتوكل أولية في ذلك بالنسبة للإمام أحمد، فإذا كان يعتقد بالحكام الذين ملكوا الأمر والسلطة بعد الإسلام بعمومهم، فإن المتوكل أولى بكل ما كان يراه ويعتقده، غير أن التردّد والسلوك الذي سلكه أحمد ينمّ عن أمر نستشعر منه الإحراج إن لم يكن به غناء عن الكناية أو التلميح؟ وقد كتب إليه المتوكل بعد أن استيقن من وضعه وقال: إني أحب أن آنس بقربك وبالنظر إليك، ويحصل لي بركة دعائك. ولكنّا نجده لايقرب أكل المتوكل، ولا يمسّ منه شيئاً. ويطوي صائماً حتى

(١) المدخل إلى فقه أحمد بن حنبل: ١٩.

(٢) المناقب: ٣٦٠.

(٣) مروج الذهب.

جاع ـ وهو عند المتوكل ـ جوعاً عظيماً، وكاد أن يقتله الجوع. وقد قال بعض الأمراء للمتوكل: إن أحمد لا يأكل لك طعاماً، ولا يشرب لك شراباً، ولا يجلس على فراشك، ويحرّم ما تشربه. فقال: والله لو نشر المعتصم، وكلّمني في أحمد؛ ما قبلت منه[1]. ويروى أنه كان يتألم من هذا اللقاء ويقول: سلمت منهم طول عمري، ثم ابتليت بهم في آخره[2]. فلماذا هذا الألم؟ وكيف يتفق ذلك مع الدعوة إلى الطاعة والاستسلام إذا كان الاتصال بالحكام ابتلاءً؟ ومن يكن سبباً في البلاء لا بد أن حاله على غير ما يدعو إليه الإسلام، وبخلاف ما يستريح إليه المؤمن. بل أن أحمد بن حنبل يرى أن تكريم المتوكل له يجعله في غم، ففي رواية أن عمّ أحمد قال له: لو دخلت على الخليفة، فإنك تكرم عليه؟ فقال: إنما غمّي من كرامتي عليه.

ونرى الإمام أحمد يصرف همّه إلى ما أحاطه به المتوكل من منح وعطايا، ويصبح شغله الشاغل أن يمنع أهله وعمّه ـ الذي يرافقه دوماً ـ من أخذها، ويلومهم ويعظهم في كلام طويل. فيحتجّون عليه بالحديث: «ما جاءك من هذا المال وأنت غير سائل ولا مستشرف؛ فخذه». وأن ابن عمر وابن عباس قبلا جوائز السلطان. ويقول: وما هذا وذاك سواء. ولو أعلم أن هذا المال أخذ من حقه وليس بظلم ولا جور؛ لم أبالِ.

فكيف يقرّ الظلم والجور، وتصبح الطاعة من صفات المؤمن؟ ورغم أن أحمد حصر سبب رفضه وابتعاده عن الحاكم المتوكل بالناحية المالية، فإنه لم يتمكن أن يعزلها عن أسس وحقيقة الحكم القائم. وخلاصة الأمر، أن الإمام أحمد يدعو إلى السمع والطاعة على الطريقة التي مرّت بنا متأثراً بدعاة السلاطين وسدنة الملوك الذين دسّوا في الأثر ما ليس له علاقة بمبادىء الإسلام وعدالة السنّة، ويعارض دعوته بسلوكه هذا الذي تقتضيه بداهة العقول، فضلاً عن تعاليم الإسلام. ثم لا يتجاوز دائرة السلبية وضيق المجال الذي يتصرّف فيه إلى رحاب المسؤولية الدينية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لدى السلطان الجائر باعترافه هو، وليس هناك ما يمنع من خشية عليه شخصية أو عداء من جانب المتوكل يمكن أن يؤدي به

---

(١) البداية والنهاية ١٠/ ٣٣٩. والمناقب لابن الجوزي ٣٦٩.

(٢) البداية والنهاية.

إلى التلف والهلاك. فجسور الودّ قائمة، وحبال الوصل ممدودة، والفترة تشهد سواه ممن يقوم بهذا الواجب. وفي سيرة إسحاق بن حنبل عمّه ـ ما يشير إلى مخالفة أحمد ليس في أمر المال فحسب، بل في نظرته إلى ما يتاح له من عمل. فيسأله الدخول على الخليفة ليأمره وينهاه قائلاً له: إنه يقبل منك. وهذا إسحاق بن راهويه يدخل على ابن طاهر فيأمره وينهاه، فيجيبه أحمد بالسلبية التي لايرجى تغييرها: الدنو منهم فتنة، والجلوس معهم فتنة، نحن متباعدون منهم وما أرانا نسلم، فكيف لو قربنا منهم؟ هذا والإمام أحمد في ظل دولة تكاد تعلن أراءه ونهجه مذهباً لها، ويتقرّب إليه ملكها بودّ كبير، وليس للحكام معه عداء أو مع أهله، ولا يشكل وجوده خطراً عليهم.

وهنا نشير إلى منهج أهل البيت النبوي الكرام، وأولاد الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام ونسوق مثالين: أحدهما في عصر الأمويين، والآخر في عهد العباسيين، إذ لم يتخلّ الحكام عنهم في كلا العصرين، واستمروا في معاملتهم بقسوة دموية وسياسة لا إنسانية، لأنهم يشكلون خطراً يتهدّد كيانهم الجائر وسلطانهم الظالم.

عن المسؤولية الدينية ووجه القيام بها في العصر الأموي نشير إلى الإمام علي بن الحسين زين العابدين، الذي عاش مأساة الطف، وشبّ وجريمة الأمويين تصبغ بالعار كل أوجه الحياة، فسلك طريق الانقطاع إلى الله، وتوجيه الأمة بالنصح والإرشاد، وهو في ظل حكم السلالة الأموية، فيرى أن التارك للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كنابذ كتاب الله وراء ظهره، إلاّ أن يتّقي تقاة. قيل: وما تقاته؟ قال: «يخاف جباراً عنيداً أن يفرط عليه أو أن يطغى»[1].

وعن الضرورة التي تجعل التقية جُنّة المؤمن عملاً بقوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ نحيل إلى ما ضمّه هذا الكتاب من صفحات من سيرة الإمام الصادق عليه السلام وهو يواجه الطغيان العباسي، ويرى أن التعرّض للدولة قتل للنفس، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ فتحامى الحكام، ودعا إلى وقاية الأنفس وحفظ

---

(١) حلية الأولياء ٣/ ١٤٠.

الدماء، لأن العباسيين شأنهم شأن من سبقهم من الظلمة لا يتورّعون عن سفك دماء آل البيت بسبب أو بدون سبب. ومع شدّة حذره عليه السلام تعرّض إلى القتل على يد المنصور تسع مرات، غير أنه عليه السلام وضع قواعد الدعوة الصامتة، وخاطب أصحابه بأن يكونوا دعاة صامتين لآل البيت، ثم رسم للعلماء والمتكلمين من أصحابه الأدوار، وحدد المسؤوليات كما مر بنا في هذا الجزء من الكتاب والأجزاء السابقة.

* * *

لم يؤثّر تردّد أحمد بن حنبل، فقد كان سلوكاً لا يجاوز الأسرة، يجري كشأن عائلي بحت مناطه المال. أما أراء أحمد السابقة فهي شائعة عن مريديه ومعروفة لالتماع شخصه واشتهار اسمه في المحنة، والمتوكل يعمل على إلباس عهده صفة الحنبلية، وأحمد يتعاون مع هذا الاتجاه، ويستجيب برغم نفوره من المخالطة؛ إلا أنه كان له الرأي في الأمور المذهبية، وكان المتوكل يستشيره في التعيين للقضاء، ويأخذ برأي أحمد كما حدث عندما بعث المتوكل إلى أحمد يستشيره في تولية محمد بن شجاع الثلجي من فقهاء الحنفية. فقال: لا، ولا على حارس. ورأي أحمد فيه: إنه مبتدع صاحب هوى[1] وأنفذ إليه المتوكل بصاحب لم يعلمه ـ ونورد القصة بسياقها وهي جديرة بالبحث والتعليق ـ: أن له جارية بها صَرَع، وسأله أن يدعو الله لها بالعافية. فأخرج له أحمد نعل خشب بشراك خوص للوضوء، فدفعه إلى صاحب له، وقال له: تمضي إلى دار أمير المؤمنين، وتجلس عند رأس الجارية، وتقول له: يقول لك أحمد أيما أحب إليك، تخرج من هذه الجارية أو أصفع الآخر بهذه النعل؟ فمضى إليه، وقال له مثل ما قال أحمد، فقال المارد على لسان الجارية: السمع والطاعة، لو أمرنا أحمد أن لا نقيم في العراق ما أقمنا به، إنه أطاع الله، ومن أطاع الله أطاعه كل شيء. وخرج من الجارية، وهدأت وزوّجت ورزقت أولاداً[2].

وعلى عهد أحمد بزغ نجم الحنابلة، وطلع فجر ليلهم الدامس بفضل انتصار المتوكل للإمام أحمد. ويحلو للحنابلة أن يصوّروا أحمداً وحيداً في المحنة، ليتدرّجوا في غلوّهم، متناسين أن الأمر صنعته أهواء الحكام وأغراض السياسة.

---

(١) المنتظم ٥/ ٥٧.

(٢) طبقات الحنابلة ١/ ٢٣٣.

فتحوّل البعض عن طريقة السلطة العباسية، ويبقى أحمد وحيداً في أجواء التحوّل والتغيير، مستمسكاً بالطريقة التي تهاب البحث وتخشى النقاش، وإن كانت تحرز كنزاً وتدّخر ثروة من فهم الكتاب بأي طريقة كانت، وتمثّل السنة بأيّ صورة تمّت، لأن الظاهر القائم على وضوح النص وتحريّ السبب معين فيّاض يوفّر الحجة ويغني في الجدل.

بإسناده قال الميموني: سمعت علي بن المديني يقول: ما قام أحد بأمر الإسلام بعد رسول الله ﷺ كما قام أحمد بن حنبل. قال: قلت له: يا أبا الحسن ولا أبو بكر الصديق؟ قال: ولا أبو بكر الصديق. إن أبا بكر الصديق كان له أعوان وأصحاب، وأحمد بن حنبل لم يكن له أعوان ولا أصحاب اهـ.

سبق أن قدّمنا أن الكرابيسي كان أول ضحايا السلطة بعد جنازة ابن حنبل، وقد بدر من المتوكل من مشاعر التقديس والإجلال لأحمد بن حنبل ما لم يحظ به أحد من رؤساء المذاهب الذين سبقوه، فيقول لمحمد بن عبد اللّه بن طاهر: طوبى لك، صلّيت على أحمد بن حنبل.

وبعد موت أحمد اندفع أصحابه تحت شعار ـ إحياء السنّة ومحاربة البدع ـ إلى إيذاء الناس والاعتداء على الآخرين. ولمّا تصل الأخبار إلى المتوكل يقول لصاحب الخبر: لا ترفع إليّ من خبرهم شيئاً، وشدّ على أيديهم فإنهم وصاحبهم من سادات أمة محمد ﷺ(1).

يقول ابن كثير: (كان المتوكل محبباً إلى رعيته، قائماً في نصرة أهل السنة، وقد شبّهه بعضهم بأبي بكر في قتله (أهل الردة) لأنه نصر الحق وردّه عليهم حتى رجعوا إلى الدين، وبعمر بن عبد العزيز حين ردّ مظالم بني أمية، وقد أظهر السنّة بعد البدعة، وأخمد أهل البدع وبدعتهم بعد انتشارها واشتهارها، فرحمه الله).

وتولى الحنابلة ـ وعلى رأسهم صالح بن أحمد ـ نشر المنامات التي تصوّره بأنوار قدسية وبين يدي ربه، لأنه محيي السنة رداً لرعايته وتبنّيه لأمرهم. فقد بلغ الأمر بالمتوكل أنه أرسل جماعات تحصي عدد المصلّين أو المشيعين.

---

(1) المصدر نفسه ١/ ١٥.

وأخذ المتوكل يروّج المنامات عن نفسه على طريقتهم، فيدّعي أنه رأى النبي الأعظم ﷺ في المنام، وقام إليه فقال له ﷺ: تقوم إليّ وأنت خليفة. ويعبّر له الحاشية ذلك بقولهم: أبشر يا أمير المؤمنين، أما قيامك إليه فقيامك بالسنة، وقد عدّك من الخلفاء. فيسر بذلك[1].

وهكذا حصرت السنّة في رعاية الحنابلة، وترك حبلهم على الغارب يعيثون في الأرض ويرتكبون ما حمل ابن تيمية ـ أبا بدعة الوهابية وشيخ مذهبهم ـ أن يقول: بأنهم أتوا من المنكرات والإمام أحمد بريء منهم[2]. وهو قول يرمي به إلى نفي المسؤولية عن أسلافه، ويفتقر إلى الصحة، لأن رجال أحمد كالمروذي وأصحابه كانوا على رأس العامة يهيّجونهم إذا هدأوا، ويستفزّونهم إذا خمدوا. وقد كانت البداية في عهد المتوكل، ثم توالت عهود هيمنتهم وتحكمهم وإلزام الناس بأفكارهم المجسّمة وغيرها، حتى بلغ الأمر تهديد من يخالفهم، واستعداء الحكام عليه، واستخدام قوتهم لأغراض مذهبهم. فكان من وجوه ابتلاء الأمة أن يتعرّض كل من لا يرى رأيهم في التجسيم والرؤية[3] للأذى، في حين يبقى يحيى بن أكثم ـ وهو من أركان الحكم في عهد المأمون ـ على مكانته، ويظل في منزلته من الخليفة، لأن أحمد بن حنبل راضٍ عنه. قال المأمون ليحيى بن أكثم: من الذي يقول ـ وهو يعرّض به ـ:

قاضٍ يرى الحدّ في الزناء ولا ‏ ‏ ‏ ‏ يرى على من يلوط من بأس

قال: أو ما يعرف أمير المؤمنين من قاله؟ قال: لا. قال: يقوله الفاجر أحمد بن أبي نعيم الذي يقول:

حاكمنا يرتشي، وقاضينا ‏ ‏ ‏ ‏ يلوط، والرأس شرّ ما راسِ
لا أحسب الجور ينقضي، وعلى الـ ‏ ‏ ‏ ‏ أمة والٍ من آل عباسِ[4]

ولمّا كان يحيى بن أكثم قاضياً للبصرة، رفع الناس إلى المأمون أنه أفسد أولادهم بكثرة لواطه، وبلغ من إذاعته ومجاهرته باللواط في بغداد أن المأمون أمره أن

---

(١) راجع: المناقب لابن الجوزي. والبداية والنهاية. ١٠/ ٣٥١.
(٢) قواعد المنهج السلفي ١١٣.
(٣) انظر: المنتظم ٦/ ١٧٢.
(٤) تاريخ الخطيب ١٤/ ١٩٦. ومروج الذهب ٤/ ٢٢.

يفرض لنفسه فرضاً يركبون بركوبه، ويتصرّفون في أموره. ففرض أربعمائة غلام مُرداً اختارهم حسان الوجوه، فافتضح بهم.

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: ذكر يحيى بن أكثم عند أبي فقال: ما عرفت فيه بدعة. فبلغت يحيى فقال: صدق أبو عبد الله، ما عرفني ببدعة قط. قال: وذكر ما يرميه الناس به فقال: سبحان الله! سبحان الله، ومن يقول هذا؟ وأنكر ذلك أحمد إنكاراً شديداً[1].

وعلى شاكلة يحيى بن أكثم كانت دفّة حكم المتوكل، فلم يكن في وزرائه والمتقدّمين من كتّابه وقوّاده من يوصف بجود ولا إفضال، أو يتعالى عن مجونٍ وطرب.

يظهر لنا من ذلك أن صفة إحياء السنة التي تعني الالتزام بأهداب الدين ومحاربة الخروج عن أصول الإسلام تخفي تحتها واقعاً سيئاً كأي حاكم آخر ممن تستروا بالدين واتخذوا شعائر الإسلام غطاء لجرائمهم. وهذا الواقع بعيد عن أنظار العامة، فهم في انفعال لايكاد يخفّ حتى يشتدّ، وانقيادهم إلى الذين أطلقوا هذه الصفة انقياد أعمى، حتى كأن العامة تنظر وتنطق بأنظار وألسنة النابهين في تلك الفترة والمتزعمين الذين راحوا يكيلون المدائح للمنقذ المتوكل، ويشيعون الأخبار والمنامات عن جزائه عند الله، ومكانته في الدين، فتأخذ سياسته على أنها السنّة، ويحسب كل ما يصدر عنه من الدين والتقوى، وكان من سمات حكمه الغالبة عداؤه الشديد لآل علي، ونقمته الشديدة على الشيعة، ومن سوء حظ الأمة أن يتاح للحكام مثل هذه الأدوار ليؤثروا في العامة بصفاتهم الدينية، وهم في غفلة عن حقيقة ودوافع من يحكمهم، لأن الوسطاء الذين يقومون بذلك يحجبون بمكاناتهم ومنازلهم الدينية الحقيقية، ولا يرغبون في خروج العامة عن أغراضهم.

حدّث نصر بن علي الجهضمي بحديث: أن رسول الله ﷺ أخذ بيد حسن وحسين فقال: «من أحبني وأحب هذين وأباهما وأمهما؛ كان معي في درجتي يوم القيامة» فأمر المتوكل بضربه ألف سوط، فكلّموه بأن الرجل من أهل السنة، ولم يزالوا

---

(١) الطبقات: ١/ ٤١٢.

به حتى تركه، ويعقّب الخطيب البغدادي: إنما أمر المتوكل بضربه لأنه ظنه رافضياً، فلما علم أنه من أهل السنة تركه!! وأصاب أهل البيت في ظل المتوكل محنة قاسية وبلاء عظيم، وكان الإمام علي الهادي يقيم في المدينة، ويقوم مقام الإمامة وحوله شيعته وأصحابه. فكتب عبد اللّه بن محمد بن داود العباسي إلى المتوكل عن حاله. فكتب المتوكل إلى الإمام الهادي بالشخوص من المدينة، فشخصه عبد اللّه بن محمد بن داود ومعه يحيى بن هرثمة، وقد اضطر إسحاق بن إبراهيم أن يدخله إلى بغداد في الليل لمّا رأى تشوّق الناس إليه واجتماعهم لرؤيته، فأقام إلى الليل، ودخل به في الليل، فأقام ببغداد بعض تلك الليلة، ثم نفذ إلى سرّ من رأى[1]. ثم كان من المتوكل في الإساءة إلى الإمام الهادي ما تجاوز به كل حدّ الأدب واللياقة.

وشارك المتوكل يزيد بن معاوية في جريمته النكراء التي سوّدت وجوه بني أمية ومن والاهم إلى يوم الدين، فأمر المتوكل سنة ٢٣٦هـ بهدم قبر أبي الأحرار الإمام الحسين عليه السلام ومحو أرضه وإزالة أثره، وأن يعاقب كل من وجد به.

ولا نعقّب بشيء آخر، فلا مزيد لمستزيد أمام ما تصرخ به شواهد سيرته وأفعاله.

يقول الأستاذ حسن خليفة: وقد كان قاسي القلب، ظالماً، حتى أطلق عليه المؤرّخون إسم (نيرون المسلمين)[2].

أحمد والشيعة:

كان أحمد في كلّ ما يعرض له من المسائل يتوجّس من القول فيها، سواء كانت في مسائل واقعة تدخل في الخلاف، أو مسائل عامة تمسّ المعاملات والحياة، حتى قلنا إنه يعاني من هاجس يعبّر عنه هو: العلم الذي علمه، أو المذاهب التي أدرك أصحابها وحدّث بها. مما جعله في كثير من الأمور يغمض في الجواب، ويبعد كثيراً عن القطع والجزم. وقد أسهمت خشيته من السلطان في إضعاف الأحكام التي تترتب على أفعال المتوكل، كإقدامه على حرث قبر الإمام الحسين عليه السلام. فلم نعلم له

(١) تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٠٩.

(٢) الدولة العباسية ص١٤٧ نقلاً عن محمد البيومي: ابن حنبل.

موقفاً يليق برجل في منزلته. وبتأثير هذا الموقف راحت توجه الأسئلة إليه: هل يلعن يزيد؟ فقد تظافرت آراؤه السابقة في إطاعة الحكام وعدم الخروج عليهم مع صمته على التجرؤ على مثل هذه الأسئلة. وأغلب الروايات أنه كان يجيب بلعن يزيد، ويقول: كيف لا ألعنه من لعنه الله في ثلاث آيات من كتابه العزيز في الرعد والقتال والأحزاب.

وأحمد بن حنبل مبالغ في تقرير شرف الصحبة، فيرى أن الصحابي هو كل من صحب الرسول ﷺ سنة أو شهراً أو يوماً أو ساعة أو رآه فهو من أصحابه. وهو ما يتّفق مع نزعته في تقديس السلف، وميله إلى الأخذ بما عدّ من الأثر، والمشهور الذي تعاهده حكام بني أمية وبني العباس بالرعاية والحماية والترغيب في الوضع والانتحال. فكان على عهد معاوية الحديث: أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم. وهنا على رأي أحمد، وعملاً بهذا الحديث فإن معاوية صحابي وإمام من أولئك الذين يعنيهم في السمع والطاعة.

وفي عهد بني العباس كانوا يجعلون المحدّثين يقولون: معاوية بن أبي سفيان ستر أصحاب رسول الله ﷺ فإذا كشف الرجل الستر اجترىء على ما وراءه[1]. والله أعلم بدوافع قول أحمد: خير هذه الأمة بعد نبيها أبي بكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان. ويتوقف، ثم يجعل الإمام علي ضمن أصحاب الشورى: الزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وسعد[2].

ويرى الشيخ محمد أبو زهرة أن أحمد في ذلك يقف موقفاً وسطاً بين أبي حنيفة ومالك (فأبو حنيفة في رواية صحيحة عنه يفضّل علياً على عثمان رضي الله عنه. . . ومالك يعدّ السبق في ثلاثة: أبي بكر وعمر وعثمان، ثم يذكر أن بعدّ ذلك يستوي الناس، أما أحمد فإنه لا يعدّ سيف الإسلام في سائر الناس، بل يجعله في أصحاب الشورى الخمسة بعد رفع عثمان رضي الله عنه، والناس بعد ذلك دونهم على مراتب)[2].

ونحن نرى باعتماد الأقوال الأخرى لأحمد أن أحمد واقع تحت تأثير الخوف من المتوكل الذي كان من أشدّ النواصب والمعادين للإمام علي وآل بيته، وهو مشفق

---

(١) تاريخ بغداد ج١ ص٢٠٩.

(٢) ابن حنبل ص١٤٧.

من هذا الطاغي، أو عامل بما دعا إليه من الطاعة التي يبرّرها لنفسه. فعبد الله بن أحمد يسأل أباه: يا أبي، ما تقول في التفضيل؟ فيقول: في الخلافة أبو بكر وعمر وعثمان. فيقول عبد الله: فعلي بن أبي طالب؟ فيقول أحمد: يا بني، علي بن أبي طالب من أهل بيت لا يقاس بهم أحد[1]. ولعلنا لو ناقشناه لقال: ذلك ما علمته من السلف في التفضيل، وأما القول الآخر فهو ما يقتضيه الحق. وعن عبد الله أيضاً قال: كنت بين يدي أبي جالساً ذات يوم، فجاءت طائفة من الكرخية، فذكروا خلافة أبي بكر وخلافة عمر وخلافة عثمان فأكثروا، وذكروا خلافة علي بن أبي طالب فزادوا وأطالوا، فرفع أبي رأسه إليهم فقال: يا هؤلاء قد أكثرتم القول في علي والخلافة، إن الخلافة لم تزيّن علي، بل عليّ زيّنها[2]. وللعلاّمة المعتزلي ابن أبي الحديد قول في ذلك فيقول: وهذا الكلام دال بفحواه ومفهومه: أن غيره ازدان بالخلافة وتممت نقيصته، وإن علياً لم يكن فيه نقص يحتاج إلى أن يتمم بالخلافة، والخلافة ذات نقص في نفسها، فتمم نقصها في ولايته إياها...

ثم لانعدم أن نرى أقوالاً تومىء إلى ردّه على زمرة المتوكل والنواصب كقوله: من لم يثبت الإمامة لعلي فهو أضلّ من حمار[3].

وعلى ذلك، فإن تهمة إيواء العلوي لها مغزى كبير إن لم تكن حقيقة واقعة، ونحن بذلك لا نريد تحويل صورة أحمد، أو نرمي إلى إخراجه مما هو فيه؟ بل إن الموقف من العلويين هو المعيار الثابت لمن كان مثله في الزهد والتديّن.

وابن حنبل لم يكن منقطعاً عن الشيعة، بل كان على صلة مع رجالهم رغم الإجراءات التي اتخذها المتوكل في تتبع الشيعة. وربما وجّه بعض المخلصين للإمام أحمد لوماً شديداً على اتصاله بمن عرف في التشيع، فكان جوابه: سبحان الله، رجل أحبّ قوماً من أهل بيت النبي ﷺ نقول له لا تحبهم؟ هو ثقة[4].

كما أنه أخذ العلم عن كثير من رجال الشيعة وكانوا من شيوخه، وقد ذكرهم ابن

---

(١) المناقب ١٦٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المناقب أيضاً.
(٤) تاريخ بغداد ١٠/ ٢٦١.

الجوزي في المناقب، وغيره ممن كتب في رجال الحديث، ذكرهم في تعداد شيوخ أحمد مع ثبوت تشيّعهم. منهم:

ـ إسماعيل بن إبان الأزدي المتوفى سنة ٢١٦هـ وهو من شيوخ البخاري وابن معين أيضاً.

ـ إسحاق بن منصور السلوي المتوفى سنة ٢٠٥هـ خرّج حديثه أصحاب الصحاح الستة.

ـ تليد بن سليمان المحاربي المتوفى سنة ١١٠هـ خرّج حديثه الترمذي وقال فيه أحمد: إن مذهبه التشيع، ولم أر فيه بأساً.

ولسنا هنا في موضع استقصائهم، وإنما أوردنا أسماءهم كأمثلة. وتسمع عن رحلة أحمد لطلب الحديث، فقد كانت إلى عبد الرزاق بن همام الصنعاني، وهو من رجال الشيعة ومحدّثيهم ترجمه الذهبي: أحد الأعلام الثقات... وهو خزانة علم، ورحل الناس إليه: أحمد وإسحاق ويحيى والذهلي جعفر بن أبي عثمان الطيالسي قال: سمعت ابن معين يقول سمعت من عبد الرزاق كلاماً يوماً، فاستدللت به على تشيّعه، فقلت: إن أساتيذك الذين أخذت عنهم كلهم أصحاب سنة: معمر ومالك وابن جريج وسفيان والأوزاعي، فعمّن أخذت هذا المذهب؟ فقال: قدم علينا جعفر بن سليمان الضبعي، فرأيته فاضلاً حسن الهدى، فأخذت هذا عنه. وذكر رجل معاوية في مجلسه، فقال عبد الرزاق: لا تقذر مجلسنا بذكر ولد أبي سفيان. قال أحمد بن صالح: قلت لأحمد بن حنبل: هل رأيت أحسن حديثاً من عبد الرزاق؟ قال: لا(١).

وأحمد بن حنبل يقرن عزمه على الخروج إلى مكة ليقضي حجة الإسلام بالمضي إلى عبد الرزاق إلى صنعاء بعد الحج، وكان يرافقه يحيى بن معين، ويشدّ الرحال على ذلك، بل إنه يبقى على نيته وهو يلتقي بعبد الرزاق في مكة. وإليك نص صالح بن أحمد: عزم أبي على الخروج إلى مكة ليقضي حجة الإسلام، ورافق يحيى بن معين، فقال: نمضي إن شاء الله، فنقضي حجتنا، ونمضي إلى عبد الرزاق

---

(١) ميزان الاعتدال ج٢ ص١٢٦ ـ ١٢٩.

إلى صنعاء نسمع منه. فوردنا مكة، وطفنا طواف الورود، فإذا عبد الرزاق في الطواف يطوف، فطاف وخرج إلى المقام فصلى ركعتين وجلس، فتممنا طوافنا أنا وأحمد وجئنا وعبد الرزاق جالس عند المقام، فقلت لأحمد: هذا عبد الرزاق قد أراحك الله من مسيرة شهر ذاهباً وجائياً ومن النفقة. فقال: ما كان الله يراني وقد نويت له نية أفسدها ولا أتمها[١].

توفي عبد الرزاق سنة ٢١١هـ ولذلك ترى أن في مسنده أحاديث تشتمل على فضائل أهل البيت. يقول الأستاذ محمد رجب البيومي في كتابه (ابن حنبل): (وقد لحظ بعض كتّاب المغرب أن في مسند أحمد ما يدل على شجاعته الأدبية، فقد ذكر أحاديث تشتمل على فضائل علي وآل بيته مما لا نجد نظيرها في صحيح البخاري، وذلك في عصر يُضطهد العلويين ويناوئهم، ويقف بالمرصاد لمن ينسب إليهم بعض الخير في قليل أو كثير. . .). ومعلوم أن المسند روي عن أولاده وأصحابه، وجمع من قبلهم.

وصفوة القول، أن أحمد في سعيه وطلبه للحديث والعلم اتصل بالشيعة، وتتلمذ على رجالهم. وإن كانت هذه العبارة لا تغني عن نتائج البحث والتعمّق في حياته، وقد اكتفينا بهذا القدر.

خاتمة وخلاصة

رأينا أحمد في حياته، ورافقناه في محنته[٢] وذكرنا بعضاً من أخباره وسيرته، واتضح لنا نهجه ومنحاه العلمي، وأن كثيراً من أخباره وما تتضمن صور عظمته كانت من إغراق الحنابلة في مدحه، لأن أكثر ما أوردوه في ذلك هو من وحي الخيال وبدافع التعصب، وقد نوّهنا بالمنامات وغيرها والتي يقصد الحنابلة في كثير منها ليس إلى رفع منزلة أحمد وتهويل مكانته فحسب؛ بل وإلى خدمة معتقداتهم في التجسيم. نورد لك منها زيادة، فقد اشتهر عن أحمد الجهر بالرؤية حتى ينقطع نفسه، والإصرار على ذلك. وراح أحمد يعضّد الرؤية في الآخرة برؤيا له إذ قال أحمد: رأيت الله عز وجل

---

(١) الطبقات ١/ ١٧٥.

(٢) راجع الجزء الرابع من «الإمام الصادق والمذاهب الأربعة».

في المنام!! فقلت: يا رب ما أفضل ما تقرّب به المتقرّبون إليك؟ قال: بكلامي يا أحمد[1].

وبإسناده قال أحمد بن محمد الكعدي: رأيت أحمد بن حنبل في المنام، فقلت: يا أبا عبد اللّه، ما صنع الله بك؟ قال: غفر لي، ثم قال: يا أحمد ضُربت فيَّ؟ قال: قلت: نعم يا رب. قال: يا أحمد، هذا وجهي، فانظر إليه، قد أبحتك النظر إليه!!!!

قال عبد اللّه بن الحسين بن موسى: رأيت رجلاً من أهل الحديث ـ توفي ـ فيما يرى النائم، فقلت له: بالله عليك ما فعل الله بك؟ قال: غفر الله لي. فقلت: بالله؟ فقال: بالله إنه غفر الله لي. فقلت: بماذا غفر الله لك؟ قال: بمحبتي لأحمد بن حنبل. فقلت: فأنت في راحة؟ فتبسم وقال: أنا في راحة وفي فرح[2].

ويحدث أحد شيوخهم: رأيت رجلاً بجامع الرصافة في شهر ربيع الآخر من سنة ستين وأربع مائة. فسألته فقال: قد جئت من ستمائة فرسخ. فقلت في أي حاجة؟ قال: رأيت وأنا ببلدي في ليلة جمعة كأني في صحراء أو في فضاء عظيم، والخلق قيام، وأبواب السماء قد فتحت، وملائكة تنزل من السماء تُلْبِسُ أقواماً ثياباً خضراً وتطير بهم في الهواء. فقلت: من هؤلاء الذين قد اختصوا بهذا؟ فقالوا لي: هؤلاء الذين يزورون أحمد بن حنبل. فانتبهت ولم ألبث إن أصلحت أمري، وجئت إلى هذا البلد، وزرته دفعات، وأنا عائد إلى بلدي إن شاء الله اهـ. إلى ما هنالك من أمور لا تدخل في دائرة البحث التاريخي، وهي عندهم من الأسس المعتمدة في تكوين شخصية أحمد. فرؤياهم النبي المصطفى ﷺ ـ كما يدّعون ـ وأنه أمرهم باتباع أحمد. هو عندهم كأمره في اليقظة، وقد أثر ذلك في التحقيق التاريخي عن ترجمة أحمد.

وانتصار المحدّثين على خصومهم المعتزلة خلق جواً من الاضطراب في أخباره وسيرته، فتحامل خصومه ومغالاة أنصاره مع إقبال الدولة عليه، أوجد فجوة كبيرة. كما أن إهمال العامل السياسي من قبلهم أدى إلى تعدّد وجهات النظر في الواقع

---

(١) الإحياء ج٣ ص٤٩٧.

(٢) الجرح والتعديل ج١ ص٣٠٨.

التاريخي، على أن مشكلة خلق القرآن وقيام المأمون بإلزام الفقهاء في ذلك أوجد مشكلة كلامية تحتاج إلى دراسة واسعة في علم الكلام، وبيان الكلام النفساني، وتعلّقه بالذات.

كما أن الأسباب التي دعت المأمون إلى هذا الإلزام، وحملته على نشر ذلك بالقوة كذلك تحتاج إلى دراسة واسعة.

ثم القول بخلق القرآن، هل هو الإحداث، ولا شك أنه محدث، أم أرادوا الخلقة أو التكوين الحادث للكلام وهو من صفات الله، وإن صفاته عين ذاته، وقد عرضناها في هذا الجزء بقدر ما تقتضيه ضرورة البحث.

وغير بعيد أن الحنابلة قد أوهموا على الناس في هذه المسألة، وجعلوها في قالب آخر، وأوردوها لهم بصورة ينكرها الجميع، وذلك بتفسيرهم المخلوق بالمكذوب. فقد ورد في كثير من أقوال العرب اختلق كذا أي كذب فيه. وقد ورد عن الخليل بن أحمد ـ صاحب كتاب العين ـ أنه كان يمنع أن يوصف الكلام بالمخلوق ويقول: إن الكلام متى وصف بالخلق فالقصد به الكذب، ولهذا يقال: كلام خلقه فلان أي تقوّله ـ وقد مر بنا ذلك سابقاً ـ.

وفي أيام المحنة أن بعض الفقهاء لما سئل في القرآن قال: أصفه بأنه محدث، ولا أقول بأنه مخلوق لقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾.

فمعنى أنه مخلوق أي مكذوب وهو غير منزل. وغير بعيد على قوة دعاية الحنابلة وتغلغلهم في المجتمع أنهم أفهموا الناس بأن المعتزلة يذهبون إلى خلق القرآن أي إلى عدم كونه منزلاً من الله سبحانه وتعالى. وبهذا هبّت عواصف الغضب على المعتزلة، وانتصر عليهم المحدّثون.

كما لا أستبعد أن أكثر الحنابلة ـ الذين يقومون بنشر هذه الدعاية ـ لا يفهمون ألا المعنى اللغوي، وهو أن المخلوق هو المكذوب، ولم يذهبوا مذهب المعتزلة في الكلام وما هو معنى ذلك.

وكيف يستبعد انتشار أمثال هذه الدعاية في عصر انتشر فيه الجهل والجمود الفكري، وأصبح الناس يسير أكثرهم وراء عاطفة عمياء لا يميز بين الحق والباطل،

ولكن هلم فاعجب من رجل يدّعي الإلمام بالتاريخ، وكلّف نفسه كتابة التاريخ الإسلامي، ولكنه محى أكثر مما كتب، وأفسد أشياء كثيرة، وعقد مسائل واضحة.

هذا الرجل هو جرجي زيدان، يعيش في القرن العشرين، ولكنه يعيش في عقلية قرون الجهل والجمود، فهو يذكر لنا في تاريخه الذي أسماه (التمدن الإسلامي) ٣/ ١٤١ ط١ أن المأمون تمسّك بمذهب الاعتزال، وقرّب إليه أشياخه، وصرح بأقوال لم يقو هؤلاء على التصريح بها خوفاً من غضب الفقهاء، وفي جملتها القول بخلق القرآن، أي أنه غير منزل.

فأنت ترى أن جرجي زيدان ينسب للمعتزلة إنكار نزول القرآن، وهذا كفر محض، وهو افتراء محض ناشيء من سوء الفهم، وعدم الإلمام بأطراف المسألة، وجهل بالمسائل الكلامية.

ولا نودّ هنا أن نقف مع مؤلف التمدّن الإسلامي فنكشف أخطاءه المتعمدة وغيرها. فنحن قد سجلنا عليه الكثير من ذلك، ويكفي هنا تغييره لهذه المسألة، وتحويلها من الصراع الفكري الحاد إلى جمود لا يتعدى الخلاف بمفهوم اللفظ اللغوي الذي يجعل المسألة من أبسط المسائل وأوضحها. وإن إطلاق المخلوق على المكذوب أمر لا يحتاج إلى أبحاث علمية ومنازعات كلامية بين المعتزلة والمحدثين.

وكما قلنا إن الحنابلة قد انتصروا على خصومهم بما كان لكلمة مخلوق من دلالة، وهي أنه مكذوب. وبهذا استطاعوا أن يحرّكوا شعور المجتمع ضدّهم. ولكن قوة الحكم وعنف المؤاخذة وحمل الناس قسراً على القول بخلق القرآن جعل للمعتزلة قوة يتحصّنون بها. حتى إذا حان الوقت، وزال ذلك الحكم، وتبدّل وضع الدولة؛ فشل المعتزلة فشلاً ذريعاً، ونالهم الأذى، ونسب الناس إليهم كل قبيح. وكان لثبات أحمد، وللظروف التي ساعدته على ذلك أثر في طلوع نجمه، بعد أن أفل نجم المعتزلة بقيام المتوكل العباسي، ورفعه للمحنة. ولعل من هذا الفهم لكلمة مخلوق، واتهام المعتزلة بأنهم ينفون وجوده وتنزيله، كان للمتوكل شأن بين المحدّثين، فجمع العلماء من الفقهاء والمحدثين وكان فيهم ـ كما مر بنا ـ مصعب الزبيري، وإسحاق بن أبي إسرائيل، وإبراهيم الهروي، وعبد الله وعثمان ابنا أبي شيبة، فقسمت بينهم الجوائز، وأجريت عليهم الأرزاق، وأمرهم المتوكل أن يجلسوا للناس، وأن يحدّثوا

بالأحاديث التي فيها الرد على المعتزلة والجهمية، وأن يحدثوا بالأحاديث في الرؤية. فجلس عثمان بن أبي شيبة في مدينة المنصور، ووضع منبراً، واجتمع عليه نحو من ثلاثين ألفاً. وجلس أبو بكر بن أبي شيبة في مسجد الرصافة، واجتمع عليه نحو من ثلاثين ألفاً.

ويلاحظ من هذا أن مشكلة خلق القرآن كانت قضية سياسية بدءاً وختاماً، فقد قام المأمون بفرض ما يرتئيه، وحمل الناس قسراً على معتقده، وامتحن الناس بعنف وشدة، فقرّب من يقول بمقالته، وعاقب من يخالفه بألوان العذاب. وعلى ذلك سار خَلَفُه، وقد حاولوا جعل الاعتقاد بخلق القرآن عقيدة رسمية، فقد كان أحمد بن أبي دؤاد يأمر المعلمين في الكتاتيب أن يلقنوا الصبيان أن القرآن مخلوق، وأن يصبح ذلك من الدروس التي يلزم تدريسها في معاهد التعليم، لينشأ الجيل الجديد على عقيدة الاعتزال التي فرضتها الدولة، وامتحن الناس بها.

أما في النهاية، أي في دور المتوكل، فكان الأمر كسابقه يتّصف بالقهر والعنف والشدة، وحمل الناس على ما ترتضيه الدولة من القول: بأن القرآن غير مخلوق. وهكذا ضاع جوهر المسألة، وابتعدت عن مقوماتها العلمية وما تحتاج إليه من دراسة، وتقديم الطرق العلمية نفياً وإثباتاً، بل زاد الأمر تعقيداً باستعمال لفظة مخلوق أي مكذوب، وأشيع في الناس أن المعتزلة يذهبون إلى أن القرآن غير منزل من الله تعالى. والمعروف أن المعتزلة على اختلاف فرقهم ومتكلّميهم لم يكن أحد منهم يذهب إلى ما اتهموا به من الطعن في القرآن والتشكيك في أنه منزل من عند الله، وقد صدروا في نظريتهم عن الصفات، ومنها صفة الكلام التي ترتب عليها قولهم بأن القرآن مخلوق عن إيمان صادق حرصوا فيه على تأكيد وحدانية الله وتنزيهه، حتى وسموا بأهل العدل والتوحيد.

وفي عهد المتوكل سار الناس على غير هدىً ولا وضوح للمسألة، بل كان الأمر سياسياً وخارجاً عن دائرة النزاع العلمي الذي يؤدي إلى نتائج واضحة سلباً أو إيجاباً، ولعل أكثرهم يودّ التعرّف على حقيقة الأمر، ويكتم ذلك خوفاً من السلطة. ومن الأحداث ما يصرّح باعتلاج النفوس وازدحام الأذهان بالتساؤلات التي تدور بين طبقي رحى السلطة والتعنّت. فالإمام أحمد لايني عن تكفير من تسوّل له نفسه الاستفسار أو تحرّي الحق، ولا يتردد في معاملتهم كالمُرْتدّين، فكلام الله غير

مخلوق، ومن قال أنه ملخوق فهو كافر بالله العظيم، ومن لم يكفّر قائله فهو كافر، أو إنهم كفار يستتابون.

واستمرّ أصحابه على نهجه، كما باتت فرص تحكّمهم في الناس من خلال السلطة أكبر. وورث أنصارهم هذا المنحى في التعنّت والتزمّت.

وإلى هنا نتوقف عن الحديث عن أحمد.. وننهي الجزء السابع من كتاب «الإمام الصادق» وسيليه الجزء الثامن بعونه تعالى وتوفيقه.

الجزء الثامن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾
[الكهف: ١]

- ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا﴾ [الكهف: ٢٩]

- ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾
[طه: ٧٥]

- ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٥٢]

- ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾
[المائدة: ٥٦]

مقدمة وتمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على هدايته لدينه، والتوفيق لما دعا إليه من سبيله، وأصلي على محمد خاتم الأنبياء وخير الخلق، وعلى آله الطيبين الطاهرين، ومن اتّبعه ووالاه.

هذا هو الجزء الثامن من كتابنا (الإمام الصادق والمذاهب الأربعة) وقد أكملته وأنا في سنّ ألمّت بي الأعراض والأمراض، وفي حال من الغربة يزيد من موانع التواصل بالكتابة والتأليف، ولكنّي تحاملت على الأيام، وناجزتها بقوى واهنة وذهن مكدود، وأنا مؤمن بأن ضعف البدن وفتور البال يتحوّلان بالإيمان إلى طاقة خلاّقة، وقد قال الإمام الصادق عليه السلام: «ما ضعف بدن عما قويت عليه النيّة».

ولم يكن الجزء الثامن وحده هو ما انعقدت عليه النيّة، وإنما بين يدي كتبي الأخرى التي لم ترَ النور بعد، وأمامي تنقيح وإضافة بعض الزيادات إلى ما طبع منها ككتابنا: (مع الحسين في نهضته). وأنا في ظرف اقتضى أن أتجه فيه إلى مهمات الإرشاد وواجبات العمل الديني، فقد واجهت صعيداً يستلزم الجهد الذي يضني، وفيه كل ما تضمّه القربة إلى الله دون بهارج الدنيا ومنافع المادة التي تؤثر في قوة العمل.

وإذا ما استراح الذهن من الأفكار التي تلحّ عليه، تعلّق بماضي الأيام حيث كان الوقت مستغرقاً في البحث والكتابة، وما هي إلا أيام تفرغ وفترات تخصص يركض طالب العلم فيها بنهم وراء المعرفة، ويسعى كل يوم للحصول على المادة التي يحتاجها في بحثه، فإن عدمت في داره؛ اتجه إلى مجامع الفكر ومؤسسات العلم. فسلام على مدينة العلم، وتحيّة مقرونة بآهة ودمعة وحسرة، وصلوات الله على أمير المؤمنين ووصي رسول رب العالمين، صلوات دائمة حتى يتشرّف جسدي بتراب.أرضه، فإن الأيام تمرّ، والعوارض تزداد، والعمر إلى نفاد، ولم تتحقق بعدُ أمنية العودة.

ولقد عانيت كثيراً وأنا أعمل على إكمال الجزء الثامن من كتاب الإمام الصادق فقد رأيت أن ما أكملته من كتب وبحوث ـ على شدّة حرصي وكثرة متابعتي في إنجازها ـ قد ضمّت بعض الأخطاء الإملائية وغيرها التي لا تخلّ بالسياق. فبذلت جهدي في التصحيح كما حدث في كتابنا المخطوط: (الجريمة بين الشرع والقانون) وكتاب (العلوي الثائر) وقد كنت أتمتع ببقايا البصر، فكيف الآن وقد أصبحت أعاني من (الزرقاء) معاناة شديدة مما اضطرني إلى الاعتماد على الإملاء على الأحبة والأصدقاء، وإذا ما أمسكت بالقلم لأكتب، فإن القدرة لا تتجاوز بضع كلمات. وقد نظرت فيما لفت نظري من تلك الأخطاء، فوجدتها بسبب النقل والجمع والتصنيف ونسخها بأكثر من يد. فأرجو مراعاة ما فاق الطاقة وهي في أواخرها، والنظر فيما عجزت عنه القدرة وهي في ضعفها، والله ولي التوفيق.

وتصبح الكتابة صعبة وشاقة عند التحوّل إلى طريقة الإملاء على الغير، والبحث في المصادر بواسطة وعون، أضف إلى ذلك أن ما معي من الكتب والمصادر قليل جداً، ولم يتيسّر في نطاق العلاقات هنا ما يسدّ الحاجة، فألجأ إلى الذهاب إلى المكتبات للاستعارة، ولم أجد في هذا المجال ما يقتضي التنويه أو يستحق الشكر إلا ما قدّم لي من يد في النسخ والكتابة، أضرع إلى الله أن يسدّد ويوفق كل من قدّم يد العون من الأهل والأصدقاء.

والقصد، فإن هذا الجزء الذي أقدّمه إلى القرّاء كان من أكثر الأجزاء تطلباً للجهد والمعاناة، وكنت عندما أجد في نفسي الضعف ـ بفعل عوامل السن ومقتضيات العمر ـ اتجه إلى الأعمال الأخرى، فأبحث فيها، وأدوّن مادّتها، لأن هاجس الأجل وانقضاء العمر يحملاني على أن أوزّع ما استشعره من إمكانية على كتبي، ويعلم الله أني أنظر إلى فراقها كما أنظر إلى فراق الأهل، وأرجو لها كما أرجو لهم أن أتركها على حال يمكنها من تحقق الغرض وتحقيق الأمل.

وفي الجزء الثامن من (الإمام الصادق والمذاهب الأربعة) تناولنا أهم المواضيع التي تتعلق بحياة الإمام الصادق، وبحثنا حياة الإمام مالك والإمام الشافعي، بعد أن عدنا إلى الحديث عن حياة الإمام أبي حنيفة والإمام أحمد في الجزء السابع، وتناولنا بعض الأمور التي لم نبحثها عن أئمة المذاهب الأربعة في الأجزاء السابقة من الكتاب.

ولأن امتداد حياة الإمام الصادق عليه السلام كان عبر عهدين ونظامين للحكم، فقد كانت حياته غنيّة بالأحداث والتحوّلات والمواقف، كما أن حياته عليه السلام قد امتدت

عبر سيرتين ومرحلتين لنظام الإمامة وتاريخ أهل البيت النبوي عليهم أفضل الصلاة والسلام. فتعلّق جزء منها بحياة جدّه الإمام زين العابدين عليه السلام، كما تعلق شطر منها بحياة أبيه الإمام الباقر عليه السلام، فكانت حياته عليه السلام من هذا الجانب زاخرة بالمواقف والأفعال والمبادىء، حتى جاءت شخصيته عليه السلام وأفكاره وتعاليمه على مستوى من التكامل والنضج، ومن العمق والغنى، ما جعلها مكافئة للأخطار والمهالك التي تحيط بالإمامة وتهدّد الأمة والمجتمع الإسلامي، فقد تسلّم الزعامة الروحية وتولى الإمامة في مرحلة شديدة الصعوبة، ولولا آثار الإمام الصادق عليه السلام وما نتج عن نهجه الفكري ونشاطه العلمي، لكانت آثار النظامين الحاكمين، ونتائج أعمال الطغاة، وما وجّه إلى الأمة الإسلامية من ضربات تستهدف عقيدتها وسلوكها من قبل أعداء الدين، قد أسلمت الكيان الإسلامي بكل جوانب وجوده ووجوه بقائه إلى أزمة حادة أو مشكلة مستديمة. لكن جهد الإمامة، وحكمة استمرار الرسالة في وصاية الولاية، أبقت جذور العقيدة راسخة، وحفظت أركان الدين قائمة برغم انشغال حكّام الزمان بحماية سلطانهم، وانتهاجهم البطش والقسوة، حتى كانت صورة المجتمع الإسلامي محاطة من جهة بظلم الحكام وجبروتهم، ومن جهة أخرى بأعداء الإسلام وأفكارهم، ومن جهة ثالثة بألوان ضعف الإيمان والبعد عن الدين. ويبرز في قلب هذه الصورة شخصية المصلح الفذّ والقائد المخلص، فيحيل ظلمات الجهل إلى مشارق أنوار، ويخلق تلك النهضة الفكرية والحياة العقلية التي نهل منها أئمة المذاهب وعلماء المسلمين، والتي حصّنت الأمة ضد حركات الأعداء، وحفظت الفكر من تيارات الإلحاد والزندقة.

وقد رأيت أن أبدأ الكتاب بشيء من سيرته يلخّص ما بسطنا به القول في الجزئين الأول والثاني من الكتاب، وقدّمت عرضاً للفترة السياسية الزمنية، وأسماء الملوك الحكام الذين عاصرهم الإمام الصادق عليه السلام حتى تكون أمام القارىء الذي لم يتهيأ له قراءة أجزاء الكتاب التي ضمّت تفاصيل القول في هذه الفترة الزمنية السياسية، صورة عن الأحداث والتحولات التي عاشها الإمام الصادق. ثم سقنا نظرة إلى حوادث عصره لتكون عقب الشيء الذي قدّمناه من سيرته متكاملة في إطار الصورة التي نريد.

ولمّا كنت قد أنهيت كتاب: (حياة الإمام الصادق)[1] فقد نهجت في هذا الجزء

---

(١) سنقدمه للطبع إن شاء الله بعد الفراغ من طبع الجزئين السابع والثامن من الإمام الصادق والمذاهب الأربعة.

على عرض المواضيع التي تتصل بإبراز شخصية الإمام الصادق في إطار المقارنة أو في سياق المرحلة السياسية مما لم يدخل في أغراض الكتابة عن حياة الإمام بشكل منفرد.

ولهذا ضمَّ الجزء الثامن عرضاً لمنهج العمل عند الإمام الصادق في مواجهة الطغاة، والمسلك الذي اتبعه عليه السلام في تجنيب الأمة المآسي، وإبعاد أنياب الحكّام ومخالبهم عن جسد المجتمع الإسلامي، والاتجاه إلى المستقبل ببناء النفوس وعمارة الأذهان بذكر الله والتمسّك بتعاليم الدين، وهو ما ميّزه ليس على صعيد الأمة الإسلامية، بل وفي داخل الدوحة المحمدية والشجرة العلوية، حتى استطاع أن يقيم صرحاً فكرياً شامخاً تمثّل في مدرسته التي انتسب إليها علماء الأمة ورجالها، وأن يجعل من (الدعوة الصامتة) التي وضع بذرتها جدّه الإمام زين العابدين عليه السلام منهجاً ونظاماً.

كما تضمّن الجزء الثامن بحثاً في (الدعوة الإسماعيلية) وقد كان ذلك مما تفرّع عن البحث في أبناء الإمام الصادق عليه السلام حيث تناولنا موضوع الإمامة بعد الإمام الصادق عليه السلام ودلائل النص على إمامة إبنه موسى بن جعفر. إلى غيرها من الأمور التي قامت الإسماعيلية على إنكارها، والمواضيع التي تطورت منها، وقد حرصنا على تجنب الخوض فيما يمكن أن يستغني البحث عنه، واقتصرنا على القضايا الأساسية في ابتعاد الدعوة الإسماعيلية عن مذهب الإمام جعفر الصادق وعقائد الشيعة الإمامية، ولم ندخل في تفاصيل ودقائق ذلك لظرف قدّرناه، فأهملنا الكثير، ولكن لم نقف دون ذكر الحقائق أو الإتيان بالوقائع.

وأخيراً، فلا بد من كلمة سبق أن نوّهت بمعناها في أكثر من مورد في ثنايا البحث عن حياة الإمام الصادق، فإن شخصية الإمام الصادق تبقى بحاجة إلى مزيد ومزيد من البحوث والتصانيف، وخاصة أفكاره وتعاليمه التي تضمّ ثروة كبرى.

كما لا بد من القول أن سمو منزلته العلمية وعلو مكانته الدينية لا تؤثر فيهما دواعي التعصب أو بواعث الإساءة، فلقد عفى التاريخ ما أراد له أعداؤه من صورة، وأتت الأيام على محاولات الحكام وأنصار الظلمة، وبقيت صورة الإمام الصادق التي يُجمع العلماء على إشراقها ونورها. فهو أعلم زمانه، وإمام علماء عصره، وسيّد أمة جده.

وأرجو من الله أن لا يكون هذا آخر العهد بخدمة أهل البيت عليهم أفضل الصلاة والسلام، وأن يمنّ عليّ بالقوة والطاقة لإكمال المسيرة وتحقيق الآمال، والله من وراء القصد.

الكويت/ محرم الحرام/ ١٤٠٤

الإمــام الصــــادق

شيء من سيرته، ونظرة إلى حوادث عصره

الإمام الصادق هو أعظم شخصية في عصره وبعد عصره، وسيبقى مثالاً للعالم الذي استطاع أن يؤدي للأمة خدمات لم يمحُها بُعد الزمن وتقلّب الحوادث واختلاف الظروف. فقد واجه عليه السلام مسؤوليات جسام ومخاطر عظيمة تهدّد مبادىء العقيدة الإسلامية ووجود المجتمع الإسلامي، وتتجلى عظمة الإمام الصادق في تصدّيه لتلك الأخطار على تعدد مصادرها واختلاف عناصرها، فلم يهدأ في صد هجمات الأفكار وموجات التشكيك والإلحاد.

ولم يقعده الضغط السياسي الذي استعمله أولئك الحكام الذين حاولوا أن يُخضعوا لسلطانهم الروح المعنوية التي يتصف بها علماء الإسلام، فيربطوا العلم بعجلة مسيرتهم، ويسخّروا الّدين لأغراضهم.

وقد حفظ التاريخ لنا ملامح شخصية الإمام الصادق واضحة جلية وهو في خضم ذلك المعترك القاسي. ويبرز دوره عليه السلام في الحفاظ على أصالة الفكر الإسلامي، وفي الذود عن كيان الأمة، وفي حماية الرعية من ظلم الحكّام والطغاة، إلى غير ذلك من جوانب الحياة الإسلامية، وهو في ذاته هدف السياسة وغاية الحكم، حيث كان الطغاة على اختلافهم يسعون إلى القضاء على شخصيته لما تمثّله من قوة روحية وسلطة دينية.

ومن عظيم الآثار والمفاخر الفكرية، أن يتمكن عظيم كالإمام الصادق ـ وهو على مثل تلك الأخطار ومواجهة سياسة الحكام ـ من تأسيس مدرسة إسلامية استطاعت أن تطلق الفكر الإسلامي من عقال الجمود، وتوسّع دائرة المعرفة بنشر العلوم الإسلامية، والدعوة إلى التمسّك بتعاليم الدين وأفكار العقيدة الإسلامية حتى

سارت بذكره الركبان، وازدحمت على مجلسه الوفود من شتى الأقطار، فكان بحق أعلم أهل عصره، ولم يكن هناك أعلم منه. وقد أعلن عليه السلام للملأ بقوله: «سلوني قبل أن تفقدوني فإنكم لن تجدوا أحداً مثلي»(١).

وقد شهد له علماء عصره من تلامذته وروّاد مجلسه كمالك ابن أنس وأبي حنيفة والسفياني(٢).

وكان عصره يتّصف بمفارقات أوجدت مشاكل عديدة أثقلت كاهل كل مسلم يحسّ بواجبه تجاه أمته عندما اصطدمت بأمور مُحدَثَة يغلب عليها طابع المصالح الذاتية، وشاعت مظاهر الفساد وترسّخت اتجاهات الشذوذ عن العقيدة والابتعاد عن الإسلام، رغم أبراد التديّن التي لبسها الحكام ورسوخ دعائم سلطانهم باسم الدعوة إلى الإسلام والقيام بأمر الخلافة وشؤون النظام.

وكان للتحول السياسي الذي شهده عصر الإمام الصادق أثر في تعقيد الأوضاع وقيام موجة من الاضطراب، هددت أمن المجتمع الإسلامي، ورمت به إلى معترك هامٍ قضى على بقايا استقراره.

وعندما ظهرت الدعوات المختلفة، وقامت الثورات المتلاحقة، وكلٌ يدعي المحاماة عن الدين والدفاع عن شريعة محمد ﷺ وقف الإمام الصادق عليه السلام وسط تراكم الأحداث وانعطاف الأسباب وحدوث التطورات موقف مسؤولية كبرى من حيث التصرف الذي تقتضيه المرحلة والمسؤوليات التي تطرحها الظروف القائمة على أهل بيت النبوة، والعمل المطلوب أمام تلك المشاكل. فهم رجال رضعوا لبن الفضيلة، وتشرّبت دماؤهم العقيدة الإسلامية، وقدّموا في ميادين الفداء أعظم التضحيات، وبذلوا كل إمكانياتهم في سبيل نشر الدعوة الإسلامية. فقد واكبوا تلك الدعوة في يومها الأول، وعاصروها على مرّ الزمن، حتى باتت لباسهم الحق وسمتهم الأصيلة.

والإمام الصادق وُلِدَ في مهبط الوحي، وترعرع في مهد الرسالة، وتدرّج في

---

(١) و(٢) الذهبي تذكرة الحفاظ ج١ ص١٥٧. ومناقب أبي حنيفة للموفق المكي ج١ ص١٧٣. وانظر الجزء الأول والثاني من الإمام الصادق والمذاهب الأربعة.

ربوع النبوة يتفيأ ظلال الإيمان، ويتغذّى تعاليم الإسلام من مصدرها الأول ومنبعها الطاهر، ولما قام بأعباء الإمامة كانت الأمة الإسلامية تمرّ في هذا المنعطف، وتنحدر إلى التفرّق والتمزّق. فوقف الإمام الصادق عليه السلام موقف المصلح العظيم والزعيم المحنك، ونظر إلى واقع الأمة وما يحيط بها من مشاكل وأخطار نظرة متفحّصة وعميقة، فأخذ نفسه بمنهج فكري وعملي يتعاهد المسلمين بالرعاية ويتكفّلهم بالحماية. ولولا العناية الإلّهية التي تتجلى في سرّ الإمامة واختيار صاحب نصها وولايتها، لما تمكن بشر من النهوض بتلك الأعباء والمسؤوليات التي تترتب على الزعامة الدينية والمنزلة الروحية. ويمكننا القول أن عصر الإمام الصادق كان حلقة التواصل في حياة الأمة الإسلامية.

وهنا نقدم أضواءً من سيرته وحياته.

ولادته:

فهو أبو عبد اللّه جعفر الصادق، بن محمد الباقر، بن علي زين العابدين، بن الحسين سبط رسول الله، بن علي بن أبي طالب عليهم السلام. ولد بالمدينة المنورة يوم الجمعة أو الاثنين عند طلوع الفجر يوم ١٧ ربيع الأول سنة ٨٣هـ وقيل سنة ٨٠هـ وقيل غرة رجب أو غرة شهر رمضان. والمعتمد الأول هو يوم ١٧ ربيع الأول يوم ولادة رسول الله كما عليه عمل كثير من المسلمين.

أمه:

أم فروة، وقيل أم القاسم، واسمها قريبة أو فاطمة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر.

أمها: أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر. وكانت أم فروة قد ولدت للإمام الباقر ولدين هما: الإمام الصادق وعبد اللّه أو عبيد اللّه. وأم فروة كانت امرأة ذات معرفة وعلم بأمور الدين، أخذت عن الإمام الباقر ما أهّلها لمكانة سامية ودراية كبيرة بالعقيدة والرسالة، وقد تلقّت عنه أحاديث متنوعة، وروتها عنه.

روى عبد الأعلى حادثة تدل على مكانتها وعلمها، قال: رأيت أم فروة تطوف بالكعبة عليها كساء متنكرة، فاستلمت الحجر بيدها اليسرى، فقال لها رجل ممن يطوفون: يا أمة الله أخطأت السنّة؟

فقالت: إنّا لأغنياء عن علمك.

أبوها: القاسم بن محمد بن أبي بكر. كان من الفقهاء السبعة، وقد روى له أصحاب الصحاح الستة، كان قريباً من الإمام علي زين العابدين ومن ثقاته. أما جدّها فهو ربيب أمير المؤمنين الإمام علي. وكان منه بمنزلة أحد أولاده، اتصف بالثورة على الانحراف، ولعب دوراً مهماً في إبعاد الأذى عن المسلمين.

كنيته وألقابه:

يكنّى عليه السلام بأبي عبد الله، ويلقب بالصابر والفاضل والطاهر[1]. والعالم[2] وأشهر ألقابه الصادق لصدق حديثه، وعرف بذلك، واشتهر بين علماء عصره وبعده، لأنه ما جرى عليه قط زلل، ولم يتوقف أحد عن رواية حديثه والأخذ بقوله، ولم يستطع أحد الطعن في أقواله ورواياته. وأما قول البخاري: في النفس منه شيء، فلم يخرج حديثه، فذلك يعود لنفسية البخاري وما فيها، ولا يؤثر ذلك على ما أطبق عليه العلماء، ويكاد يكون العصر كله شاهداً، وقد تعرضنا للبخاري فلا حاجة إلى العودة إليه مرة أخرى. فالإمام الصادق (نقل عنه من العلوم ما لم ينقل عن غيره، وكان إماماً في الحديث)[3].

صفته:

ووصفوه عليه السلام بأنه ربع القامة، أزهر الوجه، حالك الشعر، أشم الأنف، تكسوه الهيبة، ويعلوه الوقار، حسن المجالسة، كثير النوال. ولم يَخْلُ عن ذكر الله والثناء عليه، وكان لا يخلو من ثلاث خصال: إما قائماً وإما صائماً وإما ذاكراً. كان من أكابر العبّاد وعظماء الزهّاد الذين يخشون ربهم، كثير الحديث عن رسول الله، كثير العواد. كان نقش خاتمه (ما شاء الله لا قوة إلا بالله).

وكما أشرنا، نشأ عليه السلام في المدينة المنورة عاصمة الإسلام وموطن الصحابة والتابعين. وقد شهدت هذه المدينة أوج عظمة النظام الإسلامي، فهي مهبط الوحي والتنزيل، تقصدها الوفود من جميع الأقطار، وينتهل منها علماء الأمة.

---

(١) تذكرة سبط ابن الجوزي ص٣٥١.

(٢) تاريخ ابن واضح.

(٣) سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب.

كان الإمام الصادق يحظى برعاية جدّه لأبيه الإمام علي بن الحسين زين العابدين، وهو معلّمه الأول حيث لازمه مدة ثماني عشرة سنة، فترعرع في ذلك الجو الذي يفيض بعبق النبوة، ويستلهم دروس التضحية الكبرى، حيث يهزّ الناس أثر الفجيعة والمأساة، ويرتسم على كل وجه ألم المصاب عندما تطوف ذكرى استشهاد الحسين وخروجه من المدينة، وذكرى يوم الحَرّة وإباحتها، فتلتهب النفوس وترتبط برابطة الاتصال بآل محمد كلما أوغل الحكام في الظلم وسفك الدماء ومطاردة الأحرار من المسلمين، وهدم دور الصلحاء والمتعبدين، وذلك في العهد الأموي الأسود.

توفي جده الإمام زين العابدين سنة ٩٤هـ فعاش مع أبيه الإمام الباقر الذي كان موضع اهتمام العلماء وموئل الفقهاء، وكانت حلقة درسه تعقد بالمسجد النبوي ـ وهي المدرسة الكبرى لطلاّب العلم ورجال الحديث ـ فلا تعقد هناك حلقة إلا بعد انتهاء الباقر من حديثه.

وحضر عنده جمع من الفقهاء أمثال: عمرو بن دينار الجمحي، وعبد الرحمن الأوزاعي، وابن جريج، ومحمد بن المنكدر، ويحيى بن كثير، وزيد بن علي.

وخلال تلك الفترة كان الإمام الصادق على اتصال مباشر بالحركة الثورية والنهضة العلمية، وإليه تتجه الأنظار من بعد أبيه لنبوغه وتضلّعه في الفقه وتبحّره في الدين، ولكثرة ملازمته لأبيه في حلّه وترحاله؛ إذ دخل معه الشام ومكة المكرمة، وظهرت عليه علائم الفضل وشرف العلم، وعزة النفس وصدق اللهجة، والمهابة والجود وكرم الأخلاق.

ويقول عمرو بن المقدام: (إذا نظرت إلى جعفر بن محمد، علمت أنه من سلالة النبيين)[١] حتى إذا وافى أباه الباقر الأجل، وانتقل إلى جوار ربه، قام بأعباء الإمامة وتفرّد بالزعامة، وكانت مدة إمامته أربعاً وثلاثين سنة.

وقد كابد مرارة النكبات الواحدة تلو الأخرى، وعاصر آثار الفجيعة التي منيت بها الأمة بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام وإباحة المدينة ثلاثة أيام في وقعة الحرّة،

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي ج٢ ص٩٤. ينابيع المودة للقندوزي الحنفي ص٤٥٧. وتهذيب التهذيب ج٢ ص١٠٤.

ورمي الكعبة والاستهانة بحرمة الحرم، كما شاهد موقف عمّه زيد ونهايته المفجعة التي انتهت إليها ثورته.

لقد جرّب الإمام الصادق شراسة السلطة وعنفها واضطهاد الأمة والاستهانة بحقوقها وعدم المبالاة بالدماء، فسلك طريقاً لمحاربتها والوقوف بوجهها يحول بين الحكام وبين ما يعملون من أجله في سياستهم وسلوكهم.

أكد الإمام على نشر الوعي، وحث الأمة على التسلح بسلاح العقيدة، فكان رائداً صادقاً، ودليلاً خبيراً في مجال العمل وحفظ التراث الإسلامي في عصر تطور الحركة الفكرية، والتحولات السياسية الحديثة، وأن المكانة الحيوية التي يتبوؤها بمزاياه العالية وغزارة علمه، قد جعل الكثير من الناس يتوقعون منه أن يسهم في المعترك السياسي الذي اشتد في عصره والذي تمخض عن ثورات متتالية.

وظنوا أنه سيشارك في أحداث ذلك المعترك، وتعدى موقف الكثيرين من الصمت إلى المصارحة، فحرّضوه على الثورة والبدء بالانتفاضة، ظناً منهم بأن الزمن قد حان لقيام حكومة عادِلة ودولة تسير وفق نظام الإسلام وقوانينه، بعد أن تجرّدت الدولة الأموية من كل المقومات الروحية، فعبثت بمقدرات الأمة، وهتكت مقدّسات الإسلام وحرماته، ولا يزال يوم الحسين ماثلاً لا يمحى أثره، وصرخته مدوّية على مرّ الزمن، ووقعة يوم الحرّة لا زالت شاخصة أمام الأعين، وحوادثه تحدث عاصفة غضب وهزّة استنكار، ولا تخلو جدران المدينة ولا الحرم الشريف من قطرات الدماء الزكية.

ولكن الإمام الصادق لم يمل إلى جانب من استماله، فهو لم يخدع بالآمال البرّاقة، ولقد عرف نزعات الناس وميولهم، وطبيعة الموقف الذي يتخذونه، والغايات التي من أجلها كان تحريضه، وقد زودته تجربته الكبرى وعلمه بما وراء الحوادث بالقدرة على تمييز بواعث تلك التحركات، ومعرفة مقتضيات الحال، والتي كان يجهلها الكثيرون ممن راحت تضطرب نفوسهم بمشاعر صادقة تتأثر بالأحداث وتنفعل.

فكانت نظرته جوهرية مبنية على استيعابٍ تامٍ لدور الدين في الحياة، ومقدار تأثر تلك الجموع به وخضوعهم له.

وقد شخّص خطورة الموقف، وعرف غايات الدعوة وأهداف القادة، فكان رفضه لطلباتهم من أهم ما يحتّمه عليه واجب الدعوة لمصالح الأمة.

فقد أدت غلبة المصالح وتنازع الأسر إلى ضياع الناس، وارتباطهم بما قام في المجتمع من تيارات منحرفة ومبادىء نفعية تستخدم الإسلام تعدياً وظلماً، فكان لا بد من أن يهيء الله لهذه الأمة قائداً يمثل المبادىء الحقة، ويكشف ـ من خلال الالتزام المطلق والنهج الروحي القويم ـ عقم الحركات التي لا ترى أبعد من المصالح القريبة، وتعجز عن استشفاف الآفاق، وتَمَثّل النتائج البعيدة. فكان الإمام الصادق في نظرته العميقة وتحسّسه لضرورات الدعوة ومتطلبات استمرار الرسالة. يدعو إلى عدم الإسهام في الاضطرابات، وحماية المجتمع، وتجنيبه خطر الحروب التي يجني ثمارها أعداء الدين. ولما عهد عنه من علم ومكانة دينية، فهو مرهوب الجانب يحسب لرأيه ألف حساب. وقد كان تحركه ونشاطه يلقي رعباً في قلوب أولئك الحكّام كما عبر المنصور عنه بقوله: (بأنه الشّجى المعترض حَلْقه) لموقفه المؤثر الحساس، ولميل الناس إليه.

وقف الإمام الصادق في تلك الظروف القاسية موقف الصلابة في إيمانه، والثبات في عقيدته، والإخلاص في أداء رسالته، فكان رائداً كبيراً في مجال مواجهته الفعلية ضد السياسة التي تأخذ آفاقاً جديدة، وتلجأ إلى أساليب بعيدة عن روح الإسلام ومبادئه. وقد امتدت حياته عَبْرَ عصرين متناحرين سياسياً وفكرياً، فقد عاش في آخر خلافة عبد الملك بن مروان إلى وسط خلافة المنصور الدوانيقي ـ العصر العباسي ـ أي من سنة ٨٣هـ إلى سنة ١٤٨هـ إذ أدرك من خلافة الأول ثلاث سنين أو ست سنين أي من سنة ٨٠هـ أو ٨٣هـ إلى سنة ٨٦هـ وهي السنة التي توفي فيها عبد الملك بن مروان، ومدة خلافته ثلاث عشرة سنة وأشهر، ثم مَلَكَ الوليد بن عبد الملك سنة ٨٦هـ وتوفي سنة ٩٦هـ وكانت مدة خلافته تسع سنين وثمانية أشهر.

ثم ملك أخوه سليمان بن عبد الملك، وتوفي سنة ٩٩هـ وكانت مدة خلافته سنتين وثمانية أشهر.

ثم ملك بعده عمر بن عبد العزيز بن مروان المتوفى سنة ١٠١هـ ومدة خلافته سنتين وستة أشهر.

وملك بعده يزيد بن عبد الملك بن مروان المتوفى سنة ١٠٥هـ وكانت مدة خلافته أربع سنين وشهراً.

وملك بعده هشام بن عبد الملك المتوفى سنة ١٢٥هـ وكانت مدة خلافته عشرين سنة إلا شهراً.

وملك بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك الفاسق المتوفى سنة ١٢٦هـ ومدة خلافته سنة وثلاثة أشهر.

وملك من بعده يزيد بن الوليد بن عبد الملك المتوفى سنة ١٢٦هـ.

وملك بعده أخوه إبراهيم، ولم تطل أيامه، وتنازل لمروان الحمار بن محمد بن مروان بن الحكم سنة ١٢٧هـ وكان مروان آخر خلفاء بني أمية، وقتل سنة ١٣٢هـ وكانت مدته خمس سنين وعشرة أشهر، وهي فترة الانحدار والسقوط التي شهدت حروباً متوالية وثورات متعددة لتنتهي الدولة الأموية بنهاية مروان.

كانت المدة التي عاصر الإمام فيها هؤلاء الحكّام - الذين سبق ذكرهم من الأمويين - لا تقل عن ثمان وأربعين سنة وهي بأشخاصها وزمانها تكفي لكشف المراحل التي عاشها الإمام الصادق عليه السلام، وهي حافلة بالمآسي والويلات التي منيت بها الأمة. إذ انجرف الأمويون وراء شهوات الحكم، وراحوا يسخّرون الدولة لأغراضهم وتوطيد نظامهم، فعمَّ الظلم جميع الطبقات وكل المسلمين، ولم يسلم من شرّهم إلا من سار في ركابهم، وجار عن سواء السبيل.

لقد كانت لغة الدم هي السائدة وكانت وسيلة العنف هي المتبعة، وكم من إمام وعالم وفقيه قتل على أيديهم واستشهد في عهدهم. وأولى الحكم الأموي أهمية بالغة للطالبيين، فرصدوا حركاتهم، وقمعوا كل موقف بينهم لصد العدوان ومواجهة الظلم، وخرّ الشهيد منهم تلو الشهيد، وكان همّهم قتل أعيان العلويين وسحقهم، والنيل من الإمام عليّ، إلا الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي منع سب علي عليه السلام بعد أن كان قد أدخل في مناهج التعليم، وأعلنوا به على المنابر في الأندية والمجتمعات، لينشئوا جيلاً تربّى على بغض علي وأولاده.

قال أبو يحيى السكري: (دخلت مسجد دمشق فقلت: هذا بلد دخله جماعة من الصحابة، فملت إلى حلقة فيها شيخ جالس، فجلست إليه. فقال له رجل جالس أمامه: من هو علي بن أبي طالب؟ فقال الشيخ: خنّاق كان بالعراق، اجتمعت عليه جماعة، فقصد أمير المؤمنين - يعني معاوية - أن يحاربه، فنصره الله عليه.

قال يحيى: فاستعظمت ذلك، وقمت فرأيت في جانب المسجد شيخاً يصلّي إلى سارية وهو حسن السمت والصلاة والهيئة، فقلت له: يا شيخ، أنا رجل من أهل العراق جلست إلى تلك الحلقة ثم قصصت عليه القصة، فقال الشيخ: في هذا المسجد عجائب، بلغني أن بعضهم يطعن على أبي محمد الحجّاج بن يوسف. فعلي بن أبي طالب من هو؟)[1].

وإذا كان لنا من تعليق على هذه الحادثة، فهو لا يتعدى الصمت الذي يكشف ما فعلته السلطة، ومبلغ الجهل والعداء التي جنّدت له أجهزتها للنيل من الإمام علي عليه السلام، حيث لم يكن الأمر مقصوراً على ضرب القوى التي يدفعها إيمانها إلى الوقوف بوجه الظلم، بل راح الأمويون خلال ذلك يذهبون إلى ارتكاب الجرائم وخلق الأهوال. ولقد عانى الناس الضيم والعوز، إذ عملوا على زيادة الخراج، واتباع الطرق الظالمة، وأخذ الجزية ممن لا تجب عليهم الجزية.

لقد كان الأمويون يرون في العلويين منافسين أقوياء لهم، يستأثرون بقلوب الناس وحبّهم، وقد حاول جهازهم الديني والتشريعي والجنائي أن يعمل على إضفاء صفة التكامل والنضوج والقسوة على الحكم الأموي دون هوادة وبمختلف الأساليب.

وكان العلويون ـ عبر نشاطهم العلمي وموقعهم الديني ـ يتوغّلون في نفوس الناس، وتنشدّ إليهم الجموع، وتدين لهم بالولاء، إذ تمتعوا بقوة دون دولة، وعاشوا في منعة دون عنف؛ بل كان سلاحهم الإيمان، ودرعهم التقوى، ورغم انتهاء السلطة إلى الأمويين وتمتعهم بالقوة، لم يستطيعوا أن يغيّروا من الموقع الذي يحتله العلويون في نفوس الناس، فكانت حركاتهم وثوراتهم المستمرة ـ رغم نهاياتها المفجعة ـ تزيد من تقرّب الناس إليهم، ودنو المسلمين منهم.

نظرة إلى حوادث عصره:

ولا بد للباحث عن حياة الإمام الصادق من مواجهة عدة مشاكل تعترض سير البحث وتقف في طريق المؤرخ لحياة هذا الإمام العظيم.

وهي مشاكل كثيرة متشابكة، تكتنف البحث وتحيط بالموضوع، كما أن هناك

(١) المدخل إلى مذهب أحمد بن حنبل ص٥.

عدة أسئلة تفرض نفسها على الباحث، وتحتاج منه إلى إجابة تكشف عما استتر وراءها من أمور.

المشاكل ـ كما قلنا ـ كثيرة، منها: مشكلة الثوار الذين يرمقونه بأبصارهم من بعيد ويأملون إسناد الحكم إليه، ومشكلة النزعات الفكرية والصراع العقائدي، ومشكلة الغلاة، ولعلها أهم مشكلة تقف في طريق الباحث، بل أهم مشكلة تعترض سير الحقائق التاريخية، حيث استطاع التلاعب السياسي أن يوجد منها عوامل يتمكن من خلالها تحقيق أغراضه وأهدافه. وسنأتي لعرض موجز في البيان هنا لأنا قد أوضحنا في بحثنا الموسع ما يتعلق بهذه المشكلة[1].

وعصر الإمام الصادق يتصف ـ دون غيره من عصور الأئمة ـ بعوامل كثيرة، أهمها: التحول السياسي الذي حصل في أيامه، بل خلال أهم أدوار حياته، وذلك بانتقال السلطة من الأمويين إلى العباسيين بعد أن انتصرت ثورتهم باسم أهل البيت عليهم السلام ذلك التحول الذي أحدث تغييراً جذرياً في المجتمع الإسلامي، وفتح أمام المسلمين آفاقاً بعيدة المدى.

ولم تكن نتائج الثورة مجرد انتقال الحكم من أسرة إلى أسرة، بل هي في الواقع ثورة لها أثرها في تاريخ الإسلام، تعني نقطة فاصلة فيه لفعاليتها وآثارها، حيث أحدثت في المجتمع تغيّراً عميقاً وتحولاً سياسياً واجتماعياً اتسعت آثاره.

ولم يكن الإمام الصادق عليه السلام بالرجل الذي تهمل الأحداث موقفه، أو بمعزل عن ذلك المجتمع أو في منأى عن التأثر بتلك الحوادث المحيطة به، فهو كفرد يشمله ما يشمل سائر الناس، يعيش مع الأمة ويشاطرها آلامها ويتعرف على أحوالها. وقد كانت الأحداث تنتهي إليه لمكانته الاجتماعية والسياسية، فالثورة قامت على أساس دعوة دينية نظمت تنظيماً دقيقاً يضمن لها النجاح، ويمكّن جذورها من النمو في أرض زرعت بجثث الأبرياء وسقيت بدماء الشهداء. والدعوة قامت تحت شعار أخذ الثأر من مرتكبي المجازر والمظالم بحق العلويين، وكان يقوم ذلك على تنظيم سرّي يعمل بتكتم شديد، وهو يدور حول الدعوة لأهل البيت، وإسناد الحكم إليهم لأنهم أصحابه الشرعيون، ولا بد من الأخذ بثأرهم والانتصار لمظلوميتهم، لأن الدولة الأموية

---

(١) انظر الجزء الرابع من الإمام الصادق والمذاهب الأربعة.

عمدت إلى تصفية الحركات العلوية والقضاء على زعمائها بكل وسيلة. وقد جعل السواد لباس الدعاة، وشعاراً يرفع العرب إعلاناً للحداد على الحسين عليه السلام، فاندفع الناس لخوض تلك المعارك، لأنها معارك تهدف إلى القضاء على معاقل الظلم ورموز الضلالة والبدع، فانتشرت الدعوة، وكان أبناؤها على اتصال بالإمام الصادق عليه السلام، ودعاتها أكثرهم يأملون بإسناد الحكم للعلويين. فالعباسيون أنصار دعوة وجنود حركة وليسوا رؤساء!

فالدعوة إسلامية المبدأ، شيعية النزعة، لم يتمكن العباسيون من الإعلان عن نواياهم العدائية تجاه أهل البيت، بل عرفوا كيف يستغلون مشاعر الناس وتعاطفهم مع العلويين، وتستروا بدعوة الرضا من آل محمد. فسارت الجموع بحماس شديد سعياً وراء هدف سامٍ هو جعل الإمامة في أهلها الذين يستحقونها بجدارة من أهل بيت النبوة، حتى يصلح الله بهم ما فسد من الأمور وما اختلف فيه الناس.

وفي البيت العلوي رجال يصلحون لتولي الإمامة بظاهرها من حيث الدين والتقوى، ولكن ليس فيهم النص، ولم تكن إليهم الوصية، وإنما كانت لمن شملته العصمة وفاقهم في الخصال. وكلهم لا ينازع الإمام الصادق موقعه أو مكانته، وعندما بلغت الأمور ـ من الجانب السياسي ـ حداً يساعد على التغيير والتحول في السلطان، كان الإمام الصادق يمد ببصره إلى ما وراء الأحداث والمصالح القريبة، فما كان من أبناء عمه ممن نظروا إلى التحول والتغيير في حدوده المحسوسة، إلاّ أن طلبوا منه الدخول في ما عزموا عليه من إعلان الثورة وإسناد الثوار منهم، ولكنه عليه السلام رفض رفضاً باتاً.

وقد ذكرنا آنفاً أنه طلب من الثوار العلويين التريّث في الأمر ـ ولأهمية هذا الموضوع سنخصص له باباً آخر نبحث فيه الدقائق والتفاصيل ـ لأن قضية التفريق بين دواعي الموقفين واختلاف النظرتين قضية هي من الأهمية بمكان لا تنتهي بانتهاء ظرفها، ولأن الإمام الصادق دفع بجوهرها إلى آفاق واسعة ما زلنا حتى اليوم نعيش حقيقة ذلك الجوهر وواقع تلك النظرة، وسيأتي بحث ذلك قريباً.

ومن ملامح النظرة التي اتسم بها الإمام الصادق. أن الأمة تحتاج إلى الرجال في مجال الإصلاح والدعوة، وأن المسلمين يواجهون حكاماً عتاة وسلاطين متجبرين، فما كان في عهد الأمويين سيتكرر لأنه عليه السلام لمس من العباسيين مذهبهم في توسّل كل الطرق إلى سدّة الحكم وعملهم على الصعود إلى السلطان بوسائل تضمن لهم

ذلك ما دام النظام الأموي قد انحدر إلى نهايته. وفي عهد العباسيين، فقد رأى الإمام الصادق أن قوة النظام الجديد، ووحشية الحكام الجدد ستدفع بالأمة إلى أوضاع سيئة. وستعود على أهل البيت بفظائع أخرى ومجازر تزهق فيها أرواحهم وتهرق دماؤهم.

أما في بدء الأمر، وقبل قيام حكم العباسيين، فإن الأوضاع التي ستؤول إليها الأحداث واضحة، فلا بد من انتهاء حكم الأمويين وزوال ظلمهم، والتحول آتٍ بكل الأحوال، وقد رأى الإمام الصادق مبلغ الاستجابة للدعوة، وتعاطف الناس مع الثورة، والكل في عينيه مرأى مظالم آل محمد، ومناظر المصائب والمآسي التي حلت بهم على يد الأمويين، فراح الناس يؤيدون الثوار. بيد أن علم الإمامة قد عين هذه الفترات، وقسّم هذه الأدوار. فليس الأمر كما يظن ذوو الأنظار القصيرة من الناس مهما اتسعت تجاربهم ونمت مداركهم، كما أن الثورة ضمت في تنظيماتها عناصر بعيدة كل البعد عن الأهداف التي من أجلها نظمت الدعوة، وأعلنت الثورة، وقد تستّر وراءها كثير من النزعات المختلفة والآراء المنحرفة، وهتافاتهم للرضا من آل محمد لم تدفع به إلى تعريض المجتمع الديني لخطر السياسة الغاشمة، فقد كان أبعد نظراً مما يرى في النتائج، فهو ينظر بالفكر الثاقب والنظر الدقيق المسدّد من الله تعالى لعواقب الأمور، والعلم الشامل، ومراعاة المصلحة العامة، والسير وفق الخطط المحكمة والآراء السديدة في تقدير الظروف ومناسباتها.

وهو رأس الأمة وإمام الناس وزعيم العلويين، يرى آيات رعاية الله، ويلمس وجوه كلاءته له، ليسلّمه من بطش الطغاة ومحاولات الظالمين. عليه دور القيادة، وتوجيه دفة السفينة، وليس العكس.

وهو عليه السلام لم يندفع وراء تيار الأقوال البرّاقة، ولم يجرِ في ميدان السياسة ومخاتلتها، وقد حاول الكثير من أتباعه وغيرهم وخلّص أصحابه والمنتمين إليه أن يثيروا عواطفه عندما استعرت نار الثورة في البلاد الإسلامية، وانتشرت تلك الشعارات التي تدعو للرضا من آل محمد.

وسعى بعضهم بكل جهده إلى أن يحمل الإمام وأنصاره على الثورة، ولكنهم كانوا ينظرون إلى الأمور نظرة سطحية، فتغلب عليهم سلامة النيّة وسرعة التصديق بالأمور الظاهرة كبشر يحكمهم الواقع والتأثر بمجريات الأحداث، وليس كما يرى الإمام

وهو صاحب الولاية الشرعية وقد خصته العناية الإلهية بالأمر، وجعلت في شخصه الإمامة، والوقائع عنده كما قضت بها الحكمة الإلٰهية وقدّرتها المصلحة الدينية.

دخل عليه سهل بن الحسن الخراساني فسلّم عليه وقال له: يا ابن رسول الله، لكم الرأفة والرحمة، وأنتم أهل بيت الإمامة، ما الذي يمنعك أن يكون لك حق تقعد عنه؟ وأنت تجد من شيعتك مئة ألف يضربون بين يديك بالسيف؟

ودخل عليه سدير الصيرفي فقال: يا أبا عبد الله ما يَسَعُكَ القعود؟

فقال عليه السلام: «وَلِمَ يا سدير؟»

فقال: لكثرة مواليك وشيعتك وأنصارك.

فقال: «يا سدير، وكم عسى أن يكونوا؟».

قال: مئة ألف.

فقال الإمام الصادق: «مئة ألف؟!!»

قال: نعم[1].

فكان جوابه عليه السلام من باب الامتناع عن ذلك، وأشار إلى أن تلك الكثرة التي يتخيّل أنها تحقق الأهداف التي يتطلبها واقع الثورة والنهضة بالمسلمين ليست كذلك، لأن أولئك لم يكونوا من الرجال المخلصين الذين تمكنت العقيدة من نفوسهم، اللهم إلا نفر قليل، فلا يمكنه أن يخوض معركة حاسمة كما يريد أولئك الذين حاولوا إثارة حفيظته مع عدم وجود العدة الكافية من المخلصين الذين يمكن الركون إليهم والتعويل عليهم. كما أن أهل البيت الكرام لهم في كل عصر دور ورسالة، فلقد كانت ثورة الإمام الحسين من أكبر العوامل التي فضحت الردة وعرّت الأمويين، كما أنها أصبحت ينبوع وعي ومعين هدى يحمل الناس على الاقتداء بتعاليم الرسالة والاهتداء بمبادىء العقيدة، وكان من بعد مأساة الطف وما أثارته في النفوس أن تجد الأمة من يعزّز في كيانها ذلك التحوّل ويرسّخ نتائج الثورة، فكانت دعوة الإصلاح ومنهج الإرشاد.

وقد بلغ منهج الإصلاح الديني والفكري والاجتماعي على يد الإمام الصادق درجة من النمو والتكامل، فامتلك قدرة التأثير في النفوس، واتصف بالروحانية والحس الديني الذي يجتذبها.

---

(١) الكافي ج٢ ص٢٤٣.

وكان عليه السلام في الوقت الذي يحاور فيه دعاة الثورة، يمارس مسؤولياته في وجه السلطة وانحراف الحكّام، ويقاوم نزعات الهدم وموجات القمع وتيارات التشويه والانحراف.

وكان نهج الحوار طريقة العمل الفكري لدى الإمام الصادق، تتسم بالشمول وسعة الرأي، وقوة الإقناع التي تقوم على علم ثابت، ورأي سديد. لذا فقد تولّى رد تلك الهجمات، فكان دفاعه عن الإسلام في درء شُبَهْ الزنادقة والدهرية من أهل الأديان الأخرى قد خلّف ثورة فكرية مهمة ضَمّنها عشرات من الكتب.

وكان قد بدأ التنازع في ذلك العصر بين الفلسفة وبين الإسلام والعقائد التي جاء الإسلام لمحاربتها، وظهرت بوادر الجدل العقلي، واتخذ علم الكلام كوسيلة للحجاج.

وكان موقف الإمام الصادق من تلك التيارات ووسط ذلك الجدال والنزاع موقف العالم المنافح عن الدين والمدافع القوي عن العقيدة الذي لا يغلب في مناظرة ولا ينقطع في محاورة، وكان لحجّته ووضوح برهانه ورجاحة عقله وقوة استدلاله الأثر الحاسم في أن يخضع له العقل السليم ويرتاح له الضمير، وتفنيد آراء الأعداء ودحض أفكارهم، وتوفير أسس يركن إليها المسلم ويعتمد عليها في الدفاع عن دينه وعقيدته. وكان يدلي بآرائه أمام خصومه بمنطق يدخل إلى آذان سامعيه فينفذ إلى قلوبهم، فلا يجدون بُدّاً من التسليم لقوله الحق ومنطقه الصائب. وقد حفظ لنا التاريخ خصائص منهج الإمام وميزات منطقه الذي لا يجارى في استدلالاته، ولا يُغلب في براهينه؛ بل كان هو المتفوّق والسابق في كل مضمار.

وبهذه المواقف، وبتلك الشهرة التي نالتها مدرسته، والمهمة التي قام بها أصحابه في محاربة الإلحاد والملحدين كان لزاماً على دعاة تلك المبادىء الذين دخلوا الإسلام أن يتستروا باعتناقه لبثّ سمومهم، وشعروا بخطر موقف الإمام الصادق ومحاربته لكل فكرة من طريق العلم والمنطق، فنظروا إليه نظرة ملؤها الحقد على الإسلام وانتصاره على عقائدهم الفاسدة وأديانهم الباطلة، ولما وجدوا أنفسهم عاجزين عن المجاهرة بما في نفوسهم من أضغان وعداوة، وأن انتصارات الإسلام دائمة لأن عقيدته هي مصدر هذه الانتصارات، لجأوا إلى التلبُّس، واستخدموا أساليب

التستر والادعاء، واختطوا لأنفسهم طريقاً يقوم على وسائل وشعارات لا حظّ لها من الصحة ولا نصيب، يمنّون أنفسهم باستعادة أمجادهم والوقوف بوجه الإسلام.

وكيف يجديهم ذلك وينطلي على المؤمنين خداعهم بعد أن ظهرت آثاره في حربهم وانتشرت أخباره في صدودهم، فحاولوا عن طريق الدسّ أن ينتصروا لمبادئهم الإلحادية، وتوصلوا إلى ما توهموه حلاً ناجحاً وانتقاماً سريعاً وذلك عن طريقين:

الأول: انضمام بعض دعاة الإلحاد إلى مدرسة الصادق ظاهراً، وادعاء حب أهل البيت نفاقاً، لكي يعملوا من الداخل على الفساد والإفساد.

الثاني: استعمال الكذب والدسّ على أهل البيت. ومن هذا وذاك كوّنوا طريقاً، وصلوا من خلاله إلى غاية في نفوسهم، وهي إظهار الغلوّ في أهل البيت، والغلوّ كما قدّمنا هو أعظم مشكلة اصطدمت بها قافلة التشيّع، وأدهى مصيبة نكبت بها هذه الطائفة، وحركة الغلوّ هي حركة إلحادية منشأها معارضة الإسلام من جهة، وتشويه مذهب أهل البيت من جهة أخرى، لذلك ربط كثير من المؤرخين والكتّاب بين التشيّع وبين الغلوّ؛ بل ذهب بعضهم إلى وصف التشيّع بالغلوّ. والسبب في ذلك قصور نظرتهم وعجزهم عن التحلّي بالموضوعية التي تقتضي جهداً لسير تفاصيل وأحداث تلك المرحلة. فليس بين الشيعة وبين الغلاة ما يجمعهم، كيف ذلك وقد كان ظهور دعوات الغلاة وتسللهم قد سبّب لأئمة أهل البيت وقادة الشيعة قلقاً وإزعاجاً لم يهدأ، حتى أحبطت حركاتهم وفشلت مخططاتهم، وقد تناولنا في الجزء الرابع من الكتاب جوانب قيام هذه الحركة واعتبارها مشكلة. ولا غرابة في وصفها بالمصيبة التي عولجت بجهود الأئمة أهل البيت، وبمزيد الأسف أن يتغاضى البعض عن هذه الحقائق وينكروا الوقائع ويتلذذوا بالطعن على الشيعة، وهم بذلك ضحايا دعاوى الحكام والمناهضين لأهل البيت سواء من جهة تلقي الدين أو من جهة الأغراض السياسية العمياء التي تريد تشويه الحقائق وقلب الأوضاع واتهام الأبرياء لإضعاف أثر أهل البيت في المجتمع والنيل من مكانتهم السامية في النفوس.

كان دخول الغلاة في صفوف الشيعة خطوة سياسية أوجدتها عوامل متعددة كما أشرنا إلى ذلك، وفي مقدمتها: النيل من الإسلام. وقد عالج أهل البيت هذه المشكلة الخطرة، فعرفوا الدوافع التي دعت هؤلاء إلى الالتحاق بصفوف الشيعة، كما اتضحت لهم غايات خصومهم. فكانوا يعلنون للملأ البراءة من الغلوّ والغلاة، وجاهروا

بلعنهم، وأمروا شيعتهم بالتبرؤ منهم. وتلقى الشيعة تلك الأوامر بالقبول والامتثال، فأعلنوا البراءة منهم، وملأوا كتبهم بلعن الغلاة والتبرؤ منهم. وأفتوا بحرمة مخالطتهم، وأجمعوا على نجاستهم، وعدم جواز تغسيل ودفن موتاهم، وتحريم إعطائهم الزكاة، ولم يجوّزوا لمن يقول بالغلو أن يتزّوج بالمسلمة، ولا المسلم أن يتزوج بالمغالية، ولم يورّثهم من المسلمين، وهم لا يرثون منهم.

ولكن يأبى بعض الكتّاب المعاصرين إلاّ الإصرار على الخطأ، والاستسلام للروح الطائفية، والسير في ركاب العصبية، فيتّبعوا أهوائهم دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء البحث في حقائق التاريخ، والاطلاع على وقائعه من مصادرها الصافية.

وهناك قضية أخرى أهملت براهين وضعها، وغضّوا الطرف عن أدلة اختلافها، فتمسكوا بها، وهي: قضية عبد الله بن سبأ التي شهدت الوقائع التاريخية بأنها لا تعرف حادثاً من تلك الحوادث التي أسندها المؤرخون لعبد الله بن سبأ. وقد بسطنا القول فيه في عدة مناسبات، في بحثنا الموسع عن الإمام الصادق في موارد عديدة من الأجزاء السابقة، ومواضع كثيرة سقنا خلالها الحجج والأدلة على اختلاق شخصية عبد الله بن سبأ.

لقد نسبوا مبدأ التشيّع إلى شخصية وهمية رسمتها السياسة في عصور التطاحن بريشة مصوّر مغرض، بهدف الطعن على أهل البيت، الذين هبّ علماؤهم لبيان زيفها مبيّنين أن من العار التماشي مع تلك الأسطورة لما فيها من احتقار للأمة وتصغير لقدرها، عندما تصوّر قطيعاً جرى خاضعاً لتقبّل تعاليم ذلك اليهودي وهو عبد الله بن سبأ المخلوق من أهواء السياسة وأغراض التطاحن، بهدف تمزيق صفوفها وإذهاب ريحها، وذلك للتفريق بين الأخ وأخيه.

وعلى كل حال لا بد من أن نشير إلى بعض ما جرى للإمام الصادق من محاورات مع أولئك المنحرفين عن الإسلام ودعاة الإلحاد والزنادقة، وهي محاورات غنية زخرت بها كتب الكلام والفلسفة، وسنأتي على ذكرها في الباب الخاص بالبحث عن الجوانب الفكرية في تراث الإمام الصادق ومنهج مدرسته. وهنا نذكر ما كان مع الجعد بن درهم الذي نشأ وكلّه دعوة ضلالة وإلحاد، كان يغوي الناس ويضلّهم، وهو من الزنادقة الذين استفحل أمرهم، وقد أراد أن يوهم الناس بما يبديه من احتيال، فأخذ قارورة وجعل فيها تراباً وماءاً، فاستحال ذلك بعد مدة دوداً وهواماً، فقال

لأصحابه: أنا خلقت هذا لأنني كنت سبب كونه. فأرجف بذلك المرجفون، ولمّا بلغ الإمام الصادق ذلك قال عليه السلام: «ليقل كم هي، وكم الذكران منه والإناث؟ وليأمر الذي يسعى إلى هذا أن يرجع إلى غيره»[1]

قال ابن حجر: فبلغه ذلك ـ أي قول الإمام الصادق ـ فرجع.

دعوة الغلاة:

ولعل أكثر الدعوات شرّاً وأسوأها أثراً وأهمها عند الإمام الصادق هي دعوة الغلاة ـ كما قدّمنا ـ الذين طمحوا في تلك العاصفة الهوجاء إلى بثّ روح التفرقة بين المسلمين، وشاعت أفكارهم تحت ستار حب آل محمد ليصلوا إلى ما يرمون إليه من إساءة. فبثوا الأحاديث الكاذبة، وأسندوها إلى حملة العلم من آل محمد، وتخلّقوا بأخلاقهم ليُعَمّوا بها على أتباع أهل البيت. وجاءوا بمفتريات حملوها على مبدأ الشيعة، وأراد أكثرهم أن يلبس نفسه لباس قدسيّة، فموّه على الناس بأن له صلة بالإمام الصادق وعلاقة.

وقد أعلن عليه السلام براءته منهم، ونشر في العالم الإسلامي كذبهم وزيف أقوالهم وقال:

«لا تقاعدوهم، ولا تواكلوهم، ولا تصافحوهم ولا توارثوهم».

ومن هذه الفقرات التي أعلنها عليه السلام يتبين لنا شدّة إهتمامه بكشف هؤلاء. وقد جعلهم في عداد الكفّار الذين تحرم مواكلتهم ومصافحتهم، كما أنه عليه السلام باين بينهم وبين المسلمين بعدم التوارث، فكان في هذا الموقف من الشدة ما يلزم بالتعرف على جذور هذه الدعوة والاطلاع على أسرار معتقداتها وحقيقة أقوالها. وقد قمنا بما نعتقده وافياً بذلك في بحثنا عن هذه الحركة سابقاً. واهتمام الإمام الصادق وحكمه عليهم وعمله على إشاعة هذا الحكم في الأقطار يدلل على عظيم خطر هذه الحركة، والعمل على فضح ادعائها الحب لأهل البيت. كما أن استقراء عداء الإمام الصادق لهذه الحركة وموقفه منها يقودنا إلى نتائج ودلالات كثيرة منها:

١ ـ إن هذه الحركة تعمد ـ عن طريق الحب العنيف المصطنع ـ إلى تشويه العقائد الإسلامية، وإشاعة الكفر والزندقة تحت ستار الإسلام.

---

(١) لسان الميزان لابن حجر ج٢ ص١٠٥.

٢ ـ إن هؤلاء الغلاة تنطوي نفوسهم عن بغض دفين للإسلام والمسلمين، وإنهم قوم يتحيّنون الفرص للانتقام منه ومنهم، وقد لمسوا ـ حسب تجاربهم واختلاطهم بالعالم الإسلامي ـ موقع حب أهل البيت من نفوس المسلمين، وعرفوا منزلتهم عند الناس وخضوعهم لهم، فسلكوا طريق حبّهم الادعائي الكاذب تمهيداً لتنفيذ أغراض خبيثة في نفوسهم، وكان من أهم ما يقومون به: حركة الإساءة لرجال الإسلام، ونسبة أشياء إليهم تحطّ بسمعتهم، كما أنهم يبذلون قصارى جهدهم في خلق الفوضى في المجتمع الإسلامي، وبلبلة أفكار الناس بواسطة دعاواهم التي تعارض التوحيد، وتناقض الإيمان. واختيارهم أشخاص أهل البيت مدخلاً لتحقيق مآربهم وأغراضهم. وتلبّسهم بالولاء وادعائهم التديّن، ولكن حقيقة ما يدّعون وجوهر ما يدعون إليه مناقض للإسلام، ومجافٍ لعقائد أهل البيت.

٣ ـ إن العناصر التي تبنّت هذه الدعوات الضالة، والتي نشرت الغلو، كانت ممن ضرب الإسلام مصالحهم، وضيّع عليهم فرص النفوذ إلى أهدافهم، وهَدَمَ معالم مجدهم، وسَفَهَ أحلامهم، وظهر على أديانهم. وبالطبع فإن هؤلاء لا يدينون للإسلام مخلصين، بل يحقدون عليه وإن طال الزمن وبَعُد العهد، فإنهم لا ينظرون إليه إلا بعين الحقد والغضب، ويضحّون بكل ما يملكونه في سبيل نجاح مؤامراتهم ضده. فما أبعدهم عنه، وما أشدّ بغضهم لآل محمد، ولكنهم امتزجوا بالمجتمع الإسلامي لأن انفصالهم عنه يجعلهم بمعزل عن تحقيق مآربهم، فتوزعوا كتائب، وتفرقوا جماعات يظهرون حبّ هذا ويقدّسون ذاك، ويحامون عن هذه الشخصية، وينظمّون إلى ما يعادي الأخرى، وهكذا، ولكن أشد محاولاتهم هي ادّعاء الصلة بأهل البيت، لأن لأهل البيت أثرهم في الحياة العامة. فهم يميلون إليهم، ويحاربون أعداءهم ادعاءً وتستراً ليصلوا إلى أهدافهم من خلال أوسع قاعدة. ثم تأتي الجماعات التي تتجه إلى أقرب الشخصيات إليها في مجال السياسة أو صعيد الإقليم، فتتعلق بها وتخلع عليها صفات القدسية، وتؤدي لها شعائر العبادة، وما هي إلا فِرَق قديمة أتى الإسلام على وجودها ومحا ذكرها. ولكن من حملهم سوء حظ الأمة إلى أن يؤرخوا، ويكون لهم دور في التأثير على الناس لأنهم أتباع الملوك وجنود الظلمة، أهملوا الحركات التي اتخذت من شخصيات عصرها شعاراً وهم ليسوا من أهل البيت، وانصبّ جلّ اهتمامهم فيما ابتلي به أهل البيت وشيعتهم من دعاوى الغلاة.

لقد كان في طليعة حركة الإلحاد والزندقة رجال لا ينكر أنهم اتصلوا بمدرسة أهل البيت، فانكشف حالهم فيما بعد. وهناك آخرون قد ادعوا الاتصال بتلك المدرسة ليضعوا الأحاديث الكاذبة. وقد أعلن الإمام الصادق كذب هؤلاء وبراءته منهم، وكان على رأس هذه الفرقة: المغيرة بن سعيد. فقد كان يدّعي الاتصال بأبي جعفر الباقر، ويروي عنه الأحاديث المكذوبة، فأعلن الإمام الصادق كذبه والبراءة منه، قال الإمام الصادق عليه السلام لأصحابه في قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ قال «هم سبعة: المغيرة بن سعيد، وبنان، وصائد، والحارث الشامي، وعبد الله بن الحارث، وحمزة بن عمارة الزيدي».

وكان المغيرة حاذقاً في وضع الأحاديث، وماهراً في الدس والكذب على أهل البيت، وإليه تنسب عقيدة تأليه الإمام علي عليه السلام وهو أمر لا غرابة فيه إن صحّ. لأن ليس هناك ما يمنع من قول المغيرة بذلك والدعوة إليه ما دام أحد أركان حركة الغلاة والألحاد المعادين لأهل البيت، ولكن الأشهر أنه قال أنه مخلوق ولا بد أن معتقداته حملت على ما اعتقدته الخطابية أو تأثروا بهم فعلاً، فهم من جنس واحد. يقول الأشعري: إن المغيرة زعم أنه يحيي الموتى بالاسم الأعظم، وأراهم أشياء من النرنجات والمخاريق[1].

لقد حمل أئمة أهل البيت سلاح العقيدة كعادتهم في مواجهة هؤلاء الأعداء الجدد، واهتموا أشدّ الاهتمام بمقابلة دعاواهم، وإشعار أصحابهم ومحبيهم بخروج هؤلاء وكفرهم وشذوذهم. فالباقر عليه السلام كان يقول: «بريء الله ورسوله من المغيرة بن سعيد وبنان بن سمعان، فإنهما كذبا علينا أهل البيت»[2].

وعن عبد الرحمن بن كثير قال: قال أبو عبد اللّه الصادق عليه السلام يوماً لأصحابه: «لعن الله المغيرة بن سعيد، ولعن الله يهودية كان يختلف إليها يتعلم منها السحر والشعبذة والمخاريق. إن المغيرة كذب على أبي، فسلبه الله الإيمان. وإن قوماً كذبوا عليّ ما لهم؟ أذاقهم الله حرّ الحديد. فوالله ما نحن إلا عبيد خلقنا واصطفانا، ما نقدر على ضرّ ولا نفع، إن رحمنا فبرحمته، وإن عذّبنا فبذنوبنا، والله ما بنا على الله

(١) المقالات الإسلامية ج١ ص٧.

(٢) لسان الميزان ج١ ص٧٦.

من حجة ولا معنا من الله براءة، وأنا لميتون ومقبورون ومنشورون ومبعوثون وموقفون ومسؤولون، ما لهم لعنهم الله، فلقد آذوا الله، وآذوا رسول الله في قبره، وأمير المؤمنين، وفاطمة، والحسن والحسين، وها أنذا بين أظهركم أبيت على فراشي خائفاً، يأمنون وأفزع، وينامون على فراشهم، وأنا خائف ساهر وَجِل».

ثم أراد عليه السلام أن يلفت نظر العالم الإسلامي إلى قاعدة لها أهميتها في قبول الرواية عن أهل البيت والعمل بها، لكي يحول دون حملة الكذب والدسّ عليه وعلى آبائه الكرام، ويدفع الناس إلى التمحيص والنظر فيما يروى عن الأئمة عليهم السلام فكان قوله القاعدة أشبه ما تكون بالصرخة التي قصد أن يكون دويّها في كل نفس، وتبلغ عن طريق أصحابه كل قطر، فقال عليه السلام: «لا تقبلوا علينا حديثاً إلاّ ما وافق القرآن والسنة، أو تجدون معه شاهداً من أحاديثنا المتقدمة، فإن المغيرة بن سعيد لعنه الله دسّ في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدّث بها، فاتقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا وسنّة نبينا صلى الله عليه وآله».

وجملة أقوال الإمام الصادق في المغيرة، تظهر لنا بوضوح عظيم ألمه وشدة غمّه لما قام به الغلاة، وما اقترفوه من أكاذيب، وما اعتقدوه من عقائد الغرض منها الإساءة إلى أهل البيت النبوي الكريم، وخلق الريب والشكوك في نفوس الناس. ولقد رأينا وصف الإمام الصادق للحال الذي هو عليه بسبب ما قام به الغلاة فهو عليه السلام ساهر وَجِلٌ يهمّه ما يفعله أولئك الكفرة وما يشيعوه بين الناس من مفتريات وعقائد فاسدة.

لقد قلنا أن مشكلة الغلاة هي من أدهى ما حلّ بتاريخ العقيدة الإسلامية، ومن أفظع ما أصاب تاريخ الشيعة، ولو حسنت النوايا وتجرّدت من سخائم الحقد، لنظر إلى المشكلة بعموم نشأتها، لا بخصوص مدّعاها، وبحثت على أساس أغراض أصحابها وبواعث رجالها، فهي إذا دقّقنا تاريخ نشوئها ومصادر أفكارها، واعتبر الإنصاف في القول وروعي الحق، لم تكن حول أهل البيت فحسب ـ كما أشرنا ـ بل إن من أصحاب العقائد الفاسدة الذين هاجت في حناياهم الجذور التي قطع الإسلام عنها ماء الحياة، فِرَقٌ (الخرمدينية) أصحاب أبي مسلم الخراساني، ومنهم كان بدء الغلو في القول، ومعلوم بُعد أبي مسلم عن الإمام الصادق وعدم التقائه به، وإنما كان أبو مسلم من دعاة العباسيين الخلّص الذين بنوا إيمانهم في الدعوة على أساس ما تعنيه

الدعوة إلى آل البيت بحسب ما يضمره العباسيون وما وضعوه في نظامهم السرّي، وقد قالت هذه الفرقة: أن الأئمة آلهة. والأئمة في مفهومهم ليسوا أئمة الهدى من أهل البيت النبوي الذين انعقدت إليهم الإمامة بالنص والوصية، والذين هم قادة الشيعة ورموز هداها. وقالت هذه الفرقة أيضاً: أن الأئمة أنبياء، وإنهم رسل، وإنهم ملائكة. وهم الذين تكلموا بالأظلة والتناسخ في الأرواح، وهم أهل القول بالدور في هذه الدار، وإبطال القيامة والبعث والحساب، وزعموا أن لا دار إلا الدنيا، وأن القيامة هي خروج الروح من البدن ودخوله في بدن آخر غيره، إن خيراً فخيراً وإن شرّاً فشرّاً، وأنهم مسرورون في هذه الدنيا بالأبدان أو معذبون فيها، والأبدان هي الجنان أو هي النار، وأنهم منقولون في الأجسام الحسنة الأنسية المنعمة في حياتهم، ويعذبون في الأجسام الرديّة المشوّهة من كلاب وقردة وخنازير وحيات وعقارب وخنافس وجعلان محوّلون من بدن إلى بدن معذبون فيها هكذا، فهي نعيمهم ونارهم لا قيامة ولا بعث ولا جنة ولا نار غير هذا على قدر أعمالهم وذنوبهم وإنكارهم لأئمتهم ومعصيتهم لهم. إلى آخر أقوالهم الباطلة ومعتقداتهم الفاسدة.

ومن فرق الغلاة (الروندية) الذين قالوا: إن أبا مسلم نبي مرسل يعلم الغيب، أرسله أبو جعفر المنصور. وقالوا: إن المنصور هو الله، وأنه يعلم سرّهم ونجواهم. وأعلنوا القول بذلك، ودعوا إليه. ولمّا أمرهم المنصور بالرجوع عن قولهم، قالوا: المنصور ربنا، وهو يقتلنا شهداء كما قتل أنبياءه ورسله على يد من شاء من خلقه، وأمات بعضهم فجأة وبالعلل وكيف شاء، وذلك له يفعل ما يشاء بخلقه لا يُسئَل عمّا يفعل[1]. وكانوا يعينون من انتقلت إليه روح آدم، فيقولون: انتقلت إلى فلان رجل من كبارهم، وأن ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو المنصور، وأن جبرائيل هو فلان ـ رجل آخر منهم ـ ولمّا ظهروا أتوا قصر المنصور، فطافوا حوله، وقالوا: هذا قصر ربنا[2].

إذاً، فإن حقيقة أفكار الغلاة تقوم على بواعث مختلفة وأغراض عديدة، لا تمتُّ إلى الإسلام والتوحيد بصلة، ومن الصحة بمكان القول بأن أخطر جماعاتهم وأكثرها

---

(١) فرق النوبختي ص٣٦ و٥٢ و٥٣.

(٢) الفخري ص١٤٣.

ضرراً هم أولئك الذين استغلوا الصلة بأهل البيت أو انتحلوها، لأن الدخول على المجتمع الإسلامي من خلال الأئمة وسادة أهل البيت يحدث أثراً سيئاً وبليغاً في كيان المجتمع الإسلامي، ويقرّب هؤلاء الكفرة من تحقيق أغراضهم وتنفيذ مآربهم، فلا عجب أن نرى من الأئمة مثل هذا الاهتمام، لأن أمر الغلاة أخافهم وأسهرهم وأفزعهم، فلا بد من مقابلة نشاطهم وملاحقة أفكارهم دفعاً للفتنة وحماية للعقيدة، فكان تشديده على رواية الحديث، والتأكد من صحة ما يروى عن أهل البيت، وما صحب ذلك من أقوال له عليه السلام في فضحهم وكشف حقيقة دعاواهم في محبة أهل البيت، إذ يقول عليه السلام: «... والله لو ابتلوا بنا، وأمرناهم بذلك، لكان الواجب أن لا يتقبّلوه، فكيف وهم يروني خائفاً وجلاً أستعدي الله عليهم، وأبرأ إلى الله منهم. إني امرؤ ولدني رسول الله ﷺ وما معي براءة من الله، إن أطعته رحمني، وإن عصيته عذبني عذاباً شديداً».

وقال الإمام الصادق لمرازم - وهو جار بشار الشعيري أحد دعاة الألحاد ومن الغلاة - «يا مرازم، إن اليهود قالوا ووحدوا الله، وإن النصارى قالوا ووحدوا الله، وإن بشاراً قال قولاً عظيماً، فإذا قدمت الكوفة فأته وقل له: يقول لك جعفر: يا فاسق، يا كافر، يا مشرك، أنا بريء منك».

قال مرازم: فلما قدمت الكوفة، فوضعت متاعي وجئت إليه ودعوت الجارية، وقلت قولي لأبي إسماعيل، هذا مرازم، فخرج إليّ. فقلت له: يقول لك جعفر بن محمد «يا كافر يا فاسق يا مشرك أنا بريء منك».

فقال بشار: وقد ذكرني سيدي؟ قال: قلت: نعم ذكرك بهذا الذي قلت لك.

فقال: جزاك الله خيراً، وجعل يدعو لي[1].

لقد أراد الإمام الصادق أن يحفظ تراث أهل البيت أيضاً إلى جانب حماية العقيدة، فعمل على ترسيخ قاعدة الرواية عن أهل البيت بشروطها فقال: «فاتقوا الله ولا تقبلوا ما خالف قول ربنا وسنّة نبينا ﷺ». وهي القاعدة التي قام عليها منهاج

---

(١) انظر الجزء الرابع من الكتاب، فصل مشكلة الغلاة. وفيه ذكر رؤسائهم، وعوامل نشأة حركاتهم، وبحث جوانب النقص في دراسة حركة الغلاة من قبل المؤرخين، وموقف الشيعة وأئمتهم من المغالين، وغيرها من النقاط.

مدرسته في العلم والحديث، والتزمت بها التزاماً شديداً. وقد قال عليه السلام مراراً وتكراراً: «حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدّي، وحديث جدّي حديث علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، وحديث علي أمير المؤمنين حديث رسول الله ﷺ، وحديث رسول الله قول الله عز وجل».

اضواء من سيرته عليه السلام:

قدّمنا فيما سبق نظرة إجمالية لحوادث عصره أو أهمها مما يتعلق بمنهجه الفكري ومسؤولياته الدينية ومهامه المتعددة، ونقتبس الآن بعض الأضواء من سيرته عليه السلام ونقدم شيئاً من الجوانب التي تتصل بالجانب الاجتماعي أو النشاط العام، والعلاقة بين نظرة الفرد المسلم إلى موقعه في المجتمع، وبين تكوينه الديني وبنائه الأخلاقي.

لقد عُرِفَ الإمام الصادق بحسن البيان ونفاذ البصيرة وكرم الأخلاق وصدق الحديث، واتجه إلى الفرد والمجتمع، وعني بالأوضاع الاجتماعية والخلقية، ومعالجة ما يعاني منه المجتمع، وتهيئة وسائل الإعداد والتربية السلوكية والفكرية، وخَلق المناسبات للوعظ والنصح والإرشاد. وكان مقصده يتلخّص في قوله عليه السلام: «أن يسلم الناس من ثلاثة أشياء كانت سلامة شاملة: لسان السوء، يد السوء، وفعل السوء».

وكان إقبال الناس عليه لانتهال العلم، واختلافهم إلى مجلسه قد هيأ مناخاً دائماً للدعوة، والعمل على إبراز الجوانب المهمة التي تتكون منها شخصية المسلم. ومن جوانب عظمة شخصية الإمام الصادق وتميّزه في نهجه الإصلاحي ومسيرته الدينية، مباشرته ما يدعو إليه من مكارم الأخلاق بنفسه، وعمل ما يراه ويحضّ الآخرين على عمله، وممارسته في الحياة، فهو بذلك كان بحق المصلح الاجتماعي العظيم، والمرشد الديني الكبير. فجعل من نفسه قدوة ليحفّز الآخرين على اتباعه والاقتداء بفعله. فكان يحثّ على العمل، ويعمل بنفسه، وقد تضافرت الأخبار بأنه كان يعمل بيده ويتّجر بماله.

وقد عالج بالدعوة والعمل ظواهر التكاسل وصور الابتعاد عن طلب الرزق، وما تطور في المجتمع بتأثير حب الانقطاع إلى الله، وقيام الجدل في استحباب الانقطاع

التام، وترك مجال العمل واكتساب الرزق، لأنه يدعو إلى الانشغال، وهو من مقومات الدنيا. ورأى الإمام الصادق أن الإيمان الحق في أن يغدو المسلم إلى عمله كل يوم، ويكدّ في تحصيل رزقه، وأن يقوم بدوره في هذه الحياة، ويرى أن قيمة الإنسان في عمله، إذ لم يرضَ للمسلم البطالة وترك العمل، وكل ما يدعو إلى الاستهانة بالشخص وتحقيره. وفي الحديث: «ملعون ملعون من ألقى كَلَّه على الناس، ملعون ملعون من ترك من يَعُول به». وقد قرن الإسلام العمل لطلب الرزق للولد وللعيال بما يصلحهم بالجهاد في سبيل الله.

قال الإمام علي عليه السلام: «ما غدوة أحدكم للجهاد في سبيل الله بأعظم من غدوة من يطلب لولده وعياله ما يصلحهم».

وكان الإمام الصادق يروي ما كان جدّه الإمام زين العابدين يفعله ويقول: «كان علي بن الحسين إذ أصبح خرج غادياً في طلب الرزق، فقيل له: يا ابن رسول الله أين تذهب؟

فقال: أتصدّق لعيالي.

قيل له: أتتصدّق؟

قال: من طلب الحلال، فهو من الله عز وجل صدقة عليه»[1].

وكان عليه السلام يروي قول جده الإمام زين العابدين عليه السلام: «ضمنت على ربي ألا يسأل أحد من غير حاجة إلا اضطرّته المسألة إلى أن يسأل عن حاجته».

وكان يخاطب أصحابه: «إياكم وسؤال الناس، فإنه ذلّ في الدنيا، وفقر تعجّلونه، وحساب طويل يوم القيامة».

وعلى ضوء هذا الإيمان العميق بالعمل، كان الإمام الصادق يعمل بنفسه ليكون مثالاً لغيره. فقد حثّ على طلب الرزق ليرفع من مستوى أخلاقهم والمحافظة على القيم الروحية لديهم، فكان يسمّي التجارة ودخول السوق بالعزّ، كما يحدّثنا المعلّى بن خنيس قال: رآني أبو عبد الله وقد تأخرت عن السوق، فقال لي: «أغدُ إلى عزّك».

---

(١) فروع الكافي ج٤ ص١٢.

وقال لآخر ـ وقد ترك غدوّه إلى السوق ـ: «مالي أراك تركت غُدوّك إلى عزّك؟» قال: جنازة أردت أن أحضرها. قال: «فلا تدع الرواح إلى عزّك».

وعن سليمان بن معلى عن أبيه قال: سأل أبو عبد الله عن رجل ـ وأنا عنده ـ فقيل: أصابته الحاجة. قال: «فما يصنع اليوم؟» قيل: في البيت يعبد ربه. قال: «فمن أين قوته؟» قيل: من بعض إخوانه. قال أبو عبد الله: «لَلّذي يقوته أشدّ عبادة منه».

وقال لمعاذ ـ بيّاع الأكسية عندما ترك التجارة ـ: «لا تتركها، فإنّ تَرْكَهَا مذهبةٌ للعقل، إسْعَ على عيالك، وإياك أن يكونوا هم السعاة عليك».

وسأل عن رجل من أصحابه، فقيل: ترك التجارة وقل شيئه. فاستوى الإمام جالساً ـ وكان متكئاً ـ ثم قال: «لا تَدَعُوا التجارة فتهونوا، اتّجِروا بارك الله لكم».

وقال معاذ: قلت لأبي عبد الله: إني هممت أن أدَعَ السوق؟ فقال: «إذاً يسقط رأيك، ولا يُستعان بك على شيء».

يحدثنا أبو عمرو الشيباني: قال رأيت أبا عبد الله الصادق، وبيده مسحاة يعمل في حائط له، والعرق يتصبّبُ منه. فقلت: جُعِلْتُ فِداكَ أعطني أكْفِكَ. فقال: «إني أحبّ أن يتأذى الرجل بحرّ الشمس في طلب المعيشة».

لقد هدف الإمام عليه السلام إلى أن يزرع حبّ العمل في نفوس الناس، وأن يدفعهم إلى الاعتماد على أنفسهم من خلال الشعور بالمسؤولية. فإنّ التواكل أو الكسل المتعمّد ظاهرة تحط من قيمة الإنسان، وتكشف عن نقص في مستوى وعيه وإدراكه، وكلما كان المجتمع ينطوي على قاعدة واسعة من الأفراد الذين يدركون قيمة العمل وأهميته في الرخاء، وتأكيد قدرة الفرد وعدم عجزه؛ كان ذلك مؤشراً إيجابياً على مستوى الوعي الذي يسود المجتمع، ومدى تحمل الأفراد لمسؤولياتهم في حفظ البلد والدفاع عن عقائدهم، فالإسلام بنظامه رعى حقوق العامل بما لم تأت به أي نظم أخرى.

وعلى أي حال فقد كان الإمام الصادق يركّز على تجسيد ضرورة العمل، وتوضيح العلاقة بين الإيمان وبين الإنتاج. ولقد هدف الإمام الصادق إلى أن يحبط روح الكسل، ويقضي على التواكل، لأنه يرى في الفرد العامل أنموذجاً للعضو الصالح الذي يؤكد ذاته وموقعه من خلال ما ينتج للمجتمع بما منحه الله تعالى من موهبة وحباه من نعمة. وإيضاحاً للمقام، وزيادة للمعلومات، نسوق بعض القضايا التي تبعث في روح المسلم نشاطاً لمواصلة عمله على ضوء سيرة الإمام الصادق عليه السلام:

خرج الإمام الصادق في يوم شديد الحر، فاستقبله عبد الأعلى ـ مولى آل سام ـ في بعض طرق المدينة فقال: يا ابن رسول الله حالك عند الله عز وجل، وقرابتك من رسول الله، تجهد نفسك في مثل هذا اليوم!!!

فقال عليه السلام: «يا عبد الأعلى خرجت في طلب الرزق لأستغني عن مثلك».

فهو عليه السلام يضرب لعبد الأعلى المثل الأعلى في إعزاز النفس الذي يحققه المسلم من وراء العمل، وفي نفس الوقت يعكس أولاً أهمية اعتماد المسلم واستغنائه عن الآخرين مهما كانت منزلته وعظمة رتبته.

وثانياً: إن استغلال الفرد وكسبه لرزقه يؤكد عزّة نفسه، ويحفظ كرامته، ويعيش سعيداً لا يذلّ لأحد، ولا يستهين بكرامته أحد.

* * *

وقد كانت الفترة التي مرّ بها الإمام الصادق قد شهدت نوعاً من التطور الفكري الذي نجم عن التفاعل والحوار بين الحضارات القديمة وبين الفكر الإسلامي، وأخذ الوضع الاقتصادي بالتدهور نتيجة سياسة القمع والضرائب والنهب التي مارسها الحكام لسدّ متطلبات بذخهم ولهوهم، وكذلك الولاة فقد أجهدوا الرعية بأخذ الإموال من غير حقها، كما بيّنا ذلك.

والإمام الصادق في ذلك العصر حاول أن يقود الأمة إلى كل خير، وفي هذا المجال بالذات يبذل جهده بأن يجعل من الفرد المسلم فرداً متمكناً متجاوزاً عوائق الضيق وآلام الفاقة، فقام بتوعية الناس لمباشرة العمل وتحبيبه للنفوس، وبتنمية الشعور بالمسؤولية لكي لا تلجىء الظروف أولئك الأفراد ـ الذين فقدوا خيرات بلادهم ـ إلى الاضطرار للاستجداء من السلطة والركوع على أعتابها والخنوع لها تحت وطأة قسوة ظروف الحياة ومرارة الجوع.

عن هشام بن سالم قال: كان أبو عبد الله إذا أعتم الليل وذهب شطره، أخذ جراباً فيه خبز ولحم ودراهم، فحمله على عنقه، ثم ذهب به إلى أهل الحاجة من أهل المدينة، فقسّم فيهم ولا يعرفونه، فلما مضى أبو عبد الله عليه السلام فقدوا ذاك، فعلموا أنه كان أبا عبد الله عليه السلام.

وعن المعلى بن خنيس[1] قال: خرج أبو عبد الله عليه السلام في ليلة قد رشت ـ أمطرت ـ وهو يريد ظلة بني ساعدة، فاتبعته، فإذا هو قد سقط منه شيء فقال: «بسم الله اللهم ردّه علينا». قال: فأتيته فسلّمت عليه.

قال: فقال: «معلى»: قلت: نعم جعلت فداك. فقال لي: «التمس بيدك فما وجدت من شيء فادفعه إلي» فإذا أنا بخبز منتشر كثير، فجعلت أدفع إليه ما وجدت، فإذا أنا بجراب أعجز عن حمله. فقلت: جعلت فداك، أحمله على رأسي؟ فقال: «لا، أنا أولى به منك، ولكن امض معي» قال: فأتينا ظلة بني ساعدة، فإذا نحن بقوم نيام، فجعل يدسّ الرغيف والرغيفين حتى أتى على آخرهم، ثم انصرفنا. فقلت: جعلت فداك يعرف هؤلاء الحق؟ فقال: «لو عرفوه لواسيناهم بالدقة ـ والدقة هي الملح ـ إن الله تبارك وتعالى لم يخلق شيئاً إلا وله خازن يخزنه، إلا الصدقة، فإنَّ الرب يليها بنفسه، وكان أبي إذا تصدق بشيء وضعه في يد السائل، ثم ارتدّه منه، فقبّله وشمّه ثم ردّه في يد السائل»[2].

وإزاء ظاهرة ابتعاد كثيرين عن العمل، وانزوائهم في بيوتهم منقطعين للعبادة مع تفاقم أزمة العيش، كان عليه السلام يفضّل العامل على ذلك الفرد المنزوي والمنقطع إلى العبادة. فعندما قيل له: أن رجلاً قال لأقعدنّ في بيتي، ولأصلينّ ولأصومنّ ولأعبدنّ الله، فأما رزقي فسيأتيني.

فقال عليه السلام: «هذا أحد الثلاثة الذين لا يستجيب الله دعاءهم».

فالإمام رغم معرفته بأهمية العبادة، إلا أنها لا تجوز إلا في موقعها في حياة الفرد المؤمن، بحيث تكون صلة المؤمن بربّه وهويته وسلوكه. وهوية المؤمن العزّة، وسلوكه العطاء والعمل.

يقول إسماعيل بن جابر[3] أتيت أبا عبد الله، وإذا هو في حائط (بستان) له، وبيده مسحاة، وهو يفتح بها الماء.

---

(١) مولى الإمام الصادق قتله داود بن علي العباسي ـ والي المدينة ـ فغضب الإمام الصادق، ودعا على الوالي، فسمعت الصيحة في داره. انظر الجزء الثاني من الكتاب.

(٢) فروع الكافي ج٤ ص٨ و٩.

(٣) ذكره الشيخ في الفهرست، وقال: له كتاب ذكر سنده.

وعن الفضل بن أبي قرة[1] قال: دخلنا على أبي عبد الله في حائط له، وبيده مسحاة يفتح بها الماء، وعليه قميص، وكان يقول: «إني لأعمل في بعض ضياعي، وإن لي من يكفيني، ليعلم الله عز وجل أني أطلب الرزق الحلال».

وكان عليه السلام يرمي إلى حمل الناس على الخلال الطيبة والأخلاق الكريمة ليقوم ذلك المجتمع الذي تسوده قيم التكافل والأخاء الديني. فقال عليه السلام لبعض جلسائه: «ألا أخبرك بشيء يقرّب من الله، ويقرّب من الجنة، ويباعد من النار؟» فقال: بلى.

قال عليه السلام: «عليك بالسخاء، فإن الله خلق خلقاً برحمته لرحمته، فجعلهم للمعروف أهلاً وللخير موضعاً، وللناس وجهاً يسعى إليهم لكي يحيوهم كما يحيي المطر الأرض المجدبة، أولئك هم المؤمنون بالآخرة، الآمنون يوم القيامة».

لقد كان الإمام الصادق عليه السلام مثالاً كاملاً لدعاة الإصلاح، وعَلَماً شامخاً من أعلام رجال الصلاح، فهو يأمر بالأخلاق الفاضلة والسجايا الحميدة، واكتساب الفضائل، والابتعاد عن الرذائل، فكان من مأثور أقواله: «بُني الإنسان على خصال، فما بني عليه أنه لا يبنى على الخيانة والكذب»[2].

ولا يدخر عليه السلام النصح عن أحد، وهو من أعظم القادة الذين تحتل سيرتهم مكانة مهمة تنعكس آثارها على الناس والمؤمنين في ظل دعواتهم إلى الخير، وعلى مرّ التاريخ.

كان من أهم العوامل الحيوية في إنجاح الدعوات واستمرارها هو الإيمان المطلق بالمبادىء، ومبادرة القادة للالتزام بها في خط من التوافق التام بين الدعوة والسلوك، ولقد كان سلوك حملة رسالة محمد صلى الله عليه وآله وانتشار الإسلام واتساع رقعته دليلاً حياً عى إيمانهم العظيم بالدعوة، ومن خلال هذا الترابط بين سلوكية القادة وموقف الناس يمكن أن نلحظ على مدى المراحل التاريخية تأثير الرجال البارزين في نفوس الآخرين، وانجذابهم إلى صفوف الدعوة.

وقد عرف عن الإمام الصادق أقواله الجامعة وتوجيهاته الشاملة التي تنير الطريق وتهدي إلى الرشاد، والتي تؤثر في نفوس وسلوك أصحابه.

---

(١) التفليسي من أصحاب الإمام الصادق، انتقل إلى أرمينيا. له كتاب ذكره الشيخ في الفهرست.

(٢) حلية الأولياء ج١ ص١٩٤.

يقول عليه السلام: «الصلاة قربان كل تقي، والحج جهاد كل ضعيف، وزكاة البدن الصيام، والداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر».

وجاء في وصيته عليه السلام لعبد الله بن جندب: «يا ابن جندب، لو أن شيعتنا استقاموا؛ لصافحتهم الملائكة، ولأظلّهم الغمام، ولأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ولما سألوا الله شيئاً إلا أعطاهم. يا ابن جندب بلّغ معاشر شيعتنا وقل لهم لا تذهبنّ بكم المذاهب، فوالله لا تنال ولايتنا إلا بالورع والاجتهاد في الدنيا، ومواساة الإخوان، وليس من شيعتنا من يظلم منا برياً».

وقد بيّنا في عدة مواضع ما يكشف لنا طرفاً من الجوانب المهمة من جوانب شخصية الإمام الصداق عليه السلام وقيامه بالدعوة للإسلام، والتقيّد بتعاليمه، والعمل بأوامره ونواهيه، والالتزام بالسير على نهج هداه ونور عقيدته فكان التطابق بين المبادىء وبين السلوك من أهم صفات حياته، رغم أن أوضاع عصره تبعث الاضطراب في الحياة لاشتداد الصراع الفكري والسياسي. وقد اهتزت أفكار الناس، فوقف موقف البطل المؤمن بعقيدته، الذي أعاد بموقفه التوازن في الفكر والسلوك لأفراد الأمة والمجتمع، وخفف من الضغوط والأخطار التي تهدد وجودهما. فقد عانى المجتمع في هذه المرحلة، وتعرّضت الأمة الإسلامية خلالها إلى سياسات أنهكت الرعية، وإلى حملات معادية مختلفة اللبوس والإشكال. والخلاصة فإن مجمل العوامل التي واجهت الأمة، وتعرّض لها المجتمع الإسلامي كانت كافية لانتشار القلق والاضطراب وتوغّل جذورهما، حتى أن الناظر إلى الأحداث ـ ولو ببساطة وعجالة ـ يلحظ أن فوق عناصر القلق ومظاهر الاضطراب تنمو وترتفع صور لحركة العلم والدعوة الإسلامية تطغى عليها وتكاد تخفيها، وبصور الدعوة الدينية ومظاهر الحركة العلمية يتمثل موقف الإمام الصادق عليه السلام وبروزه في مجتمعه، رغم عداء الملوك له، وعملهم الدائم على إنهاء ذكره. فكان أن أكتسب من التجارب ـ مضافاً إلى جوهر الإمامة ـ ما جعله يعيّن طرق تحاشي الأمة ضربات الحكام وتجنّب سيوفهم ورماحهم، واحتل موقعاً في وسط الأحداث هو موقع تكامل وخبرة، فإن في سيرته تتجسد أعلى مستويات الكفاءة والقيادة، إلى جانب علمه وجهاده.

كان عليه السلام يحرص على أن تكون صلته بأصحابه قوية ومؤثرة. فعن صفوان،

عن خالد بن نجيح قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «أقرؤوا من لقيتم من أصحابكم السلام، وقولوا لهم: إن فلان بن فلان يقرئكم السلام. وقولوا لهم: عليكم بتقوى الله عز وجل، وما ينال به ما عند الله، إني والله ما آمركم إلا بما نأمر به أنفسنا، فعليكم بالجد والاجتهاد، وإذا صلّيتم الصبح وانصرفتم، فبكّروا في طلب الرزق، واطلبوا الحلال فإن الله عزّ وجل سيرزقكم ويعينكم عليه».

كان في سيرته وسلوكه يمثل جوانب سامية من التواضع والبساطة مع عظمته وعلو شأنه، وكان يعامل الناس بالعطف والتسامح. كل ذلك كان له تأثير في نفوس تلامذته ومريديه، وقد وقف أمام التيارات السياسية يوم اجتاحت البلاد ثورة من جميع جوانبها، وقد دعاه القادة ـ كما أسلفنا ـ إلى تولّي الأمر وإسناد الحكم إليه، كما أن أبا مسلم الخراساني كتب له يدعوه بأن يدعو الناس إلى بيعته، وينتزع الأمر من بني العباس. فأجابه بقوله: «ما أنت من رجالي، ولا الزمان زماني».

وقبل ذلك رجعت رسل أبي سلمة الخلاّل بالخيبة عندما وجّههم بكتاب الدعوة إلى الإمام الصادق بأن يكون الأمر له دون بني العباس. فكان جوابه أن أحْرَقَ الكتاب أمام الرسل، لأنه كان يقدّر أبعاد المعركة، وينظر العواقب، ويحاول أن يؤثر في انفعالات الناس، ويقلل من اندفاعهم على طريق تؤدي نهايتها إلى تعريض المسلمين إلى الأخطار ودفع الأبرياء إلى الموت. وذلك لأن الظروف غير مواتية، رغم ظاهر مناسبتها وملائمتها. وسنبحث موضوع موقفه من الثورة مفصلاً في فصل لاحق.

والغرض، فإن وجوده في منصب الإمامة وتبوءه موقع القيادة والإصلاح يجعله أقرب الأطراف إلى حدّ السيوف، وأدناهم إلى شبا الرماح، وهو من أهل البيت الذين ابتلوا بمصالح الرعية، وجعل فيهم دوام الرسالة المحمدية. فمن خصوص أعمالهم مناهضة الظلم، ومن صميم دعوتهم رعاية أمور المسلمين، وهم مكلفون بما كتب عليهم وقدّر لهم من وجوه المسؤولية والأفعال.

فكان عليه السلام يعمل بوحي ذلك، فلا يرى في ضوء ما يحمله من الأخبار والعلم أن طريق الخلاص في التعرّض إلى السلطان، بل في الابتعاد عن مواطن الأذى وموارد الهلكة، والوقوف بوجه الظلم والجبارين بوسائل يضمن نفعها، ويؤمن سلامة الناس فيها.

كما كان عليه السلام يشدّد على وحدة الأمة، ويدعو إلى توثيق روابط الإخوة الإسلامية وإلى الألفة والتقارب، وينهى عن التباغض والتباعد، ويحاول تأليف القلوب بمختلف الطرق، ويدرك أثر التكاتف والتآلف. فبذل ماله للقضاء على كل أسباب الخلاف بين المسلمين والعمل على جمع صفهم وتآلفهم حرصاً على وحدة الكلمة.

قال أبو حنيفة ـ واسمه سعيد بن بيان ـ المعروف بسابق الحاج: (مر بنا المفضّل بن عمر وأنا وَخَتَن لي نتشاجر على ميراث في الطريق، فوقف علينا ساعة ثم قال لنا: تعالوا إلى المنزل، فأتيناه فأصلح بيننا بأربعمائة درهم، فدفعها إلينا من عنده، حتى إذا استوثق كل واحد منّا صاحبه، قال المفضل: أما إنها ليست من مالي، ولكن أبا عبد الله الصادق أمرني إذا تنازع رجلان من أصحابنا أن أصلح بينهما وأفتديهما من ماله، فهذا مال أبي عبد الله)[1].

فكان عليه السلام يتّخذ السبل العملية الكفيلة بتحقيق مبادىء الإسلام، ويستعين برجاله لكي يقضي على عوامل الفرقة ومظاهر الشقاق، ويحقق مبدأه الذي سار عليه في الإصلاح. ودعا إلى عدم التعاون مع السلطة، فنهى عن المرافعة إلى حكّام اتخذوا السلطة غنيمة يستغلونها لأغراضهم، بعد أن أعلن مقاطعتهم، وصرّح على ملأ من الناس بأن يرجعوا إلى سلطة الحق وميزان العدل فيما ينشأ بينهم من الخلافات، فإن سلطة الحق مفتوحة الأبواب، ومبادىء الدين لا تعطلها عوائق أو ظروف صعبة، إذ الإيمان يرسم الخطوط العامة لدور المؤمن والقائد على السواء، فقال عليه السلام: «أيّما رجل منكم كانت بينه وبين أخ له مماراة في حق، فدعاه إلى رجل من إخوانكم ليحكم بينه وبين أخيه، فأبى إلاّ أن يرفعه إلى هؤلاء، كان بمنزلة الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾».

وعن عمر بن حنظلة ـ من أصحاب الإمام الصادق ـ قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة في دين أو ميراث، فتحاكما إلى السلطان أو إلى القضاة أيحل ذلك؟

قال الإمام الصادق: «من تحاكم إليهم في حق أو باطل، فإنما تحاكم إلى

---

(١) الكافي ج٢ ص٢٠٩ ط٢.

الجبت والطاغوت المنهي عنه، وما حُكم له به، فإنما يأخذ سحتاً وإن كان حقه ثابتاً له، لأنه أخذه بحكم الطاغوت، ومن أمر الله عز وجل أن يُكفر به، قال الله عز وجل: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾».

قلت: فكيف يصنعان وقد اختلفا؟

قال عليه السلام: «ينظران من كان منكم ممن قد روى حديثنا، ونظر في حلالنا وحرامنا، وعرف أحكامنا، فليرضيا به حكماً، فإني قد جعلته عليكم حاكماً، فإذا حكم بحكم ولم يقبله منه، فإنما بحكم الله استخفّ وعلينا ردّ. والرادّ علينا كافر ورادّ على الله، وهو على حدّ من الشرك بالله».

والتوعية التي هدف الإمام إليها، والتعبئة التي قام بها كانت تنزع عن السلطة قاعدتها، وتضع الحواجز بينها وبين الناس، وتكشف للمسلمين انغماس الحكّام في ملاذّهم، ومدى ابتعادهم عن الإسلام واستعدادهم لإنزال الأذى بالمسلمين، واستخدام قوتهم الغاشمة. فقرر الإمام أن يباشر دعوة الحق، ويقوم بإعداد الإمة، ويتبنى مهمة الإصلاح إلى حين استكمال عوامل الثورة ـ ولأنه لا يرى ما يراه الآخرون من ملائمة الظرف ـ أصرّ على هذا النهج حماية لأرواح المسلمين، لأن إعلان الثورة كان يعني سفك الدماء على أيدي الحكام الذين يتمتعون بالقوة ويتصفون بالقسوة ولا يتورعون عن انتهاك المحارم وإزهاق الأرواح في سبيل الحفاظ على سلطانهم وصيانة ملكهم، ثم إن النفوس امتلأت جراحاً، والأمر كما تبيّنه الأخبار وتعيّنه الآثار، فالإمامة معقودة لرعاية الدين وحماية العقيدة، والأحداث تجري على نماذج من التضحيات، وأمثال من المواقف التي تشحذ الهمم وتؤجج المشاعر، والخلافة العظمى بإمامتها الروحية تتبوء المحل الذي وضعها الله فيه. ولكل فترة دور وحال.

وعلى ذلك يفسر الإمام الصادق قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ فيقول: «إن رسول الله ﷺ لما أخرجته قريش من مكة، وهرب منهم إلى الغار، وطلبوه ليقتلوه فعوقب، ثم في بدر عاقب، لأنه قتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وحنظلة بن أبي سفيان وأبو جهل وغيرهم، فلما قبض رسول الله ﷺ بغى عليه ابن هند بنت عتبة بن ربيعة بخروجه عن طاعة أمير المؤمنين عليه السلام وبقتل ابنه يزيد الإمام الحسين عليه السلام بغياً وعدواناً وقائلاً شعراً:

ليت أشياخي ببدر شهدوا (جزع) الخزرج من وقع الأسل

لأهـلّـوا واستـهـلّـوا فـرحـاً ... ثـم قـالـوا يـا يـزيـد لا تـشـل

لست من خندف إن لم أنتقم ... من بني أحمد ما كان فعل

قد قتلنا القرم من ساداتهم ... وعدلناه ببدر فاعتدل

ثم قال تعالى: لينصرنه الله. يعني بالقائم المهدي من ولده ﷺ[1]».

ومن المعلوم أن التقية كانت من دين الإمام الصادق، جعلها في مكان من عمله رفيع وبارز لاتقاء شرور الحكام ودفع ظلمهم، إلى ما فيها من الإبقاء على الصلات بالأولياء الحقيقيين الذين يتخذهم المسلمون بإيمان ونص من دين الله، وإلا فإن الحديث عن بني العباس صريح تصرخ به أفعالهم وتصرّح به سياستهم.

* * *

وفي سيرة الإمام الصادق تتمثل أيضاً الأعمال التي على المصلح الديني أن يقوم بها، والاتجاه إلى الإصلاح بالعمل الديني يقود إلى الإصلاح الاجتماعي والأخلاقي، وقد قلنا أن الإمام الصادق كان يقرن دعوته بصور عملية حيث يبادر بنفسه إلى العمل لكسب الرزق، ويكفّ نفسه عمّا نهى الله عنه، فيجد المسلم في سلوك الإمام تطابقاً تاماً وائتلافاً كاملاً يجسّد العقائد والمبادىء والأفكار التي يدعو إليها، فيطمئن الناس إلى صدق النية، ويقبلون على عالم من القول والعمل فيه القربة إلى الله لنيل رضاه وفيه السلامة في الدنيا لنيل السعادة.

سئل عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾؟ فقال: «إن الله سبحانه يقول للعبد يوم القيامة: عبدي، أكنت عالماً؟ فإن قال: نعم. قال له: أفلا عملت بما علمت؟ وإن قال: كنت جاهلاً. قال: أفلا تعلّمت حتى تعمل؟ فيخصم. فتلك الحجة...» اهـ.

ويسعى الإمام الصادق عليه السلام إلى معالجة الشذوذ في التصرفات التي تحدث بدافع الجهل، فإن كانت لأجل الإساءة إلى الدين والطعن في العقائد، فإنها تدخل في جملة القضايا والأعمال التي يستهدفها جهده عليه السلام في حملة فكرية وعقلية يقابل بها أفكار الزندقة والألحاد وأهل الأهواء والآراء. وإذا تحدّث جَمَعَ بين التفسير والوعظ والوقائع. وإليك ما يضمّ خلاصة ما قدمناه.

---

(١) ينابيع المودة للحافظ سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي ص٥١٠.

قال عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ «يقول: إرشدنا للزوم الطريق المؤدي إلى محبتك، والمبلّغ إلى جنتك من أن نتبع أهوائنا فنعطب، ونأخذ بآرائنا فنهلك، فإن من اتبع هواءه وأعجب برأيه كان كرجل سمعتُ غثاء الناس تعظّمه وتصفه، فأحببت لقاءه من حيث لا يعرفني لأنظر مقداره ومحله، فرأيته في موضع قد أحدق به جماعة من غثاء العامة، فوقفت منتبذاً عنهم، متغشياً بلثام أنظر إليه وإليهم، فما زال يراوغهم حتى خالف طريقهم وفارقهم، ولم يقرّ، فتفرّقت جماعة العامة عنه لحوائجهم، وتبعته أقتفي أثره، فلم يلبث أن مرّ بخباز، فتغفله فأخذ من دكانه رغيفين مسارقة، فتعجبت منه، ثم قلت في نفسي: لعله معامله. ثم مرّ بعده بصاحب رمان، فما زال به حتى تغفله فأخذ من عنده رمانتين مسارقة، فتعجبت منه، ثم قلت في نفسي: لعله معامله. ثم أقول: وما حاجته إذاً إلى المسارقة؟ ثم لم أزل أتبعه حتى استقرّ في بقعة من صحراء. فقلت له: يا عبد الله لقد سمعت بك، وأحببت لقاءك، فلقيتك لكني رأيت منك ما شغل قلبي، وإني سائلك عنه ليزول به شغل قلبي.

قال: ما هو؟

قلت رأيتك مررت بخباز وسرقت منه رغيفين، ثم بصاحب رمان فسرقت منه رمانتين؟

فقال لي: قبل كل شيء حدثني من أنت؟

قلت: رجل من ولد آدم من أمة محمد ﷺ.

قال: حدثني ممن أنت؟

قلت: رجل من أهل بيت رسول الله.

قال: أين بلدك؟

قلت: المدينة.

قال: لعلك جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن أبي طالب عليهم السلام.

قلت: بلى.

قال لي: فما ينفعك شرف أصلك مع جهلك بما شرّفت به، وتركك علم جدك وأبيك، لأنه لا ينكر ما يجب أن يحمد ويمدح فاعله.

قلت: ما هو؟

قال: القرآن كتاب الله.

قلت: وما الذي جهلت؟

قال: قول الله عز وجل: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ وإني لمّا سرقت الرغيفين، كانت سيئتين. ولمّا سرقت الرمانتين، كانت سيئتين. فهذه أربع سيئات. فلمّا تصدّقت بكل واحد منها كانت أربعين حسنة، أنقص من أربعين حسنة أربع سيئات، بقي ست وثلاثون.

قلت: ثكلتك أمك، أنت الجاهل بكتاب الله، أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ إنك لمّا سرقت رغيفين، كانت سيئتين، ولما سرقت الرمانتين كانت سيئتين. ولما دفعتها إلى غيرها من غير رضا صاحبها كنت إنما أضفت أربع سيئات إلى أربع، ولم تضف أربعين حسنة إلى أربع سيئات. فجعل يلاحيني، فانصرفت وتركته»[1]. اهـ.

الشذوذ في الأعمال استدعى من الإمام ما رأيناه من ملاحظة وتتبع، أما الوجه الآخر فهو الجهل الحقيقي الذي يدور بين الناس على شكل أشخاص يدّعون العلم بالكتاب والفهم بالدين، وهو وجه يسبب أخطاراً وأخطاءاً تجرّيء الناس على النصوص والأحكام، وتضع عراقيل تؤثر في سير دعوة الإمام الصادق.

ويروى للإمام الصادق تعقيب يبيّن ما ترتّب على ذلك من أضرار في تاريخ الإسلام، فيقول عليه السلام: «بمثل هذا التأويل القبيح المستكره يَضِلّون ويُضِلّون..» فقد لجأ الظالمون والبغاة إلى مثل ذلك وأباحوا لأنفسهم التقوّل على الله، والكذب على النبي الكريم.

لقد اهتم الإمام الصادق بالأصحاب الذين ينقلون عنه الحديث، وبالأقارب الذين يعملون بنهجه في طبقات المجتمع، ويجنّدون أنفسهم لدعوة الإصلاح والتمسّك بالدين، ويعنى بطريقة مخاطبتهم الناس، وأسلوب حملهم على العمل بالفرائض والأحكام. قال الإمام الصادق لأحد أصحابه: «وضع الإسلام على سبعة أسهم: على الصبر والصدق واليقين والرجاء والوفاء والعلم والحلم. ثم قسم ذلك

---

(١) معاني الأخبار للصدوق والاحتجاج.

بين الناس، فمن جعل فيه هذه السبعة الأسهم فهو كامل الإيمان محتمل، وقسم لبعض الناس السهم، ولبعض السهمين، ولبعض الثلاثة أسهم، ولبعض الأربعة أسهم، ولبعض الخمسة أسهم، ولبعض الستة أسهم. فلا تحملوا على صاحب السهم سهمين، وعلى صاحب السهمين ثلاثة أسهم، وعلى صاحب الثلاثة أربعة أسهم، ولا على صاحب الأربعة خمسة أسهم، ولا على صاحب الخمسة ستة أسهم، ولا على صاحب الستة سبعة أسهم، فتثقلوهم وتنفّروهم، ولكن ترفّقوا بهم، وسهّلوا لهم المداخل. وسأضرب لك مثلاً تعتبر به: إنه كان رجل مسلم، وكان له جار كافر (وفي رواية نصراني) وكان الكافر يرفق بالمؤمن، فأحب المؤمن للكافر الإسلام، ولم يزل يزيّن الإسلام ويحببه إلى الكافر حتى أسلم، فغدا عليه المؤمن فاستخرجه من منزله، فذهب به إلى المسجد ليصلي معه الفجر في جماعة، فلمّا صلّى قال له: لو قعدنا نذكر الله عز وجل حتى تطلع الشمس. فقعد معه، فقال له: لو تعلمت القرآن إلى أن تزول الشمس وصمت اليوم كان أفضل. فقعد معه وصام حتى صلى الظهر والعصر. فقال له: لو صبرت حتى تصلي المغرب والعشاء الآخرة. ثم نهضا وقد بلغ مجهوده، وحمل عليه ما لا يطيق. فلما كان من الغد، غدا عليه وهو يريد به مثل ما صنع بالأمس، فدق عليه بابه، ثم قال: أخرج حتى تذهب إلى المسجد. فأجابه: أن انصرف عني، فهذا دين لا أطيقه»[1].

وعن عقبة بن خالد[2]: دخلت أنا والمعلاّ وعثمان بن عمران على أبي عبد الله عليه السلام فلما رآنا قال: «مرحباً مرحباً بكم، وجوه تحبّنا ونحبّها، جعلكم الله معنا في الدنيا والآخرة» فقال له عثمان: جعلت فداك. فقال أبو عبد الله عليه السلام: «نعم مَه» قال: إني رجل موسر، فقال له: «بارك الله لك في يسارك» وقال: ويجيء الرجل فيسألني الشيء، وليس هو إبان زكاتي. فقال له أبو عبد الله عليه السلام: «القرض عندنا بثمانية عشر، والصدقة بعشرة، وماذا عليك إذا كنت كما تقول لا تردّه، فإن ردّه عند الله عظيم. يا عثمان، إنك لو علمت ما منزلة المؤمن من ربّه ما توانيت في حاجته، ومن أدخل على مؤمن سروراً، فقد أدخل على رسول الله صلى الله عليه وآله»[3].

---

(١) الإثني عشرية في المواعظ العددية للحافظ العيناثي الجزيني.

(٢) عقبة بن خالد الأسدي الكوفي من أصحاب الإمام الصادق.

(٣) الكافي للكليني.

وبهذه السيرة والتعاليم يقيم الإمام الصادق واقعاً محسوساً ومعاشاً من الألفة والتعاون والتكافل، وفي كل جانب من حياته اليومية عليه السلام عليه سيماء الدين وصفة الفقه والدعوة الإسلامية، فلا غرو أن نجده مهوى أفئدة محبي الحكمة، ومقصد طلاب العلم، كما نجده ملجأ المحتاجين، فهو عليه السلام لا يكتفي بتهيئة أصحابه ومحبيه لأداء ما أمر به الإسلام من حقوق للفقراء، بل يجعل من بيته أيضاً المقام الأول الذي تجري فيه تطبيقات أحكام الإسلام وتعاليمه.

جاء إليه عليه السلام رجل فقال له: يا أبا عبد الله، قرض إلى ميسرة. فقال له أبو عبد الله عليه السلام: «إلى غلّة تدرك؟» فقال الرجل: لا والله. قال: «فإلى تجارة تؤوب؟» قال: لا والله. قال: «فإلى عقدة تباع؟» فقال: لا والله. فقال أبو عبد الله عليه السلام: «فأنت ممن جعل الله له في أموالنا حقاً». ثم دعا بكيس فيه دراهم، فأدخل يده فيه، فناوله منه قبضة.

ويدعو عليه السلام إلى أن يسعى المؤمن في حاجة أخيه، ويظهر شديد اهتمامه في التكاتف والتكافل الذي دعا إليه الإسلام، ويبيّن جزاء ذلك عند الله ليصبح عمل المسلم في إطار مجتمعه عملاً دينياً وله الصفة الشرعية. فمن أقواله عليه السلام: «قضاء حاجة المؤمن خير من عتق ألف رقبة، وخير من حملان ألف فرس في سبيل الله».

وكذلك قوله عليه السلام: «لقضاء حاجة امرء مؤمن أفضل من ألف حجة متقبلة بمناسكها، وعتق ألف رقبة».

ومن المعلوم أن الإمام الصادق في حضّه على إقامة العلاقات بين المسلمين على مثل هذه الصورة من التعاون والمساعدة، يعالج في أعماله وأقواله تلك الظاهرة التي أشرنا إليها سابقاً من الانصراف إلى الأعمال العبادية، أو الانقطاع عن طلب الرزق تحت تأثير فهم محدود، أو حالة خاصة، والتي تشمل أيضاً أداء المناسك والأعمال الخيرية بقصد التظاهر وتمدّح الناس والسمعة. وهنا محك هام يضعه الإمام عليه السلام لتوجيه المجتمع إلى الرفاه والتآلف.

ونرى الإمام الصادق يزيد في القول من ذكر المعروف وفضله ليحبب إلى الناس فعل الخير ويشيعه بينهم، وهو يبدأ بالدعوة إلى المعروف بدون تقييده، فيقول عليه السلام داعياً أصحابه: «إصنع المعروف إلى كل أحد، فإن كان أهله وإلا فأنت أهله».

ثم يتّجه في دعوته إلى عمل المعروف بين المؤمنين فيقول: «أيما مؤمن أوصل إلى أخيه المؤمن معروفاً، فقد أوصل ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله».

ومن صور حثّه على المعروف قوله عليه السلام : «ليس شيء أفضل من المعروف إلا ثوابه».

ثم يضع الإمام الصادق لهذا العمل ـ الذي يكشف عن حب الخير في نفس المؤمن، وعن روح المحبة في صدر المسلم ـ شروطاً، فيرى أن المعروف لا يصلح إلا بثلاث خصال: «تصغيره في ستره، وتعجيله، فإن المسلم إذا صغّره عظّمه عند من صنعه إليه، وإذا ستره تمّمه، فإذا عجله هنأه، وإن كان غير ذلك محقه ونكده»[1].

أما الزكاة فإن الإمام الصادق عليه السلام فيما استفاض عنه من أخبار يشرح وجوبها وعلل فرضها، ويبدأ بمن وجبت عليه ليؤدي ما افترض الله عليه. قال عليه السلام لعمّار بن موسى الساباطي[2]: «يا عمار أنت ربّ مال كثير؟» قال: نعم، جعلت فداك. قال: «فتؤدي ما افترض الله عليك من الزكاة؟» فقال: نعم. قال «فتخرج الحق المعلوم من مالك؟» قال: نعم. قال: «فتصل قرابتك؟» قال: نعم. قال «فتصل إخوانك؟» قال: نعم. فقال «يا عمار إن المال يفنى، والبدن يبلى، والعمل يبقى، والديّان حيّ لا يموت. يا عمّار أما أنه ما قدمت فلم يسبقك، وما أخرّت فلن يلحقك»[3].

ويبيّن الإمام الصادق علّة فرض الزكاة ووجوبها فيقول: «إنما وضعت الزكاة اختباراً للأغنياء، ومعونة للفقراء. ولو أن الناس أدوّا زكاة أموالهم، ما بقي مسلم محتاجاً ولا مستغنى بما فرض الله عز وجل له، وإن الناس ما افتقروا ولا احتاجوا ولا جاعوا ولا عروا إلا بذنوب الأغنياء، وحقيق على الله عز وجل أن يمنع رحمته من منع حق الله في ماله. وأقسم بالذي خلق الخلق ويسط الرزق إنه ما ضاع مال في برٍ ولا بحرٍ إلاّ بترك الزكاة، وما صيد صيد في برٍ ولا بحرٍ إلاّ بترك التسبيح في ذلك اليوم. وإن أحب الناس إلى الله عز وجل أسخاهم كفاً، وأسخى الناس من أدّى الزكاة في ماله، ولم يبخل على المؤمنين بما افترض الله عز وجل لهم في ماله...» اهـ.

وعن زرارة[4] ومحمد بن مسلم[5] أنهما قالا لأبي عبد الله عليه السلام : أرأيت

---

(١) فروع الكافي ج٤ ص٨.

(٢) من أصحاب الإمام الصادق والأمام الكاظم. أخواه قيس وصباح كانوا جميعهم من الثقات.

(٣) فروع الكافي ومن لا يحضره الفقيه للصدوق.

(٤) زرارة بن أعين الشيباني من أصحاب الإمام الباقر والصادق قال النجاشي: (شيخ أصحابنا في زمانه ومتقدمهم. قد اجتمعت فيه خلال الفضل والدين) ابنه محمد ثقة روى عنه جماعة.

(٥) محمد بن مسلم بن رباح أبو جعفر الأوقص الطحّان فقيه ثقة. من أصحاب الباقر والصادق.

قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أكلُّ هؤلاء يعطي وإن كان لا يعرف؟ فقال: «إن الإمام يعطي هؤلاء جميعاً لأنهم يقرّون له بالطاعة». قال زرارة: قلت: فإن كانوا لا يعرفون؟ فقال: «يا زرارة، لو كان يعطي من يعرف دون من لا يعرف، لم يوجد لها موضع. وإنما يعطي من لا يعرف ليرغب في الدين، فيثبت عليه، فأما اليوم فلا تعطها أنت وأصحابك إلا من يعرف، فمن وجدت من هؤلاء المسلمين عارفاً؛ فأعطه دون الناس» ثم قال: «سهم المؤلفة قلوبهم وسهم الرقاب عام، والباقي خاص» قال: قلت: فإن لم يوجدوا؟ قال: «لا تكون فريضة فرضها الله عز وجل، ولا يوجد لها أهل» قال: قلت: فإن لم تسعهم الصدقات؟ قال فقال: «إن الله عز وجل فرض للفقراء في مال الأغنياء ما يسعهم، ولو علم أن ذلك لا يسعهم لزادهم، إنهم لم يؤتوا من قبل فريضة الله عز وجل، ولكن أوتوا من قبل من منعهم حقهم، لا مما فرض الله لهم، ولو أن الناس أدّوا حقوقهم لكانوا عائشين بخير، فإما الفقراء فهم أهل الزمانة والحاجة، والمساكين أهل الحاجة من غير الزمانة، والعاملون عليها هم السعاة، وسهم المؤلفة قلوبهم ساقط بعد رسول الله ﷺ، وسهم الرقاب يعان به المكاتبون الذين لا مأوى له ولا مسكن، مثل: المسافر الضعيف ومارّ الطريق. ولصاحب الزكاة أن يضعها في صنف دون صنف متى لم يجد الأصناف كلها» اهـ.

وعن عمار الساباطي قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام «يا عمار الصدقة والله في السرّ أفضل من الصدقة في العلانية، وكذلك والله العبادة في السرّ أفضل منها في العلانية».

وقال عليه السلام: «إن الصدقة تقضي الدين، وتخلف البركة».

وتضعنا أقوال الإمام الصادق إزاء الغرض الذي يسعى إليه، ويعمل من أجل تحقيقه، وهو صورة المجتمع المسلم الذي تنفّذ فيه أحكام الإسلام وتطبّق تعاليمه، وهو عليه السلام في طريقة الدعوة وأسلوب الحثّ على هدى آبائه الطيبين في البناء والصياغة، فنراه يقول ليحبّب الصدقة ويحفّز على التصدّق: «إن الصدقة تدفع ميتة السوء عن الإنسان».

ثم يسوق هذه الحادثة: «مرّ يهودي بالنبي ﷺ فقال: السام عليك. فقال له رسول الله ﷺ: عليك. فقال أصحابه: إنما سلم عليك بالموت؟ قال: الموت عليك. قال النبي ﷺ: كذلك رددت عليه. ثم قال ﷺ: إن هذا اليهودي يعتضّه

أسود[1] في قفاه، فيقتله. قال: فذهب اليهودي، فاحتطب حطباً كثيراً، فاحتمله، ثم لم يلبث أن انصرف. فقال له رسول الله ﷺ: ضعه. فوضع الحطب، فإذا أسود في جوف الحطب عاضٌ على عود. فقال: يا يهودي ما عملت اليوم؟ قال: ما عملت عملاً إلا حطبي هذا احتملته وجئت به وكان معي كعكتان، فأكلت واحدة وتصدّقت بواحدة على مسكين. فقال رسول الله ﷺ: بها دفع الله عنك»[2].

ومن وجوه عمله على سدّ حاجة الفقراء، وضمان ما يقيم صلبهم بأداء ما أمر به الله ودعا إليه الإسلام، مخاطبته أصحابه بما يريد منهم أن يفعلوه. وهو عندما يصدر منه، فإن الأصحاب والمحيطين به ينظرون إلى قوله نظرة الأمر، لأنه إمام مفترض الطاعة، وهم بظل إمامته يتفيأون، وينهج هداه يعملون، فيخاطبهم عليه السلام: «بكّروا بالصدقة ورغّبوا فيها، فما من مؤمن يتصدق بصدقة يريد بها ما عند الله ليدفع بها عنه شرّ ما ينزل من السماء إلى الأرض في ذلك اليوم، إلا وقاه الله شرّ ما ينزل من السماء إلى الأرض في ذلك اليوم».

وقال عليه السلام: «استنزلوا الرزق بالصدقة، وحصّنوا أموالكم بالزكاة»[3].

وبالإسناد عن أبان بن تغلب أنه[4] أمره أن يقطع الطواف، ويذهب إلى رجل أشار إلى أبان ليرى حاجته. قلت: فأقطع الطواف؟ قال عليه السلام: «نعم» قلت: وإن كان طواف فريضة؟ قال عليه السلام: «نعم».

قال: فذهبت معه، ثم دخلت عليه بعد، فسألته، فقلت: أخبرني عن حق المؤمن على المؤمن؟ قال عليه السلام: «يا أبان، دعه لا تزده». قلت: بلى، جعلت فداك. فلم أزل أردد عليه.

فقال عليه السلام: «يا أبان أن تقاسمه شطر مالك» ثم نظر إليّ فرأى ما دخلني، فقال: «يا أبان، أما تعلم أن الله عز وجل قد ذكر المؤثرين على أنفسهم؟» قلت: بلى جعلت فداك.

---

(١) الأسود هو العظيم من الحيات.

(٢) فروع الكافي ج٤ ص٥.

(٣) حلية الأولياء ج٣ ص١٩٥.

(٤) أبان بن تغلب الربعي من تلامذة الإمام الصادق وأصحابه المقربين. ذكر له ابن النديم كتاب: معاني القرآن، والقراءات، وكتاباً من الأصول على مذهب الشيعة.

فقال: «إذا قاسمته لم تؤثره بعد، إنما أنت وهو سواء، إنما تؤثر إذا أعطيته من النصف الآخر».

ويقول لأصحابه: «إن صدقة الليل تطفيء غضب الرب، وتمحو الذنب العظيم، وتهوّن الحساب. وصدقة النهار تثمر المال وتزيد في العمر. إن عيسى بن مريم عليه السلام لمّا أن مرّ على شاطيء البحر رمى بقرص من قوته في الماء. فقال له بعض الحواريين: يا روح الله وكلمته لم فعلت هذا وإنما هو من قوتك؟ فقال: فعلت هذا لدابة تأكله من دوابّ الماء، وثوابه عند الله عظيم».

ويروي عليه السلام من أحاديث جدّه النبي ﷺ في ذلك الكثير منها: قال عليه السلام: «قال رسول الله ﷺ: تصدقوا فإن الصدقة تزيد في المال كثرة».

وقال عليه السلام: «قال رسول الله ﷺ: إن الله لا إله إلاّ هو ليدفع بالصدقة الداء والدبيلة[1] والحرق والغرق والهدم، وعدّ سبعين باباً من السوء».

فكيف يتوانى المسلم عن ثواب ذلك وفوائده الدنيوية والأخروية وهو يسمع بأذنيه هذه الأحاديث والأحداث. ويرى أمام عينيه مبادرة الإمام إلى تطبيق تعاليم الإسلام، ومباشرته بنفسه سدّ حاجة الناس. ويراعي الإمام مشاعر الناس، ومنهم طائفة ترى في أخذ الزكاة حطاً من مكانتها، وتخجل أن يكون قبولها إمارة عوز وفقر، فأمر عليه السلام أن يعطى من يستحيي، ولا تسمّ له الزكاة لكي لا يذلّ المؤمن.

وقال عليه السلام: «لو يعلم السائل ما عليه من الوزر، ما سأل أحد أحداً. ولو يعلم المسؤول إذا منع، ما منع أحد أحداً»[2].

ونضع آخر قبس من سيرته الكريمة عليه أفضل الصلاة والسلام أمام القاريء الكريم، وفيها جوامع النظرة ومضامين الفكرة. فعن المعلى بن خنيس[3] قال: قلت للإمام الصادق عليه السلام: ما حق المسلم على المسلم؟ قال: «سبع حقوق وواجبات،

---

(١) الدبيلة: الداهية. في الصحاح: هي مصغرة للتكبير يقال (دبلتهم الدبيلة) أي أصابتهم الداهية.

(٢) فروع الكافي.

(٣) أبو عبد الله مولى الإمام الصادق، كان مولى لبني أسد في الكوفة. قتله داود بن علي والي المدينة، فغضب الإمام الصادق ودعا على داود بن علي، فما أستتم دعاءه عليه السلام حتى سمعت الصيحة في دار داود.

ما منهنّ حقّ إلاّ وهو عليه واجب، إن ضيّع منها شيئاً خرج من ولاية الله وطاعته، ولم يكن لله فيه من نصيب» قلت له: جعلت فداك وما هي؟. قال: «يا معلّى إني عليك شفيق، أخاف أن تضيّع ولا تحفظ، وتعلم ولا تعمل» قال قلت له: لا قوة إلا بالله. قال: «أيسر حق منها أن تحبّ له ما تحبّ لنفسك، وتكره له ما تركه لنفسك. الحق الثاني: أن تجتنب سخطه، وتتبع مرضاته، وتطيع أمره. والحق الثالث: أن تعينه بنفسك ومالك ولسانك ويدك ورجلك. والحق الرابع: أن تكون عينه ودليله ومرآته. والحق الخامس: أن لا تَشبع ويَجوع، ولا تُروى ويَظمأ، ولا تَلبس ويَعرى. والحق السادس: أن يكون لك خادم وليس لأخيك خادم، فواجب أن تبعث خادمك، فيغسل ثيابه، ويصنع طعامه، ويمهد فراشه. والحق السابع: أن تبرّ قسمه، وتجيب دعوته، وتعود مريضه، وتشهد جنازته، وإذا علمت أن له حاجة تبادر إلى قضائها، ولا تلجأه أن يسألكها، ولكن تبادره مبادرة. فإذا فعلت ذلك وصلت ولايتك بولايته وولايتي بولايتك».

ونختم ما يحتمله وسع هذا الفصل بالإشارة إلى تصدّي الإمام الصادق إلى تحقيق هذه الجوانب الحياتية التي تستمد من العقيدة بشعور الزعامة الروحية وقيادة شؤون تنفيذ هذه التعاليم، فهو عليه السلام جعل أمر الحاجة عند المؤمن ومساعدة الضعفاء منهم خاصاً به وشأناً يمسّه.

كان عنده جماعة من أصحابه، فقال لهم: «مالكم تستخفّون بنا؟» فقام إليه رجل من أهل خراسان فقال: معاذ الله أن نستخفّ بك أو بشيء من أمرك.

فقال: «إنك أحد من استخفّ بي».

فقال الرجل: معاذ الله أن أستخفّ بك.

فقال عليه السلام: «ويحك ألم تسمع فلاناً ـ ونحن بقرب الجحفة ـ وهو يقول لك: إحملني قدر ميل، فقد والله أعييت. فوالله ما رفعت له رأساً، لقد استخففت به، ومن استخفّ بمؤمن فبنا استخفّ، وضيّع حرمة الله عز وجل».

وبذلك يجعل عليه السلام إعانة المؤمن ومساعدة الضعيف على اختلاف وجوههما وأحوالهما متصلاً بمنزلته عليه السلام، واستخدامه لصيغة الجمع تأكيد لعظيم هذا الجانب من حياة المجتمع، وخطر هذا الوجه من العلاقات بين المؤمنين.

وإلى هنا نكتفي بما قدمناه من قبسات من سيرة الإمام الصادق، ونظرة سريعة إلى ظروف عصره وأحداثه، فقد ضمّت الأجزاء السابقة من الكتاب مزيداً من البحث وبسطنا فيه القول.

ونتحول الآن إلى مدرسة الإمام الصادق عليه السلام لنقف على الجهود العلمية التي بذلها عليه السلام ونتعرف على تفاصيل أخرى عن منهج هذه الجامعة الإسلامية الكبرى التي أمّها علماء الأمة من مختلف الأقطار، وتتلمذ فيها كبار الأئمة، وهي المأثرة العظمى والمفخرة الكبرى التي تدلل بآثارها ونتائج أعمالها على دور الإمام الصادق في حفظ التراث العلمي الإسلامي وإغنائه.

مدرسة الإمام الصادق
المنهج والتكوين

تتظافر الروايات على أن عدد الذين تتلمذوا على الأمام الصادق وانتسبوا إلى مدرسته هو أربعة آلاف طالب من مختلف الأقطار، فقد جمع أصحاب الحديث أسماء الرواة عنهم من الثقاة على اختلافهم في الآراء والمقالات فكانوا كذلك، فقد كان عليه السلام أفضل أهل زمانه، وبرز على أقرانه بالفضل والسؤدد في الخاصة والعامة، ونقل الناس عنه من العلوم ما لم ينقل عن أحد من أهل بيته[1].

كان الصادق عليه السلام أفضل الناس وأعلمهم بدين الله، وكان أهل العلم الذين سمعوا منه إذا رووا عنه قالوا: أخبرنا العالم[2]. قال أبو الحسن الوشاء: (أدركت في جامع الكوفة تسعمائة شيخ من أهل الدين والورع كلهم يقول: حدثني جعفر الصادق). وقد كانت الكوفة والمدينة تضمّان أكبر عدد من هؤلاء لانتشار التشيّع في الكوفة. ولأن المدينة كانت أرض تكوين ومهد دعوته.

ولا نجد من يجرأ على إنكار مكانة الإمام الصادق في زمانه وزعامته في ذلك العصر، وقد عودتنا الأيام أن يكابر الكثيرون ويعاند العديدون استجذاءً للحكام واتّباعاً للأهواء والأحقاد، لأن الحقائق كانت تقمع ما تطويه دخائلهم وتضمّه جوانحهم، فقد كان بيته ومجلسه عليه السلام يزدحمان بطلبة العلم وأهل الفقه، يقبلون على الإمام للإنتهال من معين علمه وحكمته، حتى أن الروايات تصف ضيق داره لعظم الوفود والعلماء من مختلف الأقطار، حتى صعب على أصحابه أن يجدوا لهم مجلساً.

---

(١) روضة الواعظين للفتال النيسابوري ج١ ص٢٠٧.

(٢) تاريخ ابن واضح ج٣ ص١١٥.

ولم يعرف لأحد غيره مثل هذه الشهرة. فقد كان تلاميذه من العراق ومصر وخراسان وحمص والشام وحضرموت وغيرها.

وقد تصدّر الإمام الصادق حركة المجتمع بجدارة، وتزعم الحركة العلمية بتفرّد، فقد (نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان، وانتشر صيته في جميع البلدان)[1]. وكان ينذر نفسه لهذه الأغراض، ويتّجه إلى الناس قائلاً: «سلوني قبل أن تفقدوني، فإنه لا يحدّثكم أحد بعدي بمثل حديثي»[2]. ولذلك: (روى حديثه خلق لا يحصون)[3]. وانتشر فقهه في الآفاق، وإذا استعصى الحصر وصعب العدّ لتحديد كل من روى عنه عليه السلام فإن الأربعة الآف كانوا المتميزين، وإلا فإن الصورة التي لا تقبل المماراة هي شيوع ذكره بين سائر الناس وعلوّ مكانته في نفوس المسلمين على مختلف أصنافهم وأجناسهم. وعلى ذلك فلا يستغرب أن يعجز الكثير عن إحصاء كل من نقل عنه أو روى حديثه عليه السلام.

ثم حلقات فقهه من أصحابه وتلامذته المقرّبين وعددهم أربعمائة ممن نبهوا في العلوم وعُرفوا بالفقه، وهم رجال مدرسته وهيئتها العلمية الذين اختصوا بفقه الإمام الصادق، وكانوا من العدالة والثقة بمكان لا ترقى إليه سهام الحقد والحسد، وقد ألّفوا في فقه الإمام جعفر الصادق والرواية عنه أربعمائة كتاب، وهي الأصول الفقهية للمذهب الجعفري[4].

وقد تحرّى الإمام الصادق كفاءة الأصحاب وقدرات المتعلّقين به، ووجّه كلاً إلى حيث العمل الذي يتّفق ومواهبه وينسجم مع استعداده، فكان البعض منهم مختصاً بتنفيذ التعاليم التي تتعلق بواقع الأسر والأفراد، أو تتصل بالظواهر الاجتماعية والعلاقات. وقد مرّ بنا طرف من هذه المهمات التي توكل إليهم في الفصل السابق والأجزاء السابقة من الكتاب.

أما الناحية الفكرية ـ التي تمثل منهج مدرسته ـ فقد عيّن الإمام الصادق من بين

---

(١) الصواعق المحرقة لابن حجر ص١٢٠.

(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي ج١ ص١٥٧.

(٣) خلاصة تذهيب الكمال للخزرجي ص٥٤.

(٤) انظر التراجم والبحوث الخاصة بهم في الجزء الثالث والرابع.

هيئة المدرسة العلمية الرجال الذين توكل إليهم المهمات. وتسند شؤون المنهج وتطبيقاته، وهي تتجه إلى الأهداف التالية:

١ ـ مناظرة أهل العقائد الفاسدة.

٢ ـ محاربة أهل الألحاد والزندقة.

٣ ـ محاورة أهل الكتاب.

٤ ـ مواجهة الفرق الشاذة.

٥ ـ مقاتلة الظلمة بشدة الإنكار عليهم وتوجيه الانتقاد إليهم وفضح سياساتهم.

فجعل أبان بن تغلب للفقه، وأمره أن يجلس في المسجد فيفتي الناس. وكان أبان بن تغلب من الشخصيات الإسلامية التي امتازت باتقاد الذهن ووفور العقل وبعد الغور، والاختصاص بعلوم القرآن، وهو أول من ألف في ذلك، وكان فقيهاً يزدحم الناس على أخذ الفقه عنه، وإذا دخل مسجد المدينة المنورة أخليت له سارية النبي ﷺ فيحدّث الناس، ويسألونه فيخبرهم على اختلاف الأقوال، ثم يذكر قول أهل البيت، ويسوق أدلته ومناقشته على طريقة الإمام الصادق عليه السلام في الإجابة، إذ كان عليه السلام أعلم الناس باختلاف الناس وأفقههم[(١)].

ووكل لحمران بن أعين الأجوبة عن مسائل علوم القرآن. وقد كان أحد حملة القرآن، وممن يحتج بهم في القراءات، فهو من القرّاء المشهورين، وممن يعد ويذكر في كتب القراءة، وكان عالماً بالنحو واللغة، وهو من عائلة مشهورة في الكوفة ولهم منزلة. وأخوه زرارة ـ وقد مرت الإشارة إليه في آخر الفصل السابق ـ أوكل إليه المناظرة في الفقه تحت إشراف الإمام الصادق وتوجيهه.

ومؤمن الطاق كان للمساجلة في الكلام. وحمزة بن الطيار للمناظرة في الاستطاعة وغيرها. وهشام بن الحكم للمناظرة في الإمامة والعقائد. وكان منهم جماعة يتجوّلون في الأمصار، أمدّهم الإمام بالأموال.

وتظهر لنا شهادات التاريخ بحق الرجال مكانة الإمام الصادق، واتجاه الأنظار إليه، واختلاف الناس إلى مجلسه على اختلاف أغراضهم ومقاصدهم. كذلك تبين لنا المصادر أسلوب الإمام ومنهجه وتوزيع المهمات على أصحابه والإشراف على ما

---

(١) انظر مناقب أبي حنيفة للمكي ج١ ص١٧٣. وجامع مسانيد أبي حنيفة لقاضي القضاة الخوارزمي ج١ ص٢٢٢ ـ ٢٢٣.

يدور في حلقات درسهم ومجالس مناظراتهم.

ورد رجل من أهل الشام، فاستأذن على الإمام الصادق، وكان معه جماعة من أصحابه، فإذن له. فلما دخل سلّم. فأمره أبو عبد الله عليه السلام بالجلوس ثم قال له: «حاجتك؟»

قال: بلغني أنك عالم بكل ما تسئل عنه، فصرت إليك لأناظرك.

فقال عليه السلام: «فيماذا؟»

قال: في القرآن وقطعه وخفضه ونصبه ورفعه.

فقال عليه السلام: «يا حمران دونك الرجل».

فقال: إنما أريدك لا حمران.

فقال عليه السلام: «إن غلبت حمران فقد غلبتني».

فأقبل الشامي فسأل حمران حتى ضجر وملّ، وحمران يجيبه.

فقال عليه السلام: «كيف رأيته يا شامي؟»

قال: رأيته حاذقاً، ما سألته عن شيء إلا أجابني فيه.

فقال عليه السلام: «يا حمران سل الشامي» فما تركه يكثر.

فقال الشامي: أريد يا أبا عبد الله أن أناظرك في العربية.

فقال عليه السلام: «يا أبان بن تغلب ناظره» فناظره فما ترك الشامي يكثر.

قال الشامي: أريد أن أناظرك في الكلام.

قال عليه السلام: «يا مؤمن الطاق ناظره» فسجل الكلام بينهما. ثم تكلم مؤمن الطاق بكلام، فغلبه.

فقال الشامي: أريد أن أناظرك في الاستطاعة.

فقال عليه السلام للطيار: «كلّمه فيها».

فكلّمه، فما تركه يكثر.

فقال الشامي: أريد أن أكلمك في التوحيد.

فقال عليه السلام لهشام بن سالم: «كلّمه».

فسجَل الكلام بينهما، ثم خصمه هشام.

قال الشامي: أريد أن أناظرك في الفقه.

فقال عليه السلام: «يا زرارة ناظره». فما ترك الشامي يكثر.

قال الشامي: أريد أن أناظرك في الإمامة.

فقال عليه السلام لهشام بن الحكم: «كلّمه يا أبا الحكم» فكلّمه فما تركه يديم.

فقال الشامي: كأنك أردت أن تخبرني أن في شيعتك مثل هؤلاء الرجال.

فقال ﷺ: «هو ذاك... يا أخا أهل الشام، أمّا حمران فحرفك، فحرت له، فغلبك بلسانه، فسألك عن حرف الحق، فلم تعرفه.

وأما زرارة فقاسك، فغلب قياسه قياسك.

وأما هشام بن الحكم فتكلم بالحق، فما سوّغك ريقك.

يا أخا أهل الشام، إن الله تعالى أخذ ضغثاً من الحق وضغثاً من الباطل فمغثهما، ثم أخرجهما إلى الناس. ثم بعث أنبياء يفرّقون بينهما. ففرقتهما الأنبياء والأوصياء، فبعث الأنبياء ليعرّفوا ذلك، وجعل الأنبياء قبل الأوصياء ليعلم الناس من يفضل الله ومن يختص. ولو كان الحق على حدة والباطل على حدة كل واحد منهما قائم بنفسه، ما احتاج الناس إلى نبي ولا وصي، ولكن الله خلطهما وجعل تفريقهما إلى الأنبياء والأئمة من عباده».

فقال الشامي: قد أفلح من جالسك.

فقال أبو عبد اللّه عليه السلام: «إن رسول الله ﷺ كان يجالسه جبرئيل وميكائيل وإسرافيل، فيصعد إلى السماء فيأتيه الخبر من عند الجبار، وإن كان ذلك كذلك فهو كذلك»(1).

وعن يونس بن يعقوب قال: كنت عند أبي عبد اللّه عليه السلام فورد عليه رجل من أهل الشام فقال له: إني رجل صاحب كلام وفقه وفرايض، وقد جئت لمناظرة أصحابك. فقال له أبو عبد اللّه عليه السلام «كلامك هذا من كلام رسول الله ﷺ أو من عندك؟» فقال: من كلام رسول الله ﷺ بعضه، ومن عندي بعضه. فقال له أبو عبد اللّه عليه السلام: «فأنت إذن شريك رسول الله ﷺ؟» قال: لا. قال: «فسمعت الوحي من الله؟» قال: لا. قال: «فتجب طاعتك كما تجب طاعة رسول الله ﷺ؟» قال لا. قال: فالتفت أبو عبد اللّه عليه السلام إليّ، فقال لي «يا يونس بن يعقوب، هذا قد خصم نفسه قبل أن يتكلم». ثم قال: «يا يونس لو كنت تحسن الكلام كلّمته». قال

---

(1) رجال الكشي لمحمد بن عمر بن عبد العزيز ص١٢٤.

يونس: فيا لها من حسرة. فقلت: جعلت فداك سمعتك تنهى عن الكلام وتقول: «ويل لأصحاب الكلام يقولون هذا ينقاد وهذا لا ينقاد، وهذا ينساق وهذا لا ينساق، وهذا نعقله وهذا لا نعقله؟» فقال أبو عبد الله عليه السلام: «إنما قلت: ويل لقوم تركوا قولي، وذهبوا إلى ما يريدون به». ثم قال: «أخرج إلى الباب فانظر من ترى من المتكلمين فأدخله». قال: فخرجت، فوجدت حمران بن أعين ـ وكان يحسن الكلام ـ ومحمد بن النعمان الأحول (مؤمن الطاق) وكان متكلماً، وهشام بن سالم، وقيس الماصر ـ وكانا متكلمين ـ فأدخلتهم عليه، فلما استقرّ بنا المجلس كنّا في خيمة لأبي عبد الله عليه السلام على حرف جبل في طرف الحرم، وذلك قبل أيام الحج بأيام، أخرج أبو عبد الله عليه السلام رأسه من الخيمة، فإذا هو ببعير يخبّ فقال: «هشام ورب الكعبة». قال: فظننا أن هشاماً رجل من ولد عقيل، كان شديد المحبة لأبي عبد الله عليه السلام، فإذا هشام بن الحكم قد ورد وهو أول ما اختطت لحيته، وليس فينا إلا من هو أكبر سنّاً منه، قال: فوسّع له أبو عبد الله عليه السلام وقال: «ناصرنا بقلبه ولسانه ويده» ثم قال لحمران: «كلّم الرجل» ـ يعني الشامي ـ فكلّمه حمران، فظهر عليه.

ثم قال: «يا طاقي كلّمه». فكلّمه، فظهر عليه محمد بن النعمان.

ثم قال: «يا هشام بن سالم» كلّمه، فتعاديا.

ثم قال لقيس الماصر: «كلّمه» فكلّمه.

وأقبل أبو عبد الله عليه السلام يبتسم من كلامهما، وقد استخذل الشامي في يده، ثم قال للشامي: «كلّم هذا الغلام» ـ يعني هشام بن الحكم ـ فقال: نعم. ثم قال الشامي لهشام: يا غلام سلني في إمامة هذا ـ يعني أبا عبد الله عليه السلام ـ فغضب هشام حتى ارتعد، ثم قال له: أخبرني يا هذا أربّك أنظر لخلقه أم هم لأنفسهم؟

فقال الشامي: بل ربي انظر لخلقة.

قال: ففعل بنظره لهم في دينهم ماذا؟

قال: كلّفهم وأقام لهم حجة ودليلاً على ما كلفهم، وأزاح في ذلك عللهم.

فقال له هشام: فما هذا الدليل الذي نصبه لهم.

قال الشامي: هو رسول الله ﷺ.

قال له هشام: فبعد رسول الله من؟

قال: الكتاب والسنّة.

قال له هشام: فهل ينفعنا اليوم الكتاب والسنة فيما اختلفنا حتى يرفع عنّا الاختلاف ومكننا من الاتفاق؟

قال الشامي: نعم.

قال له هشام: فلم اختلفنا نحن وأنت، وجئتنا من الشام تخالفنا، وتزعم أن الرأي طريق الدين، وأنت تقرّ بأن الرأي لا يجمع على القول الواحد المختلفين.

فسكت الشامي كالمفكر، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: «مالك لا تتكلم».
قال: إن قلت أنّا ما اختلفنا كابرت، وإن قلتُ أن الكتاب والسنة يرفعان عنا الاختلاف أبطلت، لأنهما يحتملان الوجوه، ولكن لي عليه مثل ذلك.

فقال له أبو عبد الله عليه السلام: «سله تجده مليئاً».

فقال الشامي لهشام: من أنظر للخلق ربهم أو أنفسهم.

فقال هشام: بل ربهم أنظرلهم.

فقال الشامي: فهل أقام لهم من يجمع كلمتهم ويرفع اختلافهم، ويعيّن لهم حقهم من باطلهم؟

قال هشام: نعم.

قال الشامي: من هو؟

قال هشام: أمّا في ابتداء الشريعة فرسول الله ﷺ وأما بعد النبي ﷺ فغيره.

قال الشامي: ومن هو غير النبي ﷺ القائم مقامه في حجته.

قال هشام: في وقتنا هذا أم قبله؟

قال الشامي: بل في وقتنا هذا.

قال هشام: هذا الجالس ـ يعني أبا عبد الله عليه السلام ـ الذي تشدّ إليه الرحال، ويخبرنا بأخبار السماء، وراثة عن أب عن جدّ.

قال الشامي: وكيف لي بعلم ذلك؟

قال هشام: سله عما بدا لك.

قال الشامي: قطعت عذري فعليّ السؤال.

فقال له أبو عبد الله عليه السلام: «أنا أكفيك المسألة يا شامي، أخبرك عن مسيرك وسفرك: خرجت يوم كذا، وكان طريقك كذا، ومررت على كذا، ومرّ بك كذا.

فأقبل الشامي كلما وصف له شيئاً من أمره يقول: صدقت والله. ثم قال له الشامي: أسلمت لله الساعة. فقال له أبو عبد الله عليه السلام: «بل آمنت بالله الساعة، إن الإسلام قبل الإيمان، وعليه يتوارثون ويتناكحون، والإيمان عليه يثابون».

قال الشامي: صدقت، فأنا الساعة أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ﷺ وأنك وصي الأوصياء.

قال: وأقبل أبو عبد الله على حمران فقال: «يا حمران تجري الكلام على الأثر، فتصيب» فالتفت إلى هشام بن سالم فقال «تريد الأثر ولا تعرف» ثم التفت إلى الأحول (مؤمن الطاق) فقال: «قيّاس روّاغ».

ثم التفت إلى قيس الماصر فقال: «تتكلم وأقرب ما تكون من الحق والخبر عن الرسول ﷺ. . . .» وقليل الحق يكفي من كثير الباطل، أنت والأحول قفازان حاذقان.

قال يونس بن يعقوب: فظننت والله أنه يقول لهشام قريباً مما قال لهما. فقال: «يا هشام لا تكاد تقع تلوي رجليك، إذا هممت بالأرض طرت، مثلك فليكلّم الناس، اتقِ الله الزلّة والشفاعة من ورائك»(١).

ويتّضح جلياً أن وقوع هذه المناظرة وما تشتمل عليه من ملاحظات الإمام الصادق عليه السلام كان في مبدأ نهوض مدرسة الإمام الصادق بخططها وتنفيذ نهجها، فإن الإشارة إلى عمر هشام تدلّ على أول خطوات المدرسة على طريق العمل العلمي والفكري الشاق. إذ ينبغي أن نتخيل أحوال تلك الفترة وما اعترى الأمة الإسلامية على مختلف المستويات، فإن النهضة العلمية والنشاط الفكري خلق موجات من الجدل وتيارات من الكلام لم تخضع لحدود، لأن الحكام من العهدين كانوا يشجعون ألوان النشاط الفكري المتعددة لأغراض تتعلق بمصلحتهم، فما ينجم من تفوق الفكر الإسلامي وامتداد الحركة العلمية، يدخل في إهاب دولتهم وينطبع بطابعهم. ولمّا بدأ الإمام الصادق سيرته الشريفة بعد توليه الإمامة جرّد كل ما يستطيع لمعالجة ما يعاني من المجتمع الإسلام وما يتهدد أمة جده المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام، وباشر المنهج الروحي والفكري المعروف عن أهل البيت، ووضع له قواعد من العمل

---

(١) الإرشاد للمفيد ص٢٤٠ ـ ٢٤٣.

وأركاناً. وكان من أهم صفات منهج المدرسة وكلما يتعلق بها من وسائل مادية ومعنوية هو الاستقلال التام عن السلطة والابتعاد عن مؤثراتها. فرأسها الإمام الصادق عليه السلام، وموقف الحكام منه معروف، وموقفه من ظلمهم وبطشهم من أبرز ملامح تاريخ الشيعة في تلك الفترة. أما رجال هذه المدرسة فهم أنصار أهل البيت، ومن عرفوا بالولاء والتضحية في سبيل التشيّع، فتعاهدهم الإمام بإعداد شامل وتوجيه مباشر، حتى يكونوا بمستوى ما يعهد لهم من مهمات ويوكل إليهم من أعمال، وكان نصب عينيه أن يكونوا الأسوة والقادة، وأن يقال عنهم: «رحم الله جعفر بن محمد ما أحسن ما أدّب به أصحابه».

ويمرور الأيام، نجد أن رجال المدرسة ـ أو من سمّيناهم بالهيئة العلمية ـ يتبوؤن مواقعهم بكفاءة عالية، وتمكن باهر. ولأن الإمام الصادق علم استعداد كل منهم ورعى مواهبهم فوجهها إلى ما يجلو فيها القدرة ويصقل الإمكانية، ونتج من ذلك مجموعة من كبار العلماء الذين خدموا الأمة الإسلامية كمجاهدين تحت عين الإمام الصادق، وعكفوا على حفظ تراثه الفقهي وثروته العلمية في كتب ضمّت المسائل والأحكام والتعاليم والأحاديث يفتخر بها الفكر الإسلامي، ويعتز بها الشيعة. ويتباهون، لأن دقائق المسائل وغنى الأحكام ووضوح البراهين والحجج، وبيان العلل وحكمة التشريع؛ تجعل الفقه الجعفري وعاة العلم الإسلامي، ومن الطبيعي جداً أن تأخذ بعض الحكومات بأحكام الفقه الجعفري لمعالجة بعض المسائل التي تتعلق بأحوال الأفراد لما فيها من رعاية لمصالح الناس ورفع الحرج عنهم، كما فعلت الحكومة المصرية. وكم بين الناس من يلجأ إلى اعتناق المذهب الجعفري منقاداً إلى روح العدل والصواب.

والقصد، أن تعقيب الإمام الصادق على اتجاه أصحابه في المحاورة والمناظرة كان على سبيل بلوغ ما يرجوه وما يسعى إلى تحقيقه بواسطتهم من خلال تبني المنهج بطرق للحوار والاستدلال عميقة ومؤثرة. وهو من ناحية أخرى يعدّهم بوصاياه فيقول:

«لا تتكلم فيما لا يعنيك، ودع كثيراً من الكلام فيما يعنيك حتى تجد له موضعاً، فربّ متكلّم تكلّم بالحقّ بما يعنيه في غير موضعه فتعب. ولا تمارينّ سفيهاً ولا حليماً، فإن الحليم يغلبك والسفيه يرديك».

ومن أقواله عليه السلام التي توضّح منهج مدرسته وأسس حركتها العلمية: «دعامة

الإنسان العقل، وبالعقل يكمل، وهو دليله ومبصره ومفتاح أمره».

ويبيّن عليه السلام أصناف طلبة العلم قائلاً:

«طلبة العلم على ثلاثة أصناف، فاعرفهم بأعيانهم وصفاتهم: صنف يطلبه للجهل والمراء، وصنف يطلبه للاستطالة والختل، وصنف يطلبه للفقه والعقل.

فصاحب الجهل والمراء متعرّض للمقال في أندية الرجال، يتذاكر العلم وصفة الحلم، قد تسربل بالخشوع، وتخلى عن الورع، فدقّ الله من هذه خيشومه.

وصاحب الاستطالة والختل ذو خب[1] وملق، يستطيل على مثله من أشباهه، ويتواضع للأغنياء من دونه.

وصاحب الفقه والعقل ذو كآبة وحزن، يعمل ويخشى، وجلاً داعياً مشفقاً على شأنه، عارفاً بأهل زمانه، مستوحشاً من أوثق إخوانه».

ومما أوضحه الإمام الصادق عليه السلام من خصائص منهجه، هو اعتماد العقل مع وجوه ما قام به من حركة علمية واقتران صفاتها العامة به، وقد كان لذلك أثره في تجنب المزالق التي يحدثها القياس الذي على الرأي الذي ينزع كثيراً إلى الهوى والميل. أما العقل فهو من صفات الاكتمال في شخصية المؤمن، ومن مصادر دوام الشرائع والأحكام. وكبقية القضايا المهمة في وجود الإنسان المسلم، يعرض الإمام الصادق منزلة العقل: فعن محمد بن سليمان عن أبيه قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: فلان من عبادته ودينه وفضله كذا وكذا؟ قال: فقال: «كيف عقله؟» فقلت: لا أدري. فقال: «إن الثواب على قدر العقل. إن رجلاً من بني إسرائيل كان يعبد الله عز وجل في جزيرة من جزائر البحر، خضراء نضرة كثيرة الشجر طاهرة الماء، وإن ملكاً من الملائكة مرّ به فقال: يا رب أرني ثواب عبدك هذا. فأراه الله عز وجل ذلك. فاستقله الملك، فأوحى الله عز وجل إليه أن أصحبه. فأتاه الملك في صورة أنسي، فقال له: من أنت؟ قال: أنا رجل عابد، بلغنا مكانك وعبادتك بهذا المكان، فجئت لأعبد معك. فكان معه يومه ذلك، فلما أصبح قال له المَلَكَ: إن مكانك لنزهة. قال: ليت لربنا حمار لرعيناه في هذا الموضع، فإن هذا الحشيش

(١) الخبّ: الخداع.

يضيع. فقال له الملك: وما لربك حمار؟ فقال: لو كان له حمار ما كان يضيع مثل هذا الحشيش. فأوحى الله عز وجل إلى المَلَك: إنما أثيبه على قدر عقله»[1].

بهذا المنهج سعى الإمام الصادق إلى إغناء واقع الأمة، وحملها على الالتزام بالمنهج الإسلامي والسّنة النبوية الشريفة، فقد أثر عن النبي محمد ﷺ قوله: «قوام المرء عقله، ولا دين لمن لا عقل له». وقوله ﷺ: «سيد الأعمال في الدارين العقل، ولكل شيء دعامة، ودعامة المؤمن عقله، فبقدر عقله تكون عبادته لربه».

ويوضح الإمام الصادق للناس نعمة العقل قائلاً: «إذا أراد الله أن يزيل من عبد نعمة كان أول ما يغيّر منه عقله».

ويقول عليه السلام: «كمال العقل في ثلاث: التواضع لله، وحسن اليقين، والصمت إلا من خير» عليه السلام وفي مقابله يضع عليه السلام «الجهل ويقول: الجهل في ثلاث: الكبر وشدة المراء والجهل بالله. فأولئك هم الخاسرون».

وما يتعلق بالمختصّين من هيئة مدرسته، فإن صياغة أقواله عليه السلام تفي بالغاية والغرض فيقول: «يغوص العقل على الكلام، فيستخرجه من مكنون الصدر، كما يغوص الغائص على اللؤلؤ المستكنة في البحر» وإن «العاقل إن كلّم أجاب، وإن نطق أصاب. وإن سمع وعى».

ويقيد الإمام الصادق السلوك المتعلق بالمنهج بالعقل فيقول: «التودّد نصف العقل». ويخاطب رجال مدرسته بأن لا يثقلوا على الناس، ولا ينفّروهم، وأن يترفّقوا بهم، ويسهّلوا لهم المداخل. ويقول لهم: «فرغّبوا الناس في دينكم، وفيما أنتم فيه».

ويراجعه الأصحاب فيما يهمّهم من شؤون عملهم في تطبيق المنهج. فعن إسحاق قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: الرجل آتيه أكلمه ببعض كلامي فيعرفه كله، ومنهم من آتيه فأكلمه بالكلام فيستوفي كلامي كله ثم يردّه عليّ كما كلمته، ومنهم من آتيه فأكلمّه فيقول: أعِدْ علي؟ فقال: «يا إسحاق، أو ما تدري لِمَ هذا؟» قلت: لا. قال «الذي تكلمه ببعض كلامك فيعرف كله، فذاك من عجنت نطفته بعقله. وأما الذي تكلمه، فيستوفي كلامك: ثم يجيبك على كلامك؛ فذاك الذي ركّب عقله في بطن أمه. وأما الذي تكلمه بالكلام فيقول: أعد عليّ. فذاك الذي ركّب عقله فيه بعدما كبر. فهو يقول: اعِدْ عليّ».

---

(١) بحار الأنوار للمجلسي ج١ ص٨٤.

ويتكفل الإمام الصادق ببيانه وحكمة أقواله إيضاح أهم الخصائص في خطة العمل والدعوة فيقول عليه السلام: «العاقل من كان ذلولاً عند إجابة الحق، منصفاً بقوله، جموحاً عند الباطل، خصماً بقوله، يترك دنياه ولا يترك دينه. ودليل العاقل شيئان: صدق القول وصواب الفعل. والعاقل لا يتحدث بما ينكره العقل، ولا يتعرّض للتهمة، ولا يدع مداراة من ابتلي به، ويكون العلم دليله في أعماله، والحلم رفيقه في أحواله، والمعرفة تعينه في مذاهبه. والهوى عدو العقل، ومخالف الحق، وقرين الباطل».

أما إذا أردنا أن نعلم ما هو الطريق إلى تحصيل هذه الملكة، ورعاية هذه النعمة، فإن الإمام الصادق عليه السلام يجيبنا بوجيز قول وعظيم معنى يغني عن كل سؤال فيقول: «كثرة النظر في العلم تفتح العقل».

ولأن الإمام الصادق هو عالم الأمة وصاحب الولاية الشرعية، فقد أقبل عليه الأصحاب فيما يهمّهم ويشغل بالهم، وعرضوا عليه المسائل التي يكثر فيها الجدل، وقصده الكثير للتخلص من الحيرة والغموض. وكان الإمام الصادق يعلم ما يدور في زوايا المجتمع من محاورات وأحاديث تسبب ارتباكاً واضطراباً، فانفتح على الناس قائلاً: «سلوني قبل أن تفقدوني» فأقبل الناس عليه من مختلف الطبقات والمراتب، وكانوا يجدون عنده علماً غزيراً، وخُلقاً يعجز المرء عن وصفه. لأن شخصية في علمها وورعها كشخصية الإمام الصادق لا يقارن بها معاصروه، إنما هناك صور للرعاية الإلٰهية والحكمة العليا في خصال الإمام الصادق عليه السلام وعلمه وتقاه. فحلمه يسع جميع ضروب أهل الأهواء والمقالات والجدل، وعلمه يفيض على كل سائل وطالب علم، حتى فرض على الحذّاق من المتكلمين والزنادقة والملحدين واضطرّهم إلى الإذعان ليشهدوا: (إنه الحليم الرزين العاقل الرصين، لا يعتريه خرق ولا طيش ولا نزف، يسمع كلامنا ويصغي إلينا، ويستعرف حجّتنا، حتى إذا استفرغنا ما عندنا، وظننا أنا قد قطعناه؛ أدحض حجتنا بكلام يسير وخطاب قصير، يلزمنا به الحجة. ويقطع العذر، ولا نستطيع لجوابه رداً).

سأله أبو حمزة عما يقال من أن الله جسم.

فقال عليه السلام: «سبحان من لا يعلم أحد كيف هو إلاّ هو، ليس كمثله شيء

وهو السميع البصير، لا يُحَدُّ، ولا يُحَسّ، ولا تدركه الحواس، ولا يحيط به شيء ولا جسم ولا تخطيط ولا تحديد».

ودخل عليه نافع بن الأزرق فقال: يا أبا عبد اللّه، أخبرني متى كان الله؟ فقال عليه السلام: «متى لم يكن حتى أخبرك متى كان، سبحان من لم يزل ولا يزال فرداً صمداً لم يتخذ صحابة ولا ولداً».

وقال ابن أبي يعفور: سألت أبا عبد اللّه عن قول الله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ فقلت: أما الأول فقد عرفناه، وأما الآخر فبيّن لنا تفسيره.

فقال عليه السلام: «إنه ليس شيء يبيد أو يتغير ويدخل التغيير والزوال والانتقال من لون إلى لون أو من هيئة إلى هيئة، ومن صفة إلى صفة، ومن زيادة إلى نقصان، ومن نقصان إلى زيادة، إلا ربّ العالمين. فإنه لم يزل ولا يزال بحالة واحدة، وهو الأول قبل كل شيء على ما لم يزل، لا تختلف عليه الصفات والأسماء»(١).

فإن أردنا التعرف على الآثار اللاحقة في طرق مناظرة أصحاب الإمام الصادق، وكيف استقرّ ما رعاه الإمام وعمل على تحقيقه في وسائل الحجاج وطرق محاورة أهل الأهواء والفرق والأديان، نلمسها واضحة في أقوالهم ومنطق تعرّضهم.

اجتمع هشام بن الحكم في إحدى رحلاته إلى البصرة بعمرو بن عبيد المتوفى سنة ١٤٤هـ وهو من شيوخ المعتزلة، وتناظرا في الإمامة. وكان عمرو يذهب إلى أن الإمامة اختيار من الأمة في سائر الأعصار. وهشام يذهب إلى أنها نصّ من الله ورسوله على علي بن أبي طالب وعلى من يلي عصره من ولده الطاهرين.

فقال هشام لعمرو بن عبيد: أليس قد جعل لك عينين.

قال: بلى.

قال: ولم؟

قال: لأنظر بهما في ملكوت السماوات والأرض فأعتبر.

قال: فلم جعل لك سمعاً؟

قال: لأسمع به التحليل والتحريم والأمر والنهي.

---

(١) الفصول المهمة للحر العاملي.

قال: فلم جعل لك فماً؟

قال: لأذوق المطعوم، وأجيب الداعي.

ثم عدّد الحواس كلها.

قال: ولم جعل لك قلباً؟

قال: لتؤدي إليه الحواس ما أدركته، فيميّز بين مضارّها ومنافعها.

قال هشام: فكان يجوز أن يخلق الله سائر حواسك، ولا يخلق لك قلباً تؤدي هذه الحواس إليه؟

قال عمرو: لا.

قال: ولِم؟

قال: لأن القلب باعث لهذه الحواس على ما يصلح لها.

فقال هشام: يا أبا مروان ـ يعني عمرو ـ إن الله تبارك وتعالى لم يترك جوارحك حتى جعل لها إماماً يصحّح لها الصحيح، ويترك هذا الخلق كله لا يقيم لهم إماماً يرجعون إليه؟!

قال المسعودي: فتحيّر عمرو، ولم يأت بفرق يعرف(1).

وعن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قال: دخل عمرو بن عبيد البصري على أبي عبد الله عليه السلام فلمّا سلّم وجلس عنده تلا هذه الآية قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ ثم أمسك عنه، فقال أبو عبد الله «ما أسكتك؟» قال: أحب أن أعرف الكبائر من كتاب الله. فقال: «نعم يا عمرو، أكبر الكبائر الشرك بالله، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ وبعده الأياس من روح الله، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ والأمن من مكر الله، لأن الله يقول: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ ومنها عقوق الوالدين، لأن الله تعالى جعل العاق جباراً شقياً. وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحقّ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ وقذف المحصنات، لأن الله تعالى يقول: ﴿ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وأكل مال اليتيم ظلماً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا

---

(1) مروج الذهب ج٤ ص٥٥. وعلل الشرائع للصدوق ص١٩٤. واحتجاج الطبرسي ص٢٠٠. وأمالي المرتضى وغيرها.

﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ والفرار من الزحف، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ وأكل الربا: لأن الله عز وجل يقول: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ والسحر لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَن تَابَ﴾ واليمين الغموس، لأن الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ والغلول، يقول الله عز وجل: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ومنع الزكاة المفروضة، لأن الله تعالى يقول: ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ﴾ وشهادة الزور وكتمان الشهادة، لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ وشرب الخمر، لأن الله عز وجل عدل بها عبادة الأوثان. وترك الصلاة متعمداً، فقد بريء من ذمة الله وذمة رسول الله ﷺ ونقض العهد. وقطيعة الرحم، لأن الله عز وجل يقول: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾.

قال: فخرج عمرو، وله صراخ من بكائه، وهو يقول: هلك من قال برأيه ونازعكم في الفضل والعلم.

وعن أبي مالك الأحمسي قال: خرج الضحّاك الشاري (الخارجي) بالكوفة فحكم وتسمّى بإمرة المؤمنين، ودعى الناس إلى نفسه.

فأتاه مؤمن الطاق. فلما رأته الشراة وثبوا في وجهه، فقال لهم: جانح. فأتوا به صاحبهم، فقال له مؤمن الطاق: أنا رجل على بصيرة من ديني، فأحببت الدخول معكم.

فقال الضحّاك لأصحابه: إن دخل هذا معكم نفعكم. ثم أقبل مؤمن الطاق على الضحّاك فقال: لِمَ تبرأتم من علي بن أبي طالب، واستحللتم قتله وقتاله؟

قال الضحّاك: لأنه حكم في دين الله.

قال مؤمن الطاق: وكل من حكم في دين الله استحللتم دمه وقتاله والبراءة منه؟

قال: نعم.

قال: فأخبرني عن الدين الذي جئت أناظرك عليه، لأدخل معك إن غلبت حجتي حجتك أو حجتك حجتي، من يوقف المخطىء على خطأه ويحكم للمصيب

بصوابه؟ فلا بد لنا من إنسان يحكم بيننا، فأشار الضحّاك إلى رجل من أصحابه وقال: هذا الحكم بيننا، فهو عالم بالدين.

قال مؤمن الطاق: وقد حكّمت هذا في الدين الذي جئت أناظرك فيه؟ قال: نعم. فأقبل مؤمن الطاق على أصحاب الضحّاك فقال: إن صاحبكم قد حكّم في دين الله فشأنكم به. فاختلف أصحابه وأسكتوه، وخرج مؤمن الطاق منتصراً[1].

* * *

وكنا في الأصل قد خصصنا لحملة الإمام الصادق على الغلاة جزءاً من هذا الفصل، غير أننا وجدنا أن البحث قد يطول ويتعدّى حدود ما نرجو له من عدم التكرار، واكتفينا بما سبق من بحث لمشكلة الغلاة، وما قام به الإمام الصادق من دحض لأقوالهم وفضح لمعتقداتهم، وفيه غنى وبيان وافٍ لمنهج الإمام في ذلك، وقد كان جهده عليه السلام في هذا المجال مصحوباً بآلام نفسية. فهو يواجه أعداء تلبّسوا بروابط وادّعاءات، ووجد نفسه عليه السلام هو وآباءه الكرام غاية أولئك الكفرة وغرض مسعاهم.

قلنا إن عصر الإمام الصادق شهد تيارات من الألحاد والزندقة وغيرها، وقد كانت حركة الزندقة ذات خطر شديد، لأنها عبارة عن تنظيم اجتمع فيه حذّاق الكلام والخائضون في المقالات والمذاهب، ووضعوا لأنفسهم خطة لإفساد العقائد، وزرع الشكوك في نفوس المؤمنين. وقد لفتت شخصية الإمام الصادق انتباههم وراحوا في مناسبات عديدة يقصدونه وهم على كفرهم، فيخرجون مقطوعين مدحورين.

وكان من أبرز قادتهم إبن أبي العوجاء[2] وقد أشرنا إليه في أكثر من مورد سابقاً وفي أجزاء الكتاب السابقة. وقد اجتمع مرّة هو ونفر من الزنادقة منهم: ابن طالوت، وابن الأعمى، وابن المقفع في الموسم بالمسجد الحرام، وكان الإمام الصادق فيه إذ ذاك يفتي الناس، ويفسّر لهم القرآن، ويجيب عن المسائل بالحجج والبينات. فقال القوم لابن أبي العوجاء: هل لك في تغليط هذا الجالس، وسؤاله عما يفضحه عند

---

(١) انظر: رجال الكشي. ومناقب ابن شهر أشوب المازندراني.

(٢) يذكر الشيخ الصدوق أن ابن أبي العوجاء دخل مكة تمرّداً وإنكاراً على من يحجّ، وكان يكره العلماء مسائلته إياهم ومجالسته لهم لخبث لسانه وفساد سريرته.

هؤلاء المحيطين به، فقد ترى فتنة الناس به، وهو علاّمة زمانه.

فقال لهم ابن أبي العوجاء: نعم. ثم تقدم، ففرّق الناس، فقال: يا أبا عبد الله إن المجالس أمانات، ولا بد لكل من كان به سعال أن يسعل، أفتأذن لي في السؤال؟

فقال له أبو عبد الله عليه السلام: «سل إن شئت».

فقال له ابن أبي العوجاء: إلى كم تدرسون هذا البيدر، وتلوذون بهذا الحجر، وتعبدون هذا البيت المرفوع بالطوب والمدر، وتهرولون حوله هرولة البعير إذا نفر؟ من فكر في هذا أو قدّر، علم أنه فعل غير حكيم ولا ذي نظر، فقل فإنك رأس هذا الأمر وسنامه، وأبوك أسّه ونظامه.

فقال له الصادق عليه السلام: «إن من أضلّه الله وأعمى قلبه استوخم الحق فلم يستعذ به، وصار الشيطان وليّه وربّه، يورده مناهل الهلكة ولا يصدره، وهذا بيت استعبد الله به خلقه ليختبر طاعتهم في إتيانه، فحثّهم على تعظيمه وزيارته، وجعله قبلة للمصلين له، فهو شعبة من رضوانه، وطريق يؤدي إلى غفرانه، منصوب على استواء الكمال ومجمع العظمة والجلال، خلقه الله تعالى قبل دحو الأرض بألفي عام، فأحق من أطيع فيما أمر، وانتهى عما زجر الله المنشىء للأرواح والصور».

فقال له ابن أبي العوجاء: ذكرت يا أبا عبد الله، فأحلت على غائب.

فقال الإمام الصادق عليه السلام: «كيف يكون يا ويلك غائباً من هو مع خلقه شاهد، وإليهم أقرب من حبل الوريد، يسمع كلامهم، ويعلم أسرارهم، لا يخلو منه مكان، ولا يشتغل به مكان، ولا يكون له مكان أقرب من مكان، تشهد له بذلك آثاره، وتدل عليه أفعاله. والذي بعثه بالآيات المحكمة والبراهين الواضحة محمد ﷺ جاءنا بهذه العبادة، فإن شككت في شيء من أمره فاسأل عنه أوضحه لك.

فأبلس إبن أبي العوجاء، ولم يدرِ ما يقول، فانصرف من بين يديه. فقال لأصحابه: سألتكم أن تلتمسوا لي خمرة، فألقيتموني على جمرة.

قالوا له: أسكت، فوالله لقد فضحتنا بحيرتك وانقطاعك، وما رأينا أحقر منك اليوم في مجلسه.

فقال لهم: أَلِي تقولون هذا؟ إنه ابن من حلق رؤوس من ترون، وأومأ إلى أهل

الموسم[1].

وفي رواية الطبرسي زيادة: أن ابن أبي العوجاء قال: فهو في كل مكان؟ أليس إذا كان في السماء كيف يكون في الأرض؟ وإذا كان في الأرض كيف يكون في السماء؟ فقال الإمام الصادق عليه السلام: «إنما وصفت المخلوق الذي إذا انتقل من مكان اشتغل به مكان، وخلا منه مكان، فلا يدري في المكان الذي صار إليه ما حدث في المكان الذي كان فيه. فأما الله العظيم الشأن، الملك الديّان، فلا يخلو منه مكان، ولا يشتغل به مكان، ولا يكون إلى مكان أقرب منه إلى مكان».

وعن هشام بن الحكم قال: كان زنديق بمصر يبلغه عن أبي عبد اللّه عليه السلام علم، فخرج إلى المدينة ليناظره. فلم يصادفه بها. وقيل: هو بمكة. فخرج إلى مكة ونحن مع أبي عبد اللّه عليه السلام فانتهى إليه - وهو في الطواف - فدنا منه وسلّم.

فقال له أبو عبد اللّه: «ما اسمك؟»

قال: عبد الملك.

قال: «فما كنيتك؟»

قال: أبو عبد اللّه.

قال أبو عبد اللّه عليه السلام: «فمن ذا الملك الذي أنت عبده، أمن ملوك الأرض أم من ملوك السماء؟ وأخبرني عن ابنك أعبد إله السماء، أم عبد إله الأرض؟» فسكت.

فقال أبو عبد اللّه: «قل». فسكت.

فقال: «إذا فرغت من الطواف فأتنا». فلما فرغ أبو عبد اللّه عليه السلام من الطواف أتاه الزنديق. فقعد بين يديه، ونحن مجتمعون عنده، فقال أبو عبد اللّه عليه السلام: «أتعلم أن للأرض تحتاً وفوقاً؟».

فقال: نعم.

قال: «فدخلت تحتها؟».

قال: لا.

قال: «فهل تدري ما تحتها؟».

---

(١) علل الشرائع. والإرشاد. والاحتجاج.

قال: لا أدري، إلا أني أظن أن ليس تحتها شيء.

فقال أبو عبد الله: «فالظن عجز ما لم تستيقن». ثم قال له: «فصعدت إلى السماء؟».

قال: لا.

قال: «أفتدري ما فيها؟».

قال: لا.

قال: «فالعجب لك، لم تبلغ المشرق، ولم تبلغ المغرب، ولم تنزل تحت الأرض، ولم تصعد إلى السماء، ولم تخبر ما هناك فتعرف ما خلفهن، وأنت جاحد بما فيهن، وهل يجحد العاقل ما لا يعرف؟».

فقال الزنديق: ما كلمني بهذا غيرك.

قال أبو عبد الله عليه السلام: «فأنت من ذلك في شك، فلعل هو، ولعل ليس هو».

قال: ولعل ذلك.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: «أيها الرجل، ليس لمن لا يعلم حجة على من يعلم، ولا حجة للجاهل على العالم. يا أخا أهل مصر، تفهّم عني، أما ترى الشمس والقمر والليل والنهار يلجان ولا يستبقان، يذهبان ويرجعان، قد اضطرا ليس لهما مكان إلا مكانهما، فإن كانا يقدران على أن يذهبا فلِمَ يرجعان؟ وإن كانا غير مضطرين فلم لا يصير الليل نهاراً والنهار ليلاً؟ اضطرا والله يا أخا مصر، أن الذي تذهبون إليه وتظنون من الدهر، فإن كان هو يذهبهم فلم يردّهم؟ وإن كان يردّهم فلم يذهب بهم؟ أما ترى السماء مرفوعة، والأرض موضوعة، لا تسقط السماء على الأرض، ولا تنحدر الأرض فوق ما تحتها، أمسكها والله خالقها ومدبّرها».

قال: فآمن الزنديق على يدي أبي عبد الله. فقال عليه السلام: «هشام خذه إليك وعلّمه».

ومن الزنادقة الذين تظهر أسماؤهم كثيراً غير إبن أبي العوجاء هو: أبو شاكر الديصاني. منها ما يرويه الطبرسي والشيخ المفيد: أنه دخل مرة على أبي عبد الله وقال: يا جعفر بن محمد دلّني على معبودي.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: «اجلس. من أقرب الدليل على ذلك ما أظهره. لك ثم دعى ببيضة، فوضعها في راحته، فقال أبو عبد الله: «يا ديصاني، هذا حصن

مكنون، له جلد غليظ، وتحت الجلد الغليظ جلد رقيق، وتحت الجلد الرقيق ذهبة مايعة، وفضة ذائبة. فلا الذهبة المائعة تختلط بالفضة الذائبة، ولا الفضة الذائبة تختلط بالذهبة المائعة، فهي على حالها، لا يخرج منها خارج مصلح، فيخبر عن صلاحها، ولا يدخل إليها داخل مفسد فيخبر عن فسادها. لا يدري للذكر خلقت أم للأنثى، تنفلق عن مثل ألوان الطواويس. أترى له مدبراً؟».

قال: فأطرق ملياً ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وأنك إمام وحجة من الله على خلقه، وأنا تائب مما كنت فيه.

وما دمنا لا نقصد الإحاطة بكل ما جرى بين الإمام الصادق وبين حركة الزنادقة، فإنها من الكثرة والسعة بحيث يضيق بها ما خصصناه لموضوع البحث في منهج الإمام الصادق ومنشأ مدرسته الفكرية؛ فإننا نكتفي بهذا القدر وهي مبسوطة في مظانها.

* * *

ويتجه منهج الإمام الصادق إلى المسألة الثانية بعد التوحيد والاستدلال على وجود الخالق في مواجهة شكوك الملحدين وأقوال الزنادقة، وهي مسألة الإمامة، أو السلطة الروحية، فيقول عليه السلام:

«نحن نزعم أن الأرض لا تخلو من حجة، ولا تكون الحجة إلا من عقب الأنبياء. ما بعث الله نبياً قط من غير نسل الأنبياء، وذلك أن الله شرع لبني آدم طريقاً منيراً، وأخرج من آدم نسلاً طاهراً طيباً، أخرج منه الأنبياء والرسل هم صفوة الله وخلّص الجوهر، طُهروا في الأصلاب، وحُفظوا في الأرحام، لم يصبهم سفاح الجاهلية ولا شاب أنسابهم، لأن الله عز وجل جعلهم في موضع لا يكون أعلى درجة وشرفاً منه. فمن كان خازن علم الله وأمين غيبه ومستودع سره وحجته على خلقه وترجمانه ولسانه، لا يكون إلا بهذه الصفة. والحجة لا يكون إلا من نسلهم، يقوم مقام النبي ﷺ في الخلق بالعلم الذي عنده وورثه عن الرسول. إن جحده الناس سكت، وكان بقاء ما عليه الناس قليلاً مما في أيديهم من علم الرسول على اختلاف منهم فيه، قد أقاموا بينهم الرأي والقياس. وإنهم إن أقرّوا به وأطاعوه وأخذوا عنه، ظهر العدل وذهب الاختلاف والتشاجر، واستوى الأمر وأبان الدين، وغلب على الشك اليقين. ولا يكاد أن يقرّ الناس به ولا يطيعوا له أو يحفظوا له بعد فقد الرسول.

وما مضى رسول ولا نبي قط لم يختلف أمته من بعده. وإنما كان علة اختلافهم على الحجة وتركهم إياه».

قال: فما يصنع بالحجة إذا كان بهذه الصفة؟

قال: «قد يقتدي به ويخرج عنه الشيء بعد الشيء مكانه منفعة الخلق وصلاحهم، فإن أحدثوا في دين الله شيئاً أعلمهم، وإن زادوا فيه أخبرهم، وإن نفدوا منه شيئاً أفادهم. . » اهـ.

تلك هي قاعدة المنهج وأصل الدعوة، وهي محفوفة بالصعاب والعوائق، وما يسّره الله له من علم وزوّده به من رفعة وخصال، وما اختصه به من مزايا الإمامة، كافية لقيام الحجة بالأمر وظهورها في الواقع، لكن سبيلها وعر، وقد امتلأت الآفاق بالأخطار وأحاطت الصعاب سيرة الإمام من كل الجهات، ولذلك فإن الرسالة بغاية الصعوبة، وقد أشار الإمام الصادق مراراً إلى المصاعب التي تكتنفه، وإلى ما يحيط بالدعوة. روى المفضل بن عمر أن الإمام الصادق قال:

«إن أمرنا صعب مستصعب لا يحتمله إلاّ: صدور مشرقة، وقلوب منيرة، وأفئدة سليمة، وأخلاق حسنة. لأن الله تعالى قد أخذ على محبّنا الميثاق، فمن وفى لنا؛ وفى الله له بالجنة، ومن أبغضنا ولم يؤدّ إلينا حقّنا فهو في النار، وإنّ عندنا سرّاً من الله ما كلف الله أحداً غيرنا ذلك. ثم أمرنا بتبليغه، فبلّغناه، فلم نجد له أهلاً ولا موضعاً ولا حملة يحملونه، حتى خلق الله لذلك قوماً خلقوا من طينة محمد وذريته ﷺ ومن نورهم، صنعهم الله بفضل صنع رحمة، فبلّغناهم عن الله ما أمرنا، فقبلوه واحتملوا ذلك ولم تضطرب قلوبهم، ومالت أرواحهم إلى معرفتنا وسرّنا، والبحث عن أمرنا.

وإن الله خلق أقواماً للنار، وأمرنا أن نبلّغهم ذلك، فبلغناهم، فاشمأزّت قلوبهم منه، فنفروا عنه، وردّوه علينا، ولم يحتملوه، وكذّبوا به، وطبع الله على قلوبهم؛ ثم أطلق ألسنتهم ببعض الحق، فهم ينطقون به لفظاً، وقلوبهم منكرة له. . . » اهـ.

وينيط عليه السلام أغلب مناظراته وأقواله التي تنعكس عن منهجه بهذا المقصد، فعندما يتحدث عليه السلام عن التفاضل بالتقوى، وأن ولد آدم كلهم سواء في الأصل، ويردّ على أقوال من يتحرّى مظانّ التدافع وشُبَهَ الوهن كما يوهمه الشيطان، يقول عليه السلام:

«نعم، إني وجدت أصل الخلق التراب، والأب آدم، والأم حواء، خلقهم إله

واحد، وهم عبيده. إن الله عز وجل اختار من ولد آدم أناساً طهّر ميلادهم، وطيّب أبدانهم، وحفظهم في أصلاب الرجال وأرحام النساء، أخرج منهم الأنبياء والرسل فهم أزكى فروع آدم، فعل ذلك لأمر استحقوه من الله عز وجل، ولكن علم الله منهم حين ذرأهم أنهم يطيعونه ويعبدونه ولا يشركون به شيئاً، فهؤلاء بالطاعة نالوا من الله الكرامة والمنزلة الرفيعة عنده، وهؤلاء الذين لهم الشرف والفضل والحسب. وساير الناس سواء، إلا من أتقى الله أكرمه، ومَنّ أطاعه أحبه، ومن أحبه لم يعذبه بالنار».

وتوحي النظرة في حدود مدرسة الإمام الصادق وضروب مساعي أصحابه، باستقرار الأمر واستتباب الحال، لأن مظاهر العمل تجري بنظام واسع حتى كأن الحكام لا وجود لهم. وذلك ما يدعو إلى التأمل في سرّ هذه القوة، وإلى التفكر ـ لمن يراودهم الشك ـ في أصل هذه القدرة وقيامها كسلطة قواعدها في القلوب والصدور، وتعتمد تسديد الله لها وتأييده، وتضع سياساتها في مجال الطاعة والعبودية للخالق الواحد. وقد تقدّم كثير من الموارد في ما مضى من الكتاب عن الحالات التي كان سلاح الإمام الصادق فيها هو اللجوء إلى الله والتوكل عليه. وقد جعل الإمام الصادق ذلك من أهم مكوّنات منهجه، فيقول لبعض أصحابه: «إذا خفت أمراً يكون، أو حاجة تريدها، فابدأ بالله عز وجل، فمجّده، واثنِ عليه كما هو أهله، وصلِّ على النبي ﷺ واسأل حاجتك، وتباك ولو مَثل رأس الذباب، إن أبي عليه السلام كان يقول: إن أقرب ما يكون العبد من الربّ عز وجل وهو ساجد باكٍ»[1].

وسئل عليه السلام: ما العلّة التي من أجلها لا يصلي الرجل وهو متوشح فوق القميص؟ فقال عليه السلام: «لعله التكبر في موضع الاستكانة».

أما الغرض ذاته، فإن الإمام الصادق يصف واجباته بشرح يدخل في عوالم العبودية لله التي تؤدي إلى إشعار المؤمن بالقوة والتفوق في وسط ذلك الخضمّ من الأحداث.

ففي الركوع يقول عليه السلام: «لا يركع عبد لله ركوعاً على الحقيقة؛ إلاّ زيّنه الله بنور بهائه، وأظلّه في ظل كبريائه، وكساه كسوة أصفيائه. والركوع أول، والسجود ثانٍ، فمن أتى بمعنى الأول صلح للثاني. وفي الركوع أدب، وفي السجود قرب، ومن لا يحسن الأدب لا يصلح للقرب، فاركع ركوع خاشع لله عز وجل بقلبه، متذلل

---

(١) جواهر الكلام ج١١ ص٧٣.

وجل تحت سلطانه، خافض له بجوارحه خفض خائف حَزِن على ما يفوته من فائدة الراكعين».

وفي السجود يقول عليه السلام :

«ما خسر والله تعالى قط من أتى بحقيقه السجود ولو كان في العمر مرة واحدة، وما أفلح من خلا بربه في مثل ذلك الحال شبيهاً بمخادع نفسه، غافلٍ لاهٍ عمّا أعدّ الله تعالى للساجدين من أنس العاجل وراحة الآجل، ولا بَعُد عن الله تعالى أبداً من أحسن تقرّبه في السجود، ولا قرب إليه أبداً من أساء أدبه وضيّع حرمته بتعليق قلبه بسواه في حال سجوده. فاسجد سجود متواضعٍ لله ذليل، علم أنه خُلق من تراب يطأه الخلق، وأنه ركّب من نطفة يستقذرها كل أحد، وكُوّن ولم يكن. وقد جعل الله معنى السجود سبب التقرب إليه بالقلب والسرّ والروح، فمن قَرُبَ منه بُعد من غيره. ألا ترى في الظاهر أنه لا يستوي حال السجود إلا بالتواري عن جميع الأشياء، والاحتجاب عن كل ما تراه العيون. كذلك أراد الله تعالى أمر الباطن، فمن كان قلبه متعلقاً في صلاته بشيء دون الله فهو قريب من ذلك الشيء، بعيد عن حقيقة ما أراد الله منه في صلاته. قال الله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ وقال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل ما أطّلع على قلب عبدٍ فأعلم فيه حبّ الإخلاص لطاعتي لوجهي وابتغاء مرضاتي، إلاّ تولّيت تقويمه وسياسته. ومن اشتغل في صلاته بغيري فهو من المستهزئين بنفسه، واسمه مكتوب في ديوان الخاسرين».

أما التشهد في الصلاة فيصفه عليه السلام :

«التشهد ثناء على الله، فكن عبداً له في السرّ، خاضعاً له في الفعل، كما أنك عبد له في القول والدعوى. وصِلْ صدق لسانك بصفاء صدق سرّك، فإنه خَلَقَكَ عبداً، وأمرك أن تعبده بقلبك ولسانك وجوارحك، وأن تحقق عبوديتك له وربوبيته لك، وتعلم أن نواصي الخلق بيده، فليس لهم نفس ولا لحظة إلا بقدرته ومشيّته، وهم عاجزون عن إتيان أقل شيء في مملكته إلا بإذنه وإرادته. قال الله عز وجل: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فكن لله عبداً شاكراً بالقول والدعوى، وصِلْ صدق لسانك بصفاء سرّك، فإنه خلقك، فعزّ وجلّ أن تكون إرادة ومشية لأحد إلا بسابق إرادته ومشيته، فاستعمل العبودية في الرضا بحكمته، وبالعبادة في أداء أوامره. وقد أمرك بالصلاة على حبيبه محمد ﷺ فأوصل

صلاته بصلاته، وطاعته بطاعته، وشهادته بشهادته. وانظر ألاّ تفوتك بركات معرفة، حرمته فتحرم عن فائدة صلاته. وأمره بالاستغفار لك والشفاعة فيك إن أتيت بالواجب في الأمر والنهي والسنن والآداب، وتعلم جليل مرتبته عند الله عز وجل».

وقبل أن نأتي إلى التسليم أو استقبال القبلة، فإن ما يطلع عليه المؤمن في عالم العبودية من وجوه الحرية ومظاهر العزّة وأسباب القوة، وما يراه في دنيا الطاعة من أشكال النفع وعوامل السيادة، وبواسطة بيان الإمام الصادق وبنائه اللغوي وصياغته البلاغية، يلمس المسلم في ظل الظرف أن عالم الإمامة ومنهج الحجة هو الطريق إلى الصميم والغور، وأن عالم السلطان وسياسة خلفاء الزمان هو في الشكل والمظهر، والأول فيه من القوة والمنعة ما يكسر السيوف، ويبطل مكايد الحكام، لأنه متصل بالله ومتعلق بهداه.

ولهذا رأينا الإمام الصادق ـ كما في رواية عمّار الساباطي ـ ينهى أن يتوشّح الإمام. وفي رواية أخرى عن الهيثم بن واقد أن الإمام قال: «إنما كره التوشّح فوق القميص لأنه من فعل الجبابرة».

وأي مؤمن مسلم يستغني على مرّ الدهور عن أضواء الصادق عليه السلام؟ وهو يقود الألباب، ويوجه النفوس إلى عوالم الإسلام وروحانية الرسالة المحمدية التي استملى منها قواعد منهجه، واستمد من بهائها لوائح نهجه. وما أوردناه متعلق بالأجزاء القليلة التي اخترناها، أما غيرها من أقوال الإمام الصادق فهي من السعة والكثرة بحيث قامت عليها أصول كتب الفقه الشيعي، وأغنت مصنّفات علمائهم عبر المئات من السنين، وضمّت أبواب الصلاة بيان علل الأركان والركعات والأحكام المتعلقة بها، وما إليها من مستحبات ومبطلات، وكافة المسائل المتعلقة بها مما يحمل المسلم إلى بحر زخّار بالعلم والهداية.

في التسليم يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«معنى التسليم في دبر كل صلاة: الأمان، أي من أتى أمر الله وسنّة نبيه صلى الله عليه وآله خاضعاً له خاشعاً منه؛ فله الأمان من بلاء الدنيا، والبراءة من عذاب الآخرة. والسلام إسم من أسماء الله تعالى، أودعه خلقه ليستعملوا معناه في المعاملات والأمانات، وتصديق مصاحبتهم فيما بينهم، وصحة معاشرتهم. فإن أردت أن تضع السلام

موضعه، وتؤدي معناه، فاتق الله تعالى ليسلم منك دينك وقلبك وعقلك، ألاّ تدنسها بظلمة المعاصي. ولتسلم منك حَفَظَتك ألا تبرمهم وتملّهم وتوحشهم منك بسوء معاملتك معهم، ثم مع صديقك، ثم مع عدوك. فإن من لم يسلم منه من هو الأقرب إليه فالأبعد أولى، ومن لا يضع السلام مواضعه فلا سلام ولا إسلام ولا تسليم، وكان كاذباً في سلامه وإن أفشاه في الخلق».

أما الاستقبال، فإن الإمام الصادق يجعله خروجاً من مشاغل الدنيا وهمومها، وتطلّعاً إلى عالم الله: «إذا استقبلت القبلة فآيس من الدنيا وما فيها، والخلق وما هم فيه، واستفرغ قلبك من كل شاغل يشغلك عن الله تعالى، وعاين بسرّك عظمة الله عز وجل، واذكر وقوفك بين يديه، قال الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ وقف على قدم الخوف والرجاء».

إذاً من المكوّنات الأساسية للمدرسة والمنهج هو العمل على الطاعة، والدخول إلى عالم العبودية المطلقة لله، وفي ذلك سرّ هذا التكامل في المنهج والقوة في الموقف إذا نظرت إلى ذلك العصر بنظرة العموم، من حيث أن الدنيا موضع ابتلاء لامتلائها بالمفاسد والأهواء التي لها سلطان على الأنفس في كل الأحوال، إلاّ من رحم الله، فقاده إلى الإيمان وهداه إلى الحجة. أما إذا نظرت إلى العصر بخصائصه وأحواله، فهو مليء بالأحداث كما رأيت، فإن وضعنا مدرسة الإمام الصادق وسط هذه الأحداث، وجدنا أن المدرسة في معركة لا تهدأ، وجهاد لا يفتر. وقد جلبت شهرة الإمام الصادق وشيوع ذكره أفراداً من الناس لهم أغراض مختلفة، فمنهم الباحث عن الحق الذي يرجوه لشفاء نفسه مما ألم بها لتعرّضها إلى الأفكار والأقوال التي يموج بها المجتمع، ومنهم المتبحّر في علوم الكلام وفنون الفكر ومذاهب الأولين، ومنهم الملحد الزنديق، إلى غيرهم من الأصناف. والكثير منهم يتّصل بفرقة وينتمي إلى مذهب، فالحرورية وغيرها ما زالت في ثنايا المجتمع تعمل بفسادها، والعثمانية ونحوها موغلة في جسم الأمة بعنادها، والمعتزلة وأصنافها متسابقة في المضمار ساعية إلى الانتصار، والجبرية وسلطانها تؤثر في النفوس بأفكارها.

وقد مرّ بنا ذكر أغلبها في معرض أقوال الإمام الصادق وأجوبته، أو مناظرات أصحابه، وحصرنا علاقة الإمام الصادق بالمعتزلة في أجواء هذا العصر بالجانب الذي يتعلق بموقف الإمام الصادق من الحكام والظلم كما سيأتي. أما أقوالهم الأخرى

وأهمها: أن الإنسان يخلق أعماله، وأن ليس لله في ذلك صنع أو تقدير. ويقابلهم الجبرية الذين ينفون قدرة الإنسان، ويضيفون الفعل إلى الله حقيقة وإضافة.

ففي وسط احتدام الجدل في ذلك، وتحكّم العناد والانفعال، قال الإمام الصادق مقالة الحق التي تقوم على حقائق التنزيل ودلائل الواقع، فقال عليه السلام: «لا جبر ولا تفويض. لأن الله أعدل من أن يجبرهم على المعاصي ثم يعذّبهم عليها». وكان ذلك في مبدأ ظهور الجدل في هذه المسألة، وبقي قوله عليه السلام قاعدة ثابتة وعقيدة راسخة. فالإمام علي بن موسى الرضا عندما يسأل عن قول جدّه الصادق عليه السلام وما معناه؟ يقول الرضا: «من زعم أن الله عزّ وجل فعل أفعالنا، ثم يعذبنا عليها؛ فقد قال بالجبر. ومن زعم أن الله عزّ وجل فوّض أمر الخلق والرزق إلى حججه؛ فقد قال بالتفويض. فالقائل بالجبر كافر، والقائل بالتفويض مشرك»[1].

والقصد أن تلك الفترة التي عاشها الإمام الصادق شهدت مقالات واعتقادات وآراء شتى وجدت طريقها إلى عقول الناس، وتباينت آثارها، واختلف أثرها. ومن الحق فإن العناية الألٰهية في توجيه الإمامة ونهوض الإمام الصادق بأعباء مسؤولياتها قد حفظ تماسك الأمة وبقاء معتقداتها الأصلية، ولا يمكن أن نتصوّر شخصاً أو جهات متعددة ـ وإن تظاهرت واتحدت ـ بقادرة على القيام بمثل هذه المهمة، ومواجهة ما يجري على الساحة وما يزرع فيها من أفكار، غير من يشرق بنور النبوة ويغرف من معين حكمتها عالماً بأسرار الملة، عارفاً بدقائق الحكمة الإلٰهية، محيطاً بتاريخ الشرائع والأديان والأمم كالإمام الصادق عليه السلام. فتجد في كل رأي حجة، وفي كل إجابة له مستند يناسب القول ويدعمه.

فعندما يسأله أعداء الإسلام: كيف يجيىء من لا شيء شيء؟ يقول عليه السلام: «إن الأشياء لا تخلو إما أن تكون خلقت من شيء أو من غير شيء، فإن كان خلقت من شيء كان معه، فإن ذلك الشيء قديم، والقديم لا يكون حديثاً، ولا يفنى ولا يتغيّر. ولا يخلو ذلك الشيء من أن يكون جوهراً واحداً ولوناً واحداً. فمن أين جاءت هذه الألوان المختلفة والجواهر الكثيرة الموجودة في هذا العالم من ضروب شتى؟ ومن أين جاء الموت إن كان الشيء الذي أنشئت منه الأشياء حياً؟ ومن أين جاءت

---

(١) روضة الواعظين.

الحياة إن كان ذلك الشيء ميتاً؟ ولا يجوز أن يكون من حي وميت قديمين لم يزالا، لأن الحي لا يحيى منه ميت وهو لم يزل حياً. ولا يجوز أيضاً أن يكون الميت قديماً لم يزل لما هو به من الموت، لأن الميت لا قدرة له ولا بقاء».

وفي مورد الردّ على القول بأن الأشياء أزلية. قال عليه السلام:

«هذه مقالة قوم جحدوا مدبّر الأشياء، فكذّبوا الرسل ومقالتهم، والأنبياء وما أنبأوا عنه، وسمّوا كتبهم أساطير، ووضعوا لأنفسهم ديناً بآرائهم واستحسانهم. إن الأشياء تدل على حدوثها: من دوران الفلك بما فيه، وهي سبعة أفلاك. وتحرّك الأرض ومن عليها، وانقلاب الأزمنة، واختلاف الوقت، والحوادث التي تحدث في العالم: من زيادة ونقصان وموت وبلى، واضطرار النفس إلى الإقرار بأن لها صانعاً ومدبّراً. ألا ترى الحلو يصير حامضاً، والعذب مرّاً، والجديد بالياً، وكلٌ إلى تغير وفناء»[1].

ونورد هنا أمثلة بسيطة للإشارة فحسب وليست للاستقصاء والإحاطة ليحصل للقارىء ما يومىء إلى أغوار العلوم التي قامت عليها شخصية الإمام الصادق عليه السلام لأن الإحاطة بالجانب العلمي من شخصيته عليه السلام وآثاره في منهجه، أكبر من اختصاص فصل من الفصول، بل هو أكبر مما عليه وسع الطاقة.

فانظر إلى قوله عليه السلام: «إني رأيت الرجل الماهر في طبّه إذا سألته لم يقف على حدود نفسه، وتأليف بدنه، وتركيب أعضائه، ومجرى الأغذية في جوارحه، ومخرج نفسه، وحركة لسانه، ومستقرّ كلامه، ونور بصره، وانتشار ذكره، واختلاف شهواته، وانسكاب عبرته، ومجمع سمعه، وموضع عقله، ومسكن روحه، ومخرج عطسته، وهيج غمومه، وأسباب سروره، وعلة ما حدث فيه من بكم وصمم وغير ذلك. لم يكن في ذلك أكثر من أقاويل استحسنوها، وعلل فيما بينهم جوّزوها».

ولكنه عليه السلام يحتجّ بعلمه بتأليف الأبدان وحكمة الخلق في أمور الفقه بقصد التنبيه على تجنّب القول في الدين بالرأي. ويصرّح أن علمه أخبره به أبوه عن جدّه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى بمنّه وفضله جعل لابن آدم الملوحة في العينين

---

(١) الاحتجاج للطبرسي.

لأنهما شحمتان، ولولا ذلك لذابتا. وجعل المرارة في الأذنين من الدواب، فإن دخلت دابة والتمست الدماغ، فإذا ذاقت المرارة التمست الخروج. وجعل الحرارة في المنخرين يستنشق بهما الريح، ولولا ذلك لأنتن الدماغ. وجعل العذوبة في الشفتين يجد بهما استطعام كل شيء، ويسمع الناس بهما حلاوة منطقه».

وتكشف الأسئلة التي توجّه إليه عن نمط من الفكر، متأثر بنتائج الاطلاع على مدارس القدماء وفلسفة الأولين، وهم في تردّدهم وقصدهم الإمام الصادق كانوا يستشعرون ضعف أقوالهم وبطلان حججهم، فيزدادون إلحافاً.

روي أن المفضّل لما سمع من ابن أبي العوجاء بعض ما رشح منه من الكفر والإلحاد، لم يملك غضبه فقال: يا عدو الله، ألحدت في دين الله وأنكرت الباري. . .

قال له ابن أبي العوجاء: يا هذا، إن كنت من أهل الكلام كلّمناك، فإن ثبتت لك الحجة تبعناك. وإن لم تكن منهم فلا كلام لك، وإن كنت من أصحاب جعفر بن محمد الصادق فما هكذا يخاطبنا ولا بمثل ذلك يجادلنا. ولقد سمع من كلامنا أكثر ما سمعت، فما أفحش في خطابنا، وإنه الحليم الرزين العاقل الرصين، لا يعتريه خرق ولا طيش ولا نزق، يسمع كلامنا ويصغي إلينا، ويستعرف حجّتنا، حتى إذا استفرغنا ما عندنا، وظننا أننا قد قطعناه، أدحض حجّتنا بكلام يسير وخطاب قصير، يلزمنا الحجة، ويقطع العذر، ولا نستطيع لجوابه رداً.

سألوا الإمام الصادق: فيم استحق الطفل الصغير ما يصيبه من الأوجاع والأمراض ﷺ بلا ذنب عمله ولا جرم سلف منه؟

قال عليه السلام: «إن المرض على وجوه شتى: مرض بلوى، ومرض عقوبة، ومرض جعل للفناء. وأنت تزعم أن ذلك من أغذية ردية وأشربة وبيّة، أو من علة كانت بأمه. وتزعم أن من أَحْسَنَ السياسة لبدنه، وأَجْمَلَ النظر في أحوال نفسه، وَعَرَفَ الضارّ مما يأكل من النافع لم يمرض. وتميل في قولك إلى من يزعم: أنه لا يكون المرض والموت إلا من المطعم والمشرب؟ قد مات أرسطوطاليس معلم الأطباء، وأفلاطون رئيس الحكماء، وجالينوس شاخ ودقّ بصره، وما دفع الموت حين نزل بساحته، ولم يألوا حفظ أنفسهم والنظر لما يوافقها. كم مريضاً زاده المعالج

سقماً، وكم من طبيب عالم، وبصير بالأدواء والأدوية ماهرٍ مات، وعاش جاهل بالطب بعده زماناً، فلا ذاك نفعه علمه بطبّه عند انقطاع مدته وحضور أجله، ولا هذا ضرّه الجهل بالطب مع بقاء المدة وتأخر الأجل».

ثم قال عليه السلام: «إن أكثر الأطباء قالوا: إن علم الطب لم تعرفه الأنبياء، فما نصنع على قياس قولهم بعلم زعموا ليس تعرفه الأنبياء الذين كانوا حجج الله على خلقه وأمناءه في أرضه وخزّان علمه، وورثة حكمته، والإدلاء عليه، والدعاة إلى طاعته. ثم إني وجدت أن أكثرهم يتنكب في مذهبه سبل الأنبياء، ويكذّب الكتب المنزلة عليهم من الله تبارك وتعالى. فهذا الذي أزهدني في طلبه وحامليه»... اهـ.

ويظهر لنا من أجوبة الإمام الصادق عليه السلام ومناظراته، أن المسائل التي احتوتها لم تترك ضرباً من التساؤل والتفكر يتعلق بعلم أو تاريخ أو دين أو فقه إلاّ وأشبعته إيضاحاً وبياناً، ويجري الكلام في منهج يعتبر القصد ويراعي الغرض، لأن طريقة الاحتجاج والردّ في منهج الإمام الصادق هي غير طريقة الإرشاد والنصح والتعليم، وعلامات كل منهما واضحة.

روى محمد بن مسلم والحلبي عن أبي عبد اللّه الصادق عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ﴾ فقال: «إن الله عز وجل اشترط على الناس شرطاً، وشرط لهم شرطاً، فمن وفى له وفى الله له». فقالا له: فما الذي اشترط عليهم، وما الذي شرط لهم؟ فقال: «أما الذي اشترط عليهم، فإنه قال الحج أشهر معلومات، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج. وأما الذي اشترط لهم، فإنه قال: فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه لمن أتقى. فقال: يرجع ولا ذنب له». فقالا: أرأيت من أبتلي بالفسوق ما عليه؟ قال: «لم يجعل الله عز وجل له حداً، يستغفر الله ويلبي». فقالا: فمن أبتلي بالجدال فما عليه؟ فقال: «إذا جادل فوق مرتين، فعلى المصيب دم يهريقه شاة وعلى المخطىء بقرة» اهـ.

وحين يتدرج الزنادقة والملحدون في محاورته، ويسأله المشككون والكفار بكل ما يعنّ لهم، ترى جوابه عليه السلام بشيء من الإيجاز المذهل الذي يجمع أطراف المعرفة ويضمّ الأدلة الشافية.

فمن جملة حوار طويل. يُسئل عليه السلام: فما قصة ماني؟

ويجيب عليه السلام: «متفحّص أخذ بعض المجوسية فشابها ببعض النصرانية، فأخطأ الملّتين، ولم يصب مذهباً واحداً منهما، وزعم أن العالم دبّر من إلهين نور وظلمة، وإن النور في حصار من الظلمة على ما حكينا منه، فكذّبته النصارى، وقبلته المجوس».

قال: فأخبرني عن المجوس، أفبعث الله إليهم نبياً؟ فإني أجد لهم كتباً محكمة ومواعظ بليغة، وأمثالاً شافية، يقرّون بالثواب والعقاب، ولهم شرايع يعملون بها. قال عليه السلام: «ما من أمة إلا خلا فيها نذير. وقد بعث إليهم نبي بكتاب من عند الله فأنكروه وجحدوا كتابه».

قال: ومن هو، فإن الناس يزعمون أنه خالد بن سنان؟

قال: «إن خالداً كان عربياً بدوياً، ما كان نبياً، وإنما ذلك شيء يقوله الناس».

قال: أَفَزَرَدَشْت؟

قال: «إن زردشت أتاهم بزمزمة، وادعى النبوة، فآمن منهم قوم وجحده قوم، فأخرجوه، فأكلته السباع في برية من الأرض».

قال: فأخبرني عن المجوس، كانوا أقرب إلى الصواب في دهرهم أم العرب؟

قال عليه السلام: «العرب في الجاهلية كانت أقرب إلى الدين الحنيفي من المجوس، وذلك أن المجوس كفرت بكل الأنبياء وجحدت كتبهم وأنكرت براهينهم. ولم تأخذ بشيء من سننهم وآثارهم. وإن كيخسرو ـ ملك المجوس في الدهر الأول ـ قتل ثلاثمائة نبي، وكانت المجوس لا تغتسل من الجنابة، والعرب كانت تغتسل من الجنابة، والاغتسال من خالص شرائع الحنيفية. وكانت المجوس لا تختتن، وهو من سنن الأنبياء، وأول من فعل ذلك إبراهيم خليل الله، وكانت المجوس لا تغسل موتاها ولا تكفنها، وكانت العرب تفعل ذلك. وكانت المجوس ترمي الموتى في الصحارى والنواويس، والعرب تواريها في قبورها وتلحدها وكذلك السنة على الرسل، إن أول من حفر له قبر آدم أبو البشر وألحد له لحد. وكانت المجوس تأتي الأمهات وتنكح البنات والأخوات، وحرمت ذلك العرب. وأنكرت المجوس بيت الله الحرام وسمّته

بيت الشيطان، والعرب كانت تحجّه وتعظّمه وتقول: بيت ربنا. وتقرّ بالتوراة والإنجيل وتسأل أهل الكتب، وتأخذ. وكانت العرب في كل الأسباب أقرب إلى الدين الحنيفي من المجوس...».

قال: فإنهم احتجوا بإتيان الأخوات أنها سنّة آدم.

قال: «فما حجتهم في إتيان البنات والأمهات[1]، وقد حرّم ذلك آدم، وكذلك نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وسائر الأنبياء وكل ما جاء عن الله عز وجل».

قال: ولم حرّم الله الخمر، ولا لذة أفضل منها؟

قال: «حرّمها لأنها أم الخبائث وأسّ كل شر، يأتي على شاربها ساعة يسلب لبّه، ولا يعرف ربه، ولا يترك معصية إلا ركبها، ولا حرمة إلا انتهكها، ولا رحماً ماسة إلا قطعها، ولا فاحشة إلا أتاها. والسكران زمامه بيد الشيطان إن أمره أن يسجد للأوثان سجد، وينقاد حيثما قاده».

قال: فلم حرّم الدم المسفوح؟

قال: «لأنه يورث القساوة. ويسلب الفؤاد رحمته، ويعفّن البدن، ويغير اللون، وأكثر ما يصيب الإنسان الجذام يكون من أكل الدم».

---

(١) معلوم أن الإمام الصادق عليه السلام ساق الزواج بالمحارم من البنات والأمهات في الاستدلال ليكون الردّ أشمل، فقد بيّن عليه السلام خطأ القول بأن الله أوحى إلى آدم أن يزوج بناته بنيه، ورواية زرارة بن أعين أن الإمام الصادق سئل عن ذلك فأجاب:

«تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً يقول من قال هذا: بأن الله عز وجل خلق صفوة خلقه وأحبائه وأنبيائه ورسله المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات من حرام، ولم يكن له من القدرة ما يخلقهم من حلال. وقد أخذ ميثاقهم على الحلال الطهر الطاهر الطيب. إن الله أمر القلم، فجرى على اللوح المحفوظ بما هو كائن إلى يوم القيامة قبل خلق آدم بألفي عام، وإن كتب الله كلها فيما جرى فيها العلم في كلها تحريم الإخوة مع ما حرم. لما قتل قابيل هابيل جزع آدم على هابيل جزعاً قطعه عن إتيان النساء، ثم تخلى ما به من الجزع، فغشي حواء فوهب الله له شيئاً وحده وليس معه ثاني. ثم ولد له من بعد شيث يافث ليس معه ثاني، فلما أدركا وأراد الله عز وجل أن يبلغ بالنسل ما ترون، وأن يكون ما قد جرى به القلم من تحريم ما حرّم الله عز وجل من الأخوات على الإخوة أنزل بعد العصر في يوم الخميس حوراء من الجنة، فأمره الله عز وجل أن يزوجها من شيث، فزوجها منه. ثم أنزل بعد العصر من الغد حوراء من الجنة، فأمره الله عز وجل أن يزوجها من يافث. فزوجها منه...» الرواية.

قال: فالميتة لِمَ حرّمها؟

قال عليه السلام: «فرقاً بينها وبين ما يذكر اسم الله عليه، والميتة قد جمد فيها الدم، وتراجع إلى بدنها، فلحمها ثقيل غير مرىء، لأنها يؤكل لحمها بدمها».

وأخيراً فإن الإنسان يجد نفسه وهو يبحث في منهج الإمام الصادق ومدرسته العلمية عاجزاً عن تخيّل حدّ يعتقد أن الوقوف عنده يكون ختاماً مناسباً لما بدأه، لأن شخصية كالإمام الصادق، لا يفي الكلام على نهجها العلمي وما تركته من مآثر مثل هذا الجهد المتواضع.

الإمـــام الصـــادق
وموقفه من الحكام الظالمين

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٣].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

من أبرز سمات تاريخ أهل البيت، وأظهر خصائص سيرهم، هو النهي عن الظلم ومحاربة الظالمين. وقد قام رجال أهل البيت النبوي بما يجب عليهم من نصرة العدل والوقوف بوجه الطغاة، وكانت مواقفهم كما تقتضيه المصلحة الدينية وتحتمه ضرورات الرسالة والدعوة.

كانوا عليهم السلام يعظمون على الإنسان ارتكاب العدوان على الغير وظلم الناس، فهذا إمام أهل العدل أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «والله لئن أبيت على حسك السعدان مسهداً، أو أجرّ في الإغلال مصفداً؛ أحبّ إليّ من أن ألقى الله ورسوله ظالماً لبعض العباد وغاصباً لشيء من الحطام».

وقد اتفقت الشرائع وتطابقت الأديان كما تسالمت العقول على قبح الظلم، فسعى سيد الخلق وخاتم النبيين محمد ﷺ إلى إرساء قواعد العدل في حياته، وتأكيد مبادىء المساواة على عهده، ثم وضع الناس في صورة ما ستكون عليه الحال وما ستؤول إليه. فعن كعب بن عجرة قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أعيذك بالله يا كعب بن عجرة من أمراء يكونون بعدي، من غشي أبوابهم وصدّقهم في كذبهم، وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه، ولا يرد عليّ الحوض. ومن لم يغشَ أبوابهم ولم يصدّقهم في كذبهم، ولم يعنهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه، وسيرد عليّ الحوض»[1].

---

(١) تيسير الوصول للشيباني ج٢ ص٤٠.

وقد خرج الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن حيان في صحيحه ذلك.

مرحلة الثورة ومرحلة الدعوة:

وقد كان من عظيم منزلة أهل البيت عند الله وخطورة شأنهم أن يكونوا مناط الرسالة ووسيلة استمرار الدعوة، فكانت الإمامة مشتملة على صفات العصمة التي تفيض بنور من الجلالة وبسلطة من النبوة حتى تكون الدعوة في حفظ وتبقى في حرز، وللأئمة من أهل البيت أدوارهم ومهمّاتهم التي ينهضون بها في كل مرحلة، فكان صلح الحسن حماية للأمة، بعدما أظهرت الوقائع أن سياسة الختل وحكم الطلقاء هيمنا على الناس وأفسدا النفوس، وأن معسكر العراق غلبت عليه أهواء أهل النفوس المريضة والهمم الضعيفة، وبات المخلصون قلة لا يرجى بهم نصر، فهادن الحسن بشروط معروفة، واستقبلها معاوية بنيّة الغدر والخيانة.

ثم كانت ثورة الإباء ونهضة الإيمان على يد أبي الشهداء الإمام الحسين، التي قامت منذ ساعة خروج الحسين من المدينة على بيِّنة كاملة وصورة واضحة من التفاصيل والمجريات، فلا بد من تلك الدماء والتضحيات للوقوف بوجه الانحراف والردّة وترسيخ مبادىء العقيدة في النفوس، وقد كانت الجولة الثانية بين الوثنية التي اضطرت إلى الإسلام لتسلم، وبين رسالة محمد، وكان من نتائج هذه الجولة أن تسفك دماء أهل بيت محمد، وتسبى نساؤه وذراريه، وترتكب أمية تلك المجزرة، وكان ذلك كله وفق تخطيط السماء لمسيرة البشرية وسلسلة الرسل والأنبياء والأوصياء عبر التاريخ.

روى أحمد، وأخرج البغوي في معجم الصحابة، والطبراني عن أنس قال: استأذن ملك القِطْر ربه أن يزور النبي ﷺ فأذن له. وكان في يوم أم سلمة، فقال النبي ﷺ لأم سلمة: «احفظي الباب لا يدخل علينا أحد، فبينما هي على الباب، إذ دخل عليه الحسين فاقتحم يتوثب على رسول الله ﷺ فجعل النبي ﷺ يلثمه ويقبّله» فقال له المَلَك: أتحبه؟ قال «نعم» قال: إن أمتك ستقتله، وإن شئت أريتك المكان الذي يقتل به. فأراه إيّاه، فجاء بطينة حمراء، فأخذتها أم سلمة فصرّتها في خمارها. قال ثابت: بلغنا أنها كربلاء[1].

---

(١) مسند أحمد ج٢.

وأخرج الطبراني عن أبي الطفيل قال: استأذن ملك القطر بأن يسلّم على النبي ﷺ في بيت أم سلمة، فقال: «لا يدخل علينا أحد» فجاء الحسين فدخل، فقالت أم سلمة: هو الحسين. فقال: «دعيه» فجعل يعلو رقبة رسول الله ويعبث به، والملك ينظر. فقال الملك: أتحبه يا محمد؟ قال: «أي والله إني لأحبه» قال: أما أن أمتك ستقتله، وإن شئت أريتك المكان. فقام بيده فتناول كفاً من تراب، فأخذت أم سلمة التراب، فصرّته في خمارها، فكانوا يرون أن ذلك التراب من كربلاء[1].

وعن عبد اللّه بن نجي عن أبيه أنه سافر مع الإمام علي ـ وكان صاحب مطهرته ـ فلما جاءوا نينوى وهو منطلق إلى صفين نادى علي: «صبراً أبا عبد اللّه، صبراً أبا عبد اللّه لشط الفرات» قلت: ومن ذا أبو عبد اللّه؟ قال الإمام: «دخلت على رسول الله ﷺ وعيناه تفيضان، فقلت: يا نبي الله، أغضبك أحد، ما شأن عينيك؟ قال ﷺ: بلى قام من عندي جبريل قبل، فحدثني أن الحسين يقتل بشط الفرات، وقال: هل لك أن أشمّك من تربته؟ فقلت: نعم. فمدّ يده، فقبض قبضة من تراب فأعطانيها، فلم أملك عيني أن فاضتا[2]».

ولذلك ترى الحسين يجيب من يريده على العدول عن مواجهة بني أمية بالقول: «ومهما يقضِ الله يكن». فهو عليه السلام يعلم رسالته كيف تكون وما هو مقدم عليه، ولا بد من مقاومة الظلم، بعد أن أدى البغي على أبيه وأخيه عليهما السلام إلى قوة غاشمة وسلطان جائر. فكان يردّ على ابن عباس: «لأن أقتل والله بمكان كذا أحب إليّ من أن استحل بمكة». وفي لفظ: «أحب إليّ من أن يستحلّ بي حرم الله ورسوله»[3].

وأتاه رجل من مشايخ العرب فقال له عليه السلام: أنشدك الله تعالى إلا انصرفت، فوالله ما تقدم إلاّ على الأسنّة وحدّ السيوف، فإن هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كفوك مؤنة القتال ووطؤوا لك الأمور، وقدمت من غير حرب كان ذلك رأياً، وأما على هذه الحالة التي ترى فلا أرى لك أن تفعل.

فقال له الحسين عليه السلام: «لا يخفى عليّ شيء مما ذكرته، ولكني صابر محتسب حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً»[4].

---

(١) الحبائك في أخبار الملائك للسيوطي ص٤٤ و٤٥.

(٢) تهذيب الكمال في أسماء الرجال ج٦ ص٤٠١. والمعجم الكبير للطبراني ج٣ ص١٠٦.

(٣) مروج الذهب ج٣ ص٦٥. والكبير للطبراني ج٣ ص١٩٩.

(٤) نور الأبصار للشبلخي ص١٢٩.

وقال الحسين عليه السلام في وصيته لأخيه محمد بن الحنفية:

«إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت أطلب الإصلاح في أمة جدّي محمد ﷺ أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدّي محمد، وسيرة أبي علي بن أبي طالب. فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن ردّ عليّ هذا، صبرت حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق ويحكم بيني وبينهم وهو خير الحاكمين»(١).

ويستشهد الحسين عليه السلام هو وأصحابه، وتجري تلك الفظائع، ويرتكب آل أبي سفيان قبائح لم تعهد حتى في الجاهلية، وقد أحزنت قلوب أهل الكتاب، وتوجّع لها أصحاب الشرائع والملل الأخرى. وبثورة الطف حِيْلَ بين أمية وبين العودة بالحكم إلى الجاهلية والارتداد بالأمة إلى الشرك، لأن مظاهر الفداء وصور البطولة والتضحية التي زخرت بها سيرة الإمام الحسين، وظهرت ببهائها على أرض كربلاء بإزاء قوات الشرك والضلالة جدّدت مسيرة الجهاد وأحيت في النفوس روح الرسالة، ووضعت الأمة على طريق الهداية والحق(٢).

الإمام زين العابدين:

ولننظر إلى نهاية المعركة بين الثورة وبين الظالمين، فإن أشكال الحقد التي انطوت عليها نفوس الظالمين وأعوانهم، ومشاعر الحقد والعداء التي تجسدت بتلك الفظائع والانتهاكات. لا يمكن أن يقف أمامها مرض فتى للحسين ويمنعها من قتله. فكل الأفعال تشهد بانعدام الذمة، وخلوّهم من الرحمة، وتجرّدهم من الأخلاق. فلم يسلم طفل الحسين الرضيع عبد الله، فقتلوه بسهم، وكان أبوه يطلب الماء له. وتجرأوا بكل خِسّة على انتهاك حرمة الخدور، فانتزعوا ربّات الحجال والطهر والعفاف، ويمسك القلم هنا استعظاماً.

أقول: نحن مع صفحة من صفحات العناية الربانية لتحفظ الإمام علي بن الحسين ويخرج من المعركة، وهو مملوء بالحزن والآلام، وينجيه الله من المواقف الأخرى التي أعقبت المعركة. فقد أمر ابن زياد بقتل الإمام لولا تدخل بطلة الطف

---

(١) مقتل الحسين للخوارزمي.

(٢) انظر كتابنا: مع الحسين في نهضته، بيروت ١٣٩٤هـ وفيه تبادلنا الأحداث بتبسيط ويسر.

العقيلة زينب وقالت له: «حسبك من دمائنا، أسألك بالله إن قتلته إلا قتلتني معه» فتركه[1].

وكان الإمام الحسين عليه السلام قد أخبر بنجاة الإمام زين العابدين من مذبحة كربلاء، وبرعاية الله لولده علي من سيوف الأمويين ومحاولاتهم حفظاً لمقام الإمامة التي أعدّ لها وتهيأ وتأهب في ظل السبط المنتجب. وقد ذكر الطبري في دلائل الإمامة كما في رواية السيد ابن طاووس في اللهوف إشارة الإمام الحسين إلى مصرع أصحابه، وأنه لا ينجو منهم إلا ولده علي عليه السلام[2].

وفي رواية المقتل: أن الإمام الحسين منع زين العابدين من أن يشترك في قتال الفجرة أعوان الأمويين وجنودهم، فقد حاول الإمام زين العابدين ـ لما رأى وحدة أبيه ـ أن يقاتل برغم مرضه، فمنعه الإمام الحسين رعاية لأمر الله في بقاء الرسالة في نسل النبي المصطفى صلى الله عليه وآله، فلا اعتبار لمحاولات الاعتذار التي سلكها بعض المؤرخين لتبرير تولي من أسهم في جريمة قتل آل محمد والأجهاز على أبناء بيت النبوة إرضاءً للحكام وعصبية للإماء الذين ينتسب إليهم قادة محاربي العترة الطاهرة ورسالتهم السماوية، فيتقولون أن عمر بن سعد قال يوم كربلاء: لا تعرضوا لهذا المريض[3].

وسرعان ما تقلّد الإمام زين العابدين أعباء الإمامة، ونهض بمهمات الدعوة، فوقف بصلابة وهو في بلاط أمية وفي عاصمة ملكها. وبه تبدأ مرحلة الدعوة في ظل آثار ثورة أبيه الشهيد، فالدماء التي أهرقت في كربلاء سرت بأوصال التاريخ وشرايين الأيام، فإن بقي للأمويين الظالمين ذكر فهو؛ لا يمت للعقيدة بصلة، وإنما في ظل الحكم والسلطان، وما ينمو في ضلالهما من المظالم والمفاسد. أما ثورة الحسين فهي إطار العقيدة الإسلامية، ومدخل انتصار العقيدة في النفوس في ظل الإمامة والولاية.

لما أراد يزيد من الإمام زين العابدين أن يصعد المنبر ويتكلم بما يريده، قال يزيد: أصعد المنبر فأعلم الناس حال الفتنة وما رزق الله أمير المؤمنين من الظفر. فقال الإمام علي زين العابدين: «ما أعرَفَني بما تريد».

---

(١) الطبقات الكبرى ج٥ ص٢١٢.
(٢) اللهوف ص٢٦.
(٣) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي ج٤ ص٣٨٨.

فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه. وصلى على رسول الله ﷺ ثم قال: «أيها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرّفه بنفسي. أنا ابن مكة ومنى، أنا ابن المروة والصفا، أنا ابن محمد المصطفى، أنا ابن من لا يخفى. أنا ابن من علا فاستعلا، فجاز سدرة المنتهى، فكان من ربّه قاب قوسين أو أدنى». فضج أهل الشام بالبكاء حتى خشي يزيد أن يرحل من مقعده، فقال للمؤذن: أذّن. فلما قال المؤذن: الله أكبر، الله أكبر. جلس علي بن الحسين على المنبر. فقال المؤذن: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. بكى الإمام زين العابدين عليه السلام ثم التفت إلى يزيد فقال:

«يا يزيد هذا أبي، أم أبوك؟»

قال: بل أبوك، فانزل.

فنزل عليه السلام فأخذ بناحية باب المسجد، فلقيه مكحول ـ صاحب رسول الله ﷺ ـ فقال:

كيف أمسيت يا ابن رسول الله؟

قال عليه السلام: «أمسينا بينكم مثل بني إسرائيل في آل فرعون، يذبّحون أبنائهم ويستحيون نساءهم، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم[1]».

وفي أشهر الروايات، أن المنهال بن عمرو لقي الإمام زين العابدين في دمشق فقال له: كيف أمسيت يا ابن رسول الله قال: «أمسينا كمثل بني إسرائيل في آل فرعون يذبّحون أبناءهم ويستحيون نسائهم. يا منهال أمست العرب تفتخر على العجم بأن محمداً منها، وأمست قريش تفتخر على سائر العرب بأن محمداً منها، وأمسينا معشر أهل بيته ونحن مقتولون مشرّدون، فإنا لله وإنا إليه راجعون مما أمسينا فيه»[2].

هكذا كانت بداية مسيرة الإمام زين العابدين، وهكذا كان بدء إمامته ومنهج دعوته. وكانت فترة إمامته أربعاً وثلاثين سنة، أدرك الإمام الصادق سنوات منها.

قال الإمام الباقر عليه السلام: «إن أبي علي بن الحسين عليه السلام ما ذكر نعمة الله عليه إلاّ سجد، ولا قرأ آية من كتاب الله عز وجل فيها سجود إلا سجد، ولا دفع الله تعالى عنه سوءاً يخشاه أو كيد كايد إلا سجد، ولا فرغ من صلاة مفروضة إلا سجد،

---

(١) الاحتجاج للطبرسي ج٢ ص٢٩.

(٢) مثير الأحزان للشيخ ابن نما الحلي ص٨٤ واللهوف للسيد ابن طاووس ص٨١.

ولا وفّق لإصلاح بين اثنين إلا سجد، وكان أثر السجود في جميع مواضع سجوده، فسمي السجّاد لذلك».

وعنه عليه السلام أيضاً قال: «كان لأبي عليه السلام في موضع سجوده آثار ناتئة، وكان يقطعها في السنة مرتين في كل مرة خمس ثفنات، فسمّي ذا الثفنات لذلك».

قال الزهري: ما رأيت قرشياً أفضل من علي بن الحسين. وقال: بلغني أنه كان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة إلى أن توفي، وسمّي زين العابدين لكثرة عبادته. وكان الزهري إذا ذكر علي بن الحسين يبكي.

وسيأتي ذكر علاقة الزهري بالإمام زين العابدين، وقد انخرط الزهري في حاشية الملوك والتحق بالأمويين في مقر ملكهم بالشام[1].

وعن سفيان بن عيينة قال: حج زين العابدين، فلما أحرم أصفرّ لونه، وعرضت عليه الرعدة، ولم يستطع أن يلبيّ، فسئل عنه؟ قال: «أخشى أن أقول: لبيك. فيقول: لا لبيك» فلما لبّى غشي عليه، وسقط من راحلته، فلم يزل يعترضه ذلك حتى قضى حجّه[2]. قال رجل لسعيد بن المسيب: ما رأيت أحداً أورع من فلان. قال: فهل رأيت علي بن الحسين؟ قال: لا. قال: ما رأيت أحداً أورع منه.

قال طاووس: سمعته وهو ساجد عند الحجر يقول: «عبيدك بفنائك، سائلك بفنائك». قال طاووس: فوالله ما دعوت بها في كرب إلا كشف عني.

قال محمد بن إسحاق: كان ناس بالمدينة يعيشون لا يدرون من أين يعيشون ومن يعطيهم، فلما مات علي بن الحسين فقدوا ذلك، فعرفوا أنه هو الذي كان يأتيهم في الليل بما يأتيهم به، ولما مات وجدوا في ظهره وأكتافه أثر حمل الجراب إلى بيوت الأرامل والمساكين في الليل. وكان يعول مائة أهل بيت بالمدينة ولا يدرون بذلك حتى مات[3]. ففقد أولئك ما كان يأتيهم من معاش، لذا كانت آثار جراب الدقيق على جسده الطاهر[4].

ولا بد من القول أن الإمام زين العابدين يلقى ربه وعلى ظهره آثار تقواه

---

(١) انظر الجزء الثاني من الكتاب.

(٢) ينابيع المودة. وتذكرة سبط ابن الجوزي.

(٣) البداية والنهاية ٩ ص١٠٥. وتذكرة سبط ابن الجوزي. وينابيع المودة. والإتحاف. ونور الأبصار.

(٤) صفة الصفوة ج٢ ص٥٤.

وصلاحه، كما يلقى ربه وعلى ظهره آثار مظلمته وجريمة بني أمية، وكان مرأى آثار الجامعة في عنقه عليه السلام، وآثار جرح القيد في ساقيه قد أبكى ولده الإمام الباقر لمّا وضعه على المغتسل. وكيف تندمل تلك الجراح والأمويون على كراسي الحكم، ودستورهم ظلم أهل البيت؟ فعبد الملك بن مروان على نهج يزيد يحمل الإمام زين العابدين مقيداً من المدينة ويثقله حديداً[1].

ينقل شيخنا المفيد رحمه الله في الإرشاد ومصادر كثيرة أخرى قول الإمام زين العابدين: «أحبونا حبّ الإسلام، فما زال حبّكم لنا حتى صار شيناً علينا»[2]. ويأتي مجرّداً دون الإشارة إلى بواعث مثل هذا القول، وهي أن عصره عليه السلام شهد بدايات ظهور أقوال الغلاة، وما تحدّثنا عنه في مشكلة الغلاة في الأجزاء السابقة[3] والمتعلق بالأفراد الذين كانت لهم علاقة وصلة بالأئمة الأطهار، وسقطوا في درك الغلو والإساءة إلى أهل البيت، يتصل وجودهم بهذه الفترة، وقد عظم أمرهم واشتد في زمن الإمام الباقر والصادق.

وتشعر الروايات الأخرى بردّ الإمام زين العابدين مزاعم هؤلاء وكفرهم، فيروى أنه قال لهم: «ما أجرأكم وأكذبكم على الله، نحن من صافي قومنا، فحسبنا أن نكون من صالحيهم». ومن اللازم تقييدها بأسبابها، ليبطل تعميم الرواية لأغراض سيئة وخبيثة. والرواية التي تطلق هي: أنه مرض عليه السلام فدخل عليه جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ يعودونه، فقالوا: كيف أصبحت يا ابن رسول الله ﷺ فدتك أنفسنا؟ قال «في عافية، والله المحمود على ذلك. فكيف أصبحتم أنتم جميعاً؟» قالوا: أصبحنا والله يا ابن رسول الله ﷺ محبّين وادّين. فقال لهم عليه السلام: «من أحبنا لله أسكنه الله في ظل ظليل يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله، ومن أحبنا يريد مكافأتنا كافأه الله عنا الجنة، ومن أحبنا لغرض دنيا آتاه الله رزقه من حيث لا يحتسب»[4].

وليس من قصدنا التوسّع في البحث عن حياة الأمام السجاد زين العابدين، وإنما الإشارة إلى ما يقتضيه المقام في بيان مراحل عمل الإمامة ووجوه رسالتها، فكما أن

---

(١) تذكرة سبط ابن الجوزي. وينابيع المودة للقندوزي.
(٢) الإرشاد ص٢٣٨. ورواية ابن كثير عن يحيى بن سعيد: «حتى صار علينا عار...».
(٣) انظر الجزء الثاني والثالث من الكتاب.
(٤) الفصول المهمة لابن الصباغ.

حياة الإمام زين العابدين تتصل بحياة عمّه الإمام الحسن، وحياة أبيه الإمام الحسين، كذلك فإن حياة الإمام الصادق عليه السلام تتصل بحياة الإمام زين العابدين وحياة أبيه الإمام الباقر.

ونختار من أنوار سيرته وعبق ذكره هذه الآثار القليلة وهي غيض من فيض، لأن سيرته عليه السلام ووقائع عصره حافلة بكل ما يعني من الجلالة والعظمة، بحيث يكتشف الباحث أن أهل هذا البيت لهم دور بإزاء انجرار الناس إلى السلطان والتهافت على الدنيا، وأن ذلك الدور هو الذي أبقى على الأصول والقواعد الدينية والشرعية.

لقد جسّد عليه السلام وقع المأساة التي اجتازها فقال كلمته: «فقد الأحبة غربة» وكان صوته عليه السلام يسمع في جوف الليل وهو يقول: «أين الزاهدون في الدنيا، الراغبون في الآخرة».

وهو من خشية الله يمنع نفسه من ضرب ناقته، فقد روي أنه حج مرة فالتائت الناقة عليه في سيرها، فأشار إليها بالقضيب، ثم قال «آه لولا القصاص» وردّ يده عنها.

قال عليه السلام مبيّناً ولايته الدينية وسلطته الروحية:

«نحن أئمة المسلمين وحجج الله على العالمين، وسادة المؤمنين وقادة الغرّ المحجلين، وموالي المؤمنين، ونحن أمان أهل الأرض كما أن النجوم أمان لأهل السماء، ونحن الذين بنا يمسك الله السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، وبنا يمسك الأرض أن تميد بأهلها، وبنا ينزل الغيث، وبنا ينشر الرحمة ويخرج بركات الأرض، ولولا ما في الأرض منّا لساخت بأهلها»[1].

ثم يقول عليه السلام قولاً لرجل يعيّن فيه مسلك الناس إلى نيل الولاية: «بلّغ شيعتنا أنّا لا نغني عنهم من الله شيئاً، وأن ولايتنا لا تُنال إلا بالورع».

ويقول عليه السلام لجابر الجعفي: «بلّغ شيعتي منّي السلام، وأعلمهم أنه لا قرابة بيننا وبين الله عز وجل، ولا يتقرب إليه إلا بالطاعة. يا جابر، من أطاع الله وأحبنا فهو ولينا، ومن عصى الله لم ينفعه حبنا، ومن أحبنا وأحب عدوّنا فهو في النار. يا جابر

---

(١) روضة الواعظين. واحتجاج الطبرسي.

من هذا الذي سأل الله تعالى فلم يعطه، وتوكل عليه فلم يكفه، ووثق به فلم ينجّه. يا جابر أنزل الدنيا منك كمنزل نزلته، فإن الدنيا للتحويل عنها، وهل الدنيا إلا دابة ركبتها في منامك، فاستيقظت وأنت على فراشك؟ هي عند ذوي الألباب كفيء الظلال، لا إله إلا الله إعذار لأهل دعوة الإسلام، والصلاة تثبيت للإخلاص وتنزيه عن الكبر، والزكاة تزيد في الرزق، والصيام والحج لتسكين القلوب، والقصاص والحدود لحقن الدماء، فإن أهل البيت نظام الدين. جعلنا الله وإياكم من الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون».

ومن أقواله ما يعتبر من أهم أركان دعوته وقواعد نهجه كقوله: «التارك للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كالنابذ كتاب الله وراء ظهره، إلاّ أن يتّقي منهم تقاة» قالوا: وما تقاة؟ قال: «يخاف جباراً عنيداً أن يسطو عليه وأن يطغى».

وروى الطبراني عنه أنه قال عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: ليقم أهل الفضل. فيقوم ناس من الناس، فيقال لهم: انطلقوا إلى الجنة. فتلقّاهم الملائكة فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة. فيقولون: قبل الحساب؟ قالوا: نعم. قالوا: من أنتم؟ قالوا نحن أهل الفضل. قالوا: وما كان فضلكم؟ قالوا: كنّا إذا جُهل علينا حلمنا، وإذا ظُلمنا صبرنا، وإذا أسيىء إلينا غفرنا. قالوا لهم: ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين. ثم ينادي منادٍ: ليقم أهل الصبر، فيقوم ناس من الناس فيقال لهم: انطلقوا إلى الجنة. فتتلقاهم الملائكة فيقولون لهم مثل ذلك فيقولون: نحن أهل الصبر، قالوا: فما كان صبركم؟ قالوا: صبرنا أنفسنا على طاعة الله، وصبّرناها عن معصية الله، وصبّرناها على البلاء. فقالوا لهم: ادخلوا الجنة، فنعم أجر العاملين. ثم ينادي المنادي: ليقم جيران الله في داره، فيقوم ناس من الناس وهم قليل، فيقال لهم: انطلقوا إلى الجنة فتتلقاهم الملائكة فيقولون لهم مثل ذلك، فيقولون: بم استحققتم مجاورة الله عز وجل في داره؟ فيقولون: كنّا نتزاور في الله ونتجالس في الله ونتباذل في الله عز وجل. فيقال لهم: ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين»[1].

وإذا ما دخل الحرم كان عبيد بني أمية يؤذونه. يذكر ابن سعد: كان الإمام زين العابدين يمشي إلى الحجار، وكان له منزل بمنى، وكان أهل الشام يؤذونه، فتحوّل

---

(١) البداية والنهاية.

إلى قرين الثعالب أو قريب من قرين الثعالب، وكان يركب. فإذا أتى منزله مشى إلى الجمار[1].

ولم تتمكن سياسة البغاة من الحدّ من أثر الإمام زين العابدين أو تأثيره في النفوس، ولم يخف وجوده في مواطن العلم ونبوغه في حلقات الفقه والحديث. فهو بما حباه الله وبما أورثه من وصاية وسداد لا يرقى إلى عتبة علمه أو درجة كماله أحد من أصحاب الفقه والحديث والفتوى والدين. وكان الإمام زين العابدين ـ وهو في دوائر التضييق التي يخلقها الحكام الأمويون ـ يتصدّى لدوره الإيماني، ويدعو إلى إمامته فيقول: «فمن سلّم لنا سلم، ومن اقتدى بنا هدي، ومن يعمل بالقياس والرأي هلك، ومن وجد في نفسه شيئاً مما نقوله أو نقضي به حرجاً، كفر بالذي أنزل السبع المثاني والقرآن العظيم».

ويبقى في وسط مدينة جدّه ومهبط الوحي تنوشه سهام الأمويين وتنبحه كلابهم، فكان الإمام زين العابدين يذكر حال من مسخهم الله قردة من بني إسرائيل ويحكي قصتهم، فلما بلغ آخرها قال: «إن الله تعالى مسخ أولئك القوم لاصطيادهم السمك، فكيف ترى عند الله عز وجل يكون حال من قتل أولاد رسول الله ﷺ وهتك حريمه؟ إن الله تعالى وإن لم يمسخهم في الدنيا، فإن المعدّ لهم من عذاب الآخرة أضعاف أضعاف عذاب المسخ». فقيل له: يا ابن رسول الله، فإنا قد سمعنا منك هذا الحديث. فقال لنا بعض النصّاب: فإن كان قتل الحسين باطلاً فهو أعظم عند الله من صيد السمك في السبت، أفما كان الله غضب على قاتليه كما غضب على صيادي السمك؟

قال الإمام زين العابدين عليه السلام: «قل لهؤلاء النصّاب: فإن كان إبليس معاصيه أعظم من معاصي من كفر بإغوائه، فأهلك الله من شاء منهم كقوم نوح وفرعون ولم يهلك إبليس، وهو أولى بالهلاك، فما باله أهلك هؤلاء الذين قصروا عن إبليس في عمل الموبقات، وأمهل إبليس مع إيثاره لكشف المحرمات، أما كان ربنا عز وجل حكيماً تدبيره حكمة فيمن أهلك وفيمن أستبقى؟ فكذلك هؤلاء الصائدون في السبت، وهؤلاء القاتلون للحسين. يفعل في الفريقين ما يعلم، أنه أولى بالصواب والحكمة، لا يُسأل عمّا يفعل وعباده يُسألون».

---

(١) الطبقات الكبرى ج٥ ص٢١٩.

كما واجه عليه السلام أنصار البغاة وأتباع الطلقاء، فقد جاءه رجل من أهل البصرة وقال له: يا علي بن الحسين، إن جدّك علي بن أبي طالب قتل المؤمنين. فهملت عينا علي بن الحسين دموعاً حتى امتلأت كفّه منها. ثم ضرب بها على الحصى.

ثم قال:

«يا أخا أهل البصرة، لا والله ما قتل عليٌ مؤمناً، ولا قتل مسلماً، وما أسلم القوم ولكن استسلموا وكتموا الكفر وأظهروا الإسلام، فلما وجدوا على الكفر أعواناً أظهروه، وقد علمت صاحبة الجدب والمستحفظون من آل محمد ﷺ أن أصحاب الجمل وأصحاب صفين وأصحاب النهروان لعنوا على لسان النبي الأمي وقد خاب من افترى».

فقال شيخ من أهل الكوفة: يا علي بن الحسين، إن جدّك كان يقول: «إخواننا بغوا علينا».

فقال الإمام زين العابدين عليه السلام: «أما تقرأ كتاب الله ﴿وإلى عادٍ أخاهم هوداً﴾ فهم مثلهم، أنجى الله عز وجل هوداً والذين معه وأهلك عاداً بالريح العقيم».

وقد تعرّض له البعض بالإساءة فأغلظوا له القول وأساؤوا معه الأدب، فكان ردّه عليهم آية من آيات خُلُقه ومحمود صفاته.

ولم تنل من هيبته ولا مكانته جميع الأفعال التي اعترضته، فقد كان الإمام علي بالمدينة محترماً معظماً[١] وكان الناس يقبّلون يده[٢].

فهو ممن مَنَّ الله عليهم بالهداية التامة والعصمة الخالصة، وجعلهم في الأرض أصحاب الولاية وحملة الرسالة وحماة الشريعة، إليهم الأمر، وفيهم العلم والنبوة، وقد حفظ الله الإمام زين العابدين من مكائد البغاة وسيف يزيد بن معاوية إبقاءً لنور الرسالة وصيانة للشريعة في عهد تغلّب فيه الطلقاء، وتحكّم فيه الفسّاق، فترك الإمام زين العابدين وهو يكابد النكبة ويواجه أقسى محنة آثاراً كبرى في السلوك والفكر في العمل والذكر.

---

(١) ابن كثير ج٩ ص١٠٤.

(٢) العقد الفريد ج١ ص١٨٠.

كان الإمام علي بن الحسين عليه السلام يتّصف بصفات الإمامة ويتحلّى بخلق النبوة. إذا مشى لا تجاوز يده فخذه ولا يخطر بيده[1] ويخشى أن يؤذي أي مخلوق في زمن ديست فيه المقدسات وانتهكت الحرمات وأسفرت الأيام عن أحقاد جاهلية وعودة إلى الشرك خمدت زمناً ثم هبّت وهاجت تكالباً على الدنيا ولجوءاً إلى القوة وإسرافاً في الجبرية والتسلط، فكان عليه السلام إذا سار في المدينة على بغلته لم يقل لأحد: الطريق. ويقول: «هو مشترك، ليس لي أن أنحي عنه أحداً».

وكان عليه السلام مهتماً بمصالح الأمة ودفع شرور الحكام عنها، فكان يفكر بأحوال الناس أيام أحداث الحرم وحركة ابن الزبير[2].

ولما قامت ثورة المدينة المنورة ضد الأمويين، وأخرج أهلها عامل يزيد عثمان بن محمد بن أبي سفيان، وأظهر وأخلع يزيد بن معاوية سنة ثلاث وستين، طلب مروان بن الحكم من الإمام زين العابدين أن يترك نساءه عنده، وقد كان مروان قد كلّم عبد اللّه بن عمر بذلك فأبى ابن عمر أن يفعل. قال مروان للإمام زين العابدين: أن لي رحماً وحرمي تكون مع حرمك، فقال: «أفعل» فبعث بحرمه[3].

وهكذا هي أخلاق أولاد النبيين وحجج الله على خلقه، لا كما فعل مروان وأهله بحرم رسول الله وما صنعوا بأهل بيته. وما يدّعيه الطبري من صداقة كانت بينهما قديمة لا نصيب له من الصحة، كما أنها ليست من أشكال العلاقات التي استحالت بحلم الإمام وعظيم خلقه من روح العداوة إلى الاحترام والاعتراف بمنزلة الإمام. كقصة ذلك الرجل الذي سب الإمام زين العابدين وهو خارج من المسجد، فأراد العبيد أن يثوروا به[4] ففي رواية الشبلخي عن درر الأصداف: بالغ في سبّه وأفرط، فعاد إليه العبيد والموالي، فكفّهم عنه، وأقبل عليه وقال له: «ما ستر عنك من أمرنا أكثر، ألك حاجة نعينك عليها؟» فاستحيا الرجل، فألقى إليه خميصة، وألقى إليه خمسة آلاف درهم. فقال: أشهد أنك من أولاد المصطفى صلى الله عليه وآله. وفي رواية ابن كثير: فكان الرجل بعد ذلك إذا رآه يقول: إنك من أولاد الأنبياء.

---

(١) انظر الطبقات الكبرى ج٥ ص٢١٢ ـ ٢٢٠.

(٢) الإتحاف للشبراوي ص٥٠ وابن كثير.

(٣) تاريخ الطبري ج٧ ص٧.

(٤) صفة الصفوة ج٢ ص٥٦.

ولا نظن أن يصدر مثل ذلك من الطريد بن الطريد، وإنما مروان وغيره من الأمويين يعلمون أن آل عبد المطلب أقرب إلى شرائع السماء وأخلاق الأنبياء، وهو وغيره من الأمويين ألصق بطبائع السوقة وأخلاق أهل الغدر، فلاذ بمكانة أهل البيت، ودفع بحرمه إلى حمى حرمتهم، أولئك الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً. وما هو إلاّ العدو الحاقد الذي يرى في علي وولده صورة النبي الأعظم الذي فضح أباه وأبعده ليخلص المسلمين من شرّه، فلما كان والياً على المدينة لمعاوية كان يسبّ علياً كل جمعة على المنبر، وقال له الحسن عليه السلام: «لقد لعن الله أباك الحكم، وأنت في صلبه على لسان نبيه»[1].

فمن أين قدم الصداقة بين زين العابدين ومروان بن الحكم، والأخير من أكثر الأمويين تشفّياً بقتل الإمام الحسين[2] ينقل الشيخ ابن نما عن تاريخ البلاذري: أنه لما وافى رأس الحسين عليه السلام المدينة. سمعت الواعية من كل جانب، فقال مروان بن الحكم:

ضربت دوسر فيهم ضربة ... أثبتت أوتاد حكم فاستقرّ

ثم أخذ ينكت وجهه بقضيب ويقول:

يا حبّذا بردك في اليدين ... ولونك الأحمر في الخدين
كأنه بات بمجسدين ... شفيت منك النفس يا حسين[3]

وتحسين صورة هؤلاء الطرداء وأبناء الطلقاء لا تغيّر واقع الأمر وحقيقة التصرّف الجاهلي الذي واجهوا به أهل بيت النبوة، فنرى كبار من تولّى هذه المهمة لا يفلح

---

(١) ابن كثير ج٨ ص٢٥٩.

(٢) وكذلك الأمر فيما يدّعيه الذهبي في تذكرة الحفّاظ من وجود ودّ في قلب عبد الملك بن مروان وأن زين العابدين كان أحب بني هاشم إلى عبد الملك (ج١ ص٧٠) ـ وابن كثير في البداية والنهاية (ج٩ ص١٠٤) ـ وابن عبد ربه في العقد (ج١ ص٢٦٨) فمن المشهور عداؤه ومحاولته الإساءة إلى الإمام زين العابدين في كل مرة، والصحيح لجوء عبد الملك إلى التشبّه بسلطة الإمام للتدليس والتلبّس بها أمام ملك الروم، فكتب إلى الحجاج أن يتوعّد ويتهدّد الإمام زين العابدين وأخذ جوابه، فكاتب عبد الملك بما قاله الإمام زين العابدين إلى الحجاج ويعث به إلى ملك الروم على أنه صادر منه.

(٣) مثير الأحزان.

فيما أخذ به نفسه، ويعثر ويسقط ما يحمله من أكاذيب. فقد عرف الإمام زين العابدين بالانقطاع إلى الله، والإكباب على العبادة بعد مذبحة الطف وقتل الأحبة، فكانت مياسم التقوى وسمات الإيمان في وجهه وجسمه، فأطلق عليه: السجاد وذي الثفنات. ومن المعلوم أن مواصلته العبادة ومداومته على الأدعية والأذكار لم يترك حيزاً لما كان يشغل بال الملوك من الأمويين والعباسيين بدواعي الشهوة. ونورد هنا أنموذجاً سار عليه الذهبي في الترجمة للأعلام في (سير أعلام النبلاء) حيث يورد ما يخالف الحقائق في كثير من الموارد، فيردّ المفضوح منها الذي لا يمكن السكوت عنه في بعضها، ولا يقوم بشيء في كثير منها يقول: (قال الأصمعي: لم يكن له عقب ـ يعني الحسين ـ إلا من ابنه علي، ولم يكن لعلي بن الحسين ولد إلا من أم عبد اللّه بن الحسن وهي ابنة عمه. فقال له مروان: أرى نسل أبيك قد انقطع، فلو اتخذت السراري لعلّ الله أن يرزقك منهن. قال: قال ما عندي ما اشتري. قال: فأنا أقرضك، فأقرضه مائة ألف، فاتخذ السراري وولد له جماعة من الولد، ثم أوصى مروان لما احتضر أن لا يؤخذ منه ذلك المال). ويعقّب الذهبي: إسنادها منقطع، ومروان ما احتضر، فإن امرأته غمته تحت وسادة هي وجواريها. . . الخ[1]. وقيل سمية وهي أم خالد بن يزيد بن معاوية، أضمرت له السوء بعد أن وجّه لابنها كلمات بذيئة ساقطة.

ويذكر المسعودي أن أسباب ثورة أهل المدينة كانت: جور يزيد وعمّاله وما عمّهم من ظلم وما ظهر من فسقه من قتله ابن بنت رسول الله ﷺ وما أظهر من شرب الخمور وسيره بسيرة فرعون.

وقد انتقم يزيد من أهل المدينة، وأمر بإباحتها، فكانت مذبحة الحرّة التي قتل فيها أكثر من أربعة آلاف ممن أحصوا من بني هاشم وسائر قريش والأنصار ومن سائر الناس. وقيل حتى أن الأقدام ساخت في الدم.

ودعا مسلم بن عقبة ـ المسرف في القتل والدماء ـ الناس للبيعة على أنهم خول ليزيد بن معاوية يحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم ما شاء[2].

---

(١) السير ج٤ ص٣٩٠.

(٢) الطبري ج٧ ص١٣.

أو أن كل من استبقاه من الصحابة والتابعين على أنه عبد قن ليزيد، إلا الإمام علي زين العابدين[(١)] وقد أورد ابن أبي الحديد ما ينافي الحقيقة، ويبدو أنها من جملة ما حواه وجمعه بدون تحقق وتدبر، فكانت بقية روايته للحادث نقلاً عنه كتبة السلطان ومؤرخي الدولة الذين لا تهمّهم الحقائق، ولا يهتمون بالنظر إلى الحادثة في إطار الواقع.

وأقرب الروايات وأصدقها تروي أن الإمام زين العابدين قد لاذ بقبر النبي ﷺ وهو يدعو. فأتي به إلى مسرف ـ وهو مغتاظ عليه ـ فتبرأ منه ومن آبائه، فلما رآه وقد أشرف عليه ارتعد، وقام له، وأقعده إلى جانبه وقال له: «سلني حوائجك». فلم يسأله في أحد ممن قدّم إلى السيف إلا شفعه فيه، ثم انصرف عنه. فقيل لعلي: رأيناك تحرك شفيتك، فما الذي قلت؟ قال: «قلت: اللهم ربَّ السمٰوات السبع وما أظللن، والأرضين السبع وما أقللن، ربَّ العرش العظيم، ربَّ محمد وآله الطاهرين، أعوذ بك من شرّه، وأدرأ بك في نحره، أسألك أن تواتيني خيره، وتكفيني شره». وقيل لمسلم: رأيناك تسبّ هذا الغلام وسلفه، فلما أتي به إليك رفعت منزلته؟ فقال: ما كان ذلك لرأي مني، لقد مليء قلبي منه رعباً[(٢)].

وقد حرسته عين الله ورعته، وجعلت لهيبة الإمامة في شخصه سلطة أقوى من سلطة الحكام. فهذا هشام بن إسماعيل المخزومي والي المدينة في عهد عبد الملك كان يؤذي الإمام زين العابدين ويشتم علياً على المنبر وينال منه، فلما ولي الوليد بن عبد الملك عزله وأمر به أن يوقف للناس. قال هشام: والله ما أخاف إلا من علي بن الحسين إنه رجل صالح يُسمع قوله، فأوصى علي بن الحسن أصحابه ومواليه وخاصته أن لا يتعرّضوا لهشام، ثم مرّ علي في حاجته فما عرض له، فناداه هشام وهو واقف للناس: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾[(٣)].

وردّد هذه الآية أيضاً الزهري لمّا قارف ذنباً.

قال له الإمام زين العابدين: «يا زهري قنوطك من رحمة الله التي وسعت كل

---

(١) شرح نهج البلاغة ج١ ص٣٠٦.

(٢) مروج الذهب ج٣ ص٧٩ و٨٠.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٥ ص٢١٩. وتذكرة سبط ابن الجوزي ص ٣٣٨.

شيء أعظم من ذنبك؟. فقال الزهري: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ وكان يقول: علي بن الحسين أعظم الناس عَليَّ منه[1].

والزهري أحد تلاميذ الإمام زين العابدين، وبسبب ذلك أصبحت له مكانة في علم الحديث حتى قال ابن أبي شيبة: أصحّ الأسانيد (كلها) الزهري عن علي بن الحسين عن أبيه عن جدّه.

ولكن الأيام حملته إلى بلاط بني أمية، فأصبح من بطانة عبد الملك ومن عاصرهم من الملوك من بعده. وولاّه يزيد بن عبد الملك القضاء، وكتب عمر بن عبد العزيز يوصي بالأخذ عنه. ويبدو أنه غلّب مقتضيات الدنيا على واجبات الدين والعلم، فظهر منه بسبب علقته ببني أمية انحراف عن أهل البيت يتمثّل في المجاراة والسكوت عن الظلم. ويروى عنه أنه في بعض المواقف لم يذهب إلى مجاراة بني أمية في تأويلهم القرآن وتلاعبهم به كما في حادثة دخول سليمان بن يسار على هشام فقال له: يا سليمان من الذي تولى كِبْرَه منهم؟ يعني قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فقال ابن سلول: قال كذبت، بل هو علي، فدخل ابن شهاب فقال: يا ابن شهاب، من الذي تولى كِبْرَه؟ قال ابن أبيّ. فقال له: كذبت بل هو علي. قال: أنا أكذب. . . ؟الخ[2].

ولم يتأثر عن طريق الرواية للمضاهاة وللتمويه على الحقيقة التي هي من أكبر حقائق الإسلام في كون الإمام علي أول الناس إسلاماً، فكان ابن شهاب وجماعة من المحدثين والعلماء يقولون: أول من أسلم من الرجال علي[3].

والغرض أن الإمام زين العابدين تعقّب الزهري بالنصح والإرشاد، فقد كتب إليه رسالة يعظه فيها ويحذّره الحكام الذين استمالوه وقرّبوه لأغراضهم. وقد عكست الرسالة عمل الإمام زين العابدين على تجريد الحكّام من المظاهر الدينية. واصطناع من عرف بالعلم والرواية للتستر على باطلهم وتمويه أفعالهم.

ومما جاء في رسالة الإمام زين العابدين إلى الزهري:

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٥ص٢١٤.

(٢) انظر تاريخ الإسلام للذهبي ج٥ ص١٤٥ و١٤٩.

(٣) انظر الاستيعاب لابن عبد البر بهامش الإصابة ج٣ ص٢٩.

«كفانا الله وإياك من الفتن، ورحمك من النار، فقد أصبحت بحالٍ ينبغي لمن عرفك أن يرحمك، فقد أثقلتك نعم الله بما أصحّ من بدنك وأطال من عمرك، وقامت عليك حجج الله بما حمّلك من كتابه، وفقّهك فيه من دينه، وعرّفك فيه من سنّة نبيه، فانظر أي رجل تكون غداً إذا وقفت بين يدي الله، فسألك عن نعمه عليك كيف رعيتها. . . ولا تحسبنّ الله قابلاً منك بالتعذير، ولا راضياً منك بالتقصير. هيهات هيهات. . ليس كذلك أخذ على العلماء في كتابه إذ قال: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾.

واعلم أن أدنى ما كتمت وأخفّ ما احتملت أن آنست وحشة الظالم، وسهّلت له طريق الغيّ بدنوك منه حين دنوت، وإجابتك له حين دُعيت. فما أخوفني بإثمك غداً مع الخونة. وأن تسأل عما أخذت بإعانتك على ظلم الظلمة أنك أخذت ما ليس لك ممن أعطاك. ودنوت ممن لم يردّ على أحد حقاً ولم تردّ باطلاً حين أدناك، وأحببت من حادّ الله. أوْ ليس بدعائه إياك حين دعاك جعلوك قطباً أداروا بك رحى مظالمهم، وجسراً يعبرون عليك إلى بلاياهم، وسلّما إلى ضلالهم، داعياً إلى غيّهم سالكاً سبيلهم، يدخلون بك الشك على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهّال إليهم، فما أقل ما أعطوك قدر ما أخذوا منك، وما أيسر ما عمروا لك فكيف ما خربوا عليك؟ فانظر لنفسك فإنه لا ينظر إليها غيرك، وحاسبها حساب رجل مسؤول، وانظر كيف شكرك لمن غذّاك في نعمه صغيراً أو كبيراً. فما أخوفني عليك أن تكون كما قال الله تعالى في كتابه: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾[1]».

ولا يفوتنا أن ننوّه برسالة الحقوق التي اشتملت على تصنيف دقيق وتبويب جامع لما يهمّ المرء من أمور دينه ودنياه ومجتمعه وعائلته، وهي تتولى بيان علم الإمام زين العابدين، ونظرته إلى ما عهد إليه في ولاية الإمامة والخلافة الكبرى. كما تتولى (الصحيفة السجادية) بيان طرق الانقطاع إلى الله والاعتماد على الخالق، واللجوء إلى قوته، وإذا كانت الصحيفة (زبور آل محمد) فرسالة الحقوق (منهاج آل محمد) وهي من أكثر مآثر آل محمد حاجة إلى البيان والبحث.

وقد حفظ لنا التاريخ أقواله عليه السلام التي يجد الناس على مختلف مشاربهم فيها صورة الإمام الهادي والخليفة الداعي الذي ينظر إلى الوجود بمنظار العقيدة، ويصف الدنيا كما هي حقيقتها إذا ما تمكن الهدى من النفس وأسبغ عليها الإيمان أبراده.

---

(١) تحف العقول لابن شعبة.

قال لجابر الجعفي: «يا جابر إني لمحزون، وإني لمشتغل القلب» قلت: وما حزنك وما شغل قلبك؟ قال: «يا جابر، إنه من دخل قلبه صافي خالص دين الله، شغله عما سواه. يا جابر ما الدنيا، ما عسى أن تكون؟ هل هو إلا مركب ركبته، أو ثوب لبسته، أو امرأة أصبتها. يا جابر، إن المؤمنين لم يطمئنوا إلى الدنيا لبقاء فيها، ولم يأمنوا قدوم الآخرة عليهم، ولم يصمّهم عن ذكر الله ما سمعوا بآذانهم من الفتنة، ولم يعمهم عن نور الله ما رأوا بأعينهم من الزينة، ففازوا بثواب الأبرار. إن أهل التقوى أيسر أهل الدنيا مؤونة، وأكثرهم لك معونة، إن نسيت ذكّروك، وإن ذكرت أعانوك. قوّالين بحقّ الله، قوّامين بأمر الله. فانزل الدنيا كمنزل نزلت به وارتحلت عنه، أو كمال أصبته في منامك، فاستيقظت وليس معك منه شيء، واحفظ الله في ما استرعاك من دينه وحكمته»[1].

ويتتبع عَلَيْهِ السَّلَامُ أمراض المجتمع، ويعمل على إصلاح العلاقات، وإقامة مودة بين النفوس. سمع رجلاً يغتاب آخر فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إن لكل شيء إداماً، وإدامُ كلاب النار الغيبة». وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «نظر المؤمن في وجه أخيه المؤمن للمودة والمحبة عبادة». وقال أيضاً: «من كمال العقل كفُّ الأذى، فإن فيه راحة للبدن آجلاً وعاجلاً».

ويحذّر عَلَيْهِ السَّلَامُ من العداوة: فيقول: «لا تعادِيَنَّ أحداً وإن ظننت أنه لا يضرّك».

إن الإمام زين العابدين باشر مرحلة الدعوة بعد مرحلة الثورة، وهو على هدى من رسالته وبيّنة من أمره. ومن يتوهم أن الأمر عدول عن الثورة وترك للجهاد، فليس له علم بأسرار الإمامة ومكاشفات الولاية، كالذي كان من عبّاد البصري عندما لقي الإمام زين العابدين في طريق مكة فقال له:

يا علي بن الحسين، تركت الجهاد وصعوبته، وأقبلت على الحج ولينه، وإن الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ - إلى قوله - وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾؟

فقال الإمام زين العابدين: «إذا رأينا هؤلاء الذين هذه صفتهم فالجهاد معهم أفضل من الحج».

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي.

وخلاصة القول، فإن الإمام زين العابدين الذي كان لا تبرح ذاكرته مأساة الطفّ، ويديم البكاء حتى قال: «إن يعقوب عليه السلام بكى حتى ابيضت عيناه على يوسف، ولم يعلم أنه مات. وإني رأيت بضعة عشر من أهل بيتي يذبحون في غداة واحدة، فترون حزنهم يذهب من قلبي أبداً؟» يحمل أعباء الإمامة في ظروف أدّت بالحكام إلى أن يرتكبوا جريمتهم النكراء بحق أهل بيت النبي. ولمّا سئل: كيف أصبحت؟ قال عليه السلام: «أصبحنا في قومنا بمنزلة بني إسرائيل في آل فرعون، يذبّحون أبناءنا، ويلعنون سيدنا وشيخنا على المنابر، ويمنعونا حقّنا»(١).

ولقد كانت فترة إمامته فترة صعبة وحرجة لم يتغير من السياسة شيء، بل إن المجازر اتسعت وطالت الحرمين، فيشكو بثّه ويدعو ربه: «حتى عاد صفوتك وخلفائك مغلوبين مقهورين مبتزّين يرون حكمك مبدّلاً وكتابك منبوذاً وفرائضك محرّفة عن جهات أشراعك، وسنن نبيك متروكة. اللهم إلعن أعداءهم من الأولين والآخرين، ومن رضي بفعالهم وأشياعهم وأتباعهم» وفي وسط ذلك كان عليه أن يمضي في رسالته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويحدّث الناس بحديث جده. فكانت فيما يهمّهم من أمور دينهم وأحكام شريعته، وتبصيرهم بالمصلحة وما يعود عليهم بالنفع والبقاء.

وإذا كانت هذه الأوضاع التي يعيشها قد حالت دون أن يتّخذ حلقة، إذ كيف يتسنّى له العمل كالآخرين وهو مثقلٌ بهذه الأعباء والأحزان والهموم، فإن مآثره في الفكر والعمل كانت قدوة الصالحين، وأسوة الزهّاد المتعبّدين، ومنهجه في الحياة مثل للأئمة الطاهرين في أن يكون الدين غاية الدعوة والعدل عمادها، فكانت وصيته إلى ولده، ووصيّه الإمام الباقر عليه السلام: «يا بني أوصيك بما أوصاني به أبي، فقد قال لي: **يا بني إياك وظلم من لا يجد عليك ناصراً إلا الله**».

ومن وصاياه لخليفته الإمام الباقر ما يزن به أصناف الناس، ويرسم صور تصرّفاتهم بميزان العاقل الحكيم وبريشة الخبير المفن. قال الإمام الباقر «أوصاني أبي قال:

لا تصحبنّ خمسة، ولا تحادثهم ولا ترافقهم في طريق. قال: قلت: جُعلت فداءك يا أبت من هؤلاء الخمسة؟

---

(١) تذكرة سبط ابن الجوزي.

قال: لا تصحبنَّ فاسقاً، فإنه يبيعك بأكلة فما دونها.

قال: قلت: يا أبة، وما دونها؟

قال: يطمع فيها ثم لا ينالها.

قال: قلت: يا أبة، ومن الثاني؟

قال: لا تصحبنَّ البخيل، فإنه يقطع بك في ماله أحوج ما كنتَ إليه.

قال: قلت: يا أبة: ومن الثالث؟

قال: لا تصحبنَّ كذاباً، فإنه بمنزلة السراب يبعد منك القريب، ويقرّب منك البعيد.

قال: قلت: يا أبة ومن الرابع؟

قال: لا تصحبنَّ الأحمق، فإنه يريد أن ينفعك فيضرّك.

قال: قلت: يا أبة ومن الخامس؟

قال: لا تصحبنَّ قاطع رحم، فإني وجدته ملعوناً في كتاب الله في ثلاث مواضع»[1].

ويروى أن نقش خاتمه عليه السلام كان «علمت فأعمل» وكفى بذلك دلالة على سبيل العصمة ومنهج الإمامة وبيان حاله من التقوى والإيمان.

استشهد عليه السلام مسموماً بأمر من الوليد بن عبد الملك سنة ٩٥هـ.

الإمام الباقر:

تولى الإمام الباقر الإمامة في عصر قوة الدولة الأموية وامتداد سلطانها وشدّة نفوذها، ولم يمنعه ذلك من دعوته الدينية وعمله في نشر تعاليم الإسلام والاضطلاع بمهام الإمامة[2]. بل اتجه إلى العلوم الدينية والحثّ على التمسّك بالدين، وجعل لدعوته أسلوباً يظهر الحقائق التي حاول الأمويون إخفاءها. ولقد ازدحم العلماء على أبواب مدرسته وانتشروا في الآفاق يحملون عنه أصدق الحديث.

---

(١) صفة الصفوة ج٢ ص٥٦ و٥٧.

(٢) عقدنا في الجزء الثاني فصلاً عن حياة الإمام الباقر (الإمام الصادق في ظل أبيه الباقر) ضمّ نبذاً من سيرته، وإشارات إلى مدرسته وتلاميذه، ونتناول هنا بعض الأمور التي لم نتعرض لها، متحاشين التكرار والإعادة إلا للضرورة.

وكان عصره يشهد بداية نشاط الآراء والأقوال التي تعددت مصادرها وتباينت أغراضها، وأهل البيت في صميم هذا النشاط موضع اهتمام القائمين به والساعين إليه، لأنهم يريدون أن يكون للدين في آرائهم ممسك ولأقوالهم مرجع، أو لأنهم من أهل الفرق والبدع الذين يرمون إلى التشكيك والطعن، فقصده العلماء للسؤال وكشف الحقائق كعمرو بن عبيد، والحسن البصري ونافع مولى ابن عمر[1] وغيرهم ممن يطول ذكرهم. ولكن نورد هنا ما كان من عمرو بن عبيد ـ شيخ المعتزلة ـ عندما وفد على الإمام الباقر عليه السلام ليسأله لا لغرض طلب العلم، وإنما بوهم أن يفاجيء الإمام الباقر بما يعجز عن الإجابة عنه، فقال له عمرو:

جُعِلت فداك ما معنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا﴾ ما هذا الرتق؟

قال الإمام الباقر: «كانت السماء رتقاً لا تنزل القطر، وكانت الأرض رتقاً لا تخرج النبات، ففتق الله السماء بالقطر، وفتق الأرض بالنبات» فانقطع عمرو، ومضى ثم عاد إليه فقال:

خبرني عن قوله تعالى: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ ما غضب الله؟ فقال له أبو جعفر عليه السلام: «غضب الله تعالى عقابه. يا عمرو، ومن ظن أن الله يغيره شيء فقد هلك».

ودخل عليه أعرابي، وقيل رجل من الخوارج ـ ولا فرق فهم من أشدّ الأعراب بعداً عن الدين ـ وقال له: هل رأيت الله حين عبدته؟ فقال: «لَمْ أكن لأعبد من لم أره». قال: فكيف رأيته؟ قال: «لم تره الأبصار بمشاهدة العيان، ورأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يُدرَكُ بالحواسّ، ولا يُشبَّه بالناس، معروف بالآيات، منعوت بالعلامات، لا يجوز في القضيات. ذلك الله الذي لا إله إلا هو» فقال الأعرابي: الله أعلم حيث يجعل رسالته[2].

ومما يحسب الآن من أعمال مجيدة في مجال الملك وتعريف مظاهر السلطان وسك العملة، فهو في حقيقته يعود لإمامنا الباقر عليه السلام. فعبد الملك بن مروان تعاطى العلم، وانخرط في سلك الفقه والرواية، حتى جاءته فرصة التحكّم والتسلّط، فتخلّى عن الحديث وما يقتضيه تعاطي العلم من سمات دينية، وتحوّل إلى الدم

(١) انظر احتجاج الطبرسي. والبحار ج٤. والكافي في احتجاجات الصادق.
(٢) زهر الآداب ج١ ص٧٧.

والظلم، وهو يستشعر منزلة أهل البيت ومكانتهم، فكان يلجأ إليهم في أكثر الأمور التي تهمّه، ويبدو أن عداوته تدفعه إلى إخفاء ما يرجوه منهم، لأن التظاهر باللجوء إلى أهل البيت يسيىء إليه كثيراً. لمّا كتب ملك الروم لعبد الملك بن مروان يتهدّده أن يذكر النبي ﷺ في الدنانير بما يكرهون، فعظم ذلك على عبد الملك، واستشار الناس فلم يجد عند أحد منهم رأياً[1] فقال له روح بن زنباع: إنك لتعلم المخرج من هذا الأمر. ولكنك تتعمد تركه. فقال: ويحك من؟ فقال: عليك بالباقر من أهل بيت النبي ﷺ. قال: صدقت، ولكنه ارتجّ الرأي فيه.

فكتب إلى عامله بالمدينة: أن أشخص إلي محمد بن علي بن الحسين مكرّماً، ومتّعه بمائة ألف درهم لجهازه، وبثلاثمائة ألف لنفقته، وأرح عليه في جهازه وجهاز من يخرج معه من أصحابه. وحبس عبد الملك رسول ملك الروم إلى موافاة الإمام الباقر، فلما وافاه، أخبره الخبر. فقال له الإمام الباقر: «لا يعظم عليك، فإنه ليس بشيء من جهتين:

إحداهما: إن الله عز وجل لم يكن ليطلق ما تهدّد به صاحب الروم في رسول الله ﷺ.

والثاني: وجود الحيلة فيه».

قال: وما هي؟

قال: «تدعو بصاغة، فيضربون بين يديك سككاً للدراهم والدنانير، وتجعل النقش عليها سورة التوحيد»[2].

ويتلبّس عبد الملك بما يصدر عن الإمامة، ويتطفّل على منهجها، وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً، ويستخدم عماله ـ عمال السوء والبغي ـ للاتصال بمقام أهل البيت وتلقّي ما يصدر عنهم للتظاهر به أو استعماله في معالجة ما هم فيه. وقد مرّ بنا قبل قليل كيف فعل عبد الملك لمّا كتب ملك الروم يتوعّده، فضاق عليه الجواب. وكتب إلى الحجاج ـ وهو إذ ذاك على الحجاز ـ أن أبعث إلى علي بن الحسين، فتوعّده وتهدّده، وأغلظ له. ثم أنظر ماذا يجيبك، فاكتب به إليّ. ففعل الحجاج ذلك، فقال

---

(١) شذور العقود للمقريزي ص٧.

(٢) حياة الحيوان للدميري ج٢ ص٥٥. والمحاسن والمساوىء للبيهقي. والعقد المنير ص١٨. وهامش شذور العقود ص٧.

له علي بن الحسين عليه السلام: «إن لله في كل يوم ثلاثمائة وستين لحظة، وأرجو أن يكفينيك في أول لحظة من لحظاته» وكتب بذلك إلى عبد الملك. فكتب به إلى صاحب الروم كتاباً فلمّا قرأه قال: ليس هذا من كلامه، هذا من كلام عترة نبي[1].

والقصد، أن رجال الحكم الأموي نظروا إليه نظرة تهيّب وتحفظ، ووقفوا أمام نشر تعاليمه وانتشار ذكره وعارضوها، لأن ذلك يهدّد ملكهم، فسلكوا كل سبيل للإساءة، وقد كان هشام بن عبد الملك من أكثرهم بغضاً وأشدهم عداوة لآل البيت النبوي الكريم.

حج هشام بن عبد الملك، فدخل المسجد الحرام متكئاً على يد سالم مولاه والإمام الباقر جالس في المسجد الحرام، فقال له سالم: يا أمير المؤمنين هذا محمد بن علي بن الحسين عليهما السلام. قال هشام: المفتون به أهل العراق؟ قال: نعم. قال: إذهب إليه فقل له: يقول لك أمير المؤمنين ما الذي يأكل الناس ويشربون إلى أن يفصل بينهم يوم القيامة؟ فقال له الإمام أبو جعفر: «يحشر الناس على مثل قرص النقي، فيها أنهار متفجرة يأكلون ويشربون حتى يفرغ من الحساب» فرأى هشام أنه قد ظفر به، وإن في ذلك فرصة لإشاعة حاله، لينفر عنه أهل العراق. فقال: الله أكبر، إذهب فقل له: يقول لك ما أشغلهم عن الأكل والشرب يومئذ؟ فقال له أبو جعفر عليه السلام: «هم في النار أشغل، ولم يشغلوا عن أن قالوا ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾». فسكت هشام[2].

وليس أقبح من بذاءته وهو يتنمّر على الإمام الشهيد زيد بن علي، وينال من أخيه الإمام الباقر ويقول له: ما يصنع أخوك البقرة؟!.

فيجيبه الإمام زيد: سمّاه رسول الله الباقر، وتسمّيه البقرة؟ لشد ما اختلفتما، لتخالفنّه في الآخرة كما خالفته في الدنيا، فيرد الجنة وترد النار[3].

ولما انصرف هشام من حجّه أنفذ إلى عامل المدينة بإشخاص الإمام الباقر وولده الصادق، وإبقاهم ثلاثة أيام، وأذن لهم في اليوم الرابع. وبقي على هذه السياسة التي تستهدف الإساءة والقضاء على الإمام الباقر.

---

(١) تاريخ ابن واضح ج٣ ص٤٧.

(٢) الإرشاد والإتحاف. وروضة الواعظين.

(٣) انظر طرق الحديث النبوي إلى جابر بن عبد الله الأنصاري: «يوشك أن تبقى، حتى تلقى ولداً لي من الحسين يقال له: محمد. يبقر العلم بقراً، فإذا لقيته فأقرأه مني السلام» في الجزء الثاني من الكتاب.

ولما بدرت من الحكّام الأمويين بادرة على يد عمر بن عبد العزيز، تغيّرت العلاقة بين السلطة وبين الأئمة. فنرى عمر بن عبد العزيز يطلب من الإمام الباقر أن يوصيه بما ينفعه في آخرته ودنياه، فقال له عليه السلام: «أوصيك أن تتخذ صغير المسلمين ولداً، وأوسطهم أخاً، وأكبرهم أباً. فأرحم ولدك، وصِل أخاك، وبرّ والدك. وإذا صنعت معروفاً فربّه» (أي أدمه).

ودخل عمر بن عبد العزيز المدينة واجتمع بالإمام الباقر عليه السلام فأوصاه الإمام بقوله:

«إنما الدنيا سوق من الأسواق، يبتاع فيها الناس ما ينفعهم وما يضرّهم، وكم قوم ابتاعوا ما ضرّهم فلم يصبحوا حتى أتاهم الموت فخرجوا من الدنيا مَلُومين، ولما لم يأخذوا ما ينفعهم في الآخرة. فقسّم ما جمعوا لمن لم يحمدهم، وصاروا إلى من لم يعذرهم. فنحن والله حقيقون أن ننظر إلى تلك الأعمال التي نتخوف عليهم منها، واتق في نفسك اثنتين: إلى ما تحب أن يكون معك إذا قدمت على ربك فقدّمه بين يديك. وانظر إلى ما تكره أن يكون معك إذ قدِمْتَ على ربك فارمه وراءك. ولا ترغبنّ في سلعة بارت على من كان قبلك فترجو أن يجوز عنك. وافتح الأبواب وسهّل الحجاب وأنصِف المظلوم وردّ المظالم. ثلاثة من كن فيه استكمل الإيمان بالله: من إذا رضي لم يدخله رضاه في باطل، ومن إذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق، ومن إذا قدر لم يتناول ما ليس له».

ولقد كانت فترة عمر بن عبد العزيز يقظة وعي بما ألمَّ بالأمة من جور الأمويين وما لحق بالمسلمين بفعل ظلمهم، حاول فيها أن يضفي على سلطان بني أبيه شيئاً من أبراد التقى وأثواب الدين، ولكن هيهات له ذلك، لأن أساس الملك قائم على الظلم، وتاريخ بني أمية بعمومه تاريخ شذوذ وانحراف، ولكن الأيام حفظت لعمر بن عبد العزيز ما رفع من سنّتهم السيئة، وما بدر منه من عدل.

أما الإمام الباقر عليه السلام فقد أفاض على ابن عبد العزيز من إشراق الإمامة ومعين الخلافة الكبرى، فأعطاه تلك الصورة الرائعة عن الحكم وسياسة الرعية، والإمام أدرى بأن عمرلا يحقق ما يوصيه به لأسباب كثيرة.

والإمام الباقر في إمامته ومنزلته بين شعيته، يعمل بمنهج الدعوة في التفريق بين

السلطان الزمني والسلطة الروحية في الإمامة. روى الصدوق بسنده عن جابر عن الإمام الباقر عن أبيه عليه السلام أنه قال: «إذا كان أول يوم من شهر شوال نادى مناد: أيها المؤمنين أغدوا إلى جوائزكم» ثم قال أبو جعفر عليه السلام: «يا جابر، جوائز الله عز وجل ليست كجوائز هؤلاء الملوك». وروى أيضاً بسنده عن عبد الله بن سنان عن الإمام الباقر أنه قال: «يا عبد الله ما من عيد للمسلمين أضحى ولا فطر، إلا وهو يجدّد لآل محمد فيه حزن» قال: قلت: وَلِمَ؟ قال: «لأنهم يرون حقهم في يد غيرهم»(١).

ولقد انضم إلى الإمام الباقر من التابعين وغيرهم رجال من الثقات والعلماء والفقهاء ممن احتج بهم رجال الصحاح الستة، وأجمعوا على تقدمهم وشهرتهم(٢) وأصبح لأصحاب الإمام الباقر منزلة وأثر في الحياة العلمية يومئذ، وكان الإمام يوجّههم لإفتاء الناس، فكان يقول لأبان بن تغلب: «إني أحب أن أرى في شيعتي مثلك» بعد أن أمره أن يجلس في مسجد المدينة ويفتي الناس.

وازدهرت مدرسة الإمام الباقر بفكره عليه السلام وتوجيهه، إذ جذب علمه الرجال من مختلف الأقطار الإسلامية، وتوجه إلى مدرسته الرواة. ينقل سبط ابن الجوزي عن ابن سعد: كان (الإمام الباقر) عالماً عابداً ثقة، روى عنه الأئمة أبو حنيفة وغيره. قال أبو يوسف: قلت لأبي حنيفة: لقيت محمد بن علي الباقر؟ فقال: نعم، وسألته يوماً فما رأيت جواباً أفخم منه. وقال عطاء: ما رأيت العلماء عند أحد أصغر علماً منهم عند أبي جعفر، لقد رأيت الحكم عنده كأنه (عصفور) مغلوب، ويعني بالحكم: الحكم به عيينة، وكان عالماً نبيلاً جليلاً في زمانه(٣). وفي رواية: رأيت الحكم عنده كأنه متعلم(٤). ويقول القندوزي: قال بعضهم: ما رأيت العلماء كانوا أقل علماً إلا عند الإمام الباقر.

ويبين الإمام عليه السلام كيف تكون النسبة بين مقومات الشخصية العلمية فيقول: «إني لأكره أن يكون مقدار لسان الرجل فاضلاً على مقدار علمه، كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلاً على مقدار عقله»(٥).

---

(١) من لا يحضره الفقيه ج٢ ص٦٢.
(٢) انظر تلامذة الإمام الباقر ورواة حديثه في الجزء الثاني.
(٣) تذكرة الخواص ص٣٤٧.
(٤) البداية والنهاية ج٩ ص٣١١.
(٥) شرح ابن أبي الحديد ج٢ ص١٩١.

وخلاصة القول: إن علم الإمام الباقر وعظيم منزلته الدينية جعلا منه قائداً روحياً اتجهت إليه الأنظار ومالت إليه القلوب، فاحتل منها ذلك المكان السامي والمنزلة الرفيعة. وقد احتفظ لنا التاريخ بكثير من تراثه الفكري، فقد كان يفيض على سامعيه من الخواطر والحِكَم متوجهاً بالنصح والإرشاد لمجتمعه.

وقد كان عليه السلام يؤدب أصحابه بآداب الإسلام ويحثهم على الطاعة ومكارم الأخلاق. فمن وصيته لجابر الجعفي: «واعلم أنك لا تكون لنا ولياً حتى لو اجتمع عليك أهل مصرك وقالوا: إنك رجل سوء. لم يحزنك ذلك. ولو قالوا أنك رجل صالح. لم يسرّك ذلك. ولكن أعرض نفسك على كتاب الله، فإن كنت سالكاً سبيله زاهداً في تزهيده راغباً في ترغيبه خائفاً من تخويفه فاثبت وأبشر. فإنه لا يضرك ما قيل فيك» وقد مرّ ذكرها في الجزء الثاني.

وينبه عليه السلام اتباعه إلى جوهر التشيع ومعدن الولاء لأهل البيت كما في رواية جابر عن أبي عبيدة الحذّاء قال عليه السلام: «تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً. لعلك ترى أن القوم لم يكونوا ينامون؟» قال: قلت: الله ورسوله وابن رسوله أعلم. قال: فقال: «لا بد لهذا البدن من أن تريحه حتى يخرج نفسه، فإذا خرج النفس استراح البدن ورجع الروح فيه قوة على العمل، فإنما ذكرهم تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً أنزلت في أمير المؤمنين عليه السلام وأتباعه من شيعتنا، ينامون في أول الليل، فإذا ذهب ثلثا الليل أو ما شاء الله، فزعوا إلى ربهم راغبين مرهبين طامعين فيما عنده، فذكرهم الله في كتابه، فأخبرك الله بما أعطاهم أن أسكنهم في جواره، وأدخلهم في جنته، وآمن خوفهم، وأذهب رعبهم» قال قلت: جعلت فداك، إن أنا قمت في آخر الليل أي شيء أقول إذا قمت؟ قال: «قل الحمد لله رب العالمين، والحمد لله الذي يحيي الموتى ويبعث من في القبور. فإنك إذا قلتها ذهب عنك رجز الشيطان ووسواسه إن شاء الله».

ويتحسّس ظروف الإرهاب الأموي وأصناف البلاء وألوان الرعب التي خيّمت على قلوب محبي أهل البيت بعد سياسة معاوية ويزيد وبقية الأمويين فيقول: «إن الله يلقي في قلوب شيعتنا الرعب. فإذا قام قائمنا وظهر مهديّنا كان الرجل منهم أجرأ من ليث وأمضى من سيف». وذلك ليجعل أمر الحكام الظلمة غير دائم، وأن الإمامة نظامها سماوي مبشّر به من النبي الأعظم ويقول: الإيمان ثابت في القلب، واليقين

خطرات، فيمرّ اليقين بالقلب فيصير كأنه زبر الحديد ويخرج منه، فيصير كأنه خرقة بالية، وما دخل قلب عبد شيء من الكِبْر إلا نقص من عقله بقدره أو أكثر منه»[1].

وقال عليه السلام: «إصبر للنوائب، ولا تتعرض للحقوق، ولا تعط أحداً من نفسك ما ضرّه عليك أكثر من نفعه»[2].

ويتصدّى لمهماته وقيامه بالدعوة لأن الله عز وجل قال: ﴿فَسْئَلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فيقول عليه السلام: «نحن أهل الذكر».

وقال عليه السلام: «شعيتنا من أطاع الله عز وجل وأتقاه». لكنه عليه السلام يبين شرط هذه الطاعة، فيقول صلوات الله عليه: «أما لو أن رجلاً قام ليله وصام نهاره وتصدق بجميع ماله وحج جميع دهره ولم يعرف ولاية ولي الله فيواليه وتكون جميع أعماله بدلالته ما كان له على الله حق في ثوابه ولا كان من أهل الإيمان» وقال عليه السلام: «إياكم الخصومة فإنها تفسد القلب، وتورث النفاق».

لقد كان الإمام الباقر يبني النفوس بالإيمان ويربيها على تعاليم الإسلام، ويوجه الأنظار إلى حق الإمامة وسلطة الخلافة الكبرى الدينية التي تقوم على القاعدة الدينية والأصول الشرعية.

روي عنه عليه السلام أن قوماً أقبلوا من مصر، فمات رجل فأوصى إلى رجل بألف درهم للكعبة، فلما قدم مكة سأل عن ذلك، فدلوه على بني شيبة، فأتاهم، فأخبرهم الخبر، فقالوا: قد برئت ذمتك ادفعها إلينا. فقام الرجل فسأل الناس، فدلوه على الإمام الباقر. قال الإمام عليه السلام: «فأتاني فسألني، فقلت له: إن الكعبة غنية عن هذا، انظر إلى من أمّ هذا البيت وقطع، أو ذهبت نفقته، أو ضلّت راحلته، أو عجز أن يرجع إلى أهله فادفعها إلى هؤلاء الذين سمّيتُ لك» قال: فأتى الرجل بني شيبة، فأخبرهم بقول الإمام عليه السلام فقالوا: هذا ضالٌ مبتدع، ليس يؤخذ عنه، ولا علم له، ونحن نسألك بحق هذا البيت وبحق كذا وكذا لما أبلغته عنّا هذا الكلام. قال: فأتيت أبا جعفر محمد عليه السلام فقلت له: لقيت بني شيبة فأخبرتهم، فزعموا أنك كذا وكذا، وأنك لا علم لك. ثم سألوني بالله العظيم لما أبلغك ما قالوا. قال: «وأنا أسألك بما سألوك لما أتيتهم فقلت لهم: إن من علمي لو وليت شيئاً من أمور المسلمين لقطعت

---

(١) البداية والنهاية.

(٢) تاريخ ابن واضح.

أيديهم، ثم علقتها في أستار الكعبة، ثم أقمتهم على المصطبة، ثم أمرت منادياً ينادي: ألا إن هؤلاء سرّاق الله فاعرفوهم».

ثم تأتي مرحلة الدعوة في عهد الإمام الصادق بعد أن تولى الإمامة وتبوء مكان الزعامة بعد مرافقة للإمامة في أحداثها، وإعداد لدوره وعهده في ظلالها. وقد مرّ بنا في أجزاء الكتاب السابقة فصول من حياته عليه السلام، وعلمنا اتجاهه إلى حفظ شريعة الإسلام ودعوته إلى التمسّك بأحكام الدين. وقد تلقى الإمام الصادق انتقال الإمامة إليه وهو يمتلك تجربة غنية ودراية تامة بطبيعة الأحداث وتصاريف الأيام، فظهرت حكمته وبدت حنكته، وقد كانت أيام حياته من أشدّ الأيام صعوبة وهو يتحمل أعباء الدعوة ويقوم بواجبات الإمامة، كان فيها التحوّل السياسي من جهة إلى جهة، وكان فيها النمو الفكري واتساع الخلاف، وعلو موجات الآراء المقالات، وكان فيها إيغال الحكام الجدد بدماء آل البيت واضطراب أنحاء البلاد الإسلامية. إلى غيرها من الظروف، وما انطوت عليه من محن ومآزق ومعتركات.

روى الشيخ المفيد بسنده عن أبي الصباح الكناني قال: نظر أبو جعفر عليه السلام إلى ابنه أبي عبد الله عليه السلام فقال: «ترى هذا، هذا من الذين قال الله عز وجل: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾».

والإمام الصادق هو السادس من الذين يخلفون النبي صلى الله عليه وآله على أمور شريعته وحفظ رسالته، والذين أخبر النبي صلى الله عليه وآله عنهم بطرق أهل السنّة أنه صلى الله عليه وآله قال: «في كل خلف من أمتي عدول من أهل بيتي، ينفون عن هذا الدين تحريف الضالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين. ألا وإن أئمتكم وفدكم إلى الله عز وجل، فانظروا من توفدون»[1]. وإلى جانب النص على إمامته والوصية، فقد كان الإمام الصادق أعلم أهل زمانه وأجلّهم قدراً وأعلاهم منزلة، فاختص بالقيام بالنظر في مصالح المسلمين الدينية، وقد رأينا أنه عاش في صميم الأحداث والوقائع التي مرّت بأهل البيت عليهم السلام ووعى وجوهها وطابعها الذي كانت عليه. فأحاط بالأخبار وتزوّد بالآثار، فكان كل قول منه عن علم مسبق، وكل أمر سار عليه يعلم ما يقضي إليه كأن العواقب ترتسم في مرآة أمامه.

---

(١) الصواعق المحرقة لابن حجر ص٩٠.

فكان أن اتجه إلى محاربة الظالمين، وسار على هدي الإمامة ونهج آبائه في الدعوة إلى أحكام القرآن وتعاليم الإسلام في المودة والعدل ومكارم الأخلاق.

فأمر الإمام الصادق بعدم التعاون مع حكام الظلم والانحراف. فقال: «العامل بالظلم والمعين له والراضي به شركاء».

وسأله رجل من أصحابه عن البناء لهم وكراية النهر؟ فأجابه عليه السلام: «ما أحبّ أن أعقد لهم عقدة، أو وكَيت لهم وكاء ولا مَدّة بقلم، إن أعوان الظلمة يوم القيامة في سرادق من نار حتى يحكم الله بين العباد»[1].

وسئل عليه السلام عن رجلين من أصحابه يكون بينهما منازعة في دين أو ميراث، فتحاكما إلى السلطان أو إلى القضاء، أيحلّ ذلك؟ فقال عليه السلام: «من تحاكم إلى الطاغوت فَحَكَمَ له، فإنما يأخذ سحتاً وإن كان حقه ثابتاً، لأنه أخذ بحكم الطاغوت وقد أمر أن يكفر به». قيل: كيف يصنعان؟ قال عليه السلام: «انظروا إلى من كان منكم قد روى حديثنا، ونظر في حلالنا وحرامنا، وعرف أحكامنا، فارضوا به حكماً؛ فإنني قد جعلته عليكم حاكماً، فإذا حكم بحكمنا فلم يقبله منه، فإنما بحكم الله استخفّ، وعلينا ردّ، والرادّ علينا كالراد على الله»[2].

وسئل عليه السلام عن قاض بين قريتين يأخذ من السلطان على القضاء الرزق؟ فقال: «ذلك السحت»[3].

ويتكلم عليه السلام بسلطة الولاية والخلافة الدينية التي اختص بها، فيقول في حديثه لعمّار بن أبي الأحوص عن الإسلام وإنه وضع على سبعة أسهم، وقد مرّ ذكره عند الحديث عن سيرته عليه السلام في أول هذا الجزء فقال في آخره: «فلا تخرقوا بهم، أما علمت أن إمارة بني أمية كانت بالسيف والعسف والجور، وإن إمامتنا بالرفق والتآلف والوقار والتقية وحسن الخلطة والورع والاجتهاد، فرغّبوا الناس في دينكم وفيما أنتم فيه»[4].

---

(١) راجع الجزء الثاني، فصل: الإمام الصادق مدرسته وتعاليمه.

(٢) الوسائل صفات القاضي ج١٨ والاحتجاج للطبرسي ج٢.

(٣) الوسائل.

(٤) المواعظ العددية.

والإمام الصادق في دعوة الإمامة يعطي لنهج الدعوة مجالاً في التطبيق هيأته شهرة الإمام العلمية، وإقبال الناس عليه، وتأثر المجتمع به لينشأ مجتمع الإمامة بخصائصه. عن محمد بن علي الحلبي قال: استودعني رجل من موالي بني مروان ألف دينار، فغاب فلم أدر ما أصنع بالدنانير، فأتيت أبا عبد الله الصادق عليه السلام فذكرت ذلك له وقلت: أنت أحق بها. فقال: «لا، لأن أبي كان يقول: إنما نحن فيهم بمنزلة هدنة، نؤدي أمانتهم، ونردّ ضالّتهم، ونقيم الشهادة لهم وعليهم، فإذا تفرّقت الأهواء لم يسع أحد المقام»[1].

ويرد ذلك في مورد التأكيد على أداء الأمانات، فيظهر في سياقها خصائص مجتمع الإمامة وسمات الدعوة. ونحوها رواية الحسين الشيباني أنه قال للإمام الصادق: إن رجلاً من مواليك يستحلّ مال بني أمية ودماءهم، وأنه وقع له عنده وديعة؟ فقال عليه السلام: «أدّوا الأمانات إلى أهلها وإن كانوا مجوساً، فإن ذلك لا يكون حتى يقوم قائمنا فيحلّ ويحرّم». لأن ذلك من حقوق الأشخاص، ويندرج في باب الأمانة التي يجب الحرص عليها لضمان الأمن في المجتمع، أما الأعمال التي تتعلق بالعدل ولها مساس بمصلحة المجتمع، فتكون من الحقوق العامة، وأمرها إلى الإمام الصادق يحكم فيها بحكم الدين.

ويبين الإمام الصادق ولايته فيقول: «الناس كلهم يعيشون في فضل مظلمتنا، إلا أنّا أحللنا شيعتنا من ذلك»[2].

وعن عمر بن أذينة قال: رأيت أبا سيار مسمع بن عبد الملك بالمدينة، وقد كان حمل إلى أبي عبد الله عليه السلام مالاً في تلك السنة فردّه عليه، فقلت له: لم ردّ عليك أبو عبد الله عليه السلام المال الذي حملته إليه؟ فقال: إني قلت له حين حملت إليه المال: إني كنت وليت الغوص، فأصبت أربعمائة ألف درهم، وقد جئت بخمسها ثمانين ألف درهم، وكرهت أن أحبسها عنك، أو أعرض لها وهي حقك الذي جعله الله لك في أموالنا؟ فقال: «ومالنا من الأرض وما أخرج الله منها إلا الخمس؟ يا أبا سيّار، الأرض كلها لنا ما أخرج الله منها من شيء فهو لنا» قال قلت له: أنا أحمل

(١) تذكرة الفقهاء للعلامة الحلي ـ كتاب الأمانات.
(٢) من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق.

إليك المال كله. فقال لي: «يا أبا سيّار قد طيّبناه لك، وأحللناك منه، فضمّ إليك مالك، وكلُّ ما في أيدي شيعتنا من الأرض فهم فيه محلّلون، ويحلّ لهم ذلك إلى أن يقوم قائمنا» اهـ.

وتمضي الإمامة على عهد جعفر بن محمد الصادق في إقامة سلطانها الروحي ومجتمعها الديني، وينتصب الإمام في وسط عالم ينوء بالجور وأفعال الطغاة، يتصرف بما أوجبته الأحكام من حقوق للولاية الدينية والإمامة الشرعية، وفيما هو حق للإمام. عن عبد العزيز بن نافع قال:

طلبنا الإذن على أبي عبد الله عليه السلام وأرسلنا إليه، فأرسل إلينا: «أدخلو اثنين اثنين» فدخلت أنا ورجل معي، فقلت للرجل: أحب أن تستأذنه بالمسألة، فقال: نعم. فقال له: جعلت فداك: إن أبي كان ممن سباه بنو أمية، وقد علمت أن بني أمية لم يكن لهم أن يحرّموا ولا يحللوا، ولم يكن لهم مما في أيديهم قليل ولا كثير، وإنما ذلك لكم، فإذا ذكرت الذي كنت فيه دخلني من ذلك ما يكاد يفسد عليّ عقلي. ما أنا فيه؟ فقال له عليه السلام: «أنت في حلٍّ مما كان من ذلك، وكلّ من كان في مثل حالك من ورائي فهو في حلٍّ من ذلك» قال: فقمنا وخرجنا، فسبقنا معتّب[1] إلى النفر القعُود الذين ينتظرون إذن أبي عبد الله عليه السلام فقال لهم: قد ظفر عبد العزيز بن نافع بشيء ما ظفر بمثله أحد قط. فقيل له: وما ذاك؟ ففسّره لهم. فقام اثنان، فدخلا على أبي عبد الله عليه السلام فقال أحدهما: جعلت فداك، إن أبي كان من سبايا بني أمية، وقد علمت أن بني أمية لم يكن لهم من ذلك قليل ولا كثير، وأنا أحب أن تجعلني من ذلك في حِلٍّ؟ فقال: «وذلك إلينا؟» ما ذلك إلينا، مالنا أن نحلّ ولا أن نحرّم. فخرج الرجلان، وغضب أبو عبد الله عليه السلام فلم يدخل عليه أحد في تلك الليلة إلا بدأه أبو عبد الله عليه السلام فقال: «ألا تعجبون من فلان، يجيئني فيستحلّني من ما صنعت بنو أمية، كأنه يرى أن ذلك إلينا!». ولم ينتفع أحد في تلك الليلة بقليل ولا كثير إلا الأوّلين، فإنهما عنيا بحاجتهما. وذلك لأن الأوّلَين كانا قد سئلا فيما هو من حق الإمام وما يقع في باب ما أوجبه الله للقائمين بالأمر من أهل بيت النبوة.

ومن عموم الأخبار، يبدو لنا بوضوح أن الإمام الصادق وضع السلطة الروحية

---

(١) أحد الموالي القائمين بخدمة الإمام الصادق، روى عنه الأصحاب، وهو ثقة.

التي تقوم على الإيمان بالعقيدة في مواجهة كيان الملك والسلطان الزمني الذي يتلبّس بالدين، ويدّعي الولاية معتمداً على زبانية الجور ولعقة الصحون ممن يتزيّون بزي الفقه ولباس العلم، ولهذا كان الإمام الصادق ينبه على أولئك الذين يرتضون لأنفسهم أن يكونوا بالمحل الذي نبّه عليه جدّه الإمام السجاد في رسالته إلى الزهري وهو في ظل الأمويين.

يذكر هشام بن عباد أنه سمع الإمام الصادق يقول: «الفقهاء أمناء الرسل، فإذا رأيتم الفقهاء قد ركنوا إلى السلاطين فاتهموهم»[1]. وقد يحسب الذهبي نفسه قد أتى بشيء بقوله: مناقب جعفر كثيرة، وكان يصلح للخلافة لسؤدده وفضله وعلمه وشرفه. فذلك ما عليه النص، وما تواترت به الروايات، إلا أنها الخلافة الكبرى في الدين، وليست خلافة الملك والقوة، تلك الخلافة التي فيها دوام الرسالة وبقاء الدعوة، ولها هيئاتها ورجالها من أهل العلم والفقه الذين يعظم أمر انحرافهم على الأئمة، وركونهم إلى الطغاة، لأن سلطان الدين لسعادة البشرية ورعاية مصالح الأمة ودفع الضرر عنها، فحرص الأئمة عليهم السلام على إبعاد شؤون الدين من علم وفقه وحديث وسائر وجوه الكيان الروحي للإسلام عن السلطان القائم على القهر وانتهاك الحرمات.

إنه عليه السلام أدار إمامته على قواعد الإصلاح والإرشاد وإقامة مجتمع ديني مستقل بروحيته عن مبادىء السياسية وقيم الملك الدنيوي، لا يتصل بالسلطان الزمني إلا بقدر الضرورة أو تحت تأثيراتها. وأراد أن يكون القضاء بحكم الله بين شيعته ومريديه، وينأى عن دواوين الحكّام وعمّال الملوك الذين يندر فيهم وجود من يلتزم الحق ولا يغلّب مصلحته الشخصية على مصالح الناس. فراح يقول عليه السلام ـ كما مر بنا قبل قليل ـ: «من تحاكم إليهم في حق أو باطل، فإنما تحاكم إلى الجبت والطاغوت المنهي عنه، ومن أمر الله أن يُكْفَرَ به».

وجعل عليه السلام من المتخاصمين من كان قد روى حديث أهل البيت ونظر في حلالهم وحرامهم وعرف أحكامهم هو الحكم وقال: «فليرضيا به حكماً، فإني قد جعلته عليهم حاكماً» وأن الحكم ما حكم به أعدلهما وأفقههما، وأصدقهما في الحديث وأورعهما، فإن لم يتيسر للمتخاصمين، وهما على صفة الولاء للإمام والتعلّق

---

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام ج٦ ص٤٨.

بحبل ولايته، ولم يظهر لهما ممسك يقدم لهما الحكم، فيأمرهما الإمام بالتوقف عنده حتى يلقيا الإمام، فإن الوقوف عند الشبهات خير من الاقتحام في الهلكات.

ولم ترهب الإمام الصادق عليه السلام عداوات الحكام والأحن الحي تملأ نفوسهم، وقام بمسؤوليته في أداء الرسالة وتوجيه الأمة إلى ما فيه خيرها وسعادتها. فانقادت إليه النفوس، وآمنت بإمامته، فكان اتجاه الناس إلى حضرته لا يقارن به تهافت العامة على أبواب الحكام، بل تسمو العلاقة عن مثل هذا الانحدار، والأمر واضح بين الاتجاهين بفروقهما، فمع الإمام دين وتقوى، ومع الحكام دنيا وطمع. قال إسحاق بن إبراهيم: كنت عند أبي عبد اللّه الصادق عليه السلام إذ دخل عليه رجل من خراسان فقال: يا ابن رسول الله، أنا من مواليكم، وبيني وبينكم شقّة بعيدة، وقد قلّ ذات يدي، ولا أقدر أن أتوجه إلى أهلي، ألا أن تعينوني؟ فنظر أبو عبد اللّه وقال: «أما تسمعون ما يقول أخوكم؟ إنما المعروف ابتداء، فأما ما أعطيت بعدما سأل؛ إنما هو مكافأة لما بذل من ماء وجهه، أفيبيت ليلته متأرّقاً متململاً بين اليأس والرجاء، لا يدري أين يتوجه بحاجته فيعزم على القصد إليك، فأتاك وقلبه يَجِبُ، وفرائصه ترتعد، وقد نزل دمه في وجهه، وبعد هذا فلا يدري أينصرف من عندك بكآبة الرد، أم بسرور النجح، فإن أعطيته رأيت أنك قد وصلته، وقد قال رسول الله ﷺ: والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، وبعثني بالحق نبياً لما يتجشّم من مسألته إياك أعظم مما ناله من معروفك».

وعلى أي حال، فإن سلطان الإمامة أصبح له كيان روحي معروف يقصده الناس من كل الأقطار، وتؤمن من كل البلدان. يروي عبد الرحمن بن سيّابه: لما هلك أبي سيابة، جاء رجل من أخوانه إليّ فضرب الباب علي، فخرجت إليه، فعزّاني وقال: هل ترك أبوك شيئاً؟ فقلت له: لا. فدفع إليّ كيساً فيه ألف درهم وقال لي: أحسن حفظها وكُل فضلها. فدخلت على أمي وأنا فرح، فأخبرتها، فلما كان بالعشي أتيت صديقاً كان لأبي فاشترى لي بضايع سابري، وجلست في حانوت، فرزق الله فيها خيراً كثيراً. وحضر الحج، فوقع في قلبي، فجئت إلى أمي وقلت لها: قد وقع في قلبي أن أخرج إلى مكة. فقالت لي: فردّ دراهم فلان عليه فهاتها، وجئت بها إليه، فدفعتها إليه فكأني وهبتها له فقال: لعلك استقللتها فأزيدك؟ قلت: لا، ولكن قد وقع في قلبي الحج فأحببت أن يكون شيئك عندك. ثم خرجت وقضيت نسكي. ثم رجعت إلى المدينة فدخلت مع الناس على أبي عبد اللّه عليه السلام وكان يأذن إذناً عاماً، فجلست في

مآخير الناس وكنت حدثاً، فأخذ الناس يسألونه ويجيبهم، فلما خفّ الناس أشار إليّ، فدنوت إليه، فقال لي: «ألك حاجة؟» فقلت له: جعلت فداك، أنا عبد الرحمن بن سيّابة. فقال لي: «ما فعل أبوك؟» فقلت: هلك. قال: فتوجّع وترحّم، ثم قال لي: «أفترك شيئاً؟» قلت: لا. قال: «فمن أين حججت؟» قال: فابتدأت فحدثته بقصة الرجل، فما تركني أفرغ منها حتى قال لي: «فما فعلت في الألف؟» قلت: رددتها على صاحبها، فقال لي: «قد أحسنت». وقال لي: «إلا أوصيك؟». قلت: بلى جعلت فداك، قال «عليك بصدق الحديث وأداء الأمانة» الرواية...

قال أبو ربيع الشامي: دخلت على أبي عبد اللّه عليه السلام والبيت غاصّ، فيه الخراساني والشامي ومن أهل الآفاق، فلم أجد موضعاً أقعد فيه، فجلس أبو عبد اللّه متكئاً ثم قال: «يا شيعة آل محمد، إنه ليس منّا من لم يملك نفسه عند غضبه، ومن لم يحسن صحبة من صحبه، ومخالفة من خالفه، ومرافقة من رافقه. يا شيعة آل محمد، اتقوا الله ما استطعتم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم».

والقصد هنا من تقديم الروايتين بيان اتجاه الأنظار إلى الإمام الصادق ومدى اتساع دعوته وإقبال الناس عليه، وهو يتمتع بكيان روحي يفوق في تأثيره سلطان القوة ونفوذ الحكم، وهو عليه السلام يعيّن خصائص هذا الكيان المستقل والذي يشتمل على الوجود العلمي لمدرسته، وعلى النشاط الفكري لجماعته، ويبيّن استقلالها وتفرّدها عن الحكام بالمصدر والمضمون. قال أبو بصير: سمعت أبا عبد اللّه الصادق يقول: «اتقوا الله، وعليكم بالطاعة لأئمتكم، قولوا ما يقولون، واصمتوا عمّا صمتوا، فإنكم في سلطان من قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ فاتقوا الله، فإنكم في هدنة، صلّوا في عشائرهم، واشهدوا جنائزهم، وأدّوا الأمانة إليهم، وعليكم بحج البيت؛ فإن في إدمانكم الحج دفع مكاره الدنيا عنكم وأهوال يوم القيامة».

ثم يصف الإمام الصادق الطوائف التي يختلف عنها وينفصل اتجاهه عن اتجاهها ويقول: «إني لأرجو النجاة لهذه الأمة لمن عرف حقنا منهم إلا لأحد ثلاث: صاحب سلطان جائر، وصاحب هوى، والفاسق المعلن.

أما توجيهاته عليه السلام ووصاياه لأصحابه فمنها: «اجعلوا أمركم هذا لله ولا تجعلوه للناس، فإنه ما كان لله فهو لله، وما كان للناس فلا يصعد إلى السماء، ولا

تخاصموا بدينكم، فإن المخاصمة ممرضة للقلب، إن الله عز وجل قال لنبيه عليه السلام: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾. ذروا الناس فإن الناس قد أخذوا عن الناس، وإنكم أخذتم عن رسول الله وعن علي ولا سواء، وإني سمعت أبي يقول: إذا كتب الله على عبد أن يدخله في هذا الأمر كان أسرع إليه من الطير إلى وكره».

إن أهل البيت عليهم السلام جوّزوا الولاية إذا كان فيها صيانة العدل وإقامة حدود الله، والإحسان إلى المؤمنين والسعي في الإصلاح ومناصرة المظلومين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فإلى جانب الأحاديث الواردة عن الأئمة عليهم السلام التي تبيّن ما على الولاة والموظفين ممن لهم من الأمر شيء، فإن مشاعر الناس التي هاجت للمظالم التي لحقت بآل البيت وقيام الدعوة إلى الرضا من آل بيت النبي محمد، تخلق البواعث على الظهور في مواجهة الظالمين إلى السيف واعتباره وسيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أما فعل الإمامة وتوجيه صاحب الأمر الشرعي فيتمثل في جوانب من دعوة الإمام الصادق في قوله: «من تولى أمراً من أمور الناس فعدل، وفتح بابه ورفع ستره، ونظر في أمور الناس كان حقاً على الله عز وجل أن يؤمّن روعته يوم القيامة ويدخله الجنة».

وقال عليه السلام:

«إذا أراد الله برعيته خيراً جعل لها سلطاناً رحيماً، وقيّض له وزيراً عادلاً»[(١)].

وكان عبد الله النجاشي والياً للمنصور على الأهواز، وكان يرى رأي الزيدية، وقدم المدينة ودخل على الإمام الصادق، وسأله بمسائل عديدة، فخرج منه وقد عدل عن رأيه وقال: هذا عالم آل محمد، ولا زال يراسل الإمام ويسأله عن أهم الأمور وما يقرّبه إلى الله وإلى رسوله وهو بعمله في الولاية[(٢)]. فبعث إليه برسالته المشهورة وهي الميثاق الدائم الذي عليه سيرة الأئمة الطاهرين. ومن جوابه عليه السلام: «إعلم أن خلاصك ونجاتك في حقن الدماء وكفّ الأذى عن أولياء الله والرفق بالرعية، والتأني وحسن المعاشرة مع لين في غير ضعف وشدّة في غير عنف».

«يا عبد الله إياك أن تخيف مؤمناً، فإن أبي محمد حدّثني عن أبيه عن جدّه

---

(١) روضة الواعظين.

(٢) انظر الجزء الثاني والجزء الرابع من الإمام الصادق والمذاهب الأربعة.

علي بن أبي طالب أنه كان يقول: من نظر إلى مؤمن نظرة ليخيفه بها أخافه الله يوم لا ظل إلا ظلّه».

وذكر الحلواني في نزهة الخاطر، أن كاتب المهدي المعروف بأبي عبد اللّه سأل الإمام الصادق عمّا يستطيع به مداراة السلطان وتدبير أمره، فأجابه الإمام عليه السلام بما يرشده لذلك، وشرح له طرق السلوك في مداراة السلطان، وأوصاه بأمور هامة، ونصحه في أشياء كثيرة. ولا يخفى أن السائل كان كاتباً للمهدي وهو في ولاية عهده. وكان ممن يوالي أهل البيت شأنه شأن كثير من القوّاد والأمراء والكتّاب الذين دخلوا في سلطان بني العباس لمساعدة الضعفاء، ودفع الظلم عنهم قدر استطاعتهم بعد أن كان أساس التحاقهم بهم هو الظنّ بأنّ سلطانهم قام لنصرة آل البيت والرضا منهم.

أما ولاة الجور في عموم حكمهم ونظام سلطانهم، فإن الإمام الصادق سنّ قاعدة التعامل معهم والتعاون وإياهم في حدود الضرورة، والإلجاء لدفع ضررهم وشرّهم، واتقاء ظلمهم، فقال عليه السلام وهو يجيب سائله عن جهات معاش العباد التي فيها الاكتساب والتعامل بينهم ووجوه النفقات:

«جميع المعايش كلها من وجوه المعاملات فيما بينهم مما يكون لهم فيه المكاسب أربع جهات، ويكون منها حلال من جهة، وحرام من جهة.

فأول هذه الجهات الأربعة: الولاية، ثم التجارة، ثم الصناعات، ثم الإجارة. والفرض من الله تعالي على العباد في هذه المعاملات: الدخول في جهات الحلال، والعمل بذلك الحلال منها، واجتناب جهات الحرام.

فإحدى الجهتين من الولاية، ولاة العدل الذين أمر الله بولايتهم على الناس. والجهة الأخرى ولاية ولاة الجور، فوجه الحلال من الولاية ولاية الوالي العادل، وولاية ولاته بجهة ما أمر به الوالي العادل بلا زيادة ولا نقصان. فالولاية له والعمل معه، ومعونته وتقويته حلال محلل.

وأما وجه الحرام من الولاية فولاية الوالي الجائر، وولاية ولاته، فالعمل لهم والكسب معهم بجهة الولاية لهم محرم حرام، معذّب فاعل ذلك، على قليل من فعله أو كثير. لأن كل شيء من جهة المعونة له معصية كبيرة من الكبائر، وذلك أن في

ولاية الوالي الجائر دروس الحق كله، فلذلك حرّم العمل معهم ومعونتهم والكسب معهم إلا بجهة الضرورة، نظير الضرورة إلى الدم والميتة»[1].

وهنا مقتضى القاعدة إقامة المعاملات ليس على أساس الإقرار بشرعية سلطانهم وولايتهم، ولا على أساس التعاون معهم في كل شأن وفي كل ما يأمرون به، وإنما الأمر هدنة تقدم فيها الروابط والصلات الاجتماعية، وما اتصل بالولاية فيجري مجرى الضرورة وأحكامها التي لا تتعدى الحدود التي أباحها الشرع في دفع الهلاك والمضرّة، وقد جعل الإمام الصادق لذلك كفارة من جنس العمل، فقال عليه السلام: «كفارة عمل السلطان: قضاء حوائج الإخوان».

وهناك بعض الأقوال للإمام الصادق التي تتعلق بهذه القاعدة كقوله: «من عذر ظالماً بظلمه؛ سلّط الله عليه من يظلمه. وإن دعا لم يستجب له، ولم يؤجره الله على ظلامته».

قوله عليه السلام: من ولّي شيئاً من أمور المسلمين وضيّعه، ضيّعه الله» وقوله: «من ظلم مظلمة أُخذ بها في نفسه أو في ماله أو في ولده».

وفي وصيته إلى محمد بن علي بن النعمان ـ مؤمن الطاق ـ:

«إن من كان قبلكم كانوا يتعلّمون الصمت وأنتم تتعلمون الكلام. كان أحدهم إذا أراد التعبّد يتعلم الصمت قبل ذلك بعشر سنين، فإن كان يحسنه ويصبر عليه تعبّد، وإلا قال: ما أنا لما أروم بأهل».

«إنما ينجو من أطال الصمت عن الفحشاء، وصبر في دولة الباطل على الأذى، أولئك النجباء الأصفياء الأولياء حقاً وهم المؤمنون. إن أبغضكم إليّ المتراسون المشاؤون بالنمائم، الحسدة لأخوانهم ليسوا مني ولا أنا منهم. إنما أوليائي الذين سلّموا لأمرنا، واتبعوا آثارنا».

«واقتدوا بنا في كل أمورنا... يا ابن النعمان، إذا كانت دولة الظلم فامشِ واستقبل من تتقيه بالتحية، فإن المتعرض للدولة قاتل نفسه وموبقها، إن الله يقول: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[2].

---

(١) تحف العقول.

(٢) تحف العقول.

ويبدو جلياً أن الإمام يحذر من مواجهة دولة الظلم، لأن رجالها في كلا العهدين انطوت نفوسهم على كره شديد لأهل البيت خصوصاً، وحقد أسود لكل مناصر لهم في دعوتهم إلى إقامة الحق وإطفاء الباطل، وما زال الإمام تحفّه المخاطر وتبقي بكل وسيلة محاولات الظلمة للقضاء على ذكر أهل بيته ورثة علم المصطفى، هذا والأمر موصول كما جرت به الأقدار وأراده الله، فدولة الظلم بإزائها دعوة الحق وحملة الإيمان التي يقوم بها حجج الله المكلّفون بالخلافة الدينية حتى يقضي الله بخروج حجته القائم، فكان الإمام الصادق كثيراً ما يقول:

«لكل أناس دولة يرقبونها ودولتنا في آخر الدهر تظهر»(١)

ويقول عليه السلام:

«إذا قام القائم عليه السلام، دعا الناس إلى الإسلام جديداً، وهداهم إلى أمر قد دثر، وضلّ عنه الجمهور، وإنما سمّي المهدي مهدياً لأنه يهدي إلى أمر مضلول عنه وسمي القائم لقيامه بالحق».

ومن قوله عليه السلام:

«إذا أذن الله تعالى للقائم في الخروج، صعد المنبر ودعا الناس إلى نفسه، وناشدهم بالله، ودعاهم إلى حقّه، وأن يسير فيهم بسيرة رسول الله، ويعمل فيهم بعمله، فيبعث الله جبرئيل عليه السلام حتى يأتيه، فينزل على الحطيم، ثم يقول له: إلى أي شيء تدعو؟ فيخبره القائم. فيقول جبرئيل: أنا أول من يبايعك، فيمسح على يده، وقد وافاه ثلثمائة وبضعة عشر إلى المدينة».

وقال عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ «إن رسول الله ﷺ لما أخرجته قريش من مكة، وهرب منهم إلى الغار، وطلبوه ليقتلوه فعوقب. ثم في بدر عاقب لأنه قتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وحنظلة بن أبي سفيان وأبو جهل وغيرهم، فلما قبض رسول الله ﷺ بغى عليه ابن هند بنت عتبة بن ربيعة بخروجه عن طاعة أمير المؤمنين عليه السلام وبقتل ابنه يزيد الإمام الحسين عليه السلام بغياً وعدواناً، والقائل شعراً:

(١) روضة الواعظين ص٢١٢ و٢٦٧.

لـيـت أشـيـاخـي ببـدر شـهـدوا جـزع الـخـزرج مـن وقـع الأسـل
لأهـلّـوا واسـتـهـلّـوا فـرحـاً ثـم قـالـوا يـا يـزيـد لا تـشـل
لسـت مـن خـنـدف إن لـم أنـتـقـم مـن بـنـي أحـمـد مـا كـان فـعـل
قـد قـتـلـنـا الـقـوم مـن ساداتـهـم وعـدلـنـاه بـبـدر فـاعـتـدل

ثم قال تعالى: ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ يعني بالقائم المهدي من ولده ﷺ[1] ويروي عن أبيه الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ هم القائم وأصحابه.

ثورات العلويين:

وبمرور الأيام تزداد الشُقّة بين حملة الرسالة وبين حكام الأمة بالباطل بُعْداً، وتصبح سيرة العلويين مآثر خالدة من التضحيات والبطولة التي تحيي في النفوس مبادىء العدل وعقائد الإيمان، وقد بات أساس حكم الأمويين معروفاً، وسياستهم واضحة في قيامها على استهداف شخصية أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب، والنيل من مكانته في النفوس بعد أن أمّن معاوية التأثير في العوام والجهلة من أهل الشام، ممن تحكمهم الأطماع والمنافع وبواسطة علماء السوء الذين جعلوا لباس صحبة معاوية للنبي محمد وغيره من الطلقاء ستاراً للجاهلية التي استسلمت يوم الفتح، وأعطت عن يدٍ صاغرة لتهدأ إلى حين، وقد وضعت في حسابها مسايرة الأحداث ومماشاة الإسلام، فكانت تلك الأحداث التي اتجهت إلى إبعاد أهل بيت النبوة عن منازلهم الحقيقية ومراكزهم التي أرادها الله لهم، لتأمين دوام الدعوة وبقاء الرسالة على أصولها ومبادئها، وكلما اتسعت مجالات الانحراف عن قواعد الإسلام وأحكامه، أصبحت الدعوة إلى مقاومة الباطل والقضاء على الانحراف شديدة تنطلق بها الحناجر، وتُزهق من أجلها الأرواح وتُهرق الدماء، وقد جعل الله لأمناء دعوة الإسلام في مواجهة الباطل والضلال أزماناً هم بالغوها بما عهد إليهم، وجرت به مقاديرهم التي تمضي في مسلك الإمامة والخلافة الكبرى.

غير أن العلويين وقد باتوا في مواجهة الجاهلية بأصنافها والباطل بطوائفه، كانوا سياج الإمامة وجندها، فملأوا الأرض بآثار التقوى وشواهد الحق، ووضعوا نصب

---

(١) ينابيع المودة للقندوزي الحنفي ص٥١٠.

أعينهم ما قدّر لأهل بيتهم وما وضع في أعناقهم وما وجب على أمتهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهم قدوة الناس وقادتها تتطلع إليهم النفوس في المهمات، وتشرئب إليهم الأعناق في الملمات، فلمّا وجدوا أن أميّة لا تقف عند حدٍ في عدائها لأهل البيت، ولا ترعوي وتترك المجاهرة بالضلال والمعالنة بالباطل، نهضوا بنداء أبيهم الحسين مرة أخرى، وأعادوا صفحات البطولة والفداء.

وقد سلك الأمويون مسلكاً حاولوا فيه تشتيت العلويين وتمزيق صفوفهم، بعد أن أحاطوهم بما يبقي نشاطهم تحت أعين عمّالهم، بتوجيه رقابة شديدة، والاحتيال للتقرب منهم طمعاً في إزالة صفات النقمة والابتعاد عن حكم الأمويين. تلك الصفات التي تضعف موقع الأمويين في النفوس التي تتقرب منها، وتلهب المشاعر في القلوب التي تقف إلى صف أهل البيت.

وقد كان هشام بن عبد الملك يزيداً آخر في سلسلة الطغاة الأمويين، اتسم بكل قبائحه، واتصف بالبذاءة والحقد واللؤم، وقد أدت السياسة التي يتبعها إلى أن يسمع ما يكشف الغشاوة ويزيلها عن عينيه لما دخل عليه الشهيد زيد بن علي فقال له: ليس أحد من عباد الله دون أن يوصي بتقوى الله سبحانه، ولا أحد فوق أن يوصى بتقوى الله سبحانه، وأنا أوصيك بتقوى الله.

فقال هشام: أنت زيد المؤمّل للخلافة، الراجي لها، وما أنت والخلافة، لا أم لك، وأنت ابن أمة.

فقال زيد: لا أعلم أحداً أعظم منزلة عند الله من نبي بعثه وهو ابن أمة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ما يقصرك برجل جدّه رسول الله ﷺ وأبوه علي بن أبي طالب.

فوثب هشام ووثب الشاميون ودعى قهرمانه وقال: لا يبيتن هذا في عسكري الليلة. فخرج زيد عليه السلام وهو يقول لهشام: أخرج ثم لا تراني إلا حيث تكره. ثم قال هشام: ألستم تزعمون أن أهل هذا قد بادوا، ولعمري ما انقرض من حقل هذا خلفهم(١).

وكانت قضية الخلاف في أوقاف الإمام علي وولايتها مدخلاً عتّبته أرجل

---

(١) للمزيد انظر الجزء الأول ص١٢٤ ـ ١٢٧ وقد ضمّ كتابنا الذي أنجزناه (العلوي الثائر) ترجمة وبحثاً عن الشهيد زيد.

الأمويين الدنسة، وامتدت من طريقه أيديهم القذرة لإذكاء الخصومة بين بني الحسين وبني الحسن. ولا ندخل في تفاصيل هذا الخلاف الذي أسهبت المصادر في ذكرها والكثير منها يحتاج إلى تدقيق وأناة في النظر، لتبيّن دور الأمويين في كل ما نسب إلى أيّ من الطرفين، وعندي أن هذه السبيل التي سلكها الأمويون كان الغرض منها حمل العلويين على اللجوء إلى بني أمية، وفي ذلك خدمة لسياستهم، إذ تظهر العلويين بمظهر الاعتراف بسلطان الأمويين والتحاكم إليهم، وقد أبطل الطرفان ما استتبع ذلك من سياسة وأغراض أرادها الأمويون، فقد فطن عبد الله بن الحسن وزيد بن علي لشماتة الوالي بهما، فذهب عبد الله ليتكلم، فطلب إليه زيد فسكت، وقال زيد للوالي: أمَ والله لقد جمعتنا لأمر ما كان أبو بكر وعمر ليجمعانا على مثله، وإني أشهد الله أن لا أنازعه إليك محقاً ولا مبطلاً ما كنت حياً. ثم قال لعبد الله: انهض يا ابن عم. فنهضا وتفرّق الناس[1]. وقد كان من فعل الوالي لشدّ الأنظار إلى هذا الخلاف إن كانت المدينة تغلي كالمرجل، يقول قائل كذا، وقائل كذا، قائل يقول قال زيد كذا، وقائل يقول قال عبد الله كذا.

ويتخوّف هشام بن عبد الملك من دخول زيد العراق، فيكتب إلى عامله (أنه رأى زيداً رجلاً جَدِلاً لَسِناً خَليقاً لتمويه الكلام وصوغه، واجترار الرجال بحلاوة لسانه وبكثرة مخارجه في حججه، وما يدلي به عند لدد الخصام من السطوة على الخصم بالقوة الحادة لنيل الفلج) وهشام بذلك يفصح عن خذلان منطقه وعجزه عن الوقوف أمام كلام زيد الذي يستمد من القرآن حججه، فيملأ قوله آيات بينات، ويستملي من الحقائق لغته، أما السطوة فهي من فيض النبوة وتسديد الله مما منع منه هشام وأهله لفسقهم وظلمهم. فتراه مذعوراً يكتب إلى عامله بهذا، ومنه: (فعجّل بإشخاصه ـ أي زيد ـ إلى الحجاز، ولا تخله والمقام قبلك، فإنه إن أعاره القوم أسماعهم فحشاها من لين لفظه وحلاوة منطقه مع ما يدلي به من القرابة برسول ﷺ وَجَدَهُم مُيَلاً إليه).

ثم قامت ثورة الشهيد زيد في سنة ١٢٤هـ على اختلاف في الروايات، منها إحدى وعشرين ومائة وما بين ذلك. فلما خفقت الراية على رأسه قال: (الحمد لله الذي أكمل لي ديني، والله إني كنت أستحيي من رسول الله ﷺ إن أرِدَ عليه الحوض

---

(١) الطبري ج٨ ص٢٦٢.

غداً ولم آمر في أمته بمعروف ولا أنهى عن منكر)[١].

وحينما أخبر الإمام الصادق عليه السلام عن مقتله وما جرى عليه، بكى بكاء شديداً وقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون، عند الله احتسب عمي» ثم قال: «مضى والله شهيداً، كشهداء استشهدوا مع رسول الله وعلي والحسين». وقال عليه السلام: «فلعن الله قاتله وخاذله، وإلى الله أشكو ما نزل بأهل بيت نبيه بعد موته، ونستعين الله على عدوّنا وهو المستعان»[٢].

وهكذا حلّت بالمسلمين فاجعة أخرى، وإن كان أمرها معروفاً فيما كان لدى الأئمة الأطهار من علم، إذ قال له أبوه الإمام زين العابدين: «أعيذك بالله أن تكون زيداً المصاب بالكُناسة». وبلفظ: «أعيذك بالله أن تكون صليب الكناسة».

وثورة الشهيد زيد هي من مقتضيات الحال، ومن الأعمال التي تنجم عن جور الحكام وظلمهم لآل بيت النبي محمد، وهي إحياء للحق، وعمل بأمر الله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولذلك قال الإمام الصادق: «إن زيداً كان عالماً، وكان معروفاً، ولم يدعكم إلى نفسه، وإنما دعاكم إلى الرضا من آل محمد. ولو ظهر لوفى بما دعاكم إليه، إنما خرج على سلطان مجتمع ينقضه».

وما اعتقده البعض من إمامته كان سببه (خروجه بالسيف يدعو إلى الرضا من آل محمد ﷺ فظنّوه يريد بذلك نفسه ولم يكن يريدها به، لمعرفته باستحقاق ابن أخيه (الصادق) عليه السلام للإمامة من قبله، ووصيته عند وفاته إلى أبي عبد الله عليه السلام)[٣].

وقول زيد بن علي مشهور: (في كل زمان رجل منّا أهل البيت، يحتج الله به على خلقه، وحجة زماننا إبن أخي جعفر، لا يضلّ من تبعه، ولا يهتدي من خالفه)[٤].

وقد كان وقع المأساة عظيماً في نفس الإمام الصادق، وأثرها شديداً في نفسه، فلما بلغه قول الحكم بن عباس الكلبي:

صلبنا لكم زيداً على جذع نخلة ولم أرَ مهديّاً على الجذع يصلب

---

(١) عمدة الطالب ص٢٥٦. وصحاح الأخبار لأبي المعالي الرفاعي ص٣٦.

(٢) انظر الجزء الرابع من هذا الكتاب.

(٣) الإرشاد ص٢٥١.

(٤) المناقب لابن شهر أشوب ج٢ ص١٤٧. وانظر الجزء الرابع من الإمام الصادق والمذاهب الأربعة.

رفع الإمام يديه إلى السماء وقال: «اللهم سلّط عليه كلباً من كلابك» فبعثه بنو أمية إلى الكوفة، فافترسه الأسد في الطريق، فبلغ الإمام ذلك فخرّ ساجداً وقال: «الحمد لله الذي أنجزنا وعده»[1].

ويستفاد من الروايات أنه عليه السلام جلس للعزاء، ودخل الناس عليه يعزّونه. يقول فضيل الرسان: دخلت على جعفر بن محمد أعزّيه عن عمّه زيد، ثم قلت له: ألا أنشدك شعر السيد ـ الحميري ـ؟ فقال: «أنشد». فأنشدته:

فالناس يوم البعث راياتهم ... خمس فمنها هالك أربع

قائدها العجل وفرعونهم ... وسامريّ الأمة المفظع

ومارق من دينه مخرج ... أسود عبد لكع أو كلع

وراية قائدها وجهه ... كأنه الشمس إذا تطلع

وروى الشيخ أبو نصر البخاري عن محمد بن عمير أنه قال: قال عبد الرحمن ابن سيّابة: أعطاني جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ألف دينار، وأمرني أن أفرّقها في عيال من أصيب مع زيد، فأصاب كل رجل أربعة دنانير[2].

وتكفل الإمام الصادق بالحسين بن زيد، وربّاه وعلمه. أما يحيى فخرج إلى المدائن، ثم إلى الري، ومنها إلى نيسابور وسرخس، حتى قتل بالجوزجان.

يروي عمير بن متوكل الثقفي عن أبيه قال: لقيت يحيى بن زيد بن علي عليه السلام وهو متوجه إلى خراسان بعد قتل أبيه، فسلّمت عليه، فقال لي: من أين أقبلت؟ قلت من الحج. فسألني عن أهله وبني عمه بالمدينة، وأحفى السؤال عن جعفر بن محمد عليه السلام فأخبرته بخبره وخبرهم وحزنهم على أبيه زيد بن علي، فقال لي: قد كان عمي محمد بن علي عليه السلام أشار على أبي بترك الخروج، وعرّفه إن هو خرج وفارق المدينة ما يكون إليه مصير أمه، فهل لقيت ابن عمي جعفر بن محمد عليه السلام؟ قلت: نعم. قال: فهل سمعته يذكر شيئاً من أمري؟ قلت نعم. قال: بم ذكرني؟ خبّرني. قلت: جعلت فداك ما أحب أن أستقبلك بما سمعته منه. فقال: أبالموت تخوفني؟ هات ما سمعته. فقلت: سمعته يقول: إنك تقتل وتصلب كما قتل

(١) الكواكب الدرية للمناوي ونور الأبصار للشبلنجي ص١٤٧.

(٢) عمدة الطالب وصحاح الأخبار. ورجال الشيخ محمد طه نجف في ترجمة عبد الرحمن.

أبوك وصُلب. فتغير وجهه وقال: يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب، يا متوكل إن الله عز وجل أيد هذا الأمر بنا، وجعل لنا العلم والسيف، فجمعا لنا وخص بنو عمنا بالعلم وحده[١]. فقلت: جعلت فداك، إن رأيت الناس إلى ابن عمك جعفر عليه السلام أميل منهم إليك وإلى أبيك؟ فقال: إن عمي محمد بن علي وابنه جعفراً عليه السلام دعوا الناس إلى الحياة، ونحن دعوناهم إلى الموت. فقلت: يا ابن رسول الله أهم أعلم أم أنتم، فأطرق إلى الأرض ملياً، ثم رفع رأسه وقال: كلنا له علم، غير أنهم يعلمون كلما نعلم، ولا نعلم كلما يعلمون. ثم قال: أكتبت من ابن عمي شيئاً؟ قلت: نعم[٢].

وتنتشر ثورات العلويين وتمتد، فهم سلالة أمير أهل العدل ويعسوب الدين وأول المسلمين إسلاماً الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وهم جند الدعوة ورجال الحق والآباء الذين يأبون الضيم ويأنفون الاستكانة للظالمين. وقد ارتكب الأمويون من المجازر والمظالم ما يهزّ ضمائر أهل الذمة وأصحاب الملل والشرائع الأخرى فضلاً عن استثارتها مشاعر المؤمنين واستهوا لهم ما حدث، وجنّدوا كل ما تحت أيديهم للقضاء على ذكر الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وقتل وتشريد أهل بيته وأصحابه وشيعته، فكانت النفوس تغلي بنار النقمة، ولما أخذت دولة الأمويين تنحدر إلى نهايتها ويظهر ضعفها، نمت حركة التحوّل والتغيّر في ظل الاتجاه الذي اتخذه العلويون، وكانت مظالمهم مادة الحركة ومدارها. يقول أبو الفرج: فكان أول ما يظهرونه فضل علي بن أبي طالب وولده وما لحقهم من القتل والخوف والتشريد، فإذا استتب لهم الأمر ادعى كل فريق منهم الوصية لمن يدعو إليه[٣]. وقد ذكرنا وبيّنا في الأجزاء السابقة من الكتاب أن العباسيين دخلوا في ثنايا هذه الدعوة، وأظهروا ما أظهر الآخرون وهم في قرارات أنفسهم يخفون وراء الدعوة إلى الرضا من آل محمد أطماعاً خاصة، وأغراضاً سلطوية لو أبدوها للفظهم الناس من بين صفوفهم ورفضهم كافة بني هاشم.

---

(١) سيأتي ذكر سيف النبي محمد ووجوده عند الإمام الصادق بعد قليل إن شاء الله.

(٢) وردت الرواية في التقديم للصحيفة السجادية، وإنما سقتها هنا للتدليل على أن العلم الذي يختص به الإمام لا ينازع حتى أن يحيى باستغـاره الأخير كان يطلب التواصل مع ما يصدر عن الإمام الصادق.

(٣) مقاتل الطالبيين ص٢٣٣.

وكان اجتماع الأبواء[1] وحضره جماعة من بني هاشم، فقال صالح بن علي: قد علمتم أنكم الذين تمدّ الناس أعينهم إليهم، وقد جمعكم الله في هذا الموضع، فاعقدوا بيعة لرجل منكم تعطونه إياها من أنفسكم، وتواثقوا على ذلك حتى يفتح الله وهو خير الفاتحين.

ويروي أبو الفرج أن أبا جعفر المنصور قال: لأي شيء تخدعون أنفسكم، ووالله لقد علمتم ما الناس إلى أحد أميل أعناقاً ولا أسرع إجابة منهم إلى هذا الفتى ـ يريد محمد بن عبد الله بن الحسن ـ

وإذا نظرت فإن أبا جعفر ثاني الخلفاء العباسيين وممن أسسوا الدولة العباسية وهو قاتل محمد بن عبد الله النفس الزكية وأخيه إبراهيم، ولكنه يومئذ لا يعدّ له وزن ولا تحسب له قيمة، بل هو ليس بشيء إذا ما قورن بمحمد النفس الزكية بفقهه وورعه وجوده. وقد أظهر ذلك لأمر، بل أكثر منه ما يحدث به عمير بن الفضل الخثعمي، قال:

رأيت أبا جعفر المنصور يوماً، وقد خرج محمد بن عبد الله بن الحسن من دار ابنه، وله فرس واقف على الباب مع عبد له أسود، وأبو جعفر ينتظره، فلما خرج وثب أبو جعفر فأخذ بردائه حتى ركب، ثم سوّى ثيابه على السرج، ومضى محمد فقلت ـ وكنت حينئذٍ أعرفه ولا أعرف محمداً ـ: من هذا الذي أعظمته هذا الأعظام حتى أخذت بركابه، وسوّيت عليه ثيابه؟ قال: أو ما تعرفه؟ قلت: لا. قال: هذا محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن، مهديّنا أهل البيت.

وقد علمنا سابقاً كيف كان الإمام الصادق يبين مسألة المهدي، كما أن حقيقة هذه الدعوى من جهة الأغراض السياسية معلومة، أما حقيقتها من جهة العلويين فليست محققة ولا مضمونة الصحة، لأن الحسينيين ـ من آباء عبد الله وابنه محمد ـ لم يدّع أحد منهم الإمامة، وقد قضى الحسن المثنى ولم يظهر منه ما يخالف النص والولاية، وحاشاهم ذلك، فظهور الفضل في أبناء عمهم جلي (وإلا فمن يخفى عليه فضل زين العابدين علي بن الحسين السجّاد عليه السلام على الحسن بن الحسن وعبد الله بن الحسن. وفضل الباقر محمد بن علي عليه السلام على محمد بن

---

(١) موضع بين مكة والمدينة.

عبد الله بن الحسن وإبراهيم بن عبد الله بن الحسن)[1] أما الإمام الصادق فلا يمكن أن ينعقد أمر يخص الأمة ومصالح المسلمين دون رأيه، فهو الذي يمثل الإمامة وله بين الناس الأثر البالغ. ولما اجتمع بنو هاشم، وخطبهم عبد الله بن الحسن، فحمد الله وأثنى عليه قال: إنكم أهل البيت قد فضّلكم الله بالرسالة واختاركم لها، وأكثركم بركة يا ذرية محمد ﷺ. إلى آخر الخطبة التي قال فيها: فهلم نبايع محمداً، فقد علمتم أنه المهدي. فلا يعتقد منه الظاهر من القول، لأن كثيراً من الروايات عن عبد الله نفسه تدفع ذلك، منها رواية المقانعي بسنده عن محمد بن بشر قال: قال رجل لعبد الله بن الحسن: متى يخرج محمد؟ قال: لا يخرج حتى أموت. وهو مقتول.

وكان عمرو بن عبيد ينكر أن يكون محمد بن عبد الله هو المهدي ويقول: كيف وهو يقتل؟

وإذا سلّمنا صحة القول، فلا وجه له إلا التيمنَ باسم المهدي، أو الإشارة إلى صفة محمد في الهداية والورع، كتسمية (النفس الزكية) التي هي أوضح ولا تفضي إلى لبس، وكذلك وصفه بالشبه.

وبعد أن انتهى عبد الله بن الحسن من خطبته في الاجتماع قالوا: لم يجتمع أصحابنا بعد، ولو اجتمعوا فعلنا، ولسنا نرى أبا عبد الله جعفر بن محمد[2].

وفيما وراء العلويين كان العلماء وأصحاب الفكر كالمعتزلة الذين كانوا أبرز الجماعات الفكرية في هذه الفترة، بلغ من شهرتهم أن نسبوا الإمام زيد إلى حركتهم، وكذلك محمد النفس الزكية، وهي نسبة لا أساس لها من الواقع، ولا تتم في إطار المنطق، لأن الأولى أن ينسب بعض وجوه فكر المعتزلة إلى هذين الرجلين لا العكس.

يروي عبد الكريم بن عتبة الهاشمي قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام بمكة إذ دخل عليه أناس من المعتزلة، فيهم: عمر بن عبيد، وواصل بن عطاء،

---

(١) انظر المسائل الجارودية في تعيين الخلافة والإمامة في ولد الحسين بن علي عليهما السلام للشيخ المفيد ص٥٢.

(٢) مقاتل الطالبيين.

وحفص بن سالم وأناس من رؤسائهم. وذلك أنه حين قتل الوليد، واختلف أهل الشام بينهم فتكلموا فأكثروا، وخطبوا فأطالوا.

فقال لهم أبو عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام: «إنكم قد أكثرتم عليّ فأطلتم، فاسندوا أمركم إلى رجل منكم، فليتكلم بحجتكم أو ليوجز».

فاسندوا أمرهم إلى عمرو بن عبيد فأبلغ وأطال. فكان فيما قال أن قال: قتل أهل الشام خليفتهم، وضرب الله بعضهم ببعض، وتشتّت أمرهم، فنظرنا فوجدنا رجلاً له دين وعقل ومروة ومعدن للخلافة وهو محمد بن عبد الله بن الحسن، فأردنا أن نجتمع معه فنبايعه، ثم نظهر أمرنا معه، وندعو الناس إليه، فمن كنا معه كان منّا، ومن اعتزلنا كففنا عنه، ومن نصب لنا جاهدناه ونصبنا له على بغيه ونردّه إلى الحق وأهله، وقد أحببنا أن نعرض ذلك عليك، فإنه لا غنى بنا عن مثلك لفضلك ولكثرة شيعتك[1]. وجرت بذلك مناظرة احتج فيها الإمام بما عهد عنه من الوضوح والسطوة والفلج، ولولا أخذنا بالإيجاز وتجاوزنا في هذا الفصل ما قرر له من حدود لأوردناها بطولها لغناها وشمولها، ولكن نكتفي بما ختم به الإمام الصادق قوله، إذ أقبل على عمرو وقال:

«إتق الله يا عمرو، وأنتم أيها الرهط فاتقوا الله، فإن أبي حدثني ـ وكان خير أهل الأرض وأعلمهم بكتاب الله وسنة رسوله ـ أن رسول الله ﷺ قال: من ضرب الناس بسيفه ودعاهم إلى نفسه، وفي المسلمين من هو أعلم منه فهو ضالٌ متكلّف».

والظاهر أن بني هاشم عقدوا أكثر من اجتماع، منها ما حضره الإمام الصادق، ومنها ما لم يحضره، والنوع الأخير حال دون انعقاد أمرهم على شيء لغياب الإمام عنه. أما أن يكون اجتماعاً واحداً، وهو ما تشعر به رواية ابن الطقطقي فهو بعيد، ولا بد أن ابن الطقطقي جمع الأحداث في مدلول واحد، ومن الخير إيراد روايته:

يقول ابن الطقطقي: كان بنو هاشم الطالبيون والعباسيون قد اجتمعوا في ذيل دولة بني أمية، وتذاكروا حالهم وماهم عليه من الاضطهاد، وما قد آل إليه أمر بني أمية من الاضطراب، وميل الناس إليهم ومحبتهم لأن تكون لهم دعوة، واتفقوا على أن يدعوا الناس سراً، ثم قالوا: لا بد لنا من رئيس نبايعه. فاتفقوا على مبايعة النفس

---

(١) الاحتجاج للطبرسي.

الزكية محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام وكان محمد من سادات بني هاشم ورجالهم فضلاً وشرفاً وعلماً، وكان هذا المجلس قد حضره أعيان بني هاشم من علويهم وعباسييهم، فحضره من أعيان الطالبيين: الصادق جعفر بن محمد عليه السلام، وعبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وابناه محمد النفس الزكية وإبراهيم قتيل باخمرى وجماعة من الطالبيين. ومن أعيان العباسيين: السفاح والمنصور وغيرهما من آل العباس. فاتفق الجميع على مبايعة النفس الزكية، إلا الإمام جعفر بن محمد الصادق. . . الخ[1].

والغرض فإن العباسيين حاولوا دفع العلويين بالاتجاه الذي يمكنهم من تحقيق أغراضهم، وزجّهم في المعترك السياسي، لأنهم يعلمون بالخطة التي اختطها الإمام الصادق لنفسه ولأبناء عمومته، من الانعزال عن تلك الاتجاهات، والاحتفاظ بمركزهم الديني، لأن الظروف غير مؤاتية للثورة، وكل شيء يقع قبل أوانه يؤدي به التعجيل إلى الفشل، ولكن العباسيين استطاعوا صدع الصف العلوي بجلب البعض إليهم من بني الحسن.

ويذكر أبو الفتح الشهرستاني ـ بعد ذكره لمقتل يحيى بن زيد ومحمد وإبراهيم (رض) ـ أن الإمام الصادق عليه السلام أخبرهم بجميع ما تمّ عليهم، وعرّفهم أن آباءه عليهم السلام أخبروه بذلك كله، وأن بني أمية يتطاولون على الناس حتى لو طاولتهم الجبال لطالوا عليها، وهم يستشعرون بغض أهل البيت، ولا يجوز أن يخرج واحد من أهل البيت حتى يأذن الله تعالى بزوال ملكهم. وكان يشير إلى أبي العباس وأبي جعفر ابن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس: «أنا نخوض الأمر حتى يتلاعب بها هذا وأولاده» إشارة إلى المنصور[2].

وصفوة القول أن الإمام الصادق هو الوحيد الذي لا يقع تحت تأثير المنافع القريبة والمصالح الظاهرة، فهو الإمام الذي أهّله الله للقيادة والعلم بعواقب الأمور، واستشفاف ما وراء الحوادث، فلم يخدع بتلك المغريات ويعرّض نفسه وأهل بيته، بل المجتمع الإسلامي كله لخطر لا قبل لهم على دفعه.

---

(١) الفخري ص١٤٦ و١٤٧.

(٢) الملل والنحل ج٢ ص٢٥٢ ـ ٢٥٣.

ذكر كثير من المؤرخين أن أبا سلمة[1] كاتب ثلاثة من أعيان العلويين وهم: جعفر بن محمد الصادق، وعمر الأشرف بن زين العابدين. وعبد اللّه المحض، وأرسل الكتب مع رجل من مواليهم يسمى محمد بن عبد الرحمن بن أسلم مولى رسول الله ﷺ وقال أبو سَلَمة للرسول: العَجَلَ العَجَلَ، فلا تكونن كوافد عاد. وقال له: أقصد أولاً جعفر بن محمد الصادق، فإن أجاب فأبطل الكتابين الآخرين، وإن لم يجب فالقِ عبد اللّه المحض، فإن أجاب فأبطل كتاب عمر، وإن لم يجب فالق عمراً:

فذهب الرسول إلى جعفر بن محمد أولاً، ودفع إليه كتاب أبي سلمة، فقال الإمام عليه السلام: «مالي ولأبي سَلَمة؟ وهو شيعة لغيري» فقال له الرجل: إقرأ الكتاب. فقال عليه السلام لخادمه: «أدن السراج مني» فأدناه. فوضع الكتاب على النار حتى احترق، فقال الرسول: ألا تجيبه؟ قال عليه السلام: «قد رأيت الجواب، عرّف صاحبك بما رأيت».

فخرج الرسول من عنده، وأتى عبد اللّه بن الحسن، ودفع إليه الكتاب وقرأه، وابتهج، فلما كان غد ذلك اليوم الذي وصل إليه فيه الكتاب، ركب عبد اللّه حتى أتى منزل أبي عبد اللّه جعفر بن محمد الصادق، فلما رآه أبو عبد اللّه أكبر مجيئه وقال: «يا أبا محمد (كنية عبد اللّه المحض) أمر ما أتى بك؟» قال: نعم هو أجلّ من أن يوصف. فقال له: «وما هو يا أبا محمد؟» قال: هذا كتاب أبي سلمة يدعوني إلى الخلافة، وقد قدمت عليه شيعتنا من أهل خراسان. فقال له أبو عبد اللّه: «يا أبا محمد، ومتى كان أهل خراسان شيعة لك؟» أنت بعثت أبا مسلم إلى خراسان، وأنت أمرتهم بلبس السواد؟ وهؤلاء الذين قدموا العراق أنت كنت سبب قدومهم أو وجّهت فيهم؟ وهل تعرف منهم أحداً؟» فنازعه عبد اللّه بن الحسن الكلام إلى أن قال: إنما يريد القوم ابني محمداً لأنه مهدي هذه الأمة. فقال أبو عبد اللّه جعفر الصادق: «ما هو مهدي هذه الأمة، ولئن شهر سيفه ليقتلنّ»[2].

(١) انظر ترجمته في الجزء الرابع من هذا الكتاب.

(٢) إن عدم احتجاج الإمام الصادق بالمعروف من الأحاديث عن القائم المهدي، وردّ قول عبد اللّه بالنصوص التي يعرفها عبد اللّه أيضاً، يحمل على الاعتقاد بأن القول بمهدية محمد ليس بما يعنيه الاعتقاد الحقيقي بالإمام المهدي، وإنما لأغراض جذب الناس إليه وزيادة التعريف به.

فقال عبد الله: كان هذا الكلام منك لشيء؟ فقال الصادق: «قد علم الله أني أوجب النصح على نفسي لكل مسلم، فكيف أدّخره عنك، فلا تُمَنّ نفسك بالأباطيل، فإن هذه الدولة ستتم لهؤلاء. وقد جاءني مثل الكتاب الذي جاءك»[1].

لقد بذل الإمام لأبناء عمه النصح، وجهد أن يجنّبهم المهالك، ويبصّرهم بعاقبة ما يقدمون عليه، بعد أن مرّت الأيام، وحدث التحوّل السياسي. فقد جاءت محاولة أبي سلمة متأخرة، لذا نرى الإمام الصادق عليه السلام يشير إلى أبي مسلم وأهل خراسان ولبس السواد، فكان عليه أن يحذّر الحسينيين، فلقي منهم استنكاراً واتهاماً. ولكنه عليه السلام كان يرى ما لا يرونه، ويعجزون عن معرفته، حتى كأن العواقب ومجريات الأحداث القادمة يقرأها في كتاب أمامه.

كما إنه عليه السلام لم يكشف من قبل عن رأيه في صور من التقرب كانت تبدر من أبناء عمومته تجاه الحكام الظلمة والتقائهم بالأمويين، فيما كان عليه السلام مشغولاً بالواجبات الدينية ومعالجة ما يعاني منه المسلمون، وحماية نفسه وشيعته من سلطان الجور وحكم الطغاة، فلما قتل زيداً يوسف بن عمر وصلب جثته بالكناسة، وبعث برأسه مع شبّة بن عقال، وكلّف آل أبي طالب البراءة من زيد، وقام خطباؤهم، فكان أول من قام عبد الله بن الحسن، فأوجز في كلامه، ثم جلس. وقام عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر، فأطنب[2]. وإن صحّ ذلك، ففيه تجاوز لمقتضيات الحيطة وضرورات التقية.

وإن الإمام الصادق في كيانه الروحي والفكري كان على نهجه في عدم التقرب إلى الحكام والالتقاء معهم إلا في حدود دفع الخطر والهلاك، وكانت مصيبة زيد ـ كما أشرنا ـ قد آلمته كثيراً وأحزنته، ولكنه عليه السلام أظهر موقع ثورة زيد والموقف منها. ولما بدأت في ظل العباسيين بوادر ثورة جديدة هي ثورة النفس الزكية بعد جهده في حملهم على العدول عن فكرة التعرّض لبني العباس بدولتهم، وأن في طرق الإصلاح سعة، والدعوة بين المسلمين بمبادىء العدل والإيمان هي أمان الأمة. ومن نتائج منهج الإمام أن يكون المسلم على علم بانحراف الحكام، ويتعقب جورهم وفسادهم وباطلهم بالقول والوعي، حتى كانت بيئة مدرسته عليه السلام وأوضاع حياته

---

(١) الآداب السلطانية ص ١٣٧. ومروج الذهب ج٣ ص٢٦٩.

(٢) زهر الآداب ج١ ص٧٩.

إطاراً لسلطة الإمامة الروحية التي لها في الأحداث رأي يصيب كبد الحقيقة، فرأى الإمام أن البيت العلوي مقبل على مأساة أخرى سيقدّم فيها الدماء والأرواح، وكان عليه أن يسعى إلى حفظ هذه الدماء وحماية أهله، فأتى محمداً النفس الزكية وقال له: «تحب أن يصطلم أهل بيتك؟» ولولا حرصه على ذلك لكان أول من يعلن الثورة، ولكن كيف يدفع بأهله والناس إلى التهلكة؟ ولقد كان عليه السلام من وفائه لأغراض العدل أن ترك ولديه موسى وعبد اللّه، ولم يبخل بهما على الثورة العلوية التي أدى استئثار العباسيين وتنصلهم من أقرب الناس إليهم إلى إصرار محمد واندفاعه في الخروج لأنه يرى نفسه صاحب الأمر والمنصور قد بايع له.

كما كان الإمام يرمي إلى أن يحفظ مكانة البيت العلوي الذي تمثلت به القيادة الروحية. غير أن حقد المنصور قد وجد الذريعة للاعتداء على مكانة أهل البيت وسفك دمائهم، فعن الحسين بن زيد: إني لواقف بين القبر والمنبر، إذا رأيت بني الحسن يخرج بهم من دار مروان مع أبي الأزهر، يراد بهم الربذة. فأرسل إليّ جعفر بن محمد فقال: «ما وراءك؟» قلت: رأيت بني الحسن يخرج بهم في محامل. فقال: «أجلس» فجلست. قال: فدعا غلاماً له، ثم دعا ربّه كثيراً، ثم قال لغلامه: «اذهب، فإذا حُمِلوا فاتِ فأخبرني». قال: فأتاه الرسول فقال: قد أقبل بهم. فقام جعفر، فوقف وراء ستر شعر أبيض من ورائه، فطلع بعبد اللّه بن الحسن وإبراهيم بن الحسن وجميع أهلهم، كل واحد منهم معادله مُسَوَّد[1] فلما نظر إليهم جعفر، هملت عيناه حتى جرت دموعه على لحيته، ثم أقبل عليّ فقال: «يا أبا عبد اللّه والله لا تحفظ لله حرمة بعد هؤلاء، والله ما وفت الأنصار ولا أبناء الأنصار لرسول الله ﷺ بما أعطوه من البيعة على العقبة»[2].

ونال حقد المنصور من الإمام الصادق نفسه؛ بل انفلت عداؤه، وحدث ما كان يخشاه الإمام، فكلّم الإمام بكلام غليظ ونهره وقال: يا جعفر، قد علمت بفعل محمد بن عبد اللّه الذي تسمّونه النفس الزكية، وما نزل به، وإنما انتظر الآن أن يتحرك منكم أحد فألحق الصغير بالكبير[3].

---

(١) أي أن كل واحد منهم جلس على الجهة الأخرى من محمله شخص من العباسيين أو أنصارهم الذين يلبسون السواد شعاراً لهم ـ للمعادلة في حفظ استقرار المحمل ـ.

(٢) الطبري ج٩ ص١٩٤. ومقاتل الطالبيين ٢١٩. (٣) نور الأبصار.

وعن علي بن عمر بن علي قال: سمعته ـ أي الإمام الصادق ـ حين أمره أبو جعفر أن يسير إلى الربذة فقال: «يا علي. . . سر معي» فسرت معه إلى الربذة، فدخل على أبي جعفر، وقمت أنتظره، فخرج عليّ جعفر وعيناه تذرفان، فقال لي: يا علي ما لقيت من ابن الخبيثة، والله لا أمضي، ثم قال: رحم الله ابني هند، إنهما إن كانا لصابرين كريمين. والله لقد قضيا ولم يصبهما دنس. . . اهـ.

ونحن إذا نظرنا في التاريخ لرأينا أن سنة معاوية وسياسة الحجاج باقيتان متأصلتان في الملك رغم التحول السياسي. فالمنصور بعد مذبحة أحجار الزيت التي استشهد فيها محمد النفس الزكية، ومذبحة باخمرىٰ التي استشهد فيها أخوه إبراهيم يقول لجلسائه: تالله ما رأيت رجلاً أنصح من الحجاج لبني مروان. فقام المسيّب بن زهير الضبي فقال: يا أمير المؤمنين ما سبقنا الحجاج بأمر تخلّفنا عنه، والله ما خلق على جديد الأرض خلقاً أعزّ علينا من نبينا ﷺ وقد أمرتنا بقتل أولاده فأطعناك وفعلنا ذلك، فهل نصحناك أم لا؟ فقال له المنصور: أجلس لاجلست(١).

قال الأصمعي: أحضر يوماً إلى أبي جعفر هريسة الفستق، ومعها مصارين الدجاج محشوة بشحم البط والسكر ودهن الفستق. فقال: إن إبراهيم ومحمد أرادا أن يسبقاني إلى هذا، فسبقتهما إليه.

وذكر أيضاً أن المنصور هيئت له عجة من مخ وسكر، فاستطابها فقال: أراد إبراهيم أن يحرمني هذا وأشباهه(٢).

لقد كان الإمام الصادق يقول: «إن الله أخبر نبيه بما يلقى أهل بيت محمد وأهل مودتهم وشيعتهم» والإخبار هذا اشتملت عليه علوم الإمامة التي وصلت إلى الإمام الصادق بالوصاية والنص.

وقد كان الإمام علي وارث علم محمد وسلاحه، وهما مع الإمامة ومن علاماتها أن من صار إليه السلاح أوتي الإمامة، للدلالة على الأهلية بالخلافة عن الرسول في الرئاسة الدينية والزعامة الروحية. كذلك درعه ﷺ ولامته ومغفرته. ولذلك كان الادعاء بحيازة عبد الله بن الحسن لهذا السيف من ضروب الدعاوى لهم

---

(١) مروج الذهب.

(٢) مروج الذهب ج٣ ص٣٠٩.

كقضية التشبّه بالمهدي، ونفى الإمام الصادق ذلك قائلاً: «. . . ما رآه عبد الله بعينيه، ولا بواحدة من عينيه، ولا رآه أبوه. اللهم إلاّ أن يكون رآه عند علي بن الحسين عليه السلام . . . إن عندي لسيف رسول الله، وإن عندي لراية رسول الله ودرعه ولامته ومغفرته»[1].

وخلاصة القول، فإن موقف الإمام الصادق من الحكام الظالمين هو الموقف الذي يثير في نفوس الحكام المخاوف، ويخلق لهم المصاعب من خلال بناء النفوس والأفكار على قيم العدل وشجب الباطل والفساد، والعمل على تحقيق علاقات في التعامل بين الأفراد تسودها روح المحبة والأخاء وعزة النفس والإباء. دخل عليه رجل فقال: يا ابن رسول الله أخبرني بمكارم الأخلاق؟ فقال عليه السلام: «هي العفو عمن ظلمك، وصلة من قطعك، وإعطاء من حرمك».

وقال يوماً لأصحابه:

«إنّا لنحبّ من كان عاقلاً فهماً حليماً مدارياً صبوراً صدوقاً وفياً، إن الله عز وجل خصّ الأنبياء بمكارم الأخلاق، فمن كان فيه، فليحمد الله على ذلك. ومن لم تكن فيه فليتضرّع إلى الله عز وجل وليسأله إياها».

وقال غير مرة: «ما قدّست أمة لم تأخذ لضعيفها من قوّيها بحقّه».

وقال عليه السلام: «اتقوا الله واعدلوا، فإنكم تعيبون على قوم لا يعدلون» فيسعى عليه السلام إلى تحقيق العدل في السلوك والتعامل والتزام العباد أولاً فيما بينهم بذلك، لأن الإصلاح بالأقوال والمواعظ الخلقية والاجتماعية لا تحقق أثرها، إلا إذا كانت الأعمال مظاهرها. فوضع العمل الصالح والعدل والخلق الطيب قواعد لدعوته في مكافحة الظلم بكافة أنواعه والوقوف إلى جانب المظلومين، ليظهر بذلك خطأ أولئك الذين اغتصبوا حقوق الأمة وترأسوا عليها، وقد انحرفوا كل الانحراف عن مبادىء الإسلام وتعاليمه[2].

ولقد أراد بعض أصحابه ـ كما ذكرنا في أول هذا الجزء ـ حمله على إعلان الثورة، وذكروا له أن مائة ألف يضربون بين يديه. فرفض لأنه يعوّل على دعوته في هزّ

---

(١) انظر إرشاد المفيد واحتجاج الطبرسي.

(٢) انظر الإمام الصادق، الدعوة الصامتة، الجزء الرابع من هذا الكتاب.

أركان الظالمين، ويرى مواصلة الجهاد بالطرق التي تضمن سلامة المجتمع وحماية أبناء الأمة الإسلامية من الملوك الذين لا تخفّ شهوتهم للدماء، ولا يفتر ظلمهم للرعية وانتهاك الحرمات وسلب الأموال والحقوق.

لقد كان عليه السلام يولي العدل أهمية كبرى، ويسعى إلى فضح سيرة الملوك الذين تسلّطوا على رقاب الأمة وأعوانهم الظلمة، ويكشف حقيقة حكمهم وواقع نظامهم الذي تلبّس بالإسلام وتستر بشعاراته. فعندما تمرّ الأيام وتحدث في بعض النفوس الصحوة ممن ارتضت إقرار الظلم ومساعدة الجبارين، يجعل الإمام ضمان حقوق الأمة ومعالجة ما لحق بها من الظلم هو الأصل في السلامة والعودة إلى جادة الدين. فقد جاءه رجل ممن عمل للأمويين، وكان في معاونة الحجاج، فقال للإمام عليه السلام: إني لم أزل والياً منذ زمن الحجاج إلى يومنا هذا، فهل لي من توبة؟ فسكت الإمام عليه السلام. ثم أعاد عليه الرجل، فقال عليه السلام: «لا، حتى تؤدي إلى كل ذي حق حقه»[1].

والذين شاركوا في سلب أموال المسلمين، كانوا لا يجدون من الإمام الصادق عليه السلام ذلك التسامح الذي يظهره غير أهل البيت عليهم السلام في إبقاء الصبغة الدينية على حكم الظلمة والفساق، وهو تسامح على حساب العقيدة والأحكام ليكون إزهاق الأرواح تأويلاً، وسلب الأموال وانتهاك حرمات المسلمين اجتهاداً. ولكنها عند الإمام الصادق حفظ الدين، وصون الحقوق والمصالح، والحكم بما أمر الله ورسوله. سئل عليه السلام عن رجل أصاب مالاً من عمّال بني أمية وهو يتصدق منه ويصل قرابته ويحج ليغفر له ما اكتسب ويقول: إن الحسنات يذهبن السيئات. فقال الإمام عليه السلام: «إن الخطيئة لا تكفّر الخطيئة، وإن الحسنة تحطّ الخطيئة». فقيّد الإمام الصادق الفعل الذي يعين على التوبة بالحسنة، وأن يكون خالصاً ليس من جنس أموال الظلمة وأعمالهم، وأن بالطيب من الأفعال تحط الخطيئة. فكل ما يتصل بحال السلطان الظالم الغشوم وواقع ملكه قائم على غير هدى الإسلام وتعاليمه، فلا يمتّ إلى عمل الخير بصلة، ولا يحصل من الاتصال به حسنة تنال من الله القبول وتمحى بها السيئات.

---

(١) انظر الفصول المهمة للحر العاملي، باب جهاد النفس.

رؤساء المذاهب

مالك بن أنس

ونعود إلى الحديث عن المذاهب الأربعة ورؤسائها. ونبدأ في البحث عن حياة الإمام مالك بن أنس.

وتختلف المصادر في سنة ولادته، ولم تقطع كتب المناقب بصحة أحدها، فظل الاختلاف في سنة مولده كالاختلاف في مدة حمله. فقيل أنه ولد سنة ٩٠هـ، وقيل سنة ٩٣هـ، وقيل سنة ٩٤، أو ٩٥، أو ٩٦ في المدينة المنورة. كما قيل في مدة بقائه في بطن أمه: سنتين، أو ثلاث، أو أربع. وقد تناولنا ذلك في القسم السابق من حياة مالك الذي تضمنه الجزء الثاني من الكتاب.

من هو الإمام مالك:

هو أبو عبد الله بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمر بن الحارث بن عثمان بن عمر بن الحارث، وهو ذو أصبح من حمير بن سبأ وهي قبيلة يمنية، وأمه أزدية وهي العالية بنت شريك[(١)].

وطعن في صحة هذا النسب، فقال محمد بن إسحاق: إن مالكاً وأباه وجده وأعمامه موالي لبني تيم بن مرة[(٢)].

وقد ادعى أن حصول هذه الشبهة في نسب مالك وعدم كونه عربياً أن مالك بن أبي عامر قدم المدينة متظلماً من بعض ولاة اليمن، فمال إلى بعض بني تيم بن مُرّة فعاقده، وصار معهم. ويلزم من ذلك أنه حليف ليصرف معنى المولى إلى المناصرة.

---

(١) وقيل الغالية بالغين المعجمة.

(٢) الانتقاء لابن عبد البراص.

وليس الطعن مقتصراً على ابن إسحاق، فإن ابن شهاب أستاذ مالك حدّث عن أبي سهيل نافع بن مالك ـ عم مالك بن أنس ـ فقال: حدثني نافع بن مالك مولى التيميين.

كما يروي ابن عبد البر عن البخاري بسند عن نافع بن مالك بن أبي عامر قال: قال لي عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله وهو ابن أخي طلحة: هل لك إلى ما دعانا إليه غيرك فأبينا عليه، أن يكون هدمنا هدمك ودمنا دمك ترثنا ونرثك؟ وينسب هذا إلى الربيع بن مالك ـ عم مالك ـ أيضاً.

وكما طعن في أبي مالك وعدم صحة عروبته، فكذلك الحال في أمه العالية، وقيل إنها طليحة مولاة عبيد الله بن معمر. حكاه القاضي عيّاض[1] وابن عائشة. وقال ابن عمران التميمي: ما بيننا وبينه نسب، إلا أن أمه مولاة لعمي عثمان بن عبد الله[2].

وقد أثرت هذه الأقوال على مالك، وكانت السبب في تكذيب مالك لمحمد بن إسحاق وطعنه عليه[3]. ولما بلغ مالك قول ابن شهاب قال: ليته لم يروِ عنه شيئاً[4].

عصر مالك وعلمه:

قلنا فيما مرّ من الأجزاء السابقة، إن النزاعات الفقهية والمشكلات التي طرأت كانت سبباً في ظهور الأسماء، وتغلّب جماعة دون أخرى. وقد كان النزاع بين أهل العراق وبين أهل الحجاز سبباً في ظهور مدرسة الرأي ومدرسة الحديث، وتزعُّم أبي حنيفة للأولى، وتزعُّم مالك للثانية. وكانت مصالح الحكام قد اقتضت أن تقفَ إلى جانب أبي حنيفة، وتشدّ أزر أصحابه، وتقدّم الموالي لتحط من قيمة العرب. ثم اقتضت أن توجّه الأنظار إلى مالك وتتبناه وتجعل منه إمام الدولة المطاع.

ثم لعب الغلوّ دوره في تعزيز اتجاه كلٍ من الطرفين، فوضعت الأحاديث والمنامات على لسان النبي محمد ﷺ كما في حديث: يكون في أمتي رجل اسمه

---

(١) تزيين الممالك في مناقب الإمام مالك للسيوطي ص٤.
(٢) الديباج المذهب لابن فرحون ص١٧.
(٣) الانتقاء ص١١.
(٤) الديباج المذهب.

النعمان وكنيته أبو حنيفة هو سراج أمتي، هو سراج أمتي، هو سراج أمتي[١]. وغالطوا الحقائق فقالوا: إن أهل الكوفة كلهم موالي لأبي حنيفة ـ أي عبيد ـ فأعتقهم[٢]. يريدون نفي حقيقة أن أبا حنيفة كان مولى لبيت من بيوت الكوفة وكان لهم ولاؤه.

وقد دخل التعصب في إطار الأشخاص وتقديس الرؤساء، لأن الأحوال أدّت إلى اصطناع المذاهب وتعيين الرؤساء، وراح الناس في ظل التنازع والتعصّب يلتحمون بالطائفة التي شبّوا في أفيائها وعاشوا بأوساطها، وقد لجأ المالكية إلى حديث عالم المدينة، فإن كان صحيحاً، فأين ذهب عن مالك في حينها ليحتج به لنفسه؟ وذلك أول ما يتبادر، لأن عموم حديث مالك وغاية جهده أن يجعل موقع المدينة ومنزلتها الشرعية في المكان الأول، وعمل أهل المدينة متبعاً بحكم تشرّفها بهجرة الرسول محمد وهبوط الوحي، ومكانة المدينة تجيب عليها السرائر وتعبّر عنها المشاعر قبل أن تنص عليها الأقوال والأفعال، إلا أنها جعلت في صيغة يلتمس بها الظفر والفلج في وجوه وموارد هي من التصرف والسلوك، وليس من مضامين العلم أو أغراض الشريعة المحضة.

لقد جعلوا من الحديث النبوي معتمداً في ترجيح المذهب المالكي من خلال ترجيح شخصية مالك وانطباقه عليه وحده، وهو أنه ﷺ قال: يوشك أن تضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم. وفي رواية: يلتمسون العلم، فلا يجدون عالماً أعلم. وفي رواية: أفقه من عالم المدينة. وفي رواية: من عالم بالمدينة. وفي بعضها: آباط الإبل، مكان: أكباد الإبل. وقد رواه البخاري عن ابن جريج موقوفاً على أبي هريرة، ومحمد بن عبد الله الأنصاري عن ابن جريج، ورواه أيضاً المقبري عن أبي هريرة: لا تنقضي الساعة حتى يضرب أكباد الإبل من كل ناحية إلى عالم المدينة يطلبون علمه. وخرّجه النسائي مرفوعاً إلى أبي هريرة: يضربون أكباد الإبل ويطلبون العلم ولا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة. وروي عن أبي موسى الأشعري بلفظ: يخرج ناس من المشرق والمغرب في طلب العلم، فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة. إلى آخر الروايات التي ذكرها كتّاب المناقب كابن فرحون.

---

(١) جامع مسانيد أبي حنيفة ج١ ص١٥.

(٢) مناقب أبي حنيفة للمكي ج١ ص١٧٤.

وقد قلنا في القسم الأول، إن الحديث لا يخلو من خدشة في السند، فإن أبا الزبير ـ وهو أحد رواة هذا الحديث ـ قد تكلموا فيه وطعنوا.

كما أن صرف الحديث إلى إرادة مالك دون غيره يبقى ضعيفاً ولا يتجه. لأن الحديث يراد به المنزلة العلمية للمدينة أولاً، ولرجل العلم فيها ثانياً الذي عيّن بصفات عامة تدور مع حركتها العلمية ومنزلتها، ولا يتمكن شيوخ المالكية من نفي ذلك وهم يسوقون الحديث، فابن فرحون يذكر تأويل محمد بن إسحاق المخزومي: (ما دام المسلمون يطلبون العلم فلا يجدون أعلم من عالم المدينة، كان بها أو بغيرها، فيكون على هذا سعيد بن المسيب ـ كما يرى ـ لأنه النهاية في وقته. ثم من بعده غيره ممن هو مثله من شيوخ مالك، ثم بعدهم مالك، ثم بعده من قام بعلمه وكان أعلم أصحابه بمذهبه، ثم هكذا، ما دام للعلم طالب ولمذهب أهل المدينة إمام، ويجوز على هذا أن يقال هو ابن شهاب في وقته، والعمري في وقته، ومالك في وقته).

وتعلّق المالكية بدار الهجرة وشهادة السلف. قال القاضي عبد الوهاب: لا ينازعنا في هذا الحديث أحد من أرباب المذاهب، إذ ليس منهم من له إمام من أهل المدينة فيقول هو إمامي. ونحن نقول إنه صاحبنا بشهادة السلف له، وبأنه إذا أطلق بين العلماء قال عالم المدينة وإمام دار الهجرة فالمراد به مالك دون غيره من علمائها، وقال القاضي عياض: فوجه احتجاجنا بهذا الحديث من ثلاثة أوجه، الأول: تأويل السلف أن المراد به مالك، وما كانوا ليقولوا ذلك إلا عن تحقيق. الثاني: شهادة السلف الصالح له وإجماعهم على تقديمه يظهر أنه المراد إذا لم تحصل الأوصاف التي فيه لغيره ولا أطبقوا على هذه الشهادة لسواه. الثالث: ما نبّه عليه بعض الشيوخ أن طلبة العلم لم يضربوا أكباد الإبل من شرق الأرض وغربها إلى عالم، ولا رحلوا إليه من الآفاق رحلتهم إلى مالك[١].

وقد ذكرنا طائفة من العلماء في ذلك الوقت هم من شيوخ مالك وأعلم منه[٢] كربيعة الرأي بن أبي عبد الرحمن، والذي أراده العباسيون في مطلع دولتهم أن يدلي

(١) شرح الموطأ للزرقاني ج١ ص٤.

(٢) انظر الجزء الثاني من الكتاب.

بدلوه بين الدلاء في تعضيد دولتهم وخدمتهم. ويروي مالك عن سيرة أستاذه: لما قدم ربيعة بن أبي عبد الرحمن على أمير المؤمنين أبي العباس أمر له بجائزة، فأبى أن يقبلها، فأعطاه خمسة آلاف درهم يشتري بها جارية حين أبى أن يقبلها، فأبى أن يقبلها. قال ابن وهب: وحدثني مالك عن ربيعة قال: قال لي حين أراد الخروج إلى العراق: إن سمعت أني حدثتهم شيئاً أو أفتيتهم، فلا تعدّني شيئاً. قال: فكان كما قال، لما قدمها لزم بيته فلم يخرج إليهم ولم يحدّثهم بشيء حتى رجع[1]. ولا بد أن روايته عن سيرة أستاذه جاءت عقب وفاة ربيعة، ومالك لم يتحول بعد إلى صف العباسيين ويتخلى عن ميوله وعواطفه السابقة التي تشده إلى الأمويين وتجعله يتغاضى عن جرائمهم وما فعلوا بالحرمين وما ارتكبوا من مجازر بحق أهل المدينة، فهو يبني تفوقه ويرجع نفسه بانتسابه إلى المدينة، ويرى أن ينقاد غيره إليه كما يقول في رسالته إلى الليث بن سعد[2]:

(اعلم رحمك الله أنه بلغني أنك تفتي الناس بأشياء مختلفة، مخالفة لما عليه الناس عندنا وببلدنا الذي نحن فيه، وأنت في أمانتك وفضلك، ومنزلتك من أهل بلدك، وحاجة من قبلك إليك، واعتمادهم على ما جاء منك حقيق بأن تخاف على نفسك، وتتبع ما ترجو النجاة باتباعه، فإن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ وقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ فإنما الناس تبع لأهل المدينة، إليها كانت الهجرة، وبها نزل القرآن، وأُحِلّ الحلال وحُرّم الحرام...) الخ رسالته.

قال أبو مصعب: قدم علينا ابن مهدي[3] فصلّى خلف مالك، ووضع رداءه بين يدي الصف، فلما سلّم الإمام رمقه الناس بأبصارهم، فقال مالك: مَن هُنا من

(١) تاريخ بغداد ج٢ ص٤٢٥.

(٢) أبو الحرث ـ الحارث ـ ابن عبد الرحمن الفهمي من أصبهان، ولد بمصر سنة أربع وستين، روى عن الزهري وعطاء ونافع كانت له حظوة وخضع القضاء لأوامره، فكان إذا رابه من أحد شيء كاتب فيه فيعزل، وفي الشذرات أن المنصور أراده لولاية مصر، فأبى وتولى قضاءها.

(٣) هو الحافظ عبد الرحمن بن مهدي بن حسان الأزدي، مولاهم أبو سعيد البصري اللؤلؤي روى عن شعبة والثوري ومالك، وثقه أبو حاتم وأحمد، قال القواريري: أملى علينا ابن مهدي عشرين ألفاً من حفظه، كان يحج كل سنة، توفي سنة ١٩٨هـ.

الحرس؟ فجاءه نفسان. فقال: خذا صاحب هذا الثوب فاحبساه. فحُبس، فقيل له: إنه ابن مهدي. فوجه إليه وحضر عنده فقال له: أما خفت الله واتقيته إن وضعت ثوبك بين يديك في الصف وأشغلت المصلين بالنظر إليه، وأحدثت في مسجدنا شيئاً ما كنا نعرفه، وقد قال النبي ﷺ: من أحدث في ديننا شيئاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين[1].

ويروي كتّاب مناقب مالك، أن أمه قالت له: إذهب إلى ربيعة، فتعلّم من أدبه قبل علمه. قال مالك: كان لي أخ في سن ابن شهاب[2] فألقى أبي يوماً علينا مسألة، فأصاب أخي وأخطأت، فقال لي أبي: ألهتكَ الحمام عن طلب العلم. فغضبت، وانقطعت إلى ابن هرمز[3] سبع سنين. وفي رواية ثمان سنين لم أخلطه بغيره، وكنت أجعل في كمي تمراً وأناوله صبيانه وأقول لهم: إن سألكم أحد عن الشيخ فقولوا مشغول! يريد أن ينفرد بالشيخ ولا يشاركه أحد بمجلسه، ولا بد أن الصبيان قالوا بما أراد لهم أن يقولوا.

ويذكر مالك مدة اختلافه إلى ابن هرمز ثلاثين سنة، فيشير إلى المدة دون ذكر ابن هرمز كما أراد، والناس تعرف منه الإشارة.

كذلك أخذ مالك عن نافع مولى بن عمر، وقال: كنت آتي نافعاً نصف النهار وما تظلني الشجر من الشمس، أتحيّن خروجه، فإذا خرج أدعه ساعة كأني لم أره، ثم أتعرض له فأسلّم عليه وأدعه، حتى إذا دخل البلاط أقول له: كيف قال ابن عمر في كذا وكذا؟ فيجيبني، ثم أحبس عنه، وكان فيه حدّة، وكنت آتي ابن هرمز من بكرة فما أخرج من بيته حتى الليل.

والقصد أن مالكاً أراد أن يتهيأ للفتيا، وأن يتأهل للحديث. ولكن موهبة الحفظ والذاكرة عنده كانت أظهر من غيرها، فيروى أنه قال: (حدثني ابن شهاب أربعين حديثاً ونيفاً فيها حديث السقيفة، فحفظت، ثم قلت: أعدها عليّ فإني نسيت النيف. فأبى، فقلت: أما كنت تحب أن يعاد عليك؟ قال: بلى. فأعاد، فإذا هو كما حفظت). واشتهر عنه ذلك وكان من أخص صفاته. يقول سفيان بن عيينة: دارت

---

(١) الاعتصام ج٢ ص٦٨. والمدارك ص١٣٠.

(٢) و(٣) انظر ترجمتهما في الجزء الثاني.

مسألة في مجلس ربيعة. فتكلم فيها ربيعة. فقال مالك: ما تقول يا أبا عثمان؟ فقال ربيعة: أقول فلا تقول، وأقول إذ لا تقول، وأقول فلا تفقه ما أقول. ومالك ساكت، فلم يجب بشيء وانصرف(١).

وأخرج الخطيب عن إبراهيم المزني قال: حججت سنة، فأتيت المدينة، فحدثني إسماعيل بن جعفر الخياط فقال: نزلت بي مسألة، فأتيت مالكاً فسألته فقال: انصرف حتى أنظر في مسألتك. فانصرفت وأنا متهاون بعلمه، وقلت: هذا الذي تضرب إليه المطي لم يحسن مسألتي. فأتاني آت في منامي فقال: أنت المتهاون بعلم مالك، أما إنه لو نزل بمالك أدق من الشعر، وأصلب من الصخر، لقوي عليه باستعانته عليه بما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم(٢).

وقد لجأ مالك إلى المنامات بنفسه، فكان يقول: ما بتُّ ليلة إلا رأيت رسول الله ﷺ(٣). وعن خلف بن عمر: دخلت على مالك فقال لي: انظر ما ترى تحت مصلاي. فنظرت فإذا أنا بكتاب، قال: اقرأه. فإذا فيه رؤيا رآها له بعض إخوانه. فقال: رأيت النبي ﷺ في المنام في مسجده قد اجتمع الناس عليه، فقال لهم: إني قد خبأت لكم طيباً وعلماً، وأمرت مالكاً أن يفرّقه على الناس. فانصرف الناس وهم يقولون: إذن ينفذ مالك ما أمره رسول الله ﷺ، ثم بكى، فقمت عنه(٤).

وقال محمد بن رمح: حججت مع أبي وأنا صبي لم أبلغ الحلم، فنمت في مسجد النبي ﷺ بين القبر والمنبر، فرأيت النبي ﷺ قد خرج من القبر متكئاً على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فسلّمت عليهم، فردوا عليّ السلام، فقلت: يا رسول الله، أين أنت ذاهب؟ فقال أقيم لمالك الصراط المستقيم. فانتبهت، فأتيت أنا وأبي مالكاً، فوجدنا الناس مجتمعين عليه، وقد أخرج لهم الموطأ أول ما خرج(٥).

وقال محمد بن رمح أيضاً: رأيت النبي ﷺ في المنام منذ أربعين سنة فقلت:

---

(١) الديباج ص٢١.
(٢) مناقب مالك للسيوطي ص١٢.
(٣) حلية الأولياء ج٦ ص٣١٧.
(٤) مناقب مالك ص٨. وحلية الأولياء ج٦ ص٣١٧.
(٥) مناقب مالك لعيسى بن مسعود الزواوي ص١٧.

يا رسول الله مالك والليث يختلفان في المسألة؟ فقال النبي ﷺ: مالك مالك ورث جدّي يعني إبراهيم[1].

وقال بشير بن أبي بكر: رأيت في النوم أني دخلت الجنة، فرأيت الأوزاعي وسفيان الثوري، ولم أرَ مالك بن أنس. فقلت أين مالك؟ قالوا: وأين مالك؟ رفع مالك رفع مالك. فما زال يقول: وأين مالك، وأين مالك، رفع مالك حتى تسقط قلنسوته[2].

وروى أبو نعيم عن إبراهيم بن عبد اللّه قول إسماعيل بن مزاحم المروزي قال: رأيت النبي ﷺ في المنام فقلت: يا رسول الله من نسأل بعدك؟ قال: مالك بن أنس[3].

وعن مصعب بن عبد اللّه الزبيري قال: سمعت رسول الله ﷺ إذ أتاه رجل فقال: أيّكم مالك؟ فقالوا: هذا. فسلّم عليه، واعتنقه، وضمه إلى صدره وقال: والله لقد رأيت رسول الله ﷺ البارحة جالساً في هذا الموضع، فقال: ائتوا بمالك. فأتي بك ترعد فرائصك، فقال: ليس بك بأس يا أبا عبد اللّه. وكنّاك وقال: اجلس. فجلست. قال: افتح حجرك. ففتحته، فملأه مسكاً منثوراً، وقال: ضمه إليك، وبثه في أمتي. قال: فبكى مالك وقال: الرؤيا تسر ولاتغر وإن صدقت رؤياك فهو العلم الذي أودعني الله[4].

ويطول بنا المقام لو أحصينا الرؤى والمنامات وما تفيض به الأحلام. وقد أوردنا بعضاً مما كان على عهد مالك نفسه، وبذلك أصبح من حقهم أن يعتمدوا المنامات ركناً، ويلجأوا إليها فيما يريدون ترجيحه وشيوعه، وخلاصة القول؛ إن مالكاً عرف بالحفظ والذاكرة، فاتجه إلى المنحى الذي يتفق مع موهبته، ثم ظهر منه كراهية للسؤال، فمال إلى استخدام سلاح الاتهام بالبدعة. وغالباً ما يظن بالسائل أنه يريد المغالطة، ويقوم بردّه بهذه الآية: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ والحال يقتضي التهيؤ للمناظرة، والإقبال على الحوار، لأن الفترة قد شهدت بوادر اتساع الأقوال في الصفات وإثباتها أو تعطيلها، وليس من الحكمة في شيء الزجر دون اقناع، أو التعنيف وترك الحجاج، مما يترك في نفس السائل الحيرة، أو يؤكد في عقله الميل ومن ثم الانجراف.

---

(١) و(٢) الجرح والتعديل ج١ ص٢٨.
(٣) حلية الأولياء ج٦ ص٣١٧.
(٤) الانتقاء ص٣٩. وشرح الموطأ للزرقاني ج١ ص٤.

يروي حفص بن عبد اللّه قال: كنّا عند مالك، فجاء رجل، فقال: يا أبا عبد اللّه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟ فقال: الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. وأظنك صاحب بدعة. وأمر به، فأخرج.

والجواب بلا أدري أهون بكثير حتى وإن بات قاعدة يورثها مجلسه، فلا عيب في ذلك، لأن السائل يتحرى عند غيره الإجابة، وهو المعروف عن مالك أيضاً، فعن الهيثم بن جميل قال: شهدت مالكاً سئل عن ثمان وأربعين مسألة، فقال في اثنين وثلاثين منها: لا أدري. وغالباً ما يلجأ إلى (لا أدري) فعن ابن وهب أنه قال: لو شئت أن أملأ ألواحاً من قول مالك (لا أدري) فعلت[1] ومن علماء المالكية من يتعجب من قول لا أدري[2].

* * *

إن عصر مالك كان من أكثر العصور إزدهاراً، وقد أصبحت المدينة موطناً للعلم وموئلاً لطلابه من مختلف الأقطار الإسلامية، وامتازت بالتمسّك بالحديث في مقابلة العراقيين وامتيازهم بالرأي والقياس، وعظم العداء بين البلدين، وأدى إلى اتهامات وخصومات ابتعدت كثيراً عن العلم.

كان أبو سعيد الرأي يماري أهل الكوفة، ويفضّل أهل المدينة، فجاءه رجل من أهل الكوفة واسمه شرشيراً وقالوا كلب في جهنم يسمى شرشيراً فقال:

عندي مسائل لا شرشير يعرفها ... إن سيل عنها ولا أصحاب شرشير
وليس يعلم هذا الدين يعلمه ... إلا حنيفية كوفية الزور
لا تسألن مدينياً فتكفره ... إلا عن البم والمثنى والزير

فكتب أبو سعيد إلى أهل المدينة: إنكم قد هُجيتم، فردّوا. فردّ عليه رجل من أهل المدينة يقول:

لقد عجبت لغا وساقه قدر ... وكل أمرٍ إذا ما جمّ مقدور
قالوا المدينة أرض لا يكون بها ... إلا الغناء وإلاّ البم والزير
لقد كذبت لعمر الله إن بنا ... قبر النبي وخير الناس مقبور[3]

---

(١) المناقب للسيوطي ص١٢ وص١٦. وحلية الأولياء ج٦ ص٣٢٣.
(٢) انظر المجلد الأول/ الجزء الثاني من هذا الكتاب.
(٣) العقد الفريد ج٣ ص٤٠٨.

أما في المدينة، فكان مالك بمنزلته يوجه الناس ضد أهل العراق، وكان يقول لرجل من أهل الكوفة: لم يأخذ أوّلونا عن أوّليكم، فكذلك لا يأخذ آخرونا عن آخريكم. ووصفها مالك بدار الضرب، فقال: هي دار الضرب، يضربون بالليل ما ينفقون. وكان ينسب إلى ربيعة القول: ما رأيت عراقياً تام العقل.

ونسب إلى أحد علماء المدينة قوله: كأن النبي الذي بعث إلينا غير النبي الذي بعث إليهم.

وكان يقال بالمدينة: أتركوا أحاديث أهل العراق منزلة أحاديث أهل الكتاب، فلا تصدّقوهم ولا تكذّبوهم(١).

وفي وسط هذه المنازعات والخصومات التي استباحت الكثير من عصم الإيمان وروابط العقيدة، كانت مدرسة الإمام الصادق تفيض بإشراقها من علم أهل بيت النبوة، وتغني بإلهامها عقول العلماء، فكان الإمام الصادق محيطاً بموارد النزاع وعارفاً بوجوه الخلاف بصورها على المسائل والآراء، وصبغتها التي مضت عليها في المجالس والحلقات. ويجري علمه في أوساط الأمة بأصوله من الكتاب وأدلته من السنّة، بشمول لا يتهيأ لبشر، ودراية يعجز عنها غيره، فكان أفقه الناس وأعلم أهل زمانه.

وكان أبو جعفر المنصور أول ما أراد أن يجعل أبا حنيفة وسيلته في التأثير على مكانة الإمام الصادق في النفوس والنيل من منزلته العلمية، وذلك قبل أن يتحول إلى الإمام مالك.

قال الحسن بن زياد اللؤلؤي: سمعت أبا حنيفة ـ وسئل من أفقه من رأيت ـ؟ قال: ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد الصادق، لمّا أقدمه المنصور بعث إلي فقال: يا أبا حنيفة إن الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد، فهيىء له من المسائل الشداد، فهيأت له أربعين مسألة. ثم بعث إليّ أبو جعفر وهو بالحيرة، فأتيته، فدخلت عليه، وجعفر بن محمد جالس عن يمينه، فلما بصرت به دخلتني من الهيبة لجعفر بن محمد الصادق ما لم يدخلني لأبي جعفر، فسلّمت عليه، وأومأ إلي فجلست، ثم التفت إليه فقال: يا أبا عبد الله هذا أبو حنيفة. فقال: «نعم» ثم اتبعها: قد أتانا، كأنه

---

(١) مناقب الزواوي ص٥٥ ـ ٥٦ ـ ٥٧.

كره ما يقول فيه قوم أنه إذا رأى الرجل عرفه، ثم التفت إلي فقال: يا أبا حنيفة ألقِ على أبي عبد الله من مسائلك. فجعلت ألقي عليه، فيجيبني فيقول: «أنتم تقولون كذا، وأهل المدينة يقولون كذا، ونحن نقول كذا» فربما تابعنا، وربما تابعهم، وربما خالفنا جميعاً، حتى أتيت على الأربعين مسألة، ما أخل منها بمسألة. ثم قال أبو حنيفة: ألسنا روينا أن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس. . . اهـ[١].

ومما علم من منهج الإمام الصادق ومنطق قوله، فإن تفسير الكتاب عنده ليس بالأخذ من الغير، والحديث هو بإسناد آبائه الطيبين. فمن المؤكد هنا أن المسائل التي كانت عدة السلطان أبي جعفر وسلاحه في مواجهة الإمام الصادق كان يعرضها الإمام الصادق على مصادره وأصوله ويناقشها، فما وافق منها حَسِبَهُ أبو حنيفة متابعةً، وليس الأمر كذلك. لأن الإمام الصادق في علمه لا يتّبع إلاّ القرآن وسنّة النبي والأئمة من أهل بيته، أما المخالفة فأمرها معروف.

وكما رأينا فإن مالكاً كان من طلاب مدرسة الإمام الصادق ومن تلاميذه، قال مالك عن صلته بالإمام الصادق: (جعفر بن محمد اختلفت إليه زماناً، فما كنت أراه إلا على أحدى ثلاث خصال: إما مُصَلّ، وأما صائم، وإما يقرأ القرآن)[٢].

وقوله: (ما رأت عين، ولا سمعت أذن، ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد الصادق علماً وعبادة وورعاً)[٣] وقال مالك: (لقد كنت أرى جعفر بن محمد وكان كثير الدعابة[٤] والتبسّم، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ أصفرّ، وما رأيته يحدّث عن رسول الله ﷺ إلا على طهارة، ولقد اختلفت إليه زماناً، فما كنت

(١) المناقب للموفق المكي ج١ ص١٧٣. وسير أعلام النبلاء ج٦ ص٢٥٦.

(٢) تهذيب التهذيب ج٢ ص١٠٤.

(٣) المجالس السنية للعاملي ج٥. والتوسل والوسيلة لابن تيمية ص٥٢.

(٤) تروى عند بعض المالكية «كثير المزاح» ولا نستغرب الوصف بالمزاح أو الدعابة، لأن عمر بن الخطاب وصف بها الإمام علي، وكان قوله موضع نظر ورد، إلا أن يبتدع بها اصطلاحاً ويحدث بها مسمى جديد فيكون معناها التقوى وشدة الالتزام بالدين، أو حسن الخلق والمعاشرة، فإن كان القصد ظاهر معناها، فهي من الفلتات، ولا يحمل عليهما إلا قصد الإساءة والنيل، ودون ذلك عصمة الله ورعايته من دين راسخ وعلم وافر ومنزلة سامية وخصائص عالية هي الغاية في الكمال والنهاية في الرفعة.

أراه إلا على ثلاث خصال: إما مصلّياً أو صائماً وأما يقرأ القرآن. ولا يتكلم فيما لا يعنيه وكان من العلماء والعبّاد الذين يخشون الله عز وجل)[1].

ومن المحدثين كثير يحملهم التقليد والتعصب على إغفال الجوانب المهمة في اختلاف مالك إلى الإمام الصادق والأخذ عنه والرواية له، ويخال بعضهم كمصطفى الشكعة أن إظهار الصحبة يؤدي إلى المقارنة بينهما بميزان الاستواء والتعادل، وليس الشكعة أول من يفعل ذلك، ولا هذه أول النزعات المعلنة، فقد علمناها منه في كتبه السابقة، وقد وصلني كتابه (الأئمة الأربعة) فأثار في نفسي تساؤلات كثيرة، وكلما تصفّحته كثرت الملاحظات وتعدّدت المؤاخذات، ولو أشرت إلى بعضها لطال بنا الحديث، نرجو الله أن ييسر ويعين لتحرير الردّ عليه، فقد بنى كتابه في الطعن على الشيعة على أساس الوهم والادعاء الباطل بوجود «التشيع المذهبي» وهي مقولة فُتِنَ بها الناظرون إلى التاريخ بمنظار الهوى ومصطلحات السياسة، ممن عظم عليهم كون التشيع وعاء الإسلام وإطاره، وأن رجاله وقادته هم سادة العرب وفرسانها رفعهم الله بعز الإسلام إلى موكب الدعوة وجيش الولاء لصاحب الرسالة النبي الهادي المصطفى، ونبذوا حمية الجاهلية ونعرات القبلية، فأصبحوا دعاة حق وحملة رسالة يتهافتون على الموت في سبيلها.

ومهما كان من أمر الشكعة فهو لا يقوى على إنكار الحقائق الناصعة التي تقود إليها وتنتهي جهوده في البحث عن الأئمة الأربعة فيقول: (ولم يكن مالك وأبو حنيفة وحدهما الآخذين من فيض الإمام جعفر من بين أئمة أهل السنّة، وإنما أخذ عنه واتصل به السفيانان الثوري وابن عينية وشعبة بن الحجاج وغيرهم)[2].

ومما يقوله الشكعة: لقد تأثر مالك بكثير مما في جعفر. تأثر به في الحديث فروى له، ولقد ضمّن مالك كتابه «الموطأ» عدداً من الأحاديث التي رواها. ولقد تأثر به مالك في أنه لم يجلس ليحدّث حديث رسول الله إلا وهو على الطهارة. والقصد أننا أردنا الإشارة إلى كتاب الشكعة، ونتركه أمل تحرير الردّ عليه وإلحاقه بالمناقشات المجموعة.

---

(١) مناقب الزواوي ص٣٣ و٣٤.

(٢) د. مصطفى الشكعة: الأئمة الأربعة ص٣١٧، مصر ١٩٧٩.

أما تأثر مالك بالإمام الصادق فإن مجالاته واسعة، ولقد استمر المالكية على تعضيد مذهبهم بعد وفاة إمامهم، معتمدين على حضور مالك عند الإمام الصادق والاستماع إلى حديثه، وتلقّي تعاليمه في مدرسته، فسمحوا لأنفسهم أن يتخيلوا أموراً لتكون لهم شهادة تؤيد المذهب، فادّعوا أن الإمام الصادق أوصى إلى مالك عند وفاته، ورووا عنه أنه دخل عليه قوم من أهل الكوفة في مرضه الذي توفي فيه، فسألوه أن ينصّب لهم رجلاً يرجعون إليه في أمر دينهم، فقال: عليكم بقول أهل المدينة، فإنها تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد، عليكم بآثار من مضى، فإني أعلمكم أني متبع غير مبتدع، عليكم بفقه أهل الحجاز، عليكم بالميمون المعين المبارك في الإسلام، المتبع آثار رسول الله ﷺ فقد امتحنته فوجدته فقيهاً فاضلاً متبعاً مريداً لا يميل به الهوى، ولا تزدريه الحاجة، ولا يروي إلا عن أهل الفضل من أصحاب رسول الله ﷺ فإن اتبعتموه أخذتم بحظكم من الإسلام، وإن خالفتموه ضللتم وهلكتم، ألستم تقولون إني هيىء من العلم غير محتاج إلى أحد من الخلق؟ فإنه قد أخذ عني كل ما يحتاج إليه، فلا يميل بكم الهوى فتهلكوا، إني أحذركم عذاب الله يوم القيامة، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، أحذركم، فقد أرشدتكم إلى رجل نصّبته لكم، فإنه أمين، مولود في زمانه، قالوا: من هو بيّنه لنا؟ قال: ذلك مالك بن أنس، عليكم بقول مالك. ثم رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم إني بريء من ظنّهم وتخرّصهم ومن رواة السوء منهم، اللهم إنك تعلم أنه قد قيل عن عيسى بن مريم ما لم يقل، وروي عن مالك ما لم يكن، وقيل عن عزير ما لم يقل، وروي عنه ما لم يكن، وقيل عن علي بن أبي طالب ما لم يقل، وروي عنه ما لم يكن، فمن روى عنّي ما لم نقل، فعليه لعنة الله ولعنة اللاعنين والملائكة والناس أجمعين[١].

والرواية صريحة الوضع، نقلناها كاملة للتدليل على مسلك النزاع والخصام في استحلال الوضع، والتماس الظفر بالإقرار بالوقائع العلمية للبناء عليها في مورد، وإنكارها وتجاهلها في مواضعها الأصلية، لأنها في سياقها حجة لغيرهم. وصفوة القول، فإن أصحاب الحديث أرادوا أن يثقلوا موازينهم بهذه المبتدعات، حتى اضطرهم الأمر إلى الوضع لادناء مالك من منزلة الإمام الصادق، ووضعه في التأهل

---

(١) المناقب للزواوي ص١٠.

لاحتلال تلك المنزلة بعد وفاته، ولتكون له الرئاسة بوصية وعهد من الإمام الصادق، وذلك من الجهل بمكان فإذا اتسع المجلس لمالك في مجال التلمذة والأخذ العلمي، فلا تتسع الوصاية له أو لغيره من الناس إلا من نص عليه في خبر الإمامة، وجاء ذكره في آثار الولاية المحفوظة والمعهودة عند أولياء الأمر من الأئمة الهداة المعصومين.

وكذلك فإن كُتّاب المناقب جعلوا من اسم الإمام الصادق وسيلة لإضفاء القدسية على سيرة مالك كما فعل القاضي عياض بدعواه أن الإمام الصادق قال: قيل لمالك اخترت مقامك بالمدينة وتركت الريف والخصب؟ فقال: وكيف لا أختاره وما بالمدينة طريق إلا سلك عليها رسول الله ﷺ وجبريل عليه السلام ينزل عليه من عند رب العالمين في أقل من ساعة[١]. ولا نعلم مناسبة لذلك ولا وجهاً، والدعوى لا تساعد المالكية في تشبّثهم بدار الهجرة لأن الإمام الصادق أعرق أصلاً وعلماً فيها.

وبالجملة فإنا قد اعتمدنا في بيان منازل رؤساء المذاهب على أقوال معاصريهم وأقرانهم من العلماء، فإن فعلنا لا نجد ما يدل على امتيازه وتفرّده بخصائص تؤهله للمرجعية دون غيره، وقد ذكرنا الكثير منها لتكوين الاطلاع والعلم اللازم للموازنة والمقارنة بين شخصيات رؤساء المذاهب وأئمتها.

سئل أحمد بن حنبل عن مالك؟ فقال: حديث صحيح ورأي ضعيف[٢].

قال يحيى بن بكير: الليث أفقه من مالك، لكن الحظوة لمالك[٣].

قال الشافعي: الليث أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به.

وفي رواية: الليث أفقه من مالك إلا أنه صنيعة أصحابه[٤].

وقال سعيد بن أيوب: لو أن الليث ومالكاً اجتمعا، لكان مالك عند الليث أبكم، ولباع الليث مالكاً فيمن يريد[٥] وقد اطلعنا ـ سابقاً ـ على بعض رسالة مالك إلى الليث ومنها:

ثم كان التابعون من بعدهم يسلكون تلك السبيل، ويتّبعون تلك السنن، فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهراً معمولاً به، لم أرَ لأحد خلافه للذي في أيديهم من تلك

---

(١) ترتيب المدارك ج١ ص٥٩.

(٢) مناقب الشافعي للفخر الرازي.

(٣) و(٤) شذرات الذهب ج١ ص٢٨٨.

(٥) الرحمة الغيثية لابن حجر ص٦. وتذكرة الحفاظ ج١ ص٢٠٩.

الوراثة التي لا يجوز انتحالها ولا ادعاؤها، ولو ذهب أهل الأمصار يقولون: هذا العمل ببلدنا، وهذا الذي مضى عليه من مضى لم يكونوا فيه من ذلك على ثقة، ولم يكن لهم من ذلك الذي جاز لهم.

وكان من ردّ الليث على مالك: إن كثيراً من أولئك السابقين الذين عناهم بقول الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ خرجوا إلى الجهاد في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله، فجندوا الأجناد، واجتمع إليهم الناس، فأظهروا بين ظهرانيهم كتاب الله وسنّة نبيّه. وأن أصحاب رسول الله قد اختلفوا بعده في الفتيا في أشياء كثيرة، ويقول له: (ولولا أني قد عرفت أن قد علمتها لكتبت بها إليك. ثم اختلف التابعون في أشياء بعد أصحاب رسول الله ﷺ سعيد بن المسيب ونظراؤه أشد الاختلاف، ثم اختلف الذين كانوا من بعدهم، فحضرتهم بالمدينة، ورأسهم يومئذ ابن شهاب وربيعة بن أبي عبد الرحمن، وكان من خلاف ربيعة لبعض من قد مضى ما قد عرفت وحضرت وسمعت قولك) مشيراً إلى تلمذته عليهما وحضوره عندهما.

وسأل علي بن المديني يحيى بن سعيد: أيما أحبّ إليك، رأي مالك أو رأي سفيان؟ قال: رأي سفيان، لا يُشك في هذا.

وقال: سفيان فوق مالك في كل شيء.

ودخل عليه محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة ـ وهو حَدَث ـ فقال: ما تقول في جُنُب لا يجد الماء إلا في المسجد؟ فقال مالك: لا يدخل الجنب المسجد. قال: فكيف يصنع وقد حضرت الصلاة وهو يرى الماء؟ قال: فجعل مالك يكرر: لا يدخل الجنب المسجد. فلما أكثر عليه قال له مالك: فما تقول أنت في هذا؟ قال: يتيمم ويدخل فيأخذ الماء من المسجد ويخرج فيغتسل. قال: من أين أنت؟ قال: من أهل هذه ـ وأشار إلى الأرض ـ فقال: ما من أهل المدينة أحد لا أعرفه. فقال: ما أكثر من لا تعرف؟ ثم نهض. قالوا لمالك: هذا محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة. فقال: محمد بن الحسن، كيف يكذب وقد ذكر أنه من أهل المدينة؟ قالوا: إنما قال من أهل هذه، وأشار إلى الأرض. قال: هذا أشدّ عليّ من ذلك[١].

وإذا عدنا إلى الحديث واعتمدنا رأي أحمد بن حنبل بعد أن اطلعنا على وصفه

---

(١) تاريخ بغداد ج٢ ص١٧٤ و١٧٥.

مالكاً بالضعف في الرأي، فإن أحمد يقول: كان مالك من أثبت الناس، وكان يخطىء[1].

وهو في جميع الأحوال لا يسلم سنده ولا يخلو طريقه من اختلاف، ولذلك يرجح الحفاظ في كثير من الأحاديث سند غيره كما في حديث «أنا وكافل اليتيم في الجنة. . . الحديث» فرجح أبو زرعة وأبو حاتم سند ابن عيينة على رواية مالك[2].

وقد اختار مالك حبيب بن أبي حبيب الورّاق كاتباً له، وهو معروف بالكذب ومتروك. قال ابن حبان: كان يورق بالمدينة على الشيوخ، ويروي عن الثقات الموضوعات كان يدخل عليهم ما ليس من حديثهم. وقال ابن معين: كان يقرأ على مالك ويتصفّح ورقتين ثلاثة، فسألوني عنه بمصر، فقلت: ليس بشيء. وقد كذّبه أبو داود وآخرون، وهو متروك إلا أنه كان قريباً من مالك، وجعله وسيلة عرضه للحديث[3].

مالك بين الأموية والعباسية:

لقد اتصف مالك بميول أموية واضحة، وقد رأينا أنه أدرك من العهد الأموي أربعين سنة، ومن العهد العباسي أكثر من ذلك. ولا بد أن هذه الميول كانت متوارثة في عائلته منذ جد أبي مالك، وهو أبو عامر الذي برز من بيت مالك بسبب دعاوى الصحبة التي ليست بشيء، ولكن أبرز أعمال جد أبي مالك كونه أحد الأربعة الذين حملوا عثمان ليلاً إلى قبره[4]، وهي رواية يبادر بها أبو عامر قال: (كنت أحد حملة عثمان حين قتل، حملناه على باب، وإن رأسه لتقرع الباب لإسراعنا به، وإن بنا من الخوف لأمراً عظيماً، حتى واريناه في قبره في حش كوكب).

أما الرواية عن عبد الله بن ساعدة فهي: لبث عثمان بعدما قتل ليلتين، لا يستطيعون دفنه، ثم حمله أربعة: حكيم بن حزام وجبير بن مطعم ونيّار بن مكرم وأبو جهم بن حذيفة[5]. فأين جدّ أبي مالك؟

---

(١) شرح علل الترمذي ج١ ص٤٣٧.
(٢) أيضاً ج٢ ص٨٤٢.
(٣) تهذيب التهذيب ٢/ ١٨١. وميزان الاعتدال ١/ ٢١٠. والمجروحين لابن حبان ١/ ٢٦٠. وشرح علل الترمذي ٢/ ٨٣٠.
(٤) مناقب السيوطي ص٤.
(٥) الطبري ج٥ ص١٤٤.

أما مالك، فإن حرصه وتوخّيه في الرواية أدّياه إلى أن يكون ركيزة لحديث موضوع في معاوية أخذه عن أستاذه نافع، عن ابن عمر وهو: كنت عند رسول الله ﷺ فأهدي إليه سفرجل، فأعطى أصحابه واحدة واحدة، وأعطى معاوية ثلاث سفرجلات وقال: إلقني بهنّ في الجنة.

ويتقلد مالك حديث الوضوء من مسّ الذكر، وبإسناده مروان وبسرة بنت صفوان وأنها سمعت رسول الله ﷺ يقول إذا مسّ أحدكم ذكره فليتوضأ. وبسرة مجهولة لم تكن صحبتها أو مكانتها إلا من صنع الأمويين وحاشيتهم، ولكن مالك بن أنس يرى مكانتها في علاقتها بالإمويين، لذا فهي مقبولة عنده وغير مجهولة، ولا يفيد طعن رجال الحديث في روايتها وقلة صحبتها ـ إن وجدت ـ فيقول مالك: أتدرون من بسرة بنت صفوان؟ هي جدة عبد الملك بن مروان أم إمه فاعرفوها[1] فكأن (إمام المدينة) نسي الزرقاء؟!!

ويتبع الأمويين بميوله، ويتمنى أن يكون في المدينة مثل عبد الرحمن بن معاوية الداخل إلى الأندلس، ويقول مالك: ليت أن الله زيّن حرمنا بمثله[2] كأن لم يكف ما فعل أسلاف الدّاخل وأبناء معاوية الأول من جرائم، وما انتهكوا من حرمات، حتى كان الرجل من أهل المدينة بعد وقعة الحرّة إذا زوّج ابنته لا يضمن بكارتها، ويقول: لعلها قد افتضّت في وقعة الحرة[3]. والمدينة التي يحتج بفضلها مالك ويسعى إلى أن يقتدي به الآخرون لأن فيها الصحابة وهو من أهلها أيضاً، ختم الحجاج أعناق الصحابة من أهلها كجابر بن عبد اللّه الأنصاري وأنس بن مالك وسهل بن سعد الساعدي ليذلّهم.

أما رأيه في التفضيل، فهو من آثار هذه الميول. فهو يرى أن الإمام علياً كسائر الصحابة. روى مصعب ـ وهو أحد تلامذة مالك ـ أنه سأل مالكاً:

من أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ؟ فقال مالك: أبو بكر قال: . ثم من؟ قال: عمر. قال: ثم من؟ قال: عثمان. قال: ثم من؟ قال: هنا وقف الناس.

---

(١) كتاب الاعتبار لابن حازم الهمذاني ص٤٣.
(٢) مالك لأمين الخولي ص٢٠٠ نقلاً عن شرح العيون لابن نباته.
(٣) الفخري ص١٠٧.

ولكنه أخذ يتردّد في ضمّ عثمان إلى الشيخين لأنه التحق بركب العباسيين فيما بعد ـ كما سيأتي ـ وسار على ما يسير عليه المنصور في ذلك، فإنه لما دخل عليه مالك قال له المنصور: من أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ؟ قال مالك: أبو بكر وعمر. فقال المنصور: أصبت، وهذا رأي أمير المؤمنين ـ يعني نفسه ـ وكانت موافقة مالك للمنصور واتباعه السلطة من المحفزات على اتخاذ مالك عالماً لها.

قال الشيخ أبو زهرة: إن مالكاً يخالف بذلك ـ أي التفضيل ـ إمامين آخرين عاصراه: أحدهما أسنّ منه ومات قبله وهو أبو حنيفة. وثانيهما أصغر منه وهو تلميذه الشافعي. فإن أبا حنيفة لا يعد علياً كسائر الناس بل «يرفعه» إلى مرتبة الراشدين من الخلفاء، ويقدمه في الترتيب على عثمان. والشافعي يعلن محبته لعلي، ويحكم على خصومه بأنهم بغاة...[١].

ونحن نقول أنه خالف إماماً ثالثاً وهو أحمد بن حنبل، فما كان رأيه كرأي مالك، بل كان يعدّ علياً من أهل بيت لا يجارون، ولا يقاس بهم أحد، وذلك عندما سأله ولده عبد الله: من أفضل الناس؟ قال: أبو بكر وعمر، وعثمان. ثم سكت، فقال له فعلي: فقال: يا بني، علي من أهل بيت لا يقاس بهم أحد. وله كثير من الآراء في تفضيل الإمام علي. حتى أنه ألف كتاباً في مناقب الإمام علي، فهو يرى أن ما لأحد من الصحابة من الفضائل بالأسانيد الصحاح مثل ما لعلي[٢].

ولا يصح اعتبار التفضيل سبباً في تعرّضه إلى الأذى على يد جعفر بن سليمان والي المدينة سنة ١٤٦هـ وإطلاق اسم المحنة على هذه الحادثة التي تعرض بها إلى الأذى، فقد جرّد من ثيابه، ومدّت يداه، وضرب بالسياط حتى انخلعت كتفاه لعدم رضا الطالبيين عن مذهب مالك بهذا الخصوص.

وعلينا أن نقف عند هذه الحادثة لأنها الفاصل بين الميول الأموية في حياة مالك والميول العباسية التي ظهرت عليه بما لا ينسجم مع ماضيه. إذ أن دخوله في أمر ثورة محمد النفس الزكية أمر غير متوقع، فلذلك لا غرابة في عدم الإجماع على سبب واحد لهذه الحادثة. فإضافة إلى ما ذكرناه من القول في أن عدم الرضا من قبل

---

(١) مالك ص٧٠.

(٢) مناقب أحمد لابن الجوزي ص١٦٣.

الطالبيين كان سبباً في ذلك لرأي مالك في التفضيل. فهناك قول أن السبب هو مجاهرة مالك بمخالفة ابن عباس في جواز نكاح المتعة، فقيل له في قول ابن عباس فيها، فقال: كلام غيره فيها أوفق لكتاب الله. وأصرّ على القول بتحريمها، فطيف به على ثور مشوّهاً، فكان يرفع القذر عن وجهه ويقول: يا أهل بغداد أنا مالك بن أنس فُعل بي ما ترون لأقول بجواز المتعة[١].

وهذا بعيد عن الواقع، لأن الحادثة وقعت في المدينة، وإذا سلّمنا صحة هذا السبب، فهل أصرّ مالك على رأيه فيما بعد؟ ووافقته الدولة وتخلّت عن رأيها وقرّبته؟ أم أنه وافق رأيها وتنازل عن إصراره، وترك ما وافق كتاب الله لما وافق رأيهم؟

ولا يبعد أن يكون وراء وضع هذه الصور المتعددة أنصار مالك لغرض اشتهاره وتوسيع دائرة ذكره.

ومهما يكن، فإن سبب الحادثة الأقرب، هو التظاهر بتأييد ثورة محمد النفس الزكية. والرواية كما في الطبري وابن الأثير: أن مالك بن أنس استفتي في الخروج مع محمد وقيل له: إن في أعناقنا بيعة لأبي جعفر. فقال: إنما بايعتم مكرهين وليس على كل مكره يمين. فأسرع الناس إلى محمد، ولزم مالك بيته[٢]. أما ابن عبد البّر فيروي ـ من بين ما يروي ـ أن أبا جعفر نهى مالكاً عن الحديث (ليس على مستكره طلاق) ثم دسّ إليه من يسأله عنه، فحدّث به على رؤوس الناس، فضربه بالسياط[٣].

والفرق بين الروايتين كبير، فإذا اعتبرنا الثانية، فإن رواية مالك للحديث تأتي من اختصاصه في حفظ الحديث والرواية، وتشدّده في رواية الحديث الذي يرتأيه ويصحّحه. فهو يجمع لموطئه، وعامل موهبته هو الحفظ. ويأتي نهي المنصور في ظروف بحثه عن محمد النفس الزكية واستعداد العلويين للثورة.

أما الرواية الأولى فليس دور مالك في الثورة بهذا الشكل، فقد علمنا ظروف الثورة والحركة العلوية التي يناهضها مالك، ومن المبالغة بمكان أن يكون رأي مالك هو سبب إسراع الناس، وذلك ما ينفرد به الطبري ومن ورائه ابن الأثير.

---

(١) شذرات الذهب ج١ ص٢٩٠.
(٢) الطبري ج٩ ص٢٠٦. وابن الأثير ج٥ ص٢٥١.
(٣) الانتقاء ص٤٣ و٤٤.

وخلاصة القول، أن الحديث الصحيح الذي منع المنصور مالكاً من روايته كان مصداقاً للتحلل من بيعة المنصور. وإنما كان مالك يرويه لكونه حديثاً وليس لغرض يخدم حركة العلويين، فلما قامت الثورة، قال مالك بما كان يرويه. وتظاهره بذلك لا يخلو من كراهيته لما فعل العباسيون بالأمويين. ومن ثم كان انصرافه إلى بيته بانتظار ما سيسفر عنه الأمر. ولو صحّ هذا التأييد فما هو عذره في السكوت عن جرائم أبي جعفر المنصور في بني الحسن، ودفنهم وهم أحياء، وقتل النفس الزكية؟!

والمنصور هو هو من شدّة عدائه وحقده على من يناوىء حكمه ويمالىء أعداءه، ولو كان هناك ما يشمّ من مالك غير نشاطه اليومي في الرواية التي خشي أثرها المنصور، لما كان هذا الاعتذار منه لمالك، وبهذا الشكل الذي يصفه لنا مالك بلسانه: (لما دخلت على أبي جعفر، وقد عهد إليّ أن آتيه في الموسم. قال لي: والله الذي لا إله إلا هو ما أمرت بالذي كان، ولا علمته، إنه لا يزال أهل الحرمين بخير ما كنت بين أظهرهم، وإني أخالك أماناً لهم من عذاب، ولقد رفع الله بك عنهم سطوة عظيمة، فإنهم أسرع الناس إلى الفتن، وقد أمرت بعد والله أن يؤتى به من المدينة إلى العراق على قتب، وأمرت بضيق محبسه، والاستبلاغ في امتهانه، ولا بد أن أنزل به من العقوبة أضعاف ما نالك).

ولا نكتشف أي إشارة للاتهام أو الاعتذار في سبب معين، وقول مالك أو روايته يأتي مبيناً لرأي المنصور في مالك، لا يشوبه غضب متجبر أو ظالم كالمنصور، بل هو يشعر مالك بأن لوجوده بين أهل المدينة أثراً في التخفيف من نقمته، أولئك الذين يصفهم المنصور بأنهم أسرع إلى الفتن. والأمر بمقتضى الرواية المالكية لا يعدو رواية الحديث والتظاهر، وقد يكون من مالك بفتحة ضيقة من وراء بابه، يرفع بها صوته، مردّداً ما منعه المنصور من روايته في تلك الظروف، وبعدها إحكام رتاج الباب حتى انتهاء الأحداث.

ولو كانت هذه الحادثة لعلوية أنزلها الله في قلب مالك، لكان مصيره بلا شك كمصير الآخرين من الفقهاء والرجال الذين سلط المنصور عليهم نقمته لانحيازهم إلى محمد النفس الزكية، وكابن هرمز الذي اختلف إليه مالك ثلاثين سنة للتفقه ـ كما مر بنا ـ وعبد العزيز بن محمد الدراوردي، وعبد الرحمن بن أبي الموالي الذي ضربه المنصور أربعين سوطاً لكي يدله على محمد فلم يدله، وعبد الله بن عمر بن حفص

الذي أخذ أسيراً، فأتي به المنصور فقال له: أنت الخارج عليّ؟ قال: لم أجد إلا ذلك أو الكفر بما أنزل الله على محمد. وعثمان بن محمد بن خالد بن الزبير الذي هرب بعد قتل محمد، فأتى البصرة فأخذ منها وأتي به المنصور فقال له: هيه يا عثمان، أنت الخارج عليّ مع محمد؟ قال: بما بايعته أنا وأنت بمكة، فوفيت ببيعتي، وغدرت ببيعتك. قال المنصور: يا ابن اللخناء، قال: ذاك من قامت عنه الأماء. فأمر به فقتل. وغيرهم كثير.

ولا نريد أن نبرىء المنصور تماماً من بعض الأسباب التي تتعلق برواية الحديث ولا تتعداه، وهو أمر عابر لم يترك أثراً في نفس المنصور التي تتسم بالحقد، وإلا فهناك رواية تبين أن جعفر بن سليمان هو الطرف في منع رواية الحديث، وقد تصرّف بعقلية العباسي الذي ينتمي إلى أسرة لها الحكم والطاعة، ورواية حديث: (ليس على مستكره طلاق) يؤدي إلى تبرير نقض إيمان بيعة بني العباس[1]. وقيل له: إنه لا يرى خلافتكم. فضربه سبعين سوطاً، ومدّت يده حتى انخلعت[2].

كما لا نريد أن نظلم مالكاً، فقد دافع عن الفقهاء الذين يغلي صدر المنصور عليهم بحقده الأسود عندما قال له: ما هذا الذي يبلغنا عنكم معاشر الفقهاء وأنتم أحق الناس بالطاعة، وأعرفهم بما يلزم من حق الأئمة؟ فقال مالك: فقلت يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ فجرى بينهما كلام ومذاكرة، إلى أن ذكر له مالك أنه لما بعث إليه ليلاً وطلبه خاف منه القتل على نفسه. فقال أبو جعفر: حاشا لله يا أبا عبد الله أن أثلم ركناً للمسلمين، فإن لم أكن بالذي أبنيه لهم، فلست بهادمه لهم. ثم عرض عليه الذهاب معه إلى بغداد.

وبالجملة. فإن كل آراء المنصور في مالك هي آراء حسنة، ومن ينظر إلى موقف المنصور وثباته إزاء مالك، يعلم أن «أمر المحنة» ليس كما صوّره الطبري وابن الأثير وغيرهما. وما اختيار المنصور لمالك في أمر الفقهاء إلاّ لما عهده من مالك من موافقة في الاعتقادات التي عليها الحكم العباسي، وقد رأينا قول مالك في التفضيل،

---

(١) الانتقاء ٤٤.

(٢) شذرات الذهب ج١ ص٢٩٠.

وفي عثمان. كما أن من لواحق قول مالك المعروفة ـ والتي تنم عن الأموية الواضحة ـ وجعله الإمام علي كسائر الصحابة الآخرين هو قول مالك: وليس من طلب الأمر كمن لم يطلبه. ومحمد النفس الزكية تتناوله ولا شك هذه القاعدة، فكل الوجوه في سيرة مالك تنفي الميل العلوي، وإنما نمو ميل عباسي ليس على بقايا الميل الأموي ولكن إلى جانبه (لأن رأي مالك في الإمام علي متفق مع الولاة والخلفاء)[1]. ومما يلاحظ أن مالكاً لم يسطع نجمه إلا بعد أن احتضنته الدولة وذلك في سنة ١٤٩هـ أي بعد وفاة الإمام الصادق عليه السلام بسنة. فقد كانت الشهرة التي تلفّ مدرسة الإمام الصادق هي معارضة الدولة، وتطبيق منهج إصلاحي يبصّر الأمة، ويحملها على الالتزام والتمسّك بأحكام الدين، ولم يؤثر موقف الحكام العباسيين على انتشار مذهب أهل البيت، فقد كانت مدرسة الإمام الصادق من أبرز الحركات الفكرية، ومن أشهر معالم النهضة العلمية. وكانت الدولة العباسية في طفولتها تعارض حركة انتشار المذهب ـ من وراء الستار ـ إذ ليس في إمكانها التظاهر بالمعارضة، لأنهم كانوا بحاجة ملحّة لاستمالة أعيان أهل البيت، للتأثير في نفوس الناس الذين يدينون لهم بالولاء، ويتفجّعون لما أصابهم من ويلات وما لحقهم من مصائب، وليس للعباسيين نفوذ يستطيعون به حماية الدولة، فكان لا بد من الاستعانة بزعماء الشيعة لتثبيت أركانها وحمايتها.

ولم يكن هناك شهرة لأحد سوى الإمام الصادق، وقد رأينا كيف كان الإمام الصادق يمثّل خطراً أتعب المنصور أمره، فحاول مرات أن يقتل الإمام، وقد كلأه الله بعنايته ونجّاه من شرّه. ويذكر أن المنصور وصف الإمام الصادق بالشجى المعترض حلقه.

أما مالك بن أنس، فقد كان في حياة الإمام الصادق كأحد رجال المدينة، قادته شهرة مدرسة الإمام الصادق إلى ما بين يدي الإمام، فكان أحد طلابها، ولم ينتشر ذكره إلا بعد سنة ١٤٨هـ وهي سنة وفاة الإمام الصادق.

ولا يخفى أن غرض المنصور من وراء إظهار مكانة مالك وإبرازه، هو منزلة الإمام جعفر بن محمد الصادق. فقد علمنا محاولته في استعمال فقه أبي حنيفة ومكانته للتأثير على منزلة الإمام الصادق، ومرّ بنا أمرهذه المحاولة. ويتّجه المنصور

---

(١) مالك لأبي زهرة ص٧٢.

بنفس تلك الدوافع إلى مالك لأن من قام بأمر الإمامة بعد الصادق هو وصيّه الإمام موسى بن جعفر. رجل الصلاح والدين والعبد الصالح كما وصفه الناس وهم ملتفّون حوله ولقّبوه بالعالم.

فلاحت للمنصور فكرة إخضاع العلم الديني للحكم، وربطه بالدولة بتوحيد الأحكام واستعمال القوة، فروى أبو مصعب أن أبا جعفر المنصور قال لمالك: ضع للناس كتاباً أحملهم عليه. فكلمه مالك في ذلك. فقال: ضعه، فما أحد اليوم أعلم منك. فوضع الموطأ[١].

ولم يغب عن مالك مغزى ذلك، فأجابه: يا أمير المؤمنين لا تفعل. أما هذا الصقع فقد كفيتكه، وأما الشام ففيه الرجل الذي علّمته ـ يعني الأوزاعي ـ وأما أهل العراق فهم أهل العراق.

فكان المنصور يشدّ أزر الأوزاعي ويراسله.

واخبر المنصور مالك أن من لا يرضى سيضرب عليه بالسيف ويقطع عليه ظهورهم بالسياط[٢] وفي رواية: كتب به إلى أمراء الأجناد وإلى القضاة فيعملون به، فمن خالف ضربت عنقه[٣]. وكان عند الرشيد محل إجلال وتقدير، وله علاقة مع الرشيد قوية وحميمة، وكان لا يتردّد في الشكوى إلى الرشيد مما يهمه، فكان يشكو إليه ما عليه من دين، ويطلب المساعدة في زواج ابنه محمد[٤].

موطأ مالك:

يتضح أن موطأ مالك كان الكتاب الذي طلبه العباسيون، وقد وضع المنصور بنفسه خطة الكتاب، فبعث إلى مالك حين قدم، فقال له: إن الناس قد اختلفوا بالعراق، فضع للناس كتاباً تجمعهم عليه. فوضع الموطأ[٥] والظاهر أن بعض كتّاب المناقب من المالكية حاولوا التمويه على اشتراط المنصور أو خطته الكتاب الذي يريده

(١) الديباج ص٢٥.
(٢) أيضاً.
(٣) الزواوي ص٢٤.
(٤) العقد الفريد ج١ ص١١٠.
(٥) الجرح والتعديل ج١ ص١٢.

من مالك، فوضعوا روايات أخرى منها: أن المنصور قال: يا أبا عبد اللّه ضع هذا العلم ودوّن كتاباً وجنّب فيه شدائد عبد اللّه بن عمر، وَرُخَصَ عبد اللّه بن عباس وشواذّ ابن مسعود، واقصد أواسط الأمور وما أجمع عليه الصحابة[1].

أما الرواية التي تتضافر على صحتها المدلولات والأقوال، فهو قول المنصور: يا مالك عليك بما تعرف أنه الحق عندك، ولا تقلدنّ علياً وابن عباس أو نحو هذا.

ونرى أن ذكر ابن عباس من الزوائد أيضاً التي قام بها كتّاب المناقب، ولعلهم استعظموا أن يكون أساس كتاب المذهب هو التحذير من الإمام علي.

إن العباسيين تخلّوا عن ذاك الالتزام بسيرة الإمام علي، وانتهت أغراضهم من ذكر فضائله ومعالم سيرته، فتحوّلوا ـ بعد قيام دولتهم ـ إلى العداء والنصب. أما ابن عباس فقد بقي رمزاً لديهم تجرّهم إليه العصبية وتشدّهم إلى ذكره مصالح حكمهم، وليس لعلم أو منزلة، فهم على حلية نكاح المتعة لا لعدم النص على نسخها وعدم جواز منعها أو تحريمها من قبل أحد غير النبي محمد، ولكن لأن ابن عباس يقول بجواز نكاح المتعة، وقد رأينا أن مسألة نكاح المتعة كان من جملة الأسباب التي احتملت في تعرّض مالك للأذى.

ولهذا فاشتراط المنصور أو خطته كانت موضع تنفيذ، ووفى مالك بالشرط، إذ لم يروِ عن علي عليه السلام في موطأه، ويروى أن الرشيد قال له: لم نرَ في كتابك ذكراً لعلي وابن عباس؟ فقال: لم يكونا ببلدي ولم ألقَ رجالهما. ويعتذر الزرقاني فيقول: فإن صحّ هذا فكأنه أراد ذكراً كثيراً. وإلا ففي الموطأ أحاديث عنهما[2].

ونال الكتاب شهرة، وأصبح موضع تقديس حتى أطلقوا عليه اسم الصحيح وقالوا: إنه لا مثيل له، ولا كتاب فوقه بعد كتاب الله عز وجل[3].

ووضعوا عن رسول الله منامات في مدحه، وأنه قال: ليس بعد كتاب الله عز وجل ولا سنّتي في إجماع المسلمين حديث أصحّ من الموطأ[4]. وقالوا: إن النبي سمّى الكتاب بهذا الاسم... إلى غير ذلك.

---

(١) الديباج وشرح الموطأ للزرقاني ج١ ص٧.
(٢) شرح الموطأ ج١ ص٨.
(٣) مقدمة النص لابن عبد البر ص٩.
(٤) كشف المغطى في فضل الموطأ ص٢.

وقد روي عن مالك أنه قال: عرضت كتابي هذا على سبعين فقيهاً من فقهاء المدينة، فكلهم واطأني عليه، فسمّيته الموطأ. وقيل: لما ألف الموطأ، ألقاه في الماء وقال: إن ابتلّ فلا حاجة لي به. فلم يبتل منه شيء.

وكان قد جمع فيه عشرة آلاف حديث، ثم هذّبه ونقّحه، فلم يبق من ذلك العدد إلا ألف وسبعمائة حديث. وقيل: خمسمائة[1]. وقيل: أقل وأكثر لاختلاف النسخ زيادة ونقصاً وإسناداً وإرسالاً.

وجملة ما في الموطأ ١٧٢٠ حديثاً، المسند منها ٦٠٠، والمرسل ٢٨٨ والموقوف ٦١٣. ومن قول التابعين ٢٨٥.

وقد بلغ من اهتمام العباسيين بالموطأ أنهم عرضوا على مالك أن يكتب بماء الذهب ويعلّق في الكعبة. وأن الرشيد قام يمشي مع مالك إلى منزله ليسمع منه الموطأ، فأجلسه معه على المنصة، فلما أراد أن يقرأه على مالك قال له: تقرؤه علي؟ قال مالك: ما قرأته على أحد منذ زمان، قال: فيخرج الناس عني حتى أقرأه أنا عليك. فقال: إن العلم إذا منع من العامة لأجل الخاصة لم ينفع الله تعالى به الخاصة[2].

سيرة مالك:

وكيف كان، فإن مالك بن أنس نال الحظوة عند بني العباس. فقد مكّنه المنصور في الحجاز من أن يتمتع بسلطة تنفيذية مع ما خوّله من السلطة التشريعية، وكان من أهم مظاهر إلحاق مالك بالدولة العباسية واعتباره عالمهم، أن منادي المنصور كان في أيام الحج يعلن: بأن لا يفتي إلا مالك.

ولما قام المهدي بالأمر بعد أبيه، عظمت منزلة مالك، وكان يحترمه ويصله بهدايا جزيلة، ويعطيه عطاءاً وافراً، ويقرّب مجلسه، وينفّذ ما يريده، وكان المهدي يشيد بشأن مالك.

ولما جاء الرشيد لم تتغير منزلة مالك، بل كانت تزداد، وكان الرشيد يقصده إذا دخل المدينة ويجلس بين يديه إظهاراً لمنزلة مالك وجلباً لأنظار الناس إليه. وأمر عامله ألا يقطع أمراً دون مالك.

---

(١) شرح الزرقاني على الموطأ ج١ ص٧.
(٢) شذرات الذهب ج١ ص٢٩١.

وقد رأينا مالكاً قبل إلحاقه بالدولة وهو يسعى إلى العلم، فلم يظهر عليه إلا الرغبة في السماع. ومن المفاخر أن يؤدي به طلب العلم إلى أن ينقض سقف بيته ويبيع خشبه ـ كما يروي ابن فرحون ـ غير أن إقبال الحكّام عليه أحدث انقلاباً في مسلكه وسيرته واستجاب لما تضفيه عليه السلطة.

فعندما يحاول أولياء وأقرباء بعض المسجونين في سجون المدينة المنورة التوسط لدى المنصور، ويلجأ المنصور إلى الصيغة التي تجنّبه اللوم ونسبة الظلم إليه بإدخال العلماء وأهل الدين في المعاينة، نجد مالك يجيب وفق ما يريد المنصور. ومعلوم أن أمر المدينة كان يشقّ على المنصور، وكانت السجون التي فيها تعكس مشاعر المنصور تجاه أهلها، فلما ولي عبد الصمد على المدينة عاقب بعض القرشيين وحبسه حبساً ضيّقاً، فكتب بعض قرابته إلى المنصور وشكى ذلك إليه وأخبره. فكتب المنصور إلى المدينة وأرسل رسولاً وقال: إذهب فانظر قوماً من العلماء، فأدخلهم عليه حتى يروا حاله وتكتبوا إلي بها، فأدخلوا عليه في حبسه مالك بن أنس، وابن أبي ذئب، وابن أبي سيرة وغيرهم من العلماء فقال: اكتبوا بما ترون إلى أمير المؤمنين. قال: وكان عبدالصمد لما بلغه الخبر حلّ عنه الوثاق، وألبسه ثياباً، وكنس البيت الذي كان فيه، ورشّه، ثم أدخلهم عليه. فقال لهم الرسول: اكتبوا بما رأيتم. فأخذوا يكتبون: يشهد فلان وفلان. فقال ابن أبي ذئب: لا تكتب شهادتي، أنا أكتب شهادتي بيدي إذا فرغت، فارمِ إليّ بالقرطاس. فكتبوا: محبساً ليناً، ورأينا هيئة حسنة. وذكروا ما يشبه هذا الكلام، ثم دفع القرطاس إلى ابن أبي ذئب، فلما نظر في الكتاب فرأى هذا الموضع قال: يا مالك داهنت وفعلت وملت إلى الهوى. اكتب: رأيت محبساً ضيقاً، وأمراً شديداً. وجعل يذكر شدّة الحبس(١).

وأخذ مالك باستعمال العنف والمعاملة بالقسوة، فكان إذا حدّث يقوم على رأسه الحرس، فإذا تكلم أحد أو اعترض عليه، أشار للحرس فيسحبون المتكلم ويخرجونه من المجلس، وإن اقتضى السجن سُجن، وقد رأينا سابقاً كيف أمر بحبس ابن مهدي وكان يصلي خلفه، ومن سياق القصة يتبين لنا أن الحرس كان معه حتى

(١) تاريخ بغداد ج٢ ص٢٩٩.

وهو يؤم الناس في صلاتهم، لأن مالك سأل: من هنا من الحرس؟ فجاءه نفسان، وطلب منهما أن يحبسا ابن مهدي[1].

ومما يؤلم أن تتعدى الشدّة الحدود إلى القسوة التي لا علاقة لها بحكمة تشريع الحدود، كما كان عليه الحال في قصة الرجل الذي عدا على أخيه، حتى إذا أدركه دفعه في بئر، وأخذ رداءه وأبوا الغلامين حاضران، فقال جماعة من أهل العلم: الخيار للأبوين في العفو أو القصاص. فقال مالك: أرى أن تضرب عنقه الساعة. فقال الأبوان: أيقتل ابن بالأمس، ونفجع في الآخر اليوم؟ نحن أولياء الدم، وقد عفونا. فقال الوالي: يا أبا عبد اللّه، ليس ثَمَّ طالب غيرهما وقد عفوا. فقال مالك: والله الذي لا إله إلا هو لا تكلمت في العلم أبداً أو تضرب عنقه. وسكت، فارتجّت المدينة ـ فلما رأى الوالي عزمه، قدّم الغلام، فضرب عنقه، فلما سقط رأسه، التفت مالك إلى من حضر فقال: إنما قتلته بالحرابة حين أخذه ثوب أخيه، ولم أقتله قوداً، إذ عفا أبواه.

ويسري تأثير السلطة إلى منهجه، دخل عليه رجل فقال: ما تقول فيمن قال: القرآن مخلوق؟ فقال مالك: زنديق اقتلوه. فقال: يا أبا عبد اللّه، إنما أحكي كلاماً سمعته؟ قال: لم أسمعه من أحد، إنما سمعته منك[2].

وقال سحنون: أخبرني بعض أصحاب مالك أنه كان عنده جالساً، فأتى رجل فقال: يا أبا عبد اللّه مسألة. فسكت ثم قال: مسألة. فسكت، ثم أعاد عليه، فرفع رأسه كالمجيب له فقال له السائل: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ كيف استواؤه؟ قال: **فطأطأ مالك رأسه ساعة، ثم رفعه فقال:** سألت عن غير مجهول، وتكلمت في غير معقول، **ولا أراك إلا امرأ سوء، أخرجوه**[3]. ووردت سابقاً بلفظ آخر، ولكن **تجمعهما النهاية. وفي الحلية: وأظنك صاحب بدعة.** وأمر به فأخرج[4].

وما كان يتهيأ لأحد بالمدينة أن يقول قال رسول الله ﷺ إلا حبسه مالك في الحبس، فإذا سئل فيه، قال: يصحّح ما قال ثم يخرج. ولقد كان ابن كنانة وابن أبي

---

(١) مالك للخولي ص٢٧٤ نقلاً عن ترتيب المدارك.

(٢) مناقب السيوطي ص١٤.

(٣) الزواوي ص٣٢.

(٤) حلية الأولياء ج٦ ص٣٢٥.

حازم والدراوردي وغيرهم سمعوا مع مالك من مشايخ، وتركوا الحديث عنهم هيبة له حتى مات ففشا ذلك فيهم[1].

وابن فرحون ينقل في وصفه: كان كالسلطان له حاجب يأذن عليه، فإذا اجتمع الناس ببابه أمر آذنه فدعاهم، فحضر أولاً أصحابه، فإذا فرغ من يحضر، أذن للعامة. وإذا أتاه الناس خرجت إليهم الجارية فتقول لهم: يقول لكم الشيخ تريدون الحديث أو المسائل؟ فإن قالوا: المسائل. خرج إليهم وأفتاهم. ولا بد هنا من ملاحظة قول ابن القاسم الذي يورده ابن فرحون بعد أسطر قليلة من النصوص التي تصف مالك. قال ابن القاسم: سمعت مالكاً يقول: إني لأفكر في مسألة منذ بضع عشرة سنة، ما اتفق لي فيها رأي إلى الآن. وكان يقول: ربما وردت عليَّ المسألة فأسهر فيها عامة ليلتي. وقال ابن عبد الحكم: كان مالك إذا سئل عن المسألة، قال للسائل: انصرف حتى انظر. فينصرف ويتردد فيها!! اهـ.

أما إذا طلب الناس الحديث، قيل لهم: اجلسوا. فيدخل مغتسله، فيغتسل ويتطيب، وتلقى له المنصة، فيخرج إليهم، ويوضع عود، فلا يزال يتبخّر حتى يفرغ من حديث رسول الله ﷺ وكان لا يوسع لأحد في حلقته ولا يرفعه، يدعه يجلس حيث انتهى به المجلس. ومع هذا كان إذا استزاده أحد من الناس في الحديث يشيرإلى السودان الذين يقفون عند رأسه، فيخرجونه من الدار[2].

وكان يلبس طيلساناً طرازياً وقلنسوة مترّكة وثياباً مروية جياداً، وفي بيته وسائد يقعد عليها أصحابه وقوّم الطيلسان بخمسمائة، وكان يقع جناحه على عينيه، وقيل في هذه الهيئة: إنه أشبه شيء بالملوك. ووصف منزله بأنه كان مبسوطاً بأنواع المعارش[3].

ولقد كان متأنقاً في ملبسه ومأكله أيضاً، فقد مات وترك مائة عمامة وخمسمائة زوج نعل، وكان يهدى إليه الهدايا الفاخرة، واشتهى يوماً كساة قرمزياً، فأهدى إليه سبعة منها.

وأهدى إليه يحيى بن يحيى النيسابوري هدية باع من فضلتها ثمانين ألفاً. قال

(١) الديباج ص٢٤.
(٢) الانتقاء ٤٢.
(٣) البداية والنهاية ج١٠ ص١٧٤.

قتيبة: كنّا إذا أتينا مالكاً خرج إلينا مطيباً، قد لبس من أحسن ثيابه، فتصدّر ودعا بالمراوح، فأعطى كل إنسان مروحة[1].

وقد نصح بعضهم مالكاً بالتواضع، وترك ما هو عليه. فكتب إليه يحيى بن يزيد بن عبد الملك النوفلي المدني ـ وكان من أهل الحديث ـ: بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على رسوله محمد في الأولين والآخرين، من يحيى بن يزيد بن عبد الملك إلى مالك بن أنس، أما بعد فقد بلغني أنك تلبس الدقاق، وتأكل الرقاق، وتجلس على الوطيء، وتجعل على بابك حاجباً، وقد جلست مجلس العلم، وقد ضربت إليك المطي، وارتحل إليك الناس، واتّخذوك إماماً رضوا بقولك؛ فاتق الله يا مالك، وعليك بالتواضع، كتبت إليك بالنصيحة كتاباً ما أطلع عليه غير الله سبحانه وتعالى والسلام.

ويكتب إليه مالك كتاباً يقرّ في آخره بما آخذه به يحيى ويقول: فنحن نفعل ذلك، ونستغفر الله تعالى، فقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ﴾ وإني لأعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه[2].

والخلاصة، إننا لم نجد عند أحد من رؤساء المذاهب أو العلماء الذين كان لهم حظ وافر من تقريب السلطة لهم ما وجدناه عند مالك، فهذا الإمام أحمد كان يتحلى بروح إنسانية عالية بعيدة عن الميل والعنف ـ مع تشدده ـ فقد سئل يوماً عن حبس أهل البدع، فأنكر ذلك بحجة أن لهم والدات وأخوات. أي أنه كره أن يتعدى عقابهم إلى الأبرياء من ذويهم ممن ليس لهم ذنب أو جريمة، وما خلا القول بخلق القرآن والرؤية، فإنا نرى الإمام أحمد يسمح بالمناظرة والقول.

ومن العجب أن يستجيب رجل الدين للدولة ويؤثر فيه ميلها إليه بحكم مصالحها واحتضانها له لأغراضها، ويسمح لنفسه بأن يعامل الآخرين بهذا الشكل من النكال. فيشمل ذلك طلبة العلم أو العلماء، وأنهم ـ كما رأينا ـ تركوا أن يحدّثوا بشيء لأنه كان يعاقب من يروي عن النبي حديثاً فيسجنه ما لم يصح عنده. فماذا يعتذر له بذلك؟ فليسوا أصحاب جدل ولا شبهة هوى أو بدعة، وإنما علماء عاصروه وهم أعلم منه أو في طبقته، وما علمنا ذلك إلاّ من شؤون الملوك وسلاطين الزمان. ولكن

---

(١) تذكرة الحفّاظ ج١ ص١٩٦.

(٢) إحياء علوم الدين ج١ ص١١٤.

أدى رضا السلطان واحتضانه لمالك إلى أن يكون مثله فيزدحم الناس على بابه، ويقف الحجّاب عليها يمنعونهم من الدخول عليه، فإذا أذن لهم ازدحموا.

قال أبو مصعب: كانوا يزدحمون على باب مالك، فيقتتلون على بابه من الزحام، وكنّا عنده فلا يكلم هذا هذا، ولا يلتفت ذا إلى ذا، والناس قائلون برؤوسهم هكذا (مبالغة في الأنصات) وكان الأمراء تهابه، وهم مستمعون، وكان يقول في المسألة: لا أو نعم. فلا يقال له: من أين لك هذا.

وقد أنكر عليه بعض العلماء ما رأوه من حاله وأعماله، وترك الحديث عنه الحكم بن نافع الحمصي وهو أحد العلماء، ومن احتج الشيخان بحديثه، فإنه رأى مالكاً ولم يسمع منه لما رأى من الحجّاب والفرش[1].

وتكلم فيه أيضاً إلى جانب ابن أبي ذؤيب وابن إسحاق عبد العزيز بن أبي سلمة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وابن أبي يحيى وابن أبي الزناد، وعابوا أشياء من مذهبه، وتكلم فيه غيرهم. وتحامل عليه الشافعي وبعض أصحاب أبي حنيفة، وعابه قوم في قعوده عن مشاهدة الجماعة في مسجد رسول الله ﷺ[2] وقال الخطيب: قد ذكر بعض العلماء أن مالكاً عابه جماعة من أهل العلم في زمانه بأطلاق لسانه في قوم معروفين بالصلاح والديانة والثقة والأمانة[3].

وما يرويه الإمام الشافعي في أول اتصاله بمالك يؤيد ذلك، عندما أخذ من والي مكة وصية إلى والي المدينة يطلب منه إيصال الشافعي إلى مالك.

قال الشافعي:

فأوصلت الكتاب إلى الوالي، فلما قرأه قال: يا فتى، إن مشيي من جوف المدينة إلى جوف مكة حافياً راجلاً أهون علي من المشي إلى باب مالك بن أنس، فلست أرى الذلة حتى أقف على بابه. فقلت: أصلح الله الأمير إن رأى أن يوجه إليه ليحضر؟ قال: هيهات، ليت إني إذا ركبت أنا ومن معي، وأصابنا من تراب العقيق نلنا بعض حاجتنا. قال: فواعدته العصر، وركبنا جميعاً، فوالله لكان كما قال، لقد أصابنا

---

(١) ميزان الاعتدال ١/ ٢٧٢.

(٢) جامع بيان العلم ج٢ ص١٦١.

(٣) تاريخ بغداد ج١ ص٢٢٣.

من تراب العقيق. قال: فتقدم رجل، فقرع الباب، فخرجت إلينا جارية سوداء، فقال لها الأمير: قولي لمولاك أني بالباب. قال: فدخلت، فأبطأت، ثم خرجت فقالت: إن مولاي يقرئك السلام ويقول: إن كانت مسألة فارفعها في رقعة يخرج إليك الجواب، وإن كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس فانصرف. فقال لها: قولي له: إن معي كتاب والي مكة إليه في حاجة مهمة. فدخلت وخرجت وفي يدها كرسي، فوضعته، ثم إذا أنا بمالك... إلخ الرواية[1].

ولنتأمل تهيّب الوالي من الوصول إلى مالك، فهو أمر غير معهود، بل وغريب، ولكن مصلحة الملوك اقتضت ذلك. فقد نقل أن المنصور كان يطلب من مالك أن يبدي رأيه في ولاته على الحجاز. وقال له:

إن رابك ريب من عامل المدينة أو عامل مكة أو أحد من عمّال الحجاز في ذاتك أو ذات غيرك، أو سوء أو شرّ في الرعية، فاكتب إليّ بذلك، أنزل بهم ما يستحقّون.

فامتناع مالك في أول الأمر كان لظنّه أن الطارق من طلبة العلم. أما عند ما علم بأنه من قبل والي مكة فقد تغيّر الحال، لأن ذلك من شؤون الدولة. ولذلك فإن العلم يفرض علينا أن نستغرب صدور مثل هذه التصرفات في السلوك والمظهر من رجل له مكان الصدارة في مجلس العلم. ويبوّء نفسه مقام المرجعية لأحكام الشريعة، لأنها أمور لا يتوقع صدورها إلا من الحكام الذين عدمت عندهم مقاييس العدل والمساواة.

وعلى أي حال، فإن الإمام مالك انتشر ذكره في الحجاز بعوامل السلطة، فقرّبه الحكّام وألزموا الناس بالرجوع إليه، فأقبلت عليه الدنيا واستجاب هو لأشكال هذا الإقبال.

ونرى فيما قدّمناه كفاية، وقد أصبحت الصورة عن الإمام مالك متكاملة، وكان القسم الأول في الجزء الثاني قد ضمّ الأمور الفقهية، ولم نأتِ هنا على ما بحثناه في السابق من الجوانب التي تتعلق بالمذهب المالكي.

---

(١) معجم الأدباء ١٧/ ٢٧٥. ومناقب الشافعي للفخر الرازي وتوالي التأسيس.

وفاته:

كثر الاختلاف في وفاة مالك كاختلافهم في ولادته، فقيل أنه مات في ١٠ ربيع الأول، وقيل ١٤ منه، وقيل ١٣، وقيل ١٢ من شهر رجب سنة ١٩٩هـ أو سنة ١٩٨هـ وقيل من صفر ١٩٩هـ أو في سنة ١٨٠هـ.

وشيّع جثمانه، وصلّى عليه الخليفة العباسي، ودفن بالبقيع، ونصبوا على قبره فسطاطاً، ورثاه الشعراء منهم ابن أبي المعافى:

ألا قل لقوم سَرَّهُم فقدُ مالك　　إلا إن فقد العلم إذ مات مالك

فماليَ لا أبكي على فقد مالك　　وفي فقده سدّت علينا المسالك

وماليَ لا أبكي عليه وقد بكت　　عليه الثريا والنجوم الشوابك

وقالوا أن امرأة رثته بقولها:

بكيت بدمع واكفٍ فَقْدَ مالك　　وفي فقده ضاقت علينا المسالك

ومالي لا أبكي عليه وقد بكت　　عليه الثريا والنجوم الشوائك

إلى آخر الأبيات وهي مشابهة لأبيات ابن أبي المعافي، ولا نستغرب هذا الاختلاف، فقد اشتبه الرواة أو نسبوا شيئاً غير صحيح.

اولاده واحفاده:

خلف مالك ولدين هما: يحيى ومحمد، وابنة اسمها فاطمة، زوّجها لابن أخته إسماعيل بن أبي أويس، وكان يحيى يروي عن أبيه نسخة من الموطأ وهي التي تروى عنه باليمن.

قال العقيلي: إن يحيى بن مالك حدّث عن أبيه بالمناكير[1] وقال القروي: كنا نجلس عند مالك، وابنه يحيى يدخل ويخرج، ولا يقعد، فيقبل علينا مالك، ويقول: إن مما يهون عليّ أن هذا الشأن لا يورّث، وأن أحداً لم يخلف أباه ومجلسه إلا عبد الرحمن بن القاسم.

---

(١) الذهبي، ميزان الاعتدال ج٣ ص٣٠١.

وقال مصعب الزبيري: كان محمد بن مالك يجيء وهو يحدّث وعلى يده باشق ونعل كيساني وأرخى سراويله عليه[١].

وكان لمحمد هذا ولد اسمه أحمد، سمع من جده مالك، وهو معدود من رواته، ولكنهم ضعّفوه وتركوه، بل تركوا أباه وعمه كذلك.

وليس لمالك غير هؤلاء، وقيل: إن له ولداً رابعاً اسمه حمّاد وليس له ذكر.

ولا عقب لمالك يذكر في التاريخ.

(١) الديباج المذهب ١٨.

الإمام الشافعي

لم نفرغ من حياة الإمام الشافعي ببحثنا عنه في الجزء الثالث، لأن كثرة ما ذكر عنه، وسعة مواطن حياته، وتعدد مزاياه يحتاج إلى استفاضة وإسهاب، وأغلب المسائل التي تتعلق بمراحل عمره لفّها اللّبس وأحاطتها التناقضات، لأن الحقيقة غشيتها سحب العاطفة، أو لوّنتها ردود الأفعال المختلفة. وشعورنا بإجلال شخصية أوحبّها ربما يكون لعوامل هي بعيدة عن واقعها، كما أن البعد عنها والنفرة منها ربما تكون لردّ فعل وهي لا تستحق ذلك، وربما يكون أيضاً عن واقع يحمل على عدم الرضا ويبعث على النفور إذا كان الشعور نابعاً عن عقل وروّية، كما تبرز ما للشخصية من خصال. أما إذا غلبت الميول وسيطرت العاطفة أو تحكمت ردود الفعل، فهناك تقع الحيرة، ويحدث التناقض، لأن الحقيقة استكنّت بمعزل عن العاطفة وردود الأفعال.

وها نحن نستأنف البحث عن حياة الإمام الشافعي بمنهجنا القائم على اتباع الحق والتماس الحقيقة.

نسبه:

هو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف.

ولد سنة ١٥٠هـ نهار الجمعة آخر يوم من رجب، وقيل في اليوم الذي مات فيه أبو حنيفة، وقيل غير ذلك على اختلاف الأقوال.

والمطلب الذي ينتهي إليه نسب الشافعي، هو أحد أولاد عبد مناف الأربعة. وهم المطلّب وهاشم وعبد شمس جدّ الأمويين ونوفل. والمطّلب هو الذي ربّى عبد المطلب إبن أخيه هاشم جدّ النبي ﷺ.

فالشافعي بهذا قرشي النسب، يلتقي مع النبي ﷺ في عبد مناف، وهذا ما عليه الأكثر.

ويأبى التعصب إلا الغلوّ. فقالوا: لم تنل رسول الله ﷺ طهارة في مولده وفضيلة في آبائه إلا وهو قسيمه فيها، إلى أن افترقا من عبد مناف، فزوّج المطلب ابنه هاشماً الشفا بنت هاشم بن عبد مناف، فولدت له عبد يزيد جدّ الشافعي. وكان يقال لعبد يزيد المحض لا قذى فيه، فقد ولد الشافعي الهاشمان: هاشم بن المطلب، وهاشم بن عبد مناف. والشافعي ابن عم رسول الله ﷺ وابن عمته، لأن المطلب عمّ رسول الله ﷺ والشفا بنت عبد مناف أخت عبد المطلب عمّة رسول الله ﷺ. ولم يكن نسب الشافعي مسلّماً به ومجمعاً عليه، فذهب بعضهم إلى أن الشافعي لم يكن قرشياً بالنسب، بل كان قرشياً بالولاء. فهو مولى لهم وليس منهم، لأن شافعاً جدّه كان مولى لأبي لهب، فطلب من عمر أن يجعله من موالي قريش فامتنع، فطلب من عثمان ذلك ففعل. ونسب ذلك إلى المالكية والحنفية(١).

أما أمه فإنها من الأزد وكنيتها أم حبيبة.

وقيل إنها أسدية، مستدلين على ذلك بما روي عن الشافعي أنه لما قدم مصر سأله بعضهم أن ينزل عنده، فأبى وقال: أنزل على أخوالي الأسديين. ونزل عليهم(٢). فيما يستدل برواية أبي اليمن ياسين بن زرارة ومكانها مصر، أنها أزدية وهي الأظهر. وقال: أريد أن أنزل على أخوالي الأزد. فنزل فيهم.

وتحلّق العواطف بأصحابها، وتنأى بهم عن الواقع بجناحها، فيدّعون أنها قرشية علوية. فقيل: إنها فاطمة بنت عبد اللّه أو عبيد الله بن الحسين بن الحسن بن علي بن أبي طالب. قال الرازي: وهذا القول شاذ، رواه الحاكم وضعّفه البيهقي، وذهب المقري إلى نفيه، ولكن السبكي ذهب إلى تأييده، وليس له شاهد على ذلك.

وقيل أيضاً: إنها فاطمة بنت عبد اللّه المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط(٣). والحافظ الشافعي ابن كثير يقول بأزدية أم الشافعي كما هو المعروف،

---

(١) مناقب الشافعي للفخر الرازي ٣ ـ ٥. وهامش الانتقاء. والشافعي لمحمد أبو زهرة.

(٢) طبقات الشافعية ج١ ص١٠٠.

(٣) مناقب الرازي ٦. وطبقات السبكي ج١ ص١٠٠ ـ ٢٤٩. وتوالي التأسيس ص٤٦. ومشارق الأنوار للعدوي ص١٨١ وإسعاف الراغبين للصبّان وغيرها.

ويروي أنها قد رأت حين حملت به كأن المشتري خرج من فرجها حتى انقضّ بمصر، ثم وقع في كل بلد منه شظية!

أما أبوه إدريس، فلم يفصح التاريخ عن شيء من حياته وسيرته ووفاته، ولم يحتفظ إلا بالاسم فقط، فليس له ترجمة في جميع الكتب التي ذكرت الشافعي، ولا في غيرها من كتب الحديث والرجال والأدب.

وما ذكر عنه أو أشير إليه بعيد عن الصحة، كقول هداية الله الحسيني أن والد الشافعي سلّمه للتفقه إلى مسلم بن خالد الزنجي ـ مفتي مكة ـ وهذا غير صحيح بالإجماع، لأن الروايات متضافرة على أن الشافعي نشأ يتيماً في حجر أمه، وتولت تربيته، وعندما خشيت عليه الضيعة أرسلته إلى مكة وهو ابن عشر سنين.

فالشافعي لم يتربَّ في ظلال أبيه، ولم يتولَّ ذلك إلا أمه، ولا نعلم أنه عرف أباه وحدَّث عنه، كما لا نعلم هل ولد الشافعي في حياة أبيه أم أن أباه مات وهو حمل في بطن أمه؟ وهل أن إدريس كان في مكة ورحل إلى اليمن، وما هي أسباب رحلته؟

وجاء في مقدمة كتاب الأم: أن والد الشافعي كان رجلاً حجازياً فقيراً، خرج مهاجراً من مكة إلى الشام، وأقام بغزّة وعسقلان ببلاد فلسطين، ثم مات بعد ولادة الشافعي.

لكن هذا القول لم يستند إلى نص تاريخي. وأياً كان، فالروايات مختلفة والأقوال متفرقة في ولادته ومحلها، وهجرته ووقتها، وكذلك رحلاته المتعددة وتحصيله للعلم بأي زمن، فهل كان من صغر سنه أم بعد نشأته، وكذلك دخوله إلى مكة، فقيل إنه لما بلغ من العمر سنتين، وأصبح قرة عين والدته، فرأت أن تحمله إلى مكة المكرمة صوناً لنسبه من الضياع إذا بقي في غزة، فهاجرت به، ونزلت بجوار الحرم بحي يقال له (شعب الخيف) ولمّا ترعرع، أرسلته أمه إلى الكتّاب، وحفظ القرآن وعمره سبع سنوات، وقيل: إن الشافعي ولد بغزّة، وحمل إلى عسقلان، ودخل مكة وهو ابن عشر.

طلبه العلم:

وقد تكون هذه النقاط غير مهمة في سياق الأحداث أحياناً إذا ما جاءت مجردة لا يعتمد عليها جانب من السيرة المتعلقة بها، أما في حياة الإمام الشافعي فهي تكتسب

أهمية لأن الاختلاف كبير في تحديد سنّ تأهله للعلم أو تبوئه مكان الفتيا، وقد قادت العواطف وأدى التعصب إلى إظهار علمه واجتهاده في سنٍ مبكرةٍ أو نبوغه في فترة قصيرة[(١)].

والذي نستظهره أن اتجاه الشافعي لطلب العلم كان في العقد الثالث من عمره، وعلى رواية ابن كثير أن بقاءه في البادية عشرين سنة، فيكون طلبه للفقه في العقد الرابع، أي بعد تجاوزه الثلاثين من عمره، فتكون ملازمته لمسلم بن خالد الزنجي الذي أخذ الشافعي عنه الفقه[(٢)] قصيرة جداً. حيث روي أن مسلم بن خالد قال له: أفتِ. وهو ابن خمس عشرة سنة، وفي رواية الخطيب البغدادي عن الحميدي ما يشعر أن مسلم الزنجي مرّ على الشافعي وهو يفتي[(٣)] وأن الشافعي يقوم بالفتيا فعلاً، وليس كما في الروايات الأخرى أن مسلماً أذن للشافعي بالفتيا بعد درسه عليه وملازمته له.

وكما قلنا في بدء الحديث عن الإمام الشافعي، فإن العواطف أو ردودها العكسية هي وراء مثل هذه المبالغات، أو الاتهامات، وما بين أيدينا من الأدلة التاريخية، يصرّح بأن الشافعي لم يعرف بالفقه إلا بعد مدة طويلة، مع أن الحميدي لم يدرك مثل هذا التاريخ، وأن الخطيب بعد نقل الحكاية يقول: وليس ذلك بمستقيم لأن الحميدي كان يصغر عن إدراك الشافعي وله تلك السن.

ومهما يكن من أمر، فإن الشافعي لم يعرف الفقه والحديث وهو في مكة. ولكن رحل إلى المدينة، وواصل دراسته، فأصاب الشهرة بعد المدة التي استغرقها طلب العلم.

قال ابن حجر: انتهت رياسة الفقه في المدينة إلى مالك، ورحل الشافعي إليه ولازمه، وأخذ عنه. وانتهت رياسة الفقه إلى أبي حنيفة، فأخذ عن صاحبه محمد حملاً ليس فيها شيء إلا وقد سمعه عليه، فاجتمع له علم أهل الرأي وعلم أهل الحديث.

---

(١) انظر التفاصيل: الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، مجلد ٢ جزء ٣.

(٢) مسلم بن خالد بن سعيد مولى لآل سفيان بن عبد الأسد المخزومي وهو من الشام، كان مسلم أبيض مشرباً حمرة، والزنجي لقبٌ لقب به وهو صغير. وفي الطبقات الكبرى لابن سعد: كان كثير الحديث، كثير الغلط والخطأ في حديثه، وكان في بدنه نعم الرجل، ولكنه كان يغلط اهـ. ضعّفه أبو داود وغيره.

(٣) تاريخ بغداد ج٢ ص٦٤.

لأن الشافعي ـ مع أخذه العلم على مالك ـ كان يتمتع بقدرة على المناظرة ومعرفة باللغة ومزايا أخرى تبعده عن حدود الرواية والتقيّد بها فقط. قال هارون بن سعيد الأيلي: (لو أن الشافعي ناظر على هذه العمود التي من حجارة أنها من خشب، لغلب لاقتداره على المناظرة). ونرى أن الرحلة إلى العراق كانت بدوافع علمية، بعد أن أتقن علم الحديث، ليطلع على أهل الرأي وهم في مصرهم فقال: (سمّيت ببغداد: ناصر الحديث) فيما كان إقباله على الأخذ من محمد بن الحسن يفوق إقباله في المدينة على أصحاب الحديث.

ومما لا شك فيه أن الشافعي كان ذكياً في صباه، إلى جانب الحفظ، فكان معلمه كلما علّم صبياً شيئاً كان الشافعي يتلقف ذلك الكلام، ثم إذا قام المعلم من مكانه، أخذ الشافعي يعلّم الصبيان تلك الأشياء، فنظر المعلم فرأى الشافعي يكفيه أمر الصبيان أكثر من الأجرة التي كان أهل الشافعي لا يجدونها لفقر حالهم. وكان في كل أحواله وهو في طلب العلم فهماً مدركاً.

لقد أدى الإعجاب بالشافعي والتعامل بالمذهبية إلى تكلّف أمور لا نشكّ بأنها أصبحت من إمارات السيادة وعلامات الرئاسة، رغم علمهم بأن استسهال الوسائل كالمنامات لإيجاد الصلة بالنبي محمد لا يخفي حقيقة الغرض والبواعث، بدليل تقليدهم غيرهم فيما يعملون، فهم ليسوا بدعاً في ذلك، وسير رؤساء المذاهب التي أكملها الأصحاب والأتباع، ممن سبق الشافعي قد أخذت بالظهور في المجالس والحلقات، وعانى من بواعثها المتعصبة الإمام الشافعي نفسه عندما استقرّ بمصر أو خلال وجوده في بغداد.

وقد كان أولى بأهل العلم أن يدعوا الشافعي يأخذ منزلته بما وهبه الله من علم، ويتبوء مكانته بما يستحقّه. فالمزني يقول: رأيت النبي ﷺ في المنام، فسألته عن الشافعي. فقال لي: من أراد محبتي وسنّتي فعليه بمحمد بن إدريس الشافعي المطّلبي فإنه مني وأنا منه.

وبعض هذه المنامات يتجاوز حدود اللياقة اللازمة لذكر المصطفى، مما يجعل منام المزني الآنف متميزاً بمراعاة الحضرة النبوية. أما أحمد بن حسن الترمذي ـ على ما رواه الخطيب البغدادي ـ ففيه من الإساءات ما يحتاج إلى قول أوسع وأشمل. قال: كنت في الروضة فأغفيت، فإذا النبي ﷺ قد أقبل، فقمت إليه فقلت: يا رسول الله قد

كثر الاختلاف في الدين، فما تقول في رأي أبي حنيفة؟ قال: أفٍ ونفض يده. قلت: فما تقول في رأي مالك؟ فرفع يده وطأطأ وقال: أصاب وأخطأ. قلت: فما تقول في رأي الشافعي؟ قال: بأبي ابن عمي ـ هكذا العبارة فانظر ـ أحيى سنتي[1].

وفي تفسير الأحلام ـ أو تعبيرها ـ التي تروى عن الشافعي نفسه يذهبون بعيداً أيضاً، فعن المزني: سمعت الشافعي يقول: رأيت علي بن أبي طالب في النوم، فسلّم عليّ وصافحني، وخلع خاتمه وجعله في اصعبي، وكان لي عم ففسّرها لي فقال لي: أما مصافحتك لعلي فأمان من العذاب، وأما خلع خاتمه فجعله في أصبعك فسيبلغ اسمك ما بلغ اسم علي في الشرق والغرب!؟

ومما تواضع عليه منتسبو المذاهب كعلامات للرئاسة إلى جانب المنامات ـ وقد أطلعنا على المنامات التي وضعت لكل رئيس مذهب ـ هو الحديث النبوي بحق رئيس المذهب، فمنها ما يصرّح بالاسم والصفة، ومنها ما يتبنّى تخصيصه على صرف الصفات الواردة فيه بدون دليل. وقد كانت حصة الإمام الشافعي الحديث: (اللهم اهْدِ قريشاً فإن عالمها يملأ طباق الأرض علماً، اللهم كما أذقتهم عذاباً فأذقهم نوالاً). ولا نريد أن نناقش الأحاديث الأخرى وباختلاف الألفاظ، كما نترك الخوض في طرقها وأسانيدها. ونتنزل فالحديث عن عالم من قريش إن لم يوقت فهو يتناول عالماً من قريش.

ونتفق في القول أنه: (علامة بيّنة للمميز، أن المراد بذلك رجل من علماء هذه الأمة من قريش قد ظهر علمه، وانتشر في البلاد، وكتبوا تآليفه كما تكتب المصاحف، واستظهروا أقواله). وإلى هنا فإن من أئمة قريش وعلمائها من هو أحق وأولى من الشافعي. وما القول: بأن هذه صفة لا نعلمها قد أحاطت إلا بالشافعي. إلاّ تحكّم بدون دليل، لأن الدليل مع من هم أعلم من الشافعي وأحق بهذه الصفة، ممن وضع الله فيهم رسالته وأورثهم أمين السماء علمه وولايته.

فقد أحتجّ به الإمام علي يوم حروراء، عندما بعث إليهم ابن عباس وقال: «قل لهم: علامَ تتهموني وأشهد، فسمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك».

ووجوه الاستدلال لديهم تجهر بأن القصد هو الانتصار في معركة تنازع

---

(١) تاريخ بغداد ج٢ ص٦٩.

المذاهب، فمن نصوصهم: (أن هذا الخبر يتناول رجلاً اجتمعت فيه خصال ثلاثة إحداها: أن يكون من قريش، وبهذا الطريق يخرج عن هذا الحديث مالك وأبو حنيفة وأحمد بن حنبل وأبو يوسف ومحمد. وثانيهما: أن يكون ذلك الرجل كثير العلم بحيث يكون قد وصل علمه إلى أهل الشرق والغرب، والشخص الموصوف بهذه الصفات ليس إلا الشافعي. وذلك لأن جماعة من رجال قريش كانوا قد بلغوا في العلم مبلغاً، إلا أن أحداً منهم لم يبلغ علمه إلى جميع أهل الأرض، وأما الشافعي فإنه هو الذي صنّف في أصول الشريعة وفروعها، وانتشرت تلك التصانيف والعلوم في الشرق والغرب، ولم يبق بيت في الدنيا من بيوت الموافقين والمخالفين والمنكرين إلا وصلت تلك العلوم والكتب فيه، أما الأصحاب والأتباع والموافق فلتقرير الإثبات، وأما المخالفون فللطعن فيه، والجواب عنه، والناس كتبوا تلك الكتب كما تكتب المصاحف التي تتلى والأخبار التي تروى، وكل يوم تزداد قبولاً وإقبالاً. فكان اللائق بقوله ﷺ وإن عالمها يملأ طبقات الأرض علماً ليس إلا الشافعي) اهـ.

ولسنا بصدد الإطالة في البحث عن ثمرات العواطف، ولكننا نحاول هنا أن نأتي على الأشياء التي نستكمل بها ما بحثناه من حياة الشافعي في القسم الأول، وقد أخذنا بتجنب التكرار إلا ما كان لضرورة اقتضتها[1].

وقد أشرنا في القسم الأول أن التأسي بأئمة المذاهب كان وراء هذه التكلّفات والأقوال، فأبو حنيفة قتل مسموماً بدعوى أنه لم يقبل القضاء. ومالك بن أنس ضرب بالسياط لفتوى تخالف السلطان، أو لاشتراكه في ثورة العلويين. ومن بعده أحمد بن حنبل امتحن في مسألة خلق القرآن. فإذن لم يبق من إمارات الرئاسة إلا المحنة. فبادر كتّاب المناقب إلى ذلك، وقد اطلعت على الطعون التي وجهناها إلى الرواية في الجزء الثالث من الكتاب، ومهما يكن من قول فإن المناقب احتوت على باب يحكي المحنة التي مرّ بها الإمام الشافعي، وعقدت فصول في بيانها وكيفية وقوعها، وأشهرها في كتبهم: (إنه جيء بالشافعي رضي الله عنه إلى العراق، وأدخل ليلاً، وكان في رجله حديد، لأنه كان من أصحاب عبد اللّه بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وكان ليلة الاثنين لعشر خلون من شعبان سنة أربع وثمانين ومائة وفي ذلك الوقت كان أبو

(١) انظر التنبيه في الجزء الثالث.

يوسف على قضاء القضاة، ومحمد على المظالم). ولا نزيد في الاقتباس على هذا، لأن وفاة أبي يوسف مع الاختلاف في سنة ١٨٢ أو ١٨٣هـ والثابت أنه لم يلتقِ بالشافعي، وتختلف الروايات هل حمل من اليمن أو من مكة؟ وهل كان في اليمن والياً أو مقيماً؟

ويضمّن ابن كثير روايته إشارة إلى موت أبي يوسف، وأن الاجتماع اقتصر على محمد بن الحسن، وتبين للرشيد براءته مما نسب إليه، وأنزله محمد بن الحسن عنده وأكرمه[١].

ولا يغير ذلك منه أن المحنة قد وضع حكايتها عبد الله بن محمد البلوي، وقد تضمّنت أشياء كثيرة لا أصل لها[٢]. ولم تكن إلا من تلاطمات المناقبية، وموجات العواطف، ولا نذكر ما للشافعي فيه تضلّع ويصر كالأحكام والشعر وصنوف الأدب الأخرى التي جاءت على لسان الشافعي وهو يجيب الرشيد، لكنا نذكر طرفاً من أسئلة الرشيد وأقوال الشافعي وهو يجيبه. قال الرشيد: فكيف علمك بالنجوم؟ قال الشافعي: أعرف الفلك الدائر والنجم السائر، والرجوع والاستقامة والسعود والنحوس وهيئاتها وطبائعها وما أهتدي به في برٍ وبحرٍ، وما يستدلّ به في أوقات الصلاة وأحوال الفصول والأوقات. قال الرشيد: فكيف علمك بالطب؟ قال الشافعي: أعرف ما قالت الروم مثل أرسطا طاليس وبقراط وجالينوس وفرقوريوس وابنه قليس بلغاتها، وما نقله أطباء العرب وقننته فلاسفة الهند، ونمّقته علماء الفرس مثل جاماسب وساهمرد وبزرجمهر... الخ الرواية. إلى غيرها من رغبات التابعين الذين يحملهم الهوى على وضع صورة لشخصية محبوبهم ومقتداهم تفوق مواهب الآخرين وقدرات البشر على التعلم مما لم يدّعيه الشافعي ولم ينطق به. فقالوا في معرفته بالطب أنه كان يقول: العلم علمان: علم الأبدان وعلم الأديان. ثم تارة يقول: علم الأبدان هو الطب، وعلم الأديان هو الفقه. وأخرى يقول: علم الأبدان هو الفقه، لأنه يحث على التكاليف المتوجهة على الأعضاء والجوارح. وعلم الأديان هو علم الباطن، وهو معرفة الله تعالى وكيفية الدواعي والصوارف والنيات في الأعمال.

---

(١) البداية والنهاية ج١٠ ص٢٥٢.

(٢) انظر قصتها في الحلية ج٩ ص٨٥. والمناقب للرازي ص٢٣ ـ ٢٧. ومعجم الأدباء ج١٧.

ولم يَدَعُوا أقواله في الفرق بين الفقه والطب ومنازعهما على ما وردت به مما يعلمه كل فقيه عالم بالأحكام عارف بالحديث، غير أنهم ادعوا معرفته بالطب واحتجوا بمزيد من الأقوال كقوله: لا تسكن بلدة لا يكون فيها عالم يخبرك عن دينك، ولا طبيب يخبرك عن أمر بدنك. وإنه كان يتلهّف على إعراض المسلمين عن علم الطب.

وإذا نظرنا إلى عصر الرشيد، رأينا أن ظهور النصارى بالطب، ودخولهم في خدمة الرشيد، وحذقهم في ذلك قد حمل المسلمين على التلهف على كون الطب في غير المسلمين، وأن ادعاءهم مبني على استشعار المسلمين هذه الحاجة. فالشافعي يعرف الطب في هذه الظروف التي أدت إلى استخدام النصارى، لأن المسلمين جهلوا ما في دينهم من وجوه الاهتمام بالبدن ووصايا الطب، فقد روى الثعلبي في تفسيره أن بختيشوع بن جبريل المتطبب النصراني كان يخدم الرشيد، وكان حاذقاً، فقال يوماً بحضرة الرشيد لعلي بن الواقد الواقدي: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، والعلم علمان علم الأبدان وعلم الأديان. فقال له علي بن واقد: قد جمع الله الطب في نصف آية من كتابه وهو قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوٓا﴾ فقال النصراني: أو لا يروى عن نبيكم شيء من الطب؟ فقال الواقدي جمع النبي ﷺ الطب في كلمات وهي قوله: «المعدة بيت الداء، والحمية رأس كل دواء، وأعطِ كل بدن ما عوّدته». فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً[1].

وبرواية المحنة تكتمل شروط الرئاسة المذهبية، وبتفاصيل تفرّده في النبوغ والمعرفة يصبح مؤهلاً إلى أن يبعث لهذه الأمة، ويكون بمقتضى رواية أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدّد لها دينها» هو المقصود، وينسب إلى أحمد بن حنبل ترويج ذلك وأنه قال: نظرت في سنة مائة فإذا هو رجل من آل رسول الله ﷺ ونظرت في رأس المائة الثانية فإذا هو رجل من آل رسول الله ﷺ محمد بن إدريس رحمه الله.

ثم يمضون، فيضعون في رأس كل مائة أحد شيوخهم من الشافعية، وقد

---

(١) المواعظ العددية.

يختلفون إذا تكافأ الاثنان كأبي حامد الاسفراييني وسهل بن أبي سهل الصعلوكي أو الفخر الرازي والرافعي[١].

بين الحديث والرأي:

ذكرنا سابقاً رأي ابن حجر في اجتماع الحديث والرأي في الشافعي، وخلصنا إلى أن الرحلة إلى العراق حقيقتها كانت لدوافع علمية، لأن الشافعي ـ وهو يتلقى على مالك ـ كان قادراً على المناظرة، ومستعملاً الرأي الذي يخالف به أستاذه، ويقوم بالاستنباط، فقد روي عنه أنه كان جالساً بين يدي مالك بن أنس، فجاء رجل إلى مالك فقال: يا أبا محمد، إني رجل أبيع القمري، وإني بعت يومي هذا قمرياً، فبعد زمان أتاني صاحب القمري وقال: إن قمريك هذا لا يصيح، فتشاجرنا إلى أن حلفت بالطلاق أن قمريي ما يهدأ من الصياح؟ فقال مالك: طلقت امرأتك. فانصرف الرجل حزيناً، فقام الشافعي إليه وقال للسائل: أصياح قمريك أكثر من سكوته أم سكوته أكثر؟ فقال السائل: بل صياحه. فقال الشافعي: انصرف، فإن زوجتك ما طلقت. ثم رجع الشافعي إلى الحلقة فعاد السائل إلى مالك. فقال: يا أبا عبد الله تفكر في واقعتي لتستحق الثواب. فقال مالك: الجواب ما تقدم. فقال: فإن عندك من قال الطلاق غير واقع. فقال مالك: ومن هو؟ فقال السائل: هو هذا الغلام. وأومأ إلى الشافعي، فغضب مالك عليه وقال له: من أين لك هذا الجواب؟ فقال الشافعي: إني سألته أن صياحه أكثر أم سكوته؟ فقال: إن صياحه أكثر. فقال مالك: وهذا الدليل أقبح، وأي تأثير لكثرة صياحه أو قلة سكوته في هذا الباب؟ فقال الشافعي: إنك حدثتني عن عبد الله بن يزيد عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن فاطمة بنت قيس أنها أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله أن أبا جهم ومعاوية خطباني، فأيّهما أتزوج؟ فقال النبي ﷺ: أما معاوية فصعلوك، وأما أبو جهم فرجل لا يضع عصاه عن عاتقه. وقد علم النبي ﷺ أن أبا جهم كان يأكل وينام ويستريح، فعلمنا أنه ﷺ عبّر بقوله ـ لا يضع عصاه عن عاتقه ـ على تفسير أن الأغلب من أحواله ذلك اهـ.

واشتهر منه ذلك وهو في الحجاز، حتى لفت أنظار أهل الرأي كبشر المريسي[٢]

---

(١) انظر مفتاح السعادة لطاش كبرى زادة ج٢ ص٩٤.

(٢) بشر بن غياث بن عبد الرحمن المريسي المعتزلي أدرك أبا حنيفة وأخذ عنه، ثم لازم أبا يوسف وأخذعنه، وصار من أخص أصحابه، واشتهر بعلم الكلام والفلسفة، وقال بخلق القرآن، وإليه تنسب =

فكانت مناظراته مع الشافعي من أشهر ما ذكر عن المريسي وقالوا: حج بشر المريسي فرجع فقال لأصحابه: رأيت شاباً من قريش بمكة ما أخاف على مذهبنا إلا منه[١].

وفي رحلته إلى بغداد ينزل الشافعي على بشر المريسي، فقالت له أم بشر: لم جئت إلى هذا؟ فقال أسمع منه العلم. فقالت: هذا زنديق. وفي رواية أن أم بشر جاءت إلى الشافعي فقالت: يا أبا عبد الله أرى إبني يهابك ويحبّك، وإذا ذكرت عنده أجلّك، فلو نهيته عن هذا الرأي الذي هو فيه، فقد عاداه الناس عليه، ويتكلم في شيء يواليه الناس عليه ويحبونه؟ فقال لها الشافعي: أفعل. فقال الشافعي لبشر: أخبرني عمّا تدعو إليه أكتاب ناطق، أم فرض مفترض، أم سنّة قائمة، أم وجوب عن السلف البحث فيه والسؤال عنه[٢]؟ ولا نستطرد في ذكر أقوالهما لأن ذلك ليس في نطاق البحث.

والغرض أن الشافعي نهج مع بشر منهج الحوار والقول بالحق، وناظره في مسائل كثيرة، فتبدّلت علاقتهما وساءت، لأن الناس مالت إلى الشافعي، وخفّوا عن بشر، فلما قيل لبشر: هذا الشافعي الذي كنت تزعم قد قدم؟ فقال: إنه قد تغيّر عمّا كان عليه[٣].

وفي المرة الأولى من قدومه بغداد انقطع الشافعي إلى محمد بن الحسن، فحمل عنه[٤] وقد قدّر ما كتبه بوقر بعير، وكان الناس يعظمون محمد بن الحسن لقربه من الرشيد، وقد اجتمعا على باب هارون، فاندفع محمد يعرّض بالشافعي ويذم أهل المدينة بقوله: من أهل المدينة؟ وأي شيء يحسن أهل المدينة؟ والله لقد وضعت كتاباً على أهل المدينة كلها لا يخالفني فيه أحد، ولو علمت أن أحداً يخالفني في كتابي هذا تبلغني إليه آباط الإبل، لصرت حتى أردّ عليه.

وينبّه الشافعي إلى أصل التحامل ومداره بين الأشخاص، فيروي الشافعي: فتقدمت إليه فقلت: أصلحك الله ـ طعنك على أهل المدينة وذمك لأهل المدينة إن

= المريسية من المرجئة، وكفرّه أكثرهم. ونسبته إلى مريسة توفي سنة ٢١٩هـ.

(١) تاريخ بغداد ج٢ ص٦٥.

(٢) راجع تاريخ بغداد ج٧ ص٥٩.

(٣) أيضاً ج٢ ص٦٥.

(٤) معجم الأدباء ج١٧ ص٢٨٣.

كنت أردت رجلاً واحداً وهو مالك بن أنس فألاذكرت ذلك الرجل بعينه ولم تطعن على أهل حرم الله وحرم رسوله وكلهم على خلاف ما ادعيته. وأما كتابك الذي ذكرت أنك وضعته على أهل المدينة، فكتابك من بعد «بسم الله الرحمن الرحيم» خطأ إلى آخره. ثم يذكر الشافعي أقوال ابن الحسن وردّه عليها(١).

وعندما يسمع الناس عن منحى الشافعي في محاورة أهل الرأي يطلقون عليه (ناصر السنة) أو (ناصر الحديث) على اختلاف في التسمية بين ما ذكره ابن كثير وهو الأول بسنده عن الشافعي، وما ذكره الخطيب بسنده عن الشافعي أيضاً وهو الآخر.

ومن الواضح أن الشافعي يأخذ بالرأي ويقوم بالاستنباط في عموم آرائه بعد تردّده على بغداد لعدة مرات ولسنين، ولكنه يبقي للحديث الشريف الأوليّة، فقد قالوا عنه: إذا صحّ عندكم الحديث عن رسول الله ﷺ فقولوا به ودعوا قولي، فإني أقول به، وإن لم تسمعوا مني - وفي رواية - فلا تقلدوني، وفي رواية فلا تلتفتوا إلى قولي، وفي رواية فاضربوا بقولي عرض الحائط. فلا قول لي مع قول رسول الله(٢).

وتلك من مزايا الإمام الشافعي، لأن صحة الحديث النبوي الشريف والتحقق من طرقه من أعظم الأمور التي يتحرّاها الفقيه للاتباع أو للاستنباط.

وصفوة القول، فإن الإمام الشافعي كان طلاّبة علم وبحّاثة يرود المواطن التي يرى فيها لفكره فائدة، إما إطلاعاً أو أخذاً، فهو كثير السؤال، ويدلنا قوله: (ما رأيت أحداً سأل عن مسألة فيها نظر، إلا رأيت الكراهة في وجهه إلا محمد بن الحسن)(٣).

ومع تحوطه وتحرّزه، فإنه يثني على مقاتل بن سليمان(٤) وقول الشافعي مشهور: (الناس كلهم عيال على ثلاثة: على مقاتل في التفسير، وعلى زهير بن أبي

---

(١) المرجع السابق.

(٢) تاريخ ابن كثير ج١٠ ص٢٥٤.

(٣) الانتقاء ص٦٩.

(٤) مقاتل بن سليمان بن بشر أبو الحسن البلخي، قدم بغداد وحدّث بها، واشتهر بالتفسير. قال ابن المبارك: ما أحسن تفسيره لو كان ثقة، قال بالتشبيه وأفرط في إثبات الصفات وتشبيه الله عز وجل بالمخلوقات. قال أبو حيان: كان يأخذ من اليهود والنصارى من علم القرآن الذي يوافق كتبهم توفي سنة ١٥٠هـ.

سلمى في الشعر، وعلى أبي حنيفة في الكلام)[1]. كما أن قراءته لتفسير مقاتل بن سليمان معروفة كما في أشكال المعنى عليه في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّنٰهَا﴾[2].

ولا ندري هل تضافر التفسير والشعر والكلام على تمكّنه من ضرب من الألغاز يرد في التفسير؟ نسوق بعض نصوص دون تعليق:

قيل له ـ أي الشافعي ـ كم قُرْءُ أم فلاح؟ فأجاب: على البديهة من ابن ذكا إلى أم شملة. والمراد بالقرء الوقت، وأم فلاح الفجر، وهو كنية الصلاة. والسؤال واقع عن مدة وقت صلاة الفجر، وقول الشافعي رضي الله عنه: من ابن ذكا. أي من وقت الصبح، وإلى أم شملة، وهي كنية الشمس، أي إلى طلوع الشمس. وهذا التفسير منسوب إلى الخطابي.

وثانيها: سئل نسي أبو دارس درسه قبل غيبة الغزالة بلحظة، ماذا يجب على أمه؟ فقال: عليها قضاء وظيفة العصرين. قال السائل: لجناية جناها أبو دارس؟ قال الشافعي: بل لكرامة استحقّتها أمه. وتفسيره أن نقول: أبو دارس: كنية فرج النساء، والدارس: الحيض. فقال: نسي درسه، أي ترك حيضه. والغزالة: الشمس، والمراد بأم دارس: المرأة، إذ أم الشيء أصله.... سئل: هل تسمع شهادة الخالق؟ قال: لا، ولا روايته. والخالق: الكاذب، قال الله تعالى: إن هذا خُلُق الأولين... الخ.

وقد حرص تلامذته على حفظ نزعة الشافعي في غرض لا يؤاخذ عليه كأحمد بن حنبل إذ يقول: خير خصلة في الشافعي أنه ما كان يشتهي الكلام، إنما كان همّته الفقه. وقد بات علم الكلام يومئذ محذوراً، وأصبح يعني الأهواء والنحل المختلفة، ويصف الشافعي الظرف الذي كان فيه فيقول: رأيت أهل الكلام يكفّر بعضهم بعضاً، ورأيت أهل الحديث يخطىء بعضهم بعضاً، والتخطئة أهون من الكفر. وعرف عن الشافعي طعنه في علم الكلام وبغضه لأهله، وأحاطه الأصحاب بما يوحي بأن الشافعي اقتصر على ما بأيديهم من طرق ولم يجاوز الأثر والحديث، ولم يخض في جدل أو حوار، وأنه انتهى من اطلاعه إلى أن أهل الكلام على شيء ما توهمه، ولئن يبتلى المرء بجميع ما نهى الله تعالى عنه سوى الشرك بالله، خير من أن يبتلى بالكلام. وكان ذلك بتأثير العصر الذي عاش فيه الشافعي، إذ ارتأى الأصحاب

---

(١) تاريخ بغداد ج١٣ ص١٦١.

(٢) مناقب الرازي.

والتلاميذ أن يبعدوا اسم رئيسهم عن مجالات النقاش والجدل، ولا نريد أن نخوض في الأسباب، وإنما نقول أن طرق الكلام تقوم على المناظرة والحوار وإجادة الحجاج والمجادلة، وقد شهد الميدان رجالاً تسلّحوا بالإيمان وتزوّدوا بالأحكام واقتحموا تلك المعتركات للذبّ عن العقيدة وفضح أهل الأهواء والبدع.

أما الأتباع بعد عصر الشافعي فإنهم لا ينفون الحقائق، ولا ينكرون ما كان عليه الشافعي فيقولون: إن الشافعي كان قوياً في المناظرة والمجادلة. بل أنهم يرون تمكنه من ذلك سبباً في رجوع الناس عن قول أبي حنيفة وقول مالك لمخالفته لهما[1].

ولا نريد أن نتوسع في القول، فقد ذكرنا قبل قليل بعض ما يشير إلى خوضه في الرأي والمناظرة، وفيه مجال لمزيد من القول، ولكنّا آثرنا الاختصار، لأن غاية البحث في أغراض أخرى، ولا مانع من القول أن الشافعي ـ في طلبه وبحثه ـ كان لا يتوقف عند التهم، ولا يمتنع من الاتصال والاطلاع بنفسه. لأن سلاح الاتهام بالبدع والأهواء استعمل في مناسبات وأغراض اختلطت فيها الصور، ومرّت الموجة لتشمل آخرين لا ذنب لهم، وقد ذكرنا طرفاً من علاقته بالمريسي، وأنه جاء إليه للعلم، ومضى الشافعي في مجادلته لمّا تبيّن له ضلاله.

عن أبي ثور قال: سمعت الشافعي يقول: قلت لبشر المريسي: ما تقول في رجل قُتل، وله أولياء صغار وكبار، وهل للأكابر أن يقتلوا دون الأصاغر؟ فقال: لا. فقلت له: فقد قتل الحسن بن علي بن أبي طالب ابن ملجم ولعلي أولاد صغار؟ فقال: أخطأ الحسن بن علي. فقلت: أما كان جواب أحسن من هذا اللفظ؟ قال: وهجرته من يومئذ. فنرى أن الإمام الشافعي يهجر من كان يتوسّم فيه العلم وهو من أهل الكلام لأنه أساء اللفظ في وصف السبط الزكي. ويذمّ الآخرين ممن استهواهم الجدل وغلب عليهم الرأي، فأباحوا لأنفسهم ما لا يرضي الله أو أدتهم أهواءهم إلى الخروج إلى غيرها. ومن الأسباب التي يمكن أن يحتج بها لأقوال الشافعي ومن جملتها أيضاً ما ذكرناه من هوى الأصحاب والأتباع في الحفاظ على منهج الشافعي في سياقهم، ولا نرى وجهاً للتعليل بأن نهي الشافعي عن علم الكلام والتحذير منه كان لما بدر من المعتزلة، لأنهم كانوا القوامين عليه.

---

(١) مناقب الرازي ص١٣٩.

ولقد بحثنا في الجزء الثالث آراء الإمام الشافعي في علم الكلام وخلق القرآن والصفات والإمامة. ونرى ما حررناه في هذا الجزء جديراً باستكمال الفائدة[1].

الانتقال إلى مصر:

لا شك أن الشافعي كان طموحاً، فلم يتمكن من الإقامة في بغداد إلى جانب محمد بن الحسن الشيباني وصفته فيها طالب علم، حتى قال: حملت عن محمد بن الحسن حمل بختي. ومرة قال: وقر بعير ليس عليه إلا سماعي منه[2]. وكان في قدومه الأول منقطعاً إلى الحسن.

وتختلف الروايات في الأسباب التي حملت الشافعي على الانتقال إلى مصر، ونحن نرجح أن يكون اصطدامه بحواجز الشهرة والسلطان التي كانت تقف أمامه وتحيط مكانة محمد بن الحسن، وبلوغه درجة علمية تجعله يطمح إلى مكانة أعلى لا يبلغها بوجود محمد بن الحسن.

وقد قيل: إنه كان يتشوق إلى مصر، ورووا له شعراً بذلك:

أرى النفس قد أضحت تتوق إلى مصر ... ومن دونها قطع المهامه والقفر
فوالله ما أدري ألـلفوز والغنى ... أساق إليها أم أساق إلى القبر؟

وهذه الأبيات تنسب إلى الحسن بن هاني المعروف بأبي نؤاس، وإن الشافعي تمثّل بها.

وقيل إنه قدم مصر رغبة منه في معارضة انتشار أقوال أبي حنيفة ومالك ـ كما حدّث الربيع ـ قال: سألني الشافعي عن أهل مصر، فقلت: هم فرقتان فرقة مالت إلى قول مالك وناضلت عليه، وفرقة مالت إلى قول أبي حنيفة وناضلت عليه. فقال: أرجو أن أقدم مصر إن شاء الله فآتيهم بشيء أشغلهم به عن القولين.

والحقيقة إنه قوبل في مصر كتلميذ لمالك، وكان لمالك ذكر في مصر وتلامذته ينشرون أقواله ويتبعونه، ونزل ضيفاً على محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، فكرّم مثواه، وكانت لمحمد هذا مكانة في مصر، وهو من تلامذة مالك وإليه انتهت الرياسة في مصر ولا يعدلون به أحداً.

---

(١) تاريخ بغداد ج٧ ص٦٠.
(٢) الانتقاء.

وكان نزول الشافعي عنده من عوامل ظهور الشافعي، فهو معدود من تلامذة مالك، وآل الحكم كذلك فقدموا له كلما يحتاجه، والأغلب أن للشافعي قدومين إلى مصر، الأول كان سنة ١٨٨هـ وفيه كان نزوله عند آل الحكم، وبعده عاد إلى بغداد للمرة الثانية سنة ١٩٥هـ فاختلف إليه جماعة من العلماء منهم: أحمد بن حنبل وأبو ثور الكرابيسي والزعفراني، وأملى أقواله وآراءه، وهو ما يعرف بمذهبه القديم. ثم رجع إلى مكة وعاد إلى العراق سنة ١٩٨هـ للمرة الثالثة، فأقام بها مدة يسيرة، وفي آخر سنة ١٩٩هـ عاد إلى مصر وأملى مذهبه الجديد. وهذه التواريخ تقوّيها أحداث حياة الشافعي المعروفة، ولقد ضمّت كتب المناقب والسير أن القدوم إلى مصر كان مرة واحدة، وأن بقاءه في بغداد ـ آخر قدوم له ـ كان شهراً، ولكن بعض الوقائع تخلّ بهذا الترتيب.

والظاهر أن ابن عبد الحكم وأهله لمسوا من الشافعي طموحه، فأخذوا في الأعداد لشهرة الشافعي ولرئاسته، فنرى ابن عبد الحكم يقول: لمّا أن حملت أم الشافعي به رأت كأن المشتري خرج من فرجها حتى انقضّ بمصر، ثم وقع في كل بلد منه شظية[1].

وفي مصر ظهرت مواهب الشافعي العلمية ومقدرته وسعة اطلاعه، وقصده الناس، وأصبح له تلامذة، وأملى مذهبه الجديد، وكان ابن الحكم المساعد الأول له. فقد أقبل على مذهب الشافعي وتحمّس له، وتحوّل عن مذهب مالك، ولمّا استخلف الشافعي البويطي في حلقته، نقم ابن الحكم، وعاد إلى المذهب المالكي، وتحوّل عن الشافعي تماماً، ووضع كتاب الردّ على الشافعي فيما خالف الكتاب والسنّة. وفي مصر تنكّر الشافعي لأستاذه مالك، فردّ أقواله. وعظم ذلك على المالكية وتعصبوا عليه، وسعوا به عند السلطان، وقالوا له: أخرجه وإلا أفتتن به البلد. فأتاه الشافعي فكلّمه فامتنع الوالي وقال: إن هؤلاء كرهوك، وأخشى الفتنة. فقال له الشافعي: أجّلني ثلاثة أيام، فمات الوالي فيها[2] وكان الشافعي لما دخل مصر حضر إلى السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن علي، وسمع عليها الحديث، وكانت لها منزلة في مصر[3] وهي زوجة إسحاق بن الإمام جعفر بن محمد الصادق.

---

(١) تاريخ بغداد.

(٢) توالي التأسيس ص٨٤.

(٣) وفيات الأعيان ج٥ ص٥٧.

وأدى اتساع حلقة الشافعي في مصر إلى سخط المالكية، وإلى تعرّضه إلى مسلك من التعصب. فذكر الساجي: إن الشافعي إنما وضع الكتب على مالك بسبب أنه بلغه أن قلنسوة لمالك يستسقى بها، وكان يقال لهم: قال رسول الله. فيقولون: قال مالك. فقال الشافعي: إنما مالك بشرٌ يخطىء. فدعاه ذلك إلى تصنيف الكتاب في اختلافه معه وكان يقول: استخرت الله في ذلك مدة سنة.

وفي مصر بلغ الشافعي درجة من الاجتهاد والنضج العلمي. ولا نشك في ذلك، فإن القول القديم وهو العراقي، والقول الجديد وهو المصري، أو مذهبه الجديد ومذهبه القديم، ينمّان عن تطور في المدارك، وسعة في التحصيل. ولقد قيل أن السبب في هذا التحول في الأقوال هو من عوامل البيئة ومن مظاهر التأثر بالأوضاع، والأمر قد يتسع للأقوال بهذا الخصوص، ولكنها لا تتسع للادعاء بأنه أعلم الأمة، وأن أمر التشريع انحصر به، وانتهى إليه الفقه. فإذا نظرنا إلى المدة فإن الشافعي رحمه الله توفي سنة ٢٠٤هـ فهي لا تكفي ليتحقق هذا الادعاء، وقد وجدنا من المبالغات في مواهبه ما لا يقرّه الواقع، ولا يحتمله العقل. ولكن عواطف الأصحاب، والإيقاع، ومماحكات التعصب، وظروف التنازع المذهبي أدت إلى تعاطي ما يخالف الحقائق.

ومن الإنصاف القول أنه لم يبلغ الدرجة التي يستحق أن يكون بها عند أتباعه، لأن الإساءة بوضع الأقوال بتأثير ردود الأفعال واضحة، والإمام الشافعي له من العلم والفضل الحقيقيين ما يغني، واحتلاله المنزلة التي يراها هو لنفسه خير من عواطف وردود أفعال مرتجفة.

وقد قلنا وتحدثنا مراراً عن أمواج الادعاءات، وقد كان الشافعي يعترف لأحمد بن حنبل بأنه أعلم منه في الحديث.

لقد امتاز الشافعي عن غيره من أئمة المذاهب بتدوين مذهبه وتأليف كتبه. وقد ذكر له كثير من الكتب، ذكرها ابن النديم والبيهقي وياقوت، ونسب له المسند، وليس من تأليفه، وإنما استخرجه بعض أصحابه من أسانيد الأم. وقد كان تدوين المذهب، سبباً في الادعاء أن الشافعي هو أول من قعّد القواعد وأصّل الأصول، وهو ما يجافي الحقيقة ولا يتفق مع الواقع، لأن التدوين لا يعني السبق في تقعيد القواعد وتأصيل الأصول، وإنما هو تحرير للمذهب وتقرير للرأي، وقد ناقشنا في فصل (تدوين العلم) في الجزء الثاني ذلك، فلا حاجة إلى ذكر المزيد هنا.

والقصد، فإن الانتقال إلى مصر لم يكن كرحلاته السابقة لطلب العلم، إنما اختار بلداً وهو عازم على أن يكون محلاً لإقامته ليس فيه من ينازعه. فقد حلّ بين رجال يجمعهم إتّباع مالك، ولما استقرّ أخذ في الردّ على أستاذه، وقد انتهى إلى مذهبه الجديد وقد كلفه ذلك حياته، إذ اعتدى عليه أتباع مالك.

وكيف كان فقد جاء الشافعي بمذهبه الجديد، وكان قد درس المذهبين: مذهب أهل الرأي ومذهب أهل الحديث. وقد لاحظ ما فيهما من نقص، فبدا له أن يكمل ذلك، وأخذ ينقص بعض التعريفات منه ناحية خروجها من متابعة نظام متحد في طريقة الاستنباط، وذلك يشعر باتجاهه في الفقه اتجاهاً جديداً لا يكاد يعنى بالجزئيات والفروع.

وخير ما يلخّص مسلكه هو أنه قال: الأصل قرآن وسنة، فإن لم يكن، فقياس عليهما. وإذا اتصل الحديث عن رسول الله ﷺ وصحّ الإسناد فهو سنّة، والإجماع أكبر من الخبر المفرد، والحديث على ظاهره، وما احتمل معاني فما اشتبه منها ظاهر أولاها به، وإذا تكافأت الأحاديث فأصحها إسناداً أولاها، وليس المنقطع بشيء ما عدا منقطع ابن المسيب، ولا يقاس أصل على أصل، ولا يقال للأصل لم وكيف. وإنما يقال للفرع، فإذا صحّ قياسه صحّ وقامت به الحجة.

فهو بهذا المسلك وبهذا المنحى قد ردّ على مالك، لتركه الأحاديث الصحيحة لقول واحد من الصحابة أو التابعين أو رأي نفسه.

وهاجم أبا حنيفة وأصحابه لأنهم يشترطون في الحديث أن يكون مشهوراً، ويقدّمون القياس على خبر الآحاد وإن صح سنده، وأنكر علهيم تركهم لبعض السنن لأنها غير مشهورة، وعملهم بأحاديث لم تصحّ عند علماء الحديث، بدعوى أنها مشهورة. ووقف في القياس موقفاً وسطاً، فلم يتشدّد فيه تشدّد مالك، ولم يتوسّع فيه توسّع أبي حنيفة[١].

ويقول إمام الحرمين الجويني: فمالك أفرط في مراعاة المصالح المطلقة

---

(١) انظر تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية للأستاذ مصطفى عبد الرازق ص٢٢٥. وضحى الإسلام لأحمد أمين ج٢ ص٢٢٤.

المرسلة غير المستندة إلى شواهد الشرع، وأبو حنيفة قصر نظره على الجزئيات والفروع والتفاصيل من غير مراعاة القواعد والأصول.

ثم يتعقب ذلك الجويني ـ كشافعي ـ فيقول: والشافعي (رض) جمع بين القواعد والفروع، فكان مذهبه أقصد المذاهب، ومطلبه أسدّ المطالب.

وتدلنا الحوادث بوضوح أنه لقي أذى كثيراً في إظهار مخالفته لمالك وردّه عليه، كما أنه لم يلق في مصر الإقبال الذي كان يرجوه ويأمله رجل مثله، فقد جفاه الناس ولم يجلس إليه أحد، فقال له بعض من قدم معه: لو قلت شيئاً يجتمع إليك الناس. فقال: إليك عني وأنشأ:

أأنثر درّاً بين سارحة النعم ... وأنظم منثوراً لراعية الغنم[1]

وكان يظهر التذمّر والتألّم، ويدلنا على ذلك قوله:

وأنزلني طول النوى دار غربة ... إذا شئت لاقيت امرءاً لا أشاكله

أجامعه حتى تقال سجيّة ... ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله[2]

وقال الكندي: لما دخل الشافعي مصر كان ابن المنكدر يصيح خلفه: يا كذا... دخلت هذه البلدة وأمرنا واحد ورأينا واحد؛ ففرّقت بيننا وألقيت بيننا الشرّ، فرّق الله بين روحك وجسمك[3].

أدبه وشعره:

كان الشافعي على درجة عالية من المعرفة في اللغة العربية، واطلاع كبير على معانيها وعلومها، وكان أحمد بن حنبل يقول: الشافعي فيلسوف في أربعة أشياء: في اللغة وأيام الناس والمعاني والفقه. ونسب إليه أنه قال: (أقمت في بطون العرب عشرين سنة، آخذ أشعارها ولغاتها) وذلك لإظهار طول المدة التي استغرقها كدليل على تمكنه من اللغة ومعرفته بها، وهي فترة تترك ثغرة في مسار حياة الشافعي كما رأيناها، فليست إلا من عواطف الأتباع، وإنما الحقيقة التي تكفي لإظهار ما عليه

---

(١) و (٢) معجم الأدباء.

(٣) الولاة والقضاة ص٤٣٨.

الشافعي أنه عاش بين القبائل في البداية ليأخذ المعاني والألفاظ الفصحى، وقد ظهر ذلك مع مفرداته وأقواله وتحصيله موهبة الشعر، وقد كان غرض إقامته بين القبائل أن يستعين باللغة على الفقه[1].

ومنهم من يقول أن الأصمعي صحّح أشعار هذيل على فتى من قريش يقال له محمد بن إدريس الشافعي، ومنهم من يروي قول الأصمعي دون ذكر عبارة: يقال له وما بعدها، وإنما قال الأصمعي: صححت أشعار هذيل على فتى من قريش.

ومهما يكن من قول فإن الشافعي حفظ أشعار العرب وشعر هذيل. يقول ياقوت: وحكي لنا عن مصعب الزبيري قال: كان أبي والشافعي يتناشدان، فأتى الشافعي على شعر هذيل حفظاً وقال: لا تُعْلِمْ بهذا أحداً من أهل الحديث، فإنهم لا يحتملون هذا[2].

فهو يخشى مجتمعه. ولقد التمس وسيلة تساعده في اتجاهه للفقه وسعيه إلى العلم، فأخضع موهبته الشعرية لهذه الضوابط فقال:

ولولا الشعر بالعلماء يزري   لكنت اليوم أشعر من لبيد

فهو يرى أن منزلة العالم أسمى من كل منزلة، وقد ترك الشعر مع تمكنه من أدواته وقدرته على نظمه، وقد ظهر قبل سنوات قليلة ديوان شعر للشافعي جمعه: محمد عفيف الزعبي في أقل من خمسين ورقة طبع في سنة ١٣٩١هـ.

إلا أن الشافعي يقول الشعر بعاطفة خالصة، كشعره في حب آل البيت الذي كان سبباً في اتهامه بالتشيّع، وينظم الشعر في تجاربه مع الحياة والناس كما مرّ بعض ذلك.

قال الربيع بن سليمان: حججت مع محمد بن إدريس الشافعي إلى مكة، فما كان يصعد شرفاً ولا يهبط وادياً إلا أنشأ يقول:

يا راكباً قف بالمحصّب من منى   واهتف بساكن خيفها والناهض

(١) مناقب الرازي ص٨٩.

(٢) معجم الأدباء ج١٧ ص٢٩٩.

سَحَراً إذا فاض الحجيج إلى منى فيضاً كملتطم الفرات الفائض
إن كان رفضاً حبّ آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي(١)

ويروي ابن عبد البرّ أنه قيل للشافعيّ: إن فيك بعض التشيّع؟ قال: وكيف؟ قالوا: ذلك لأنك تظهرحب آل محمد. فقال: يا قوم، ألم يقل رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من والده وولده والناس أجمعين». وقال: «إن أوليائي من عترتي المتقون» فإذا كان واجباً عليّ أن أحبّ قرابتي وذوي رحمي إذا كانوا من المتقين، أليس من الدين أن أحبّ قرابة رسول الله ﷺ إذا كانوا من المتقين، لأنه كان يحب قرابته؟ وأنشد: يا راكباً قف بالمحصّب من منى.

ومن شعره في موالاة أهل البيت:

إذا في مجلس نذكر علياً وسبطيه وفاطمة الزكيّة
يقال تجاوزوا يا قوم هذا حديث من حديث الرافضيّة
برئت إلى المهيمن من أناسٍ يرون الرفض حبّ الفاطميّة(٢)

وكان يجيب على تهمة التشيّع بجرأة في ظروف كانت فيها التهمة بالتشيع تعني الهلاك والحرمان، ولا يكتم رأيه فيقول:

أنا الشيعي في ديني وأصلي بمكة، ثم داري عسقلية
بأطيب موطنٍ وأعزّ فخرٍ وأسمى مذهب يسمو البريّة

---

(١) الانتقاء ومعجم الأدباء.

(٢) ذكر القندوزي الحنفي في ينابيع المودة نقلاً عن البيهقي عن الربيع بن سليمان الأبيات الشعرية وفيها زيادة رأينا ذكرها في الهامش، لأن ما ورد في المتن هي الأشهر: قيل للإمام الشافعي رحمه الله إن أناساً لا يصبرون على سماع منقبة أو فضيلة لأهل البيت الطيبين، فإذا رأوا واحداً منّا يذكرها يقولون هذا رافضي.

فأنشأ الشافعي:

إذا في مجلس ذكروا علياً وسبطيه وفاطمة الزكية
فأجرى بعضهم ذكراً سواه فأيقن أنه سلقلقية
إذا ذكروا علياً أو بنيه تشاغل بالروايات العلية
وقال تجاوزا يا قوم عن ذا فهذا من حديث الرافضية
برئت إلى المهيمن من أناس يرون الرفض حب الفاطمية
على آل الرسول صلاة ولعنته لتلك الجاهلية

وله أيضاً:

قالوا: ترفّضت. قلت: كلا ... ما الرفض ديني ولا اعتقادي
لكن توليت غير شك ... خير إمام وخير هادي
إن كان حب الولي رفضاً ... فإن رفضي إلى العباد

وقوله:

يا آل بيت رسول الله حبكمو ... فرض من الله في القرآن أنزله
يكفيكم من عظيم الفخر أنكمو ... من لم يُصَلِّ عليكم لا صلاة له

وله أيضاً:

لم يبرح الناس حتى أحدثوا بدعاً ... في الدين بالرأي لم يبعث بها الرسل
حتى استخفّ بدين الله أكثرهم ... وفي الذي حملوا من حقّه شغل

وله في الدعاء:

بموقف ذلي عند عزتك العظمى ... بمخفيّ سرٍّ لا أحيط به علماً
بأطراق رأسي باعترافي بزلتي ... بمدّ يدي استمطر الجود والرحما
بأسمائك الحسنى التي بعض وصفها ... لعزّتها تستغرق النثر والنظما
بعهد قديم من ألست بربّكم ... بمن كان مجهولاً فعلمته الأسما
إذقني شراب الأنس يا من إذا سقى ... محبّاً شراباً لا يُضام ولا يُظما

ومنه ما رواه الربيع بن سليمان أنه كتب إلى محمد بن الحسن، وقد طلب منه كتباً ليستنسخها فتأخرت عنه:

قل لمن تر عينا ... من رآه مثله
ومن كان من رآه ... قد رأى من قبله
العلم ينهى أهله ... أن يمنعون أهله
لعله يبذله ... لأهله لعله

وعن الربيع أيضاً أن الشافعي قال يعزّي بعض إخوانه:

إني أعزّيك لا إني على طمع ... من الحياة ولكن سنّة الدين
فما المعزّى بباقٍ بعد صاحبه ... ولا المعزّي وإن عاشا إلى حين

ولا بد للشافعي أن لايدع من يستفزّهم ذكر آل محمد ويغضبهم موالاة من

أوصى بموالاتهم صاحب الرسالة، فهو على الاعتقاد الذي أجمعوا عليه، غير أنه يرى حب آل محمد فيقول:

إذا نحن فضّلنا عليّاً فإننا ... روافض بالتفضيل عند ذوي الجهل
وفضل أبي بكر إذا ما ذكرته ... رميت بنصبٍ عند ذكري للفضل
فلا زلت ذا رفضٍ ونصبٍ كلاهما ... بحبيهما حتى أوسّد في الرمل

ومنها:

شهدت بأن الله لا ربَّ غيره ... وأشهد أن البعث حق وأخلص
وأن عرى الآيات قول مبيّن ... وفعل زكيّ قد يزيد وينقص
وأن أبا بكر خليفة ربه ... وكان أبو حفص على الخير يحرص
وأشهد ربي أن عثمان فاضل ... وأن علياً فضله متخصّص
أئمة حقٍ يهتدى بهداهم ... لحى الله من إياهم يتنقّص

وأشعار الشافعي كثيرة في مدح آل البيت عليهم أفضل الصلاة والسلام، ولكن ذلك لا يجعله في عداد الشيعة، ومع كونه قد أخذ كثيراً من الأحكام عنهم، وضعّف بسبب ذلك، لأننا لم نجد صلة حقيقية بينه وبين الشيعة ولا اتصالاً مع الأئمة في عصره. وقد عقدنا له بحثاً في الجزء الثالث، وأدخلناه في قفص الاتهام، وبعد الحوار والمناقشة أخرجناه ببراءة من تهمة التشيّع.

ويقتضي ذلك أن نقول: إن البعض يقع في خطأ، ومنهم الكتّاب والمؤرخون أو عامة الناس، فيذكرون أن الشيعة يأخذون بقول الشافعي، ويذكرون في كتبهم أقواله فيقولون: قال محمد بن إدريس، أو أن المذهب الشيعي يلتقي بالمذهب الشافعي في كثير من الموارد دون غيره من مذاهب السنة. وهو خطأ أوضحناه في مكانه، وقلنا إنه ناشيء من عدم التحقيق، ولأن الشيعة يذكرون أقوال محمد بن إدريس الحلي ـ عالم الشيعة في عصره ومؤلف كتاب السرائر ـ فيقولون: قال محمد بن إدريس، أو قال ابن إدريس. فيظنّون أن المقصود هو محمد بن إدريس الشافعي.

ولكن الشافعية زعموا أن الشيعة قالوا إن الشافعي منهم(١) وأنهم احتجوا بهذه

---

(١) مناقب الرازي.

الأشعار. ولا نستغرب ذلك، لأن الخشية من تهمة التشيّع شملت أصحاب الشافعي وتلامذته بينما كان آخرون بخلاف ذلك فقد روي أن المزني قال: قلت للشافعي: أنت توالي أهل البيت، فلو عملت في هذا الباب أبياتاً فقال:

وما زال كتمانيك حتى كأنني ... برذ جواب السائلين لأعجم
وأكتم ودّي في صفاء مودّتي ... لتسلم من قول الوشاة فأسلم

واتهمه يحيى بن معين بالتشيّع وقال: طالعت كتابه السير، فوجدته لم يذكر إلا علي بن أبي طالب. وقوله: نظرت في قتال أهل البغي، فرأيته قد احتج من أوله إلى آخره بعلي بن أبي طالب. وكان يأخذ بحديث الإمام الصادق وخاصة بأحكام الصلاة(١).

وقد أكثر الشافعي من الرواية عن إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى أبو إسحاق المدني أحد تلامذة الإمام الصادق عليه السلام روى أحاديث أهل البيت وله مؤلف مبوّب في الحلال والحرام على مذهب أهل البيت، وهو أستاذ الواقدي وكتب الواقدي مأخوذة عنه. وكان الشافعي يقول: لأن يخرّ إبراهيم أحبّ إليه من أن يكذب.

ولأن الشافعي أكثر في الرواية عن إبراهيم وهو (متهم بالتشيع) كان الشافعي يذكر اسمه مرة ويورّي عنه أخرى ويقول: حدثني الثقة، حدثني من لا اتهمه. إذاً فالشافعي يأخذ من رجال الشيعة، وينهل من مصادرهم، ويستقي من منابعهم، ولكنهم لا يدّعون أنه منهم.

* * *

لقد كانت مصر هي المكان الذي صدر عنه المذهب الشافعي، ومنه انتشر في الأقطار، وذلك بفضل جهود تلامذته المخلصين الذين شغلوا الناس عن دراسة المذهب المالكي والمذهب الحنفي، وكانا قد انتشرا هناك.

قال السبكي في الطبقات عن مصر والشام بالنسبة للمذهب الشافعي:

هذان الإقليمان مركز ملك الشافعية، منذ ظهر المذهب الشافعي، اليد العالية لأصحابه في هذه البلاد. لا يكون القضاء والخطابة في غيرهم، أما الشام فقد كان

---

(١) انظر مناقب الرازي ص٨٤.

مذهب الأوزاعي حتى ولي القضاء أبو زرعة محمد بن عثمان الدمشقي الشافعي ويقول: كان (محمد بن عثمان) رجلاً رئيساً يقال أنه هو الذي أدخل مذهب الشافعي إلى دمشق، وأنه كان يهب لمن يحفظ مختصر المزني منه مائة دينار.

وعلى أي حال فإن المذهب الشافعي كانت بذرته الأولى في مصر، ومنها انتشر بفضل جهود أصحاب الشافعي، ولولاهم لكان أثراً بعد عين. ولكان مصيره مصير مذهب الليث بن سعد الذي لم يتهيأ له أصحاب مخلصون يقومون بنشره، ولعل أهم العوامل التي هيأت للشافعي أسباب النجاح في مصر هي:

١ ـ إنه كان معروفاً بأنه تلميذ مالك وخرّيج مدرسته، وكان لمالك هناك ذكر ولمذهبه انتشار، فقوبل بالعناية، وذلك قبل إظهاره المعارضة لمذهب مالك والردّ عليه.

٢ ـ نشاط الشافعي وعلوّ همّته وتفوّقه بالأدب ومعرفة اللغة، وإحاطته بأقوال مالك وأهل العراق، وما عرف عنه من انتصار لأهل الحديث والردّ على أهل الرأي.

٣ ـ اشتهار قرشيته واعتصامه بالانتساب للنبي ﷺ وهذا له أثره في قلوب المصريين.

٤ ـ صلته بحاكم مصر الجديد عبد اللّه بن العباس بن موسى، ومعرفته به يوم كان بمصر، وأنه سافر معه من بغداد عند تعيينه، أو أنه حمل له وصية من الخليفة على اختلاف الروايات.

٥ ـ اختياره النزول عند أقوى بيت في مصر وأعزّهم جانباً وهم بنو الحكم، والتفاف أعيان أصحاب مالك حوله كأشهب وابن القاسم وابن الموّاز وغيرهم.

تغلب المذهب الشافعي على المذهب المالكي بمصر بعد أن كان هو السائد وله السلطان هناك. وذكرنا مقابلة أنصار المذهب المالكي لأصحاب الشافعي، وقد تمت له الغلبة هناك أيام الدولة الأيوبية، لأنهم كانوا جميعاً شافعية إلا عيسى بن الملك العادل سلطان مصر فإنه كان حنفياً، ولم يكن فيهم حنفي سواه، ثم تبعه أولاده وكان شديد التعصب لذلك المذهب، ويعدّه الحنفية من فقهائهم، وله شرح على الجامع الكبير في عدة مجلدات.

ولما خلفت دولة المماليك البحرية دولة الأيوبيين، لم تنقص حظوة المذهب

الشافعي، فقد كان سلاطينها من الشافعية إلاّ سيف الدين الذي حكم قبل بيبرس فقد كان حنفياً، ولكن لم يكن له أثر في الدولة لقصر مدته. ولم يختلف بشيء عن سياسة الأيوبيين تجاه المذهب، وعملهم على نشر المذهب وتشجيع المنتمي إليه، وجعل القضاء للشافعية، وعلى غرار ما عملت به الدولة العباسية في المشرق وحصره بالحنفية.

وبقيت صبغة المذهب صبغة رسمية حتى قيام الظاهر بيبرس وقيامه بتطبيق فكرة توزيع منصب القضاء على المذاهب الأربعة، فتأثرت مكانة المذهب الشافعي ونفوذه عمّا كانا عليه من قبل، ولكنه ظل يحتفظ بمكانة أعلى من غيره من المذاهب.

وكذلك استمر المذهب في عصر المماليك الجركسية، حتى جاء دور العثمانيين واستيلائهم على مصر، فأبطلوا القضاء بالمذاهب الأخرى وحصروه بالمذهب الحنفي لأنه المذهب الرسمي للدولة. وقد بيّنا أسباب اعتناق الأتراك للمذهب الحنفي دون غيره من المذاهب، لأنه لا يشترط القرشية في الخلافة، وسلاطين آل عثمان ادعوا الخلافة على المسلمين، والمذهب الحنفي يجوّز ذلك دون غيره.

وخلاصة القول، إن المذهب الشافعي شارك المذهب الحنفي والمذهب المالكي في اهتمام السلطان والرعاية، وأن العلاقة بالحكم كانت من أعظم مقومات الانتشار والوجود كالمذهب الحنفي والمذهب المالكي اللذين انتشرا بقوة السلطة ومشيئتها، وكان مذهب أبي حنيفة في بغداد يسمى مذهب السلطان(١).

وفـاتــه:

لعل وفاة الشافعي من أغرب أعمال التعصّب. لأن أرجح الروايات وأقربها إلى الصحة هي موته بسبب الاعتداء عليه من جماعة تعصبوا لفتيان ـ الرجل المالكي ـ الذي كان يناظر الشافعي كثيراً ويجتمع الناس عليهما، وقد كان في فتيان حدّة وطيش وهو من أصحاب مالك بن أنس. وقد هجموا على الشافعي وضربوه، فحمل إلى منزله، فلم يزل عليلاً حتى مات.

ولمّا توفي أدخلت جنازته على السيدة نفيسة بنت الحسن التي تَلْمَذَ لها في

---

(١) معجم الأدباء ج٦ ص١١ ـ ١٢.

الحديث، وصلّت عليه في دارها. هكذا حكاه ابن خلكان وابن كثير[١].

وقد وضعت نبوءة لإبراز أدوار ومنازل أصحاب الشافعي التي كانت بعد موته على أنها تجري كما علمها الشافعي وتنبأ بها. يقول الربيع: دخلنا على الشافعي أنا والبويطي ومحمد بن عبد اللّه بن الحكم والمزني، فنظر الشافعي إلينا ساعة ثم قال للبويطي: أما أنت يا أبا يعقوب، فستموت في حديدك. وأما أنت يا مزني فستدرك زماناً تكون أقيس أهل ذلك الزمان. وأما أنت يا محمد فسترجع إلى مذهب أبيك أي مذهب مالك. وأما أنت يا ربيع فأنفع لي في نشر كتبي.

توفي الشافعي رحمه الله في شهر رجب سنة ٢٠٤ بمصر.

وبعد وفاته يقول الربيع:

رأيت الشافعي بعد وفاته في المنام فقلت: يا أبا عبد اللّه ما صنع الله بك؟ قال: أجلسني على كرسي من ذهب، ونثر عليّ اللؤلؤ الرطب[٢].

أولاده:

وللشافعي ولدان كل منهما اسمه محمد، أما الأصغر فتوفي بمصر صغيراً، ومحمد الثاني يلقب أبو عثمان ولي قضاء الجزيرة وتوفي سنة ٢٤١هـ[٣].

---

(١) وفيات الأعيان ج٥ ص٥٧. والبداية والنهاية ج١٠ ص٢٦٢.

(٢) تاريخ بغداد ج٢ ص٧٠.

(٣) النجوم الزاهرة ج٢ ص٣٠٦.

الإمام الصادق
أولاده وأحفاده

إن البحث في حياة أولاد الإمام الصادق وأحفاده له أهمية كبيرة، سواء من حيث متطلبات موضوع الكتاب واكتمال أجزائه، أو من الناحية الدينية والتاريخية، لأن المرحلة التي جاءت بعد الإمام الصادق كانت من أكبر المراحل خطورة وأهمية: كما أن البحث في الأولاد والأحفاد يستلزم جهوداً مضنية إذا ما أردنا الإيفاء بكل ما يندرج في سلسلة النسب والأسماء، فهو يعني الحديث عن الأئمة المعصومين صلوات الله عليهم وهو ما بقي مجال جهد وبحث للعلماء والرجال منذ مئات السنين وحتى اليوم، ولم تتوقف البحوث ولن تكف الجهود عن كشف صفحات الأئمة المعصومين من أبناء محمد ﷺ لأنهم نبراس الهدى، ومنار الحق الذي يهتدي به الناس. ولذلك اقتصرت على أولاده وأحفاده رضوان عليهم حسب مجريات الأحداث وسياق البحث، وأعطينا سرداً مختصراً يوفي بغرض إعطاء صورة عن عقبة عليه السلام وباستخلاص واقع الملابسات في مجرى الإمامة والتي ظهرت بعد وفاته عليه السلام واقتبسنا شيئاً من أنوار سير الأئمة واضمامات قليلة من أزاهير حياة بعضهم عليهم السلام.

أولاد الإمام:

قال الشيخ المفيد: كان لأبي عبد الله عشرة أولاد: إسماعيل، وعبد الله، وأم فروة. أمهم فاطمة بنت الحسين بن علي بن الحسين السبط عليه السلام.

وموسى عليه السلام وإسحاق، ومحمد، لأم ولد. والعباس، وعلي، وأسماء، وفاطمة. لأمهات شتى.

وقال ابن عنبة الحسني: وأعقب جعفر الصادق عليه السلام من خمسة رجال: موسى الكاظم، وإسماعيل، وعلي العُريضي، ومحمد المأمون، وإسحاق، وليس له

ولد اسمه ناصر، معقب ولا غير معقب بإجماع علماء النسب، وياسفزاز من ولاية هراة خراسان قوم يدّعون الشرف، وينتسبون إلى ناصر بن جعفر الصادق عليه السلام وهم أدعياء كذّابون لا محالة، وهم هناك يخاطبون بالشرف على غير أصل، ويعرف هؤلاء القوم بيارسا وكذبهم أظهر من أن ينبه عليه[1].

وقال سراج الدين الرفاعي: وكان له عشرة أولاد: إسماعيل وعبد الله وأم فروة، أمهم فاطمة بنت الحسين الأشرف بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. وموسى الكاظم الإمام المعصوم رضي الله عنه، وإسحاق المؤتمن، ومحمد الديباج، لأم ولد يقال لها حميدة البربرية.

علي بن جعفر عليه السلام:

يكنى أبا الحسن، ويلقب بالعُريضي نسبة إلى العُريض (بضم العين المهملة وفتح الراء) قرية على أربعة أميال من المدينة كان يسكنها وأمه، ويقال لولده العُرَيْضيون وهم كثير هناك[2] وهو أصغر أولاد الإمام الصادق عليه السلام مات أبوه وهو طفل، وروى عن أخيه موسى الكاظم، وله كتاب ما سأله به، وروى عن أبيه عليه السلام على صغر سنه، وله كتاب في مسائل الحلال والحرام عنه، وكذلك روى عن ابن أخيه الرضا، وابنه الجواد. وطال عمره إلى أيام الإمام الهادي عليه السلام فكانت وفاته سنة ٢١٠هـ.

روى العميري أن أبا جعفر الجواد دخل على علي بن جعفر، فقام له قائماً وأجلسه في موضعه ولم يتكلم حتى قام، فقال له أصحابه: أتفعل هذا مع أبي جعفر وأنت عمّ أبيه؟

فضرب بيده على لحيته وقال: إذا لم يرها الله أهلاً للإمامة أراها أنا أهلاً للنار؟ (يعني بادعاء الإمامة وهي ليست له) وقد ناصر أخاه محمد بن جعفر الصادق الثائر في أيام المأمون والذي أسس دولة في مكة المكرمة. وبعد أن أسر محمد، نزل عليٌّ بالكوفة، ثم استدعاه القمّيون، ونزل قم ومات وقبره مشهور يزار.

قال الشيخ المفيد: علي بن جعفر رضي الله عنه راوية للحديث، سديد الطريقة

---

(١) عمدة الطالب.

(٢) صحاح الأخبار ص٤٨.

شديد الورع، كثير الفضل. ولزم أخاه موسى عليه السلام وروى عنه شيئاً كثيراً من الأخبار.

وقال الشيخ الطوسي: علي بن جعفر جليل القدر، ثقة، له كتاب المناسك ومسائله لأخيه موسى الكاظم سأله عنها.

وقال الشريف أحمد بن زين باعلوي في شرح العينية عند ذكر علي العُريضي: خلف أولاداً أعقب منهم أربعة رجال: أحمد والحسن وجعفر الأصغر ومحمد.

وقال في العمدة ـ في عقب الإمام الصادق ـ: وأما علي العُريضي بن جعفر الصادق عليه السلام ويقال لولده العُريضيون وهم كثيرون متفرّقون في البلاد، ومنهم بالمدينة الشريفة أولاد يحيى المحدث بن يحيى ابن أبي الحسن عيسى الردمي الأكبر بن محمد بن علي العُريضي، وإليه يرجع نسب السادة أهل حضرموت. يقول الشريف أحمد بن محمد: أعقب علي بن جعفر الصادق أبناءه... علي وجعفر والحسن ومحمد وأحمد، وفي محمد نسب السادة الحضارمة العلويين. ويجمعهم بن جعفر بن محمد بن علي الحسيني، وهم فروع متوسعة إلا أننا سنذكر من يوجد منهم في المدينة ومكة المكرمة، وممن يسكن المدينة قديماً: آل جميل الليل، وآل مشيخ بن أحمد بن حسين (وغيرهم) ومنهم بمكة المكرمة: بيت السيد الحبش من علماء مكة المكرمة وأجلائها وبيت السيد عقيل[1].

قال الذهبي: علي بن جعفر روى عن أبيه وأخيه موسى والثوري، وروى عن الجهضمي والبزي والأوسي وجماعة، وروى له الترمذي في كتابه.

وأسند الذهبي عنه في الميزان عن آبائه أن النبي ﷺ أخذ بيد الحسن والحسين وقال: «من أحبني وأحب هذين وأبويهما كان معي يوم القيامة».

وخرّج له الإمام أحمد في مسنده، وعدّه ابن حجر في الطبقة العاشرة. وقال أحمد بن زين الحبش: السيد علي بن جعفر فهو أبو الحسن شمس أهل البيت كان رحمه الله جواداً سخياً عالماً كبيراً، وهو أصغر أولاد أبيه سنّاً وأطولهم عمراً، أخذ عن أبيه وصَحِبَه، وأخذ عن أخيه موسى الكاظم، عن الحسن بن زيد، وروى عنه ابناه أحمد ومحمد وحفيده عبد الله بن الحسن وإسماعيل بن محمد بن إسحاق بن جعفر الصادق.

---

(١) انظر الدرر السنية للشريف أحمد بن محمد بن صالح.

وردت مسائله لأخيه الإمام الكاظم في كتب علمائنا وروى له الشيخ الصدوق والشيخ الطوسي والعلاّمة الحلي وغيرهم من علمائنا.

قال المخزومي أعقب علي بن جعفر أربعة رجال هم: محمد وأحمد والحسن، وجعفر الأصغر. وهذه العشيرة أفخاذ وفصائل، ضمّت جماعة كثيرة في العراق والشام واليمن والحجاز، ولهم ذيل بشيراز، والدينور، ومنهم بواسط، وقد أنجبت قبيلتهم فأتت بالكثير الطيب. قال العُمد: من أشياخ أهل البيت، إن السبب في ذلك إذعان علي العُريض بإمامة محمد بن أخيه.

أما عقب أولاده الأربعة كما يلي باختصار:

١ ـ أحمد المعروف بالشعراني، فإنه أعقب من عبد اللّه، وعقبه بالمراغة. ويعرفون ببني الحسنية والحسين، وعقبه بالرقة.

ومحمد وعلي: ولهم جماعة بالبصرة ومرو وقم وشيراز.

٢ ـ وأما محمد بن علي بن جعفر فإن في ولده العدد المتفرق في البلاد، أعقب من خمسة وهم:

عيسى النقيب، ويحيى، والحسن، والحسين، ولكل واحد من هؤلاء عقب منتشر في مصر والري وبغداد واليمن والشام والكوفة وأصفهان وقزوين والديلم.

٣ ـ جعفر بن علي بن جعفر، فعقبه من إبنه عبد اللّه، وعبد اللّه أعقب من علي وموسى، ولهما عقب منتشر في البلاد الإسلامية.

محمد:

محمد بن جعفر الصادق، ويلقّب الديباج، وكان وجيهاً محبوباً عند الناس شجاعاً كريماً ورعاً تقياً، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وكان يرى الخروج بالسيف على الظالمين، وبايعه أهل مكة سنة ٢٠٠هـ.

قال ابن الأثير: كان يروي العلم عن أبيه، وكان الناس يكتبون عنه، وقال ابن خلدون: كان محمد بن جعفر عالماً زاهداً.

وقال الشيخ المفيد: كان محمد بن جعفر سخياً شجاعاً، وروي عن زوجته خديجة بنت عبد اللّه بن الحسين أنها قالت: ما خرج من عندنا محمد يوماً قط،

فرجع حتى يكسوه. وكان يذبح كل يوم كبشاً لأضيافه، وخرج على المأمون في سنة تسعة وتسعين ومائة بمكة، واتبعته الزيدية الجارودية، فخرج لقتاله عيسى الجلودي، وبعد قتال طويل تفرّق جمع محمد، فأخذه المأمون، ولما وصل إليه أدنى مجلسه منه وأكرمه وأحسن جائزته، وكان مقيماً معه بخراسان، يركب إليه في موكب من بني عمه، وكان المأمون يحتمل منه ما لا يحتمله السلطان من رعيته.

وقد أنكر المأمون ركوبه إليه في جماعة من الطالبيين الذين خرجوا على المأمون سنة مائتين فآمنهم، فخرج التوقيع إليهم: لا تركبوا مع محمد بن جعفر، واركبوا مع عبد الله بن الحسين. فأبوا أن يركبوا ولزموا منازلهم، فخرج التوقيع: اركبوا مع من أحببتم. فكانوا يركبون مع محمد بن جعفر إذا ركب، وينصرفون بانصرافه.

وأخبر محمد بن جعفر: أن غلمان ذي الرياستين قد ضربوا غلمانك على حطب اشتروه. فخرج مؤتزراً ببردين ومعه هراوة وهو يقول:

الـمـوت خـيـر لـك مـن عـيـش بِـذُلّ

وتبعه الناس حتى ضرب غلمان ذي الرياستين، وأخذ الحطب منهم. فرفع الخبر إلى المأمون، فبعث إلى ذي الرياستين فقال له: أئتِ محمد بن جعفر، فاعتذر إليه وحكّمه في غلمانك. فخرج ذو الرياستين إلى محمد بن جعفر. قال موسى بن سلمة: فكنت عند محمد بن جعفر جالساً حتى أتى، فقيل: هذا ذو الرياستين. فقال: لا يجلس إلا على الأرض، وتناول بساطاً في البيت، فرمى به، ولم يبق في البيت إلا وسادة، وجلس على الأرض، فاعتذر إليه وحكّمه في غلمانه.

وتوفي محمد بن جعفر سنة ٢٠٣هـ، فركب المأمون ليشهد جنازته، وقد خرجوا به، فلما نظر إلى السرير نزل فترجّل ومشى حتى دخل بين العمودين، فلم يزل بينهما حتى وضع، فتقدم وصلّى عليه، ثم حمله حتى بلغ به القبر، ثم دخل قبره، فلم يزل فيه حتى بُنيَ قبرُه، ثم خرج فقام على القبر حتى دفن، فقيل له: لو ركبت؟ فقال: هذه رحم قطعت منذ ثمانين سنة، فأحببت أن أصلها[1]. ومات محمد بن جعفر عن عمر ينيف على السبعين كما ذكره الذهبي في الميزان، وقبره بجرجان[2]. وما ذكره

---

(١) الإرشاد للمفيد ١٦٩. وصحاح الأخبار لسراج الدين ص٥٤.

(٢) ٣/ ٣٥.

بعضهم من أنه مات وله تسع وأربعون سنة فهو غلط، والصحيح ما ذكرناه، لأن وفاة الإمام الصادق كانت سنة ١٤٨هـ.

وذكر الشيخ المفيد: أن إسماعيل بن محمد بن جعفر قال: قلت لأخي وهو لجنبي والمأمون قائم على القبر: لو كلّمناه في دَيْن الشيخ، فلا نجده أقرب منه في وقته هذا. فابتدأنا المأمون فقال: كم ترك أبو جعفر من الدَّين؟ فقلت له: خمسة وعشرين ألف دينار. فقال: قد قضى الله عنه دينه. إلى من وصّى؟ قلنا: إلى ابن يقال له يحيى بالمدينة. فقال: ليس هو بالمدينة، وهو بمصر، وقد علمنا بكونه فيها، ولكن كرهنا أن نعلمه بخروجه من المدينة لئلا يسوءه ذلك لعلمه بكراهتنا لخروجه عنها[١].

وأعقب محمد بن الإمام الصادق عليه السلام: علي والقاسم والحسين، وعقب القاسم من ولده: يحيى وعلي وعبد اللّه. والقاسم يعرف بالطيّب، وابنه يحيى يعرف بيحيى الشبيه.

قال السخاوي: هو يحيى بن القاسم الطيب بن محمد المأمون بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، قيل كان شبيهاً برسول الله ﷺ وكان له خاتم بين كتفيه كخاتم النبوة، وكان الناس إذا شاهدوه أكثروا من الصلاة على رسول الله ﷺ.

وكان ابن طولون أقدمه من الحجاز، ولما سمع أهل مصر بقدومه، خرجوا إلى ظاهر مصر يتلقونه، وكان يوم قدومه يوماً مشهوداً. وبالقرافة بمصر قبر أبي عبد اللّه محمد بن القاسم بن محمد بن جعفر الصادق ﷺ. ودفن يحيى بمصر، وقبره مشهور يعرف بمشهد يحيى الشبيه. ودفن معه أخوه عبد اللّه بن القاسم الطيّب. وقبره في وسط القبة، وعند وسطه لوح رخام فيه نسبه، وكانت وفاته يوم الاثنين ١٣ من شهر رمضان سنة ٢٦١هـ.

وكان عبد اللّه كأخيه في العبادة والخير والعفّة والصلاح، وهم بيت عظيم معروفون بإجابة الدعاء[٢]. وفي نفس التربة دفنت أم عبد اللّه زوجة القاسم الطيب.

وفي مصر أيضاً: الحسن بن يحيى الشبيه بن القاسم الطيّب، وعليه رخامة

---

(١) الإرشاد ص٢٦٩.

(٢) انظر تحفة الأحباب وبغية الطلاب للسخاوي.

مكتوب فيها اسمه واسم آبائه الطاهرين. وفي القرافة مشهد يعرف بمشهد السيدة العيناء، وهي السيدة كلثم أو أم كلثوم بنت محمد بن جعفر الصادق عليه السلام وقبرها معروف بإجابة الدعاء.

وفي القرافة أيضاً مشهد يعرف بمشهد الحسن والمحسن، وهما أولاد القاسم الطيب بن محمد بن جعفر[1].

وذكر أبو نصر البخاري: أن جميع بني محمد بن جعفر لصلبه سبعة: علي وإسماعيل من أم ولد، والقاسم أمه أم الحسن بنت حمزة بن القاسم بن الحسن بن زيد..

ويحيى وجعفر أمهما خديجة بنت عبيد الله. وموسى وعبد الله من أم ولد.

عبد الله:

ابن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام وكان أكبر إخوته بعد إسماعيل، ولم تكن منزلته عند أبيه كمنزلة غيره من ولده في الإكرام، وادّعى الإمامة بعد أبيه لأنه الأكبر، وجلس مجلس أبيه مدّعياً وصايته، فمال إليه كثير من الناس بادعاء أن الإمامة في أكبر الأولاد.

وحيث لم يكن بمنزلة من العلم، فقد امتحنه جماعة ممن اتبعه بمسائل في الحلال والحرام والصلاة والزكاة وغير ذلك، فلم يجد عنده علماً، فنفروا منه، وعادوا إلى الإمام موسى بن جعفر عليه السلام وبقي جماعة على القول بإمامته ويعرفون (بالفطحية) لأن عبد الله يكنى بالأفطح، كان أفطح الرأس، وقيل كان أفطح الرجلين، وهم فرقة قليلة رجعوا عن القول بإمامته. مات ولم يعقب، فقالوا بإمامة موسى بن جعفر عليه السلام. ولم يبق من هذه الفرقة أحد. ومات عبد الله بعد وفاة أبيه بسبعين يوماً.

إسحاق:

ابن الإمام الصادق عليه السلام كان راوية للحديث ومن أهل العلم.

---

(١) نفس المصدر.

قال الشيخ المفيد: وكان إسحاق بن جعفر من أهل الفضل والصلاح والورع والاجتهاد، وكان ابن كاسب[1] إذا حدّث عنه يقول: حدثني الثقة الرضي إسحاق بن جعفر، وكان إسحاق يرى إمامة أخيه موسى بن جعفر عليه السلام وروى عن أبيه النص بالإمامة.

وقال المخزومي: ولد لإسحاق: عبد الله والحسن، ولهما عقب بهمدان وجيرفت. وفي عمدة الطالب: وأما إسحاق بن جعفر الصادق ويكنى أبا محمد ويلقب بالمؤتمن، فقدولد بالعُريض وهو وادٍ بالمدينة، وكان من أشبه الناس برسول الله ﷺ وكان محدثاً جليلاً، وادعت فيه طائفة من الشيعة الإمامة. وكان سفيان بن عيينة شيخ الإمام الشافعي رضي الله عنهما إذا ما روى عنه يقول: حدثني الثقة الرضا إسحاق بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم، وهوأقل المعقبين من ولد جعفر الصادق عدداً، إذ أعقب ثلاثة رجال: محمداً والحسن والحسين. وتعرف ذريته بالإسحاقيين.

يقول المقريزي في خططه: وتزوّج ـ إسحاق ـ بنفيسة[2] رضي الله عنها، وكان يقال له إسحاق المؤتمن، وكان من أهل الصلاح والفضل والخير والدين، روى ـ الناس ـ عنه الحديث، وكان ابن كاسب إذا حدّث عنه يقول: حدثني الثقة الرضا إسحاق بن جعفر. وكان له عقب بمصر، فهم بنو الرقي، وبحلب بنو زهرة.

الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام

كان موسى بن جعفر على جانب عظيم من العلم والكمال، فقد أشبه بمواهبه وأخلاقه، وكان أبوه الإمام الصادق إذا ما اجتمع أولاده يقول: هؤلاء أولادي وهذا

---

(١) هو يعقوب بن حميد بن كاسب المدني المتوفي ٢٤١هـ وينسب إلى جده، وكان من المحدثين الإعلام. قال القاسم بن عبد الله بن مهدي: قلت لأبي مصعب، بمن توصيني بمكة وعمن أكتب؟ فقال عليك بشيخنا أبي يوسف يعقوب بن حميد. وقد روى الحديث عنه جماعة، وخرّج له البخاري في أفعال العباد.

(٢) نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن السبط عليه السلام وهي المعروفة بالسيدة نفيسة المتوفاة سنة ٢٠٦هـ وقبرها بمصر يزار ويعرف باستجابة الدعاء، ولها كرامات، وكانت عالمة جليلة القدر عظيمة الشأن يحترمها العلماء ويعظمها الأمراء. قالوا أن الشافعي كان يزورها ويسمع منها الحديث، وقد زار قبرها أكابر العلماء وأعيان الدولة، وظهرت لها كرامات في حياتها وبعد وفاتها رضي الله عنها.

سيدهم. وروي أن أبا حنيفة قال: دخلت المدينة فأتيت أبا عبد الله الصادق عليه السلام فسلّمت عليه وخرجت من عنده، فرأيت ابنه موسى في دهليز داره قاعداً في مكتب ـ وهو صغير السن ـ فقلت له: أين يُحدث الغريب عندكم إذا أراد ذلك؟ فنظر إلي ثم قال: «تجنّب شطوط الأنهار، ومسقط الثمار، وفيء النزال، وأفنية الدور، والطرق النافذة والمساجد، ويرفع ويضع بعد ذلك حيث شاء». فلما سمعت هذا القول نبل في عيني وعظم في قلبي، فقلت له: فممن المعصية؟ فنظر إليّ ثم قال: «أجلس حتى أخبرك» فجلست فقال: «إن المعصية لا بد أن تكون من العبد أو من ربه أو منهما جميعاً، فإن كانت من الله عزّ وجلّ فهو أعدل وأنصف من أن يظلم عبده بما لم يفعله، وإن كانت منهما فهو شريكه والقوي أولى بإنصاف عبده الضعيف. وإن كانت من العبد وحده فعليه وقع الأمر وإليه توجه النهي وله حق الثواب والعقاب، ولذلك وجبت الجنة والنار» قال: فلما سمعت ذلك قلت: ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم[1].

فقد كشف الإمام موسى الكاظم ـ على صغر سنّه ـ عن المسألة التي استعصى فهمها على الناس، وكانت مثار جدل وسبباً في العداوات والقتل والطعون، حتى شملت أبا حنيفة نفسه.

لقد كان المجتمع ينظر إلى الإمام موسى نظرة إكبار وتقدير، ولما آلت إليه الإمامة وتسلّم زعامة البيت العلوي، صادف على الحكم بعد المنصور حكاماً كالمهدي والرشيد ترتعد فرائصهم خوفاً ورعباً من البيت العلوي، إذ مضى زمن المنصور الداهية الذي استطاع أن يواجه البيت العلوي، ويلجأ إلى كل السبل والوسائل للوقوف بوجه الإمامة والمنزلة الروحية، ويستخدم الوحشية والقتل ليقضي على ثوراتهم وحركاتهم.

فكان البيت العلوي شغل الدولة الشاغل وهاجسهم الدائم، يقضّ مضاجعهم، ويكدّر أوقات سكرهم وملذاتهم وتبذّلهم في الملاهي والشهوات.

ومن المتسالم عليه، أن الملوك الذين عاصرهم الإمام الكاظم عليه السلام كانوا قد شدّدوا الرقابة عليه واتهموه بأنه مصدر حركات الثوار ومحل تجمع الفئات التي لا تعترف بشرعية الدولة، وكذلك الذين ينقمون على الحكام سوء تصرفهم فإنهم يجدون

---

(١) روضة الواعظين ج١ ص٣٩ ـ ٤٠.

في الإمام موسى الكاظم شخصية الخليفة العادل والحاكم الذي تحتاج الأمة رعايته وقيادته.

فكان محل تخوّف الحكام. فهم يحذرونه أشدّ الحذر، فهو أكبر العلويين وأعلمهم، والشيعة تغدو وتروح إليه، وهم يقصدونه من سائر البلاد الإسلامية، ولا يملك بنو العباس أنفسهم تجاه هذه المكانة. فيروي المأمون عن أبيه هارون أنه قال لبنيه في حق الإمام الكاظم: أنا إمام الجماعة في الظاهر والغلبة والقهر، وإنه ـ أي الكاظم عليه السلام ـ والله لأحق بمقام رسول الله صلى الله عليه وآله مني ومن الخلق جميعاً، ووالله لو نازعني هذا الأمر لأخذت بالذي فيه عيناه فإن الملك عقيم[1].

وسنطلع على نبذ أخرى من سيرته الزكية.

ولادتــه:

ولد الإمام موسى بن جعفر سنة ١٢٨ ـ ١٢٩هـ يوم الأحد سابع صفر بالأبواء ـ قرية بين مكة والمدينة ـ عند رجوع أبيه وأمه من الحج في تلك السنة، فبشّر الإمام الصادق أصحابه الذين كانوا معه في ذلك الموضع وأخبر خواصّ أصحابه بأنه الإمام من بعده، ثم أجرى جميع المراسيم الشرعية لمولده الجديد، فأذّن في أذنه اليمنى، وأقام في أذنه اليسرى، وأولم بعد ولادته، فأطعم الناس ثلاثاً.

وعندما دخل المدينة المنورة، أقبلت الوفود إليه يهنؤنه بمولوده ويشاركونه أفراحه، وكان عليه السلام يظهر لهم فرحه بهذا المولود، ويشيد به وأنه الخلف الصالح والإمام من بعده. ونشأ صلوات الله عليه تحت رعاية أبيه نشأة صالحة، واتصف بخصال الكمال، ولقّب بالعبد الصالح، وينعت بالكاظم، ويكنى بأبي إبراهيم وبأبي الحسن.

وأمه أم ولد اسمها حميدة الأندلسية أو البربرية، ومدحها الإمام الصادق عليه السلام بأنها مصفّاة من الدنس كسبيكة الذهب. ومات أبوه الصادق وله من العمر تسع عشر سنة.

وحصل بعد موت الإمام الصادق عليه السلام خلاف بين أتباعه، فمنهم من قال

---

(١) روضة الواعظين ج١ ص٣٩ ـ ٤٠.

بإمامة محمد بن إسماعيل بن الإمام الصادق وهؤلاء قلة، ولم يسمعوا النص على الإمام موسى من أبيه، وبعد مدة رجع أكثرهم إلى القول بإمامته. ومنهم من قال بإمامة موسى عليه السلام للنص عليه من أبيه، وسيأتي بيان ذلك.

وكان عبد الله الأفطح قد ادّعى الإمامة واتبعه البعض، ولم يكن عنده علم، ولم يجدوا فيه مؤهلات الإمامة، فرجعوا عنه.

وقام الإمام موسى عليه السلام بأعباء الإمامة في ذلك العصر المضطرب بالفتن، وقد كثرت فيه الخلافات في الآراء، وظهرت فيه العقائد المختلفة، ونبغ أناس حادوا عن طريقة المسلمين، فجاءوا بآراء إلحادية، ونشروا أقوالاً تثير الشك. فكانت مدرسته التي تزعّمها بعد أبيه تواصل نشاطها في قمع تلك الحركات، وصدّ تلك الهجمات عن الدين الإسلامي. وخرج دعاة الإمام موسى إلى الأقطار الإسلامية لنشر الدعوة والتصدّي لردّ تلك الأقوال، وتفنيد تلك الآراء التي انتشرت في المجتمع الإسلامي.

والذي يظهر من تتبع الروايات أنه في بدء أمره كان يحذر أشدّ الحذر من المنصور الدوانيقي، لأن المنصور ملأ المدينة بالجواسيس ليعرف على من يجتمع الناس بعد جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فإذا عرفه فهناك سيحتال لقتله لعلمه بتعلق الناس بأهل البيت، وأن الإمام الصادق قد انتشر ذكره، وتفرّقت دعاته في جميع الأقطار ولا بد أن يقوم مقامه أحد، فرأى عليه السلام في بدء الأمر، أن يحذر ويحسب لنقمة المنصور حسابها، ولكن بعد وفاة المنصور سنة ١٥٢هـ خفّت الوطأة وقل الحذر عندما ولي المهدي، لأنه أقل شدة من أبيه في معاملة أهل البيت عليهم السلام.

ولكن التفاف الناس حول الإمام موسى بن جعفر عليه السلام وإقبالهم على أخذ الأحكام منه والرواية عنه، جعل المهدي قلقاً من أمره، لأنه أعرف الناس بمنزلة أهل البيت في قلوب الأمة. فهم الساسة الذين ابتعدوا عن الاستغلال والأثرة، وجانبوا كلما من شأنه أن يضع من قيمة تلك المنزلة السامية، وهم يحتفظون بمكانتهم الروحية ورتبهم العلمية، لم يطلبوا بذلك جاهاً، أو يحاولوا جمع الأموال وصرفها في غير ما شرعه الله.

وقد أوضحوا في سيرتهم أنهم ينهجون نهج جدّهم الرسول الأعظم في إقامة العدل ونصرة المظلوم وإعلان الحرب على الظالمين وبذل النصح لجميع المسلمين.

وكان الإمام موسى عليه السلام تتمثل فيه خصال الكمال، وتتجسّم فيه شخصية الإمام الحق، ولعظم الأهوال وشدّة المحن، غلبت عليه صفة الكاظم، وكان من خصاله: التجاوز عن المعتدين[1].

وكان يُدْعى بالعبد الصالح لعبادته واجتهاده، وكان سخياً كريماً، وكان يبلغه عن الرجل أنه يؤذيه؛ فيبعث إليه بصرّة فيها ألف دينار[2].

وبقي عليه السلام مدة في أيام المهدي في المدينة، يقوم بإرشاد الناس وهداية الخلق، الأمر الذي جعل المهدي يتخوّف من انتشار دعوته وقوة جانبه، فلم يأمن وثبة الشيعة بقيادة الإمام موسى، فعمد إلى إبعاده عن المدينة وإقامته في بغداد تحت رقابة شديدة، أو أنه سجنه كما هو المشهور.

ومكث عليه السلام في السجن مدة أشهر، ثم أطلقه المهدي لرؤيا رآها كما حدّث الفضل بن الربيع عن أبيه أنه لما حبس موسى بن جعفر عليه السلام رأى في النوم علي ابن أبي طالب وهو يقول: يا محمد (أي المهدي) ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾. قال الربيع: فأرسل إليّ ليلاً فجئته، فإذا هو يقرأ هذه الآية، وكان أحسن الناس صوتاً وقال: عليّ بموسى بن جعفر، فجئته فعانقه وأجلسه إلى جانبه وقال: يا أبا الحسن إني رأيت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في النوم يقرأ عليَّ كذا، فتؤمنني أن لا تخرج عليّ أو على أحد من ولدي.

فقال عليه السلام: «والله لا فعلت ذاك ولا هو من شأني».

قال: صدقت. يا ربيع أعطه ثلاثة آلاف دينار، وردّه إلى أهله إلى المدينة[3]. وعلى رواية الجنابذي في المعالم أنه وصله بعشرة آلاف.

ومن هنا نستظهر أن المهدي لم يسجن موسى لشيء في نفسه من عداء أو اعتداء، وإنما كان يحذره على ملكه من الزوال، ولم يخشَ أي شخصية في عصره من جميع الطوائف والبيوت سوى الإمام موسى لمؤهلاته ومكانته في نفوس الأمة، فهو يخشى من نهضة تطيح بعرشه، ولا تكون إلا على يد الإمام.

---

(١) سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب لأبي الفوز البغدادي.
(٢) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ١٣/٢٥٧.
(٣) نفس المصدر ١٣/٢٦.

ويمكننا القول بأن المهدي فرض عليه الإقامة الجبرية في بغداد، وهيأ له مكاناً يسكن فيه، كما يدل عليه قوله للربيع: وردّه إلى أهله في المدينة. إذ لو اقتصر على قوله: إلى أهله. فالمتبادر إلى محله المعدّ له في بغداد. فأكد عليه بقوله: أن ردّه إلى المدينة. فأسرع الربيع تجهيزه بسرعة خشية تبّدل الأمر، ويندم المهدي إلى إطلاقه.

وأقام صلوات الله عليه بالمدينة مدة أيام المهدي، ولما وليّ موسى الهادي فكانت واقعة فخ المروعة وقتل الحسين بن علي صاحب فخ، وحمل رأسه والأسرى من أصحابه إلى موسى الهادي، وأمر برجل من الأسرى، فوبخه ثم قتله، ثم صنع ذلك بجماعة من الطالبيين، وجعل ينال منهم، إلى أن ذكر موسى بن جعفر عليه السلام وقال: والله ما خرج حسيني إلا من أمره، ولا اتّبع إلا محبّته، لأنه صاحب الوصية في أهل هذا البيت، قتلني الله إن أبقيتُ عليه.

فقال له أبو يوسف القاضي: يا أمير المؤمنين أقول أم أسكت؟

فقال موسى: قتلني الله إن عفوت عن موسى بن جعفر، ولولا ما سمعت من المهدي فيما أخبر به المنصور ما كان به جعفر من الفضل عن أهله في دينه وعلمه وفضله، وما بلغني عن السفّاح فيه من تقريضه وتفضيله لنبشت قبره.

فقال أبو يوسف: نساؤه طوالق، وعتق جميع ما يملك من الرقيق، وتصدّق بجميع ما يملك من المال، وحبس دوابه، وعليه المشي إلى بيت الله الحرام إن كان مذهب موسى الخروج، ولا يذهب إليه ولا مذهب أحد من ولده، ولا ينبغي أن يكون هذا منهم.

ولم يزل أبو يوسف يخاطب الهادي، ويخفّف حدّة غضبه بكلام رقيق، حتى سكن غضبه.

وكتب علي بن يقطين[١] إلى أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام فلما وصل

---

(١) من أكبر أصحاب الإمام الكاظم وأعظمهم منزلة، وكان أبوه من وجوه الدعوة إلى الرضا من آل محمد، فطلبه مروان، فهرب. ولما قامت دولة بني العباس عمل يقطين مع السفاح والمنصور، وكان شيعياً يقول بالإمامة، ويحمل الأموال إلى الإمام الصادق، وكان علي من كبار رجال دولة بني العباس في عهد هارون الرشيد. ولما توفي صلى عليه ولي العهد محمد. له كتب منها: ما سئل عنه الصادق من الملاحم، وكتاب مناظرة الشاك بحضرته، وله مسائل عن الإمام الكاظم. ولد رحمه الله في الكوفة سنة ١٢٤هـ وتوفي في بغداد سنة ١٨٢هـ

الخبر أخبر عليه السلام أهل بيته وشيعته، وقال لهم: «ما تشيرون في هذا؟» فأشاروا عليه بأن يتوارى ويباعد بشخصه عن الطاغية.

فتبسم عليه السلام ثم تمثّل ببيّت كعب بن مالك أخو بني سلمة:

زعمت سخينة أن ستغلب ربّها — فَلَيُغْلَبَنَّ مُغَلِّبُ الغلاّب

ثم أقبل على من حضر من مواليه، وأهل بيته وقال: «ليفرخ روعكم، إنه لا يرد أول كتاب من العراق إلا بموت موسى الهادي وهلاكه».

فقالوا: وما ذاك أصلحك الله؟ ثم أخبرهم بأنه رأى رسول الله ﷺ في المنام وشكى إليه موسى بن المهدي. وما جرى منه في أهل بيته. فقال رسول الله ﷺ «لتطب نفسك يا موسى، فاجعل الله لموسى عليك سبيلاً» ثم قال ﷺ: «قد أهلك الله آنفاً عدوك، فلتحسن لله شكرك».

وفي رواية الحافظ ابن شهر آشوب أنه عليه السلام تمثّل بقول الشاعر:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً — أبشر بطول سلامةٍ يا مربع

ثم رفع رأسه إلى السماء وقال:

«إلهي كم من عدوٍ شحذ لي ظبة مديته، وأرهف لي شَبَا حدّه، وداف لي غوائل سمومه، ولم تنم عنّي عين حراسته، فلما رأيت ضعفي من احتمال الفوادح، وعجزي عن ملمّات الجوائح، صرفت ذلك عنّي بحولك وقوتك، لا بحولي وقوتي...» إلى آخر الدعاء.

ثم أقبل على أصحابه فقال لهم: «إنه لا يأتي أول كتاب من العراق إلا بموت موسى بن المهدي». ثم تفرّق القوم، فما اجتمعوا إلا لقراءة الكتب الواردة بموت موسى بن المهدي، وفي ذلك يقول شاعر أهل البيت في وصف سرعة استجابة الدعاء:

وسارية لم تَسْرِ في الأرض تبتغي — محلاً ولم يقطع بها البعد قاطع
سرت حيث لم تحد الركاب ولم تنخ — لورد ولم يقصد بها البعد مانع
تمرّ وراء الليل والليل ضارب — بجثمانه فيه سمير وهاجع
تفتح أبواب السماوات دونها — إذا قرع الأبواب منهنّ قارع
إذا وفدت لم يردُد الله وفدها — على أهلها والله راءٍ وسامع

وإنـي لأرجـو الله حـتـى كـأنـمـا أرى بجميـل الظنّ ما الله صـانـع

وكان الإمام من جرّاء حب الناس له وتقديسهم إياه يرجو أن لا يظنّ به فوق مرتبته الدينية ومهمات إمامته، ويبعد بالناس عن أسباب الغلوّ، سأله أحدهم:

إني رأيت الليلة في منامي أني سألتك كم بقي من عمري، فرفعت يدك اليمنى وفتحت أصابعها في وجهي مشيراً إليّ، فلم أعلم خمس سنين أم خمسة أشهر أم خمسة أيام؟ فقال عليه السلام: «ولا واحدة منهن، بل ذاك إشارة إلى الغيوب الخمسة التي استأثر الله تعالى بها في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ . . .»

من حكمه ومواعظه:

«إياك أن تمنع في طاعة الله، فتنفق مثليه في معصية الله».

وقال له وكيله: ما خنتك. فقال: «خيانتك وتضييعك عليّ ما لي سواء، والخيانة أشرّهما عليك».

وقال عليه السلام: «ليس حسن الجوار كفّ الأذى، ولكن حسن الجوار الصبر على الأذى».

وقال عليه السلام: «لا تذهب الحشمة بينك وبين أخيك، وأَبقِ منها، فإن ذهابها ذهاب الحياء».

وقال عليه السلام لبعض ولده: «يا بني إياك أن يراك الله في معصية نهاك عنها، وإياك أن يفقدك الله عند طاعة أمرك بها، وعليك بالجدّ ولا تخرجَنّ نفسك من التقصير في عبادة الله وطاعته، فإن الله لا يُعبد حق عبادته. وإياك والمزاح فإنه يذهب بنور إيمانك ويسحن مروّتك. وإياك والضجر والكسل فإنهما يمنعان حظك من الدنيا والآخرة».

وقال عليه السلام: «إذا كان الجور أغلب من الحق، لم يحلّ لأحد أن يظن بأحد خيراً حتى يعرف ذلك منه».

وقال لعلي بن يقطين: «كفّارة عمل السلطان الإحسان إلى الإخوان».

وقال عليه السلام: «كلما أحدث الناس من الذنوب ما لم يكونوا يعملون، أحدث الله لهم من البلاء ما لم يكونوا يعدّون».

وقال عليه السلام: «إذا كان الإمام عادلاً كان له الأجر وعليك الشكر، وإذا كان جائراً كان عليه الوزر وعليك الصبر».

«إن صلاحكم من صلاح سلطانكم، فإن السلطان العادل بمنزلة الوالد الرحيم، فأحبّوا له ما تحبّون لأنفسكم، وأكرهوا له ما تكرهون لأنفسكم».

وقال عليه السلام: «أخذ أبي بيدي وقال: إن أبي محمد بن علي أخذ بيدي وقال: إن أبي علي بن الحسين أخذ بيدي وقال: يا بني افعل الخير إلى كل من طلبه منك، فإن كان من أهله فقد أصبت موضعه. وإن لم يكن له بأهل فكن أنت من أهله، وإن شتمك رجل عن يمينك، ثم تحول إلى يسارك واعتذر إليك؛ فاقبل منه».

«إن أهل الأرض لمرحومون ما تحابّوا وأدّوا الأمانة وعملوا بالحق».

«لا تضيّع حق أخيك اتكالاً على ما بينك وبينه، فإنه ليس بأخٍ من ضيّعت حقّه، ولا يكونن أخوك أقوى على قطيعتك منك على صلته».

«من طلب هذا الرزق من حلّه ليعود به على نفسه وعياله، كان كالمجاهد في سبيل الله، فإن غلب عليه فليستدن على الله وعلى رسوله، فإن مات ولم يقضه كان على الإمام قضاؤه، فإن لم يقضه كان عليه وزره، إن الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ... الخ﴾ وهذا فقير مسكين مغرم».

«الناس أشكال، وكلّ يعمل على شاكلته، والناس إخوان فمن كانت أخوته في غير ذات الله فإنها تعود عداوة، وذلك قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾».

«من استحسن قبيحاً كان شريكاً فيه».

«كفر النعمة داعية المقت، ومن جازاك بالشكر فقد أعطاك أكثر مما أخذ منك».

«لا تضمر نفسك الظنّ على صديق قد أصلحك اليقين له، ومن وعظ أخاه سراً فقد زانه، ومن وعظه علانية فقد شانه».

«لا يزال العقل والحمق يتغالبان على الرجل إلى أن يبلغ ثماني عشرة سنة، فإذا بلغها غلب عليه أكثرها فيه».

«وما أنعم الله عز وجل على عبدٍ نعمة، فعلم أنها من الله، ألاّ كتب الله على اسمه شكرها له قبل أن يحمده عليها».

«الشريف كل الشريف من شرّفه علمه، والسؤدد كل السؤدد لمن اتقى ربه».

«لا تعاجلوا الأمر قبل بلوغه فتندموا، ولا يطولنّ عليكم الأمل فتقسو قلوبكم، وارحموا ضعفائكم، واطلبوا الرحمة من الله بالرحمة منكم».

«من أمّل فاجراً، كان أدنى عقوبته الحرمان».

«موت الإنسان بالذنوب أكبر من موته بالأجل».

«لو كانت السمٰوات والأرض رتقاً على عبد، ثم اتقى الله يجعل الله له منهما فرجاً».

«من وثق بالله وتوكّل على الله نجّاه الله من كل سوء وحرسه من كل عدو. والدين عزّ، والعلم كنز، والصمت نور، وغاية الزهد الورع، ولا هدم للدين مثل البدع، ولا أفسد للرجال من الطمع. وبالراعي تصلح الرعية، وبالدعاء تصرف البلية. ومن ركب مركب الصبر اهتدى إلى مضمار النصر. ومن غرس أشجار التقى اجتنى ثمار المنى».

وقال عليه السلام لبشر بن سعد: «يا بشر، للمحن أخريات، فيجب على العاقل أن ينام لها إلى إدبارها، فإن مكابدتها بالحيل عند إقبالها زيادة فيها»[١].

«كيف يضيع من الله كافله، وكيف ينجو من الله طالبه».

«إن لله عباداً يخصّهم بدوام النعم، فلا تزال فيهم ما بذلوها؛ فإن منعوها نزعها الله عنهم وحولها إلى غيرهم».

«ما عظمت نعمة الله على أحد إلا عظمت إليه حوائج الناس، فمن لم يتحمل تلك المؤونة عرّض تلك النعمة للزوال. أهل المعروف إلى ما يصطنعون أحوج من أهل الحاجة إليه، لأن لهم أجره وفخره وذكره، فمهما اصطنع الرجل من معروف فإنما يبتدىء فيه نفسه».

«من أجلّ إنساناً هابه، ومن جهل شيئاً عابه، والفرصة خلسة».

«من استغنى بالله افتقر الناس إليه، ومن اتقى الله أحبه الناس».

«الجمال في اللسان، والكمال في العقل».

---

(١) الشبلخي ١٦٤.

«العفاف زينة الفقر، والشكر زينة البلاء، والتواضع زينة الحسب، والفصاحة زينة الكلام، والحفظ زينة الرواية، وحفظ الجناح زينة العلم، وحسن الأدب زينة الورع، وبسط الوجه زينة القناعة».

«حسب المرء من كمال المروة أن لا يلقى أحداً بما يكره، ومن حسن خلق الرجل كفّه أذاه، ومن سيمائه برّه بمن يجب حقّه عليه، ومن إنصافه قبول الحق إذا بان له، ومن نصحه نهيه عمّا لا يرضاه لنفسه، ومن حفظه لجواره، تركه توبيخه، ومن رفقه تركه عذلك بحضرة من تكره، ومن حسن صحبته لك إسقاطه عنك مؤونة التحفّظ، ومن علامة صداقته كثرة موافقته وقلة مخالفته، ومن شكره معرفة إحسان من أحسن إليه، ومن تواضعه معرفته بقدره، ومن سلامته قلّة حفظه لعيوب غيره وعنايته بصلاح عيوبه».

«من أخطأ وجوه المطالب خذلته الحيل، والطامع في وثاق الذل».

«العلماء غرباء لكثرة الجهال بينهم».

«الصبر على المصيبة مصيبة على الشامت».

«ثلاث يبلغن بالعبد رضوان الله كثرة الاستغفار، ولين الجانب، وكثرة الصدقة».

«ثلاث من كنّ فيه لم يندم: ترك العجلة، والمشورة، والتوكل على الله عند العزم».

«لو سكت الجاهل ما اختلف الناس».

«مقتل الرجل بين فكّيه، والرأي مع الأناة، وبئس الظهر الرأي الفطير».

«ثلاث خصال تجتلب بهنّ المودّة: والإنصاف في المعاشرة، والمواساة في الشدّة، والانطواء على قلب سليم».

وقال عليه السلام لهشام: «من أراد الغنى بلا مال، وراحة القلب من الحسد، والسلامة في الدين؛ فليتضرّع إلى الله عز وجل في مسألته بأن يكمل عقله. فمن عقل قنع بما يكفيه، ومن قنع بما يكفيه استغنى، ومن لم يقنع بما يكفيه لم يدرك الغنى».

أولاده:

أنجب الإمام موسى بن جعفر عدة أولاد ذكوراً وإناثاً، وكانوا مثالاً للفضل وصورة صادقة للخلق الإسلامي الكامل، يقول الشيخ الطوسي: إن لكل واحد من أولاد أبي الحسن موسى فضلاً ومنقبة مشهورة.

وقد وقع اختلاف في تحديد عدد تلك الذرية الطيبة، فمن قائل أنهم ثلاث وثلاثون الذكور منهم، والإناث ستة عشر. وقيل: الذكور ٣٧ والإناث ١٩. أو أن الذكور ٣٨ والإناث ١٨. والمشهور أن ذريته عليه السلام سبعة وثلاثون ولداً ذكراً وأنثى. أما الذكور فهم: إبراهيم والعباس والقاسم، لأمهات أولاد، وإسماعيل وجعفر، وهارون والحسن لأم ولد، وأحمد ومحمد وحمزة لأم ولد، وعبد الله وإسحاق وعبيد الله وزيد والحسن والفضل وسليمان لأمهات أولاد.

أما البنات فهن: فاطمة الكبرى، وفاطمة الصغرى، وكلثم، وأم جعفر، ولبابة، وزينب، وخديجة، وعليّة، وآمنة، وحسنة، وبريهة، وعائشة، وأم سلمة، وميمونة، وأم كلثم.

هكذا ذكرهم الشيخ المفيد عليه الرحمة. وقال ابن الخشّاب: ولد له عشرون ولداً ذكراً وثمانية عشر بنتاً.

وعدّهم في صحاح الأخبار سبعة وثلاثين ولداً بين ذكر وأنثى، ثم ذكرهم مع اختلاف بسيط بين ما ذكرهم وبين ما قدمناه.

وقد اختلفوا فيمن أعقب من أولاده عليه السلام وقد اتفقوا على أن عقبه من عشرة من أولاده، وقيل أربعة عشر.

الإسماعيلية والإمامة

مرت الإمامة في عهد أبي جعفر المنصور بأدوار غاية في الصعوبة ـ كما رأينا ـ وقد تمكن الإمام الصادق عليه السلام أن يجتاز دوائر الهلاك التي وضعها الحاكم الظالم وأن يجنّب أصحابه وشيعته ابتلاءات الحديد، وأن لا يعضّهم سيف الحكام قدر الإمكان، وقد علم الإمام الصادق ـ بما وهبه الله من حكمة ومعرفة بالأحوال ـ إن غدر المنصور لن ينتهي، وأنه يتربّص الفرص للانتقام من أهل بيت النبوة، فكان تدبيره الوصية بالشكل الذي يفوّت على المنصور الفرصة، فلما توفي الإمام الصادق عليه السلام وبلغ المنصور الخبر، كتب: إن كان أوصى الإمام الصادق إلى رجل بعينه يقدّم ويُضرب عنقه. فرجع إليه الجواب أنه أوصى إلى خمسة نفر أحدهم أبو جعفر المنصور ومحمد بن سليمان وعبد الله وموسى وحميدة. وفي رواية أخرى: إن الإمام الصادق عليه السلام أوصى إلى أبي جعفر المنصور وموسى ومحمد بن جعفر أولاده، ومولى لأبي عبد الله عليه السلام. فقال أبو جعفر المنصور: ليس إلى قتل هؤلاء سبيل[(١)].

وسنرى أن أمر الوصية وتدبيرها على هذا الشكل قد مرّ بمرحلتين:

الأولى: الإعداد للوصاية والتهيوء للإمامة، وإظهار ابنه موسى في منزلتهما لدى شيعة أهل البيت، حتى إذا وضح في أذهان الناس النص واستقروا على الأمر، أتبعه الإمام الصادق بالتدبير التالي والمرحلة **الثانية**: التي قصد بها كفّ الأذى عن وصيّه وإمام الناس من بعده، وهو تدبير أحبط مسعى عدوّهم، وأسقط في يده. ولولا هذا التدبير الذي أراده الله، لنفّذ الدوانيقي ما كان يتمنّاه، فكان الرشيد من تولى الجريمة، ولكن بعد أن قام الإمام الكاظم بالتبليغ، ونفذ الرسالة والأحكام، وهكذا الحكام من

(١) الغيبة للشيخ الطوسي. ومنهج الدعوات للسيد ابن طاووس.

الأمويين والعباسيين يتوارث الخلف عن السلف مهمة قتل أبناء النبوة وإنزال المصائب بأهل البيت الكرام.

روى ابن شهر آشوب في المناقب عن داود بن كثير الرقي قال: أتى أعرابي إلى أبي حمزة الثمالي فسأله خبراً فقال: توفي جعفر الصادق، فشهق شهقة وأغمي عليه. فلما أفاق قال: هل أوصى إلى أحد؟ قال: نعم، أوصى إلى ابنه عبد اللّه وموسى وأبي جعفر المنصور. فضحك أبو حمزة وقال: الحمد لله الذي هدانا إلى الهدى، وبيّن لنا عن الكبير، ودلنا على الصغير، وأخفى عن أمر عظيم. فسئل عن قوله؟ فقال: بيّن عيوب الكبير، ودل على الصغير لإضافته إياه، وكتم الأمر بالوصية للمنصور، لأنه لو سأل المنصور عن الوصي. لقيل: أنت[1].

ويورد الشيخ المفيد أمر الوصية مورد الدلالة على النص بالوصية للإمام موسى بن جعفر، وينفي ـ رحمه الله ـ ذكر الإمام الصادق لأحد من أولاده مع ولده موسى، ويقول:

وقد تظاهر الخبر فيما كان عن تدبير أبي عبد اللّه جعفر بن محمد عليه السلام وحراسة ابنه موسى بن جعفر عليه السلام بعد وفاته من ضرر يلحقه بوصيته إليه، وأشاع الخبر عن الشيعة إذ ذاك باعتقاد إمامته من بعده، والاعتماد على حجتهم، لذلك على إفراده بوصية مع نصه عليه بنقل خواصه، فعدل عن إفراده بالوصية عند وفاته، وجعلها إلى خمسة نفر أولهم المنصور، وقدّمه على جماعتهم، إذ هو سلطان الوقت ومدبر أهله، ثم صاحبه الربيع من بعده، ثم قاضي وقته، ثم جاريته وأم ولده حميدة البربرية، وختمهم بذكر إبنه موسى بن جعفر عليه السلام يستر أمره ويحرس بذلك نفسه، ولم يذكر مع ولده أحداً من أولاده لعلمه بأن منهم من يدّعي مقامه من بعده، ويتعلق بإدخاله في وصيته، ولو لم يكن موسى عليه السلام ظاهراً مشهوراً في أولاده، معروف المكان منه وصحة نسبه واشتهار فضله وعلمه وحكمته وامتثاله وكماله، بل كان مثل ستر الحسن عليه السلام ولده لما ذكره في وصيته، ولاقتصر على ذكر غيره ممن سميناه، لكنه ختمهم في الذكر به كما بيناه[2].

(١) أعيان الشيعة للسيد العاملي ج٤ ص٢٢٦.

(٢) الفصول العشرة في الغيبة للشيخ المفيد.

ويتجه القول إذا علمنا أن عبد الله كان يظهر المخالفة لأبيه الإمام الصادق، روى الفضل عن طاهر بن محمد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: رأيته يلوم عبد الله ابنه ويعظه ويقول له: «ما يمنعك أن تكون مثل أخيك، فوالله إني لأعرف النور في وجهه؟» فقال عبد الله: وكيف أليس أبي وأبوه واحداً، وأصلي وأصله واحداً؟ فقال له أبو عبد الله عليه السلام: «إنه من نفسي، وأنت ابني»[1].

وإن عبد الله أفطح الرجلين، ناقص التكوين. يروي الشيخ المفيد أن جماعة من أصحاب الإمام الصادق كانوا في المدينة، فسألوا عبد الله ـ وقد اجتمع عليه من ظن بإمامته بعد أبيه ـ فسألوه عن الزكاة في كم تجب؟ فقال في كل مائتي درهم خمسة دراهم، فقالوا له: ففي مائة؟ قال درهمان ونصف، فقالوا: والله ما تقول المرجئة هذا. فقال: والله ما أدري ما تقول المرجئة.

ويتبين بذلك جهل عبد الله بأحكام الشريعة، وعدم أهليته لاحتلال مكان أبيه، وقد وشحت أنوار الإمامة وجه أخيه موسى منذ كان في المهد، فكان الإمام الصادق يقف على رأسه وهو في المهد ويسارّه طويلاً، وروى الوشاء عن علي بن الحسين، عن صفوان الجمّال قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن صاحب هذا الأمر؟ فقال: «إن صاحب هذا الأمر لا يلهو ولا يلعب» فأقبل أبو الحسن عليه السلام وهو صغير ومعه بهمة (ولد البقر أو المعز أو الضأن) وهو يقول لها: «أسجدي لربك» فأخذه أبو عبد الله عليه السلام وضمّه إليه وقال: «بأبي وأمي من لا يلهو ولا يلعب»[2].

وكان الإمام الصادق يميّزه عن أولاده، ويفضّله عليهم ويقول: «هؤلاء أولادي، وهذا سيدهم»[3]. ولشدّة حب الإمام الصادق عليه السلام له قيل له: ما بلغ من حبك لموسى؟ قال عليه السلام: «وددت أن ليس لي ولد غيره، لئلا يشركه في حبي أحد»[4].

وروى محمد بن الوليد قال: سمعت علي بن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام يقول: سمعت أبا جعفر بن محمد عليه السلام يقول لجماعة من خاصته وأصحابه: «استوصوا بابني موسى عليه السلام خيراً، فإنه أفضل ولدي، ومن أخلف من بعدي، وهو القائم مقامي، والحجة لله تعالى على كافة خلقه من بعدي».

---

(١) الإرشاد ص٢٧١. (٢) الإرشاد.

(٣) ينابيع المودة للقندوزي الحنفي.

(٤) الإتحاف للشبراوي الشافعي.

وقد ذكر الشيخ المفيد جماعة ممن رووا صريح النص بالإمامة من أبي عبد الله عليه السلام على ابنه أبي الحسن موسى عليه السلام من شيوخ أصحاب الإمام الصادق وخاصته وثقاته الفقهاء الصحالين رحمة الله عليهم، منهم: المفضل بن عمر الجعفي، ومعاذ بن كثير، وعبد الرحمن بن الحجّاج، والفيض بن المختار، ويعقوب السرّاج، وسليمان بن خالد، وصفوان الجمّال وغيرهم ممن يطول ذكرهم. وقد روي ذلك من أخوي الإمام الكاظم: إسحاق وعلي. وكانا من الفضل والورع على ما لا يختلف فيه اثنان.

فروي عن المفضل بن عمر الجعفي رحمه الله قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فدخل أبو إبراهيم موسى عليه السلام - وهو غلام - فقال لي أبو عبد الله عليه السلام: «استوصِ به، وضع أمره عند من تثق من أصحابك».

وروي عن معاذ بن كثير عن أبي عبد الله عليه السلام قلت: أسأل الله الذي رزق أباك منك هذه المنزلة أن يرزقك من عقبك قبل الممات مثلها، فقال: «قد فعل الله ذلك» قلت: من هو جعلت فداك؟ فأشار إلى العبد الصالح وهو راقد فقال: «هذا الراقد» وهو يومئذ غلام.

وعن عبد الرحمن بن الحجّاج قال: دخلت على جعفر بن محمد عليه السلام في منزله، فإذا هو في بيت كذا من داره، في مسجد له وهو يدعو، وعلى يمينه موسى بن جعفر عليه السلام يؤمّن على دعائه. فقلت له: جعلني الله فداك، قد عرفت انقطاعي إليك وخدمتي لك، فمن وليُّ الأمر بعدك؟ قال: «يا عبد الرحمن، إن موسى قد لبس الدرع واستوت عليه» فقلت له: لا أحتاج بعد هذا إلى شيء.

وعن الفيض بن المختار قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: خذ بيدي من النار، من لنا بعدك؟ قال: فدخل أبو إبراهيم وهو يومئذ غلام. فقال: «هذا صاحبكم فتمسّك به».

وعن منصور بن حازم قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: بأبي أنت وأمي، إن الأنفس يُغدا عليها ويراح، فإذا كان ذلك فمن؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: «إذا كان ذلك فهو صاحبكم» وضرب على منكب أبي الحسن الأيمن، وهو فيما أعلم يومئذ خماسي.

وصفوة القول: أن الروايات تتعاضد في إثبات النزعات إلى الإمامة من بين أولاد الإمام الصادق، وهو أمر توهمّوه بالعاطفة وتمنّوه، لأن الإمامة تجري بدلائل وتتم بشروط، فيهتدى بيسر إلى صاحبها، وتصرح السجايا والأعمال باكتمال الشروط، وهو أمر معلوم أصحابه في عدد معين وشخوص مثبتين، وقد مرّ بنا كيف كانت علامات الإمامة وإمارات الانتساب إلى البيت النبوي في جواب الإمام الكاظم إلى أبي حنيفة.

فذاع عن أصحاب الإمام الصادق يومئذ ما كان الإمام يقوم به في رعاية وصيّة الإمام موسى، وانتشر ما كان يوصيه به. منها: «يا بني إقبل وصيتي، واحفظ مقالتي، فإنك إن حفظتها تعش سعيداً وتمت حميداً، يا بني إنه من قنع بما قسم الله استغنى ومن مدّ عينه إلى ما في يد غيره مات فقيراً، ومن لم يرضَ بما قسم الله عز وجل له اتهم الله في قضائه، ومن استصغر زلة نفسه استعظم زلة غيره، ومن استصغر زلة غيره استعظم زلة نفسه. يا بني من كشف حجاب غيره انكشفت عورات بيته، ومن سلّ سيف البغي قُتل به، ومن احتفر لأخيه بئراً سقط فيها، ومن خالط السفهاء حقّر، ومن خالط العلماء وقّر، ومن دخل مداخل السوء اتهم. يا بني قل الحق لك وعليك، وإياك والنميمة فإنها تزرع الشحناء في قلوب الرجال، يا بني إذا طلبت الجود فعليك بمعادنه»[1].

ومعلوم أن العصر الذي خضنا في بحثه هو من أخطر العصور السياسية وأشدها على شيعة أهل بيت النبي وأئمتهم المعصومين عليهم السلام وقد كانت الوصية بالشكل الذي ارتآه من التدبير للإبقاء على حياة وصيّه وحمايته من ظلم المنصور وحقده. فتولى الإمام الكاظم أعباء الإمامة وهو يعلم ما عليه المنصور من ظلم واعتداء، فحرص على أن لا يذاع أمره ولا تنتشر أجوبته ومسائله، فقد كان يقول لمن يجيبه: «فإذا أذعت فهو الذبح».

ولكن من خَلَفَ المنصور كان أعتى وأعدى، وقد رأينا ماذا كان عليه المهدي، بعد أن أخذ الإمام الكاظم في المدينة يحتل مكانته ويقوم باستقبال الوفود والطلاب من كافة الأقطار. ثم جاءت فترة حكم الرشيد، وبدأ وجود الإمام الكاظم يقضّ مضجع الرشيد

(١) صفة الصفوة ج٢ ص٩٥ و٩٦.

العباسي، وعلى عادتهم إذ كانوا يتخذون الحج ذريعة للوصول إلى مواقع الأئمة من أهل البيت، فحج مرة واجتمع بالإمام الكاظم عند الكعبة، وقال له الرشيد: أنت الذي يبايعك الناس سرّاً؟ فقال الإمام عليه السلام: «أنا إمام القلوب، وأنت إمام الجسوم»[1].

ولا يَدَع الإمام لهارون الرشيد فرصة يفتخر بها على المسلمين بالانتساب إلى النبي محمد ﷺ ولا يتركه يتمتع ويدلّ بشرف القرابة التي يستعملها لظلمه، فلمّا حج هارون الرشيد مرة، فأتى قبر النبي ﷺ زائراً له، وحوله قريش وأفياء القبائل، ومعه الإمام موسى الكاظم، فلما انتهى إلى القبر قال الرشيد: السلام عليك يا رسول الله يا ابن عمي. افتخاراً على من حوله، فدنا الإمام موسى بن جعفر فقال: «السلام عليك يا أبة» فتغيّر وجه هارون وقال: هذا الفخر يا أبا الحسن حقاً[2]. وفي بعض الروايات أن الإمام الكاظم أجابه: «وعليك السلام يا عبد الله» فلم يحتملها الرشيد[3].

ولمّا قرب الرشيد من المدينة، استقبله الوجوه من أهلها، وتقدمهم الإمام الكاظم على بغلة، فقال له الربيع: ما هذه الدابة التي تلقيت عليها أمير المؤمنين، وأنت إن طَلَبْتَ عليها لم تُدرِك، وإن طُلِبْتَ لم تَفُتْ؟ فقال: «إنها تطأطأت عن خيلاء الخيل، وارتفعت عن ذلّة العير، وخير الأمور أوساطها»[4].

ولم يكن الإمام الكاظم ليخشى الرشيد في أمر هو فيه الحَكَمَ وإليه المفزع، فهو صاحب السلطة الروحية، وإليه أمر الشريعة، فسأله محمد بن الحسن يوماً ـ بمحضر الرشيد وهو بمكة ـ فقال: يجوز للمحرم أن يظلل محمله؟ فقال الإمام: «لا يجوز له ذلك مع الاختيار» فقال محمد بن الحسن: أفيجوز له أن يمشي تحت الظلال؟ فقال له: «نعم» فتضاحك محمد بن الحسن من ذلك. فقال له الإمام عليه السلام: «أتعجب من سنّة النبي ﷺ وتستهزئ به، إن رسول الله ﷺ كشف ظلاله في إحرامه، ومشى تحت الظلال وهو محرم، إن أحكام الله لا تقاس، فمن قاس بعضها على بعض فقد ضلّ عن سواء السبيل» فسكت محمد بن الحسن لا يُرجع جواباً.

---

(١) الإتحاف ص٥٥.

(٢) تاريخ بغداد ج١٣ ص٣١. وتذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي ص٢٥٩. وتاريخ ابن كثير ج١٠ ص١٨٣.

(٣) الإتحاف ص٥٥.

(٤) روضة الواعظين.

وتبين الأحاديث والأسئلة التي دارت بين الرشيد وبين الإمام الكاظم طوايا نفس الرشيد، وما ضمّت جوانحه من غيض على الكاظم لتمتّعه بمنزلة الإمامة وبرتبة الولاية الشرعية التي تنقاد لها القلوب، حتى كان لا يملك إخفاء ذلك، ويقول لبنيه في حق الإمام موسى الكاظم: (هذا إمام الناس، وحجة الله على خلقه، وخليفته على عباده. أنا إمام الجماعة في الظاهر والغلبة والقهر، والله إنه لأحق بمقام رسول الله ﷺ مني ومن الخلق).

وكان المأمون في خلافته يقول: كان الرشيد سمع جميع ما يجري بيننا (بينه وبين أخيه الأمين) من موسى بن جعفر ولذلك قال ما قال[1]. وتصديقاً منه لما قاله الإمام الكاظم له من أنه إمام القلوب والرشيد إمام الجسوم. ويظل الرشيد على ما تقتضيه سلامة الملك ودوام الحكم باحثاً عن ألوان من الإساءة في الألفاظ والتصرف، وساعياً إلى النيل من المنزلة والرتبة التي حبا الله بهما الإمام الكاظم، فيسأل الرشيد الإمام الكاظم: أخبرني لم فُضّلتم علينا ونحن وأنتم من شجرة واحدة، وبنو عبد المطلب ونحن وأنتم واحد، إنّا بنو عباس، وأنتم ولد أبي طالب، وهما عمّا رسول الله ﷺ وقرابتهما منه سواء؟

فقال الإمام: «نحن أقرب» قال: وكيف ذاك؟ قال الإمام: «لأن عبد الله وأبا طالب لأب وأم، وأبوكم العباس ليس هو من أم عبد الله ولا من أم أبي طالب».

قال: فَلِمَ ادّعيتم أنكم ورثتم النبي ﷺ والعمُّ يحجب ابن العم، وقبض رسول الله ﷺ وقد توفي أبو طالب قبله والعباس عمه حي؟ فقال له: «إن رأى أمير المؤمنين أن يعفيني عن هذه المسألة، يسألني عن كل باب سواه يريده».

فقال: لا، أوتجيب.

فقال الإمام: «فأمّني».

قال الرشيد: أمّنتك قبل الكلام.

فقال الإمام: إن في قولك علي بن أبي طالب عليه السلام إنه ليس مع ولد الصلب ذكراً كان أو أنثى لأحد سهم إلا الأبوين والزوج والزوجة، ولم يثبت للعم مع ولد الصلب ميراث، ولم ينطق به الكتاب العزيز والسنة، إلاّ أن تيماً وعدياً وبني أمية

---

(١) حياة الحيوان الكبرى للدميري.

قالوا: العم والد. رأياً منهم بلا حقيقة، ولا أثر عن رسول الله ﷺ، ومن قال بقول علي من العلماء قضاياهم خلاف قضايا هؤلاء. هذا نوح بن دراج يقول في هذه المسألة بقول علي وقد حكم به» إلى أن قال عليه السلام: «إن النبي ﷺ قال: أقضاكم علي. وكذلك عمر بن الخطاب قال: علي اقضانا. وهو اسم جامع، لأن جميع ما مدح به النبي ﷺ أصحابه من القرابة والفرائض والعلم داخل في القضاء».

قال الرشيد: زدني يا موسى.

قال الإمام الكاظم: «المجالس بالأمانات، وخاصة مجلسك».

فقال: لا بأس به.

قال الإمام الكاظم: «إن النبي لم يورّث من لم يهاجر، ولا أثبت له ولاية حتى يهاجر».

فقال: ما حجتك فيه؟

قال الإمام: «قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ وإن عمّي العباس لم يهاجر».

فقال له الرشيد: إني أسألك يا موسى، هل أفتيت بذلك أحداً من أعدائنا أو أخبرت أحداً من الفقهاء في هذه المسألة بشيء؟

فقال الإمام: «اللهم لا . . .» اهـ.

ونحو ذلك ما أثاره الرشيد التماساً للطعن والإساءة لأن عامل القرابة من الرسول كان من أهم العوامل التي أقام عليها العباسيون صبغتهم الدينية وصفتهم الشرعية، إذ سأل الإمام الكاظم: جوّزتم للعامة والخاصة أن ينسبوكم إلى رسول الله ﷺ ويقولوا لكم: يا بني رسول الله، وأنتم بنو علي. وإنما ينسب المرء إلى أبيه، وفاطمة إنما هي وعاء. والنبي جدّكم من قبل أمكم؟

فقال: «يا أمير المؤمنين. لو أن النبي ﷺ نُشر فخطب إليك كريمتك، هل كنت تجيبه؟».

قال: سبحان الله! ولم لا أجيبه، بل افتخر على العرب والعجم وقريش بذلك.

فقال الإمام: «لكنه لا يخطب إليّ ولا أزوجه».

فقال الرشيد: ولم؟

قال الإمام: «لأنه ولدني ولم يلدك».

فقال: أحسنت يا موسى! ثم قال: كيف قلتم إنّا ذرية النبي والنبي لم يعقب، وإنما العقب الذكر لا الأنثى، وأنتم ولد الابنة، ولا يكون ولدها عقباً له.. الخ حديثه.

فقال الإمام: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾».

فقال: ليس لعيسى أب.

فقال الإمام: «إنما ألحقناه بذراري الأنبياء عليهم السلام من طريق مريم عليها السلام وكذلك ألحقنا بذراري النبي صلى الله عليه وآله من قبل أمّنا فاطمة. أزيدك يا أمير المؤمنين؟».

قال: هات.

فقال الإمام: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ ولم يدّعِ أحد أنه أدخله النبي صلى الله عليه وآله تحت الكساء عند مباهلة النصارى إلاّ علي بن أبي طالب عليه السلام وفاطمة والحسن والحسين، أبناءَنا: الحسن والحسين، ونساءَنا: فاطمة، وأنفسَنا: علي بن أبي طالب عليه السلام. على أن العلماء قد أجمعوا على أن جبرئيل قال يوم أحد: «يا محمد إن هذه لهي المواساة من علي» قال: «لأنه مني وأنا منه» فقال جبرئيل: «وأنا منكما يا رسول الله». ثم قال: لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي، فكان كما مدح الله عز وجل به خليله عليه السلام إذ يقول: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ إنا نفتخر بقول جبرائيل أنه منّا»[1].

ومن جميع الروايات، تظهر لنا صورة الرشيد الحاكم الذي يعاني أشدّ المعاناة من الوجود الشخصي للإمام الكاظم، ويحتال بمختلف السبل للنيل منه أو الغضّ من المكانة الروحية التي يعجز هو ـ بحكمه وجبروته ـ عن تحقيق أربه وغرضه، ولم يظفر بشيء في كل تلك المحاولات، فالنفوس تهفو إلى أهل البيت، ولا يزداد محبّوهم إلا منعة وتمسّكاً. والإمام الكاظم احتلّ منصب الإمامة، بالعهد، فكان أهلاً لما قدّر له وما جرى به سابق علم الرب تعالى، فأيّ وجه للمدافعة والمقارنة بين سلطة تقوم بأمر الله وهدى الإسلام، وبين حكم يقوم بالقهر والغلبة. وقد اتفق المخالف والمؤالف على عظيم منزلة الإمام الكاظم. روى الخطيب البغدادي: كان موسى بن جعفر يُدْعى العبد الصالح من عبادته واجتهاده. روى أصحابنا أنه دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) الاحتجاج للطبرسي ج٢ ص١٦٣ ـ ١٦٥. وعيون أخبار الرضا للصدوق. ونور الأبصار للشبلنجي.

فسجد سجدة في أول الليل، وسُمع وهو يقول في سجوده: «عظيم الذنب عندي، فليحسن العفو عندك يا أهل التقوى يا أهل المغفرة» فجعل يرددها حتى أصبح. وكان يبلغه عن الرجل أنه يؤذيه، فيبعث إليه بصرّة فيها ألف دينار، وكان يصرّ الصّرر ثلاثمائة دينار وأربعمائة دينار ومائتي دينار، ثم يقسّمها بالمدينة. وكان مثل صرر موسى بن جعفر إذا جاءت الإنسان الصرة فقد استغنى[(١)].

يقول الشبلخي: كان الإمام موسى الكاظم أعبد أهل زمانه وأعلمهم وأسخاهم كفاً، وأكرمهم نفساً، وكان يتفقّد فقراء المدينة، فيحمل إليهم الدراهم والدنانير إلى بيوتهم ليلاً، وكذلك النفقات، ولا يعلمون من أي جهة وصلهم ذلك إلا بعد موته اهـ.

ولم يتمكن الرشيد ـ بسلطانه الغاشم ـ من أن يحجب نور الإمام بحبسه الإمام الكاظم، بل كان المكلّفون به لا يملكون إلا تقديسه وتبجيله، ومن وراء القضبان كانت أخبار الإمام الكاظم أشدّ تأثيراً على العباسيين. عن عمار بن إبان يروي الخطيب، قال: حبس أبو الحسن موسى بن جعفر عند السندي، فسألته أخته أن تتولى حبسه ـ وكانت تتدين ـ ففعل، فكانت تلي خدمته، فحكى لنا أنها قال: كان إذا صلى العتمة حمد الله ومجّده ودعاه، فلم يزل كذلك حتى يزول الليل، فإذا زال، قام يصلي حتى يصلي الصبح، ثم يذكر قليلاً حتى تطلع الشمس، ثم يقعد إلى ارتفاع الضحى، ثم يتهيأ ويستاك ويأكل، ثم يرقد إلى قبل الزوال، ثم يتوضأ ويصلي حتى يصلي العصر، ثم يذكر في القبلة حتى يصلي المغرب، ثم يصلي ما بين المغرب والعتمة، فكان هذا دأبه. فكانت أخت السندي إذا نظرت إليه قالت: خاب قوم تعرّضوا لهذا الرجل، وكان عبداً صالحاً. . .اهـ. وتروى له الكرامات والفضائل في السجون الأخرى التي كان بها الإمام الكاظم، وقد رويت في المصادر التي ذكرت سيرته عليه السلام.

وكان الإمام الكاظم لا ينفكّ في سجنه يصف الرشيد بالطاغية، ويحذر حاشيته مما يتنظرهم على يديه، وأبى أن يعطي الدنية في دينه فيقر للظلمة بسلطان أو يوافقهم على ما يريدون، فكان الإمام الكاظم غمّاً على الرشيد ينغّص عليه عيشه وملذاته ولهوه، وقد حيّرت الرشيد الدلائل والمعجزات التي ظهرت للإمام الكاظم، فاستعان بحيى بن خالد البرمكي وقال له: يا أبا علي أما ترى ما نحن فيه من هذه العجائب، ألا تدبّر في أمر هذا الرجل تدبيراً يريحنا من غمه؟ فقال له يحيى: الذي أراه لك يا

(١) تاريخ بغداد.

أمير المؤمنين أن تمنن عليه وتصل رحمه، فقد والله أفسد علينا قلوب شيعتنا. فقال هارون: انطلق إليه وأطلق عنه الحديد، وأبلغه عنّي السلام، وقل له: يقول لك ابن عمك إنه قد سبق منّي فيك يمين أني لا أخليك حتى تقرّ لي بالإساءة وتسألني العفو عما سلف منك، وليس عليك في إقرارك عارٌ ولا في مسألتك إياي منقصة. ولما قام يحيى بالمهمة حذّره الإمام الكاظم مما ينتظره وقال له: «انظر إذا سار هذا الطاغية إلى الرقة وعاد إلى العراق لا يراك ولا تراه لنفسك، فإني رأيت في نجمك ونجم ولدك ونجمه أنه يأتي عليكم فاحذروه» ثم قال: «أبلغه عني: يقول لك موسى بن جعفر، رسولي يأتيك الجمعة، فيخبرك بما ترى، وستعلم غداً إذا حادثتك بين يدي الله مَن الظالم والمعتدي على صاحبه والسلام»[1].

وبعث إليه الإمام عليه السلام من الحبس رسالته التي يقول فيها: «إنه لن ينقضي عني يوم من البلاء إلا انقضى عنك يوم من الرخاء، حتى نقضي جميعاً إلى يوم ليس له انقضاء يخسر فيه المبطلون»[2].

ولقد كان من خوف الرشيد وفزعه من الإمام الكاظم أنه وضع العيون على الإمام الكاظم وهو في سجنه، فكانوا يرفعون إلى الولاة والبلاط العباسي أحواله في العبادة وأوضاعه في الديانة، وكتب بعض العيون التي كانت عليه أنه سمعه عليه السلام يقول في دعائه: «اللهم إنك تعلم أني كنت سألتك أن تفرّغني لعبادتك، اللهم قد فعلت».

وبالجملة فإن الشيعة قد اتجهت إلى الإمام الكاظم وأخذت الوفود تفد على المدينة من الأقطار المختلفة للانتهال من علم الإمام والاستفسار عن الأمور التي تهمّها، وتحصيل الإجابات المطلوبة، وقد كان أخبار الأموال التي تحمل إلى الإمام من أكبر الأمور التي جعلت الرشيد في حال من الضيق والرعب. ونظر إلى طبيعة العلاقة بين الإمام وبين شيعة أهل البيت نظرته إلى اعتبار الجباية وجمع الأموال أساس الملك، لأنها مصدر الإسراف والبذخ في قصور العباسيين، وبها قوة الدولة، وحسب أن إقبال الناس على الإمام الكاظم، وأخبار جوده وسخائه بداية ثورة تقوّض ملكه وعرش آبائه. فكان يرى أن اختلاف الناس إلى إمامهم، وحملهم العبادات المالية المفروضة إلى جهتها الشرعية تمرّد عليه وحركة ضده، سيما وأن الإمام عليه السلام كان

---

(١) انظر الغيبة للشيخ الطوسي ص٢٠.

(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي. وتاريخ بغداد.

يُشعر الرشيد بأن له في السلطان الذي هو فيه رأي، فإضافة إلى بيانه عليه السلام للرشيد بأن سلطة الرشيد هي على الجسوم، وأنه إمامها. بمعنى قائدها وسلطان زمانها، تنساق وراءه بحكم القوة والقهر، وأما سلطته عليه السلام فهي منصوبة على الإيمان بالعقيدة والاقتداء بهدى الرسالة المحمدية، فقد بيّن له الإمام عليه السلام أن الدولة التي عليها ملكه وتخضع لحكمه هي بمنزلة ما يخص أهل البيت من الممتلكات، لمّا قال هارون للإمام الكاظم: خذ فدكاً. والإمام يمتنع، فلمّا ألح عليه قال: «ما آخذها إلا بحدودها» قال: وما حدودها؟ قال: «الحد الأول عَدَن»، فتغير وجه الرشيد قال: والحد الثاني؟ قال: «سمرقند» فأربدّ وجهه، قال: والحد الثالث؟ قال: «أفريقية». فاسودّ وجهه، قال: والحد الرابع؟ قال: «سيف البحر مما يلي الخيزر وأرمينية». فقال هارون: فلم يبق لنا شيء فتحول في مجلسي فقال الإمام: «قد أعلمتك أني لو حددتها لم تردّها». فعند ذلك عزم الرشيد على قتله(١).

ويعمد الرشيد إلى انتهاك حرمة بيت من بيوت الله كان موضع عبادة الإمام موسى الكاظم ومحل حلقته، فيأخذه من المسجد، ولما دخل به إليه، قيده في تلك الساعة. وتدلنا طريقة ترحيله للإمام الكاظم على مدى خوفه من الناس وتوقعه أن يثوروا به ولا يتركوا ابن بنت نبيهم ﷺ يرسف بقيود الرشيد. ولكي يعمّي أمره على الناس استدعى قبتين. فجعله في إحداهما على بغل، وجعل القبة الأخرى على بغل آخر، وخرج البغلان من داره عليهما القبتان مستورتان، ومع كل واحدة منهما خيل. فافترقت الخيل، فمضى بعضها مع إحدى القبتين على طريق البصرة، والأخرى على طريق الكوفة، وكان الإمام في القبة التي مضى بها على طريق البصرة، وأمر القوم الذين كانوا مع قبة الإمام بأن يسلّموه إلى عيسى بن جعفر بن المنصور ـ وكان على البصرة ـ فحبسه عنده سنة، وتنقّل من حبس عيسى إلى حبس الفضل بن الربيع. فبقي عنده مدة طويلة، فأراده الرشيد على شيء من أمره، فأبى. فكتب إليه بتسليمه إلى الفضل بن يحيى، ثم إلى السندي بن شاهك(٢).

وتوفي الإمام في حبس السندي بن شاهك مسموماً سنة ١٨٣هـ وله خمس وخمسون سنة.

---

(١) تذكرة الخواص نقلاً عن ربيع الأبرار للزمخشري.

(٢) الإرشاد ص٢٨١. والغيبة ٢٣. وروضة الواعظين ص٢٢٠. ونور الأبصار ص١٥١. والإتحاف ص٥٦.

وذكر الشيخ الطوسي رحمه الله رواية محمد بن يعقوب عن شيخ من العامة ممن كان يقبل قوله قال: جمعنا السندي بن شاهك ثمانين رجلاً من الوجوه المنسوبين إلى الخير، فأدخلنا على موسى بن جعفر عليه السلام وقال لنا السندي: يا هؤلاء انظروا إلى هذا الرجل هل حدث به حدث، فإن أمير المؤمنين لم يرد به سوءً وإنما ننتظر به أن يقدم ليناظره وهو صحيح موسع عليه في جميع أموره، فسلوه وليس لنا همّ إلا النظر إلى الرجل في فضله وسمته. فقال موسى بن جعفر عليه السلام «أما ما ذكره من التوسعة وما أشبهها فهو على ما ذكر، غير إني أخبركم أيها النفر إني قد سقيت السمّ في سبع تمرات، وأنا غداً أحتضر، وبعد غدٍ أموت» فنظرت إلى السندي بن شاهك يضطرب ويرتعد مثل السعفة[1].

وخلاصة القول أن الإمام موسى بن جعفر كان أكثر أولاد أبيه علماً وديناً وزهداً وجوداً، أحاطه الإمام الصادق بالرعاية مذ كان في مهده باعتباره الوصي والخليفة من بعده، فكان أجلّ ولد أبي عبد الله عليه السلام قدراً، وأعظمهم محلاً، وأبعدهم في الناس حقباً، ولم ير في زمانه أسخى منه ولا أكرم نفساً وعشرة، وكان أعْبَدَ أهل زمانه وأورعهم وأجلّهم وأفقههم، واجتمع جمهور الشيعة على القول بإمامته والتعظيم لحقه والتسليم لأمره، ورووا عن أبيه عليه السلام نصوصاً كثيرة عليه بالإمامة، وإشارات إليه بالخلافة، وأخذوا عنه معالم دينهم، ورووا عنه من الآيات والمعجزات ما يقطع بها على حجية وصواب القول بإمامته[2].

الإسماعيلية:

قدمنا أبرز الوجوه في سيرة الإمام الكاظم لإظهار مسار الإمامة، والتعرّف على الخصائص والفضائل التي تقطع القول، وهنا نبدأ بعرضٍ لحياة إسماعيل بن الإمام الصادق، ومسلك الانشقاق عن مسيرة الإمامة.

إن الروايات في إسماعيل لم تتطابق، ولا نذهب إلى أبعد من القول أن كونه أكبر أولاد الإمام الصادق كان سبب اللبس الذي وقع عند البعض، لأن الإمامة للأسنّ، ونعلم من صفته أنه كان أعرجاً، فهو كأخيه عبد الله الأفطح، وإن كان أرجح الروايات تصف إسماعيل بحال يختلف عن عبد الله، ولكن الإمام الصادق الرجل

---

(١) الغيبة. (٢) الإرشاد.

الذي استطاع أن يقود الأمة في أخطر فترة وأشد معترك، وأن يفتح آفاق الفكر، ويرسي قواعد الفقه، ويتحاشى مأزق السلطان والسياسة، كان في بيته الأب الحاني والمربي العالم الذي يظل أولاده بالعطف ويغذيهم بالهداية والنور، ويحبهم ويبرّهم جميعاً. ونحن على أن إسماعيل كان على الصلاح والهداية، وكان يلقى من الإمام الصادق حب الأب ورعاية الإمام، فالتقت صورالعطف هذه مع كون إسماعيل أكبر أولاد الإمام الصادق في تكوين الظن بأنه الإمام من بعد أبيه. وأما ما قيل من البداء في هذا المورد وبهذا المفهوم فلا أساس له، لأن الإمام الصادق لم يشر إلى إمامة إسماعيل بالرغم من أن الأسئلة التي كانت توجه إليه كثيرة، وما روي عن الادعاء بالبداء، صادر من المخالفين الذين أباحوا لأنفهسم الكذب والتقوّل على الشيعة وأئمتهم كالجريرية[1] والبترية[2] وأصل أقوالهم التي نسبوها إلى الشيعة في البداء كان في تحولات الغلاة وبحثهم عن الأفكار التي تنسجم مع جذورهم كجماعات تسعى إلى إظهار ما جاءت عليه أيام الإسلام من عقائدهم، وأطلقوا هذه المقالة في ظروف أصابهم الفشل فيها بعد أن حاولوا ـ في غلوهم وانحرافهم ـ الانتساب إلى ثورة محمد النفس الزكية[3] وقد كان المغيرة بن سعيد يدّعي الصلة بمحمد بن عبد اللّه بن الحسن، ويقول أن الإمام علي زين العابدين عليه السلام أوصى إليه، وأن النفس الزكية أذن له في أمور منها: خنق الناس[4].

ولما فشلت تلك الثورة وقتل محمد وأخوه إبراهيم، ادّعوا أن الشيعة وضعت البداء، لكي لا يظهر من أئمتهم القول بخلاف ما أخبروا به.

والثابت الذي لا يرقى إليه الشك هو أمر وفاة إسماعيل في حياة الإمام الصادق. ذكر ابن خلدون أنه توفي في حياة أبيه في العُريض في المدينة المنورة، ودفن بالبقيع سنة ١٤٥هـ[5] ويقول المقريزي: إن إسماعيل توفي سنة ١٣٨هـ وجعفر والده لا

---

(١) اتباع سليمان بن جرير من الفرق الزيدية قال بأن الإمامة شورى وأنها تنعقد بعقد رجلين من خيار الأمة، وأجاز إمامة المفضول، ويذكر البغدادي أن بعض أصحاب التواريخ ذكروا أن سليمان بن جرير سمّ إدريس بن عبد اللّه بن الحسن، ويسميها الشهرستاني السليمانية.

(٢) اتباع الحسن بن صالح بن حي وكثير النواء الأبتر، وهم كالجريرية وقد توقفوا في عثمان.

(٣) انظر الفرق بين الفرق ص١٤٨.

(٤) شرح ابن أبي الحديد ج٢ ص٣٠٩.

(٥) تاريخ ابن خلدون ج٣ ص٣٦٠.

يزال على قيد الحياة[1] كما أن تواتر ذكر الإمام الصادق عند وفاة ابنه إسماعيل لما بدا لله يفيد أن الله أظهر بوفاة إسماعيل ما كان في سابق علمه من جعل الإمامة في الأشخاص الذين خلقوا لتحملها. واختلاف التواريخ لا يخرج عن فترة بقاء الإمام الصادق على قيد الحياة.

ولما توفي إسماعيل حزن عليه الإمام الصادق حزناً عظيماً. وأمر بوضع سريره على الأرض قبل دفنه مراراً كثيرة، وكان يكشف عن وجهه وينظر إليه يريد بذلك تحقق أمر وفاته عند الظالمين خلافته له من بعده، وإزالة الشبهة لهم في حياته[2].

وكان موت إسماعيل ـ رحمه الله ـ قد أزال الظن والوهم اللذين وقع فيهما بعض أصحاب الإمام الصادق.

أما الآخرون الذين تصفهم المصادر بالأباعد والأطراف، وليسوا من خاصة الإمام الصادق، منهم الذين ادعوا بقاءه حياً وإنه لم يمت، وتلك مقولة الغلاة في كل زمن، وعقيدتهم التي يقتربون بها من الحلول والتناسخ. فأنكرت موت إسماعيل، وقالوا: كان ذلك على جهة التلبيس من أبيه على الناس لأنه خان، فغيّبه عنهم، وزعموا أن إسماعيل لا يموت حتى يملك الأرض، يقوم بأمر الناس، وأنه هو القائم، لأن أباه أشار إليه بالإمامة بعده وقلّده ذلك[3]. ولولا هؤلاء الذين ظلوا يتربصون، لما كانت قضية موت إسماعيل تصل إلى هذا الحد من الأهمية، وقد تولى كتّاب الفرق القول بإمامة إسماعيل. لأنه أدنى إلى الإساءة إلى الشيعة، ومن طريقه يسهل نسبة كل فرقة إلى الشيعة، ويتحمل الشيعة الاثنا عشرية تبعة هذه الأقوال، ويجري بين الأمة الإسلامية إطلاقات ومقولات هؤلاء، فتتلقاها بالقبول والاطمئنان.

يقول المقريزي:

وكانت الشيعة فرقاً، فمنهم من كان يذهب إلى أن الإمام من ولد جعفر الصادق هو إسماعيل ابنه، وهؤلاء يعرفون من بين فرق الشيعة بالإسماعيلية من أجل أنهم

---

(١) إتعاظ الحنفا.

(٢) التكملة للشيخ عبد النبي الكاظمي ج١ ص١٩٢ نقلاً عن أعلام الورى.

(٣) فرق النوبختي ص٦٧ ـ ٦٨.

يرون أن الإمام من بعد جعفر ابنه إسماعيل، وأن الإمام بعد إسماعيل بن جعفر الصادق هو ابنه محمد المكتوم[1].

وفي الوقت الذي يذكر البغدادي في الفرق بين الفرق لفظ الزعم لتجنب القطع أو الجزم، يقول الشهرستاني بما عرف عنه من تعصّب وتحامل أن الإمام إسماعيل هو الابن الأكبر للإمام جعفر الصادق، وهو الذي نصّ عليه في بدء الأمر، ولقد حدث الاختلاف على موته.

ويذهب ابن الجوزي في المنتظم بعيداً، فيدرج معهم في هذا المسلك الخرمية والبابكية والمحمرّة، وأن آرائهم ومذاهبهم أخذوا بعضها من المجوس وبعضها من الفلاسفة، وأنهم دخلوا تحت ستار ذكر ظلم السلف الأشراف من آل النبي، ودفعهم عن حقهم، وقتلهم وما جرى عليهم من الذل، فتناصروا وتكاتفوا، وانتسبوا إلى إسماعيل بن جعفر بن محمد الصادق.

وابن الجوزي يقصد بذلك الغلاة الذين سبق ذكر حركتهم في أكثر من موضع وبحث في سياق الكتاب، والذين تصدى الإمام الصادق لحركتهم وتبرّأ منهم، ولما مات عليه السلام قالوا أن الإمام الصادق حي لم يمت ولا يموت حتى يظهر ويلي أمر الناس، وإنه هو المهدي، وزعموا أنهم رووا عنه أنه قال: إن رأيتم رأسي قد أهوى عليكم من جبل فلا تصدقوه، فإني أنا صاحبكم. وإنه قال لهم: إن جاءكم من يخبركم على أنه مرضني وغسلني وكفنني فلا تصدقوه فإني صاحبكم صاحب السيف.

ولا يمكن الجزم بأن الغلاة هم قوم الفرقة الإسماعيلية. لأن أولئك الذين يصفهم العلماء بالأباعد مع أنهم ليسوا من خاصة أصحاب الإمام الصادق وأنهم من الأطراف، يحتمل وجود من أقام على الظن وبقي على الاعتقاد الذي أراد الإمام الصادق إزالته ومنعه، فظلت (إسماعيلية) خالصة تدين بإمامة إسماعيل، ومنها ما كان بالاتصال بإسماعيل كالمباركية التي تزعّمها مبارك مولى إسماعيل، فزعمت أن الإمام بعد الإمام الصادق هو محمد بن إسماعيل، وقالوا: إن الأمر كان لإسماعيل في حياة أبيه، فلما توفي قبل أبيه جعل جعفر بن محمد الأمر لمحمد بن إسماعيل، وكان الحق له، ولا يجوز غير ذلك، لأنها لا تنتقل من أخ إلى أخ بعد الحسن

---

(١) خطط المقريزي ج١ ص٣٤٨.

والحسين عليهما السلام ولا تكون في الأعقاب، ولم يكن لأخوي إسماعيل عبد الله وموسى في الإمامة حق كما لم يكن لمحمد بن الحنفية حق على علي بن الحسين.

وغيرها من المعتقدات والآراء التي تتصل بنشوئها واتصالها بعقائد الشيعة إلى أن تنتهي إلى هذه الفترة من الزمن وحدوث الاختلاف بعد وفاة الإمام الصادق، وعلى ذلك فلا نريد أن نظلم إخواننا من الإسماعيلية الذين آمنوا بعمق وعقيدة بوصاية النبي للإمام علي عليه السلام، وتوليهم الأئمة المعصومين، إلى أن كانت الأقوال التي التزموها وابتعدوا بها عن منهاج الشيعة.

وأن الفاطميين على لسان قاضيهم النعمان تبرأوا من الغلاة، والتزموا موقف الشيعة، وأنكروا أقوال أبي الخطّاب. قال القاضي النعمان: (ثم كان أبو الخطاب في عصر جعفر بن محمد من أجلّ دعاته(!) فأصابه ما أصاب المغيرة. فكفر وادعى أيضاً النبوة. وزعم أن جعفر بن محمد إله، تعالى الله عن قوله، واستحل المحارم كلها، ورخّص فيها، وكان أصحابه كلما ثقل عليهم أداء فريضة. أتوه وقالوا: يا أبا الخطاب، خفف علينا فيأمرهم بتركها، حتى تركوا جميع الفرائض واستحلّوا جميع المحارم وارتكبوا المحظورات، وأباح لهم أن يشهد بعضهم لبعض بالزور. وقال: من عرف الإمام فقد حل له كل شيء كان حرم عليه، فبلغ أمره جعفر بن محمد (. . .) فلم يقدر عليه بأكثر من أن لعنه وتبرّأ منه، وجمع أصحابه وعرّفهم ذلك وكتب إلى البلدان بالبراءة منه وباللعنة عليه، وعظم ذلك على أبي عبد الله جعفر بن محمد (. . .) واستفظعه واستهاله)[1]. ويبدو أن القاضي المغربي يجهل تفاصيل ما قام به الإمام الصادق من جهد في دحض وفضح أفكار الغلاة حتى كان لا ينام الليل، وإن كان قوله فيما قدر عليه الإمام الصادق يحتمل إرادة ما يقوم به الحكام من المحاربة بالسيف كعيسى بن موسى العباسي عامل الكوفة، وإذا كان غير ذلك فلا وجه لقوله.

ومهما يكن من أمر فرقة الإسماعيلية والاختلاف في إسماعيل، فإن التاريخ يجهل جهلاً يكاد يكون تاماً كيفية بدء الدعوة لإمامة إسماعيل، فلا يعرف أول من دعى لإمامته، كما لا يمكن تحديد عوامل تأخير ظهورها إلى الوجود، فالتاريخ لم يعرف شيئاً اسمه الفرقة الإسماعيلية حتى أواخر القرن الثالث الهجري، وهو بدء ظهور

(١) دعائم الإسلام ج١ ص٦٣ (الهفت ـ غالب).

حركتهم، وإذا كان ذلك دور الستر في معتقدات الإسماعيلية. فإن أقوال الإسماعيلية عن هذا الدور هي الأقوال الوحيدة التي تظهر أسباب التستر والاختفاء متعلقة بالدعوة وقيامها على الشكل الذي يدعون إليه، وهم دائماً يتحدثون عن تاريخ أئمتهم في هذه الفترة بشيء من عدم التطابق في العدد والوقائع.

ولكن الثابت أنه بعد وفاة الإمام الصادق عليه السلام انتقل فريق منهم إلى القول بإمامة موسى بن جعفر عليه السلام بعد أبيه عليه السلام وافترق الباقون فريقين، فريق منهم رجعوا عن حياة إسماعيل وقالوا بإمامة محمد بن إسماعيل لظنهم أن الإمامة كانت في أبيه وأن الابن أحق بمقام الإمامة من الأخ. وفريق ثبتوا على حياة إسماعيل. ويقول الشيخ المفيد ـ رحمه الله ـ المتوفى سنة ٤١٣: (وهم اليوم شذّاذ لا يعرف منهم أحد يومئ إليه، وهذان الفريقان يسميان بالإسماعيلية، والمعروف منهم الآن من يزعم أن الإمامة بعد إسماعيل في ولده وولد ولده إلى آخر الزمان). اهـ.

وقد أعقب إسماعيل محمداً وعلياً. ونحن بإزاء الاثنين نلمس في سيرتهما تلك الآثار النفسية التي تحدث في الأبناء انحيازاً للأب في مجال الأسرة الواحدة كأي بشر ينقاد إلى العواطف وينجر إلى الأهواء، وهذه الآثار لا علاقة لها بالتهيؤ للإمامة، فليس هناك ما يثبت أن محمداً قد تطلع على عهد جده الإمام الصادق إلى شيء من الإمامة أو أنه أعدّ لها نفسه، إذ يفترض حسب الادعاء أن يكون من نصب بعد وفاة إسماعيل وفي حياة الإمام الصادق عالماً بما نصب له.

والسيد ابن عنبة في العمدة يذكر قول شيخ الشرف العبيدلي: هو ـ إسماعيل ـ إمام الميمونية وقبره ببغداد. وقول ابن خداع: كان الإمام موسى الكاظم عليه السلام يخاف ابن أخيه محمد بن إسماعيل ويبرّه، وهو لا يترك السعي به إلى السلطان من بني العباس. كما ينقل السيد ابن عنبة قول أبو نصر البخاري: كان محمد بن إسماعيل بن الصادق عليه السلام مع عمه موسى الكاظم عليه السلام يكتب بالسرّ إلى شيعته في الآفاق، فلما ورد الرشيد الحجاز، سعى محمد بن إسماعيل بعمه إلى الرشيد فقال: أعَلِمت أن في الأرض خليفتين يجبى إليهما الخراج؟ فقال الرشيد: ويلك أنا ومن؟ قال: موسى بن جعفر. وأظهر أسراره، فقبض الرشيد على موسى الكاظم عليه السلام وحبسه وكان سبب هلاكه، وحظي محمد بن إسماعيل عند الرشيد، وخرج معه إلى العراق ومات ببغداد، ودعا عليه موسى بن جعفر عليه السلام بدعاء

استجابه الله تعالى فيه وفي أولاده، ولمّا ليمَ موسى بن جعفر عليه السلام في صلة محمد بن إسماعيل والاتصال مع سعيه به قال: «إني حدثني أبي عن جده عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ: الرحمَ إذا قطعت فوصلت، ثم قطعت فوصلت، ثم قطعت فوصِلت، ثم قطعت قطعها الله تعالى، وإنما أردت أن يقطع الله رحمه من رحمي»[1].

أما علي بن إسماعيل فقد وردت الرواية به بهذا الخصوص، وهي المرجحة، لأن أبطالها البرامكة، ولكن ظهور اسم محمد في تاريخ الفرقة الإسماعيلية على اسم أخيه علي يعطي الأولى أهمية، ودور علي بن إسماعيل مهم أيضاً لعلاقته بالبرامكة الذين أخفوا مجوسيتهم، وكانوا مدار سياسة العداء للعلويين في زمنهم، حتى انتقم الله من ظلمهم لآل بيت النبي الأطهار على يد ظالم آخر. والرواية عن النوفلي عن أبيه عن مشايخهم قالوا: إن السبب في أخذ موسى بن جعفر عليه السلام أن الرشيد جعل ابنه في حجر جعفر بن محمد بن الأشعث، فحسده يحيى بن خالد بن برمك على ذلك وقال: إن أفضت إليه الخلافة زالت دولتي ودولة ولدي. فاحتال على جعفر بن محمد ـ وكان يقول بالإمامة ـ حتى داخله وأنس به، فكان يكثر غشيانه في منزله، فيقف على أمره ويرفعه إلى الرشيد، ويزيد عليه في ذلك بما يقدح في قلبه. ثم قال لبعض ثقاته أتعرفون لي رجلاً من آل أبي طالب ليس بواسع الحال يُعرِّفني ما احتاج إليه؟ فدلّ على علي بن إسماعيل بن جعفر بن محمد، فحمل إليه يحيى بن خالد مالاً، وكان موسى عليه السلام يأنس بعلي بن إسماعيل ويصله ويبرّه، ثم أنفذ إليه يحيى بن خالد يرغبّه قصد الرشيد ويعده بالإحسان إليه، فعمل على ذلك، فأحسّ به موسى عليه السلام فدعا به وقال له: «إلى أين يا ابن أخي؟» قال: إلى بغداد. قال الإمام: «وما تصنع؟» قال: عليّ دين وأنا مملق. فقال له الإمام موسى الكاظم عليه السلام: «أنا أقضي دينك وأفعل لك وأصنع». فلم يلتفت إلى ذلك، وعمل على الخروج. فاستدعاه أبو الحسن عليه السلام وقال له: «أأنت خارج؟» قال: نعم، لا بد لي من ذلك. فقال له: «انظر يا ابن أخي واتق الله ولا توتم أطفالي» وأمر له بثلثمائة دينار وأربعة آلاف درهم، فلما قام من بين يديه قال لمن حضره: «والله ليسعينّ في دمي ويوتمنّ أولادي» فقالوا: جعلنا فداك، أو أنت تعلم هذا من حاله وتعطيه وتصله؟ قال: «نعم، حدثني أبي عن

(١) عمدة الطالب ص٢٣٣ ـ ٢٣٤.

آبائه عن رسول الله. . . » الحديث. . . فخرج علي بن إسماعيل حتى أتى يحيى بن خالد فعرفه من خبر الإمام موسى بن جعفر، فرفعه إلى الرشيد، وسأله الرشيد عن عمه فسعى به إليه وقال له: إن الأموال تحمل إليه من المشرق والمغرب، وإنه اشترى ضيعة سمّاها البشيرة بثلاثين ألف دينار. . . ثم خرج يحيى بن خالد على البريد حتى وافى بغداد، ثم دعا السندي بن شاهك فأمره في موسى بن جعفر بأمره فامتثله، وكان الذي تولى به السندي بن شاهك وضع له سماً في طعام قدّم إليه. ويقال أنه جعله في رطب، فأكل منه موسى، وأحس بالسم، ولبث بعده ثلاثاً موعوكاً، ثم مات في اليوم الثالث. . . وأخرج ووضع على الجسر، فأمر يحيى بن خالد أن ينادى عليه عند موته: هذا موسى بن جعفر الذي تزعم الرافضة أنه لا يموت فانظروا إليه[١].

والإسماعيليون يعدّون البرامكة إسماعيلية على مذهبهم، وكذلك زبيدة زوجة الرشيد هي الأخرى إسماعيلية، وينفون عنها تدبير قتل البرامكة[٢].

يقول النوبختي: فأما (الإسماعيلية) فهم «الخطّابية» أصحاب (أبي الخطاب محمد بن أبي زينب الأسدي الأجدع) وقد دخلت منهم في فرقة محمد بن إسماعيل، وأقرّوا بموت إسماعيل بن جعفر في حياة أبيه، وهم الذين خرجوا في حياة أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام.

وكانت الخطّابية بعد براءة الإمام الصادق عليه السلام منهم ولعنهم والوقوف بوجه إلحادهم وزندقتهم، قد تفرقوا فصاروا أربع فرق، وكان أبو الخطّاب يدّعي أن الإمام الصادق جعله قيّمه ووصيّه من بعده، وعلّمه اسم الله الأعظم، ثم ترقّى إلى أن ادّعى النبوة، ثم ادّعى الرسالة. ثم ادعى أنه من الملائكة، وأنه رسول الله إلى أهل الأرض والحجة عليهم. ففرقة منهم قالت: إن أبا عبد الله جعفر بن محمد هو الله جلّ وعزّ، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وأن أبا الخطاب نبي مرسل أرسله جعفر، وأمر بطاعته، وأحلّوا المحارم من الزنا والسرقة وشرب الخمر، وتركوا الزكاة والصلاة والصيام والحج. وأباحوا الشهوات بعضهم لبعض وقالوا: من سأله أخوه ليشهد على

---

(١) الإرشاد ٢٧٩ ـ ٢٨٠. والغيبة ٢١. وروضة الواعظين ص٢١٨. ومقاتل الطالبيين ص٥٠١ ـ ٥٠٢. وكشف الغمة في معرفة الأئمة للأربلي ص٢٤٧.

(٢) تاريخ الدعوة الإسماعيلية ص١٤٥.

مخالفيه فليصدّقه ويشهد له، فإن ذلك فرض عليه واجب. وجعلوا الفرائض رجالاً سمّوهم، والفواحش والمعاصي رجالاً وتأوّلوا قول الله عز وجل: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾. وقالوا: خفف عنّا بأبي الخطّاب، ووضع عنّا الأغلال والآصار، يعنون الصلاة والزكاة والصيام والحج، فمن عرف الرسول النبي الإمام، فليصنع ما أحب. وفرقة قالت بزيغ نبي رسول مثل أبي الخطاب، أرسله جعفر بن محمد، وشهد بزيع لأبي الخطّاب بالرسالة، وبرىء أبو الخطاب وأصحابه من بزيع. وفرقة قالت: السّري رسول مثل أبي الخطاب، أرسله جعفر وقال: إنه قوي أمين، وهو موسى القوي الأمين، وفيه تلك الروح، وجعفر هو الإسلام، والإسلام هو السلام وهو الله عز وجل، ونحن بنو الإسلام كما قالت اليهود: ﴿نَحْنُ أَبْنَاؤُا اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾. وقد قال رسول الله ﷺ: سلمان ابن الإسلام. فدعوا إلى نبوّة السري ورسالته، وصلّوا وصاموا وحجّوا لجعفر بن محمد، ولبّوا له فقالوا: لبيك يا جعفر لبيك.

وفرقة قالت: جعفر بن محمد هو الله عز وجل، وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، وإنما هو نور يدخل في أبدان الأوصياء فيحل فيها، فكان ذلك النور في جعفر، ثم خرج منه فدخل في أبي الخطّاب، فصار جعفر من الملائكة، ثم خرج من أبي الخطّاب فدخل في معمر(١).

وجميع ما نجم عن حركة الغلاة وانتسب إلى أبي الخطّاب لا يخلو من الادعاء بالربوبية والنبوة، وأغلبها تقول ببقاء الأموات، والزعم أن معبودهم لا يموت، فالمعمرية عبدوا أبا الخطّاب كما عبدوا معمراً هذا، وقد كان رجلاً يبيع الحنطة، وزعموا أن الدنيا لا تفنى، وأن الجنة هي ما يصيب الناس من العافية والخير، وأن النار ما تصيب الناس من خلاف ذلك. وقالوا بالتناسخ، وأنهم لا يموتون ولكن ترفع أرواحهم إلى السماء وتوضع في أجساد غير تلك الأجساد، واستحلّوا الخمر والزنا وسائر المحرمات، ودانوا بترك الصلاة(٢).

ولا شك أن حركة الغلاة هي حركة سياسية إضافة إلى كونها حركة دينية ضمّت بقايا العقائد والأديان التي محق الإسلام وجودها، واجتثت جذورها، ولما ظهرت

---

(١) انظر فرق النوبختي ٤٢ ـ ٤٤.

(٢) الحور العين لابن نشوان ص١٦٧.

بوادرها كان ظهورها في ضلال الحكّام وحواشي عظمتهم. واستطاع الظلمة والمتجبرون أن يجعلوها سلاحاً فتاكاً في حملتهم ضد أهل البيت وشيعتهم، فأسهموا في نشاط تلك الفرق، وسهّلوا لهم التظاهر والادعاء بحب أهل البيت، وقد عالج الأئمة الأطهار عليهم أفضل الصلاة والسلام مشكلة تسلل الغلاة ودخولهم في صفوف المسلمين، فكان الإمام الصادق يلعن أبا الخطّاب وأصحابه وجميع الدعاة إلى الألحاد والغلو، ويفضح أصولها ومصادرها، ومن أقواله عليه السلام: «إنّا أهل بيت صادقون لا نعدم من كذّاب يكذب علينا عند الناس، يريد أن يسقط صدقنا بكذبه علينا». ثم ذكر المغيرة وبزيع والسري وأبا الخطّاب ومعمرّ وبشّار الشعيري وحمزة اليزدي وصائد النهدي فقال: «لعنهم الله أجمع، وكفانا مؤنة كل كذاب».

وقال عليه السلام: «إن قوماً يزعمون أني لهم إمام، والله ما أنا لهم بإمام، مالهم لعنهم الله، أقول كذا ويقولون كذا. إنما أنا إمام من أطاعني. ومن قال بأننا أنبياء، فعليه لعنة الله. ومن شك في ذلك فعليه لعنة الله»[(١)].

وإذا كان الفاطميون قد أملوا على قاضيهم أن يثبت البراءة من أبي الخطّاب لتنزيه معتقداتهم، فإن بقية الإسماعيلية لم يوافقوهم على ذلك، كما لم يوافقوهم على أعمالهم الأخرى كمحاربتهم القرامطة والتصدّي لجرائمهم، وقد ألمحنا إلى أن التاريخ الإسماعيلي يظهر عليه الاضطراب وعدم الانسجام، لأن هناك فراغاً وثغرات ظلت ظاهرة لم تنفع في ملئها المحاولات الكثيرة، وقد أدى ذلك إلى أقوال غير واقعية، وآراء لا نصيب لها من الصحة، كالقول بأن بذور حركة الإسماعيلية قد بذرت في عهد جعفر بن محمد. يقول عارف تامر ـ وهو من الإسماعيلية ـ: ولا يوجد هناك من يستطيع إنكار هذه الحقيقة، وقد كانت هذه الدعوة سرّية، وكان يعمل لها في الخفاء إسماعيل بحياة أبيه، يعاونه الداعية الكبير أبو الخطاب، وجاء بعد إسماعيل ولده محمد، وكان على جانب كبير من العبقرية والثقافة راجح الفكر ثاقب النظر[(٢)].

وهذا تحكم واضح، وقول يبعد عن الواقع، ولا أساس له من الصحة، ولكنه يعتقد كبقية الإسماعيلية أن محمد بن إسماعيل خرج من المدينة إلى الكوفة مصحوباً بأخيه وجماعة حركته، واستتر، فبنوا تاريخاً لمحمد بن إسماعيل على مقتضى التنظيم

---

(١) انظر بحث: الغلاة، المجلد الأول، الجزء الأول من الإمام الصادق والمذاهب الأربعة.

(٢) مقدمة كتاب عبقرية الفاطميين لمحمد حسين الأعظمي ص١٤.

السري والحركة الباطنية، وأنكروا ما تذكره المصادر وتثبته الحقائق من التحاق محمد بركب العباسيين وتحكم المنفعة والرغبة في الدنيا حتى حملتاه إلى الموت في بغداد.

ويحدد الأستاذ تامر عام ١٢٨هـ تاريخاً لنشأة الإسماعيلية كدعوة دينية (من قبل الفقيه المتشرّع الإمام جعفر الصادق) ثم يقول إنها بدأت تتحول إلى حركة سياسية عام ٢٥٩هـ.

ولا نريد الخوض في مناقشة مثل هذه الآراء لأنها تكشف عن نفسها، ولا نرغب بالإطالة في بحث الإسماعيلية والإمامة، فالمصادر الإسماعيلية التي يستقي منها الكتّاب المعاصرون ـ تامر وغيره ـ تشير إلى مثل هذا الادعاء، وقد قلنا آنفاً أن الحركة الإسماعيلية اختارت الوقائع والمعتقدات المهمة في تاريخ الشيعة، وساقت انفصالها وانشقاقها عن المذهب الجعفري في صياغه مشابهة، فاختارت مبدأ التقية لدى الشيعة ليكون ذريعة للقول بالتنظيم السري الباطني القائم على الرموز والمعاني التي لا صلة لها باللغة أو مبادىء التفسير. فالتقية عند الشيعة عمل بقوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾.

وقد كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يوصي بالتقية ويأمر بها، وليس ذلك منه إقراراً، فقد علم تشدّده في الحق، وعدم خشيته أحداً غير الله، لكنه أمر بها لأنها من الأمور التي يحكم بها العقل والسمع. أما من حيث العقل فالأولى أن يجنّب الإنسان نفسه شرور من يستطيع أن يناله بشرّ إما بسلطة أو قوة أو ظرف، فيتّقي شرّه ويحفظ حياته. وأما من حيث السمع. فإن قصة أصحاب الكهف وفرارهم بدينهم: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ ووقائع دعوة موسى: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ وغيرها من الأحداث الكثيرة كافية لإظهار أن التقية ـ أو مبدأ تجنب المخاطر وحفظ الوجود ـ من أوامر الشرائع، وقد قال الله عز وجل لنبيه الكريم: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ ثم تأتي الآية التي تنص على التقية في العلاقة مع المشركين أو السماع ببعض الأعمال: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾ وما نزل في حق عمّار بن ياسر: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ وعلى ذلك رأينا كيف كان توجيه الإمام الصادق عليه السلام لأصحابه والتزام التقية. ونرى كيف يخاطب الأئمة عليهم السلام

الظلمة والعتاة بأمرة المؤمنين للإبقاء على حياتهم وكفّ شرور الحكّام الطغاة عن شيعتهم، وكل الأعمال المعهودة في تطبيق التقية لا تحتمل أكثر من مقاصدها التي أذن بها الشرع، فإن الأئمة عليهم السلام كانت مناهج سيرهم واضحة، وأقوالهم في معاهدهم وبيوتاتهم معروفة. وما يصدر عنهم في مقابلة الملوك وسلاطين الزمان بالقدر الذي يوجبه الشرع لحفظ النفس، وكذلك رجال الشيعة وقادتها عملوا بأوامر الشرع وطبقوا توجيهات أئمتهم في حال الاضطرار. وإلى هنا ينتهي أمر التقية، أي عند الحدود التي تكفل إبعاد الخطر ودفع الشر، فليس من تقية الشيعة التخفّي، والنظام القائم على السرّية والرموز والأرقام والإشارات التي تخص أقواماً خلت ومذاهب سالفة.

وقد استغل الإسماعيليون مذهب التقية في سبيل أغراضهم ومصالحهم فكانوا سنيين مع أهل السنة و(شيعيين) مع الشيعة ومسيحيين مع المسيحية[1].

كذلك أدّعى الإسماعيلية التدبير الذي رآه الإمام الصادق لحفظ حياة وصيه وخلفيته الإمام موسى الكاظم وقالوا: إن قصة وفاة إسماعيل بن جعفر في حياة أبيه كانت قصة أراد بها الإمام جعفر الصادق التمويه والتغطية على الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور الذي كان يطارد الشيعة في كل مكان، فخاف جعفر الصادق على ابنه وخليفته إسماعيل، فادّعى موته[2]. وقالوا إن موسى الكاظم لم يجعله الصادق إماماً إلا ستراً على ولي الأمر (محمد بن إسماعيل) ليكتم أمره على الأضداد، ولئلا يطلع ما خصّ به أهل العداوة والعناد حتى يستطيع الإمام المستقر الحقيقي النهوض بأعباء الدعوة سراً[3]. ولا تتفق الإسماعيلية على موت إسماعيل في حياة أبيه، فمنهم من يرى ذلك، ومنهم من ينكر موته، وأنه بقي حيّاً وشوهد في البصرة. ومهما يكن من قول فإنهم أقنعوا أنفسهم بالادعاء بالنص، وجعلوه مادة لبحوثهم وأفكارهم وقالوا: ولما وجدناه قد نصّ عليه، كان منه العلم بأنه غير منقطع النسل والعقب، وإذا كان غير منقطع النسل والعقب فالإمامة له ولنسله ثابتة، وإن كان (ع.م) لم ينص على أحد بعد نصه على إسماعيل (ع.م) فالإمامة لإسماعيل، فإذا ثبتت إمامة إسماعيل ثبت

---

(١) عبقرية الفاطميين ص١٨.

(٢) تاريخ الدعوة الإسماعيلية ص١٦.

(٣) زهر المعاني للداعي إدريس ص(٤٨ ـ ٤٩) ـ غالب ـ أعلام الإسماعيلية.

نسله. إذا لا يستحق الإمامة من لا يكون له عقب بكونها محفوظة في العقب، وإذا ثبت نسله فالإمامة لنسله ثابتة(١).

ويدّعون: بما أن إسماعيل هو صاحب الحق الشرعي في الإمامة بعد أن نص أبوه على ذلك، فلا بد إذن أن تتسلسل الإمامة في ابنه محمد بن إسماعيل. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية كان محمد بن إسماعيل أكبر سناً من عمه موسى الكاظم اهـ. فإذا عدنا إلى تاريخ ولادة إسماعيل نجد أن ولادته كانت سنة ١٣٢هـ فيما كان الإمام موسى الكاظم عليه السلام قد ولد سنة ١٢٨هـ. أما وجوه المقارنة الأخرى فهي واضحة ولا تحتاج إلى جهد في الردّ والنقاش، لأنها لا تثبت أمام الحجج، فليس هناك من نص على إسماعيل بالمرة. كما أنه لم يجمع مؤهلات الخلافة، ولم يصلح لها بعد أبيه، ولكن الإسماعيلية ادّعوا ذلك، وأيدوا دعواهم بما لا يصلح للتأييد ورد الاعتراض وأن وفاة إسماعيل في حياة أبيه وما ذهبوا إليه من التمويه من قبل الإمام الصادق إنما هو من صنائع الغلو، والقصة خيالية وضعها المغالون في هذا المبدأ من مؤرخي وكتّاب الإسماعيلية الذين يكثرون من أمثال هذه القصص في كتاباتهم ليضفوا على الأئمة الإسماعيلية مناقب وفضائل لا يقرّها عقل(٢).

وإن الخوض في غمار البحث عن الطائفة الإسماعيلية ونشأتها ومقومات دعوتها أمر يخرجنا عن الغرض الذي من أجله تعرّضنا لذكر أولاد الإمام الصادق عليه السلام ولكننا رأينا أنفسنا ملزمين بهذه الدراسة إلى التعرّض لبعض ما يتعلق بتاريخ هذه الفرقة في إطار ادعائها بالأمامة ومعتقداتها. وسنقتصر على الجوانب الأساسية فيما يلي من البحث.

إن الوقائع التاريخية لا يضيرها الادعاء ولا تؤثر عليها في جوهرها محاولات التغيير والتحريف، فإذا ما خيل للمتسلّطين أن كثرة اللغط بما أرادوه وزيادة الترديد لما افتعلوه قد حسم ما كان يهددهم وقطع ما كان يقضّ مضاجعهم، فليس ذلك من الحقيقة في شيء. وأنا أذكر ذلك، وقصدي ما تجنّى الحكام الجائرون به من أقوال ودسائس ومؤامرات على الأئمة الأطهار من آل البيت رضوان الله عليهم، وما كان

---

(١) المصابيح في إثبات الإقامة لأحمد حميد الدين الكرماني ص١٣٠.
(٢) الطائفة الإسماعيلية، الدكتور محمد حسن كامل ص٣.

لأصحاب العروش من زبانية وأذناب سايروهم على الكذب وأقرّوهم على الظلم، ولكن تاريخ وحقائق الأئمة الأطهار وشيعتهم بقي جلياً ناصعاً برغم كل نتائج الملوك الفسّاق والظالمين، وقد شمّر رجال الشيعة عن ساعد الجدّ، وبذلوا أقصى الجهود منذ مئات السنين لإظهار تلك الحقائق، فما كان الإمام علي إلا وصيّاً، وأول القوم إسلاماً وأقدمهم إيماناً، وهكذا كل وصي من ذريته، حتى إمامنا ومولانا الصادق عليه السلام. فلم يكن إلا صاحب الإمامة والخلافة الكبرى الذي تنطق بفضائله الآثار، وتصرخ بمكانته الحقائق، والذي واجه ظروفاً شائكة وأوضاعاً صعبة تجلّت عناية الرب وتسديده فيما ألهمه الله من حكمة استطاع بها أن يحمي نفسه ويحفظ وجود شيعته. وهكذا إذا تسلسلنا في البحث حتى غيبة الإمام الثاني عشر حجة الله القائم بأمره صاحب الزمان المهدي عجل الله فَرَجَه.

وقد حملني على هذا التلميح دواعي الاستجابة لروح الأخاء والمودة التي أراها عند الكثير من الأخوة الإسماعيلية، فآثرت أن ألمح بمجمل الإمارات الهامة في تاريخ الشيعة لأدخل منها إلى القول بأن الأخوة الإسماعيلية لم ينتبهوا إلى أصل وسبب الاختلاف والاضطراب الذي يحيط بالأحداث الأساسية التي تتعلق بتاريخهم. وذلك من حيث المواقع التي تجري عليها، والأشخاص والتفاصيل، ومن الطبيعي حدوث ذلك لأنها محاولات تبنى عبر عصور متلاحقة، وأقوال تنشأ في أزمان متعددة، والأصل أو الحقيقة تأباها.

ومع هذا النظام السرّي والقول الباطني، ارتكب الإسماعيليون خطأهم بأن أباحوا للمستشرقين التلاعب في آثارهم، واعتمدوا عليهم في التحقيق والإخراج، بحيث تجدهم يرون في أحكام المستشرقين على الآثار والنصوص الصحة ولا يتطرّق إليهم الشك، وما من مستشرق ـ إلا ما كان أندر من الكبريت الأحمر ـ إلا واتصل بسبب، والتقى بغاية مع حركة الاستشراق الاستعمارية الخبيثة، بل أقرّ الإسماعيلية لهم بالفضل حتى قالوا: وبفضل تلك الدراسات التاريخية الهامة التي قامت بها فئة من المستشرقين (الثقات) الضليعين في علوم الإسماعيلية، وعلى رأسهم أو بالأحرى في مقدمتهم العلامة والمستشرق الروسي الكبير البروفسور (ايفانوف) والبرفسور ماسينيون... والدكتور شتروطمان وسيوكوريان... والمستشرق الإنكليزي برنارد لويس[1].

---

(١) تاريخ الدعوة الإسماعيلية ص٢٢.

والغريب أن البعض منهم يرى في تأييد المستشرقين لآرائه حجة، كما فعل عارف تامر وهو يقول: قلت في أكثر من مكان بأني لا أفرّق بين الحركات الثلاث: الإسماعيلية والقرمطية والفاطمية، فكلها باعتقادي حركة واحدة نبعت من نبع واحد وانحدرت من أصل واحد، وقد يكون دي ساسي ودوزي وهامر وكاترمير وغويارد ويلوشه ودي خويه متّفقين معي بالرأي[1].

وفي الوقت الذي يعاني الشيعة من افتراءات المستشرقين ونتائج حملة الاستشراق اللعينة، وأخذهم بالأقوال التي تجافي الحقيقة، ويعمل كتّابهم وباحثوهم ومؤرخوهم على فضح حملة الاستشراق ومن انتسب إليها من الكتّاب العرب، يفسح الإسماعيلية الباب لهؤلاء، وكأن الغرض الإسهام في الإساءة إلى الشيعة ونشر دوائر الخلط بين مذهب الشيعة والفرق الأخرى التي يعزى إلى الشيعة معتقداتها، فيزداد تراكم الأخطاء، ويظفر الأعداء باعتراف وإقرار بما يقوله المستشرقون، ونحن ـ بكل جهد ومنذ عشرات السنين ـ لا نهدأ عن مواجهة المستشرقين وتلاميذهم في البلاد الإسلامية، ولم نحقق من النتائج إلا اليسير إذا ما نظرنا إلى أصقاع العالم التي تأخذ بأقوال المستشرقين وتلتفت إلى آراء المتعصّبين الذين نحروا الأخاء وضحّوا بالروابط. فبرنارد لويس ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ لا نتوقع منه أن يفهم التقيّة كما هي عند الشيعة لأمرين: **الأول**: بعده عن الإسلام. **والثاني**: تأثره بنصوص مؤرخي الحكّام والملوك، واعتباره أن كل ما يطلق عليهم شيعة هم متّفقون على هذه الآراء، فهو يقدم ملاحظات وآراء تشعر بالتمييز في مواضع، لكنه في قضية التقيّة أبعد ما يكون عن الصواب والإدراك[2].

وهكذا شأنه في بقية القضايا التاريخية فاسمع لقوله: (فلما توفي الإمام جعفر الصادق سنة ٧٦٥م انقسم أتباعه إلى فريقين حول أحد ابنيه، موسى وجعفر، وأيد حقه في الخلافة، واعترف أتباع الأول بالأئمة من نسله حتى الإمام الثاني عشر بعد علي بن أبي طالب عليه السلام) تجد خطأه في الشخصيات الناجم عن خطئه في فهم التاريخ الإسلامي[3].

---

(١) القرامطة ص٨٤ ـ ٨٥.

(٢) انظر الدعوة الإسماعيلية الجديدة (الحشيشية) لبرنارد لويس ص٣٩.

(٣) انظر: (برنارد لويس): العرب في التاريخ ص١٥٠.

فإذا أعدنا النظر إلى الظروف التي نشأت فيها حركات الغلو والتي بحثنا عواملها وكونها من المؤامرات على الشيعة، نجد برنارد لويس يتبنّى الرأي الذي حاوله الحكام وقاموا بترويجه بظهور الفرق وأنصاف الفرق بين جماعات كانت مذاهبهم متعددة ومزيجة، وأن النصف الأول من القرن الثامن كان فترة نشاط هائل بين الشيعة المتطرفين. ويقول: وكان التحول من طائفة أو رئيس إلى آخر سهلاً ومتكرراً. وتسمي المصادر الإسلامية الكثير من المبشرين الدينيين الذين كان بعضهم أشخاصاً من أصل وضيع قادوا ثورات ووصفوا للسيف، وتعزى لبعضهم عقائد أصبحت فيما بعد خاصة بالإسماعيلية(١).

ويشير إلى العراق لذات الغرض الذي توخّاه الطاعنون على الشيعة، ولكنّا نجده متفهّماً لظروف الدعوة الإسماعيلية ومعتقداتهم فيقول: ويمكن وصف الفترة الواقعة بين القرن الثامن الميلادي وأوائل القرن التاسع بأنها فترة استعداد، نظم خلالها إسماعيل وابنه محمد وعدد من الأتباع المخلصين بناء هذه الفرقة والدعوة لها، وتختلف تعاليمهم اختلافاً بيّناً عن تعاليم السنّة، كما أنها تضمّ كثيراً من الأفكار الأفلاطونية الحديثة والهندية، وقد تمكنوا من إدخال هذه الأفكار بقولهم بمبدأ التفسير الباطني الذي يجعل لكل آية معنيين: أحدهما ظاهر وحرفي، والآخر باطن لا يقف عليه إلا أهل العلم. وكانت التعاليم السرّية لهذه الفرقة تنشر على مراتب من التنشئة (. . . .) لا يرقى إلى أعلى مراتبها إلا من يتمّ تحوله إلى المذهب الإسماعيلي، وكان من شأن هذا التنظيم السرّي أن ساعد الإسماعيلية على البقاء والإزدهار على الرغم من يقظة شرطة العباسيين(٢).

وخلاصة القول، فإن الكتّاب الإسماعيليين يكشفون عن عناصر قيام معتقدات الفرقة الإسماعيلية، وننتهي إلى حقيقة أن الإمامة والافتراق عن خطها بعد سنين طويلة من موت إسماعيل وحقائق سيرة ابنه محمد هي المنفذ، فهم يقولون أن الفكرة الإسماعيلية ليست وليدة حادثة معينة أو تفكير استبدّ بشخص أو جماعة في أمر من الأمور، أو حال من الأحوال، بل هي امتداد أزلي لنظرة أزلية عاشت في دم الإنسانية

---

(١) الدعوة الإسماعيلية لبرنارد لويس ص٣٩.

(٢) العرب في التاريخ ص١٥٠ ـ ١٥١.

منذ بدء الخليقة. وستستمر في تجدّدها وتصاعدها نحو الأكمل ما دامت الخليقة وما دامت الحياة، ولربما استطاع المؤرخون أن ينسبوا ميلاد الحركات والعقائد إلى أحداث تاريخية معينة تسببت في خلقها وعملت على تطويرها وبلورتها، غير أن هذا المقياس لا ينطبق على الفكرة الإسماعيلية من حيث جوهرها الذي كان توأماً للحياة عينها[1] وقد صارت مع تطور الزمن بعد نشأتها حركة عقلية تدل على أصحاب مذاهب دينية مختلفة، وأحزاب سياسية واجتماعية متعددة، وآراء فلسفية وعلمية متنوعة[2].

ويعتبر الإسماعيليون أنفسهم من أنجب التلاميذ الذين درسوا الفلسفة اليونانية دراسة واقعية، وأخذوا عنها الأفكار والنظريات وطبّقوها وحوّروها في مجتمعهم، وليست جمهورية أفلاطون إلا أحد الكتب المفضلة القيمة التي درسوها بعناية وطبقوها بإمعان[3].

ويتّفق الإسماعيليون على أن عقيدتهم فلسفية. يقول مصطفى غالب: (إذا ما أردنا تعريف الإسماعيلية بإيجاز وتقديمها باختصار، ووصفها بمختلف الأوصاف، فلا نقول عنها إلاّ إنها العقيدة الفلسفية التي تتطور مع الزمن وتتكيف معه، أو بلغة أصحّ هي انطلاق الفكر الوثّاب في هذا العالم اللامتناهي، أو وثوب الروح نحو مثلها الأعلى). ويبين عارف تامر فضل البحوث والدراسات في التعرف على الدعوة الإسماعيلية ويقول: (وبعد ظهور هذه المصادر والمخطوطات، أصبحت الحركة الإسماعيلية معروفة بأنها رسالة فلسفية مستقلة، ودعوة سياسية أممية ذات أثر ظاهر بمجرى الحياة العامة، وفكرة عقائدية باطنية تخفي وراءها أهدافاً ومقاصد لا يزال الفكر يسعى لجلاء غوامضها وسبر أغوارها) اهـ.

وقد وجدت هذه المقاصد والأفكار (الوثابة) في قضية موت إسماعيل، وتطلّع ابنه محمد متنفّساً وثغرة، فصاغ أصحابها والداعون إليها معتقدات الإسماعيلية بالمضمون والمنطق الفلسفيين، وكانت تقوم ولا شك على الفلسفة اليونانية حتى كانت خير وعاء لها، واستطاع الداعون إلى هذه الفلسفة من إدخالها في العقائد

---

(١) أعلام الإسماعيلية ص١٣.

(٢) تاريخ الدعوة الإسماعيلية ص١٤.

(٣) القرامطة لعارف تامر ص٦٤.

والتنظيم والسلوك، فكانت الكواكب والأجرام والنفس والعقل والحركة والثبات والاختيار والفعل والأرض والبحار والبساتين والأزهار والبشر والحيوان وغيرها تربط بها الإسماء وتوصل بها.

وكانت مسألة الباطن والظاهر أعمق من الأوصاف التي عرفوا بها. لأن الباطنية والتخفّي من ألزم الحالات لمثل هذه الدعوات التي تنتمي إلى أمم أخرى ومذاهب ومعتقدات قديمة، إذ لا يمكنها الظهور ولا الإفصاح، فالباطن هو الحال الذي لا يمكنها غيره، ومن هذه الباطنية امتدت الصفات التي تستمدّ من القول بالإمام الظاهر والإمام الباطن، وبالمعنى الظاهر والمعنى الباطن، فإنهم ادّعوا أن لظواهر القرآن والأخبار بواطن تجري مجرى اللب من القشر، وإنها توهم الأغبياء صوراً، وتفهم الفطناء رموزاً وإشارات إلى حقائق خفية. وأن من تقاعد عن العرض على الخفايا والبواطن متعثر، ومن ارتضى إلى علم الباطن انحط عنه التكلف، واستراح من أعبائه، واستشهدوا بقوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ قالوا: والجهال بذلك هم المرادون بقوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ﴾(١).

يقولون في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أنه القيام من النوم، ومثل النوم مثل الغفلة. والمستجيب ـ أول رتبة يصل إليها المنتسب إليهم ـ طول ما كان فيه قبل استجابته في غفلة من أمر الله وأمر أوليائه بمنزلة النائم في الظاهر، فإذا انتبه بكسر كاسر (الكاسر من يتفقه بالدعوة ويصل إلى مدخل الفلسفة) كسر عليه، أو بمنبه له من قبل نفسه كما قد يتنبه النائم كذلك من ذات نفسه، وقد يوقظه عن نومه غيره. وأراد الصلاة قصد إلى بيت الخلاء، وقد ذكروا أن مثله مثل الدعوة التي فيها يتخلى من كل كفر وشرك ونفاق وخطيّة كما يتخلى في بيت الخلاء من أمثال ذلك من النجاسات والأقذار، يتخلى من ذلك في الظاهر من أراد الطهارة في الظاهر، وفي الباطن من أراد الطهارة الباطنة بالتبري من جميع ذلك، ثم يقبل على استماع العلم والحكمة اللذين مثلهما في الظاهر مثل الماء الذي منه أصل الحياة الظاهرة، كما أن من العلم أصل الحياة الباطنة الدائمة للأرواح(٢).

ويُدخلون الإمامة في سياق معتقداتهم، فبعد أن يذكروا أن القلب أول متكوّن من الجنين، ككون الشمس أول ما تكون من الفلك، والناطق أول ما ظهر في عالم

---

(١) المنتظم ج٥ ص١١١.

(٢) تربية المؤمنين من كتاب تأويل دعائم الإسلام للقاضي النعمان بن محمد ص٥٥.

بين، وهذه النفس النامية لا توجد إلا بوجود موضوعها الذي هو جسمها، فبوجوده وجودها وبعدمه عدمها. . . يقولون ثم إنه كان إلى الأئمة الأطهار الذين هم حجب الإبداع على مرّ الأعمار، وإلى باب كل واحد منهم حجة وداعيه، وما دونه حججه الاثنا عشر ـ عدد المراتب في الدعوة الإسماعيلية ـ الذين لا يفارقون إقامة الدعوة الباطنة. وإلى الأبواب الظاهرة والحجج والدعاة والمأذونين إقامة الدعوة الظاهرة، فحدود الظاهر يستخرجون الأنفس من عالم الطبيعة ويهذّبونها أولاً بالرياضة والشريعة، وينقلونها إلى المعارف الحكيمة، ويصوّرونها بالصور العلمية لكون الأئمة المستقرّين هم الذين أقاموهم وأحلّوهم في منازلهم على قدر الاستحقاق ورتّبوهم، فكان أول قائم بالدعوة في دور الستر آدم، وتبعه نوح، وقام إبراهيم الخليل عليه السلام واجتمع عنده أهل المستقر، فكان لها كالشمس وهي له كالقمر، لأن هيكله من جملة الهياكل النورانية. . . .[1].

وعندهم آدم الجزئي وآدم الكلي، والفرق بين آدم الكلي وآدم الجزئي هو أول دور الستر، وآدم الكلي هو صاحب الجثة الإبداعية، لأنه أول الكل، وإليه انتهاء الكل في الابتداء، وآدم دور الستر جزئي بالنسبة إليه. وآدم الجسماني يقع على كل ناطق من نطقاء دور الستر، وضده إبليس الجسماني في دور كل ناطق. ويقول صاحب النص: (فاعلم ذلك وإبليس ناطقنا صلوات الله عليه هو (. . . .كتابة سرية رمزية. . . .) لعنه الله، فاعلم ذلك، ولذلك قال رسول الله ﷺ «قُرنَ بكل نبي شيطان، وقُرِن بي شيطانان» يعني أبا جهل وأبا لهب (كتابة سرية) لأنهما كانا معاديين له ولمقيمه في أول دوره)[2].

وهم يبقون عمل النبوة في أئمتهم لا على أساس النيابة وبقاء الدعوة إلى الشريعة ودوام الهداية إلى الرسالة، فيقولون: (إن الإمام رسول إلى الخلق بأمر الله تعالى ونص رسوله من قبل الوحي والإمام الثاني كذلك من قبل الإمام الأول، الأول بأمر الوصي، والنبي بأمر من الله عز وجل، وهلمّ جرّا من واحد إلى واحد إلى يوم القيامة، يصح ذلك ويثبته قوله سبحانه لنبيه (ع.م): ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ

---

(١) الذخيرة في الحقيقة للداعي الفاطمي اليماني علي بن الوليد ص١٠٢ ـ ١٠٤.

(٢) مسائل مجموعة من الحقائق العالية والدقائق والأسرار السامية التي لا يجوز الاطلاع عليها إلا بإذن من العقد والحل ص١٢٩ ـ ١٣٤ تحقيق د. شتروطمان.

﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ عنى ههنا بالمؤمنين: الوصي والأئمة من ولده وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ فقوله في هذه الآية «والمؤمنون» عنى به الأئمة الطاهرين من ذرية الرسول أولاد الوصي والبتول عليهم السلام فلفظ «المؤمنون» ههنا عام ومعناه خاص، فلو لم يكن ذلك لم يُدْرَ مَن المأمور بالعمل ومن الذي يراه، وكذلك جميع الحدود الذين هم دون الإمام: الباب والحجة إلى المكاسر، كل واحد منهم رسول إلى من دونهم بنص من هو فوقه، بأمر متسلسل إلى الله سبحانه)(١).

ومن الواضح اختلاف المضمون عند الشيعة في أمر الوصاية والنص عنه في هذا السياق، فهو تشبّه بهم، ولكنه يفترق عنه من حيث تقييد الإمامة بحدود الولاية والنيابة عن صاحب الرسالة والمبعوث بالنبوة، فالإمامة عند الشيعة امتداد لأمر الدعوة ومداومة على الأحكام والعمل بالأصول. أما الإسماعيليون فقد أوقعهم الغلو في الادعاء بأن محمد بن إسماعيل مشهود له بالرسالة في الأذان عند قوله: أشهد أن محمداً رسول الله، لأن شهادته لنفسه غير جائزة، وإنما كانت شهادته لمحمد بن إسماعيل(٢).

كذلك فإن الغلو نال من جوهر العقيدة بالصفة الروحية للأئمة التي يعتقدها الشيعة في الأئمة المعصومين لكي يكون الدين كاملاً ويناط أمر الشريعة بإمام له من صفات صاحب الرسالة ما يعصمه، فقد قال الإسماعيلية: إن النبي ﷺ نقل إلى الإمام علي بعض علومه الإلٰهية مباشرة ليتوارثها الأئمة من نسله بعده، وهي علوم تتمثل على الخصوص في تفسير القرآن أو ما عرف بالتأويل أو المعنى الباطن، إذ لكل تنزيل تأويل، وكل كتب الإسماعيلية تشير إلى ذلك. كما ردّوا كل الأحاديث النبوية إلى أئمتهم وهي المعروفة بالأخبار، وقد جعلهم ذلك يثبتون لأئمتهم صفة إلٰهية(٣). وهو ما يبرء منه الشيعة، وقد اتخذ أعداؤهم ذلك ذريعة للطعن، وأنكروا كل حقائق التنزيه ودلالات النقاء والسمو في عقيدة الشيعة.

---

(١) كتاب الأزهار ومجمع الأنوار للداعي إبن آدم الهندي البهروجي ص١٨٤/ منتخبات إسماعيلية تحقيق د. عادل العوّا.

(٢) الأنوار اللطيفة في فلسفة المبدأ والمعاد للداعي طاهر بن إبراهيم الحارثي ص١٦١ الباب الخامس من السرادقة الرابع الفصل الثاني. والمسائل المجموعة من الحقائق ص٩٩.

(٣) الحاكم بأمر الله ص١٣ ـ ١٤.

وقد بيّن الأئمة ـ أنفسهم ـ منازلهم الدينية ومراتبهم، ووضحوا معالم الإمامة وصفات صاحب الأمر الشرعي، ولم يدع أحد منهم صفة إلهية.

ولا ننكر أن الحركة الإسماعيلية قد اتسمت بأساليب تنظيمية وبهياكل سرية ومناهج دعائية تدل على إدراك عميق لنفسيات شعوب الشرق الأدنى، وعلى فهم دقيق لمصادر التذمّر، ولا يبعد عن الواقع من يقول أن للإسماعيلية سحراً خاصاً وجاذبية قوية كانت تهفو بنفوس فريق من الناس وتستميلهم، وتستأثر بأهوائهم، وتبلغ منهم مبلغاً يدفعهم إلى المخاطرة والمجازفة والإتيان بغرائب الأعمال، وقبول الطاعة العمياء والاستسلام المطلق، وأن في الكتمان والسرية والخفاء والغموض ما يستهوي الخيال ويرغب النفوس ويطلق الأوهام والأحلام، وكلما كان السرّ أدق وأخفى، أو كان اللغز أعوص وأغمض كان سحر الخفاء أشدّ جاذبية وأقوى إطلاقاً للخيال. وما زال الإنسان منذ أقدم العصور مولعاً بالغرائب والعجائب، محبّاً لاستطلاع الأسرار وكشف المخبآت واستجلاء الغوامض المحجوبة والأسرار المنيعة[(١)]. وجميع ذلك من مقتضيات الأفكار الفلسفية والعقائد الغامضة التي عبّرت عن نفسها بالحركة، وليست من التقية في شيء. فما أوضح الاختلاف، وما أجلى الفرق بين الاثنين؟

ويصرّح الكتّاب الإسماعيليون بأن حركتهم كان لها القدح المُعَلّى في مضمار التنظيمات من حيث الدقة، وإنهم برعوا براعة لا توصف في تنظيم أجهزة الدعاية على قلة الوسائل في ذلك العصر، واستطاعوا أن يشرفوا بسرعة فائقة على أقاصي بقاع المسلمين، ويتنسّمون أخبار إقناعهم. فقد كان الإمام الإسماعيلي ـ والذي يعتبر رئيساً للدعوة ـ يعتبر الدعاة عصباً مهماً للدعوة، فينتخب الدعاة من ذوي المواهب. ووفقت الحركة الإسماعيلية بين جهاز الدعاية الذي نظمته وبين نظام الفلك ودورته، فجعلوا العالم ـ الذي كان معروفاً في عصرهم ـ مثل السنة الزمنية. فالسنة مقسمة إلى اثني عشر شهراً، فقسموا العالم إلى اثني عشر قسماً، وسمّوا كل قسم جزيرة، وجعلوا على كل جزيرة داعياً، وقالوا: إن الدعوة لا تستقيم إلا باثني عشر داعياً يتولّون إدارتها، يقابلهم في عالم الفلك الواحد إثنا عشر برجاً، يطابقها في جسد الإنسان إثنا عشر نقيباً، يقابلها في عالم الحجب إثنا عشر حجاباً. وهكذا إلى بقية تنظيماتهم،

---

(١) القرامطة ص٧٨.

والتي تحتاج إلى بيان يفضي بنا إلى الإطالة والخروج عن القصد، وقد أغفلنا الكثير من جوانب الموضوع خشية ذلك. ولم نذكر إلا ما كان إغفاله يخلّ بالغرض.

لقد شقّت الدعوة الإسماعيلية طريقها في المجتمع الإسلامي لعوامل متعددة ولجهازها السري والدعائي، فتضافرت المواهب التي تنتمي إلى مختلف الجماعات والأفكار على دراسة الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، واشترط على الداعي أن يكون ملمّاً بذلك، ليسهل عليه الدخول بين طبقات المجتمع الذي يوجّه إليه. فهو مزوّد بمعلومات عن اختلاف الناس في الدين والمذهب والعقلية، ويخاطب في دعوته كل جماعة بما يروقها ليجذبها إلى صفوف الحركة، مع التأكيد على التكتّم والتخفّي والسرّية، وكان أتباع كل مرتبة منهم لا يعرفون أسرار المرتبة الأخرى. أما التقوى فهي أن يلزم الداعي الخير ويعمل به ويتجنّب الشرّ ويحذره[1].

وحقيقة الحركة أنها أممية، لم تكن حركة قومية عنصرية، كما أنها لا ترتبط مع الشيعة الإمامية إلا بالتسميات الشكلية، فكل مبدأ لدى الإمامية يتحول لديهم بما ينسجم مع معتقداتهم. والحركة الإسماعيلية استغلّت تذمّر الناس مما ارتكبه حكام تلك العهود من جرائم ومن سوء السيرة والاستبداد، ولم تظهر أمام انحراف الحكام وظلمهم دعوة تردعهم، أو حركة تثور بهم إلا من قبل شيعة أهل البيت وبزعامتهم، فالإسماعيلية تنخرط في إعلان المعارضة وتوجيه السخط الاجتماعي والديني في البلاد الإسلامية والمطالبة بحق العلويين الشرعي في الحكم مع الاحتفاظ بالأهداف السرّية، والتنظيمات الخفية التي تخلو منها ثورات العلويين، والتي تتميز بوضوح أهدافها واشتهار رجالها بالعلم والدين والدعاية الجلية.

وكان نهج الشيعة الإمامية الزاهر وسبيلها الراشد ينأيان عن الطرق الباطنية وأساليبها السرّية ووسائلها العنيفة، فكانت عقائد الإمامية تحكم تصرفات من آمن بها والتزم، ولم يتردّد علماء الإمامية في شجب وإدانة ما يتجافى مع روح الإسلام ويخشى نور عقيدته ووضوح أهدافه، وينزوي في السرّية والباطن، وقاموا بدورهم الديني فشملهم الباطنية بأعمال القتل، فراح الكثير منهم ضحايا وشهداء.

وكان التشيّع قد انتشر في بلاد المغرب على يد الإمام إدريس بن عبد الله بن

---

(١) القاضي أبو حنيفة النعمان المغربي: الهمة في إتباع آداب الأئمة ص٥٥.

الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام الذي فرّ من أيدي العباسيين بعد موقعة فخ في عهد الخليفة الهادي سنة ١٦٩هـ. وأقام الأدارسة في المغرب الأقصى دولة شيعية سنة ١٧٢هـ التفّ حولها البربر، ومن ثم أصبحت بلاد المغرب أرضاً صالحة للدعوة الإسماعيلية، وكان ذلك مما سهّل على كل من الداعيين: أبي سفيان والحلواني عملهما، فلما ذهب أبو عبد اللّه الشيعي إلى المغرب في أوائل سنة ١٨٠هـ وجد الأمور ممهدة له، كما وجد التشيّع قد دخل في عقول البربر، واعتنقه كثير من وزراء الأغالبة[1]. وكان من الحنكة السياسية بحيث استطاع أن يفهم الزعماء المحليين أن الخلاف بينهم هو السبب في ضعفهم، وأن الاتحاد تحت لواء التشيّع سيكون لهم القوة، فمهّد الداعي لمجيء مولاه المهدي عبيداللّه بانتصارات ومكاسب، فدفع قبيلة كتامة إلى مهاجمة دولة الأغالبة ومهاجمة دولة الرستميني في تاهرت بعد ذلك، وهكذا قامت دولة إسلامية شيعية جديدة، ودخل المهدي القيروان فاتحاً[2].

لقد اجتذبت الدعوة الإسماعيلية إلى صفوفها جماعة من المفكرين، كما نسبوا إليهم جمعية إخوان الصفا. لأن حركة الإسماعيلية قامت على أسس سياسية ثورية عنيفة ومتطرفة مازجت الأفكار والعقائد الفلسفية التي حددت المنحى وصاغت النظرة التي يتّصفون بها، ولذلك كان يطلق على كل متفلسف بأنه إسماعيلي ولو في فترة محدودة اشتهر بها وضع الإسماعيلية وأخبار حركتهم الخيالية التي تجمع بين الأفكار الفلسفية وبين الأعمال الانتحارية التي تقرب من الأساطير، والأساليب التي تعتمد على المنحى الخيالي والدعائي الذي لا يهتم بنوعية الأسلوب.

واقترب الإسماعيلية من الطريقة الشيعية في تبنّي ظلامات الناس والدفاع عن المحرومين والبائسين، ولرتبطوا بالحركة الشيعية بمفهومها العام، فيما كان قادتهم يختارون الأشخاص للإيغال به في عالمهم الخفي. كذلك ارتبط الإسماعيلية بالشيعة من خلال الشعار الذي يقضّ مضاجع الجبابرة بالنّصفة لآل محمد والرضا منهم والانتقام لهم، ولكن كان الأمر بمفهومهم الخاص لا بالمفهوم الشيعي الواضح والصريح الذي تهفو له الأفئدة وتندفع في ظله النفوس إلى الموت والشهادة إرضاء لله

(١) مصر في عصر الدولة الفاطمية: محمد جمال الدين السرور.

(٢) الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي لألفريد بل ص١٥٨.

وانتقاماً للنبي وآله الطيبين. فكان الإسماعيلية مع الشيعة في مواطنهم في الكوفة وبقية مناطق العراق، واستغل الدعاة الإسماعيليون اضطهاد الشيعة وجور الولاة، واتصلوا بهم. كذلك كانت دعوتهم في اليمن[1] وانضمّت إليها بتحدّي الخلافة العباسية. وقد ظهرت الحركة الإسماعيلية على مسرح الأحداث السياسية متسلحة بسلاح العقيدة بعد أن بسطت دعوتها في أرجاء البلاد الشاسعة، وحاولت أن تزيل الخلافة العباسية وتقيم على أنقاضها دولة إسماعيلية، ولأن دعوتها لم تنجح في بغداد، فقد سرت في كثير من بقاع الأمة العربية غربي العراق لتجعل من العرب من الجزيرة وجنوب سوريا قوام دولتها ولب حضارتها وحملة لواء دعوتها، ثم تتولى الدفاع عن الأرض العربية ضد الغزوات الصليبية، في الوقت الذي انحدرت فيه خلافة بغداد، إلى فرض الصراع السياسي والخضوع للغزاة الأجانب تاركة عبء الدفاع عن بلاد العرب لسيوف المصريين والسوريين بقيادة الدولة الفاطمية[2] والتي كانت في عقائدها حريصة على المظهر الذي يجعلها قريبة من عقائد الشيعة، وتعمل على إخفاء المضامين الفلسفية والمعتقدات الغريبة التي لحقت بالفرقة الإسماعيلية.

الدولة الفاطمية:

قويت الدعوة الإسماعيلية تحت ظل ملوك مصر الفاطميين ولا بأس بالإشارة إلى تاريخ هذه الدولة بموجز من القول، فإني لا أحاول بهذه العجالة إعطاء صورة عن الدولة الفاطمية، فهي دولة إسلامية خدمت الإسلام، وتركت آثاراً تشهد للفاطميين. والتاريخ سجّل لهم صحائف بيضاء. ولكن الأقلام الملوثة بأوساخ الطائفية وأدران التعصب أقامت الحواجز.

كان أول ظهورها بالمغرب سنة ٢٩٧هـ/ ٩٠٩م ولم يرضَ خلفاؤها بالبقاء في المغرب، بل حملهم الطموح وساقهم إلى إخضاع ما جاور المغرب من البلاد، ففتحوا مصر سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م ونقلوا قاعدة حكمهم إليها، وقد دامت دولتهم زهاء قرنين من سنة ٣٥٨هـ/ ٥٦٧هـ (٩٦٩ ـ ١١٧١م).

وأنشأوا مدينة ملكية لتكون مقرّ سكناهم وبلاطهم، وهذه المدينة هي مدينة

---

(١) رسالة افتتاح الدعوة للقاضي النعمان بن محمد ص٣٣.

(٢) الإسماعيليون والدولة الإسماعيلية لبيساف ميشيل لباد ص١١ ط الاتحاد.

القاهرة[1] ـ المدينة الخاصة التي كانت تحيط بها أسوار ضخمة ـ فأصبح في مصر لأول مرة بلاط خلفاء ينافس بلاط خلفاء بني العباس. وفي عهدهم انفصلت مصر عن الإمبراطورية العباسية، وأصبحوا أشدّ أعداء تلك الدولة، واتخذت الدولة العباسية أساليب الدعاية ضدّهم، فقد طعنوا في نسبهم، وأطلقوا عليهم بدل لفظ الفاطميين ـ العبيديين ـ باسم الخليفة عبيد الله المهدي، أول خليفة فاطمي، وهو الذي أسس الدولة الفاطمية في المغرب، وشككوا في صحة نسب عبيد الله، فأطلق عليهم أعداؤهم هذه التسمية للقضاء على نسبتهم لفاطمة الزهراء عليها السلام وسيأتي ذكر ذلك.

كما أن بعض مؤرخي العرب سلب عنهم هذه التسمية، وسمّاهم الخلفاء المصريون، ومنهم من سمّاهم بالرافضة، ومن خصومهم من سمّاهم (المجوس) على اسم أتباع زرادشت الذين كانوا في فارس حتى ظهور الإسلام. وسمّوهم أيضاً الباطنيين.

وأياً كانت التسمية والألفاظ، فقد بسطوا سلطانهم، ودام ملكهم مدة من الزمن. فقد تأسست الدولة سنة ٢٩٧هـ/ ٩٠٩م في المغرب، وانتقلت إلى مصر سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م وسقطت سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م.

وكان عدد خلفاء مصر (١١) خليفة هم:

١ ـ المعز أبو تميم معد ٣٤١هـ ٩٥٢م.

٢ ـ العزيز أبو المنصور نزار ٣٦٥هـ ٩٧٥م.

٣ ـ الحاكم أبو علي المنصور ٣٨٦هـ ٩٩٦م.

٤ ـ الظاهر أبو الحسن علي ٤١١هـ ١٠٢٠م.

٥ ـ المستنصر أبو تميم معد ٤٣٧هـ ١٠٤٥م.

٦ ـ المستعلي أبو القاسم أحمد ٤٨٧هـ ١٠٩٤م.

٧ ـ الآمر أبو علي المنصور ٤٩٥هـ ١١٠١م.

٨ ـ الحافظ أبو ميمونة عبد المجيد ٥٤١هـ ١١٤٦م.

٩ ـ الظافر أبو منصور إسماعيل ٥٤٤هـ ١١٤٩م.

١٠ ـ الفائز أبو القاسم عيسى ٥٤٩هـ ١١٥٤م.

---

(١) الدكتور عبد المنعم ماجد، نظم الفاطميين ورسومهم ج٢/ ٩.

١١ ـ العاضد أبو محمد عبد الله ٥٥٥هـ ١١٦٠م.

وأبرز شخصية في الدولة الفاطمية اشتهرت في التاريخ هي شخصية الحاكم، حتى غلا فيه محبّوه. وسنشير لذلك.

وكانت الإسماعيلية وحدة لا تنفصم تحت زعامة الفاطميين، وكانت الدولة الفاطمية وقتئذ تسمى (الدعوة القديمة) وبموت الخليفة المستنصر الفاطمي حصل ذلك الانشقاق على (الدعوة القديمة) وانتهى المنشقّون إلى نزار بن المستنصر، وقالوا إن أباه عيّنه في الإمامة والخلافة من بعده، واستطاع زعيم هذه الدعوة (الحسن الصباح) أن يكوّن دولة نزارية لها كيانها الخاص في فارس، وأن ينشىء دعوة عرفت في التاريخ (بالدعوة الجديدة) وعرف أنصارها بالإسماعيلية النزارية أو (الإسماعيلية الحشيشية) وأخذت دولتهم تغالب الدهر منذ سنة ٤٨٨هـ حتى سقطت في سنة ٦٥٤هـ على يد هولاكو المغولي، ولم تمت الدعوة النزارية بموت دولتها، وظل أنصارها يعملون في الخفاء حتى بُعثوا اليوم باسم (الآغاخانية) اتباع آغاخان، وهؤلاء هم النزارية المحدّثون.

وأما أنصار الدعوة القديمة، فأولوا دعوتهم للمستعلي الابن الأصغر للمستنصر، وسمّوا المستعلية، ولمّا مات الخليفة الآمر، وولي الخليفة الحافظ اعترف إسماعيلية مصر له بالرياسة، فسمّيت دعوتهم الدعوة الحافظية، واعترف إسماعيلية اليمن بالطيّب فسمّوا الطيبية.

لقد كان من أكثر الأحداث تأثيراً في إضعاف الدولة الفاطمية توالي الانقسامات المذهبية السياسية، وتعرّض الدولة إلى هزّات قوية، فقد كانت الاختلافات حول القائم بالحكم والبيعة له سبباً في تمزيق رعيتهم وتشتيت أتباعهم، فعند وفاة المستنصر ـ كما قلنا ـ فإن نزاراً ـ الابن الأكبر ـ كانت له ولاية العهد، وقد أجلسه أبوه في حياته، فلما مرض المنصور أراد أخذ البيعة له، لكن الوزير القائم بالحكم الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمّال كان يكره أن يكون الحكم لنزار لعداوة كانت بينهما بسبب أن نزار قال للأفضل يوماً: إنزل يا أرمني يا نجس[١]. وكان نزار قد وعد محمود بن وصال اللكي بالوزارة والتقدمة على الجيوش مكان الأفضل.

---

(١) النجوم الزاهرة ج٥ ص١٤٢.

وكان الأفضل هو الذي بادر بإخراج أبي القاسم ومبايعته ونعته بالمستعلي وقال: بأن النص والوصية للابن الأصغر، وبادر وخرج من وقته وأخذ معه أخاه عبد الله، وتوجهوا إلى الاسكندرية، ولا نخوض في تفاصيل النزاع لأن ذلك ليس مقصدنا، وقد انتهى النزاع بهزيمة نزار، وانقسام الإسماعيلية منذ ذلك الحين إلى:

١ ـ الإسماعيلية النزارية.

٢ ـ الإسماعيلية المستعلية.

ولاقت الدولة الفاطمية بعد هذا الانقسام الأمرّين من معارضة النزارية ومقاومتهم(١).

وحدث انقسام آخر بعد وفاة الآمر، فقد خولفت أصول المذهب، وولي الخلافة ابن عم الآمر، وحدث ذلك لأول مرة، وليس لذلك من سبب، لأن الآمر قد ولد له قبيل وفاته ابن اسمه الطيب، فأخذت له البيعة بولاية العهد، ولكن الحافظ قد استقرت له الأمور بعد أن ضعفت قوته لما أبداه وزيره أحمد بن الأفضل من رغبته في الاستقلال والدعوة إلى نفسه.

والغرض أن الحافظ في ولايته الخلافة، وظهور مخالفة أصول المذهب كان يمثل جماعة تخالف أغلبية الفاطميين الذين يرعون الحكم، فقد كان الحافظ محبوساً في حياة الآمر. وأدى ذلك إلى انقسام جديد كان من عوامل إضعاف الدولة. وأصبحت الإسماعيلية منقسمة إلى:

١ ـ إسماعيلية حافظية.

٢ ـ إسماعيلية طيبية.

وتعرّضت الدولة إلى خلافات ومنافسات في عهد الحافظ بسبب الولاية على العهد، فقد عهد الحافظ أولاً لابنه الأكبر سليمان، ولكنه مات بعد قليل، فعهد لابنه الثاني حيدرة، مما آثار حقد ابنه الثالث واسمه حسن، فقام بثورة عنيفة انقسم بسببها الجيش الفاطمي إلى فريقين يحارب كل منهما الآخر، مما أدى إلى إضعاف الجيش في مجموعه(٢).

---

(١) مجموعة الوثائق الفاطمية، جمال الدين الشيّال/ ٢١.

(٢) نفس المصدر/ ٢٢.

وحدث في السنة التالية لوفاة الآمر فترة من أهم فترات التاريخ الفاطمي، ودامت لمدة سنة. فقد ولي الحافظ ـ وهو ابن عم الآمر ـ غداة وفاة الآمر كولي للعهد وكفيل لطفل منتظر، ثم ثار به أبو علي أحمد بن الأفضل شاهنشاه، وخلعه في اليوم التالي وسجنه واستقل هو بالحكم.

وهذا الذي فعله الوزير أحمد يُعَدّ انقلاباً سياسياً تام الأركان، وأوشك بفعلته هذه أن يقضي نهائياً على الدولة الفاطمية، فقد كان أبو علي الحامي المذهب، ولهذا فقد عمل على إلغاء كثير من الشعائر الإسماعيلية. ويروي صاحب النجوم الزاهرة بأنه أظهر التمسّك بالإمام المنتظر في آخر الزمان، فجعل الدعاء في الخطبة له، ويغلط بشكل شنيع في مذهبه لأن ابن تغري يروي على المنقول والموروث من أن الشيعة هم كل من حمل الاسم، فلذلك لا يرى في انقلاب الوزير ومخالفته إلا مضادة تامة ومخالفة كاملة تضع الوزير في الصف المعادي.

وكاد أبو علي أحمد أن يقضي على الدولة الفاطمية، وأن يقيم في مصر دولة جديدة، لكن أمراء الإسماعيلية وقوّادهم ثاروا عليه، وتمكنوا من قتله وإعادة الحافظ.

ولهذا اعتبر الإسماعيلية اليوم الذي أطلق فيه سراح الحافظ وإعادته إلى الحكم عيداً من أعيادهم الهامة وأسموه (عيد النصر)[1] وظلوا يحتفلون به إلى آخر أيام دولتهم لأنهم اعتبروه نصراً للمذهب الإسماعيلي وللدولة الفاطمية وإحياءً لهما بعد أن حاول الوزير أحمد تغييرهما.

وقد أنجبت زوجة الآمر بعد وفاته ولداً آخر غير الطيب، ولكنها أخفته في القرافة خوفاً عليه من الحافظ الطامع في الخلافة.

ولمّا عاد الحافظ للحكم، ظل دائب البحث عن الطفل المختفي، إلى أن عثر عليه، وتخلص منه، وأعلن نفسه خليفة[2].

و(البوهرة) اليوم هم الإسماعيلية المستعلية، يعتقدون أن إمامهم الحادي

(١) يقول المقريزي في الخطط: عيد النصر هو السادس عشر من المحرم، عمله الخليفة الحافظ لدين الله لأنه اليوم الذي ظهر فيه من محبسه، ويفعل فيه ما يفعل في الأعياد الأخرى من الخطبة والصلاة والزينة والتوسعة في النفقة ج١ ص٤٩٠.

(٢) مجموعة الوثائق الفاطمية/ ٢٤.

والعشرين (الطيب) ابن الآمر المستعلي قد استتر، وبدأ سلسلة الدعاة المطلقين، وقد ظهر منهم ثلاثة وعشرون في اليمن، ثم ثلاثة وعشرون في الهند. ويعتقدون أن الأيوبيين لم يتسلموا الحكم من الورثة الحقيقيين، بل من الخلفاء المزيّفين، لأن الحافظ وأولاده يُعَدّون غاصبين(١).

وعلى أي حال فإن أهم شخصية برزت في التاريخ الإسلامي للطائفة الإسماعيلية هي شخصية الحاكم بأمر الله، ودارت حول تلك الشخصية أقوال وأساطير، فلنقتصر على ذكره منهم.

الحاكم بأمر الله:

هو المنصور بن نزار العزيز باللّه، ولد بالقاهرة ليلة الخميس ٢٣ من شهر ربيع الأول ٣٣٥هـ ٩٨٥م. كنيته أبو علي، ولقبه الحاكم بأمر الله، وهو أول خليفة من الفاطميين، ولد في القاهرة.

ولي الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٣٨٦هـ في شهر رمضان، وكان له من العمر إحدى عشرة سنة ونصف.

وقام بالوصاية عليه برجوان الصقليّ، وكان يطمع بالاستئثار بالسلطة، وشعر الحاكم بخطر برجوان وما يقصده، فعمل على التخلّص منه، فاحتال على قتله سنة ٣٥٠هـ وبذلك استعاد الحاكم سلطته، وقلّد الحسين بن جوهر أمور الدولة، ولقّبه بقائد القواد.

واتصف الحاكم بصفات النبل والشهامة والأخلاق الفاضلة، ومثّلوه بعمر بن عبد العزيز بعدله.

وكانت تقوى الحاكم البالغة قد جعلت أتباعه يبالغون في تقديرهم لشخصيته، فظهرت أقوال كثيرة بين أتباع المذهب الإسماعيلي تبيّن أن الحاكم ليس بإمام مثل الأئمة، وإنما بشّرت به الأنبياء، وأشير إليه بالرمز في التوراة على أنه الزاهد الراكب الحمار ليأتي بهذه الأعمال الباهرة(٢).

(١) الحقائق الخفية لمحمد حسن الأعظمي ١٨.

(٢) عبد المنعم ماجد، الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه ١٠٦.

ولقد كانت خلقة الحاكم بأمر الله تساعده كذلك، توحي بأنه شخص متميز عن الآخرين، وتؤكد لديه هذا الإحساس. فلقد وصفته الروايات المعاصرة له فقالت: (كان منظره مثل الأسد، وعيناه واسعة شُهل - (يخالط سواد عينيه زرقة) وإذا نظر إلى الإنسان يرتعد لعظم هيبته، وكان صوته جهر مخوف، فإذا أشرف عليهم، سقطوا على الأرض وجلاً منه، وفحموا عن خطابه)(١).

وزاد الطين بلّة أن الغلو في ذات الحاكم وصل إلى حد التأليه، وأن الغلو جاء من بعض المقرّبين إليه، بحيث انفرط عقد مبادىء المذهب، واختلطت عقائده.

ويعبّر أحد الدعاة عن هذه الحالة في زمن الحاكم بقوله: (فغلا فيه صلى الله عليه من غلا، وسفل بذلك من حيث ظن أنه علا، ووقع في أهل الدعوة والمملكة في الاختباط، وكثر الزيغ والاختلاط)(٢).

ولعل المتدخلين في صفوف المسلمين - والذين يسعون بكل جهد لمحو العقيدة الإسلامية - قد استغلوا هذا الشعور وغلوّ الاتباع في شخصية الحاكم، فنفثوا السموم في جسم ذلك المجتمع المتماسك في عقيدته بالوحدانية والنبوة، فراحوا يبثّون تأليه الحاكم ونفي التوحيد والنبوة.

ومن أولئك: الفرغاني المعروف بالأخرم، رجل من بلاد فارس، تسمّى بالحسن بن حيدرة، وهو رجل أجدع الأنف أو مثقوبه، فعرف بالأجدع، وكان ظهور دعوته سنة ٤٠٩هـ ١٠١٨م على خلاف في ذلك.

قام الأخرم بنشر الإلحاد، وقال أن المعبود هو الحاكم، ودعى لإبطال النبوة، فأسقط اسم الله واسم النبي ﷺ واعتبر التنزيل والتأويل والتشريع خرافات وقشوراً.

ودخل في خمسين رجلاً من أعوانه إلى الجامع الذي كان فيه قاضي القضاة ابن أبي العوام، فدخلوا فيه راكبين، وأخذوا أموال الناس وثيابهم، وسلّموا لابن أبي الهوام رقعة ليقرأها الناس، وقد بدأ باسم الحاكم الرحمن الرحيم، فرفع القاضي صوته منكراً، وهجم الناس على الأخرم وقتلوا أصحابه، أما هو فقد هرب (وقيل قتل) وإنه

---

(١) محمد عمارة: عندما أصبحت مصر عربية ص٩٧ نقلاً عن: الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية لمحمد عبد الله عنّان.

(٢) الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه.

يقوم بعمليات أمثال هذه في البلاد الإسلامية ليقتل المسلمون بعضهم بعضاً، وتبقى آثار هذه الهجمات المنكرة يتوارثها أجيال لم يمحصوا الأمور كما يراد، فيكيلون الذمّ ويتهمون الأبرياء.

وكذلك ظهر داعية آخر اسمه محمد بن إسماعيل سنة ٤٠٨هـ/١٠١٧م وقيل اسمه: أنوشتكين أو هشكتين. ويظهر أنه تركي، ولقب بالدروز الذي لا يعرف لها أصل. وهذا الداعية قربّه الحاكم في أول الأمر، حتى عرف بأنه غلام الحاكم، وارتفعت منزلته في الدولة، وأظهر الغلو في الحاكم، وأنه الإله الذي صنع العوالم، وصنف كتاباً أسماه الدستور، وحصل له اتباع عرفوا بالدرزية بلغ عددهم ستة عشر ألفاً كانوا يأتون بأمور مبتذلة...[١].

واختلف في نهاية الدرزي، وخلط بينه وبين الأخرم، فبينما تقول رواية أنه قتل وجماعة من الدرزية على يد الأتراك وهو في موكب الحاكم، وإنهم لم يقتلوه بسبب اعتقاده، بل لأنه نصح الحاكم بإزالة الألقاب التي كانوا يباهون بها.

وتقول رواية ثانية إنه هرب إلى الشام، ونشر دعوته فيها، وتقول ثالثة إنه قتل في إحدى المعارك.

والذي يهمّنا في هذا الموضوع هل أن طائفة الدروز في سوريا وغيرها ينتمون إليه أم لا؟

والذي يظهر أنهم لا يحبّون أن يلقبّوا بهذا اللقب، ويستنكرون أن ينسبهم أحد إلى الداعي نوشتكين الدرزي المسمى محمد بن إسماعيل الدرزي - وهم كما يظهر - يرمونه بالإلحاد والخروج عن عقيدتهم، ويطلقون على أنفسهم اسم الموحدين وتسميتهم بالدروز تسمية خاطئة، ومع ذلك فقد أصبح اسم الدروز لهذه الفرقة ملازماً لهم. والباحث يجد نفسه مضطراً لإطلاق هذا الاسم لاختصاصه بهم في الدلالة والاشتهار.

وكذلك اختلف الكتّاب والمؤرخون في أصل الدروز هل أنهم فرس أم أتراك؟ وقيل: إنهم مزيج من عناصر مختلفة من عرب وفرس وهنود.

---

(١) نفس المصدر السابق ١٠٨.

وذهب البعض من مؤرخي الأفرنسيين في القرن السابع إلى أن الدروز هم سلالة الجنود الفرنسيين الصليبيين الذين كانوا تحت قيادة الكونت «دي دروكس» الذي أسكنهم جبال لبنان بعد سقوط عكا!!! فكلمة الدورز هي تحريف «دي دروكس».

والتاريخ يدلنا على أن هذه القبائل التي اعتنقت عقيدة الدروز كانوا يسكنون هذه المنطقة من لبنان وحوران ووادي التيم قبل أن تبدأ الحروب الصليبية بأكثر من ثلاثة قرون، وأن قبائلهم وعاداتهم معروفة بأصولها وتقاليدها الرفيعة.

يقول الأستاذ محمد كامل حسين: وربما أراد المؤرخون الفرنسيون بهذا القول أن عدداً كبيراً من جنودهم كانوا أسرى عند الدروز، فاتخذهم الدروز عبيداً لهم، كما اتخذوا النساء الفرنسيات إماءاً وسبايا[(١)].

والذي يبدوا أن عقيدة الدروز في تأليه الحاكم أخذت عن الداعي حمزة بن علي الذي قدم مصر سنة ٣٩٥هـ وأخذ بنشر الدعوة سرّاً إلى تأليه الحاكم، وكان الأخرم الفرغاني من أعوانه، قد شجّعه حمزة على الجهر بتأليه الحاكم كما تقدم.

ولمّا قتل الفرغاني حلّ محله الدرزي محمد بن إسماعيل الذي تنسب إليه الدروز، وهم يتبرأون منه.

وقضية علاقة الدرزي بالحاكم تضمّ الإشارة إلى إنكار الحاكم لما ادّعاه الدرزي، ولكن اتفقت النقول وتطابقت الآراء على أن الحاكم إنما أنكر خوفاً من الرعية بعد أن قدم الدرزي مصر ـ وكان من الباطنية القائلين بالتناسخ ـ فاجتمع بالحاكم وساعده على ادعاء الربوبية، وصنف له كتاباً ذكر فيه أن روح آدم عليه السلام انتقلت إلى الإمام علي، وأن روح الإمام انتقلت إلى أبي الحاكم، ثم انتقلت إلى الحاكم، فأظهر الحاكم الانقياد له وإطاعته. ولمّا ثار الناس، قال له الحاكم: أخرج إلى الشام، وأنشر الدعوة في الجبال، فإن أهلها سريعو الانقياد. فقرأ الكتاب على أهله، واستمالهم إلى الحاكم، وأعطاهم المال، وقرر في نفوسهم الدرزي التناسخ، وأباح لهم شرب الخمور، وأخذ مال من خالفهم، والزنا، وإباحة دماء أعدائهم. ولعل موافقة المصادر الإسماعيلية لعلاقة الدرزي بالحاكم هي الأصل في اعتقاد صحة الاتهام، فقد جعلت شخصية الدرزي هي الصلة بين الإسماعيلية والدروز، أو تروي أن الدرزي تمكن في

---

(١) محمد كامل حسين، طائفة الدروز/ ٩ط دار المعارف بمصر.

وقت قليل من السيطرة على الموقف في وادي اليتم، وإعادة الهدوء والسكينة إلى صفوف الإسماعيلية هناك بعد فرقة واختلاف، وعمل جاهداً لتوسيع وانتشار الدعوة الإسماعيلية في تلك البلاد، وبقي الدرزي رئيساً للدعوة وكبيراً لدعاتها في بلاد الشام حتى إعلان وفاة الحاكم وولاية الظاهر، فلم يعترف الدرزي بوفاة الحاكم مدّعياً بأن وفاته لم تكن سوى نوع من الغيبة لتخليص أنفس مريدي الحاكم من الأدران. وبقي متمسكاً بإمامة الحاكم، ومنتظراً عودته من تلك الغيبة. وبذلك أعلن انفصاله عن الإسماعيلية التي لا تعتقد بالغيبة، وتقول بفناء الجسم وبقاء سرّ الإمامة بالروح، فينتقل بموجب النص إلى إمام آخر، وهو المنصوص عليه من قبل الإمام المتوفى، وسمّيت الفرقة التي تبعث (الدرزي) بالدرزية نسبة إليه[1].

وعقائد الدروز تلتقي مع عقائد الإسماعيلية في الأمور التي انشقّوا بها عن المجتمع الإسلامي الشيعي، وتطرّفهم في أمور لا يقرّها التشيّع، وانقسموا عن المسلمين في عقائدهم التي لا يقرّها ولا يؤمن بها أتباع أهل البيت. لأن هناك عقائد هي مجموعة من أفكار وفلسفات قديمة صيغت في صورة إسلامية، وهذا أبعد ما يكون عن نهج أهل البيت وأتباعهم، وقد بيّنا ذلك.

وأياً كان، فالحديث عن الدروز وعقائدهم صعب، فإن لهم كتباً مقدسة وآراء يشذّون بها عن المسلمين، فهم يتّبعون حمزة في تعاليمه وتأليهه للحاكم، وهنا نقول: إن الأيدي العابثة أو الفئات الحاقدة استطاعت خلق هذا الاعتقاد ـ تأليه الحاكم ـ وتشويه عقائد المسلمين بعقائد بعيدة عن روح الإسلام، واستغلال ظروف الناس العامة وأوضاع الأشخاص.

وذلك عندما حاولت بعض الطوائف إحياء، نِحَلها القديمة، واتخذت لها مبادىء كان من أهمها: مناوءة سلطان الإسلام السياسي، وإعادة مجد أسلافهم. مما يحملنا على القول بأن هؤلاء الدعاة الذين وفدوا على مصر، وحاولوا نشر ألوهية الحاكم، كانوا ينتمون إلى هذه الطوائف، وقد عمدوا من وراء دعوتهم التي قاموا بنشرها إلى إثارة الفتن والقلاقل في القاهرة، ليمهّدوا بذلك للقضاء على الدولة الفاطمية، غير أن محاولتهم سرعان ما باءت بالفشل[2].

---

(١) تاريخ الدعوة الإسماعيلية ص٢٣٨ ـ ٢٣٩.

(٢) انظر كتاب طائفة الدروز للدكتور محمد كامل حسين ط دار المعارف بمصر ١٩٦٢.

ولكنهم نجحوا في نشر العقائد الفاسدة وبث روح الفرقة بين الطوائف، وأوجدوا تجمعاً على الباطل، وتفرقاً وابتعاداً عن الحق.

فهؤلاء الذين دعوا إلى تأليه الحاكم لم تكن عقولهم بهذا المستوى من الجهل والغرور، وأن يسندوا خلق الأكوان إلى مخلوق عاشروه، ولكنهم استغلوا شخصية الحاكم وموقعها في النفوس، فراحوا ينشرون ظلالهم وألحادهم، وقد تألفت هذه الجماعة من ثلاثة: الفرغاني ومحمد بن إسماعيل وحمزة، وقد وقع الاختلاف بينهم واختص حمزة بنشر الدعوة. ومن رسائل إلحاده (توكلت على أمير المؤمنين جل ذكره في جميع الأمور مُعِلّ علة العلل صفا صفاة العلة). (من عبد أمير المؤمنين ومملوكه حمزة بن علي بن أحمد هادي المستجيبين المنتقم، من المشركين بسيف أمير المؤمنين وشدّة سلطانه، ولا معبود سواه).

وأصبح حمزة يلقب بالإمام، ولمّا غاب الحاكم، صرّح حمزة بأنه هو الإمام، وأنه سيغيب أيضاً على أن يرجع مرة أخرى.

ولا نخوض في تفاصيل سيرة الحاكم، فحديثها يطول، وفيها ما يدعو إلى الاستغراب والدهشة من الأعمال الكثيرة والقدرة الفائقة على تحرّي العدل في أوضاع العامة، والمبالغة في العقوبات والأحكام، إلى غيرها من التحوّلات في الأوامر والتغييرات في الأمور التي يقرّرها، وقد كانت سبباً في الطعون والنقمة على الحاكم.

وكان سبب اختيارنا له في البحث، واقتصارنا في الحديث عليه للعبرة في فعل الأهواء وتأثير الأحقاد التي استخلصت من سيرة الحاكم الأعمال التي تدل على روح العدل والحرص على مصالح الرعية. ووافت بها ما ينسجم مع الهوى والحقد للانتهاء إلى أن الحاكم دعا لنفسه بالألهوية، وارتكب من الأفعال ما ارتكب. والتحقيق يثبت أن الحاكم في كل أمر يخرج عن سيرة العدل كان يقابله بالإنكار، ولا أريد هنا أن أقف مدافعاً عن الحاكم بأمر الله، بقدر ما أقصد إلى التأكيد على مسألة الأهواء والتعصب، وما تفعله في التاريخ من تشويه حتى تمكنت من إخفاء آثار أعماله وأوامره التي ألزم الناس بها وهو يعالج بها أوضاعاً في المجتمع، ويقصد إلى القضاء على الفساد فيها وتستهدف المحافظة على الأخلاق، ومعالجة موجات الانحلال التي بدأت تشيع بسبب الترف في الأوساط الغنية أو تنتشر بسبب المجاعات في أوساط الفقراء، فحرّم عمل (الفقّاع) وبيعه وكان من مسكرات ذلك العصر... ولقد جاء في سجل أصدره

بتحريم المسكرات في سنة ٤٠٠هـ (١٠٠٩م) أن: المسكر هو مجمع السيئات، والقائد إلى قبائح الأفعال.

ومما يؤكد أن الحاكم إنما كان يواجه موجة من التحلل الخلقي في المجتمع القاهري في ذلك الحين، ذلك المرسوم الذي أصدره في سنة ٤٠١هـ والذي يمنع فيه اللهو والغناء، وخاصة بالنسبة للنساء، والذي يحرم الاجتماعات الماجنة التي كانت تعقد في الخلاء بالصحراء، وعند ذلك هوجمت أماكن البغاء بشدة، وأزيلت دورهم وأوكارهم، وطهّرت منهم أحياء المدينة، وكانوا ينبثون في معظم جنباتها. كما سبق وحرّم على الناس دخول الحمام إلا بمئزر يستر بعض عوراتهم، وحرم على غير الباعة والمشترين للأرقّاء دخول أسواقهم حتى يمنع العابثين من تمضية الوقت في التمتّع بالجواري بحجة الشراء، كما طلب من تجار الرقيق عدم الجمع بين الغلمان والإماء في مكان واحد، وأن يفرد لكل منهم مكان خاص بالبيع والشراء[١].

ويقوم الحاكم بقتل قاضيه حسين بن علي بن النعمان، وكان من أسباب قتله أن الحاكم كان قد ملأ عينه ويده، وشرط عليه العفة عن أموال الناس. فرفع إلى الحاكم شخص متظلم رقعته يذكر فيها أن أباه مات وترك له عشرين ألف دينار، وأنها كانت في ديوان حسين، وكان ينفق عليه منها مدة معلومة، فحضر يطلب من ماله شيئاً، فأعلمه القاضي أن الذي له نفذ. فاستدعى الحاكم القاضي، فدفع إليه الرقعة، فأجابه بما قال للرجل، وأن الذي خلفه أبوه استوفاه في نفقته. فأمر الحاكم بإحضار ديوان القاضي في الحال، فأحضر ففتش فيه من مال الرجل، فظهر أنه إنما وصل إلى القليل منه، ووجد أكثره باقٍ، فعدّ على القاضي ما رتبه وأجراه عليه وإكرامه إياه وما شرط عليه من عدم التعرّض لأموال الرعية، فجزع وهاله وقال: العفو وأتوب. وانصرف بالرجل، فدفع إليه ماله، وأشهد عليه. فحقد الحاكم عليه ذلك، فأمر به فحبس، ثم أخرج بعد ذلك على حمار نهاراً والناس ينظرون[٢].

وأمر الحاكم قاضيه عبد العزيز بن محمد بن النعمان بالنظر في المساجد، وتفقد أوقافها، وجمع الريع وصرفه في وجوهه. ففعل ذلك وبالغ فيه.

---

(١) محمد عمارة: عندما أصبحت مصر عربية ص١٠٧ ـ ١٠٨.

(٢) ولاة مصر الكندي ص٥٩٩.

وبنى الحاكم جامع القاهرة وجامع راشدة على النيل بمصر، ومساجد كثيرة، ونقل إليها المصاحف المفضضة والستور الحرير وقناديل الذهب والفضة، ومنع من صلاة التراويح، وقطع الكروم، ومنع من بيع العنب، ولم يبق في ولايته كرماً، وأراق خمسة آلاف جرّة من عسل في البحر خوفاً من أن تعمل نبيذاً، ومنع النساء من الخروج من بيوتهن ليلاً ونهاراً(١).

ولم يرض الحاكم بعادة من سبقه من الحكّام في حمل الناس على تقبيل الأرض بين أيديهم، فنهى عن ذلك، ونهى عن الصلاة عليه في الخطب والمكاتبات، وجعل مكان الصلاة عليه: السلام على أمير المؤمنين.

وأمر الحاكم قاضيه عبد العزيز في يوم عاشوراء أن يمنع النساء والناس وهم في مواكب العزاء من المرور في الشوارع، لكي لا تمتدّ يد العامة إلى أمتعة الباعة، وأن يختص النوح والنشيد خارج المدينة.

ولما منع الحاكم النساء الخروج من دورهنّ ومنع الأساكفة من عمل الخفاف لهن، اتفق أن القاضي مرّ على دار امرأة، فناشدته أن يقف لها ويسمع كلامها، فوقف، فبكت بكاءً شديداً إلى أن رقّ لها، وحلفت له أن لها إبناً أنه في السياق، وأنها تريد أن تراه قبل أن يموت. فأمربعض رجاله بأن يمضي معها إلى دار أخيها، فأغلقت بابها، وأعطت مفتاحها لجاريتها، وذهبت مع الرجّالة إلى دار طرقتها، ففتح لها، فدخلت، واستمرت مقيمة فيها، فكشف عن أمرها، فإذا هو منزل رجل كانت تهواه ويهواها. فأخبر القاضي بذلك، فتعجّب من فطنتها حتى توصلت إلى مرادها، وإذا بزوجها قد جاء إلى القاضي وقال: ما أعرف زوجتي إلا منك. وحلف أنها ليس لها أخ وإنما ذهبت إلى عشيقها. فسقط في يده، وخاف القاضي أن يبلغ الخبر الحاكم، فيكون سبب غضبه عليه، فركب في الحال إلى الحاكم، وقصّ عليه القصّة وبكى. فأمر الحاكم بإحضار المرأة والرجل، فمضى الأعوان إليهما بغتة، فوجدوهما نائمين متعانقين لا يعقلان من السكر، فحملوهما إلى الحاكم، فأمر بإحراق المرأة في بارية، وضرب الرجل بالسياط ضرباً مبرحاً، وزاد في الاحتياط على النساء والتحجير عليهن(٢).

---

(١) النجوم الزاهرة ج٤ ص١٧٧.

(٢) ولاة مصر ص٦٠٧.

لقد كان الحاكم يدور في الأسواق على حماره، يبحث عن الذين يغشّون الناس، ويتولى عمل الحسبة بنفسه.

فإذا انتهت هذه الأعمال تاريخياً إلى الذين أسهموا في إشاعة بدع الضلال، واستسهلوا إطلاق كلمة الفساد والرداءة على الآخرين، وقيّد مداركهم التعصّب، وشوّه علمهم الهوى، قالوا بما يضحك، وكتبوا زوراً، ولكنهم مرغمون على ذكر الحقيقة كقولهم: (فمن وجده قد غشّ في معيشة، أمر عبداً أسود معه يقال له مسعود أن يفعل به الفاحشة العظمى، وهذا أمر منكر ملعون لم يسبق إليه، وكان قد منع النساء من الخروج من منازلهنّ، وقطع شجر الأعناب حتى لا يتّخذ الناس منها خمراً، ومنعهم من طبخ الملوخية وأشياء من الرعونات التي من أحسنها منع النساء من الخروج وكراهة الخمر...)[1].

ثم تسهم الإقليمية في الحملة على الحاكم بأمر الله الذي استطاع أن يقيم حكماً قوياً، أن ينشغل به ملوك الأقطار الإسلامية الأخرى الذين ضعفت قبضتهم ووهنت قواهم، وهم بأبراد الخلافة وأزياء الإسلام التي تكفل لهم الخضوع والاستسلام. يقول محمد عمارة: (ونحن نرى أن شخصية الحاكم بأمر الله شخصية تاريخية قد أصابها الكثير من الظلم والتعسّف في التفسير والتحليل من قبل الكثير من المؤرخين والباحثين. بل ونرى أن هذا الظلم قد انسحبت أذياله على القاهرة ومصر، فبدت في ثوب من السخرية والاضطراب، وجوٍ من الإجراءات التي لا رابط لها ولا منطق وراءها خلال فترة حكم هذا الخليفة التي امتدت ربع قرن من الزمان)[2].

ولقد بلغ من قوة الحاكم وقدرته على السلطان والملك، أن ينفذ إلى بني العباس في إقليم سلطانهم وموضع ملكهم، فخطب أبو المنبع قرواش بن المقلد الملقب بمعتمد الدولة للحاكم سنة ٤٠١هـ فجمع معتمد الدولة أهل الموصل، وأظهر طاعة الحاكم، وأحضر الخطيب يوم الجمعة، وأعطاه نسخة ما يخطب نقتطف منها:

(الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، والله أكبر ولله الحمد، الحمد لله الذي انجلت بنوره غمرات الغضب، وانهدّت بقدرته أركان النصب، وأطلع بقدرته شمس الحق من

---

(١) ابن كثير ج١٢ ص٩.

(٢) عندما أصبحت مصر عربية، محمد عمارة ص٩٦.

الغرب، الذي محا بعدله جور الظلمة، وقصم بقوته ظهر الغشمة، فعاد الأمر إلى نصابه والحق إلى أربابه.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ اصطفاه واختاره لهداية الخلق، وإقامة الحق، فبلّغ الرسالة، وأدى الأمانة، وهدى من الضلالة، والناس حينئذ عن الهدى غافلون، وعن سبيل الحق ضالون، فأنقذهم من عبادة الأوثان، وأمرهم بطاعة الرحمن، حتى قامت حجج الله وآياته، وتمّت بالتبليغ كلماته ﷺ وعلى أول مستجيب إليه علي أمير المؤمنين وسيد الوصيين، أساس الفضل والرحمة، وعماد العلم والحكمة، وأصل الشجرة الكرام البررة، النابتة في الأرومة المقدسة المطهرة، وعلى خلفائه الأغصان البواسق من تلك الشجرة، وعلى ما خلص منها وزكا من الثمرة)[١].

ويذكر ابن الجوزي أن الحاكم كان يرسل الرسل إلى قرواش، ويكاتبه حتى استماله، فأقام الدعوة له بالموصل، وانحدر إلى الأنبار، وأظهر قرواش الخلاف، وأدخل يده في المعاملات السلطانية، وورد على الخليفة من هذا ما أزعجه، فراسل عميد الجيوش، وكاتب بهاء الدولة البويهي.

ولقد كان هذا التهديد الفاطمي خطيراً، حمل العباسيين على اللجوء إلى كل الوسائل لدفعه عنهم والنيل من الحاكم والفاطميين، ولجأوا إلى الطعن في نسب الفاطميين، وتحريك المشاعر الدينية ضدّهم، والضرب على أوتار الزندقة والإلحاد، ورمي الآخرين بالكفر والفسوق، مما اعتاده علماء العوام وخدمة الملوك، فكتب في ديوان الخلافة محضراً بذلك أخذت فيه خطوط الأشراف والقضاة والفقهاء (شهدوا جميعاً أن الناجم بمصر وهو منصور بن نزار المتلقب بالحاكم حكم الله عليه بالبوار والدمار والخزي والنكال والاستيصال ابن معد بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن سعيد لا أسعده الله، فإنه لمّا صار إلى الغرب تسمى بعبيد الله وتلقب بالمهدي، ومن تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس عليه وعليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين أدعياء خوارج لا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب، ولا يتعلّقون منه بسبب، وأنه منزّه عن باطلهم، وأن الذي ادّعوه من الانتساب إليه باطل وزور، وأنهم لا يعلمون أن أحداً من أهل بيوتات الطالبيين توقف عن إطلاق القول في هؤلاء الخوارج أنهم أدعياء، وقد

---

(١) المنتظم ج٧ ص١٤٩. والنجوم الزاهرة ج٤ ص٢٢٥.

كان هذا الإنكار لباطلهم ودعواهم شائعاً بالحرمين، وفي أول أمرهم بالغرب منتشراً انتشاراً يمنع من أن يتدلّس على أحد كذبهم، أو يذهب وهم إلى تصديقهم، وإن هذا الناجم بمصر هو وسلفه كفّار وفساق فجار ملحدون زنادقة، معطلون، وللإسلام جاحدون، ولمذهب الثنوية والمجوسية معتقدون، قد عطلوا الحدود، وأباحوا الفروج، وأحلّوا الخمور، وسفكوا الدماء، وسبّوا الأنبياء، ولعنوا السلف، وادعوا الربوبية).

وقد سقناه بكامل نصه ولفظه لإظهار ما كان عليه العباسيون من ضيق وقلق، فالتمسوا في الطعن، وكيل التهم متنفساً ومخرجاً. ولهم من الأتباع ممن تمسحوا بالعلم وتزيوا بالفقه ما يحقق لهم أغراضهم ويترجم رغباتهم. وقد لجأوا إلى التزوير، فوضعوا خط الشريف الرضي في المقدمة(١).

ومعلوم أن الشريف الرضي - بمكارمه وعظم منزلته وجلالة قدره في مجتمعه وأهل بيته - كان لا يرى في الملوك العباسيين من هو أهلاً لها، وقد عرف القادر منه ذلك، وأصبح يخشى السيد الرضي لأنه يرى هواناً في مقامه في ظل حكّام كالقادر، فيفصح عن رأيه في حكم العباسيين، ويجهر بميوله إلى الفاطميين مبالغة في إظهار الخلاف للعباسيين، ويقول السيد الرضي:

ما مقامي على الهوان وعندي ... مقول صارم وأنف حميّ
أحمل الضيم في بلاد الأعادي ... وبمصر الخليفة العلويّ
من أبوه أبي، ومن جدّه جدّ ... ي إذا ضامني البعيد القصي

ومنها:

لف عرقي بعرقه سيدا الناس ... جميعاً محمد وعليّ
إن جوعي بذلك الربع شبع ... وأوامي بذلك الظلّ ريّ

ولا يبعد أن يكون اعتراف الشريف الرضي بالحكام الفاطميين والتصريح برغبته في اللحاق بهم في نظر العباسيين بمستوى واحد من الأهمية مع اعتراف الولاة بالطاعة للفاطميين، وذلك لعظيم مكانة الشريف الرضي وهيبته وتأثيره على الناس، لعلمه وشرفه وفضله، وأن يكون ذلك من أسباب لجوء العباسيين إلى كتابة محضر ديوانهم،

---

(١) انظر: المنتظم ج٧ ص٢٥٥ والبداية والنهاية ج١١ ص٣٤٦. والنجوم الزاهرة ج٤ ص٢٢٩.

ومن الروايات ما يفيد أن أبيات الشريف الرضي الشعرية كانت وراء أمر القادر بكتابة المحضر.

ومهما يكن من قول، فإن الشريف الرضي لم يكن بالرجل الذي ينصاع لإرادة الباطل وأوامر الجور، ويتخلى عمّا يليق بمنزلته من قول الحق.

ولم يحرّك محضر العباسيين مشاعره أو يثير غضبه، بل أهمله تماماً.

والخلاصة:

فإن الحاكم كانت تبدو عليه منذ حداثة سنّه مظاهر التفوّق والذكاء وقوة الشخصية، وقسمات الإنسان المتميز عن الأشباه والأقران، وكان صاحب اهتمامات ثقافية وفكرية مبكرة، لا في مجال الفلسفة والتشيّع والفلك والتنجيم فقط ـ كما اشتهر عنه ـ بل وفي مجال التذوّق الأدبي للشعر والنثر، والمشاركة في مجالسهما ومخالطة أعلامهما في ذلك الحين(١).

وبرزَ في عهده إسماء كان لها أثرها في انتشار الإسماعيلية كأحمد حميد الدين الكرماني، والقاضي عبد العزيز بن محمد بن النعمان، والحسن بن الحسن بن الهيثم وغيرهم من الدعاة ورجال الفكر الإسماعيلي.

أي أن الحركة العلمية التي بدأها المعزّ الفاطمي مع بنائه القاهرة لم تهدأ، وبقيت على وتائرها المتعددة، منها ما يتعلق بالفكر الإسماعيلي، ومنها ما يتصل بالحياة الفكرية والأدبية المختلفة، والتي تدين للمعزّ الفاطمي بأعماله وعنايته، كما تدين العلوم الإسلامية لعمله الأزهر بالفضل. ولا جدال في أن عصر المعزّ لدين الله من أزهى العصور، وكيفما اتجهت إليه النظرة، فإن عصره يمتاز بإمارات التقدم والترقي والحضارة.

ويحتل في العقيدة الإسماعيلية موقعاً متميزاً بين أئمتهم، فقد عدّ بعد إمامهم محمد بن إسماعيل مجدداً للشريعة، عندما أمر القاضي النعمان بن محمد بتجديد الشريعة ورفع مبانيها وإظهار ظواهرها ومعانيها، فألّفها في مائتي كتاب تزيد على عشرين، وزاد على ذلك عدة كتب، جاء فيها من ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام(٢).

---

(١) عندما أصبحت مصر عربية نقلاً عن: الحاكم بأمر الله لمحمد عبد الله عنان.

(٢) كتاب الذخيرة في الحقيقة، الفصل الحادي والعشرون.

وهنا لا بد من معاودة الإشارة إلى أن الفاطميين من الإسماعيلية كانوا في معتقداتهم العامة بالإمامة يردّدون اعتقاد الشيعة الإمامية، وجرى في أحوالهم السياسية هذا الاعتقاد، وجهدوا في الحفاظ على الطابع الذي يخفي آثار الباطنية التي أبعدتهم عن الأركان والأصول، وعندما تقترب منه نقاط الاختلاف ومواضع الافتراق، تتحول معتقداتهم إلى أمور بعيدة عن عقائد الشيعة على ما تضمنه من اعتراف بمنزلة الإمامة وعقيدة الوصاية ـ فهي كما قلنا سابقاً ـ واحدة في الأصل، لكنها في السياق تفترق من بعد عصر الإمام الصادق عليه السلام ويشعر المسلم الشيعي في مراسيم الدولة الفاطمية وأقوال حكامها بالقرب من عقيدة الإمامة الشيعية في أصولها وأحكامها، إلا أنها سيقت بعد الانشقاق إلى أشخاص فيهم صفات الحكام والسلاطين غالبة، ولا يبدو عليهم مهما أضيف إليهم من صفات أخرى أي قدر من المنافسة لأصحاب الإمامة الحقة وأهل الخلافة الكبرى ممن حفظ النص بهم، وجعلت فيهم الولاية والخلافة والإمـامـة: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾.

ولقد كان الأخ الصديق العلامة محمد حسن الأعظمي ـ عميد كلية اللغة العربية بكراتشي ـ واقعاً تحت تأثير دعوته الإيمانية الطيبة إلى التقريب والوحدة عندما حكم بأن الشيعة الإمامية يتفقون مع الفاطميين على المسائل العامة في الفقه. والصديق الأعظمي يقدّم مشاعر التقريب والاتفاق على الحقائق التي لا سبيل إلى تجاوزها، وقد عرفناه واسع النشاط، غزير المعرفة، صادق الكلمة، يحمل رسالة المودّة والصفاء، ولأقواله أثر في المحافل. لذلك ذهبت مقالته نصاً اعتمدها الأستاذ الدكتور محمد غلاّب ـ أستاذ الفلسفة بالدراسة العليا بالأزهر ـ ولو ترك القول دون أن يعقبه تفصيل لحملناه على العموم وقلنا إن السيد الأعظمي يريد أن المسلمين جميعاً يتفقون في المسائل العامة في الفقه بأصولها، وهو ما يشملنا والفاطميين. كذلك قوله فيما تختص به الشيعة من الأخذ عن طريق أهل البيت، لكنه يحصر الاختلاف في أمرين أساسيين:

أولاً: فيما يتعلق بمواقيت الصيام والفطر. فالفاطميون يكملون رمضان ثلاثين يوماً في كل عام، ولا يلتزمون برؤية الهلال، بل يعتمدون على التقويم الفاطمي والحساب، والاثناعشريون يقيّدون صيامهم اعتماداً على أحاديث صحّت عندهم برؤية الهلال كأهل السنّة.

ثانياً: الاثناعشريون يجيزون زواج المتعة، أما الفاطميون فلا يجيزون المتعة كأهل السنّة.

وليس الأمر بهذه السهولة، ونخشى أن يخرج الحديث عن موضوعه، فإن الأجزاء السابقة من الكتاب ضمّت بحوثاً عن المتعة، استوفينا بها أوجه الخلاف، ويضيق وسع الكتاب الآن، كما نحذر الدخول في المسائل الفقهية القليلة والقصيرة التي تسربت عن الإسماعيلية، لأن أحكامهم خاصة بهم بعد عصر الافتراق. وقد أخذنا على أنفسنا التعرّض للاعتقادات المهمة، لأنا لا نودّ أن نحجب الحقائق الدينية، ولكنا لا نتزحزح عن نورها إلى ضيق وعتمة الرموز والتأويلات المتكلفة، فالفاطميون يقولون: إن أسرار الدين متوقفة على تعليم الأئمة من نسل فاطمة الزهراء، وهم الكواكب والنجوم والمصابيح، ترسل نور المعرفة إلى قلوب أتباعهم، كما أن العين المبصرة بدون القمر والشمس والمصباح لا تحقق الفائدة المرجوة، كذلك المسلم لا بدّ له من أن يستمدّ من الأئمة أنوارالعلم والمعرفة. وإلا فإن العقول وحدها لا تكفي[1]. ورووا عن النبي ﷺ أنه قال: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسّكتم بهما لن تضلوا أبداً، وإنهما لن يفترقا حتى يراد عليّ الحوض»[2]. وقوله للإمام علي: «سوف تقاتل على تأويله، كما قاتلتُ على تنزيله»[3]. فهذا كله يدل على أن الوصي ومن تبعه من الأئمة من ذريته هم الذين اختصوا بتأويل القرآن، ولذلك رووا عن علي قوله: «ما نزلت آية من القرآن إلا علمت كيف نزلت، وأين نزلت، وفي أي شيء نزلت، سلوني قبل أن تفقدوني».

ونكتفي إلى هنا بما أورده السيد الأعظمي حيث تبدأ بعد هذه النقطة مجالات الافتراق عنا ودخولهم في عالمهم الخاص بهم. ففي بدء كل مسألة يساق النص بلفظ أو بآخر، ثم يعقبه عرض بحسب معتقداتهم. فمثلاً يأتي لفظ (فالإمامة عندهم - الفاطميين - هي قيادة العالم وحمل الحقيقة إليه، ومثل هذا المرشد ضروري وجوده في كل عصر حتى لا يبقى العالم جاهلاً)[4]. وهو من نصوصهم الخاصة، ولا ينافي

(١) الحقائق الخفية عن الشيعة الفاطمية ص٢٤.
(٢) المجالس المؤيدية ج١ ص١٤٧ (الحقائق).
(٣) أسرار النطقاء ج٢ ص٢٠٣ (الحقائق).
(٤) كلام بير ص٢١ (الحقائق).

مضمون الإمامة من حيث كون الإمام هو الهادي والمرشد إلى الطريق الحق، وهو القدوة لقوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ وقوله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ والإمامة التي تنطوي عليها الخلافة هي لدوام النبوة وبقاء الرسالة لقوله تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ والشيعة تقيّد الإمامة بالنص، وتجعلها في إطارها الشرعي وأصلها الديني، فهي من أركان الدين، وليست من الفروع حتى يمكن أن يُجتَهَد فيها، وتفوّض تفاصيلها وأحكامها إلى البشر، فيكون للأمويين الرأي في الإسراف في الظلم واتخاذ مظاهر السلطان والعظمة، ويصبح للعباسيين الحق في قتل أولاد النبي محمد، وارتكاب المحارم، وصرف أموال الرعية في غير وجوهها وحلّها. وقد أطلق الإمام الكاظم ـ كما علمنا ـ كلمته في شدة المواجهة مع السلطان والملوكية التي تتلبس بالإسلام، فقال للرشيد قولته: «أنا إمام القلوب، وأنت إمام الجسوم» لأن مظاهر الخضوع والموافقة التي تنسجم مع مظاهر الأبهة والسلطنة كانت من مقتضيات القهر والغلب، ولقد جاء من سوّغ إظهار الحكم المتسلط بالسيف والقائم بالغلبة بمظهر الإمامة، وإقرار سلطانه مع الفجور، وذلك من أبعد ما يكون عن الإسلام، ومن أغرب ما اختاروه للإساءة إلى عقيدة الإمامة.

وإذا نظرنا إلى الملوك الفاطميين، وجدنا انسياقهم إلى مظاهر الملوكية بأوسع صورها. وقد كان المعزّ ـ صاحب المواكب والركوبات التي تبعث على الدهشة والانبهار ـ إذا ما اطلع المرء على ما كتب عن هذه المواكب والركوبات التي يترك وصفها في النفس والذهن صوراً خيالية، وهي تجري على نظام وترتيب ومراسيم وأعمال لم يكن مثلها في عصر أو قطر آخر[1]. والقصد أن مسلك حياتهم أقرب إلى الدنيا والسياسة، وأدنى إلى إمامة الجسوم وسلطة الزمان، وهم أوفق بها. أما الإمامة الكبرى فهي مقيدة بشروطها، ومتعلقة بأهلها الذين أحاطهم ولاة الجور بأسوار من الرعب. ولكن نور الإمامة لا تحجبه زنزانات الحكام أو عساكرهم، ولم ينل الحكّام من تفاني الأئمة الأطهار من أهل البيت في الدعوة إلى التمسّك بالعقيدة ونشر الأحكام.

والخلاصة، فإن الفاطميين قاموا بدور كبير ومشرّف في مجال رفعة شأن

---

(١) انظر تفاصيل وصف المواكب هذه في النجوم الزاهرة ج٤ ص٧٩ ـ ١٠١.

الإسلام وإبراز عظمة فكره، وقد جذبوا إليهم الكثيرين من المفكرين والأدباء والفقهاء فانضموا إلى الدولة الفاطمية، واعتنقوا الإسماعيلية، وأصبحوا قادة فيها، وهم كما قلنا في مظهر عقيدتهم يتوخّون ما يتفق مع العقائد والأحكام، ويقتربون من عقائد الشيعة في مهمات الأمور والأحداث التاريخية، ولعل صحة النسب وبقاء الانتماء إلى الدوحة المطهرة كان من أهم عوامل تميّزهم عن بقية الفِرق الباطنية.

الهفت والأظلة:

حاولت في بحثي عن الإسماعيلية والإمامة أن أحصل على أغلب المصادر والكتب التي تختص بالإسماعيلية، وأن تكون من مظانّها وتصدر من أصحاب العلاقة.

وقد نشر معهد الدراسات الشرقية في بيروت كتاباً سمّي: بالهفت والأظلة. وقدم له الأستاذ الإسماعيلي عارف تامر بضميمة الأب عبده خليفة اليسوعي، وهو ينسب للمفضل بن عمر، والكتاب جاء كمجالس متعددة تتضمن أسئلة متفرقة من المفضل بن عمر إلى الإمام الصادق يوجهها المفضل، والإمام الصادق عليه السلام يجيب.

وانتشر الكتاب بعنوان أنه من كتب الإسماعيلية، ثم صدر كتاب (الهفت الشريف) تقديم وتحقيق الأستاذ الإسماعيلي مصطفى غالب.

والكتاب مجهول المؤلف ومعدوم السند، بل يفقد كل عوامل الصحة ومقومات القبول، ومع الفرض أن المؤلف معروف واسمه مشهور والإسناد موجود، فإن العقل يحكم بأن الكتاب نوع من أنواع المهازل، وصورة من صور الخرافات المؤلمة التي مني بها المجتمع الإسلامي، فكم ابتلينا بدسّاسين، وأثقل كاهل المسلمين بما وضعه الذين يفترون الكذب على الله ورسوله من أفكار وأقوال وما سطّرته تلك الأيدي من كتب نسبوها إلى رجال الأمة من حملة العلم ورؤساء المذاهب مما لا ينسجم مع ما عرف عنهم وما هم فيه من المنزلة، ولولا واجب الحق وإظهار الحقيقة لألقيناه في سلة المهملات أسوة بغيره من الكتب المكذوبة التي تضم الأراجيف والخرافات، وتعلن عن نفسها بنفسها لوضوح مضامينها وما تضم بين صفحاتها، ولا ندري ما الدافع على نشر الكتاب إذا كان الناشر نفسه يعترف بأنه يحتاج إلى مناقشته باباً باباً، وفكرة فكرة، ففيه ما لا يقبله العقل كما يعترف بقوله:

(إن الإمام الصادق ـ وهو الحكيم الموحّد المعروف بسعة علمه وإيمانه ـ يترفّع عن تعميم هذه الأفكار لتلاميذه وتبليغها لمريديه).

وأول ما يسترعي الانتباه من الناشر قوله: (مما لا جدال فيه أنه قد نؤاخذ على محاولتنا هذه، وقد نلام من الأصدقاء والإخوان، لأن الكتاب الذي ننشره الآن من الكتب السرّية التي لا يجوز نشرها على العامة، لأن فيها تعاليم ربما يُساء فهمها وتؤوّل على غير حقيقتها، مما يحدث آثاراً سيئة في النفوس ويمزّق وحدة الصفوف، وما أحوجنا إليها في هذه الظروف، ولكن لا بد من القول ونحن أمام موضوع خطير بأنه كم يثلج صدورنا إذا ما فتح هذا الكتاب أمام علماء وأدباء وباحثين لإبراز نصوص علمية تدحض، وإثبات أشياء تخالف الوقائع، فنحن لا يهمنا إلاّ جلاء الحقيقة وحدها، وإبراز الواقع بوجهه الناصع، والحقيقة تأبى إلا الظهور مهما اعترضها من عقبات).

يخيل للقارىء عند الوقوف على هذه العبارات أنه سيقف على شيء في النهاية يستحق الخوض في قراءة أو تحقيق أمور مخالفة للحقيقة ويرفضها الواقع، أو أن في ثناياها بعد التشذيب عطاءً فكرياً أو دلالة عقائدية أو نتاجاً أدبياً يقدّمه الأستاذ تامر إلى العالم خدمة للحقيقة وقياماً بواجبه العلمي كما يشير إلى ذلك بقوله:

(إذ نضع هذا الكتاب بين أيدي العلماء نعلم علم اليقين بأننا قد أدّينا جزءاً من واجبنا نحو العلم والحقيقة التي عاهدنا الله أن نجعلها هدفنا ومثلنا الأعلى في الحياة).

مما يشعرنا بأن الأستاذ عارف قد أطلق هذه الكلمة نتيجة لدراسة موضوع علمي بطريقة منهجية هادفة إلى كشف حقيقة أو إظهار تفاصيل أو دقائق في اتباع أصول التحقيق لإبراز ما يخدم العلم ويظهر الحقيقة نتيجة ما اكتسبه من خبرة في ممارسته، وعندما نقف على الكتاب نصاب بخيبة الأمل وللوهلة الأولى، إذ لا نعثر فيه على أمر يناسب قوله، فليس في الكتاب مواضيع معقولة، فضلاً عن أن يكون علماً أو فكراً أو نحوهما.

ليس فيه من المعرفة المتّسعة المنسّقة والمرتبطة بنظام يعنى من الأقوال أو الأفكار شيء، بل فيه كل ما يمجّه الذوق ويرفضه العقل ولا يقرّه العرف.

ونعود للاستغراب عندما نقف على قوله أن نشر هذا الكتاب لا بد أن يلقى استنكاراً. . . . الخ.

وحق أن يكون الكتاب موضع استنكار واستخفاف لكل من يقرأه، فكيف لا يستنكر مثل هذه الأمور التي تفاجأ بها الأمة في عصر الثقافة والعلم، وفي زمن التقدم والتطور، ينفذ إلينا من بوابة عضادتاها أحد المختصين الإسماعيليين وأحد الآباء المسيحيين، والغريب أن يطبع طبعة أولى عام ١٩٦٠م وطبعة ثانية عام ١٩٦٥م. وإني لأكبر الذوق الأدبي والبحث العلمي عن هذا الفهم السقيم والذوق الهابط حتى يكون هناك إقبال على تناول هذا الكتاب إلا للاستهزاء والسخرية، وعلى الأغلب تكون من قبل أعداء الإسلام والساعين بكل جهدٍ وقدرة للنيل من أبنائه، وإعطاء صورة مشوهة عن مجتمعه. ولا أدري أي شيء في الكتاب يدل على صحته ويشير إلى ثبوته حتى يحتاج إلى دحض، وأي عمل يوصف بالموضوعة والمنطق حتى يدعو إلى نقد؟؟!

ولا بد أن نتساءل بموضوعية عن مقومات أي بحث تاريخي أو أثر علمي، أليس المضمون أو المنهج أو المعالجة أو الوصف التاريخي هي الأسباب التي تكسب البحث أهمية والأثر دلالة؟ فيتوخى منه الفائدة، ويرجى منه المعرفة. أما إذا كان الأثر والكتاب يحدث آثاراً سيئة لعدم هذه الأسباب ولخلوه من الأهمية، فلا مبرر لذكره فضلاً عن التفكير في نشره، وإن كان من صنف (الهفت) بخرافاته وأباطيله وأكاذيبه، فعلى المرء ـ أي امرىء مسلم ـ أن يسعى إلى إتلافه ويعمل على محوه، لما يحدثه من آثار سلبية تمسّ وحدة المجتمع.

أضف إلى أن الكتاب منحول من قبل شخص لا يجيد الوضع، ولا يحسن الألفاظ التي صاغ بها أكاذيبه.

والكتاب مجهول المؤلف ومعدوم السند، فكيف أَقْدَمَ الاثنان على تكليف نفسيهما إشاعة عمل لا تتوافر فيه عناصر الصحة. وإن يكن عتب فعتب على عارف تامر لكونه إسماعيلي المذهب، وفي مثل هذا العمل إساءة بالغة سيما إذا كانت تصدر من إسماعيلي. ونستغرب متساءلين: ما هو الدافع وما هي الخدمة التي يسديها بنشر هذا الكتاب؟ فليس من خدمة العلم والحقيقة في شيء أن تنشر هذه الأقوال الكاذبة والخرافات الشائنة وتنسب إلى شخصية (خارقة متفوقة ذات مستوى رفيع هامت بجلائل الأعمال) هي شخصية الإمام الصادق عميد أول مدرسة فكرية في الإسلام ورئيس أول مركز لتعليم الفلسفة، ومخرج العقل في العصور الإسلامية من نطاقه المحدود إلى فضاء رحيب تسيطر على أرجائه حرية الفكر العلمي السليم القائم على

الحقيقة والمنطق والواقع، وأن مدرسته عليه السلام قد أنجبت خيرة المفكرين وصفوة الفلاسفة وجهابذة العلماء ـ كما يقول عارف نفسه ـ[1].

ولم يستبق الناشر النتائج بوعيه عندما يقول ويعترف أن الكتاب لا يليق بالنشر، وذلك ما يدعو إلى الحيرة، فإن النتائج هي أحداثه الفرقة في المجتمع، وتعريض وحدة الصف إلى التمزّق لأنه لا يضمّ بين دفتيه إلا الإساءة لجميع طوائف المسلمين والتهجّم على العقائد، والطعن برجالهم.

ولا يدري أحد منّا إلا الناشر نفسه ما هي الأسباب التي تكمن وراء نشر الكتاب وهو يصرح برأيه فيه.

كان اللازم ـ كما يقضي واجب النشر وأمانة النقل ـ أن يتأكد الناشر من صحة الكتاب ونسبته للمفضّل، وأن يتحرّى صفة المؤلف من الكتاب، فإذا عُدِم الاسم استدل بالأثر، فهل كان المؤلف ثقة في النقل ورجال أسانيده كذلك. فإذا كان الأثر عبارة عن أكاذيب ومفتريات وخرافات، فالمنتحل أبعد ما يكون عن صفات الثقة والأمانة.

ولا أجد تبريراً أو احتمالاً مناسباً يجعلنا على علم بارتكاب مثل هذا الخطأ، وقد كنت بحسن الظن أحاول ذلك باعتبار الأستاذ عارف من الكتّاب الذين ينادون بحرية الكلمة والموضوعية. إذن لا بد أن هناك أسباباً خاصة وعوامل غامضة حدت به إلى أن يقوم بطبع الكتاب، فيقدّم للمكتبة العربية والأمة الإسلامية كتاباً لا يحتوي ـ باعترافه ـ إلا آراء غريبة وشاذة، الأمر الذي يصبح أمامه موضوع العلم والحقيقة مجرد ادعاء وصبغة يحاول أن يطلي نفسه بها دوماً، فأي حقيقة فيما يدور بين الأشباح والأظلّة، وما يعرضه أمامنا من عالم المهووسين والمصابين، وتزكم أنوفنا رائحة الدسّ التي تفوح من الآراء والحوادث التي وردت في الكتاب كالأظلّة والأشباح والمسوخية والناسوتيّة والأدوار والأكوار والرسخ والمسخ والزواخر وحجب الآدميين وقد القدود وسطح السطوح والحجب الشجي. . . الخ. . . . ونظريات أخرى تتعلق بالإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام وسلمان الفارسي، وبدء الخليقة، وتقمص المرأة. . . وافتراءه على الإمام الصادق عليه السلام في كثير من تأولاته، فيقول بكل جرأة

---

(١) القرامطة ص٤٩.

إن الإمام الصادق هو مؤسس الباطنية في الإسلام، وفي عهده نمت وترعرعت البذور التي غرست حتى بذور ابن سبأ، فتراه هنا يثير قضية لا صلة لها بالواقع، فحكمه بأن تأسيس الباطنية يعود إلى الإمام الصادق هو من جملة المفتريات التي أشرنا إليها في بدء الحديث وقلنا أن قدم الاعتقادات الإسماعيلية واتصالها بالمدارس الفلسفية والمذاهب القديمة التي سبقت الإسلام حملها على الافتراء والالتصاق بالإمام الصادق، ونسبة المعتقدات التي ظهرت بعد انحرافهم عن مسار الوصاية والإمامة إلى الإمام الصادق وأهل البيت وكل أحكامهم بلا بينة وجميع أقوالهم بلا دليل، لأن عزل النصوص عن مقاصدها وسوق الأفعال التي تصدر عن الإمام الصادق أو غيره من الأئمة المعصومين في غير ظرفها تجنٍ واضح وافتئات مشين.

ويبدي لنا الأستاذ على صفحات الكتاب رأيه في قضية ابن سبأ، وأن آراءه قد ترعرعت بذورها في ذلك العهد، فإذا به يتعرّى تماماً من صفات التحقيق والتثبت. وقضية ابن سبأ لا تقل خرافية وكذباً عن (الهفت) الذي قدمه عارف ثامر فما هي إلا شخصية وهمية أوجدتها العناصر المعادية للإسلام، وغذّتها الطائفية الرعناء، وكان غرسها ونسج خيوطها في القرن الثالث الهجري. وقد بحثناها في غير موضع في أجزاء الكتاب السابقة.

ولا نجهد أنفسنا بأكثر من ذلك في الردّ على عارف، بل نحيل الرد على الأستاذ الإسماعيلي مصطفى غالب فيقول:

ولا بد لنا ونحن نستعرض بعض ما كتبه عارف ثامر من أن نشير إلى الكتابين اللذين أصدرهما مؤخراً وهما: (الإمامة في الإسلام والقرامطة) لما أورد فيهما من الأراجيف والخرافات المضحكة، مع علمنا الأكيد بأنه هو نفسه يعرف حقيقة تلك الأراجيف والأساطير التي لا تتفق مع المنطق والتاريخ، وتتناقض أشد التناقض، ولكنه جاء بها لينال ما يرضي شهوته ويشبع نهمه، معتمداً في ذلك على المبدأ الذي يقول: (خالف تعرف) ولقد شحن هذين الكتابين بكل ما هو غريب ومخالف لجميع من سبقه من الكتّاب والمؤرخين، وإن كنا نعجب لمن يختلق مثل هذه الروايات، ويفتعل النصوص، ويحرّف الوثائق، نقول والألم يعصر قلوبنا ويحزّ في أعماقنا أن الغاية لدى هذا الإنسان تبرر الواسطة، حتى ولو كانت الواسطة تقويض دعائم الدين، وطعنه في الصميم، والإجهاز على آخر رمق من الضمير الإنساني، علماً بأنه لو أردنا

الرجوع إلى أي كتاب من الكتب التي حققها أو ألّفها عارف ثامر نجد نقيض ما قال في الآخر، فهو يأتي بالفكرة أو المصدر أو الرأي في هذا الكتاب، في حين أنه يخالفه أشدّ المخالفة، وينقضه أبشع النقض في كتاب آخر، ذلك لأن كل كتاب سار فيه حسب الهوى الجارف[1].

وعن الهفت والأظلة يتحدث الأستاذ مصطفى غالب حول ما ارتكبه الأستاذ ثامر من التحريف والزيادة وإن كان (الهفت) الذي شرّفوه ـ وإنما يشرّفون الخرافة والافتراء ـ في متنه هو من جنس ما قدّمه ثامر، ولكن مصطفى غالب يدّعي أنه لفرقة باطنية أخرى، ولا يعنينا ذلك لأن العبرة في المضمون وفي الاتجاه الباطني الذي نخالفه. وعليّ أن أسوق القول على طوله لمقتضيات البحث:

(مما لا جدال فيه أننا نعيش في عصر تطوّر فيه العلم والفكر، وانطلقت عصارات الأدمغة المفكرة لتفعل وتبني صروح البشرية على أساس علمي صحيح رائده الخلق والتقدم والإبداع، ولتنير الطريق الصحيح أمام الأجيال الصاعدة التوّاقة إلى الارتشاف من منهل العلم والمعرفة، وأصبح للفكر رسالة مقدسة هدفها التوضيح والتوعية والأمانة بعيداً عن الارتزاق والهواية والتحريف. فإنسان هذا القرن (التكنولوجي) أصبح ينظر إلى العلم بمنظار الواقع والحقيقة والصدق في تتبع الأحداث التاريخية والوقائع العلمية... دعاني لإطلاق هذه الصرخة الداوية ما لمسته مؤخراً أن بعض الأيدي قد عبثت ولا تزال تعبث في تراثنا الفكري، وخاصة ما يتعلق منه بآثار الفرق الباطنية السرّية. نعم لقد امتدت الأيدي (غير الأمينة) فتلاعبت بما عثرت من نصوص مخطوطة فغيّرت وبدلت فيها بدون رادع من ضمير أو وازع مناقبي.

في مطلع عام ١٩٥٨ ميلادية طلب إليّ المستشرق الإلماني الكبير البروفسور (شتروتمان) أن أعيره نسخة خطية من الكتاب الهفت الشريف الذي كان في ذلك الوقت يعمل على نشره وتحقيقه في (هامبورغ).... فقد لبيت طلبه وأرسلت له النسخة المطلوبة...

وراحت الأيام تدور، وإذا بي أفاجأ بكتاب معروض في الأسواق أصدرته

---

(١) تاريخ الدعوة الإسماعيلية ص١٩ ـ ٢٠.

المطبعة الكاثوليكية في بيروت سنة ١٩٦٠م على حساب دائرة (البحوث والدراسات بإدارة معهد الآداب الشرقية) عنوانه (الهفت والأظلة) المنسوب إلى المفضل بن عمر الجعفي، وقد قام بتحقيقه والتقديم له عارف ثامر والأب أ. عبده خليفة اليسوعي.

الله. الله. كيف تبدل عنوان الكتاب بهذه السرعة الصاروخية من الهفت الشريف إلى الهفت والأظلة؟ فقلت لنفسي: ربما كان هذا كتاباً آخر. أم أن هنالك بعض النسخ المخطوطة تحمل هذا العنوان. فرحت أبحث وأنقب خلال ثلاث سنوات حتى تمكنت من الاطلاع على أكثر من ثلاثين مخطوطة، وقد جاءت كلها بعنوان واحد هو (الهفت الشريف)... فأخذت أراجع النسخ المطبوعة وأطابقها على نصوص النسخ الخطية فوجدت مع الأسف الشديد بأن التلاعب والتزوير قد وقع بالفعل، ولما كنت أحرص على أن يكون المؤرخ أو العالم أو المحقق متّصفاً على الأقل بالإمانة العلمية والدقة والإخلاص والتجرّد والنزاهة، فقد عمدت إلى تحقيق الكتاب مشيراً إلى الزيادات والتحريفات بقدر الإمكان..

ثم يخاطب الأستاذ غالب الأستاذ ثامر:

نحن لا ننكر الخدمات التي قدمتها للمكتبة الإسماعيلية حيث قمت بنشر وتحقيق بعض المؤلفات بالرغم من أنها جاءت مشوّهة مقلوبة رأساً على عقب، وبصراحة أقول: إننا نفضل ألف ألف مرة أن تبقى تلك الآثار في طي الكتمان والإهمال على أن تتناولها الأيدي مبتورة. تلاعب التحقيق بنصوصها وحتى بعناوينها...)[١].

وأعود وأعتذر لهذا النص الطويل، ولكنه من ضرورات اكتمال السياق وعرض الصورة بأبعادها، ونحن أخذنا من الأستاذ غالب ما اكتشفه في عمل الأستاذ تامر من تلاعب بالنصوص، وهي ثورة حقيق بها أمر ذو بال وأهمية. والذي يبدو أن المحتوى والمضمون في الآثار الإسماعيلية لا يحتل أهمية بقدر ما يحتل النص والمنقول. وكان مما يناسب عصر العلم والتكنولوجيا أن يتجه نقد الأستاذ غالب إلى النص ذاته وإلى حقيقة هذه الخرافات والافتراءات، وليس الأمر مجرد آثار محفوظة وسرّية مما يضنّ به على الآخرين، ولا يطلع عليه إلا المنتسبون إلى الجماعات السرّية الباطنية. ومن

---

(١) مقدمة كتاب: الهفت الشريف من فضائل مولانا جعفر الصادق عليه السلام رواه المفضل بن عمر الجعفي.

المؤسف أن يكون الفصل في تقرير أهمية النص أو صحته بأيدي المستشرقين، فيلجأ إليهم في تحديد واقعية النصوص وربما العقائد.

والغريب أن يكون لهذا الهفت الساقط نسخ عديدة وكثيرة. ومهما كانت المكانة التي يحتلها الكتاب، فإن وجود مثل هذه النصوص أمر غير محسوم من جهة الإسماعيلية والفرق الباطنية الأخرى بدلالة ما وقع بين الأستاذين بهذا الخصوص ونحن استشهدنا بأقوال الأستاذ غالب في مؤاخذته على الأستاذ ثامر لإظهار ما عليه الأخير من عدم التثبّت وعدم الدقة، أما الناحية الأخرى وهي المهمة فإن لهذه النصوص وجوداً وأثراً في الحياة الدينية للفرق الباطنية لأنها تتفق مع نمط العقائد وطريقة العلاقات والمراسيم، ولذلك من الصعب أن يحكم الإنسان على إغفالها من قبل الإسماعيلية أخذاً بأقوال الأساتذة من الإسماعيلية، وإنه لممّا يحزّ في النفس حقيقة أن تبقى عناوين الأغلفة بعباراتها، وتظل أسماء هذه الكتب بألفاظها[1].

فالشيعي عندما يقول: مولانا الإمام الصادق. يدرك ماذا وراء هذه العبارة، ويعبّر عن معتقده بهذا القول، لأن الإمام الصادق عليه السلام هو سادس الأئمة الأطهار وهبه الله المعرفة والحكمة، ومنحه الإمامة والولاية، واجتاز بالعقيدة الإسلامية ذلك المعترك القاتل والمحنة القاسية، فحفظ الله على يديه تراث آل محمد، وأنقذ الله به شيعة آل محمد في نفس الوقت الذي حفظ به الإسلام وحصّنه.

إن النزعات الباطنية والميول الخفية في المعتقدات التي التقت بالإسماعيلية اعتمدت بعض الوجوه التي عليها في السير بعض الغموض، وهنا كان الاختيار، وقد وقع على المفضل الجعفي، وقد تأثروا بالاختلاط الذي وقع في الأقوال عنه، وبما حصل من تدافع، غير أن الأغلب والأرجح هو تعديل المفضل والركون إليه عندنا، وكلما قيل عنه من تحول واختلاط في النظرة إليه والقول فيه من قبل المصنّفين قد هذّبه وعدّله رواية علمائنا عنه كالشيخ الصدوق والشيخ المفيد. وغلبه مدح الأئمة، مما يكشف لنا أن قادة الاتجاه الباطني يختارون ما يمكن النفاذ منه بالبناء على الخلط والجرح، وما علموا أن الحقائق والعقائد السليمة يموت حولها ما يعلق من شوائب، هذا إذا كان الاختلاط في النظرة إلى المفضل مقصوراً على الكتب القليلة التي خاضت

(١) الكتاب بعنوانين، أحدهما خارجي: كتاب الهفت الشريف من فضائل مولانا جعفر الصادق عليه السلام رواه المفضل بن عمر الجعفي، وداخلي: كتاب الهفت الشريف رواه المفضل الجعفي.

فيه. أما القول الحق فهو ما أخذ من حقائق سيرته ومن وقائع حياته، وينحسر ما علق بصورة المفضل من غموض إذا تجنّبنا ملابسات انشقاق الإسماعيلية عن مسار الإمامة، كما لا يخفى دور الزنادقة في الإساءة إلى المفضل لتصدّيه لهم، وردّه عليهم. فإن بعض الروايات التي لا يركن إليها تصوّر المفضل بأنه وراء انحراف إسماعيل بن الإمام الصادق عن أبيه، وأنه كان منقطعاً إليه، يقول فيه مع الخطّابية ثم رجع بعده. أما الزنادقة فإن من آثار الإمام الصادق العلمية وأجوبته الخالدة هو كتاب (التوحيد) في أجوبة الإمام للمفضل بن عمر حينما سمع كلام ابن أبي العوجاء وإنكاره الصانع، فناظره المفضل، ثم بادر إلى الصادق عليه السلام وطلب منه أن يملي عليه ما يقوى به على مناظرة الزنادقة، فأجابه بدلائل التوحيد ومحكم البراهين على وجود الصانع الحكيم[1]. فاختار الكذّابون الذين وصفوا (هفتهم) ذات الطريقة في الإملاء بمجالس، وحسبوا أنهم سيسلمون من الفضيحة أو ينجون من العقاب. ولا ننسى أن نذكر أن طبيعة الدعوة الباطنية وغموضها يساعد على هذا الافتراء، وذلك للانقياد الأعمى والاستسلام التام، وإذا ما خرج بعضها إلى نور الحقيقة انهارت وتبدّدت.

خاتمة الكتاب

وبذلك نصل إلى ختام البحث الذي استغرق عشرات السنين، رافقت فيها الإمام الصادق، وتشرّفت بالكتابة عن شخصيته، إلى جانب البحث عن شخصيات أئمة المذاهب الإسلامية.

وقد كان نهج البحث يقوم على الحقائق والنظرة إلى واقع الأمور بتجرّد وإنصاف، وعرضنا لغرض المقارنة لشخصيات أئمة المذاهب، بحيث تجري على بساط البحث وبنتيجة التنقيب.

وكان بوذي أن ألحق بالجزء الثامن بقية ما يتعلق بالمسائل الفقهية في الصوم والحج والطلاق والفرائض وغيرها، غير أن اتساع الجزء الثامن بمواضيعه حال دون ذلك. عسى الله أن يجعل له مناسبة أخرى.

وأرى في ختام الكتاب وانتهاء سلسلة البحث عن الإمام الصادق ونشأة المذاهب

---

(١) انظر بعض هذه المجالس التي أملى فيها الإمام الصادق أجوبته في المجلد الثاني/ الجزء الرابع من الإمام الصادق والمذاهب الأربعة.

أن أعيد التنويه بالحقائق التي لا تحتاج إلى كبير عناء في إثباتها، وفي مقدمتها دور الملوك وأصحاب السلطان في تعدّد المذاهب وزرع الفرقة والخصومة بين أبناء الأمة الواحدة. وقد ابتدأت الفكرة منذ الفترة الأولى للانحراف عن مبادىء العدل الإسلامي والانغمار في مظاهر الملوكية والتسلّط، فكان على يد معاوية الترويج لشرعية العسف والظلم، حيث أوجد له مؤسسات ضمّ إليها الكثير ممن تزيّا بزي العلم والدين، وراحت هذه المؤسسات تلبّي رغبات معاوية والحكام في إضفاء طابع الشرعية والصبغة الإسلامية على واقع حكمهم وحقيقة سلطانهم القائم على القبلية والعصبية الجاهلية.

وبعد سقوط حكم الأمويين وقيام حكم الملوك من بني العباس في ظل وأفياء الدعوة إلى الرضا من آل محمد، أرسى الملوك العباسيون تلك الفكرة على أسس طبّقوها ونفّذوها في فترة أصبح فيها التشيّع خطراً يتهدّد الكيان العباسي.

فقد نبغت شخصية الإمام الصادق، وشاع ذكره في الآفاق، وأصبح سيد علماء الأمة وقائد حركة العلم والفقه، فبات أمره شغل النظام الشاغل وهمّه الدائم، ولمّا فشلت محاولات القضاء على حياة الإمام الصادق، وكانت آيات نجاته وحفظه من أيدي المنصور؛ التمس الدوانيقي طريقاً آخر، فسنّ للعباسيين سنّة إدناء شخصية معينة ممن يتوسّم فيها الفقه، لتكون في الموضع الذي يكتسب من الحكم نفوذه وقوته، وتستعمل السياسة في أغراض التمذهب، وإخضاع العلم الديني لأغراض الدولة بحيث ترتأي الأحكام التي تأمن جانبها.

فيما كان الشيعة يمثّلون الاتجاه المناوىء، ويقفون بوجه هذه الأغراض، لأنها تستهدف النيل من مكانة الإمام الصادق، وتحاول بيأس التأثير على موقعه الروحي وشهرته العلمية، وكان الانصراف إلى الدين والعلم والدعوة إلى التمسّك بأحكام الإسلام والتقيّد بأوامره، واجتناب نواهيه الصفة الأساسية للصرح العلمي الذي سرت آثاره، وانتشرت أفكاره في المجتمع الإسلامي، والذي تمثّل بمدرسة الإمام الصادق التي انتسب إليها أربعة آلاف طالب، قاموا بدورهم في رواية الحديث وبيان الأحكام وتبصير الناس وحفظ تراث الإسلام، فكان عليه السلام: مشغولاً بالعبادة عن حب الرياسة[1]. وآثر العزلة والخشوع[2] والانصراف لمهمّاته الدينية.

---

(١) صفة الصفوة ج٢ ص٩٤.

(٢) حلية الأولياء ج٣ ص١٩٢.

ومن الحقائق أيضاً، أن الشيعة في عقائدهم من حيث النشوء كانوا مع مراحل الرسالة وتطورات الإسلام، فلا يخضعون لمقاييس التمذهب هذه، وما كان من تسميته (المذهب الجعفري) فهو بحكم اصطلاحات فترة التمذهب التي تبنّاها الحكام، وبروز شخصية الإمام الصادق في ذلك العصر وتصدّيه بمؤسسات مدرسته ورجال دعوته إلى تيارات الخلاف والاختلاف، فنتج أن الإمام الصادق رأى أن يبرز معالم أحكامه وفقهه وطريقة مدرسته ومنهجها التي هي امتداد لأحكام أهل البيت الكرام وآبائه المعصومين، وفي فترة اتضحت فيها المقاصد، فراح عليه السلام يختار من أصحابه ومريديه الرجال، فيحمّلهم المهام الدينية والفكرية والاجتماعية ليظهروا ـ في خضم تلك الفترة التي تعدّدت فيها الموجات واتسعت ـ أحكام آل محمد، ويطبقوا طريقة الإمام الصادق في الدعوة الدينية، وحماية مبادىء العقيدة وروح الإسلام مما يحيط بها من مخاطر وويلات، فكان مصداق ما سعى إليه عليه السلام أن يقال عنهم: «رحم الله جعفر بن محمد ما أحسن ما أدّب به أصحابه».

وقد كان تفرّد الإمام الصادق بصفات خاصة من الحقائق التي عجزت السلطة عن إخفائها أو طمسها، وظلت منزلته الدينية والعلمية لا ينال منها العداء أو النصب، فتراه عليه السلام سيد الفقهاء وأستاذهم الذي يُفتخر بالأخذ عنه، ويُتشرف برواية حديثه.

وقد استظهرنا من تتبع ظروف نشأة مدرسة الإمام الصادق وأحوال نشاطها تلك المهمات الجسام التي كان على الإمام الصادق أن يتولاها، وتلك العوائق التي واجهها الإمام الصادق، فقد كان الخطر من السلطة الحاكمة بطابعه السياسي، والخطر من الحركات التي قامت واشتدت بطابعها الديني والفكري.

ويدلنا البحث على متانة الصرح الفكري الذي شيّده الإمام الصادق، بحيث تمكّن من أداء المهمات، واستطاع مواجهة تلك الأخطار، وأرسى حركة الفقه والعلم على قواعد ثابتة وأصول دائمة. ولذلك فإن الحاجة تزداد ظهوراً في عصرنا إلى إحياء منهج مدرسة الإمام الصادق ونشر أفكاره، لأن التكوين العقائدي لمدرسة الإمام الصادق والذي اشتمل على حاصل ما قرره النبي محمد والأئمة الأطهار من أهل بيته الكرام تكوين ثابت ومستقر، له القابلية ـ بمقتضى ما انطوى عليه من أحكام وما ضمّه من تراث ـ على ضمان بقاء الأمة وتحقيق أمنها ومواجهة أعدائها.

ونرى اليوم ما يعاني منه الفكر الشيعي واشتداد الهجمة المعادية من قبل الحكام

والمتسلّطين، فقد احتفظت الأيام ومرّ التاريخ على أطراف المواجهة بين دعاة العدل الإسلامي وبين الملوك والحكام الذين يتّخذون من الدين ستاراً لمصالحهم، ويذيقون شعوبهم الويلات.

وخلاصة القول فإن مدار البحث هو أن السلطان الروحي والقيادة الدينية اللتين اختصّ بهما الأئمة الأطهار هما من صور الإمامة التي حفظت بها منزلة النبوة، وضمن بها بقاء الدعوة، ومن هنا كان سرّ تميّز سيرة الأئمة الأطهار وسبب نفوذهم الذي عجزت قوة الباغين والطغاة عن القضاء عليه.

لقد أثبت الشيعة وجوب عصمة الأنبياء قبل اصطفائهم وبعد اصطفائهم لأنهم الأمناء والقادة، وقد كلف الله الخلق باتباعهم، فلا يجوز على المصطفين الإثم، لأن النبوة دعوة وتبشير بأمر إلٰهي، والدعوة تتأثر بشخصية الداعي، فإذا جرب على نبي إثم أو عرف عنه ذنب، فإن مجرى الدعوة يتأثر بهما، ودرجة إقبال الخلق أيضاً.

قال الله تعالى مخاطباً إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فعلى الناس اتباعه والاقتداء به، وهم مكلفون بذلك. فذهب الشيعة إلى تنزيه الأنبياء عن المعاصي لأن ارتكابها ينفّر الناس. بخلاف غيرهم من المذاهب في تجويز المعصية قبل النبوة.

وقد كان من سير الأئمة عليهم السلام وأحوالهم وأوضاعهم وخلقهم شواهد كبرى على تسديد الله وعصمتهم، مما يؤثر في سير الدعوة ووقع الأحكام في النفوس، ولذلك لا تجد في فقه الشيعة قضية تدور عليها الآراء والاجتهادات في أن ولي الأمر إذا أخطأ، فمن الذي يقيم عليه الحكم. كما هو في المذاهب الأخرى.

فولي الأمر الشرعي عند الشيعة هو في منزلة ومرتبة دينية لها من النبوة الوصاية على أمر الشريعة وحماية الدين ومصالح الأمة، وليس في فكر الشيعة أو فقهم ما يبعد عن هذه الخصائص التي تدور في فلك النبوة، فكيف يجرؤ فاسق أو فاجر على أن يتولى من أمرهم شيئاً؟ فيما جوّزت المذاهب الأخرى إمامة المتسلّط ومن اتصف بذلك من غلبة أو غيرها، وكذلك الحال مع الفاجر، حتى نسب إلى النبي صلى الله عليه وآله الأمر بالصلاة خلف البرّ والفاجر، وقد تناسى من وضع الحديث وغفل من تعاطاه أن نبي الرحمة حمل رسالة العدل وبشّر بمرحلة جديدة من الإنسانية تصان فيها الدماء والأموال بأعظم صيغ التشديد على حرمة حياة الإنسان وبأوضح عبارات تأكيد حريته،

لكن فهم الإمامة بمنطق الحاكمين والمتسلّطين كان من بواعث الوضع ومن دواعي التسليم بصحته تحت ذريعة (الجماعة) وحفظ الأمة بعيدة عن (الفتنة) وما الفتنة إلا مهادنة البغاة والجائرين على انتحالهم صفة الدين، ومجاراتهم على انتهاك حرمة دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم، وكان هذا المنطق وراء إظهار النظم المنحرفة بمظاهر إسلامية لا تمتّ إلى روح الإسلام بصلة.

وقد مرّ من خلال البحث جوانب مختلفة من سير ومواقف الإئمة الأطهار من أهل البيت عليهم السلام وكيف عالجوا العلاقة بالحكّام، وكانت صفحات حياة الإمام الصادق عليه السلام منهج هداية ورشاد يحضّ الأمة على التمسّك بجوهر الإسلام وتعاليم القرآن، ويعمل على دفع الأذى عن المؤمنين، ومعالجة سياسة الحكام، وكيف كان الاتجاه نحو دولة العدل التي ينشؤها مهدي الأمة الذي جاءت به بشارة النبي محمد صلى الله عليه وآله.

وختاماً، ونحن في نهاية المطاف أقول: إن منهج البحث في هذه السلسلة قد استهدف كشف الحقائق وبيان الوقائع، ومن خلال المقارنة ندع النتائج طليقة، ولا نحصرها في فصل من البحث، سيّما ونحن نعترف أن الجهد يقصر عن الإحاطة التامة بشخصية كالإمام الصادق، ونأمل أن نلتقي بالقرّاء قريباً في بحث مخصوص عن حياة الإمام الصادق.

ولله الشكر على توفيقه وعونه على إنجاز هذا البحث، وله الحمد أولاً وآخراً.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله الكرام الطيبين، وعلى من اتبعه ووالاه.

فهرس